الفُتُوحَاتُ الإِلهِيَّةُ

فِي حَلِّ أَلفَاظِ الأَسرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ

تأليفُ

السَّيِّدِ بنِ إسماعيل بن عُبيد الباجُوري الشَّافِعي

إصدارة رقم «٩٣»

مجمُوعة نقشجم العلميَّة

الفتوحات الإلهية

في حل ألفاظ الأسرار الربانية

تأليف

السيد بن إسماعيل بن عبيد الباجوري الشافعي

رمضان ١٤٤٧هـ - مارس ٢٠٢٦م

يمكنكم مراسلتنا، عبر البريد الإلكتروني: ngshjm@yahoo.com
أو عبر صفحة مجموعة نقشجم العلمية، على الفيسبوك: facebook.com/ngshjm

تقديم

الحمدُ للَّه الذي جعل المحبة بابًا إليه، وجعل سيدنا محمد دالًّا عليه، وفطر القلوب والأراوح على عشق محبوب ربه الأمين، وصلَّى اللَّه وسلَّم على من كان نورًا يتقلّب في الساجدين، وعلى آله وصحبه الطيبيين الطاهرين.

وبعدُ، فهذا كتابُ "الفتوحات الإلهيَّة في حَلِّ ألفاظ الأسرار الربَّانيَّة"، شرَحَ فيه مُؤلِّفه الشيخ السيد بن إسماعيل بن عُبَيْد الباجوري الشافعي المصري كتابَ شيخ شيخه الإمام السَّيِّد مُحمَّد عثمان الميرغني الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "الأسرار الربانية في مولد خير البرية" وهو من الكتب المهتمة بالسيرة النبوية والشمائل الشريفة حيث يُتْلى في مجالس الموالد، ويُمدّ القارئ بقطوف دانية من ثمار المحبة والتعلُّق بالجناب المحمدي الكريم، وقد شرحَهُ الشيخ السيد وجعه من كُتب السيرة والتاريخ واللغة. وزيَّلهُ بخاتمةٍ في معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخصائصه وخلفائه وأزواجه وسراريه وسلاحه وحيواناته. وأيضًا فضائل آله بيته وظهور المَهدِيّ.

ولمولد "الأسرار الربَّانيَّة" شُرُوحات أُخرى مثل: شرح السيد محمد سر الختم ابن الإمام الختم -جمَعَ اللَّهُ به-. وشرح الخليفة عبد المحمود الصادق "التحفة المدنيَّة". وشرح الشيخ عبده أحمد بطشاه "الفتوحات الرحمانيَّة الإلهية". وشرح الشيخ أبو محمد سليم بن منصور "الجواهر الفرديَّة. وشرح الشيخ محمد عبد السلام "خلاصة الأنوار البهيَّة". وحدائق

الأنوار في عزو مولد الأسرار للخليفة عبد العزيز محمد الحسن -رَحِمَهُم اللَّهُ جميعًا-.

وبفضل الله وعونه قامت مجموعة "نقشجم العلميَّة" بتفريغ مخطوطة رقميَّة مُصوَّرة من مكتبة مولانا السَّيِّد علِيّ الميرغَنِيّ مَدَّنا بها الخليفة محمد القاسم بن الخليفة عبد العزيز محمد الحسن والأخ المهندس وليد قاسم، تقع في ٩٠٨ ورقة، بخط نسخي عادي، بعدد متوسط ١٩ سطر للصفحة، تاريخ نسخه في ٧ شوال ١٢٨٨هـ.

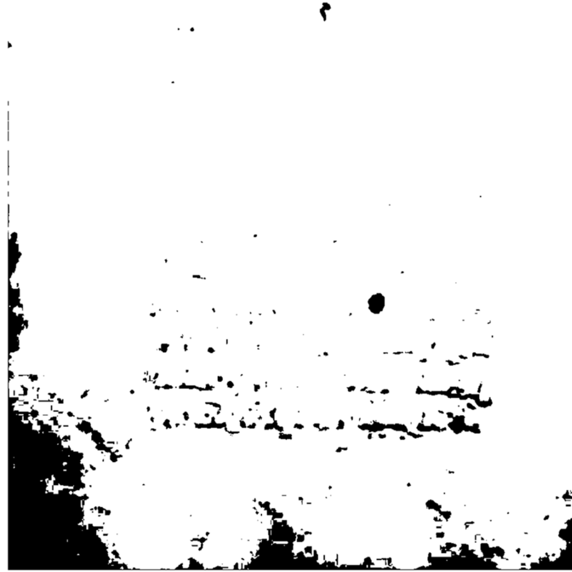
وقمنا بكتابة الآيات القرآنية ووضعها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ على الرسم الإملائي من المصحف الشريف، وتنسيق الكتاب وعمل فقرات له، وعمل ترجمة للسَّيِّد المُصنِّف والشارح، وترصيع الكتاب بعلامات الترقيم، وإفراد متن المَوْلد لوحده، وتمييز المتن داخل الشرح بين قوسَيْن وتحبيره بلون وخط مختلفَيْن، وعمل فهرسة مناسبة لمواضيع الكتاب.

ونسأل الله الكريم أن ينفع به كما نفع بأصله ويتقبّله خالصًا لوجهه الكريم، ويكون سببًا في التعلُّق بجناب سيدنا المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يجزي الله مُصنِّفهُ وشارحهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عنَّا خير الجزاء، وصلَّى الله على سيدنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

مجموعة نقشجم العلمية – المدينة المُنوَّرة

الأحد، ٢٦ رمضان ١٤٤٧هـ - ١٥ مارس ٢٠٢٦م

هذا
كتاب الفتوحات الالهية
في حل الفاظ الاسرار الربانيه (مولد)
الامام السيد محمد عثمان الختم الميرغني
تاليف العلامة السيد
الباجوري تغمده
الله برحمته
م



بسم الله الرحمن الرحيم
نحمد الله رب العالمين الثابت له الوجود
قبل خلقه في الازليه ولا سماء ولا ارض ولا
ملايكة ولا انس ولا جان القديم بلا ابتدا
ولا يتصف بقاؤه بالآخريه المخالف للحوادث
ولا يحويه مكان ولا يمر عليه زمان القايم
بنفسه من غير افتقار لمحليه ولا مخصص
له بل هو الموصوف بالوحدانيه القادر على
ايجاد الممكن واعدامه بتخصيص ارادته
السنيه والعالم به وبالواجب والمستحيل
ذي النكران الحي السميع البصير المتكلم

٢٣٣

ثلاثا ويستغفر ثلاثا ثم يقول انا توجهنا
اي استشفعنا واقبلنا بذاتنا وقاصدين
ربنا (بك) لانك الوسيلة العظمى (الى ربنا)
قال الطيبي الباء في بك للاستعانة وقوله
رضي الله عنه انا توجهنا بك بعد قوله
ونتوجه اليك فيه معنى قوله تعالى من ذا
الذي يشفع عنده الا باذنه (في حوايجنا) اي
حال كوننا (جميعا) اي كلنا وهو في الاصل
فعيل بمعنى الجمع وكانه اسم جمع فلذلك
يتبع تارة بالمفرد كما قال تعالى نحن جميع
منتصر وتارة بالجمع كما قال تعالى جميع لدينا
محضرون وينتصب حالا ويوكد به بمعنى
كل ويدل على الشمول كدلالة كل ولا دلالة
له على الاجتماع في الزمان تقول جا القوم
جميعهم لا يلزم ان يكون مجيئهم في زمن
واحد كذا في الفتوحات الالهية وفي نسخة
جميعها اي الحوايج المعلومة من حوايجنا
(لتقضى) بضم المثناة الفوقية مبنيا للمجهول
اي ليقضيها ربنا لنا (اللهم فشفعه) اي

الغلاف و الورقة الأولى و الأخيرة من نسخة مكتبة مولانا السيد علي الميرغني

ترجمة مُؤلِّف "الأسرار الربانية"

هو العالم العلاَّمة والبحر الفهَّامة، الشَّرِيف العَفِيف والشهم المنيف، وبحر العلوم ومعدن الفهوم، وختم العارفين ومحيط الغارفين، العارف بالله تعالى والدالّ عليه، السَّيِّد مُحَمَّد عُثْمَان المِيرْغَني الختم بن السَّيِّد مُحَمَّد أبي بكر بن السَّيِّد عبد الله الملقَّب بالمحجوب بن السَّيِّد إبراهيم بن السَّيِّد حسن بن السَّيِّد محمد أمين بن السَّيِّد علي ميرغنيّ. وينتهي نسبه إلى الإمام الحُسَين بن الإمام عَلِيّ بن أبي طالبٍ، والسَّيِّدة فاطمة الزهراء، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ جميعًا.

وُلِدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قريةِ السَّلامَةِ بالطَّائف سنة ١٢٠٨هـ، توفيت والدته من سابع ولادته، فربّاه والدُه إلى أن جاوز عشر سنين ثم توفي والده، فتولاَّه عمه السَّيِّد مُحَمَّد ياسين، وكان من علماء بلد الله الحرام آنذاك.

وانتقل به إلى مكة المكرمة، فحفظ القرآن الكريم في حداثته، ثم انتقل إلى مجالس العلم والدرس والمعرفة فحصل من ذلك القسط الوفير، وأخذ جل علوم الظاهر من عمه وله غيره مشائخ كثيرون ببلد الله الحرام، فاتقن علوم الظاهر من التوحيد والفقه والحديث والتفسير والمنطق والنحو والصرف والبيان وغير ذلك، فتمكّن من هذه العلوم وهو في الثالثة عشر من عمره. وبعد ذلك تصدّر للإفتاء والإقراء والتدريس بالمسجد الحرام بمكة المكرمة وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة.

ثم تعلّق بطريق الصُّوفية وسلكه على عدد من أجلاء المشايخ منهم الشيخ أحمد بن محمد بناه المكي، والشيخ سعيد العامودي المكي، والشيخ أحمد بن عبد الكريم الأزبكي، والشيخ أحمد عبد الكريم الهندي، إلى أن جمعه الله سبحانه بالسَّيِّد أحمد بن إدريس، فلازمه وانتفع به، وترقَّى على يديه وصار من أخصّ تلامذته. ثم أسّس دعائم طريقته الختمية من خمس طرق هي: النقشبندية،

والقادرية، والشاذلية، والجنيدية، والميرغنية وهي طريقة جده السيد عبد الله الميرغني المحجوب.

ثم طاف أنحاء واسعة من الأرض داعيًا إلى الله تعالى، لاعتناق الإسلام وسلوك طريق ومنهج الإحسان، فأسلم على يديه الكثير من الخلق. واتبعه خلق كثير في مقدمتهم العلماء، والفقهاء والصالحين والأعيان. كما نشر الإسلام في كثير من المناطق الوثنية.

ارتحل من مكة المكرمة ومنها إلى اليمن، ثم بحرًا إلى الصومال، ومنها إلى مصوع، والحبشة، وكانت حوالي ١٢٢٨ه‍، ثم عاد إلى مكة. ثم ارتحل إلى صعيد مصر بصحبة شيخه السَّيِّد أحمد بن إدريس، ثم اتجه جنوبًا إلى السودان، عبر بلاد النوبة ثم الدَّبّة، إلى عمق كردفان إلى بارا والأبيض في ١٢٣١ه‍. ثم قصد سِنَّار، ثم اتجه شمالاً إلى شندي ثم المتمة ثم الدامر سنة ١٢٣٥ه‍، ثم اتجه شرقًا إلى كسلا، ثم رجع إلى مكَّة. ثم عاد مرة أخرى عن طريق أريتريا، واستقر بكسلا ومكث بها فترة، ثم رجع إلى البلد الحرام، ليعود للمرة الأخيرة للسودان واستقر فيها بسواكن، ثم رجع إلى بلده بلد الله الحرام.

ومن جُملة تلاميذه وخلفائه: بمكة المكرمة: الشيخ أحمد القطان، والشيخ عمر فدعك. وبالمدينة المنورة: السيد أسعد، والسيد أحمد بن السيد وكان وزيرًا لدي السلطان العثماني. وبمصر: الشيخ أحمد أبو حريبة، وشيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجوري، وشيخ الإسلام الشيخ حسن القويسني، والخليفة خليفة ولد الحاج والخليفة أحمد ولد سعد. وبالحبشة: الخليفة محمد ولد طه، والشيخ بشري في بلاد الرحمنو، والخليفة محمد ولد ريحان، والخليفة النائب. وبشرق السودان: الحبيب يعقوب الحلنقي، والخليفة محمد الصافي، والخليفة محمد الصفوة، والخليفة محمد كيلاني، والخليفة مدني قرجن، والخليفة التاي، والخليفة الصادق. وبوسط السودان: الخليفة الحاج ود البشير الترابي، والشيخ

أحمد ود عيسى، والخليفة أحمد الشمباتي، والخليفة أحمد ود العَمَّاس. وبنهر النيل: الشيخ أحمد الريح السنهوري، والشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين، والخليفة محمد النصيح، والشيخ حمد الصادق المجذوب، والخليفة الجزولي بن عبد الوهاب، والخليفة على ود الجزولي، والخليفة أحمد ود الطريفي. وبالشمالية: الخليفة محمد بن مالك، والخليفة النقيب، والخليفة محمد خير بن محمد صالح العراقي، والخليفة إدريس المحسي. وبكردفان: الشيخ إسماعيل الولي، الخليفة صالح سوار الدهب، والخليفة القاضي عربي الهواري، والخليفة حماد البيتي.

من مُؤلفاته: له العديد من التصانيف والمؤلفات في شتى العلوم والمعارف: ففي التفسير: تاج التفاسير لكلام الملك الكبير. وفي الحديث: الأربعون حديثا، وختام الأمالي في الأحاديث المعالي. وفي الفقه: رحمة الأحد في إقتفاء أثر الرسول الصمد. وفي اللغة: غنية الصوفية في علم العربية، والفوائد البهية في حل الآجرومية، وشرح ألفية ابن مالك، وشرح ألفية السيوطي في علم البيان. وفي التصوف: الخزانة القدسية في الحقائق اللدنية. وفي رسائل السلوك والإرشاد: التحذير من الدنيا الغرارة، والحضور في الصلاة للسعداء من أهل حضرة الله، والزهور الفائقة في حقوق الطريقة الصادقة، والسر الإلهي الحائط في حرمة أهل الوسائط، وقصيدة السر الظاهر والنور الباهر في بعض أحوال الأكابر، والفتح المبروك في كثير من آداب السلوك، والهبات المقتبسة والعطايا الدقيقة في أسرار الطريقة، والوصية الحاوية للدرر المهداة للسالكين في بعض تهاذيب الواصلين، وتنبيه المحسنين في مراقبة صلاة المريدين، ولوامع الأنوار البهية في كيفية خلوة الطريقه الختمية، ومنوال الطريقة الطاهرة النورانية. وفي الأدعية والأذكار والأوراد: أساس الطريقة الختمية وشرحه النفحات المكية، وراتبه الأنوار المتراكمة من الحضرة الوهبية، وشرحيْه فيوض البحور المتلاطمة والأسرار

المترادفة من الدواوين الإلهية، والأنوار المنبهلة في الأوراد المستعملة، وتوسله حبل الوصال إلى حضرة ذي الجلال، وتوسل إكسير قضاء الحاجات، وشرحه المعاني اللطيفات، وتوسل النور الأعظم نظم أسماء النبي المكرم، واستغفار جليل، نفثة الحي القيوم البر لمناجاة السحر، وأدعية وأحزاب وأذكار أخرى. وفي السيرة: مولده الأسرار الربانية في مولد خير البرية، ومصباح الأسرار شرح مشكاة الأنوار لجده المحجوب. وفي الحكم: الفيوضات الإلهية المتضمنة للأسرار الحكمية، وشرحها الإمدادات السنية. وفي الصلوات النبوية: فتح الرسول ومفتاح بابه للدخول لمن أراد إليه الوصول، والجواهر المستظهرة من الكنوز العلية، والشهود المحمدي، باب الفيض والمدد من حضرة الرسول السند، وجواهر السطح في الصلاة بسورة الفتح، وفاتح الوجودات، ونور الإله في الصلاة بتعريف المصطفى نفسه ومولاه، ونور الأنوار في الصلاة على النبي المختار، والمشارب اللدنية على الصلاة الميرغنية. وفي العقيدة: منجية العبيد من هول يوم الوعد والوعيد. وفي مصلح الحديث: منح المغيث المغني في حل البيقوني. وفي دواوين المديح النبوي: الغرائب المفرقات من لطائف الخرافات الذاهبات، والكوثر المحمود في كثير من أوصاف المحمود، والنفحات المدنية في المدائح المصطفوية، والنور البراق في مدح النبي المصداق، والياقوت السمح في القصائد التي قبل الفتح، وشم الوردة في تخميس البردة، ومجالي تجلي الفرقان في أرواح وأسرار علوم القرآن، المباسطات البهية، وديوان معشر على حروف المعجم. وفي الوعظ: الوعظ الثمين في تعمير أعصار رمضان الثلاثين.

انتقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى جوار مولاه الكريم في شوال سنة ١٢٦٨ه، حيث دفن بحوطة السادة المراغنة بمقبرة المعلا.

ترجمة شارح "الأسرار الربانية"(١)

هو الشيخ السيد بن إسماعيل بن عُبيد الباجوري الشافعي المصري. كان عاملًا أزهريًّا فاضلاً. قرأ في الجامع الأزهر الشريف دورسًا وانتفع الطلبة به. وقد توفّي سنة ١٣٠٦هـ. وهو من أخصّ تلاميذ الشيخ أحمد بن سليمان أبو حريبة(٢) -خليفة الإمام الختم- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخذ عنه الطريقة الختمية بجامع أم السلطان بالدرب الأحمر.

له من المصنّفات: "زُبدة الكلام فيما يجب على المُكلّفين من الأنام"، وهو كتابٌ في العقائد والتوحيد، أوله: الحمد لله المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله...، وآخره: ويعلّمونهم أيضًا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلد بمكة وتربّى يتيمًا بها، وهاجر إلى المدينة الشريفة وختم بها عمره....، توجد منها نسخة بمكتبة الأزهر الشريف.

---

(١) قد ندرت ترجمة الشيخ في كتب التراجم والتاريخ.

(٢) هو الشيخ أحمد بن سليمان الشهير بأبي حريبة الشنتاوي الشافعي الختمي النقشبندي، خليفة الختمية بمصر، ولد سنة ١٢٠٨هـ بشنتنا الحجر بالمنوفية، وكان يتسكب من صناعة النسيج، تتلمذ وأجازه السيد الختم بالأذكار والأوراد وتسليك المريدين، كان متواضعًا يحب العزلة. توفي ١٢٦٨هـ ضريحه بمسجده "جامع قجماس". له من التصانيف: فتح الرحمن في معاني القرآن، منظومة على مذهب الإمام الشافعي، منظومة أسماء الله الحسنى، رسالة في الاسم الأعظم، منظومة دالية في الشكوى، تخميس على قصيدة جيمية، منظومة في التوسل، سلسلة الإبريز المجلية في سلوك طريقة السادة النقشبندية، الترياق الأكبر والكبريت الأحمر في الصلاة على من أنزلت عليه سورة الكوثر، المناجاة السنية من الفيوضات الختمية، منظومة مخمسة في التصوف.

[مُقدّمة الكتاب]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الثابت له الوجود قبل خلقه في الأزلية، ولا سماء ولا أرض ولا ملائكة ولا إنس ولا جان، القديم بلا ابتداء ولا يتصف بقاؤه بالأخروية، المخالف للحوادث ولا يحويه مكان ولا يمر عليه زمان، القائم بنفسه من غير افتقار للمحلية، ولا مخصص له، بل هو الموصوف بالوحدان، القادر على إيجاد الممكن وإعدامه بتخصيص إرادته السنية، والعالم به وبالواجب والمستحيل ذي النكران، الحي السميع البصير المتكلم من غير محصورية، ويستحيل عليه الضد والند والنقصان.

أحمده سبحانه وتعالى على ظهور الحقيقة الأحمدية، وجعلها سببًا وأصلاً لكل الأشياء في العيان، ومَنَّ علينا باقتفاء لآثار الحضرة المحمدية، واهتدائنا بها لنعمة الإسلام والإيمان، وشرح صدورنا بمولد الرحمة المهدية، كما ورد في الحديث وجاء في القرآن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنفرد بالألوهية، المنعوت بكل كمال وجمال وإحكام وإتقان.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ذو الطلعة البهية، المنتخب من خلاصة معد ولبان عدنان، الأمين الصادق المبلغ بفصاحة الأحكام الإلهية والرسلية، المحفوظ من الخيانة والكذب والفظاظة والكتمان، صلى الله عليه في كل مدة زمانية، ما دامت السماوات والأرض والملوان، وعلى آله ذوي النفوس الزكية، أولي الفصاحة والبلاغة والعرفان، وعلى أصحابه

أولي الهمم العلية، الطاعنين بلسان السنان وسنان اللسان، وعلى جميع أتباعه المرضية، ومن تبعهم وتبع من تبعهم بإحسان.

أما بعدُ، فيقول أسير نفسه الدنية، وهواه وكسبه والعصيان، السيد الباجوري ذو التقصير والشيب والخطية، والعيب والكسل والملالة والطغيان، الراجي للعفو والألطاف الخفية، من ربه الكريم المحسن المنان:

أنه لما مَنَّ عليَّ ذو الرحمة الرحيمية، وأفاض عليَّ من فيض فيضه بالإحسان، أخذتُ الطريقة النقشبندية ثم فرعها الشهيرة بالطريقة الختمية، من شيخي وأستاذي الشيخ أحمد حريبة نجل سليمان، الآخذ لها من الحضرة الختمية، حضرة المنسوبة إليه الختم سيدي السيد محمد عثمان، الميرغني المكي الغوث ذي الفيوضات الرحمانية، والفتوحات الإلهية عالي الشان.

لما رأيتُ جملة طريقته العلية، مصنفه الشريف في مولد سيد عدنان، فاشتقتُ أن أشرحه بألفاظ بهية، فعجزتُ عن الوصول لهذا الشان، لكوني لست أهلاً لذلك بالكلية، لعدم وصولي لحل ألفاظه والتبيان، ثم بعد مدة من الأيام والشهور والسنين العديدية، كتبتُ منه نسخة وهمّشتها من بعض الكتب المشهورة بالبيان، مأخوذًا ذلك من متن "المواهب اللدنية"، وشارحها الزرقاني الحبر ذي التحقيق والإتقان، وشرح العلامة ابن حجر وغيره من الشُّرَّاح على القصائد البوصيرية، ومتن الشفا وشروحه وغيرها من الكتب الواضحة بالبرهان، مع فوائد أخر من الكتب اللغوية والنحوية

والشرعية، ولم آت فيه بشيء من عندي بدون نقل بل به منها ومن الأشياخ والإخوان.

فما كان فيه من صواب فمن المنقولية، وما كان من خطأ فمن شهو أو سبق قلم أو نسيان، وأن العيوب وإن وجدت بالبعض أو الكلية، لابد للصفح فيها لبعض المنصفين بالإصلاح وحسن الظن والشكران، ولا سبيل إلى السلامة منها لغير الأنبياء والملائكة ذو المعصومية، خصوصًا وفهمي فاتر ونظري قاصر وعمري آخذ في النقصان، مع ما أقاسيه من تلاطم أمواج الهموم والأكدار الدنيوية، وأقاومه من ترادف جيوش الغموم والأسقام والأوهان، لكني متيقنًا بالفرج من الحي القيوم ذي الحياة الأزلية السرمدية، مستعيذًا به من حسود ظلوم ذي عجب وكبر وحقدان.

فلا يؤاخذ من اطلع على بعض هفوات قليلية، فإن العذر مقبول عند الكرام والخلان، إذ في الحقيقة المنصف الذكي يستر الخطأ، ويحمله على معان جلية، بخلاف الغبي الخفي عليه معاني دقائق المشكلات فتنافس فيها بطمس البصائر والأذهان، وقد قيل: كل إناء بما فيه ينضح والفرع تابع لأصله فأما أن ينضح أو يفضح ولا يسأل عما جاء على أصله بمقادير أزلية، إذ لا يستغرب الشيء من معدنه والنادر لا حكم له في كل الأحيان.

ولمَّا مَنَّ اللهُ بكتابته سمَّيتهُ بـ«الفتوحات الإلهية في حل ألفاظ الأسرار الربانية» في مولد من وضع وهو مصحوب بالختان، وأسأل اللهَ أن يبلغني والمسلمين المأمولية، مع سائر الأصحاب والأحباب والإخوان، وأن يمن علينا بكمال حب الحضرة المصطفوية، مع الأتباع في سلك أصحابه والأقران، وأن يمنحني والمؤمنين أوفر عطية، بمنه من نعمة الإسلام والإيمان، وأن يخلصني مما أنا فيه من الهم والغم والمشغولية، ومن الحزن والنكد وأن يكفيني شر أهل الظلم والبغي والطغيان، وأن يغفر لي ولوالدي والمسلمين الذنوب القولية والفعلية، وأن يبوأني وإياني أعالي الغرف ويفيض عل مرقدي سجال الغفران، وأن يستجيب مني دعائي بجاه الحضرة المحمدية، فإنه قريب مجيب واسع المغفرة والرضوان، وأستغفر اللهَ من الذنوب والخطية، أنه كريم كثير الصفح والغفران.

مقدمات أربعة وخاتمة.

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى لِمَحَبَّتِهِ الذَّاتَ المُحَمَّدِيَّة ۞ مِنَ القِدَمِ وَجَعَلَهَا وَاسِطَةً لِكُلِّ إِنْسَان ۞ وَأَبْرَزَهَا أَوَّلاً فِي حَضْرَتِهِ الوَاحِدِيَّة ۞ وَفَرَّعَ عَنْهَا سَائِرَ الأَكْوَان ۞ وَأَمَدَّهَا بِأَنْوَارِهِ العَظِيمَةِ الشَّعْشَعَانِيَّة ۞ وَأَوصَلَ إِمْدَادَهَا لِجُمْلَةِ الأَعْيَان ۞ أَحْمَدُهُ أَنْ جَعَلنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمَرْضِيَّة ۞ وَكَمَّلَنَا بِالاِنْطِوَآءِ جَوْفَ حِجَابِ هذَا الدُّرِّ المُصَان ۞ وَرَحِمَنَا بِهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ القَوِيَّة ۞ وَشَرَّفَنَا بِنُزُولِ هَذَا القُرْءَان ۞ وَطَهَّرَ قُلُوبَنا بِحُبِّ هذِهِ الجَوْهَرَةِ الْفَرْدِيَّة ۞ فَصَارَتْ قُلُوبُنَا طَاهِرَةً مُطَهَّرَةً مِنَ الطُّغْيَان ۞ وَأَفَاضَ عَلَى سَرَائِرِنَا مِنَ الوُدِّ لِهَذِهِ المَعَانِي العِلْمِيَّة ۞ فَنَطَقْنَا بِالحِكْمَةِ الَّتِى تَشَرَّفَ بِهَا الثَّقَلاَن ۞ وَأَهَّلَ عُقُولَنَا لِلتَّأَمُّلِ فَاقْتَدَيْنَا بِتِلْكَ الأَفْعَالِ العَلِيَّة ۞ فَرَقَيْنَا عَلَى دَرَجِ العِنَايَةِ لِأَعْلَى الجِنَان ۞ وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِهِ بِهِ مِنْ مَزِيَّة ۞ وَهِيَ تَأْخِيرُنَا فِي أُمَّةٍ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بِحَقٍّ وَنُصْرَان ۞ وَأَيَّدَنَا بِالْعُلُومِ المَكْنُونَةِ المَخْزُونَةِ الإِلَهِيَّةِ اللَّدُنِيَّة ۞ وَذَلِكَ بِاقْتِفَائِنَا لِآثَارِ نُقْطَةِ الْوُجُودِ وَسِرِّ العِلْمَان ۞ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ شَهَادَةً أَتَحَقَّقُ بِهَا وَأَشْهَدُ إِفْرَادَ الأَحَدِيَّة ۞ وَأَعْلُو بِهَا إِلَى مَنَازِلِ المُوَحِدِينَ المُنَزِّهِينَ الحَقَّ عَنِ الْمَكَان ۞ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّداً الَّذِي مِنْ مِيمِ اسْمِهِ امْتَدَّتْ سَائِرُ العَوَالِمِ الخَلْقِيَّة ۞ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَحَاءُ رَحْمَتِهِ الَّتِي رُحِمَ بِهَا الْمَلَوَان ۞ وَمِنْ مِيمِهِ الأُخْرَى تَعَيَّنَتْ مِيَاهُ الْعَوَالِمِ الحِسيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّة ۞ وَامْتِلاؤُهَا مِنْ أَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ وَإِذْعَان ۞ وَمِنْ دَالِ ذلِكَ الاِسْمِ دَامَتْ نِظَامَاتُ المَمَالِكِ المُلْكِيَّة ۞ وَدَامَتْ صَوْلَةُ الدِّينِ بِبَرَكَتِهِ وَنَفْعُهَا فِي العَالَمَان ۞ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وَأَصْحَابِهِ مَا ظَهَرَتْ أَسْرَارٌ حِكْمِيَّة ۞ وَمَا بَرَزَتْ عُلُومٌ وَحِكَمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَأُلْزِمَ فِي

الْبَعْضِ الكِتْمَان ۞ اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى قِبْلَةِ تَجلِّيَّاتِكَ الرَّبَّانِيَّة ۞ مَحلِّ نَظَرِكَ مِنَ الوُجُودِ عَالِي الشَّان ۞ كِتَابِ أَسْرَارِكَ المُنْطَوِيَةِ الحَقِّيَّةِ العِلْمِيَّة ۞ مَظْهَرِ الرَّحْمَةِ مِنْ حَضْرَتِهَا وَمَجْلَى اسْمِكَ الرَّحْمَن ۞ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا اسْتَقَامَتِ المِلَّةُ الحَنِيفِيَّة ۞ وَمَا تَرْجَمَ بِلِسَانِ الشَّرِيعَةِ وَالحَقِيقَةِ تَرْجُمَان ۞

(الحمد للَّه الذي اصطفى) اختار (لمحبته الذات المحمدية) أي لحبه هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، والمحبة إذا اشتدت إلى اللَّه فيها على السلف، أنها صفة له تعالى تليق بذاته، يترتب عليها آثار وإحسان زائدة، وإن أضفت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُراد بها اتباع الأوامرواجتناب النواهي بصفة مخصوصة.

يدعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره، حتى تحققت السمتان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينازع فيها اه من الشفا للقاضي عياض.

وهذا الاسم الشريف أشرف أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشهرها بين العالمين، وألذها سماعًا عند جميع المسلمين، وأشوقها إلى الصلاة والسلام على سيد الأنام، ولذلك خصّت به كلمة التوحيد.

وهذا الاصطفاء حاصل وثابت وتعلّقت به الإرادة (من القِدَمِ) بكسر القاف أَيْ: قبل وجود كل مخلوق.

فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن اللَّه خلق الخلق قسمين قسمين، فجعلني من خيرهم قسمًا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾، وأنا من

أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثًا، فجعلني من خيرها ثلثًا، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ اللَّه قَسَمَ الْخَلْقَ قِسْمَيْنِ قِسْمَيْنِ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمَا قِسْمًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾، وَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَنَا خَيْرُ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، ثُمَّ جَعَلَ الْقِسْمَيْنِ أَثْلاثًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهَا ثُلُثًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، فَأَنَا مِنَ السَّابِقِينَ وَأَنَا خَيْرُ السَّابِقِينَ، ثُمَّ جَعَلَ الأَثْلَاث قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا قَبِيلَةً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الآيَةَ. فَأَنَا أَتْقَى وَلَدِ آدَمَ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَلَا فَخْرَ، ثُمَّ جَعَلَ الْقَبَائِلَ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا بَيْتًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ اه.

وَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِيْ هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِيْ مِنْ

بَنِيْ هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ.

(وجعلها) أَيْ: صيَّر تلك الذات التي هي ذات سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجود كل شيء موجود، وجعلها أيضًا (واسطة) عظمى في وجود كل مخلوق، وحجاب أعظم، من رام الدخول من غير بابه، كما أشار إليه القطب الحقيقي سيدي محمد الصديقي بقوله في "لاميته" رضي الله تعالى عنه:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

وسراجًا لامعًا ومحيطًا جامعًا لسر كل محيط بالأسرار، دليلاً على الله.

(لكل إنسان) وغيره من ملائكة وجان، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ روح الأكوان وحياتها وسر وجودها، ولولاه لم يكن لها نور ولا دلالة، بل لذهبت وتلاشت، ولم يكن لها وجود.

قال جمال الدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما مضى الحكم بسلطنة الذات الأزلية والصفات العلية، ببسطة مملكة الألوهية ونشر ألوية الربوبية، بإظهار الخلائق وتسخيرها، وإمضاء أمور تدبيرها، ومبارزة تلك الذات القديمة من غير واسطة، بعيد جدًا لبعد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدوث، حَكَم الحكيم سبحانه وتعالى بتخليق نائب ينوب عنه في التصريف والولاية والدعاية، وله وجهة في القدم يستمد به من الحق، ووجهة في الحدوث يمد به الخلق، وخلع عليه خلع جميع أسمائه وصفاته، ومكنه في مسد الخلائق، يلقى معاد مقاليد الأمور إليه، وآلت حكم الوجود عليه، وتنفيذ تصريفاته في خزائن ملكه وملكوته، وتسخير

الخلائق لحكمه وجبروته، وسماه إنسانًا لإمكان وقوع الأنس بينه وبين الخلائق اه من شراح "همزية ابن زكريا".

وقال المُؤلِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" في حرف الدال:

أَيَا خَيْرَ مَمْدُوحٍ لِنُورِكَ سَيِّدِي قَبَضْ رَبُّنَا مِنْ نُورِهِ لِتُؤَيَّدِ
أَقَامَكَ فِي حُجْبِ الجَلَالِ لِتَرْشُدِي وَقَطَّرَ نُورَ الأَنْبِيَا مِنْكَ مُعْدَدِ
فَعِشْرُونَ أَرْبَعُ مِائَةِ أَلْفٍ تُسْعِدِ
أَقَامَكَ كَمْ اِثْنَا عَشَرْ فِي مَنَازِلِ وَأَبْرَزَ مِنْكَ العَرْشَ مَعْ كُلِّ كَامِلِ
وَكُرْسِيَّنَا وَاللَّوْحَ وَالرُّوحَ شَاعِلِ وَقَلَمًا وَأَطْلَسَ وَالجِنَانَ وَحَامِلِ
لِأَرْضٍ وَأَرْضًا وَالسَّمَاءَ وَمَصْعَدِ
وَسَائِرَ أَمْيَاهٍ وَجِنٍّ وَأَفْلَاكِ وَنَجْمٍ وَأَشْجَارٍ وَحُورٍ وَأَمْلَاكِ
دَوَابٍّ وَأَطْيَارٍ وَبَحْرٍ وَأَسْمَاكِ وَسَمْعٍ وَأَبْصَارٍ وَلَمْسٍ وَإِدْرَاكِ
وَمَعْنىً وَمَحْسُوسٍ مِنَ النُّورِ مُنْبَدِ
وَأَظْهَرَ ذَاكَ النُّورَ فِي وَجْهِ آدَمِ وَأَسْجَدَ أَمْلَاكًا لَهُ يَا مُنَادِمِي
نَقَلْهُ إِلَى حَوَّا إِلَى شِيثِ قَادِمِ إِلَى صُلْبِ عَبْدِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مُعْظَمِ
مِنَ الصَّائِنِينَ الصَّائِنَاتِ المُمَجَّدِ
فَنَسَبٌ كَرِيمٌ بِالكَرِيمِ مِنَ الكُرَمَا إِلَى الكُرَمَا عَنْ قَادَةٍ سَادَةٍ كُرَمَا
تَدَلَّى إِلَى رَحْمٍ لِآمِنَةَ النَّمَا تُبَشِّرُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ أَكَارِمَا
بِأَنَّكِ لِلمَحْبُوبِ طَهَ سَتُولِدِي
وَلَمَّا دَنَا حِينَ الوِلَادَةِ جَاءَهَا مِنَ الحُورِ جَمْعٌ مَرْيَمُ ثُمَّ أُخْتُهَا

أُرِيـــدُ لِآسِـــيَّةٍ فَيَـــا نِعْـــمَ ابْنُهَـــا   وُضِـــعْ وَمَعْـــهُ النُّـــورُ أَمْـــلَأَ بَيْتَهَـــا
بَدَا مُكْحَلاً مَخْتُونَ مَخْتُومَ مَشْهَدِ
أَخَـذْنَ لَـهُ الْأَمْـلَاكُ طَافَـتْ بِـهِ شَـرْقًا   وَغَرْبًـا وَعَمَّـتْ للسَّـمَا جَمْعِهَـا حَقًّـا
وَخَاضَتْ بِـهِ الأَبْحَـارَ كَـيْ يَعْرِفُـوا الْمُنْقَـى   وَنُكِّسَـــتِ الأَصْـــنَامُ وَالطِّيـــبُ عَابِقَـــا
عَلَيْهِ مِنَ اللهِ السَّلَامُ الْمُؤَبَّدِ

كما قال سيدي عبد السلام بن مشيش: ولا شيء إلا وهو منوط، أي متعلّق، إذ لو لا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، أي المستند إلى الوساطة، فإن الأسباب والوسائط لا تنكر، ومن أنكرها فجهله أنكر، حيث لم يتعرف بمعروفها بل تنكر.

وقال سيدي علي بن وفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وروح الوجود حياة من هو واجد   لـولاه مـا تـم الوجـود لمـن وجـد

وإنما خصَّ المؤلِّف الإنسان لشرفه، وسمي إنسانًا لنسيه، لأنه عهد إليه فنسى. قال الشاعر:

لا تنســين تلــك العهــود فإنمــا   ســميّت إنســانًا لأنــك ناســي

وقيل: لأنسه بأمثاله أو بربه سبحانه وتعالى.

قال الشاعر:

وَمَــا سُــمِّيَ الْإِنْسَــانُ إِلَّا لِأُنْسِــهِ   وَلَا الْقَلْـــبُ إِلَّا أَنَّـــهُ يَتَقَلَّـــبُ

وقيل: من النوس، هو التحرك، وعلى هذا يقال للجن إنسان، ثم بعد خفائها على الخلائق أظهرها، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(وأبرزها) قَالَ فِي "الْمِصْبَاحِ": بَرَزَ الشَّيْءُ بُرُوزًا مِنْ بَابِ قَعَدَ أَيْ ظَهَرَ،

وَيَتَعَدَّى بالهمزة، فيقال: أبرزته فهو مبروز، وهذا من النوادر التي جاءت على فعول من أفعل اه.

أي أظهر تلك الذات المحمدية ظهورًا تامًّا (أَوَّلًا) أَيْ: قبل وجود كل شيء (فِي حَضْرَتِهِ) أَيْ: في حقيقته أَيْ: قربه قربًا معنويًا لا يقاربه تعالى. قال في "النهاية": حَضْرَةُ الرجل: قُربه، ويكون المعنى المجلس والقنا. وفي التسنيم استعمله الكتاب في الإنشاء للتعظيم كالمقام العالي وحضرة الخليفة، تأدبًا ما له لمحله.

(الواحدية) أي الذات المنسوبة للوحدة، نسبة الموصوف لصفته، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، الواحد في الذات وفي الصفات وفي الأفعال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وهي من الصفات السلبية أَيْ: صفات السلوب بمعنى النفي، وهي: القدم والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه بنفسه والوحدانية.

وهي تنفي الكموم الستة أو الخمسة. والكم معناه العرض المقارن للشيء كما تقول: كم الشيء الفلاني؟، والكم إما متصلاً أو منفصلاً، فالكم المتصل في الذات، تركبها من أجزاء كذوات المخلوقات، فإنها مركبة من أجزاء كالمفاصل والأصابع والأيدي والأرجل.

وذات مولانا سبحانه وتعالى ليست مركبة، والكم المنفصل في الذات تعددها بحيث يكون هناك إله ثان فأكثر، وهذان الكمان منفيان بوحدة الذات والكم المنفصل في الصفات، هو أن يكون لغير اللَّه صفة تشبه صفته تعالى، كأن يكون لغيره تعالى قدرة يوجد بها، ويعدم بها كقدرته تعالى، أو

إرادة تخصص الشيء ببعض الممكنات أو علم محيط بجميع الأشياء.

والكم المتصل في الصفات هو التعدد في صفاته من جنس واحد، كقدرتين فأكثر أو إرادتين أو علمين، بل له تعالى قدرة واحدة وإرادة واحدة وعلم واحد، وهذان الكمان منفيان بوحدانية الصفات.

والكم المنفصل في الأفعال هو أن يكون لغيره تعالى فعل من الأفعال على وجه الإيجاد، وإنما ينسب الفعل لغير الله تعالى على وجه الكسب والاختيار، وهذا الكم منفي بوحدة الأفعال. وفي ذلك رد على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية.

وأما الكم المتصل في الأفعال فإن صورناه بتعدد أفعاله تعالى فهو ثابت لا منفي، لأن أفعاله تعالى كثيرة من رزق وخلق وإحياء وإماتة إلى غير ذلك، ولا يصح نفيه.

وإن صورناه بمشاركة غيره تعالى له فهو منفي أيضًا بوحدانية الأفعال، ولذلك قلنا: أن الكموم خمسة أو ستة، وهذه الصفات الخمسة يقال لها صفات سلبية، أعني أنها سلبت ونفت عن الله أضدادها، فالقدم ثابت له تعالى، ونفى عنه ضده وهو الحدوث، والبقاء ثابت له، ونفى ضده وهو الفناء.

ومخالفته تعالى للحوادث ثابتة له تعالى ونفت عنه ضدها وهو المماثلة للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه عدم افتقاره لغيره، بمعنى أنه لا يحتاج لغيره، وهو مفسر بشيئين عدم افتقاره للمحل وهو الذات، لأنه لا يحتاج للمحل إلا الأعراض والمولى جلَّ وعزَّ ليس بعرض وعدم افتقاره

للمخصص وهو الخالق والموجد، بل هو سبحانه وتعالى الخالق والموجد، والوحدانية سلبت عنه التعدد في الذات وفي الصفات وفي الأفعال. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وهذا وإن فيه خروج عن المقام، لكنه محتاج إليه كل إنسان، وفيه فائدة وثمرة كبيرة.

وقوله: (وَفَرَّعَ) بتشدد الراء المهملة أَيْ: استخرج (عَنْهَا) أي منها (سَائِر) أي جميع (الأَكْوَان) أي الحوادث، جمع كون وهو في الأصل مصدر كان التامة، وهي السماوات وما فيها من ملائكة وكواكب وأفلاك وغير ذلك، والأرض وما فيها من بحار وجبال وأشجار وإنس وجن وغير ذلك، كله مفرع عن الحضرة المحمدية، وقيل: وجود الدنيا والآخرة. ذكره العلامة ابن مرزوق في "شرحه لبردة المديح" للبوصيري.

وقيل: عالم الغيب وعالم الشهادة، وقال بعضهم: الأكوان: أجناس العالم، والكون ما سوى الله تعالى من جسمانية وروحانية نورانية وظلمانية من أجرام وأعراض.

قال بعض العلماء: لما تعلقت إرادة الحق سبحانه وتعالى بإيجاد خلقه وتقدير رزقه، أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدانية في حضرة الوحدانية، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها على صورة حلمية، كما سبق إرادته وعلمه وأعلمه بنبوته، وبشَّره برسالته، هذا وآدم لم يكن، وظهر بالمظهر الأعلى.

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنس العلي على جميع الأجناس، ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وجود

جسمه وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، فظهر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسمًا وروحًا. فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خزانة السر وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر لأمته ولا ينقل خيرًا إلا عنه.

(وَأَمَدَّهَا) أَيْ: قوَّاها بعد بروزها (بِأَنْوَارِهِ) جمع نور وهو الظاهر بنفسه المُظهر لغيره، وخلع لها من أسمائه وصفاته.

(العَظِيمَة الشَّعْشَعَانِيَّة) الجلية الباهرة، مصدر شعشع وهي زيادة النور، من باب دحرج، والنسبة فيه بزيادة الألف والنون، كما تقول في النسبة إلى الرب ربَّاني، وإلى النور نوراني، أَيْ: أمدَّ الذات المحمدية بالأنوار الساطعة التامة في الأنوار المنتشر ضوؤها، فكانت ذاته الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نورًا لا يظهر لها ظل في الشمس.

كما رُوي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبويها أنها قالت: بينما أخيط ثوبًا في السحر، فوقعت الإبرة مني وانطفأ المصباح، فدخل رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتقطت الإبرة من نور وجهه، فقلت: يا رسول اللَّه ما أبهى وجهك وما أنور طلعتك، فقال: يا عائشة الويل كل الويل لمن يرني يوم القيامة، فقلتُ: ومن ذا الذي لا يراك يوم القيامة؟، فقال: البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل عليَّ.

(و) أنه جلَّ جلاله (أَوْصَل) أي بلَّغ وأرسل (إِمْدَادهَا) أَيْ: إعانتها وقوتها (لِجُمْلَة) أَيْ: جميع (الأَعْيَان) جمع عين، وهي تطلق على أشياء عديدة منها خيار الشيء وكبير القوم وعين الذهب وعين الفضة وعين الماء وعين باصرة، إلى غير ذلك.

والمراد بالأعيان هنا الأخيار، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقرّبون وجميع عباد اللَّه الصالحين، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أولئك الأخيار وكبيرهم، وهم مستمدون حسًّا ومعنًى من مدده ومن نوره.

اقتبست جميع الأنوار السابقة لظهوره الصوري، واللاحقة من غير مانع ولا حجاب ولا كلفة، وكلما اقتبس منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينقصه شيء، وفي غيبته الصورية لم يغب الاستمداد من نوره، بل هو موجود في الفروع المقتبسة منه سابقة ولاحقة.

ولما خلق اللَّه المخلوقات احتاجت إلى أنواع الأقوات، التي لا يستقيم بقاؤها إلا بها، فأمدَّها الحق سبحانه بما تحتاج إليه وتتوقف عليه، وهو سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبواسطته، فسرى نور مدده في سائر الكائنات، وكان أن يمده بقاء الذات فيه بقاء الصفات.

فهو الذي مدَّ العلماء بالعلم والعارفين بالمعرفة والخاشعين بالخشوع والخايفين بالخوف والراجين بالرجاء والذاكرين بالذكر والشاكرين بالشكر، والصابرين بالصبر، والراضين بالرضا، والمحبين بالمحبة والمتواضعين بالتواضع والعافين بالعفو، والراحمين بالرحمة والمحسنين بالإحسان والكرماء بالكرم، والمستغيثين بالاستغاثة، وغير ذلك من كامل الصفات وسني الحالات.

فأهلها كلها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ينبوع مددهم كما صحَّ في الحديث عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: إنما أنا قاسم واللَّه يعطي، هذا معنى قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأوصل إمدادها لجملة الأعيان.

وبالجملة فقد اتفقت كلمة أولياء الله على خصوصيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كل العوالم، وأنه سر الله الممتد في الأرواح.

فقد نُقل عن سيدي عبد النور عن شيخه أبي عبد الله ابن سلطان أنه قال: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم، فقلتُ: يا سيدي يا رسول الله أنت مدد الملائكة والمرسلين، فقال لي: أنا مدد الملائكة والنبيين والمرسلين وسائر خلق الله أجمعين، وأنا أصل الموجودات والمبدأ والمنتهى، وإلى غايات الغايات، ولا يتعداني إلى أحد. قال: ورأيته أيضًا في النوم، فأجرى الله على لساني أن قلتُ لهل: السلام عليك يا عين العيون ويا معدن السر المصون اه.

وقال سيدي عبد السلام المقدسي في كتابه "مفاتيح الكنوز وحل الرموز" نقلاً عن سيدي أبي يزيد البسطامي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مثل ما حصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام كمثل زق فيه عسل، فرشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما حصل لسائر الأولياء، وما في الزق ما حصل لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اه.

ولما حمد المُؤلِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجملة الاسمية، حمد الله ثانيًا بالجملة الفعلية المفيدة، لإنشاء الحمد المتجدد مرة بعد أخرى فقال: (أَحْمَدُهُ) أَيْ: حمدًا متجددًا مستمرًا إلى ما لا نهاية لها، (أَنْ جَعَلَنَا) أَيْ: لأجل جعله سبحانه إيانا في سابق علمه وتخصيص إرادته.

(مِنْ هَذِهِ الأُمَّة) أَيْ: الجماعة المحمدية، وأصل الأمة: الجماعة مفرد لفظًا جمع معنى، وقد يختص بالجماعة الذين بعث فيهم نبي، وهم باعتبار

البعثة فيهم ودعائهم إلى الله، يسمون أمة الدعوة، فإن آمنوا كلاً أو بعضًا، سمى المؤمنون أمة الأجابة أو ملة، وهم المراد هنا. وقوله: (المرضية) أي المختارة عند ربها، وهي أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وكمّلنا) بوافر العلم والصدق، وخصّنا (بِالاِنْطِوَاء) في سلك (جَوْف) أنوار (حِجَاب هَذَا) الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأن جعلته حياة أرواحنا وشهودنا لهذا (الدُّرِّ المُصَان) أَيْ: المحفوظ بالعصمة، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي كنتم يا أمة محمد في علم الله أو في اللوح، أو فيما بين الأمم السالفة، وقيل: معناه أنتم خير أمة أُخرجت: أُظهرت، أَيْ: أظهر الله تعالى أَيْ: خلقها وأوجدها للناس أَيْ: لنفعهم ومصالحهم، ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أَيْ: إيمانًا متعلّقًا بكل ما يجب أن يؤمن بهب من رسول وكتاب وحساب وجزاء، أي أخّر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجود أو رتبة، لأن الإيمان بالله يشترك فيه جمع الأمم المؤمنة.

وإنما خصّت هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن سائر الأمم، فالمؤثر في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسن تقديمها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أعطى الله أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشريفًا بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

ثم قال أي ابن عباس: عندي أشرف من هذا قال الله تعالى لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، وقال لهذه الأمة: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، وقال لهذه الأمة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وقال لموسى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وقال لهذه الأمة: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، وقال لعيسى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، وقال لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، وقال لهذه الأمة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

وإليه أشار العارف البوصيري بقوله في "بردة المديح":

لما دعى الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنا الأمم

والمعنى: لما سمى الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا أَيْ: طلبنا لطاعته تعالى بأكرم الرسل، كنا معشر أمته أكرم الأمم، لأن أكرم الرسل لا يبعث إلا لأكرم الأمم.

ثم قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكمَّلنا أَيْ: أتممنا. ففي "المصباح": كمل الشيء كمولاً من باب قعد، والاسم الكمال، ويستعمل في الذوات وفي الصفات، ويقال: كمل إذ تمت أجزاؤه، وكملت محاسنه، وكمل الشهر أي كمل دوره، ويتعدى بالهمزة والتضعيف فيقال: أكملته وكمَّلته، واستكملته: استتممته.

وقوله: بالانطواء، في "القاموس": طَوَى الصَّحِيفَةَ يَطْوِيها فاطَّوَى وانْطَوَى، وإنَّهُ لَحَسَنُ الطِيَّةِ، بالكسرِ.

وقوله: جوف، قال في "المصباح": الجوف الخلاء، وهو مصدر من باب تعب فهو أجوف، والاسم الجوف بسكون الواو، والجمع أجوف هذا

أصله، ثم استعمل فيما يقبل الشغل والفراغ، فيقال جوف الدار لباطنها وداخلها، وجوّفت تجويفًا جعلت لها جوفًا.

وقوله: حجاب، الحجاب الستر، وقيل له حجاب، لأنه يمنع المشاهدة، وقيل للبواب حاجب، لأنه يمنع من الدخول، والأصل في الحجاب جسم حائل بين جسدين، وقد استعمل في المعاني، فقيل: العجز حجاب بين الإنسان ومراده، والمعصية حجاب وبين ربه.

والمراد هنا المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمى في بعض الصيغ الحجاب الأعظم، أي المانع الأعظم فهو حجاب بين اللَّه وبين خلقه، ولا يمكن لأحد الوصول لله إلا بواسطته، أو حجاب بمعنى مانع المضار الدنيوية والأخروية عن أمته، ووصفه بالعظم لأن الأنبياء أيضًا حجب خاصة.

والمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحجاب الكلي، ويسمى بالبرزخ الكلي، لكونه حجابًا وبرزخًا بين الخلق وربهم.

والدُّرُّ بضم الدال المشددة جمع دُرَّة بالها، وهي اللؤلؤة العظيمة الكبيرة، ويجمع أيضًا على دُرَر مثل غرفة وغُرَف.

والمُصان بضم الميم: المحفوظ في غلافه. قال الزمخشري: صان الرجل عرضه عن الدنس فهو صين، والتصاون خلاف الابتذال، وفلان يصون عرضه صون الربطة، وحب مصون، وصنت الثوب من الدنس والثوب في صوانة والترس في صوانها ومصوانها ومصانيها وهو غلافها اهـ.

(وَرَحِمَنَا بِهَدْيِهِ) بفتح الهاء وسكون الدال أَيْ: دلالته وبيانه، والمراد به القرآن، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراسل الناس أولاً بالقرآن والدعوة للإسلام، فإن أجابوا للإسلام فظاهر، وإلا أعلمهم بالتهيؤ للجهاد، وهكذا خلفاؤه من بعده.

(وَسُنَّتِهِ) أي طريقته الحميدة (القَوِيَّة) أي المتينة التي لا يعتريها ضعف ولا تغيير ولا ولا تبديل، المقيمة التي لا اعوجاج فيها.

(وَشَرَّفَنَا) بإرسال حبيبه الأعظم إلينا وأكمل نعمته، (بِنُزُولِ هَـذَا القُـرْآن) هو اللفظ المنزل على سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإعجاز بأقصر سورة منه، المُتعبَّد بتلاوته، المُتحدَّى بأقصر سورة منه، وبمعرفة أسراره وتدبير معانيه.

(وَطَهَّرَ قُلُوبَنَا) جمع قلب، وهو اللحم الصنوبري بفتح الصاد المهملة والنون، بوزن سفرجل، ويطلق على خالص الشيء ولبه، وعلى العقل وعلى الروح، كما في "المختار".

(بِحُبِّ) بضم الحاء، وهو الوُد وهو صفاء الحال بين المحب والمحبوب، وقيل: إحساس بوصلة لا يُدرى كنهها.

قال بعض العارفين: المحبة حبة نبتت في أرض القلوب، وسقيت بماء التوبة من الذنوب، فأنبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، وأما المحب فهو ذاهب من نفسه متصف بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه نار هدايته، فكشف له الجبار أستار غيبه، فإن تكلَّم فعن اللَّه، وإن تحرَّك فباللَّه، وإن سكن فمع اللَّه، فهو للَّه وباللَّه ومع اللَّه.

(هـذه) أي ذات سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الجَوْهَرَة) واحدة الجواهر معرّب كما في "الصحاح". وفي "القاموس": الجَوْهَرُ: كُلُّ حَجَرٍ نَفِيسٍ يُسْتَخْرَجُ منه شيءٌ يُنْتَفَعُ بِهِ اه. وبه يعلم حسن تسمية ذاته الشريفة جوهرة كما لا يخفى.

(الفَرْدِيَّة) أي المفردة التي لا يماثلها شيء المستكملة بالكمالات. قال في "المواهب": اعلم أن لمحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علامات: أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف مع ما حدّ لنا من شريعته. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فجعل تعالى متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وقد قال الحكيم، وهو محمود الورَّاق، كما أفاده المحاسبي فى كتابه "القصد والرجوع":

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري فى القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وهذه المحبة تنشأ من مطالعة العبد منة الله عليه من نعمه الظاهرة والباطنة، فبقدر مطالعة ذلك تكون قوة المحبة ومعرفته ومتابعة حسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأصل هذا نور يقذفه الله تعالى في قلب ذلك العبد، فإذا دار ذلك النور أشرقت له ذاته فرأى في نفسه، وما أهلت له من الكمالات والمحاسن، فعلت به همته وقويت عزيمته، وانشقت عنه ظلمات نفسه

وطبعه، لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرح أحدهما الآخر، فوقعت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

قال بعض العارفين:

نقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبدًا لأول منزل

وبحسب هذا الاتباع توجب المحبة والمحبوبية معًا، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب اللَّه بل الشأن أن يحبك اللَّه، ولا يحبك إلا إذا اتبعك حبيبه ظاهرًا وباطنًا وصدَّقته خبرًا، وأطعته أمرًا وأحببته دعوة وآثرته طوعًا، وفنيت عن حكم غيره لحكمه، وعن محبة غيره من الخلق، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا تتعين فلست على شيء، وتأمل قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي الشأن في أن اللَّه يحبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالوه إلا باتباع الحبيب اه.

وقال المحاسبي في كتاب "القصد والرجوع": وعلامة محبة العبد لله عَزَّ وَجَلَّ اتباع مرضاة الله والتمسك بسنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه، فاستحلى اللسان ذكر اللَّه تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة اللَّه، فحينئذ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل الماء البارد الشديد البرودة في اليوم الشديد الحر للظمآن الشديد عطشه، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها، بل تبقى الطاعات غذاءًا لقلبه وسرورًا له، وقرة عين في حقه، ونعيمًا لروحه، يلتذ بها أعظم من اللذات

الجسمانية، فلا يجد فى أوراد العبادة كلفة.

وفي الترمذي: عن أنس مرفوعًا: وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ. وعن ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نوَّر اللَّه قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه وأفعاله وأخلاقه.

وقال أبو إسحاق الرّقّي من أقران الجُنيد: علامة محبة اللَّه إيثار طاعته ومتابعة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبسط في الكلام في ذلك ثم قال: فمن اتّصف بهذه العلامات التى ذكرتها فهو كامل المحبة للَّه ورسوله، ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، للذي حدَّه فى الخمر، لما لعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تلعنه فإنه يحب اللَّه ورسوله، فأخبر أنه يحب اللَّه ورسوله مع وجود ما صدر عنه.

وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له. وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة اللَّه ورسوله فى قلب المرتكب، وإن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة اللَّه ورسوله.

ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة اللَّه ورسوله فى قلب العاصى مُقيّدًا بما إذا ندم على وقوع المعصية، أو إذا أقيم عليه الحد، فكفر عن ذنبه المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى بتكرار الذنب أن

يطبع على قلبه حتى يسلب منه ذلك الحب، نسأل اللّٰه العفو والثبات على محبته وسلوك سنته برحمته ومنّه.

(فَ)بسبب حبها له صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صارت قلوبنا طاهرة) من الشرك، أو من كل دنس معنوي كالمعاصي والحجب التي تبعد عن اللّٰه، وحسي، أو من جميع العيوب، (مُطهَّرة) بفتح الهاء أَيْ: مُنَزَّهَة من الخبائث الحسية والمعنوية.

(من الطُّغْيَان) بضم الطاء، مصدر طغى، يقال طغى كرضى، طغيًا وطغيانًا بالضم والكسر أَيْ: جاوز القدر وارتفع وعلا في الكفر، وأسرف في المعاصي والظلم، كما في "القاموس".

(وأفاض) الكريم الوهاب أَيْ: أفرغ (على سرائرنا) جمع سريرة. قال في "المختار": السِّرُّ الَّذِي يُكْتَمُ وَجَمْعُهُ أَسْرَارٌ، والسَّرِيرَةُ مِثْلُهُ وَجَمْعُهَا سَرَائِرُ. أَيْ: أفرغ على بواطننا (من الود) بتثليث الواو كالود أَيْ: الحب، وهو ووداد مثلثان مصدر ودد من باب تعب، يقال: وددته أوده ودًّا أحببته، والاسم المودة، كما في "القاموس".

(لهذه المعاني العلمية) أَيْ: المنسوبة للعلم أَيْ: معرفة أسرار القرآن الحكيم، (فنطقنا) أَيْ: تكلَّمنا (بالحكمة) بكسر الحاء المهملة وسكون الكاف، وهي في الأصل: ما يمنع من الجهالة، فإنها مأخوذة من الحكمة بفتحتين وهي اللجام المانع من النفوذ.

أي: علمنا بالشرائع المشتملة على الحكم المبنية على الإتقان والأحكام. وقال بعض الأفاضل هي: المعرفة التامة التي يخصّ اللّٰه بها من

يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال الإمام النووي: الحكمة فيها أقوال كثيرة، صفى لنا منها إنّها العمل المشتمل على المعرفة بالله تعالى، مع إتقان البصيرة، وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك. اه ملخّصًا.

قال الحافظ: وقد تطلق الحكمة على القرآن، وهو مشتمل على على ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط أي النافع، وعلى المعرفة فقط اه.

والحكمة: وضع الشيء في محله. حكمة العارفين إرشاد كل أحد بما يصلح له ويناسبه من الأسماء والأذكار وغير ذلك.

(التي تشرَّف بها) أي بالحكمة (الثقلان) فاعل تشرَّفت مرفوع بالألف وهما الإنس والجن، تثنية ثقل بفتحتين، فعل بمعنى مفعل، وسميا بذلك لأنهما أثقلا الأرض، أو بمعنى مفعول لأنهما أُثقلا وأُتعبا بالتكاليف.

(وَأَهَّلَ) بتشديد الهاء من التأهيل، (عقولنا) جمع عقل مصدر عقل يعقل من باب تعب، ثم أُطلق علىالعقل الذي هو مصدر على الحجاب واللب. ولهذا قال بعض الناس: العقل غريزة يتهيأ بها الإنسان إلى فهم الخطاب، كما في "المصباح".

أي: جعل فيها أهلية للفهم عنه، أَيْ: جعل عقولنا صالحة (للتَّأَمُّلِ) في تلك الحكمة، وفي بدائع معلوماته، وفهم مشكلات كتابه ومعاني سنة رسوله.

(فاقتدينا بتلك الأفعال) أي أفعاله وأقواله وتقريراته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ (العلية) أي المنسوبة للعلو وهو الارتفاع ضد السفل. (فرقينا) من الرقي بمعنى الصعود، يقال: رقى في السلم بكسر رقيا، فيقال: رقينا كخشينا على حد قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ اه من "المختار" ببعض زيادة.

أي: رقينا وعلونا وارتفعنا بذلك (عَلَى دَرَجِ) بفتح الدال والراء المهملتين آخره جيم، جمع درجة، مثل قصب وقصبة، وهي المراقي أَيْ: السلم.

أي: ارتفعنا ارتفاعًا معنويًا على مراتب (العناية) من عنت به أعني من باب رمى عناية قصدته، وعنى الله به: حفظه، كما في "المصباح".

(لأعلى) الفردوس في (الجِنَان) بكسر الجيم، جمع جنة، وهي البستان الذي يشتبك شجره حتى يستر من يدخله، وقيل: الجمة الحديقة ذات النخل، والجمع جنات على لفظها، وجنان أيضًا، كما في "المصباح". وعبَّر بالجنان بلفظ الجمع دون الجنة بالإفراد مع أن المسكن إنما يكون في واحدة منها فقط، لأنها كالشيء الواحد لكونها دور، وعليها سور واحد، فمن سكن واحدة منهن فكأنه سكن جميعها، ولأنه لا يعرف العبد الجنة التي يكون فيها مثواه بعينها، فصارت كلها بالنسبة إليه سواء.

واختلف في الجنة، هل هي سبع جنات متجاوزة، أفضلها وأوسطها الفردوس، وهي أعلاها، والمجاورة لا تنافي العلو، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تنفجر أنهار الجنة، ويليها في الأفضلية جنة عدن، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، وجنة المأوى، ودار السلام، ودار الجلال.

والجنان كلها متصلة بمقام الوسيلة، ليتنعم أهل الجنة بمشاهدته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، لظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لهم منها، لأنها تشرف على أهل الجنة، كما أن الشمس تشرف على أهل الدنيا، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس.

أو أربع، ورجَّحه جماعة لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ جنة النعيم وجنة المأوى، ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ جنة عدن وجنة الفردوس، كما قاله بعض المفسرين، وهذا ما ذهب إليه الجمهور.

أو جنة واحدة، وهذه الأسماء كلها جارية عليها، لتحقق معانيها فيها، إذ يصدق على الجميع جنة عدن أي إقامة، وجنة المأوى أي مأوى المؤمنين، وجنة الخلد ودار والسلام، لأن جميعها للخلود والسلام من خوف وحزن، وجنة النعيم لأنها كلها مشحونة بأصنافه.

وبعد أن ذكر المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحمد، ذكر الشكر لأنه يرادفه في المعنى فقال: (وأشكره) لذلك أَيْ: اعترف بنعمته تعالى (على) أي لأجل (ما) أي الذي (خصَّنا) نحن بهذه العنايات (من فضله) تعالى (به) أي أمة الأجابة دون غيرنا من الأمم، فيا لها (من مزية) بفتح الميم أَيْ: فضيلة نمتاز بها عن غيرنا.

(وهي) أي المزية (تأخيرنا في) آخر الزمان مع (أمة شهداء اللَّه) يوم القيامة على الأمم بأن رسلهم بلَّغوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وشهداء بضم الشين: جمع شهيد أو جمع شهيد، بمعنى الحاضر أو

القائم بالشهادة أو الناصر أو الإمام، وكأنه سمي به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور، وأتى بهذا الجمع لأنه يدل على المبالغة.

وقوله: (بحق) متعلّق بمحذوف حال، أَيْ: متلبسين بحق، فإن شهادتهم على الأمم كائنة بدليل الآية السابقة، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف، أَيْ: شهادة متلبسة بحق، والحق هو الحكم المطابق للواقع. وقال الحافظ: مع الاعتقاد، وهو ضد الباطل، وهو المخالف للواقع.

(وَنُصْرَان) بضم النون بوزن فعلان، اسم بمعنى النصرة بالضم، وهي اسم من النصر بالفتح، بمعنى الإعانة. قال في "المصباح": نصرته نصرًا أعنته وقوّيته، والفاعل ناصر ونصير، وجمعه أنصار مثل يتيم وأيتام، والنصرة بالضم: اسم منه اه.

ويشهد لذلك الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خيارًا عدولاً مزكيين بالعلم والعمل أَيْ: ممدوحين بهما، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي يوم القيامة أن أرسلهم بلغتهم، ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أنه بلَّغكم.

أو أن الرسول يزكيكم في شهادتكم على الأمم السابقة أن أنبياءهم بلَّغوهم، وذلك أن اللَّه تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ فينكرون ويقولون: ما جاءنا من نذير، فيسأل اللَّه الأنبياء عن ذلك فيقولون: كذبوا قد بلَّغنا، فيسألهم البينة وهو أعلم بهم، إقامة للحجة، فيقولون: أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيشهدون لهم أنهم قد بلَّغوا،

فتقول الأمم الماضية: من أين علموا وإنما كانوا بعدنا؟، فيسأل الله هذه الأمة فيقولون: أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت علينا كتابًا، أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويصدق ويشهد بصدقهم. ذكره الخازن.

(و) أشكره أيضًا على ما (أيَّدنا) أي قوَّانا (بالعلوم) والأسرار جمع علم، (المكنونة) المستورة المحفوظة (المخزونة) المحرزة المخباة (الإلهية) المنسوبة للإله نسبة الصفة لموصوفها.

(اللدنية) أي المنسوبة للدن أَيْ: العلوم التي من اللَّه، لا ينسب منها لغيره شيء، لأن ما جرت العادة بحصول مثله من كسب العبد ينسب له، وما كان بالفاء في النفاسة ينسب للَّه، إشارة إلى أنه لا يمكن حصوله من غيره عادة لعزته، على نحول قول العرب: للَّه درّه.

قال الطوفي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ أَيْ: من عندنا، وهذا هو متعلّق الصوفية وأهل الحقيقة والسلوك في إثبات العلم اللدني، نسبة إلى ﴿لَدُنَّا﴾ وهو إلهام المعرفة بالحقائق الغيبية وغيرها اه.

وقال غيره: العلم اللدني يراد به العلم الحاصل بلا كسب ولا عمل للعبد فيه، وسمي لدنيًا لحصوله من لدن ربنا أَيْ: منه لا من كسبنا.

وقد صنّف الغزالي كتابًا في هذا، وبيّن فيه كيفية حصوله، وأنه لا يمكن أن يحصل بكسب، وذكر فيه قول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو طويت لي وسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، ولقلتُ في الباء من بسم اللَّه الرحمن الرحيم وقر سبعين جملاً

اه. والوقر بالكسر: حمل البغل، ويستعمل في البعير. قال: ومعلوم أن عليًّا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أخذه من لدن ربه لا من تعليم بشر اه.

ولا يشكل بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، رواه ابن أبي عظم والطبراني والعسكري وغيرهم، وسنده حسن كما قال الحافظ، وجزم به البخاري تعليقًا، لجواز أن المراد علم الأحكام والقرآن والأحاديث النبوية، إذ لا طريق إلى معرفتها إلا بالتعلم، فأل عهدية، ولا شك أن عليًّا كان قد تعلَّم القرآن والسنة والأحكام قبل أن يقول ذلك. ذكره "الزرقاني على المواهب".

أي: فألقاها في قلوبنا فعرفناه أنه الحق فعبدناه حق عبادته بالصدق، (وذلك) التأييد المفهوم من قوله: أيَّدنا (باقتفائنا) أي بسبب اتباعنا، يقال: قفوتُ أثره قفوًا من باب تبعته، وقفيتُ على أثره بفلان تبعته إياه، كما في "المصباح".

(لآثار) جمع أثر بفتحتين أي مأثور به، يعني منقولاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقال أثرت الحديث أثرًا نقلته، والأثر بفتحتين: اسم منه، وحديث مأثور أي نقله خلف عن سلف، وسنن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثاره، كذا في "مختار الصحاح".

وقال الزمخشري: يُقال: وجدتُ ذلك في الأثر أَيْ: في السنة، وفلان من جملة الآثار، وحديث مأثور يأثره أي يرويه قرن عن قرن، ومنه التليد المأثور للقديم، المتوارث كابرًا عن كابر.

وفي "شرح العراقي" في مصطلح الحديث: الأثر بفتح الهمزة والمثلثة

هو الأحاديث مرفوعة أو موقوفة على الصحابي، وقصره بعض الفقهاء على الموقوفة.

(نقطة) دائرة (الوجود) النقطة اسم لأول ما ينزل من قلم الكاتب، ثم يستمد منه الخط، فهي أصل الخط، والوجود أَيْ: الموجودات من جميع المخلوقات، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصل الوجود، ولولاه ما خلق خلق، ولولاه لاتصف بالعدم، لما في الحديث: لولاك ما خلقت سماءً ولا أرضًا ولا إنسًا ولا جنًا ولا ملكًا إلخ.

ولما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصل الكائنات بأسرها، لأنه كما سيأتي في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول ما خلق الله النور المحمدي، ثم استمدت منه الأشياء كلها، كان كمدة الإمداد ونقطة الوجود.

(وسر) بالجر عطف على نقطة، والسر هو الحديث المكتتم في النفس، وكنّى به عن النكاح السر من حيث أنه يكتم، واستعير للخالص فقيل: هو في سر قومه.

أي: لب وخالص الظاهر والباطن اللذين هما (العلمان) أَيْ: علم الشريعة والحقيقة، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرهما لأنه هو السر الجامع كما قال سيدي عبد السلام ابن بشيش: اللَّهم إنه سرك الجامع الدال عليك إلخ. بين ما تفرّق في غيره وبين الحكم بالظاهر والباطن والشريعة والحقيقة، ولم يكن للأنبياء إلا أحدهما، بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام.

واعلم أن المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التزم في هذا المولد الشريف لأجل

القافية طريقة من يلزم المثنى والملحق به الألف مطلقًا، أي رفعًا ونصبًا وجرًا، وهي لغة بني الحارث بن كعب وخثعم وكنانة وغيرهم، فبعضهم يعربه كالمقصور مع كسر النون أبدًا، وبعضهم يعربه على النون، فما ذكره المُصنِّف هنا بقوله: وسر العلمان، وفيما يتأتي بقوله في العالمان، وستر الداران، ونظائر ذلك يعرب على هذه اللغة، ولا يعترض في تركيبه لما علمتُ، فافهمْ.

(وأشهد) أَيْ: أصدق بقلبي وأقرّ بلساني مع الإذعان والانقياد، والشهادة الإخبار عن أمر متيقن قطعًا، (أن لا إله) أَيْ: لا معبود بحق، (إلا اللَّه) وهي كلمة التوحيد إجماعًا، وهي المرادة بكلمة التقوى، والإتيان بها في الخطب مطلوب لخبر أبي داود والترمذي والبيهقي وصححه مرفوعًا: كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ، أَيْ: قليلة البركة.

وقوله: (شهادة) مفعول مطلق لقوله: أشهد، أَيْ: أشهد شهادة ثابتة جازمة، (أتحقق) أَيْ: أتيقن في نفسي، (بها) أي بهذه الشهادة.

(وأشهد) أَيْ: أعلم (إِفْرَاد) بكسر الهمزة، مصدر أفرد الرباعي، يقال أفردته جعلته فردًا. قال الراغب: الفرد الذي لا يختلط بغيره، وهو أعلم من الوتر وأخص من الواحد، وجمعه فرادى، قال تعالى: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أَيْ: واحدًا.

ويقال في اللَّه فرد تنبيهًا على أنه مخالف للأشياء كلها في الازواج المنبه عليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، وقيل: معناه أنه المستغني عما عداه، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، فإذا

قيل هو فرد فمعناه منفرد بوحدانيته مستغن عن كل تركيب مخالف للموجودات كلها.

(الأحدية) أَيْ: الذات المنسوبة للأحد. قال الأزهري: الفرقُ بَين الوَاحدِ والأحدِ أَنَّه اسم بُنِي لنَفْي مَا يُذكَرُ مَعَه من العَدَد، تَقول: مَا جاءني أحدٌ. والواحد اسم بني لمفتتح العدد تقول: ما جاءني واحد من الناس، ولا تقول: جاءني أحد. فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعنى.

وقال غيره: الأحد الذي ليس بمنقسم ولا متحيز، فهو اسم لمعنى الذات فيه سلب الكثرة عن ذاته، والواحد وصف لذاته فيه سلب النظير والشريك عنه فافترقا.

وقال السهيلي: أحد أبلغ وأعم، ألا ترى أن ما في الدار أحدًا وأبلغ من ما فيها واحد. وقال بعضهم: قد يقال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، والأحد في وحدانيته إذ لا يقبل التغيير ولا التشبيه بحال اه.

أي: ونشهد إفراد الأحدية بعين اليقين، (وأعلو) أَيْ: ارتفع عطف على أتحقق، (بها) أي بهذه الشهادة (إلى) أعلا (منازل) جمع منزل، وهو موضع النزول، أو جمع منزلة وهي المكانة.

أي: وارتفع بهذه الشهادة إلى مكانة ورتبة (الموحدين) اللَّه سبحانه وتعالى، بكسر الحاء، جمع موحّد اسم فاعل من وحدَّه بالتشديد توحيدًا، جعله واحدًا، أَيْ: الذين آمنوا باللَّه وحده. والتوحيد إفراد الواحد بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً.

(المنزهين) جمع منزّه بكسر الزاي، اسم فاعل من نزّه بالتشديد نفسه عن القبيح نجّاها وأبعدها عن الرذائل وعن كل ما لا يليق به، بل الذين نزَّهوا اللَّه (الحق) جلَّ جلاله (عن) الشريك والنظير والمثيل، والكيف والكيفية والحلول في (المكان) أي المحل الذي يحويه ويأويه، وعن الجهات والشمول والإحاطة. فالحق اسم من أسماء اللَّه تعالى.

أي: المتحقق الثابت وجوده أزلاً وأبدًا، قبل الخلق وبعد الخلق ومع الخلق، فلا يقبل الانتفاء أزلاً وأبدًا بحال من الأحوال، فمعناه يستلزم القدم والبقاء، وإذا استلزم القدم ثبت وانتفى ضده وهو الحدوث، وإذا ثبت القدم استحال العدم وثبت البقاء وانتفى الفناء.

وقد اتفقت الملل وجميع المذاهب على هذه العقيدة، وهي كل من ثبت قدمه استحال عدمه، وقيل: هو الحقيق بأن يعبده العابدون.

وقول الحسين بن منصور الحلَّاج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمهما: أنا الحق. إشارة منه إلى فنائه عن مشاهدته نفسه، لا أنه أراد الاتحاد، وهذا التأويل لأجل حسن الظن به، وخطأ لعبد منه فناؤه عن نفسه وعن إرادته، وأن يرى اللَّه سبحانه وتعالى حقًّا وما سواه باطلاً، وأن له تعالى حكمًا ولطائف في كل ما يوجده، وإن لم نطلع عليها وخفي علينا كنهه.

ولما ذكر الشهادة للَّه سبحانه المتضمنة للإقرار والإذعان له، عقبها بالشهادة لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما هو الأدب والمطلوب، إذ لا يدخل أحد في الإيمان والإسلام إلا بهما جميعًا فقال:

(وأشهد) أَيْ: وأذعن بقلبي وأقرّ بلساني (أن سيدنا) معشر الإنس

والجن بل والملائكة، وإذا كان سيد من ذكر يكون سيدًا على غيرهم بالطريق الأولى، ثم أبدل من سيدنا (محمدًا) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعقب الشهادة لله بالشهادة لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه هو الواسطة في وصول الفيض من اللَّه إليها، ولأنه يطابق العقل والنقل على وجوب شكر المنعم، ولدخوله في قوله: كل خطبة الحديث.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أَيْ: لا أًذكر إلا وتذكر معي، كما ورد مبشرًا به عن جبريل عن اللَّه تعالى، والمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي اصطفاه اللَّه على سائر الخلق لأسراره، وهو الذي علمنا أسراره وعلمنا شكرًا لنعم.

وكان هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبب في كمل هذا النوع، إذ لا بد من القابل والمفيد، وأجسا في غاية الكدورة وعدم الصفاء، وصفات الحق سبحانه وتعالى في غاية العلو والصفاء والضياء.

فاقتضت الحكمة الإلهية توسط ذي جهتين تكون له صفات عالية جدًا، وهو من جنس البشر، ليقبل عن اللَّه بصفاته الكمالية، وتقبل عنه بصفاتنا البشرية، فلذا استوجب قرن شكره بشكره لتحقق المقابلة.

والسيد هو من ساد في قومه، أو هومن كثر سواده أي جيشه، والاسم السودد بضم السين وتشديدها، وهو المجد والشرف، والسيد هو الرئيس والكريم والمالك.

وقوله: محمدًا: عطف بيان، قيل: محمد في التسمية سابق على أحمد، قاله ابن القيم، وذهب القاضي عياض إلى أن أحمد كان قبل محمد، لأن

تسميته بأحمد وقعت في الكتب السابقة، وتسميته بمحمد وقعت في القرآن.

قال ابن العربي: وأسماؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألف اسم كأسمائه تعالى، وهي توفيقية كأسمائه تعالى على المختار، ومحمد أشهر وأفضل من أحمد على الأصح، ولذلك قرن بكلمة التوحيد، وكلمة أفضل تفضيل محمول على الفاعل كأعلم، أو عن المفعول به كأشهر، لكن الأول لأفعل التفضيل أكثر.

ومن عجيب خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن حمى الله هذين الاسمين أن يسمى أحد بأحدهما قبل زمانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع ذكرهما في الكتب القديمة والأمم السابقة، مع أنهما من الأعلام المنقولة، فلم يقع ذلك لأحد قبله أصلاً، أما أحمد فبالاتفاق، وأما محمد فعلى الأصح. كما ذكره الشهاب في "شرح الشفا".

وقيل: لما قرب زمانه ونشر أهل الكتاب نعته سمى بعض العرب أبناءهم بمحمد، رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وكنيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو القاسم، لأنه أكبر أولاده وأولهم، وقيل: لأنه يقسم الجنة بين أهلها.

ويشترط لصحة الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرفة اسمه الشريف، إذ لا تتم المعرفة إلا به، وكون بشرًا من العرب، وكونه خاتم النبيين اتفاقًا، لورود ذلك بالقواطع المتواترة.

وقوله: (الذي) نعت لمحمد، وقوله: (من ميم) متعلق بامتدت، (اسمه الشريف أَيْ: الميم الأولى من الاسم الشريف، (امتدت) أَيْ: انبسطت وزادت (سائر) أَيْ: جميع (العوالم) بكسر اللام جمع عالم بفتحها، (الخلقية) أي المخلوقة، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي امتدت منه جميع أنواع المخلوقات، كما يشهد به الحديث الآتي عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكما تقدَّم بيانه أيضًا.

(وهو عبد اللَّه) مبتدأ وخبر، والإضافة للتشريف، والعبد في الأصل من الصفات التي غلبت عليها الاسمية، مشتق من العبودية التي هي التذلل والخضوع لا من العبادة التي هي غايتها، وتبقى العبودية في الجنة دون العبادة، فهي أفضل من العبادة من الصحيح.

وهي أشرف أوصافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحبها إليه، وقدمه امتثالاً لما في الحديث الصحيح وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلَكِنْ قُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، ولأنه أحب الأسماء إلى اللَّه تعالى وأرفعها إليه. قال الشيخ أبو علي الدقاق: ليس للعبد صفة أتمّ ولا أشرف من العبودية.

ولذا أطلقها الباري سبحانه وتعالى على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أشرف المقامات كمقام الإسراء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وتنزيل الوحي قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، وقال تعالى وتبارك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾.

فلو كان له وصف أشرف منه لذكره به في تلك المقامات العلية. ومن

ثـم خُيّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن يكـون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا فاختار العبودية. ومما ينسب للقاضي عياض، شعر:

وممـــا زادنـــي شـــرفًا وتيهًـــا ... وكـدت بأخمصـي أطـأ الثريـا
دخـولي تحـت قولـك يـا عبـادي ... وأن صـيَّرت أحمـد لـي نبيـا

وقال غيره:

فــلا تــدعني إلا بيـــا عبــدها ... فإنـــــه أشـــــرف أســــمائيا

وسبب أشرفية هذا الوصف أن الألوهية والسيادة والربوبية إنما هي بالحقيقة لله تعالى لا غير، والعبودية بالحقيقة لمن دونه، ففي الوصف بها إشارة أي إشارة إلى غاية كماله تعالى وتعاليه، واحتياج غيره إليه في سائر أحواله وأطواره وأفعاله.

وقوله: (ورسوله) بالرفع عطف على عبد الله. والرسول في اللغة: المرسل من مكان إلى مكان، فعول بمعنى مفعول أي المرسول. واصطلاحًا: إنسان حر أوحي إليه بشرع يعمل به وأُمر بتبليغه، فإن لم يؤم بتبليغه فهو نبي فقط، كما هو المشهور عندهم. وقيل: مترادفان.

فائدة: رُوِي أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا. وقيل: مائتا ألف وخمسة وعشرون ألفًا. وقيل: ألف ألف ومائتا ألف وخمس وعشرون ألفًا. والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر. وقيل: وأربعة عشر. وقيل: وخمسة عشر.

والمذكور منهم في القرآن خمسة وعشرون، ثمانية في في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، في سورة الأنعام، والباقي سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآدم وصالح وشعيب وهود وإدريس وذو الكفل، وأولو العزم منهم خمسة جمعها بعضهم في بيت شعر بقوله:

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

وفضلهم على هذا الترتيب، يعني أن أفضلهم سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سيدنا إبراهيم الخليل، ثم سيدنا موسى الكليم، ثم سيدنا عيسى المسيح ابن مريم، ثم سيدنا نوح، عليهم الصلاة والسلام.

وما تقدّم من الخلاف في عدد الأنبياء والرسل أقوال، والحق الوقف والإمساك عن حصرهم، ولا يعلم عدتهم إلا اللَّه سبحانه وتعالى، قال اللَّه تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، لأنه ربما أثبت النبوة والرسالة لمن ليس بنبي أو نفاها عمن هو نبي أو رسول، فالحق التفويض والإمساك عن الحصر.

بل يجب الإيمان بهم إجمالاً، وإنما يجب الإيمان تفصيلاً بمن ذكر في القرآن منهم، قال النسفي في "بحر الكلام": والسلامة في هذا المقام أن نقول: والسلامة في هذا المقام أن تقول: آمنت باللَّه وبجميع ما جاء من عند اللَّه، على ما أراد اللَّه تعالى به وبجميع الأنبياء والرسل، حتى لا يعتقد

نبيًا من ليس نبيًا أوعكسه اه.

(وحاء) بالجر على عطف، (رحمته التي رُحِم) بالبناء للمفعول، (بها) أي بتلك الرحمة، (الملوان) نائب فاعل رحم، مثل عصا أصله ملووهما الليل والنهار، أَيْ: رحم بها أهلهما أو كل مخلوق فيهما.

قال في "شرح دلائل الخيرات": الملك ملكان ملك الدنيا وملك الآخرة. فالميم الأولى للأول والثانية للثاني، والرحمة عامة لهما، فكانت الحاء واحدة وكانت بينهما ليتجاذباها، فكل واحد منهما مستمسك بحظه منها، ولأنها صلة بين الملكين، لأنه إنما يتصل للمرء نعيم الدنيا بالآخرة بها، فتلك الرحمة إنما تتصل له باستمساكه به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بوصله إلى رحمة الآخرة، فهو الواسطة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وتأخرت الدال لأن الدوام أمر يعرض من قبل النهايات، وليكون متصلاً بالملك الثاني، دلالة على أنه هو الدائم، أما الأول فلا دوام له اه.

وقال بعض أهل المعاني: الميم الأولى محو الكفر بالإيمان، أو محو سيئات من اتبعه، أو منّة الله تعالى على المؤمنين به، والحاء حكمه بين الخلق بحكمه تعالى، والميم الثانية ملكه الذي أعطاه اللَّه تعالى له، ولم يعطه لأحد قبله، وذلك أنه قرن اسمه مع اسمه في المشرق والمغرب، والدال دليل الخلق في الدنيا، لأنه الداعي إلى اللَّه تعالى، ودليلهم في الآخرة إلى الجنة.

ويقال أن مما أكرم به الآدمي إن كانت صورته على ترتيب اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالميم الأولى بمنزلة رأس الإنسان، والحاء بمنزلة اليدين،

والميم الثانية بمنزلة السرة، والدال بمنزلة الرجلين. قيل: ولا يدخل النار من يستحق دخولها، أعاذنا الله منها، إلا ممسوخ الصورة، إكرامًا لصورة هذا اللفظ الشريف. ذكره في "المواهب".

(و) الذي (من ميمه الأخرى) أَيْ: الميم الثانية من اسمه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تَعَيَّنَت) أَيْ: تخصَّصت وتفجَّرت (مياه) جمع ماء. قال في "المصباح": الْمَاءُ أَصْلُهُ موه، فَقُلِبَتْ الْوَاوُ أَلِفًا لِتَحَرُّكِهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا، فَاجْتَمَعَ حَرْفَانِ خَفِيَّانِ فَقُلِبَتْ الْهَاءُ هَمْزَةً وَلَمْ تُقْلَبْ الْأَلِفُ، لِأَنَّهَا أُعِلَّتْ مَرَّةً، وَالْعَرَبُ لَا تَجْمَعُ عَلَى الْحَرْفِ إعْلَالَيْنِ، وَلِهَذَا يُرَدُّ إلَى أَصْلِهِ فِي الْجَمْعِ وَالتَّصْغِيرِ فَيُقَالُ مِيَاهٌ وَمُوَيْهٌ، وَقَالُوا: أَمْوَاهٌ أَيْضًا مِثْلُ بَابٍ وَأَبْوَابٍ، وَرُبَّمَا قَالُوا: أَمْوَاءٌ بِالْهَمْزِ عَلَى لَفْظِ الْوَاحِدِ.

(العوالم) بكسر اللام جمع عالم بفتحها أي اللام، أَيْ: أنواع المخلوقات (الحسية) أي الشهادة المرئية كالطعام والشراب، (والمعنوية) كما علمت أنه الواسطة لكل شيء، وهو أصل العوالم على الإطلاق، وأساس شرفها بالاتفاق، ولا موجود إلا وهو مستمد من وجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه أصل الأشياء وأُسّها.

(وامتلاؤها) مبتدأ والخبر كاين الذي هو متعلق قوله: (من أنوار) جمع نور وهو مقابل الظلمة، أَيْ: أنوار حسية ومعنوية، فالأشياء قبل وجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت معدومة، فنشأت من نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يأتي في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحكم وإخلاص (وأسرار) جمع سر هو ضد الجهر وهو ما يُكتم،

(وإذعان) بكسر الهمزة مصدر أذعن أَيْ: انقاد وخضع وذلَّ وأقرَّ وأسرع في الطاعة واستسلم، كما في "القاموس". والإذعان: هو التصديق الباطني وهو قول النفس: آمنتُ وصدقتُ، أَيْ: خضوع لعظمة اللّٰه تعالى.

(و) الذي (من) سر (دال ذلك الاسم) الشريف (دامت) أَيْ: استدامت أي ثبتت وسكنت (نظامات) أَيْ: استقامات (الممالك) جمع مملكة بفتح اللام وتضم عز الملك وسلطانه وعبيده، وبضم اللام وسط المملكة.

(الملكية) أي المنسوبة للملك بضم الميم: اسم من ملك. قال في "المصباح": مَلَكَ عَلَى النَّاسِ أَيْ: أَمْرَهُمْ إذَا تَوَلَّى السَّلْطَنَةَ، فَهُوَ مَلِكٌ بِكَسْرِ اللَّامِ، وَتُخَفَّفُ بِالسُّكُونِ، وَالْجَمْعُ مُلُوكٌ، وَالِاسْمُ الْمُلْكُ بِضَمِّ الْمِيمِ. أَيْ: بالقهر والغلبة عليهم.

(ودامت) أَيْ: ثبتت واستقامت (صولة) أَيْ: سطوة (الدين) أيضًا (ببركته) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (و) دام (نفعها في) كل وقت، وامتد منها (العالمان) تثنية عالم، والمراد بهما عالم الملك وهو ما ظهر لنا، والثاني عالم الملكوت وهو ما خفى عنها.

وحاصل المقام أن العوالم أربعة، أحدها عالم الملك وهو ما ظهر لنا، والثاني عالم الملكوت وهو ما غاب عنا من المحسوسات كالجنة والنار والعرش والكرسي، والثالث عالم الجبروت وهو عالم الأسرار والعلوم والمعارف، والرابع عالم العزة وهو ما اختص اللّٰه به من علم ذاته وصفاته. ذكره الأستاذ الصاوي في "شرح الصلوات الدرديرية".

والعالمان في كلام المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مجرور بحركة مقدرة على

الألف، على لغة من يلزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة رفعًا ونصبًا وجرًا، كما مرَّ فتقول في إعرابه: في حرف جر، والعالمان مجرور بفي وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، أو تقول في إعرابه: الكسرة الظاهرة على النون، على طريقة من يعربه كالمفرد، ويعربه كالمقصود. وعليه لَا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةٍ، و﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾.

ومن العرب من يلزمه الألف ويعربه كالمفرد فيقول: جاء الزيدان، بضم النون، ورأيتُ الزيدان، بفتحها، ومرَّرتُ بالزيدان، بكسرها، كما في "حواشي الشيخ خالد".

فافهمْ وقِسْ عليه نظائره فيما يأتي كله من قوله: ستر الداران وغيره، ولا تعترض على الأستاذ في تركيبه، إذ هو يعلم اللغات والفنون، ومثله لا يلحن، كيف وقد شرح "ألفية ابن مالك" في النحو و"الآجرومية" وغيرهما، وإذا كان كذلك فكلامه فصيح على أحد اللغات الواردة في النحو. قال الشاعر:

إِن أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا   قد بلغا فِي الْمجد غايَتَاهَا

والقياس أبيها، وقوله: غايتاها والقياس غايتيها، فخالف الشاعر القياس مراعاة لمن يلزم المثنى الألف في الحركات الثلاث، وكذلك الأستاذ رضي اللَّه تعالى عنه.

ولما كانت سعادة الدارين مناطة بمعرفة الأحكام الشرعية والعمل، وكان أخذها من جهة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصوله إلينا من جهة آله وأصحابه، رضوان اللَّه عليهم أجمعين، صارت الصلاة عليه أصالة وعليهم

تبعًا من روادف حمده تعالى بقوله:

(صلَّى اللَّه عليه) صلَّى فعل ماض مصدره التصلية، وهذا المصدر مهجور لم يسمع لايهامه تصلية النار، هكذا قاله غير واحد، ويؤيده قول "القاموس": صَلَّى صَلاةً، لا تَصْلِيَةً: دعا.

وَيَرُدُّهُ مَا أَنْشَدَهُ ثَعْلَبٌ:

تَرَكْتُ الْقِيَانَ وَعَزْفَ الْقِيَانِ   وَأَدْمَنْتُ تَصْلِيَةً وَابْتِهَالًا

الْقِيَانُ جَمْعُ قَيْنَةٍ: وَهِيَ الْأَمَةُ، وَعَزْفُهَا: أَصْوَاتُها. قَالَ: وَالتَّصْلِيَةُ مِنْ الصَّلَاةِ، وَابْتِهَالًا مِنْ الدُّعَاءِ. وَقَدْ ذَكَرَهُ الزَّوْزَنِيُّ فِي مَصَادِرِهِ. وَفِي الْقُهُسْتَانِيِّ: الصَّلَاةُ اسْمٌ مِنْ التَّصْلِيَةِ وَكِلَاهُمَا مُسْتَعْمَلٌ، بِخِلَافِ الصَّلَاةِ الشَّرْعِيَّة الَّتِي هِي أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ ذَات الأَرْكَانِ المَعْلُومَة، فَإِنَّ مَصْدَرَهُ لَمْ يُسْتَعْمَلْ كَمَا ذَكَرَهُ الْجَوْهَرِيُّ.

والصلاة هنا هي المأمور بها في خبر: أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟، فَقَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ إلخ، لا مطلق الصلاة، والفرق بينهما أن مطلق الصلاة معناه الرحمة، والصلاة المأمور بها معناها طلب الرحمة لأنها من مخلوق، فيلاحظ كونها مأمورًا بها ليحصل بها امتثال الأمر فتكون أتم من غيرها. وقيل: معناها العطف كما ذكره ابن هشام في "المغني". فإن أضيف إلى اللَّه فهو بمعنى الرحمة، وإن أضيف إلى الملائكة كان بمعنى الاستغفار، وإن أضيف إلى الآدميين كان بمعنى الدعاء اه

وقال غيره: هي من اللَّه الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن غير

ولو شجرًا أو حجرًا أو مدرًا التضرع والدعاء، وربما يكون المآل واحدًا.

وهل يكره إفراد الصلاة عن السلام أو لا؟، خلافٌ، والصحيح أنه لا يكره لكن عدم الكراهة مشروط بما إذا كان واردًا، فإن كان واردًا في حديث فلا يكره الإفراد، وكذا لا يكره إذا كان في الحجرة الشريفة أو قريبًا منها كالروضة. فإذا كان في الحجرة الشريفة أو الروضة كأن يقول: السلام عليك يا رسول الله.

وكذا لا يكره إذا كان منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنها حقه فله الإفراد والاقتصار على أحدهما، وقد سلَّم عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجر، وهو الآن بمكة مشهور بسوق الليل، مكتوب عليه هذان البيتان، ويزار ويتبرك به، وهما:

أنا الحجر المُسَلِّم كل حين على خير الورى فلي البشارة
وحزت فضيلة من عند ربي خصصت بها وأني من الحجارة

والصحيح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتفع بالصلاة عليه، لكن لا ينبغي التصريح بذلك، كما أشار إليه بعضهم بقوله:

وصححوا بأنه ينتفع بذي الصلاة شأنه مرتفع
لكنه لا ينبغي التصريح لنا بذي القول وذا صحيح

وقيل: لا ينتفع بها لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخرج من الدنيا إلا وقد أفرغت عليه الكمالات كلها، وورد بأنه ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، فلم يزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يترقى في الكمالات كل لحظة، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾، بناءً على ما

قاله أهل الحقيقة من أن المعنى: ولا اللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة.

(وعلى آله) أَيْ: أتباعه إلى يوم القيامة، إذ المراد بالآل هنا أمة الإجابة، فالحاصل أن الآل لهم ثلاثة مقامات، وربما تكون أقوالاً، ففي مقام الدعاء المراد بالآل كل مؤمن ولو عاصيًا لأنه أحوج من غيره للدعاء، وفي مقام المدح كل تقي، وفي مقام الزكاة مؤمنو بني هاشم والمطلب على خلاف المذاهب.

والمراد بالآل ههنا سائر أمة الإجابة مطلقًا، وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: آل محمد كل تقي، فمحول على التقوى من الشرك، لأن المقام للدعاء.

ونقل اللقاني في "شرح جوهرته": أنه يطلق على بني هاشم أشراف، والواحد شريف كما هو مصطلح السلف، وإنما حدث تخصيص الشريف لولد الحسن والحسين في مصر خاصة في عهد الفاطميين.

قال: ويجب إكرام الأشراف ولو تحقق فسقهم، لأن فرع الشجرة منها ولو مال.

وفي "شرح الزرقاني على المواهب": وفي أنهم بنو هاشم أو والمطلب أو عترته وأهل بيته، أو أتقياء أمته، واختير في مقام الدعاء، وأيد بأنه إذا أطلق في التعاريف شمل الصحب والتابعين لهم بإحسان أقوال اه.

ولما صلَّى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله، عقب بالصلاة على الصحب فقال: (وأصحابه) جمع قلة لصاحب وإن كانوا ألوفًا، لأن جمع

القلة والكثرة إنما يعتبران في نكرات الجموع، أما في المعارف فلا فرق بينهما.

والصحابي مفرد وهو: من اجتمع بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مؤمن به وكان بعد البعثة، وإلى الأرض أقرب ولو صغيرًا، وقول بعضهم: ومات على ذلك شرط لدوام الصحبة.

(ما) مصدرية ظرفية، (ظهرت) للعارفين (أسرار) جمع سر، (حِكْمية) محكمة في قلوبهم، وهي بكسر الحاء وسكون الكاف، أَيْ: منسوبة للحكمة بالكسر، أَيْ: مدة أسرار الحكمة التي أطلع اللَّه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها.

(و) مدة (ما برزت) أَيْ: خرجت وظهرت للعلماء (علوم) جمع علم، (وحكم) بكسر الحاء: جمع حكمة وهي تحقيق العلم وإتقان العمل كما في "الأنوار". (ومعرفة) بقواعد الشريعة، (و) ما (ألزم) بالبناء للمفعول أَيْ: أوجب (في البعض) أي بعض العلوم (الكتمان) بكسر الكاف مصدر كتم، يقال: كتمت زيدًا الحديث، من باب قتل، كتمًا وكتمانًا بالكسر، كما في "المصباح".

والمعنى ومدة إلزام اللَّه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي أمره بكتم بعض ما اطلعه عليه من الأسرار عن غير أهله، أو يكتمه مطلقًا، لأن له علومًا لم يطلع اللَّه عليها غيره، وذلك لأن اللَّه تعالى أنزل عليه علومًا أمره بتبليغها، كعلوم الشريعة فبلَّغها ولم يكتم منها حرفًا واحدًا.

ومنها ما خُيّر فيها وعلَّمها لبعض خواص أصحابه كالإمام علي رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ، ولذلك قال: في صدري علوم لو بثثتها لرميتموني بالزندقة أو كما قال، قيل: هي التي ورثوها الأولياء بالباطن.

ومنها ما أمره بكتمها ولم يخبر بها أحدًا.

ولما كان المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أكابر الوارثين في الباطن، ومستوجب الثناء على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك أتى بالصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلسان الحقائق وقال:

(اللَّهُمَّ) قال الخروبي: هو توجُّه للمطلوب وطلب لحصول المرغوب بالتوسل بالاسم الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، ولُفظ به بصيغة حذف فيها ياء النداء المتضمنة لوجود البينونة النفسانية، إذ حذفها يقتضي زوال ذلك. وتعويض الميم من حرف النداء في لفظ الجلالة يقتضي قوّة الهمّة في الطلب والجزم به، وإنّما جعل هذا الاسم العظيم في أوائل الأدعية غالبًا، لأنه جامع لجميع معاني الأسماء الكريمة وهو أصلها، أَيْ: يا اللَّهُ.

(صَلِّ) أَيْ: اثنِ عليه عند ملائكتك، أو شرِّف وكرِّم، أو عظِّم أو اعتني وزد الخير، أو اجعل اللطف والرحمة المقترنة بالتعظيم المنبعثة عن العطف والحنان.

(وَسَلِّمْ) أَيْ: اجعل مزيد تحية وتأمين (على قبلة) أي جهة أنوار (تجلياتك) أي تنزلاتك الرحمات بفتح الجيم وكسر اللام مشددة، هو الظهور والاطلاع على الحقائق الغيبية والأسرار المصونة الخفية. وعند الصوفية: ما يكون مبدأه صفة من الصفات من حيث تعيينها وامتيازها عن

الذات، كذا في "التوقيف".

وقال صاحب "لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام": يعنون بالتجلي الصفات تجريد القوى والصفات عن نسبتها إلى الخلق بإضافتها إلى الحق، وذلك أن العبد إذا تحقق بالفقد الحقيقي، وهو انتفاء الملك بشهود العزلة تعالى صار قلبه قبلة للتجلي الصفاتي، بحيث يصير هذا القلب التقي النقي مرآة ومجلى للتجلي الوحداني الصفاتي، الشامل حكمه لجميع القوى والمدارك، كما إليه الإشارة بالحديث القدسي: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به الحديث. وأطال في بيان ذلك اه.

(الربانية) بفتح الراء وتشديد الموحدة وكسر النون وتشديد التحتية، أَيْ: المنسوبة إلى الرب تبارك وتعالى، بزيادة ألف ونون على غير قياس للمبالغة في النسبة.

(محل) بالجر بدل من قبلة أو بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، أي هو محل (نظرك) في ملكك وملكوتك لكونه حبيبك، (من الوجود) في ملكك وملكوتك أيضًا. والوجود في الأصل مصدر بمعنى المفعول وأل فيه عوض عن المضاف إليه المحذوف.

أي: وجود الكون، والمراد بوجوده عينه، والوجود أمر اعتباري ليس زائدًا على الذات، فيكون عين الوجود في الحادث اتفاقًا من متكلمي أهل السنة، وفي القديم على رأي الأشعري، وقال الرازي: غير الموجود لأنه صفة من الصفات باتفاق، والصفة غير الموصوف.

(عالي) أَيْ: مرتفع من العلو وهو الارتفاع في (الشأن) أي الحال

والأمر، أَيْ: رفيع المقام عندك.

(كتاب) بالجر والرفع كما تقدَّم في قوله: محل، فيكون بالجر بدلاً وبالرفع خبر لمبتدأ محذوف، أَيْ: هو كتاب طلسم (أسرارك) المخزونة وهو بفتح الهمزة جمع سر أَيْ: أسرار ذاتك (المنطوية) في قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (الحقية) المنسوبة للحق.

(العلمية) اللدنية المنسوبة للعلم، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محل لأسراره تعالى وكمالاته، حيث أفاض عليه ما لا يوجد في غيره من الخلق، ومنه تطلب الأسرار، وتلتمس وتستمد وتقتبس.

(مظهر) بفتح الميم مصدر ميمي من ظهر الشيء ظهورًا برز بعد الخفاء، وظهر الحمل تبيَّن وجوده، أي اسم فاعل من أظهر أَيْ: موضع ظهور، أو الذي به ظهور وتجلي.

(الرحمة من حضرتها) أَيْ: الرحمة، (و) هي حضرة (مجلى) بفتح الميم واللام بينهما جيم ساكنة، مصدر ميمي من جلا أَيْ: كشف يقال: جلا الخير للناس، جلا بالفتح والمد وانكشف. أَيْ: محل جلاء أي ظهور.

(اسمك الرحمن) فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موضع أسرار اللَّه الناشئة من رحمانيته سبحانه وتعالى، فلا تؤخذ إلا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

(و) صلّ وسلّم (على آله) عطف على قوله: قبلة، أَيْ: صلّ وسلّم أيضًا على آله، أَيْ: آل سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعلوم من المقام، وفي كلامه الصلاة على غير الأنبياء والملائكة تبعًا، وهي جائزة اتفاقًا بل

مطلوبة لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ. وللنهي عن الصلاة البتراء وهي التي لم يذكر فيها الآل.

وأما استقلالاً فقيل: بأنها ممنوعة، وقيل: مكروهة، وقيل: خلاف الأولى، والأصح الكراهة، وألحق أبو محمد الجويني السلام بالصلاة بالنظر للغائب، وأما المخاطب فيخاطب بالسلام عليك أو عليكم أو نحوه.

واختلف في المراد بالآل في مثل هذا الموضع، فالأكثرون أنهم قرابته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين حُرّمت عليهم الصدقة على الاختلاف، وقيل: جميع أمة الإجابة، وإليه مال مالك واختاره الأزهري والنووي في "شرح مسلم"، وقيل: غير ذلك. اه "شرح التحرير" وذكر القهستاني: أن مختار المحققين الثاني.

(وصحبه) هو اسم جمع لصاحب بمعنى الصحابي، أَيْ: لا بالمعنى اللغوي، وهو من بينك وبين مواصلة ومداخلة، ولا بمعنى الصاحاب الذي هو بمعنى التابع المقلد لغيره كأصحاب الأئمة رضي اللَّه تعالى عنهم.

والصحابي: كل مسلم رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومات على ذلك، كما في "المنح". وقال في "شرح التحرير": والصحابي عند المحدثين وبعض الأصوليين: من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلمًا.

وأما قولهم: ومات على الإسلام، فهو شرط لدوام الصحبة لا لأصلها، فإن ارتد والعياذ باللَّه تعالى ومات مرتدًا، فليس بصحابي، كعبد اللَّه بن خطل، وظاهره أنه إن عاد للإسلام تعود له صحبته وإن لم يلقه بعد

الإسلام، وهذا ظاهر على مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه: أن المرتد لا يحبط عمله ما لم يمت على الردة، أما عند الحنفية: فبمجرد الردة يحبط العمل.

والصحبة من أشرف الأعمال، لكنهم قالوا: أنه الإسلام، تعود أعماله مجردة عن الثواب، ولذا لا يجب عليه قضاؤها، سوى عبادة بقي سببها كالحج وكصلاة صلاها فارتد فأسلم في وقتها، وعلى هذا فقد يقال تعود صحبته مجردة عن الثواب.

وقد يقال: إن أسلم في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تعود صحبته ما لم يلقه لبقاء سببها، فتأمّل. وفائدة عودها التسمية والكفاءة، فيسمي صحابيًا، ويكون كفوًا لبنت الصحابي.

ويدخل في الصحابي ابن أم مكتوم ونحوه من العميان، ويدخل عيسى عليه السلام لاجتماعه به في بيت المقدس، والخضر والياس عليهما السلام.

وتدخل الملائكة مع الذين اجتمعوا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأرض، بناءً على أن وجود الملائكة متعارف، ومن اجتمع به في السماء من الملائكة غير صحابي، فعيسى عليه السلام آخر الصحابة من البشر الظاهرين، وأما الملائكة فباقون إلى النفخة.

والخضر يموت عند رفع القرآن، وقيل: بل مات. والحاصل أن الخضر والياس حيَّان على المعتمد، ولكن الياس رسول بنص القرآن قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وأما الخضر فقيل: ولي، وقيل: نبي، وقيل:

رسول، وخير الأمور وسطها.

وفي "الأنموذج": أن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقال عدة الأنبياء. وفي "الألفية": أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفًا من الصحابة.

(ما) مصدرية ظرفية (استقامت) أَيْ: اعتدلت (الملة) فاعل استقامت، والملة: الدين من حيث أنه يملي، وسميت ملة لكون أمليت علينا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه. قال الراغب: هي اسم لما شرع اللَّه على لسان الأنبياء ليتوصلوا به إلى جواره، والفرق بينها وبين الدين: أن الملة لا تضاف إلا للنبي الذي تسند إليه، ولا تكاد توجد مضافة إلى اللَّه ولا إلى آحاد الأمة، ولا تستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها. ذكرها الزرقاني.

(الحنيفية) نسبة إلى الحنيف أَيْ: المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وقد غلب هذا الوصف على سيدنا إبراهيم عليه السلام، حتى نسب إليه من هو على دينه.

(وما ترجم) بفتح التاء بوزن فعلل مثل دحرج، يقال ترجم فلانه كلامه إذا بيَّنه وأوضحه، وترجم كلام غيره: إذا عبَّر عنه بلغة غير لغة المتكلم.

(بلسان) أي بلغة (الحقيقة) الحقيقة هي القرآن والسنة، وحقيقة الشيء منتهاه وأصله المشتمل عليه، هذا في اللغة، وأما عند أرباب السلوك: العلوم المدركة بتصفية الباطن، فهي ثمرة الطريقة من فهم دقائق الأشياء، كشهود الأسماء والصفات وشهود الذات وأسرار القرآن، وأسرار المنع

والجواز، والعلوم الغيبية التي تكتسب من معلم، وإنما تفهم عن الله تعالى بالفيوضات الإلهية والإلهامات الربانية، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أَيْ: بغير واسطة معلم، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أَيْ: فهمًا في قلوبكم تأخذونه عن ربكم من غير واسطة معلم ولا اكتساب.

(و) مدة ما نطق عارف بلسان (الشريعة) الغرَّاء المنورة المطهرة، (ترجمان) اسم فاعل من ترجم، جمعه تراجم مثل زعفران وزعافر، وأفصح اللغات فيه فتح التاء وضم الجيم، أو ضمهما معًا، وتجعل التاء تابعة للجيم، أو فتحها وتجعل الجيم تابعة للتاء، والتاء والميم أصليتان.

وهو في الأصل: اسم لمقلن معاني الكلمات، والمراد منه هنا الملقن كل العلوم الشرعية والعلوم الغيبية اللدنية التي نشأت عن ذي القدم سبحانه وتعالى.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَعَ فِي الخَاطِرِ تَأْلِيفُ مَوْلِدٍ يُتْلَى فِي بَعْضِ أَخْبَارِ وِلَادَةِ الحَقِيقَةِ الأَحْمَدِيَّة ۞ وَسَطعَ الوَارِدُ بِتَسْمِيَتِه بِ «الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّة» ۞ فِي مَوْلِدِ مَنْ وُضِعَ وَهُوَ مَصْحُوبٌ بِالخِتَان ۞ وَالدُّرَرِ الوَهْبِيَّة المَجْلِيَّةِ الحَقِيَّة ۞ فِي بَعْضِ أَنْبَاءِ مَنْ ظَهَرَ وَعَيْنَاهُ مَكْحُولَتَان ۞ فَرَأَيْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَةً مَنامِيَّة ۞ وَرُؤْيَتُهُ حَقٌّ كَمَا أَوْرَدَ عَنْهُ ثِقَاتُ الرُّوَاةِ بِطُرُقِ الإِحْصَان ۞ فَأَمَرَنِي أَنْ أُصَنِّفَ مَوْلِداً وأَجْعَلَ إِحْدَى قَافِيَتَيْهِ هَاءً بَهِيَّة ۞ وَالْأُخْرى نُوناً كَمَا فَعَلْتُ لأَنَّهَا نِصْفُ دَائِرَةِ الأَكْوَان ۞ وَبَشَّرَنِي أَنَّهُ يَحْضُرُ فِي قِرَاءَتِهِ إِذَا قُرِئَ فَسَطَّرْتُ لِيُتَشَرَّفَ بِهِ كُلَّمَا تُلِيَ حِكَايَةً نَوْمِيَّة ۞ وَأَنَّهُ يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ عِنْدَ ذِكْرِ الوِلَادَةِ وَعِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْغُفْرَان ۞ فَشَرَعْتُ وَأَنَا الفَقِيرُ الرَاجِي لِأَعْلَى المَشَاهِدِ القُرْآنِيَّة ۞ لِأَنَّهُ هُوَ الْقَصْدُ المُؤَمَّلُ بَرَكَةُ تِلَاوَتِهِ عَلَى مَمَرِّ الْأَزْمَان ۞ فَأَقُولُ وَأَنَا الحَقِيرُ الطَّالِبُ مِنَ اللَّهِ مَعَانِي يَعْلَمُهَا خَفِيَّة ۞ الغَنِيُّ بِاللَّهِ الشَّرِيفُ الشَّهِيرُ بِالمِيرغَنِي مُحَمَّدُ عُثْمَان ۞ ابْنُ السَّيِدِ مُحَمَّدٍ أَبِي بَكْرِ بْنِ السَّيِدِ عَبْدِ اللَّهِ تِلْمِيذُ ابْنِ إِدْرِيسَ أَحْمَدَ ذِي الأَفْعَالِ الأَحْمَدِيَّة ۞ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى الجَمِيعِ مَعَ الأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ سَحَائِبَ الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَان ۞ هَذَا وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبْرِزَ هَذِهِ العَوَالِمَ العُلْوِيَّةَ وَالسُّفْلِيَّة ۞ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ نُورِهِ فَكَانَتْ هِيَ مُحَمَّدًا بْنَ عَدْنَان ۞ وَقَالَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ جَوَابًا لِمَسْأَلَتِهِ المَحْكِيَّة ۞ وَكُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ عَنْهُ لَقَدْ بَان ۞ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرِيلَ كَمْ عُمِّرْتَ يَا جِبْرِيلُ فَقَالَ لَا أَدْرِي رِوَايَةً جَلِيَّة ۞ غَيْرَ أَنَّ كَوْكَباً يَبْدُو فِي الحِجَابِ الرَّابِعِ يَا مَعْشَرَ الإِخْوَان ۞ بَعْدَ كُلِّ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ

مَرَّةً فَهذِهِ عَلَامَاتُ اجْتِبَائِيَّة ❁ وَقَدْ رَأَيْتُهُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ أَلْف مَرَّةٍ بِلَا نُقْصَان ❁ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيفًا بِمَقَامِهِ وَأَسْرَارِهِ الْمُصْطَفوِيَّة ❁ وَعِزَّةِ رَبِّي أَنَا ذَلِكَ الكَوْكَبُ الَّذِي رَأَيْتَهُ يَا جِبْرِيلُ فِي حِجَابِ الْمَنَّان ❁ وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا لَا تَحْصُرُهُ الْأَقْلَامُ فِي الكُتُبِيَّة ❁ وَلَا يَسَعُهُ فِي الحَقِيقَةِ حِفْظُ الكَاتِبَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة ❁ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ولما أنهى الكلام على الخطبة أخذ يبيّن سبب تأليف هذا المولد الشريف وتعريف اسمه، والترغيب فيه بما وقع له من الواردات، فقال:

(أما بعد) أَيْ: بعد البسملة والحمدلة والتشهد والصلاة على من ذكر، وأتى بها اقتداءً به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه كان يأتي بها في خطبه ومراسلاته فيما رواه الحافظ عبد القادر الرهاوي عن أربعين صحابيًا.

وقال جماعة: هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود عليه السلام. وقيل: هو أول من قالها. وقيل: يعقوب. وفي "غريب مالك" للدارقطني بسند ضعيف: أن يعقوب عليه السلام لما جاءه ملك الموت، قال من جملة كلامه: أما بعد، فإنا أهل البيت وُكِل بنا البلاء.

وهذا يدل على أن من تكلم بها يعقوب، وقيل: قُس بضم القاف ابن ساعدة، وقيل: كعب بن لؤي، وقيل: يعرب بن قحطان، وقيل: سحبان بن وائل، والأول أشبه. وقد نظم ذلك بعضهم فقال:

جرى الخلف أما بعد من كان قائلا لها خمس أقوال وداود أقرب
وكانت له فصل الخطاب فبعده فقس فسحبان فكعب فيعرب

قال في "الكشاف": ويدخل في فصل الخطاب أما بعد، فإن المتكلم

إذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله: أما بعد اه.

ويستحب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات اقتداءً برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولا يستحب بها أول الكلام. وأصلها: مهما يكن من شيء بعد البسملة والحمدلة والصلاة إلخ.

(فلما كان) جواب أما أَيْ: فأقول لما كان (يوم الجمعة) أي الموافق عشرين يومًا خلت من شهر صفر، سنة ألف ومائتين وثلاثين من الهجرة كما ذكره الأفاضل.

وأول اليوم من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وهو مذكر وجمعه أيام، وتأنيث الجمع أكثر، فيقال: أيام مباركة وشريفة، والتذكير على معنى الحين والزمان، والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهارًا كان أو ليلاً، كما في "المصباح".

والجمعة من الاجتماع كالفرقة من الافتراق، وفي ميمها الضم وهي لغة أهل الحجاز، وبها أقرَّ العامة، والفتح وهي لغة بني تميم بمعنى الفاعل، أَيْ: الجامع للناس، والكسر وبه قرأ شذوذًا كالفتح، والسكون بمعنى أي اليوم المجموع فيه، والجيم في كل اللغات مضمومة، ذكره العيني.

(وقع) لي وكان ذلك في سياحته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لإرشاد الناس في إقليم السودان، وكان في يوم الجمعة كما ذكر، أي حصل لي (في الخاطر) أَيْ: في خاطري أَيْ: ذهني، أَيْ: الوارد الإلهي لأن قلوب العارفين مطهرة من

نزغات الشيطان وتسورات النفس، فإن الله قد حفظها وأعدها بيوتًا لتجلياته، فلا يبدو لهم إلا ما هو حق.

(تأليف) أَيْ: جمع، والتأليف جمع ما فيه ألفة، (مولد) بفتح الميم وكسر اللام مصدر ميمي، يأتي بمعنى الولادة حقيقة، وبمعنى مكانها وزمانها مجازًا. والمراد هنا كتاب مؤلف فيما يتعلَّق بولادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعثه وغير ذلك مما يذكر فيه كما سيأتي.

وأمرني أن (يُتلى) أي يُقرأ في كل نهار ذلك اليوم من عصره، (في) ذكر (بعض) صحيح (أخبار) بفتح الهمزة: جمع خبر أَيْ: سير، (ولادة) بكسر الواو مصدر ولد يلد، أَيْ: وضع الذات المشتمل على (الحقيقة الأحمدية) أي المنسوبة إلى أحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو اسم لما يتسم به غيره.

قال الزرقاني: وفي "لطائف الكاشي": يشيرون بالحقيقة الأحمدية إلى الحقيقة المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة لها، أَيْ: للحقائق والسارية بكليتها في كلها سريان الكلي في جزئياته، قال: وإنما كانت الحقيقة المحمدية هي صورة لحقيقة الحقائق لأجل ثبوت الحقيقة المحمدية في خلق الوسطية والبرزخية والعدالة، بحيث لم يغلب عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكم اسمه أو وصفه أصلاً، وكانت هذه البرزخية الوسطية هي عين النور الأحمدي، المشار إليه بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أول ما خلق الله نوري، أَيْ: قدر على أصل الوضع اللغوي، وبهذا الاعتبار سُمي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنور الأنوار وبأبي الأرواح، ثم إنه آخر كل كامل، إذ لا يخلق الله بعده مثله اه.

(وسطع) أَيْ: ظهر وارتفع (الوارد) أَيْ: على والوارد يطلق على ما يتخف الله به عبده من العلوم الوهبية والأنوار العرفانية، التي ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه، فيرى الحق حقًّا والباطل باطلاً، ويطلق أيضًا على تجل إلهي يرد على القلب، وإن لم يشعر به العبد لغلظ بشرته، وقد يعبّر عنه بالحال، والمراد هنا الأول.

(بتسميته) أي المولد المذكور، وسمى يتعدى إلى مفعولين، الأول بنفسه، والثاني بحرف الجر كما هنا، أو بنفسه كما في سميت ابني محمدًا.

فالمفعول الأول هو الهاء والثاني قوله: (بالأسرار الربانية) أي المنسوبة إلى الرب، أَيْ: المربي لعباده بنعم لا تحصى، بزيادة الألف والنون للمبالغة في النسبة.

(في) سير (مولد) أي ولادة (من) أي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي (وُضِع) بالبناء للمفعول أي وُلِد، (و) الحال أنه (هو) نظيف ظريف مقطوع السرة مكحول، لئلا يكون لأحد عليه منة غير ربه، ولئلا يطلع عليه أحد، وكذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي، أو كما قال، أَيْ: على هيئة المختون لأن الختن القطع وإلا قطع هنا.

وإنما ولد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختونًا، لأنه في حقه غاية الكمال، فإن القلفة تمنع كمال النظافة والطهارة، فأوجده ربه مكملاً سالمًا من النقائص والمعايب. بل جاء على غاية الكمال كما سيأتي أنه (مصحوب بالختان).

وسميت هذا المُؤلَّف في سِيَر المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في

المولد وغيره مما سيأتي، ويذكر أَيْ: كما سميته بالأسرار الربانية، (و) كذلك سميته (الدرر) بالجر عطف على قوله: بالأسرار، والدرر جمع درة بضم الدال في المفرد والجمع.

(الوهبية) بفتح الواو أَيْ: الموهوبة من اللَّه تعالى، ووصفه بها أي بالدرر الوهبية لكونه من العلوم النفيسة الموهوبة من اللَّه تعالى خالق البرية، ولم تكن خفية بل ظاهرة، (المجلية) بفتح الميم وسكون الجيم أَيْ: الواضحة، ولم تكن باطلة بل هي (الحقية) بفتح أولها وتشديد القاف المكسورة، أَيْ: الصحيحة.

(في) بيان (بعض أنباء) بفتح الهمزة جمع نبأ، أَيْ: أخبار وسير (من) أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ظهر و) الحال أن مقلتيْهِ الشريفتين اللتين هما (عيناه) مبتدأ مرفوع بالألف والخبر قوله: (مكحولتان) مرفوع بالألف أيضًا، أي من حسنهما.

(فرأيت في تلك الليلة) أي ليلة السبت التي هي عقب يوم الجمعة المذكور، (النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالهمز وتركه مأخذ من النبأ وهو الخبر، لأن مخبر بكسر الباء، فإنه يخبر بالأحكام عن اللَّه تعالى، إن كان رسولاً ويبلغها أيضًا ويعمل بها. وإن كان نبيًا فقط أخبر بأنه نبي ليحترم، أو مخبر بفتحها لأن جبريل يخبره عن اللَّه تعالى.

أو مأخوذ من النبوة بفتح النون وهي الرفعة، لأنه مرفوع الرتبة، فإنه ما من نبي إلا وهو أفضل من أمته وأرفع رتبة من تبعه. فعلى كل فعيل صالح لاسم الفاعل واسم المفعول.

والمراد من رؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رؤية مثالية، لأن المرئي في المنام إنما هو المثال، لكن إطلاق رؤية الشخص على رؤية المثال صحيح عقلاً ونقلاً.

وقوله: (رؤية) بالنصب مفعول رأيت، وهي بضم الراء وسكون الهمزة مصدر أي البصرية، وأما مصدر رأى العلمية رؤيا بضم فسكون، ومصدر رأى الاعتقادية رأى بفتح فسكون.

واختلف في أن الرؤية بالتاء والرؤيا بالألف متحدان أو مختلفان، والجمهور على أن الأولى أي التي بالتاء أعم، فتشمل رؤية البصر واليقظة ورؤية القلب في المنام.

وهذا بحسب أصل اللغة، وأما بحسب الاستعمال فقد تستعمل التي بالألف في رؤية البصر أيضًا، والتي بالتاء في رؤية المنام، على خلاف المشهور. وقال النووي: والرؤيا مقصورة، ويجوز ترك همزتها تخفيفًا، وكذا الرؤية، والقراءتان سمعيتان.

وَقَالَ الْمَازَرِيُّ: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ حَقِيقَةَ الرُّؤْيَا خَلْقُ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَلْبِ النَّائِمِ، اعْتِقَادَاتٍ كَخَلْقِهَا فِي قَلْبِ الْيَقِظَانِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَمْنَعُهُ نَوْمٌ وَلَا يَقَظَةٌ، وَخَلْقُ هَذِهِ الِاعْتِقَادَاتِ فِي النَّائِمِ عِلْمٌ عَلَى أُمُورٍ أُخَرَ تَلْحَقُهَا فِي ثَانِي الْحَالِ كَالْغَيْمِ عَلَى الْمَطَرِ اه "جمع الوسائل على الشمائل".

ثم أن الأستاذ المُؤلِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان كثيرًا يرى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظة، ويخبره بأشياء كما أخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك.

وإنما قال رؤية (منامية) أي أو يقظة، ويدل عليها قوله فيما تقدَّم وَقَعَ في الخاطر إلخ، والخاطر لا يكون إلا في اليقظة، وذكرها منامية مخافة أن يقع لأحد إنكار في ذلك.

واستدل عليها بالآثار بقوله: (ورؤيته) اعلم أن الرؤيا على ثلاث مراتب: ما يريه الملك الموكل بالرؤيا فذلك حق، وما يريه ويمثله الشيطان، وما يحدث به المرء نفسه.

وقد وُكِّل بالرؤيا ملك يضرب من الحكمة الأمثال، وقد اطلع على قصص بني آدم من اللوح المحفوظ، فإذا نام الشخص يمثل له الملك الأشياء على طريق الحكمة، مما يكون له بشارة ونذارة ومعاتبة.

وقال في "المواهب": ثم الرؤيا المنامية منها ما يرى على حقيقته فلا يحتاج إلى تعبير، ومنها ما هو أمثلة يخلقها الله بواسطة الملك الموكل بها بتحديثه وإلقائه المعاني للروح في صورة المحسوسات المتخيلة، فتكون تلك الصورة الممثل بها دليلاً على تلك المعاني، وذلك كما كانت الأصوات والحروف والرقوم الكتابية دليلاً على المعاني حسًّا، وهذه هي التي تحتاج إلى التعبير.

قال الشيخ أبو محمد ابن محمد الفاسي: وسر جعلها في قوالب الصورة الحسية مجانسة ما في النفس من خيالات الحس، وتلوينها بالمحسوسات حتى لو تجردت وصفت من ذلك، لكوشفت بالخفاء والمعاني صرفًا من غير مثال، ولذلك كان المثال غاية الوحي وأوائله، ثم تدرج إلى المكافحة بصرف الحقائق والمعاني يقظة ونومًا، وكذلك من له

نصيب من إرثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأولياء.

ورؤية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حَقٌّ) ثابتة على كمالها لا شبهة ولا ريب فيها، وقد استدل عليها المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: (كما أورد) أي روى (عنه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثقاة) بكسر المثلثة جمع ثقة، بمعنى موثوق به لعدالته وضبطه، (الرواة) بضم الراء جمع راوي، اسم فاعل من روى يروي رواء، وزان كتاب يقال: روي الحديث إذا حمله ونقله، كما في "المصباح".

أي: نقله الرواة (بطرق) بضمتين جمع طريق، وهي معروفة، وتطلق في مصطلح الحديث على الروايات والأسانيد لاتصالها بحديث، وهو المراد هنا، قال القائل:

له حديث في الجود مشتهر   ترويه عنه الركبان من طرق

وطرق مضاف و(الإحصان) مضاف إليه وهو بكسر الهمزة أَيْ: القوة مصدر أحصن الرباعي من حَصُنَ ككَرُمَ: مَنُعَ، فهو حَصِينٌ أي قوي، ومنه الحصن للمكان الذي لا يقدر عليه لارتفاعه، كما في "القاموس". فالنون أصلية.

تنبيه: اعلم أن رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم قد وردت فيها أحاديث صحيحة، منها ما أخرجه الترمذي بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي.

ومنها: ما رواه البخاري في التعبير بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي. وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ.

قَالَ الْغَزَالِيُّ: لَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: فَقَدْ رَآنِي رُؤْيَةَ الْجِسْمِ بَلْ رُؤْيَةُ الْمِثَالِ، الَّذِي صَارَ آلَةً يَتَأَدَّى بِهَا الْمَعْنَى الَّذِي فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَكَذَا قَوْلُهُ: فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَرَى جِسْمِي وَبَدَنِي، قَالَ وَالْآلَةُ إِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَإِمَّا خَيَالِيَّةٌ، وَالنَّفْسُ غَيْرُ الْمِثَالِ الْمُتَخَيَّلِ، فَالشَّكْلُ الْمَرْئِيُّ لَيْسَ رُوحَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَخْصَهُ، بَلْ مِثَالَهُ عَلَى التَّحْقِيقِ.

وَكَذَا رُؤْيَتُهُ تَعَالَى مُنَزَّهَةٌ عَنِ الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ، وَلَكِنْ تَنْتَهِي تَعْرِيفَاتُهُ تَعَالَى إِلَى الْعَبْدِ بِوَاسِطَةِ مِثَالٍ مَحْسُوسٍ مِنْ نُورٍ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ آلَةٌ حَقًّا فِي كَوْنِهِ وَاسِطَةَ مِثَالٍ فِي التَّعْرِيفِ، فَقَوْلُ الرَّائِي: رَأَيْتُ اللَّهَ نَوْمًا لَا يَعْنِي أَنِّي رَأَيْتُ ذَاتَهُ تَعَالَى كَمَا يَقُولُ فِي حَقِّ غَيْرِهِ.

وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ رَآهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُرِدْ رُؤْيَةَ حَقِيقَةِ شَخْصِهِ الْمُودَعِ فِي رَوْضَةِ الْمَدِينَةِ بَلْ مِثَالَهُ وَشَكْلَهُ اه.

والمراد بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: فسيراني في اليقظة، بفتح القاف، أي يوم القيامة رؤية خاصة في القرب منه، أو من رآني في المنام، ولم يكن هاجر، يوفقه اللَّه تعالى للهجرة إليَّ والتشرف بلقائي، جعل رؤيته في المنام علمًا على رؤياه في اليقظة.

قال في "المصابيح": وعلى القول الأول ففيه بشارةٌ لرائيه بموته على

الإسلام، وكفى بها بشارةً، وذلك لأنه لا يراه في القيامة تلك الرؤية الخاصة باعتبار القرب منه، إلا مَنْ تُحُقِّقَتْ منه الموافاة على الإسلام، حقَّقَ اللَّه لنا ولأحبابنا وللمسلمين ذلك بمنِّه وكرمه.

ومعنى: لا يتمثل الشيطان بي، أَيْ: لا يحصل للشيطان مثال صورتي ولا يتشبه بي، فكما منع اللَّه الشيطان أن يتصور بصورته الكريمة في اليقظة، كذلك منعه في المنام لئلا يشتبه الحق بالباطل، فلا يستطيع ذلك، سواء رآه الرائي على صفته المعروفة أو غيرها على المنقول المقبول عند ذوي العقول، لأنه سبحانه وتعالى أرسله رحمة للعالمين هاديًا للضالين محفوظًا من الشياطين، فكيف يتصور أن يتمثل الشيطان بصورته لتمثل في الخارج.

كذلك فرؤياه حق على أي صورة كانت، ثم إن كانت في شبابه أو كهولته أو آخر عمره كانت إدراكًا على الحقيقة، لم تحتج لتأويل، وإلا احتيجت لتعبير متعلق بالرائي.

ومن ثم قيل: من رآه شيخًا فهو في غاية سلم، أو شابًا فهو في غاية حرب، أو مبتسمًا فهو مستمسك بسنته، أو على حالته وهيئته فهو دليل على صلاح الرائي وكمال وجهاته وظفره، وعكسه بعكسه، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها ما يقابلها، وإن كانت ذاته على أحسن حال وأكمله.

وبه علم صحة رؤية جمع له في آن واحد في أقطار متباعدة بأوصاف متخالفة، وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراج ونور الشمس مثال نوره في

العوالم كلها، فكما أن الشمس يراها كل إنسان في المشرق والمغرب في ساعة واحدة بصفات مختلفة، كذلك هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحُكِي عن البارزي واليافعي وعبد القادر الجيلي وأبي الشاذلي والمرسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان يقول: لو حُجب عني رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفة عين ما أعددت نفسي من المسلمين. وسيدي علي وفا والقطب القسطلاني وغيرهما أنهم رأوه يقظة اه.

وكان الشيخ محمد بن أبي يرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظة كثيرًا حتى يقع له أن يسأل في الشيء يقول: حتى أعرضه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيدخل رأسه في جيبه فيقول: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا.

وقد شاهدنا ذلك عند المُصنِّف أحيانًا وأكثر منه، وكثير من تلامذه كذلك، أستاذنا الشيخ أحمد حريبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن كلام أستاذنا الشيخ أحمد المذكور:

أشاهده في كل غيب وحاضر   وألحظه بالعين في القرب والبعد

قال ابن أبي جمرة: ومنكر ذلك إن كان ممن يكذب بكرامات الأولياء فلا كلام معه، وإلا فهذه منها، إذ يكشف لهم بخرق العادات عن أشياء في العالم العلوي والسفلي.

وسبقه لنحوه حجة الإسلام الغزالي فقال في كتابه "المنقذ من الضلال": وهم يعني أرباب القلوب في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد اه.

ورؤية الأنبياء شرف في الدنيا، ورؤية الملائكة شرف فيها وشهادة في العقبى، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يخاطبون الناس، والملائكة لا يراهم الناس لأنهم عند ربهم.

ومن كثرة رؤيته له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزل ضعيف الحال، مقلاً من الدنيا من غير احتياج. ومن فوائد رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسكين تشوق الرائي، لكونه صادقًا في محبته، ليعمل على مشاهدته. ذكره جمع منهم الشيخ الجمل.

(فأمرني) أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الرؤيا (أن أُصنِّف) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد النون والتصنيف هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض، أَيْ: أُميّز وأجمع (مولدًا) بفتح الميم وكسر اللام مصدر ميمي أَيْ: كتابًا مشتملاً على ما يتعلّق بولاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآثار الصحيحة.

(و) أمرني صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن (أجعل) آخر (إحدى قافيتيه) وهي السجعة الأولى، (هاءً بهية) بفتح الباء الموحدة أَيْ: منسوبة للبهاء بمعنى الجمال والحسن، (و) أن أجعل آخر القافية (الأخرى) أي الثانية (نونًا كما فعلت) بضم التاء (لأنها) النون (نصف دائرة الأكوان) أَيْ: المكونات بفتح الواو: اسم مفعول من كوّنه بالتشديد أحدثه، واللَّه كوّن الأشياء أحدثها وأوجدها، كما في "القاموس".

وهي السماوات والأرض ومن فيهن من المخلوقات، والزمان وهو الليل والنهار، والمعنى أن الأكوان بمعنى المكونات دائرة محيطة، والأمر

الذي هو كن متوسط ودائر فيها، بين إيجاد معدوم وإعدام موجود، وإماتة حي وإحياء ميت، فالنون نصف هذا الدائر الذي هو الأمر.

واعلم أن الأمر الذي هو كن، كناية عن سرعة الإيجاد عن تعلّق الإرادة، وليس هناك أمر حقيقة، ولا كاف ولا نون ولا قول ولا مقول له، بل هو تمثيل لسهولة تأتي المقدورات حسب مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها، كما في "الفتوحات الإلهية".

(وبشَّرني) النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بتشديد الشين من التبشير أو البشارة أَيْ: سرَّني (أنه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يحضر) بضم الضم أَيْ: يشهد (في) مجلس (قراءته) أي تلاوته أَيْ: هذا المولد، (إذا قُرِئَ) بالبناء للمفعول أَيْ: تُلِي.

(فسطَّرت) بفتح السين والطاء المشددة من التسطير أَيْ: كتبتُ متبركًا به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومقتبسًا له من الآثار وبديع الترتيب، (ليتشرف) بضم التحتية مبنيًا للمفعول، أَيْ: ليحصل الشرف والرفعة لتاليه ولسامعه، وللمكان الذي يقرى فيه، (به) أي بذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(كلما) أَيْ: وقت (تُلِي) قُري بالبناء للمجهول، هذا الكتاب، (حكاية) بالنصب مفعول لفعل محذوف، أَيْ: أحكي ما ذكر حكايةً، أو بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، أَيْ: أي هذا المذكور حكايةٌ (نومية) أَيْ: منسوبة للنوم، أي حكاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم.

(و) بشَّرني أيضًا (أنه يستجاب الدعاء) لمن دعا بشيء من المهمات الدنيوية والأخروية، أَيْ: يستجاب في موضعين منه أحدهما (عند) محل

(ذكر الولادة و) الثاني (عند) قرب (الفراغ منه) في الباب الأخير في الدعوات التي في آخره. قال في "المصباح": فَرَغَ مِنْ الشُّغْلِ فُرُوغًا مِنْ بَابِ قَعَدَ، وَفَرِغَ يَفْرَغُ مِنْ بَابِ تَعِبَ لُغَة بَنِي تَمِيمٍ، وَالِاسْمُ الْفَرَاغُ.

(فنسأل اللَّه) أَيْ: نطلب منه ونتضرع له ونبتهل ونقصده اللطف والعفو، (الغفران) بضم الغين مصدر غفر يقال: غفر اللّٰه له غفرًا، من باب ضرب، وغفرانًا صفح عنه، والمغفرة اسم منه، وأصل الغفر الستر أو المحو من صحف الملائكة، أَيْ: نطلب منه سبحانه وتعالى محو الذنوب، أو سترها بأن يسترها في الدنيا عن الآدميين، وفي الآخرة عن الملائكة، ولو كانت موجودة في الصحف، والمراد الدعاء للتالي والسامع وكل حاضر وغائب من المسلمين.

(فشرعت) أَيْ: أخذت الآن في التسطير (و) الحال أني (أنا الفقير) أَيْ: المحتاج في كل لحظة إلى رحمة ربي سبحانه وتعالى وإحسانه، فيكون فعيل صيغة مبالغة، أو الدائم الفقر أي الحاجة، فيكون صفة كرفيع، من فقر يفقر من باب تعب.

(الراجي) أَيْ: الطالب أو المريد، والرجاء بالمد تعلُّق القلب بمرغوب فيه مع الأخذ في الأسباب، كتعلق القلب بولد وهو متزوج مثلاً، فإن لم يأخذ في الأسباب فهو طمع كمن تعلَّق قلبه بولد وهو ليس بمتزوج، والرجى بالقصر هو الناحية.

أي: المرتجي (لأعلى المشاهد) جمع مشهد، وهو المحضر وزنًا ومعنى، أَيْ: لأعلى معالي المحاضر والمقامات الأنسية لارتقي فيها إلى

الأسرار (القرآنية) أَيْ: المنسوبة للقرآن.

(لأنه) أَيْ: القرآن المفهوم من النسبة، (هو القصد) أي المقصود (المؤمل) اسم مفعول من أمل المضاف أَيْ: المترقّب فيه كل المعارف الجامعة لعلوم الأولين والآخرين، المستمر (بركة تلاوته) وسماعه (على ممر) أي مرور (الأزمان) وهو من أعظم معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والممر في الأصل مكان المرور.

والمراد به هنا المار من إطلاق المصدر، وإرادة اسم الفاعل وإضافته لما بعده وهو الأزمان، من إضافة الصفة للموصوف، أَيْ: على الزمان المارة أَيْ: التي شأنها المرور، سواء مرت بالفعل أو تأتي، وعلى تحتمل المصاحبة كأتي المال على حبه أَيْ: مع حبه، وتحتمل الظرفية كقولك: كان على عهد كذا أي فيه.

وَالأَزْمَان جَمْعُ زمن مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ، والزمن يطلق على المدة القابلة للقسمة، ويطلق على الوقت القليل والكثير، والجمع أزمنة، كما في "المصباح".

(فأقولُ و) الحال أني (أنا الحقير) اسم فاعل من حقر الشي بالضم حقارة أَيْ: هان قدره فلا يعبأ به، وهذا من باب التواضع، (الطالب من اللّه) سبحانه وتعالى لا من غيره (معاني) أي أمورًا بيني وبينه لا (يعلمها) إلا هو، لأنها (خفية) أي عن ذوي المعارف، وعسى أن يمدني بها ويوليني لها، فإنه جواد كريم.

وإن كنت حقيرًا في نفسي فأنا (الغني باللّه) جلَّ جلاله لا بغيره،

(الشـريف) أَيْ: المنسوب لعلي بن أبي طالب كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وفاطمة الزهراء رضي اللَّه تعالى عنها، كما هو مذكور في نسبته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تقدَّمت في مناقب الأستاذ والسيدة فاطمة البتول بنت حضرة الجناب الأعظم سيدنا ومولانا السيد الكامل الفاتح الخاتم عمدتنا واعتمادنا الحبيب الشفيع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعدتهم ست وثلاثون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(الشهير) أي المشهور (بالميرغني) أصله أمير غني، وكان أميرًا وغنيًا، وكما أن الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهير بالميرغني هو شهير بالختم أيضًا، والختمية كان متولي الغوثية حائزًا للفضيلتين جامعًا للرتبتين، وله فضائل ومناقب شهيرة، وقد تقدَّم بعضها.

قال أستاذنا الكامل وملاذنا العالم سيدي أحمد أبو حريبة رحمه اللَّه تعالى: إذا أردت أن تطلع على بعض أوصاف مناقب الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فراجع "الخزانة القدسية"، تجده متكلمًا فيها بكلام لا تسعه العقول، ولا تدركه أفهام الفحول.

(محمد) بالرفع بدل من الحقير، وبالجر بدل من الميرغني، و(عثمان) عطف بيان، وعثمان هو اسم الشيخ الأصلي، وأما محمد فسماه به المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ذكره في بعض إجازاته، فيكون اسمه مركبًا من علمين.

(ابن) بالرفع نعت لعثمان، (السيد محمد أبي بكر) هو اسم والده، وكان عالمًا علَّامة، تقيًّا ذا خلق حسن، توفي رحمه اللَّه تعالى في هذا القرن. قال

المُصنِّف رحمه الله تعالى: رأيت الشيخ مصطفى في النوم، فقلتُ: ما حالك؟، قال: في الفردوس الأعلى، فقلتُ: ما حال والدي؟، قال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾. وقال بعد ذلك: اجتمعتُ بعد ذلك مع المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسألته عنه، فقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾. وكنيته أبو بكر.

(ابن) بالجر نعت لمحمد، (السيد عبد اللَّه) هو اسم جده صاحب الفيوضات الربانية واللطائف العرفانية، من شاع ذكره في جميع الأقطار، ولا تنكر شهرته بين الكبار والصغار، ويقال له المحجوب، لأنه كان دائمًا محجوبًا في خلوته بالطائف.

(تلميذ) بالرفع نعت لعثمان، (ابن) مضاف إليه، (إدريس أحمد) عطف بيان، وهو اسم الشيخ وكنيته ابن إدريس، واسم أبيه عبد الكريم، (ذي) أي صاحب (الأفعال الأحمدية) أَيْ: المنسوبة لأحمد، وكان هذا الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه لواء الولاية منشور، وممن انتهى ترقيه إلى كشف السماء الثانية، ولد بالمغرب في آخر القرن الثاني عشر، بقرية يقال لها القارة من أعمال فاس، شريف، أخذ العلم بفاس، وكان له مهارة عظيمة في علوم الظاهر والباطن، والأسرار، توفي باليمن عام ثلاث وخمسين ومائتين وألف، في القرن الثالث عشر، ليلة السبت الثانية والعشرين من شهر رجب، ودفن بقرية يقال لها صبيا، كما ذكره بعض الأفاضل.

وهو شريف حسني من إدريس، نشأ في الغرب، وانتقل إلى مكة، وتقدَّمت وفاته، والأستاذ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحبه من حين صغره

حتى تكمَّل عنده، وأرشده في حضرته، حتى أنه قال فيه: الأولياء بالنسبة إلى مقامه كحلقة ملقاة في فلاة، وكلامًا آخر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(أرسل) أي بعث (اللَّه) جملة دعائية، عمم بها (على الجميع) من المتقدمين والمتأخرين أيضًا (مع الإخوان) أي والآبا والمشائخ، والإخوان جمع أخ في غير النسب، وأخو النسب يجمع على أخوة، كذا ذكره بعضهم، والحق أن إخوانًا يأتي جمعًا لأخ مطلقًا.

وقوله: (والأبناء) معطوف على الإخوان، وهم أولاده ذكورًا وإناثًا، وأولاده في الطريق مطلقًا، (سحائب الرحمة) من إضافة المشبه به للمشبه، أَيْ: الرحمة الشبيهة بالسحائب في الكثرة. والسحائب جمع سحابة وهي الغيم، ويجمع أيضًا على سحاب وسحب بضمتين، كما في "القاموس"، مشتق من السحب لجر بعضه بعضًا.

(والرضوان) بكسر الراء وسكون الضاد المعجمة، إحدى مصدر رضى، وضم الراء لغة تميم وقيس، وهو ضد السخط، والمراد لازمه وهو إنعام اللَّه تعالى أو إرادة إنعامه على عبده.

(هذا) مفعول لفعل محذوف، أَيْ: افهم هذا، ما ذكر وهو في الأصل أداة إشارة قرنت بأداة التنبيه، تسمى عند البلغاء فصل الخطاب، لأنه يفصل بها بين الكلامين، كقوله تعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾، أي الأمر هذا.

أو هذا كما ذكر أو خذ هذا، أو هذا المعد للمتقين، وإن للطاغين لشر مآب، ويؤتى بها للانتقال من أسلوب، أي نوع من الكلام إلى أسلوب آخر

منه كبعد، والمعنى خذ هذا أو هذا ما ذكر، أَيْ: بعد ما ذكرت من البسملة والحمدلة والصلاة إلخ ما تقدَّم.

(ولما أراد اللّه) أَيْ: ولما تعلَّقت إرادة اللَّه بذلك تعلقًا تنجيزيًا حادثًا، بناءً على القول به، ويحتمل أن المعنى: ولما ظهر تعلّق إرادته التنجيزي القديم، بناءً على التحقيق من أنه ليس للإرادة تنجيزي حادث.

والحاصل أن للإرادة تعلقين فقط على الصحيح، وهما التعلق التنجيزي القديم والصلوحي القديم، وهي صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه.

والجائز عليه الوجود في مقابلة العدم، وكونه بصفة مقابلة لصفة أخرى كالسواد في مقابلة البياض مثلاً، ووجود الممكن في زمن كذا في مقابلة زمن كذا، وكون الممكن في جهة كذا، كالشرق في مقابلة الغرب، وكون الممكن بالقدر الفلاني في مقابلة القدر الآخر، كالطول في مقابلة القصر مثلاً، وهذه هي الممكنات المتقابلات. كما قال بعض الأفاضل:

الممكنات المتقابلات وجودنا والعدم والصفات
أزمنة أمكنة جهات كذا المقادير يروي الثقاة

فهي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه، وإن كانت صالحة للكل أزلاً فافهم.

أي: ولما تعلّقت إرادة اللَّه بإيجاد الممكن، وتعلّقت القدرة بتعلقها التنجيزي الحادث، بـ(أن يبرز) أَيْ: إبراز وظهور (هذه العوالم) بكسر اللام جمع عالم بفتحها سماعًا وقياسًا، وسمي عالمًا لأنه علامة على وجود

خالقه وصانعه سبحانه وتعالى، وهو كل ما سوى الله تعالى وذاته وصفاته.

واختلف في قدر العوالم التي أوجدها الله سبحانه وتعالى فقيل: ثمانون ألف عالم، وقيل: ثلثمائة وستون عالمًا، ثلاثمائة حفاة عراة، لا يعرفون خالقهم، وستون مكسيون يعرفونه، وقيل: ألف عالم، كما قال ابن عباس، وهو المعول عليه، ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وقيل: لا يحصى عدد العالم إلا الله سبحانه وتعالى، والأولى التفويض في مثل هذا، والقدرة صالحة.

وقوله: (العلوية) صفة لقوله: العوالم بضم العين وكسرها وسكون اللام فيهما، أَيْ: المنسوبة إلى جهة العلو، وهو ما ارتفع من الأفلاك من السماوات، وما فيهما من الكواكب والملائكة والعرش والكرسي وغير ذلك.

(والسفلية) معطوف على العلوية وهو بضم السين وكسرها، والمراد بها كل ما نزل عن الفلكيات إلى منقطع العالم كالأرض وما فيها، والهواء والسحاب والمعادن والبحار والنبات، وبها كلها من علوية وسفلية، يستدل على وجود صانعها، لأنها حادثة ومتغيرة من وجود إلى عدم وعكسه، وكل حادث لا بد له من محدث قادر حكيم متصف بالصفات القديمة.

(قبض) سبحانه وتعالى (قبضة) بفتح القاف والضم لغة، وهي في الأصل مصدر بمعنى اسم المفعول، وقال الزرقاني "على المواهب": بضم القاف أكثر من فتحها ما قبضت عليه من شيء، كما في "القاموس".

أي: قبض النور المقبوض أزلاً، فقبض الله تعالى عبارة عن قدرته

وإحاطة بجميع مخلوقاته، لا حقيقة القبض الذي هو الأخذ باليد، لأنه مستحيل عليه تعالى، ففي القبضة هنا تجوز.

(من نوره) أَيْ: من نور خلقه أولاً، ثم صورة بشكل آخر، وهو الحقيقة المحمدية التي هي ذاته الباطنية النورانية، يعني أول ما خلق اللّٰه النور المحمدي من غير تصوير، ثم صورة بصورة مماثلة لصورته في الدنيا، فالأول مادة للثاني فهو عينه، وإضافة إلى ضميره تعالى تشريفًا على حد قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾، فاندفع ما يقال هذه العبارة تقتضي سبق نور مخلوق على نور المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذ معنى من نوره: من نور خلقه، وهذا أحسن ما قيل هنا فاحفظه، ولبعضهم أن الإضافة للبيان، ومن بمعنى الباء.

قال بعض الأفاضل في معنى حديث: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أُعرف، فخلقت الخلق فبي عرفوني، أَيْ: بمحمد عرفوني.

ثم اعلم أن اللّٰه تعالى كان في أزله لم يعرف لعدم وجود من يعرفه، فأحب أن يعرف، فقبض قبضة من نوره، أَيْ: بذاته، فمن بمعنى الباء، والنور بمعنى الذات، والإضافة للبيان.

والمراد برزه بقدرته من غير واسطة مادة، تكون منها بخلاف غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه مستمد منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أصل الأصول وأول الأوائل، وهذا النور المقبوض هو المسمى بالنور المحمدي وبروح الأرواح وبالسر المحمدي، وبعرش اللّٰه الأكبر، وبآدم الأول وبالأب الأكبر وبالإنسان الكامل، ومن ذلك قول ابن الفارض في "تائيته"

عن لسان الحضرة المحمدية:

وإنـي وإن كنـت ابـن آدم صـورة   فلـي فيـه معنـى شـاهد بـأبوة

وبسر الأسرار وبإنسان عين الوجود وشجر الأصل، وغير ذلك من الأسماء المشهور بين العارفين.

ثم أفاض اللَّه على تلك الحقيقة جلائل النعم بوصف الرحمن ودقائقها بوصف الرحيم، وأمد منها العوالم كلها، كما يشهد له حديث جابر الآتي اه ببعض تصرف وزيادة.

والمراد من قوله في الحديث: كنت كنزًا مخفيًا أنه غير معروف لعدم وجود من يعرفه، وهذا هو المراد بعماء في عبارة من عبرية، كقول سيدي مصطفى البكري: بعماء كنت به أزلاً.

ويؤخذ من قوله: فأحببت أن أُعرف إلخ، أن حكمة خلق الخلق المعرفة، لأن أفعال اللَّه وإن تنزهَّت عن الغرض والعلة لا تخلو عن الحكمة، وإلا كانت عبثًا، ومعنى قوله: فبي، فيها علة حروف محمد، لأن ألفًا بثمانين والباء باثنين والياء بعشرة، وجملتها اثنان وتسعون وهي عدة حروف محمد، فإن اليمين بثمانين، والحاء بثمانية، والدال بأربعة، وجملتها اثنان وتسعون.

(فكانت) كان فعل ماض ناقص يرفع الاسم وينصب الخبر، وضمير (هي) اسمها في محل رفع أَيْ: القبضة، وقوله: (محمد) خبرها منصوب، وكذلك (ابن) منصوب نعت لمحمد وهو مضاف، و(عدنان) مضاف إليه أَيْ: بإسقاط بقية الأجداد وصحة ذلك لا تخفى، وسيأتي ذكرهم وعددهم

في كلام المُصنِّف.

فائدة: قال في "المواهب": وذكر العارف الرباني عبد الله بن أبي جمرة في كتابه "بهجة النفوس"، ومن قبله الإمام أبو الربيع ابن سبع في "شفا الصدور"، عن كعب الأحبار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما أراد الله أن يخلق محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، قال: فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرقيع الأعلى، فقبض قبضة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موضع قبره الشريف، وهي بيضاء منيرة، فعجنت بماء التسنيم في معين أنهار الجنة، حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي، وفي السماوات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضله قبل أن يعرف آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقيل: لما خاطب الله السماوات والأرض بقوله تعالى: ﴿ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. كان المجيب من الأرض موضع الكعبة الشريفة، ومن السماء ما يحاذيها. وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أصل طينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سرة الأرض بمكة. فقال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا درة المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض أَيْ: مدّت، فصار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الأصل في التكوين والكائنات تبع له. وقيل: لذلك سمي أُمِّيًا لأن مكة أم القرى، ودرته أم الخليقة اه.

فإن قلت: تربة الشخص مدفنه، وكان مقتضى هذا أن يكون مدفنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمكة، حيث كانت تربته منها. فقد أجاب عنه صاحب "عوارف المعارف" بأنه قيل: إن الماء لمّا تموج رمى الزبد إلى النواحي، فوقعت جوهرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكيًا ومدنيًا لأن طينته من مكة ومدنيًا لدفنه بالمدينة اه.

قال سيدي محمد الزرقاني: قال بعض العلماء: وهذا، أي حديث كعب الأحبار، لا يقال من قبل الرأي. يعني: فهو إما عن الكتب القديمة لأنه حبرها، أو عن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة فهو مرسل، وتضعيف بعض المتأخرين له باحتمال أنه من الكتب القديمة، وقد بدلت غير مسموع، فإن التضعيف إنما هو من جهة السند، لأنه المرقاة كما هو معلوم عند من له أدنى إلمام بالفن، وليس كل ما ينقل من الكتب القديمة مردودًا بمثل هذا الاحتمال.

(وقال) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعلوم من المقام: (أول) مبتدأ مضاف، (ما) مضاف إليه، (خلق) فعل ماض، (اللَّه) فاعل أَيْ: أول شيء خلقه الله، وسيأتي الخبر.

أي: قبل جميع الموجودات بأسرها ولا يعارض ذلك ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ أَصْلِ كُلِّ شَيْءٍ، فقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنَ الْمَاءِ، لأن الأصالة فيه إضافية، أَيْ: بالنسبة لبعض الموجودات لا لجميعها، بدليل قوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فإن هاتين الآيتين يقتضيان أن أصالته إضافية، كما علمت على أنه في بعض الآثار أن مادة الماء من عرق النور المحمدي عند التجلي عليه، بعد أن أوقفه اللَّه تعالى بين يديه، وأفاض إليه معارف وهو بها أعلم.

وفي لفظ أن اللَّه خلق قبل الأشياء (نور نبيك) خبر مرفوع عن قوله: أول، ولم يقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوري، وإن كان مقتضى الظاهر للتفخيم بوصف النبوة وتشريف المضاف إليه وهو نبيك.

ولا يشكل بأن النور عرض لا يقوم بذاته، لأن هذا من خرق العوائد وليس المراد بأن النور هنا ما قابل الظلمة، وإن كان هو المتبادر، بل المراد هو حقيقة خلقها اللَّه تعالى وسمَّاها نورًا ولا يعلم كنهها إلا اللَّه تعالى.

وقيل: أنها متشكلة على صورته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوجود الخارجي، والأسلم الوقف عن ذلك، وإنما أضيف ذلك النور له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنه خُلقت منه العوالم كلها، لأنه المقصود منه أو لأنه ينتهي له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(يا جابر) هو ابن عبد اللَّه بن عمرو بن حزام الأنصاري الخزرجي السلمي، الصحابي ابن الصحابي، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين، وهو ابن إحدى وتسعين سنة رضي اللَّه تعالى عنه.

وهذا الحديث قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (جوابًا) مفعول، قال أو مفعول لأجله، (لمسألته) أي لمقاله (المحكية) في البخاري وغيره من الكتب الستة، وهي بفتح الميم وسكون الحاء وكس الكاف أَيْ: التي حكاها

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله لرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء إلخ.

ونص حديثه هو ما رواه عبد الرزَّاق بسنده عن جابر بن عبد اللَّه قال: قلت: يا رسول اللَّه بأبي أنت وأمي، أَيْ: أفديك بأبي وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء، قال: يا جابر، إن اللَّه تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء اللَّه تعالى، ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء، ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا أنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم، وهي المعرفة باللَّه، ومن الثالث نور أنسهم، وهو التوحيد لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه اه الحديث. ابن حجر.

وقد ذكر التفتازاني في "شرح بردة المديح" هذا الحديث على وجه آخر متممًا مكملاً عند قول البوصيري:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها. البيت

ونصه والأصل في إثبات هذا المرام ما رواه جابر بن عبد اللَّه

الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أول شيء خلقه الله؟، فقال: هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شر، وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنى عشر ألف سنة، ثم نظر إليه فترشح النور عرقًا، فقطرت منه مائة وأربعة وعشرون ألفًا وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السماوات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري، ثم

خلق اللَّه اثنى عشر حجابًا، فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والرؤية والرحمة والرأفة والحلم والعلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد اللَّه ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه اللَّه في الأرض، فكان يضيء بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث ولده، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى صلب عبد اللَّه بن عبد المطلب، ومنه إلى وجه أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر اه.

فثبت أن المكونات تكوَّنت بإضافة فيض نور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو المستفيض من الفيض الأول، فوجود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكل آي أتى الرسل الكرام بها إنما هي من نور النبي عليه صلوات اللَّه الملك العلَّام. ذكره الشيخ سليمان الجمل في أول "شرحه على الشمائل".

تنبيه: اختلفوا في أول المخلوقات بعد النور المحمدي، فقيل: الماء، وقيل: العرش، وقيل: العلم، وهذا الأخير هو الموافق للرواية السابقة، لكن الصحيح أنه الماء ثم العرش ثم القلم، وعليه النظم المشهور:

نور النبي محمد مقدم فالماء ثم العرش ثم القلم

وقد استدل عليه بما رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما أراد اللَّه

أن يخلق الماء خلق من النور ياقوتة خضراء، أغلظها غلظ السماوات السبع والأرضين وما بينهما، ثم خاطبها فذابت وصارت ماء من هيبة الله تعالى، وصار الماء يرغد ويضطرب إلى يوم القيامة، فخلق الله الريح ووضع الماء عليها، ثم خلق العرش فوضعه على الماء اه. وجمع بين الأولية إضافية، وهي لا تمنع تقدم شيء عليها.

(و) قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جواب السائل له: متى كنت نبيًا، أَيْ: في أي وقت من الأوق كانت روحك متصفة بالنبوة والرسالة، فأجابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: (كنت نبيًا) أَيْ: في التقدير باعتبار إرادة اللَّه تعالى في الأزل، (و) الحال أن (آدم) أي الذي يؤول أنه آدم وهو بألفين ثانيهما لينة وأصلها همزة، سهلت تخفيفًا، قال ابن مالك في "ألفيته":

وَمَدًّا ابْدِلْ ثَانِيَ الْهَمْزَيْنِ مِنْ   كِلْمَةٍ إنْ يَسْكُنْ كَآثِرْ وَائْتَمِنْ

مأخوذ من الأُدمة بضم الهمزة وهي السمرة، أو من أديم الأرض وهو ظاهرها، وهذا يدل على أنه عربي، لأن الاشتقاق من خواص العربية، وقد قيل بذلك، وصحَّ أنه كان يتكلم بجميع الألسنة، وأكثر ما كان يتكلم به اللسان السرياني.

وقوله: (بين الماء) وهو ماء التسنيم وهو أرفع شراب الجنة، ويقال تسنيم عين تجري من فوقهم تسنمهم في منازلهم أي تنزل عليهم من عال، يقال: سنم الفحم الناقة إذا علاها. ذكره الزرقاني. أَيْ: بين الروح والجسم كذا في "أنوار المشكاة".

(والطين) أي بين العلم والجسم كذا في "أنوار المشكاة"، أَيْ: ثبتت

نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لروحه في زمن كون آدم طينة، فنبأه الله تعالى في عالم الأرواح، وأطلعها على ذلك وأمرها بمعرفة نبوته والإقرار بها، وذلك بعد خلق عناصره غير مركبة وغير منفوخ فيها الروح.

والظاهر أن المراد الماء الممزوج بالتراب حتى صار طينة، لأن الماء مفروق عن التراب، تأمل. فقد روي (عنه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله (لقد بان) فاللام موطئة للقسم، ومعنى بأن ظهر واتضح هذا الحديث، وفي رواية أحمد عن ميسرة قال: قلتُ: يا رسول الله كنت نبيًا، وآدم بين الروح والجسد.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سألت رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟، قَالَ: بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ. وفي لفظ آخر: وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ.

قال في "المواهب": وأما ما اشتهر على الألسنة بلفظ: كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، فقال شيخنا العلّامة الحافظ أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي فى كتابه "المقاصد الحسنة": لم نقف عليه بهذا اللفظ، وإن كان معناه صحيحًا.

(و) ذُكِر في الخصائص والمعجزات أنه (قال) رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل) هو عبراني أو سرياني، ومعناه عبد الله على الأصح، وإيل اسم الله تعالى في.. لغتهم، وليس معنى عبد، وما قيل: من أن إيل لا يعرف من أسماء الله تعالى ليس بشيء. كذا في "الشهاب على الشفا".

وقوله: (كم عمِّرت) بتشديد الميم وبتاء الخطاب المفتوحتين، أَيْ: كم

طول عمرك من السنين؟، والظاهر أنه بضم التاء في عمّرت، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل عن عمره نفسه، وهذا إن لم تعلم الرواية وإلا فتتبع.

(يا جبريل فقال) أَيْ: جبريل: (لا أدري) من الدراية بمعنى العلم، أَيْ: لا أعلم كم عمري أو عمرك على ما تقدم من السؤال عن عمره، أو عمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (رواية) بالرفع خبر عن هذه المحذوفة المقدرة، والرواية بكسر الراء أَيْ: حكاية (جلية) بفتح الجيم وكسر اللام وتشديد التحتية أَيْ: واضحة ظاهرة لا تحتاج لتعبير.

ثم قال جبريل عليه السلام للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد قوله: لا أدري، (غير أن كوكبًا) أي نجمًا (يبدو) أَيْ: يظهر (في الحجاب الرابع) من الحجب وهو حجاب الرحمة أو الرفعة، وقيل: العظمة.

وقوله: (يا معشر) المعشر الجماعة الذين يشملهم وصف واحد، (الإخوان) جمع أخ، وهذه زيادة من الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للسجعة كالتي قبلها.

وأرى ذلك الكوكب (بعد كل سبعين) بتقديم السين المهملة على الموحدة (ألف سنة مرة) واحدة، (فهذه) كلها (علامات) تدل على أنه أول المخلوقات وإثبات النبوة له في الملأ الأعلى قبل خلق آدم عليه السلام، وأنه معروف بينهم أنه لخاتم النبيين، والعلامات جمع علامة أَيْ: إشارات.

(اجتبائية) أَيْ: اصطفائية واختيارية، منسوبة للاختيار وهو الاصطفاء والاختيار، وهذه من الأستاذ أيضًا لتكميل السجعة.

قال جبريل: (و) الحال إني (قد رأيته) أَيْ: ذلك الكوكب (اثنين وسبعين ألف مرة بلا نقصان) أي من غير ذهاب شيء من هذا العدد. وفي "القاموس": النقص الخسران في الحظ كالتنقاص، والنقصان أيضًا اسم للقدر الذاهب من المنقوص.

(فقال) له رسول اللَّه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في الجواب (تعريفًا) لأي لأجل تعريفه فهو مفعول لأجله، (بمقامه) أَيْ: رتبته العلية، (وأسراره) بفتح الهمزة جمع سر أقرب معانيه، وهو الأمر المصون لعزته واستحسانه.

وقوله: (المصطفوية) هو من الصفوة والاختيار من سائر خلق اللَّه تعالى.

وأقسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: (وعزة) أي وأقسم بعزة بكسر العين المهملة أي بقدره (ربي) جل جلاله وعز سلطانه، إني (أنا ذلك الكوكب) النجم (الذي رأيته) أَيْ: أبصرته المتقدّم ذكره، (يا جبريل في حجاب المنان) أي المعطي ابتداءً من غير سؤال كثيرًا، المن أَيْ: العطاء وهو بفتح الميم وتشديد النون، صيغة مبالغة، والمنة مذمومة، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾، إلا مَنّ ثلاثة فلا تذم من اللَّه، لأنه هو الصادر منه كل نعمة، ومن الشيخ، ومن الأب.

(و) في الكوكب المحمدي أوصاف (غير ذلك) المذكور (مما) أي من الذي أو وصف، فما إما اسم موصول بمعنى لذي أو نكرة موصوفة بمعنى شيء.

(لا تحصره) بضم الصاد المهملة أَيْ: لا تحيط به ولا تضبطه (الأقلام) أَيْ: أقلام الواصفين من كثرة الراوة والروايات قديمًا وحديثًا من أول

الزمان إلى آخره، فلم يقف له أحد حقيقة في الدنيا، وأما في الآخرة فتدرك حقيقته، لكشف الحجاب عن الخلائق، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يعلمني حقيقة غير ربي، وهذا معنى قول البوصيري في "بردة المديح":

أعيى الورى فهم معناه فليس يرى   للقرب والبعد فيه غير منفحم

وقوله:

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

وقال ابن الفارض نفعنا اللَّه به:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وكان لا يتجاسر أحد على التأمل فيه حتى يوصفه، فقد كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يراه بصفة لا يراه عمر وعثمان وعلي وغيرهم، بل قد كان يرى لكل إنسان بصفة غير الصفة التي رآها غيره.

وأما ما في الشمائل فكان من صغار الصحابة كابن أبي هالة وغيره، وأما الكبار فلا يتجاسرون على وصفه ونعته من الجلال، الذي يعلوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأقلام بفتح الهمزة جمع قلم، وهو الذي يكتب به، وهو فعل بفتح العين بمعنى مفعول أي مقلوم، والقلم القطع ومثله القبض والنقض، بمعنى المقبوض والمنقوض، وقيل له قلم لأنه يقلم، ومنه قلمت ظفري أَيْ: قطعته وسويته، ولذا قالوا: لا يسمى قلمًا إلا بعج البري، وقبله يسمى قصبة، ويسمى السهم قلمًا، لأنه يقلم أي يبري.

ثم إن قوله فيما تقدَّم آنفًا وغير ذلك، أي كحديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتدري أنا الذي خلق الله أول كل شيء من نوري، فسجد لله فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول كل شيء سجد لله نوري ولا فخر، يا عمر أتدري من أنا؟، أنا الذي خلق العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح والقلم من نوري، ونور أبصار المؤمنين من نوري ولا فخر. والنقول في هذا المحل طويلة لا يسعها هذا الكتاب، بل لا تسعها العقول ولا الموضوع.

(في الكتبية) بزياة الياء والهاء للسجع، أَيْ: في الكتب بضم الكاف والمثاة الفوقية، جمع كتاب يعني أن أوصاف هذا الكوكب الذي هو النور المحمدي لا يضبطها أقلام الكاتبين، ولا أوصاف الواصفين لها من الخلائق في الكتب.

فإنهم وإن أكثروا الأوصاف، وتفننوا في إيرادها على أبلغ أنوار البلاغة وأكمل قوانين الفصاحة كتابة ونطقًا، لا يمكنهم حصر صفاته الظاهرة فضلاً عن الباطنة، بل تعجز قواهم عن استيعاب ذلك، إنما غاية ما وصلوا إليه من الأوصاف إن أدركوا الواضح منها، وعجزوا عن إدراك شيء من حقائقها، كما أن غاية من يرى النجوم في الماء أن يدرك مبادئ أوصافها ويعجز عن إدراك شيء من حقائقها، كما أشار إلى ذلك البوصيري في "همزيته" بقوله:

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ   كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ الْمَاءُ

(ولا يسعه) أي أي يحيط به (في الحقيقة) ونفس الأمر (حفظ الكاتبان)

بثبوت الألف على لغة من يلزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة كما مر، وإعرابه بكسرة مقدرة على الألف، منع من ظهورها التعذر، فلا حاجة للجواب بأنه لضرورة القافية، وقد نطق بذلك أفصح الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: الخشيتان أمان المن الكليتان، ويعبره كالمقصور. وعليه الحديث: لا وتران في ليلة، ﴿وإن هذان لساحران﴾.

ومن العرب من يلزمه الألف ويعربه كالمفردات فيقول: جاء الزيدان بضم النون، ورأيت الزيدان بفتحها، ومررت بالزيدان بكسرها، والقياس الكاتبين على غير هذه اللغات، ولا يعترض على الأستاذ لأنه كان من أفصح الفصاح وأبلغ البلغاء، إذ له التآليف العديدة في النحو وغيره من علوم العربية، والمراد بالكاتبين الكرام الكاتبين، وفي هذا في الأبلغية في المدح ما لا يخفى، لأن الملائكة الكرام مع كمالهم الأكبر، إذ أعجزوا عن حقائق صفاته العلية كان غيرهم أعجز، وهذا بالنسبة لعلم الخلائق، وأما بالنسبة لعلم اللَّه تعالى فهي محصورة لأن كل حادث دخل الوجود محصور ومتناه.

ولما كانت عادة الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه ونفعنا به في هذا المولد إذا أراد الانتقال من أسلوب إلى آخر، يفصل بالصلاة والسلام على خير الأنام، فصلَّى بهما هنا فقال:

(اللَّهُمَّ) أَيْ: يا اللَّهُ، ومعناه الجامع لجميع الأسماء والصفات، والميم عوض عن حرف النداء، (صَلِّ) ارحم رحمة مقرونة بتعظيم وتكريم، (وَسَلِّمْ) أَيْ: اجعل له مزيد تحية وتأمين دائمين عليه، بين أهل الدنيا

والآخرة في العالم العلوي والسفلي، نازلين من سماء علاك.

(على الذات المحمدية) أي المسماة بهذا الاسم الشريف أزلاً، وفيه نسبة المسمى إلى الاسم، وسميت بذلك لكونها أكثر المخلوقين حامدية ومحمودية، وقد تقدَّم الكلام والأحاديث على هذا الاسم الشريف.

ولما كان الإنسان باتباعه السنة وعمله بكل حسنة لا ينجو بعمله ولا يدخل الجنة بكسبه، ولا ينال ما يؤمله بسعيه، ولا يحصل له ذلك إلا برحمة اللَّه وغفرانه، طلب المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الله الغفران فقال: (واغفر) أَيْ: استر وأمحُ (لنا ما يكون) أَيْ: ما يوجد من الذنوب في الحال والمستقبل، (وما قد كان) أي ما وجد منها فيما مضى.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكُتُبِ القَدِيمِيَّة ۞ فَالتَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ مَمْلُوْتَانِ وَالفُرْقَان ۞ وَيكْفِيكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ آيَةً إِلَهِيَّة ۞ وَ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ بِهَا لَقَدْ تَمَّ الامْتِنَان ۞ وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ المَنْعِيَّة ۞ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي كِتَابِهِ القُرْآن ۞ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَخْبَارًا مُبَشِّرِيَّة ۞ وَزَادَ فِيهَا وَحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ فَهذَا الوَصْفَان ۞ وَقَالَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ شَهَادَةً قُدْسِيَّة ۞ وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا رَوَاهُ كَعْبُ الأَحْبَارِ وَغَيْرُهُ وَابْنُ سَلَامٍ بَعْدَ الإِيمَان ۞ وَقَالَ آدمُ لَمَّا خَلَقْتَنِي رَفَعْتُ رَأْسِي إِلى عَرْشِكَ فَإِذَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ هذِهِ الكَلِمَاتُ الَّتِي هِيَ المَبَانِي الإِسْلَامِيَّة ۞ لَآ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ذُو الرِّفْعَان ۞ وَأَنَّهُ لَيسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ عِنْدَكَ مِنْهُ مِنْحَةً قُرْبِيَّة ۞ وَأَنَّ هَذَيْنِ الاِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يَتِمُّ الوُصْلَان ۞ وَأَبْدَى مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ أُمُوراً فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ذُو العَظَمَةِ الرَّحِيمِيَّة ۞ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِيَعْلَمُهُ عَظَمَةُ عَيْنِ الأَعْيَان ۞ إِنَّهُ لَآخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ لَوَلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ أَحْوَالاً تَشْرِيفِيَّة ۞ وَقِيلَ أَبَا مُحَمَّدٍ يُكَنَّى صَفِيُّ اللَّهِ آدمُ كَان ۞ وَقَالَ عِيسَى شَاهِدًا فِيهِ لَهُ وَلَسْتُ أَهْلاً أَنْ أُحْمِلَ حِذَاءَهُ وَأَنْبَاءً مَسْطُورِيَّة ۞ وَلَوْ أَخَذْتُ فِي النَّقْلِ لَتُهْتُ فِي وُسْعِ هَذَا المِيدَان ۞ وَقَدْرُهُ المُعَظَّمُ قَدِ اتَّضَحَ قَبْلَ بُرُوزِهِ وَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ فِي العَوَالِمِ بِالكُلِّيَّة ۞ وَلَيْسَ يَحْصُرُ ذلِكَ إِلاَّ الْمَلِكُ الدَّيَّان ۞

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ثم لما فَرَغَ المُصنِّف من ذكر بيان حقيقة خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وثبوت نبوته في الأزل قبل وجوده، شرع يتكلم إجمالاً على تعظيم قدره ورفعة ذكره، والتنويه به في الكتب السالفة وغير ذلك، فقال:

(وأما ما ورد في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من التنويه به (في الكتب) بضمتين جمع كتاب، (القديمية) بزيادة الياء قبل الهاء أَيْ: القديمة السالفة بذكر اسمه ونعته فيها، وفي نسخة القديمة الأولية أي المنزلة على الرسل قبل القرآن.

(فالتوراة) مبتدأ أَيْ: المنزل على سيدنا موسى الكليم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، (والإنجيل) معطوف عليه أَيْ: المنزل على سيدنا عيسى المسيح ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل التوراة. قيل: التوراة والإنجيل مشتقان من الورى والنجل.

(مملوءتان) خبر المبتدأ، والجواب جواب أما، أَيْ: مشحونتان من نعوته وأوصافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتنويه بأنه صاحب الرسالة والتبجيل، قال اللَّه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾.

وهذا يدل على أنه لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأنه الإصرار على الكذب والبهتان من المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، هذا دلَّ على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل، وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته

ورسالته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وَ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

وإلا فهم قاتلهم الله وقبَّحهم ولعنهم عرفوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم عرفوهما وبدَّلوهما، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. وتمام ذلك في "المواهب".

(و) كذا (الفرقان) بضم الفاء أَيْ: القرآن، سمي به لأنه فرَّق بين الحق والباطل، وهو بحسب اللغة عام وخصَّه الفرق بالغلبة، وهو مصدر بمعنى الفارق أو المفرق آياته أو إنزاله، لأنه نزل مفرَّقًا في أوقات كثيرة، وقيل: اسم لكل منزل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

والمراد به هنا جملة القرآن المنزل على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني أن القرآن العظيم المنزل عليه صلوات اللَّه وسلامه عليه، مملوء من الآيات الدالة على عظم قدره ورفعة ذكره وعلو محله الرفيع ومرتبته، وعلى ثنائه تعالى عليه، وإظهار عظيم شأنه لديه.

وأقسم تعالى بحياته فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أَيْ: حياتك، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وغير ذلك مما يشير إلى إنافة أَيْ: زيادة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده.

ومن تأمل القرآن العظيم وجده ممتلئًا بتعظيم اللَّه تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي

وإذا كتـــاب اللَّه أثنـــى مفصـــحًا   كـان القصـور قُصـار كـل فصـيح

وقوله: القصور أَيْ: الفخر. وقوله: قُصار بضم القاف أَيْ: عامة كل فصيح أنه يعترف عن الإيتان ببعض أوصافك.

(ويكفيك) أيها المفتخر بجناب نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما خصه اللَّه تعالى به من العظيم، وحباه من الفضل العميم والفيض الجسيم.

(قول اللَّه) سبحانه و(تعالى): ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الآيات. قال في "المواهب": ن من أسماء الحروف، ك الم والمص وق. واختلف فيها فقيل هى أسماء للقرآن، وقيل: أسماء للسور. وقيل: أسماء اللَّه تعالى، ويدل عليه أن عليًّا رضى اللَّه عنه كان يقول: يا كهيعص يا حم عسق كما قيل. ولعله أراد يا منزلهما. وقيل: إنه سر أَيْ: أمر خفي، استأثر اللَّه بعلمه.

وقد روى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين اللَّه ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب من اللَّه لرسوله بما لا يفيد.

وهل المراد بقوله تعالى هنا: ﴿ن﴾ اسم الحوت أو غيره، فيه خلاف، وعلى القول بأنه الحوت هل المراد به الجنس يعني أي حوت كان، أو البهموت، وهو الذي عليه الأرض؟.

أو المراد به الدواة، فإن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سوادًا من الحبر يكتب، وهو مروي عن ابن عباس. وقيل: إن ن لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به اللَّه، رواه معاوية بن قرة مرفوعًا.

قال تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، أَيْ: يكتبون سطورًا، فمن قال أنه

اسم الحوت جعل القلم القلم الذي خلقه الله، وأمرهر بكتب الكائنات، وجعل ضمير يسطرون للملائكة، وأراد بهب كتب الأعمال وما يؤذن.

ومن قال أنه اسم للدواة جعل القلم هذا المتعارف بين الناس، ونصر ذلك ابن عباس، وجعل ضمير يسطرون للناس، وأراد به كتب الكتب المنزلة والعوم، وما جرى مجراها، فيكون هذا قسمًا بالدواة والقلم الذي يكتب به، فإن المنفعة بهما سبب الكتابة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة اه.

وفي "ابن عطية": فجاء القسم على هذا بمجموع أمر الكتابة الذي هو قوام للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان، ومطية الفطنة، ونعمة من الله عامة اه.

وعلى المروي عن ابن عباس أن المراد به الدواة، فقد أقسم تعالى بالكتاب وآلته وهو القلم، الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، والقلم الذي كتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأقام به في الناس أبلغ خطيب وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبًا يبرئ باريه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أفعاله وأقواله، مما غمصته، بفتح الغين المعجمة وكسر الميم وفتحها وفتح الصاد مهملة ومعجمة، أَيْ: احتقرته وعابته الكفرة به وتكذيبهم له بقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أَيْ: انتفى الجنون عند بسبب إنعام ربك عليك بالنبوة وغيرها.

وهذا رد لقولهم: أنه مجنون، لأن معنى الآية بسبب أنه تعالى أنعم عليك بكمال العقل والمعرفة، فأفادت تنزيهه عن الكذب، وأن تكذيبهم له كلا تكذيب لعدم الاعتداد به مع قيام الدليل على خلافه.

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكلَّت عن مماثلته، وعرَّفهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذعنت له قلوب العقلاء، وخضعت له أعناق الأكاسرة والشجعان له، ومالت له ألباب الألباب مختارة، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

ثم أخبر تعالى عن كمال حالتي نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دنياه وآخرته فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أَيْ: ثوابا غير منقطع، بل هو دائم مستمر، ونكَّر الأجر للتعظيم، أي" أجرًا عظيمًا لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما أعطاه من مواهبه السنية فقال: (﴿وَإِنَّكَ﴾) يا محمد والله (﴿لَعَلَى خُلُقٍ﴾)، إنما أتى بعلى للإشارة لاستعلائه عليه، لكونه مجبولاً عليه بغير تكلف، وأكد بأن مع القسم واللام، وإسمية الجملة تتميمًا للتعظيم، وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته.

وَلَقَدْ سُئِلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كَانَ أَحْسَن خُلقًا، خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَرْضَى لِرِضَاهُ وَيَسْخَطُ لِسُخْطِهِ. لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا سَخَّابًا بِالأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ.

ثم قالت: اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى العشر، فقرأ السائل، فقالت هكذا كان خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخرجه ابن أبي شيبة وغيره.

ومن ثم قال ابن عباس وغيره تفسيرًا لقوله: ﴿لَعَلَى خُلُقٍ﴾ أَيْ: على دين (﴿عَظِيمٍ﴾)، وسمي الدين خلقًا لأن الخلق الحسن هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زكية وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل والحكمة والمصلحة التي يقتضيها الحال، وأقوال مطابقة للحق لا كذب فيها أصلاً، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقًا، هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها.

قال ابن الأثير: الخُلُقُ بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا: الدِّين والطبْع وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنه لِصورة الإنسان الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نفْسه وأوصافها وَمَعَانِيهَا المختصةُ بِها بِمَنْزِلَةِ الخَلْق لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وأَوصافها وَمَعَانِيهَا، وَلَهَا أَوصاف حسَنة وَقَبِيحَةٌ، والثواب وَالْعِقَابُ يَتَعَلَّقَانِ بأَوصاف الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ أَكثر مِمَّا يَتَعَلَّقَانِ بأَوصاف الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ اه.

وقد عرَّفوا الخُلق بأنه مَلكة للنفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير فكر ولا رَوية، فخرج بالملكة كل عارض غير قادر من الأحوال، وبصدوره عن النفس ما يصدر عن الجوارح كالكتابة وغيرها من الصنائع، وبقيد السهولة ما كان بصعوبة كالصبر على النوائب.

وكذا ما صدر بغير فكر، فكله لا يسمى خلقًا، والخلق الحسن من أعظم المنن من الله تعالى على عبده. وفي الحديث: أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق، وخلق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم

الأخلاق.

وقد كانت أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتبسة من القرآن، وكان إرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن وأعراضه، وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغَّب فيه، وزهده فيما زهده فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره.

فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وفهم السائل عنها هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أَيْ: فسترى يا محمد ويرى المشركون كيف عاقبة أمرك، فإنك تصير معظَّمًا في القلوب، ويصيروا أذلاء مغلوبين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب.

وقول المُصنِّف: (آية) بالنصب مفعول مطلق أو بالرفع خبر لمبتدأ محذف، أَيْ: هي آية (إلهية) نعت لآية أَيْ: منسوبة للإله جلَّ جلاله.

(و) قوله تعالى: (﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾) إلخ قيل: أن سورة براءة نزلت كلها مرة واحدة في شوال سنة تسع، بعد رجوعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوة تبوك، ومن جملتها هاتين الآيتين فهما مدنيتان، بل قال أبي بن كعب: أنهما آخر القرآن نزولاً، وأحدث الآيات عهدًا بالله تعالى.

لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب: أَنَّ آخِر آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وقيل: جميع السورة مدنية إلا

هاتين الآيتين فمكيتان، وهذا هو الظاهر من سياقها، إذ الأمر بالحسبلة والتوكل عند توليهم إنما كان في ضعف الإسلام وقلته، أما وقت نزول براءة فكان أقوى شوكة، وكان مأمورًا بقتال من خالفه.

ووجه مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما أنه لما ختم ما قبلهما بقوله عز قائلاً: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ذكر هاتين الآيتين دليلاً على عدم فهمهم، وصرف قلوبهم لأنهم يعرفون صدقه وأمانته.

ثم إن الظاهر في لام لقد التوكيد أَيْ: زيادة تقوية في الكلام ورسوخ الحكم الذي بعدها في الإفهام، وقد للتحقيق، والخطاب للعرب وهو الراجح، وقيل: لقريش، أَيْ: جاءكم يا معشر قريش رسول قريش منكم، تعرفون حسبه ونسبه، أَيْ: فأنتم أولى لقبول دعوته من غيركم، وعلى كل فالتخصيص مع عموم رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن القرآن بلغتهم، وهم أعرف بمعانيه ووجوه فصاحته وبلاغته، فكان الإيمان بهم أجدر، والمعجزة في حقهم أظهر.

وقيل: لعموم البشر أَيْ: جاءكم يا بني آدم رسول بشر مثلكم، لا من الجن ولا من الملائكة، إذ لو كان كذلك لضعفوا عن رؤيته والتعلم منه، فيكون الإرسال لغوًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رسول أَيْ: مرسل وهو الذكر الحر من بني آدم السليم عن المنفرات، وعن دناءة الآباء وعهر الأمهات، أوحى إليه بشرع يعمل به وأُمر بتبليغه.

والمراد به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنفسكم متعلّق بجاء، أو نعت

رسول، وأنفُسكم بضم الفاء جمع نفس، ولها معان منها العين والذات الشاملة للروح والجسد، ومنها الروح.

والمراد أنه من جنس البشر، وإنما امتاز عنهم بالرسالة والخصائص المودعة في ظاهر عنصره، التي أهَلَّه الله تعالى بها لأن يكون أهلاً لأمانته أَيْ: من جنسكم ومن نوعكم. وقيل: من أنفسكم أَيْ: صنفكم أيها العرب، فأنتم أولى بقبول دعوته.

وفي الحديث: أُحِبُّوا الْعَرَبَ لِثَلَاثٍ: لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ. وفيها أيضًا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسَلْمَان: لَا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانِي اللَّهُ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي. وفيه أيضًا: إِنَّ لِوَاءَ الْحَمدِ يَوْمَ الْقِيَامَة بيَدِي، وَإِنَّ أَقْرَبَ الْخَلقِ مِنْ لِوَائِي يَوْمَئِذٍ الْعَرَبُ.

وفيه أيضًا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ مِنْ خِيَارٍ. وعن ابن عمر قال: إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ خلْقَهُ، فَاخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ، ثُمَّ اخْتَارَنِي مِنْه العْرَبِ، فَلَمْ أَزَلْ خِيَارًا مِنْ خِيَارٍ.

وهذا من الإعلام بما يجب اعتقاده، وإن لزم منه الفخر أو من التحدث بالنعمة، فلا ينافي النهي عن الانتساب إلى الآباء. وقرأ ابن وفاطمة الزهراء والحسن البصري: من أنفَسكم بفتح الفاء، أفعل تفضيل من النفاس، من

نفس بضم الفاء صار مرغوبًا فيه، فهو نفيس عظيم في النفوس يحرص عليه. وقيل: الأنفس الأعلى والأشرف أيْ: أفضلكم وأشرفكم.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ بفتح الفاء، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَنْفَسِكُمْ نَسَبًا وَحَسَبًا وَصِهْرًا، لَيْسَ فِي آبَائِي مِنْ لدن آدَمَ سِفَاحٌ.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جِبْرِيلَ قَالَ: قَلَّبْتُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَلَمْ أَجِدْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ أَرَ بَيْتًا أَفْضَلَ مِنْ بَيْتِ بَنِي هَاشِمٍ.

وعن ابن عباس: ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله فيهم نسب. قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس: ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: من مضرها وربيعتها ويمنها، فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان وإليه تنسب قريش وهو منهم. وأما نسبه إلى عرب اليمن وهم القحطانيون فإن آمنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لها نسب في الأنصار وإن كانت من قريش، والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ.

فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، ترغيبًا للعرب في نصره والإيمان به، فإنه تم شرفهم بشرفه وعزهم بعزته وفخرهم بفخره، فإنه من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ﴾ نعت ثان لرسول، أَيْ: شديد ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، ما

مصدرية أَيْ: يعز ويشق عليه عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه بسبب الكفر والضلال، ففيه إشارة إلى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب اتصافه بالأوصاف الحميدة.

فإن ارتكب الإنسان معصية كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مشقة وغم، وإن كان يستغفر له، وإذا ارتكب الطاعات بفعل المأمورات كان ذلك محبوبًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ نعت ثالث لرسول أَيْ: محرص على هدايتكم وصلاح شأنكم، وقال الحسن: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أن تدخلوا النار، من عزَّ إذا صعب وشقَّ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أن تدخلوا الجنة، والحرص فرط الشدة أو الشح على الشيء أن يصنع. والمراد هنا شدة الطلب لما تريده وتحبه.

ومن حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هدايتنا والرفق بنا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، ويريد فهمنا إياه على قدر منزلته، بأني يأتي بالألفاظ المتناهية في البلاغة والغرابة، خشية عدم فهمنا للمراد، بل على قدر منزلتنا بالألفاظ المتداولة بين الناس، وإن نزلت في الرتبة على غيرها ليسهل فهمها، ويتضح المراد منها، ويخاطب كل إنسان بما يناسبه في التودد والتألف، وعدم تكليفنا بما تقصر عقولنا عنه، وإلى هذا أشار صاحب "البردة" بقوله:

لم يمتحنا بما تعيأ العقول به   حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهم

وقال أستاذنا المُصنِّف في "البرَّاق":

مُحَمَّــدُ عُثْمَــانُ يَقُــولُ مَقَاصِــدِي ثَنَائِي عَلَى طِـبِّ القُلُـوبِ مَحَامِـدِي
بِمَــدْحِي لَـهُ مَـدْحَاً يُعَلِـي مَعَاهِـدِي هُـوَ السَّـيِّدُ المَمْـدُوحُ مِـنْ يُمْـنِ وَاحِـدِ
عَلَى خُلُقٍ تَعْظِيمُهُ جَاء مُنبَّأُ
رَءُوفٌ رَحِــيمٌ بِالعِبَــادِ جَمِــيعِهِمْ إِذَا عُــدَّ أَهْـلُ البِـرِّ هُـمْ بِحَمِـيمِهِمْ
يَبَــرُّ إِلَــى جَمْــعِ الأَنَــامِ بِبِــرِّهِمْ وَيَقْتَبِسُــوا مِنْــهُ حَنَانــاً بِحُــبِّهِمْ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي الخَلْقِ بَانَ مُوَلَّأُ
شَــفُوقٌ يَفُــوقُ الأُمَّهَــاتِ بِحَنِّــهِ بِشَــوْكَتِنَا يَهْــتَمُّ نَحْظَــى بِمَنِّــهِ
عَظِــيمُ التَّــوَدُّدِ لِلعِبَــادِ بِــوُدِّهِ لَــهُ يَرْقُبُــوا فِــي كُـلِّ هَـوْلٍ بِبِـرِّهِ
لَهُ البِشْرُ فِي وَجْهٍ إِذَا الخَلْقُ تَلْجَأُ
يُعَاشِــرُ أَصْــحَابَاً بِحُسْــنِ تَلَطُّــفِ يُبَاشِــرُ أَحْبَابَــاً بِحُــبِّ تَظَــرُّفٍ
يُخَاطِــبُ أَعْــدَاءً بِنُطْــقِ تَــأَلُّفِ يُحَاسِــنُ أَتْبَاعــاً بِغَيْــرِ تَكَلُّــفِ
طَبَايِعُهُ أَصْلٌ وَأَصْلٌ مُعَلَّأُ

أي: لم يبتدئنا بخطاب تقصر العقول عن فهمه، لغموضه فلا نهتدي إلى المراد، حرصًا علينا فلم نرتب ولم نهم أَيْ: لم نتحير ولم نشك فيما ألقاه إلينا.

ومن حرصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على هدايتنا أنه كان كثيرًا ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل الفهم، كقوله: لإن يهدي اللَّه بك رجلاً واحدًا خير من أن يكون لك من حمر النعم أو كما قال. وهذه سنة القرآن، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب.

ولما ساوى سبحانه وتعالى بين الناس مؤمنهم وكافرهم في حرص

رسوله على إسلامهم، خصَّ المؤمنين برأفته ورحمته لهم بقوله تعالى: ﴿بالمؤمنين﴾ متعلّق برؤوف، وحذف مثله من رحيم لدلالته عليه.

والرؤوف شديد الرحمة، وقدم على ما بعده، لأن العادة قاضية بأن الشيء البليغ لا يدوم، فدفع ذلك بذكر رحيم الذي هو التفضل والإحسان، بعد إشارة أن رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنقطع، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم البشر اتساعًا ورحمة حتى بأعدائه.

فقد ورد أنه لما دخل مكة يوم الفتح على قريش، وقد التجأوا بالمسجد الحرام خائفين، وصحبه ينتظرون أمره فيهم بقتل أو غيره، لما سبق منهم من شدة الإيذاء، قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟. قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ولما مات عمه أبو طالب لقي من أذى قومه ما تعجز عنه الجبال، حتى أدموا رجليه الشريفتين بالحجارة، وهو يدعوهم إلى اللَّه تعالى، وردوا عليه قبح الرد، فاهتمّ لذلك، فنزل جبريل فقال له: إن اللَّه سمع مقالة قومك وما ردوا به، وأنه بعث لك ملك الجبال لتأمره بما أردت، فقال له ملك الجبال: إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، وهما جبلان محيطان بمكة ومنى. وفي روايةٍ: خسفت بهم الأرض أو دمدمت عليهم الجبال. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد اللَّه ولا يشرك به شيئًا، فقال الملك: أنت كما سمَّاك ربك رؤوف رحيم.

وستأتي هذه القصة عند قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولم يزل صابرًا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخبائث الصادرة له من الفئة الكفرية إلخ.

ولم يجمع اللَّه تعالى اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرحم اللَّه القائل، شعر:

إذا رمت مدح المصطفى شغفًا به ... تبلَّد ذهني هيبة لمقامه
في قطع ليلى ساهر الجفن مطرقًا ... هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال اللَّه جلَّ جلاله ... رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي ... معجز بمختلفيه نثره ونظامه

قوله: (بها) أي بهذه الآية الشريفة (لقد تَمَّ) كمل لنا (الامتنان) مصدر امتن الذي ثلاثيه مَنَّ يمنُّ منًّا، والمنُّ تعدد المنعم نعمه وصنيعه.

وفي قوله المُصنِّف: تمَّ، إشارة إلى أن هذه الآية آخر القرآن نزولاً لما روى الحاكم في "المستدرك" عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت: ﴿لقد جاءكم رسول﴾ إلى آخر السورة.

ولهاتين الآيتين أسرار عجيبة، فقد ورد: أن من قرأهما في يوم لم يمت ذلك اليوم، أو في ليلة لم يمت تلك الليلة. وفي رواية: لم يقتل، ولم يقربه أحد بمكروه. أَيْ: فإذا أراد اللَّه موته أنساه قراءتهما. وقيَّده بعضهم بقراءتهما سبعًا.

(و) كما (قد وصفه اللَّه) سبحانه و(تعالى في التوراة) لبني إسرائيل (ببعض صفاته المنعية) أي المذكورة الظاهرة المشهورة، ووصفه اللَّه تعالى أيضًا لهذه الأمة العظيمة المرحومة في الآيات (التي أنزلها) تفصيلاً (في كتابه) أي مكتوبه (القرآن) الكريم، فيه دلالة على أن وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ في القرآن أكثر مما في التوراة، لتفصيله وإن تفرَّق في آيات وسورة متعددة، وهذا مما لا شبهة فيه.

(وهي) أَيْ: الآيات المنزلة في القرآن منها (قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾)، والنبي والرسول إذا أطلقا في القرآن أو السنة، فإنما المراد بهما نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ: يا أيها المخبر والمشرف (﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾) أَيْ: بعثناك، فالبعث والإرسال وهو حسي ومعنوي، وما هنا من الثاني فلا يستلزم مكان للمرسل الذي هو اللَّه تعالى، وإن كان المرسول هو الرسول في مكان.

وقوله: (﴿شَاهِدًا﴾) منصوب على الحال المقدر من الكاف أو من الفاعل، أَيْ: مقدارًا أو مقدرين شهادتك على من بعثت إليهم بتبليغ الرسالة أو بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم.

أو شاهدًا للأنبياء بالتبليغ وعلى أممهم بالجحود، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. روي: أن الأمم يوم القيامة يجحدون بتبليغ الأنبياء، فيطالبهم اللَّه ببينة التبليغ، وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتهم؟، فيقولون: علمنا ذلك بإخبار اللَّه تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم، وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عدى بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيدًا عليهم. قاله البيضاوي.

(﴿وَمُبَشِّرًا﴾) بكسر الشين المشددة من بشَّره بالتشديد أخبره بما يسره، فإن يقال بشَّر وبشر مخففًا ومشددًا وأبشر بالهمزة، والاسم البشارة بالكسر والضم، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير. وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيَّدة به كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: أخبرهم. والبشارة المطلقة هي الإخبار بما يسر، وسميت بذلك لتأثر البشرة وهي ظاهر الجلد عن الإخبار بالأمر السار.

ومعنى كونه مبشرًا أنه مبشر لأهل الطاعة بالثواب. وقيل: بالمغفرة. وقيل: بالجنة. وقيل: بالشفاعة. وقيل: مبشرًا للمتقين برضا رب العالمين، والخائفين بالأمن يوم الدين، والمشتاقين بالنظر إلى وجه الملك الحق المبين.

وكما أنه مُبَشِّرًا (﴿وَنَذِيرًا﴾) أي منذر لأهل المعصية بالنار أو بالعذاب. وقيل: محذرًا من الضلالة والإنذار والتخويف والإخبار بما يخاف، ليحذر ويكف عما يوصل إليه، ويعمل بما يحجز عنه.

وقوله: (أخبارًا) حال وهو بفتح الهمزة جمع خبر، أَيْ: حال كون الآيات أخبارًا (مبشرية) بزيادة الياء قبل الهاء أَيْ: مبشرة بكسر الشين مشددة.

(وزاد فيها) أي في التوراة بعد قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. ونصه على ما ذكره في "المواهب" بقوله: وفي "البخاري" بسنده عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ: في التوراة بدليل الجواب،

قال أي عبد الله: أجل، بفتحتين حرف جواب كنعم، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(و) فيها أيضًا (حرزًا للأميين) وهو بكسر الحاء أي الحرز وسكون الراء المهملتين ثم زاي معجمة، هو في الأصل مصدر بمعنى الحفظ، ثم شاع وصار حقيقة في المكان الذي يحفظ فيه، فيقال: حرز حريز كما يقال: حصن حصين، ومنه احترز عن كذا أَيْ: تحفظ منه، واحرز قصب السبق أَيْ: حازه فجعله حرزًا مبالغة لحفظ أموالهم وأنفسهم في الدارين.

والمراد بالأميين العرب لغلبة الأمية فيهم، فإن أكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون، وقيل: لأنهم لا كتاب لهم، وخصهم مع عموم دعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لشرفهم على غيرهم، أو لإرساله بين أظهرهم، أو لأن الحفظ من العجم اختص بهم.

وقيل: المراد حفظه لهم من آفات النفوس وغوائل الدهر، أو من لغات العجم وتغلبهم، أو من مطلق العذاب، ما دام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، أو من عذاب الاستيصال لحديث: سألت ربي عز وجل ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني الثالثة، والاثنتان هلاك السنة والغرق، والثالثة كون بأسهم بينهم.

(فهذا الوصفان) بزيادة الألف والنون، أَيْ: فيما أعظم هذا الوصف الذي لم يختص به أحدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه زيادة من الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تمم بها السجعة.

(وقال) أي في التوراة بعد قوله: وحرزًا للأميين، (أنت عبدي) الكامل في العبودية لشرفها، فإن له بها مزيد اختصاص، ولذا اقتصر عليها في الإسراء وإنزال الكتاب، وليست بالمعنى العام الذي يتصف به كل مخلوق، بل الخاص الذي رضيه له، حتى اطلعه على حظائر قدسه، وجعله رسولاً مبلغًا عنه، وكفاه جميع مؤناته.

فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، فإن الملك لا يرضى بوقف بباب غيره واحتياجه لسواه وإهانة أحد له، فإنه هو الذي يؤدبه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: أدبني ربي فأحسن تأديبي، وإذا كان كذلك فلا يكل أمره إلى غير سيده، فلذا قال فيها أَيْ: في التوراة:

(ورسولي سميتك المتوكل) ولم يقل جعلتك أو وصفتك المنادى بشدة توكله الذي صيّره علمًا له، ففيه إشعار بشدة توكله الساري في أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وخطابه بما في التوراة خطاب للحاضر في العلم وبالماضي في ﴿إرسلناك﴾ لتحققه، أو حكاية لما يقال في المستقبل أو الاستحضار الآتي، وعبَّر بما يعبر به عنه في الآتي.

والمتوكل هو الذي يكل أمره إلى الله، ويعتصم به ويتعلّق بالله على كل حال، والتوكل: هو ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة، وهو فرع التوحيد والمعرفة، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد العارفين بالله على الإطلاق، ورأس الموحدين على الشمول والاستغراق.

وقوله: (شهادة) بالنصب على أنه مفعول مطلق، أو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أَيْ: هذه أو هي شهادة، والشهادة الخبر القاطع كما في

"القاموس". أَيْ: أخبار (قدسية) منسوبة للقدس بضمتين ويخفف ثانيه، اسم من أسماء اللَّه تعالى، بمعنى المنزّه عما لا يليق به، أَيْ: شهادة منسوبة صراحة لذات ربنا المقدسة. وإنما كانت قدسية لأنها صادرة من حضرته العلية، أي منسوبة إليه صراحة.

واعلم أن قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهادة قدسية، ليست من الحديث بل زيادة تمم بها القافية، وبقية الحديث: ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا اللَّه، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

وعند ابن إسحاق: ولا صخب فى الأسواق، ولا متزيّن بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده بكل جميل، واهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمى به بعد النكرة، وأغنى به بعد العيلة، وأكثر به بعد القلة، وأجمع به بعد الفرقة، وألّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

(وغير ذلك) المذكور من الآيات موجود في الروايات الصحيحة الثابتة، (مما) ذكره المحدّثون فمن ذلك ما (رواه كعب الأحبار) بعد إسلامه

حين سألته أم الدرداء أو امرأة أبي الدرداء حيث قالت: قلت لكعب: كيف تجدون صفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة؟، قال: كنا نجده موصوفًا فيها: محمد رسول الله المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر الله به أعينًا عورًا، ويسمع به آذانًا صمًّا، ويقيم به ألسنة معوجة، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف. أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى" و"دلائل النبوة" لأبي نعيم.

وكعب الأحبار هو كعب بن ماتع بالمثناة الفوقية، ابن هينوع، يكنى بأبي إسحاق الحميري، كان يهوديًا من أحبارهم من أهل اليمن، وأدراك الزمن النبوي قيل: وأسلم فيه، وقيل: في خلافة أبي بكر، وقيل: في خلافة عمر وهو الراجح. وسكن حمص بالشام بعد ما كان باليمن.

واتفقوا على سعة علمه وشدة دينه وتوثيقه، وتوفي فيما ذكره ابن الجوزي والحفاظ: سنة اثنين وثلاثين، وقيل: في خلافة عثمان، متوجهًا إلى العراق، وقيل: توفي بحمص، وقد جاوز المائة.

وكان يقال له كعب الأحبار، وكعب الحبر بكسر الحاء وفتحها بإضافة الاسم للقب، ولقّب به لكثرة علمه أو لكثرة كتابته، فالحبر بمعنى المداد الذي يكتب به، وبمعنى العالم. كذا في "المصباح" و"تهذيب الأسماء" للنووي.

وفي بعض الشرّاح على هذا المولد الشريف: أن كعب الأحبار كان تابعيًا جليلاً، أسلم على يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وروى شهر: أن كعب الأحبار أخبره بأول أمره، وقال: إن أبي كان من مؤمني أهل التوراة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أعلم الناس بما أنزل الله على موسى عليه السلام، وبكتب الأنبياء، ولم يدخر شيئًا مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة قال لابنه: يا بني قد علمت أني لم أكتم عنك شيئًا مما كنت أعلم، إلا أني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظل زمانه، فكرهت أني أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعهم، وقد قطعتهما من كتابك وجعلتهما فى هذه الكوة، فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما زمانك هذا، وأقرهما فى موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتبعه، وانظر فيهما، فإن الله يزيدك بذلك خيرًا.

فلما مات والدي لم يكن شيء أحب إليَّ من أن ينقضي المأتم حتى أنظر فى الورقتين، فلما انقضى المأتم فتحت الكوة، ثم استخرجت الورقتين، فإذا فيهما: محمد رسول الله، خاتم النبيين، لا نبى بعده، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزيء بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمَّادون، الذين يحمدون الله على كل شرف وعلى كل حال، وتذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر الله نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويأتزرون على أوساطهم، وأناجيلهم فى صدورهم، ويأكلون قربانهم فى بطونهم، ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم كتراحم بني الأم والأب، فهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة، وهم السابقون المقربون وهم الشافعون

المشفعون.

فلما قرأت هذا قلت في نفسي: واللَّه ما علمني أبي شيئًا خيرًا لي من هذا، فمكثت بذلك ما شاء اللَّه، حتى بعث النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة، لا أقدر على إتيانها، وبلغني أنه خرج بمكة، ويظهر مرة ويستخفي مرة، فقلت في نفسي: أرجو أن يكون إياه، وجعلت التمس السبيل إليه، فلم أقدر حتى بلغني أنه قد توفي صلوات اللَّه عليه وسلامه.

فقلت في نفسي: لعله لم يكن الذي كنت أظن، ثم بلغني أن خليفته قام مقامه، حتى جاءتنا جنوده، فقلت في نفسي: لا أدخل هذا الدين حتى أنظر سيرتهم وأعمالهم وإلى ما تكون عاقبتهم، حتى قدم علينا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رأيت صلاة المسلمين وصيامهم وبرهم ووفاءهم بالعهد، وما صنع اللَّه لهم على الأعداء، علمت أنهم هم الذين كنت أنتظر.

فحدثت نفسي بالدخول فى الإسلام، فواللَّه إني ذات ليلة فوق سطح لي، إذا رجل من المسلمين يتلو كتاب اللَّه، حتى أتى على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾، قال: فلما سمعت هذه الآية خشيت ألا أصبح حتى يحول وجهي في قفاي، فلما أصبحت قعدت عند عمر فأسلمت اه.

(و) منها ما رواه (غيره) أي غير كعب الأحبار ممن أسلم من علمائهم

كتميم الداري والجارود. فقد أخرج البيهقي: عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت صفتك في الإنجيل، ولقد بشّر بك ابن البتول.

وقال ابن إسحاق: وكان الجارود نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه، وكان صلبًا على دينه. وبشّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامه، واسمه بشر بن حنش، وقيل: مطرف، ولقب بالجارود لأن غزا بكر بن وائل فاستأصلهم.

وقصة سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت وأنا بالشام برجل بين غيضتين يخرج كل سنة، لا يدعو لذي سقم إلا شفي، فغلبوني، قلت: فلم هذا، والتفت إليّ، فقلت: يرحمك الله أخبرني عن الملة الحنيفية ملة إبراهيم، قال: إنك تسأل الناس عنه اليوم، قج أظل زمان نبي يبعث بهذه المدينة من أهل الحرم، فإنه فهو يحملك عليه ثم دخل إلخ. انتهى من "سيرة ابن إسحاق" باختصار.

(و) منها ما حكاه عبد الله (ابن سلام) بتخفيف اللام، ابن الحارث الإسرائيلي أبي يوسف، حليف بني الخزرج، قيل: كان اسمه في الجاهلية الحصينز

فسماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله وكان إسلامه، كما رواه البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ مُهَاجِرًا، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى

أَخْوَالِهِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، قَالُوا: أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ، قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ.

وفي الترمذي: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أنه عاشر عشرة في الجنة. وتوفي عبد اللَّه سنة ثلاث وأربعين.

وقوله: (بعد الإيمان) أَيْ: بعد إيمانه أَيْ: عبد اللَّه بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذلك أنه لما سمع بمخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، خرج فلقيه، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟، قال: نعم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ناشدتك اللَّه الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد صفتي في كتاب اللَّه، أَيْ: التوراة، قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فارتج بالبناء للمفعول أَيْ: لم

ينطق. فقال له جبريل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وإن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك فى كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزيء بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجة، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانا صمًّا وقلوبًا غلفًا. رواه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام، كذا في "المواهب".

وقال ابن سلام أيضًا: لقد عرفت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أعرف ابني من علمه به في التوراة، من ذكر خلقته وخلقه ودينه وأمته كما تقدَّم.

ثم اعلم أنه كما ورد التنويه به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوراة والإنجيل، كذلك ورد التنويه به في الزبور. قال في "المواهب": وفي زبور داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النعمة من شفتيك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وسنتك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوّه بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنعمة التي فاضت

من شفتيه هى القول الذى يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه، والسنة التي سنها، إذ لا ينطق عن الهوى.

وفى قوله: تقلد سيفك أيها الجبار، دلالة على أنه النبي العربي، إذا ليس يتقلّد السيف أحد من الأمم سوى العرب، فكلهم يتقلدونها على عواتقهم، بخلاف غيرهم فيجعلونها في أوساطهم.

وفي قوله: فإن شرائعك وسنتك، نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه قهرًا عمن خالفه. والجبار الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق، وهو التوحيد، ويصرفهم عن الكفر الذي خالف الإيمان والتوحيد جبرًا عليهم، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أمرت أنا أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه اه.

(وقال آدم) عليه السلام أَيْ: في جواب قول اللَّه سبحانه وتعالى له: وكيف عرفت محمد إلخ. ولفظ الحديث كما في "المواهب": ما روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لَمَّا غفرت لي، فقال اللَّه تعالى: يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟، قال: يا رب إنك (لما خلقتني).

وقوله: اقترف بقاف وآخره فاء أَيْ: أتى وفعل الخطيئة أَيْ: الصورية، وهي أكله من الشجرة التي خرج بسببها من الجنة. وقوله: بحق محمد أَيْ: بما يستحقه عندك من الزلفى والكرامة، وفيه دليل على أنه يجوز أن يقال في الدعاء: بحق الأنبياء ونحوه، خلافًا لمن قال: أنه لا يجوز أن يقال مثله

لأنه ليس لأحد على اللَّه حق. وقد وقع مثله في أحاديث كثيرة.

وقوله: لَمَّا غفرت لي بفتح اللام وتشديد الميم بمعنى إلا الاستثنائية كقوله تعالى: ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ في قراءة شد الميم. وفي رواية: إلا ما غفرت لي. وقوله: ولم أخلقه أَيْ: جسده الشريف فلا ينافي أنه خلق نوره قبل جميع الكائنات، وفيه إظهار فضيلة آدم حيث تنبَّه وسأل عن صاحب الاسم بعد رؤيته مكتوبًا اه زرقاني.

أي: حين خلقتني في أول وهلتي بيدك أَيْ: من غير واسطة كأب وأم. ونفخت أَيْ: أجريت في من روحك فصيرتني حيًّا، وإضافة الروح إلى اللَّه تشريف لآدم، وسؤال اللَّه له بقوله: وكيف عرفت إلخ، ليس استفهام على حقيقته، لعلمه به، وإنما هو تشريف له بخطابه، وليبين له فضيلة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (رفعت رأسي) جواب لما الحينية (إلى عرشك) فنظرت على قوائمه وهو مخلوق من ياقوتة حمراء، ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة. قال الحافظ ابن أبي شيبة: وقيل: من يا قوتة خضراء، وقيل: من نور.

وذهبت طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه بالفلك التاسع والفلك الأطلس. قال ابن كثير: وهذا ليس بجيد، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، والفلك لا يكون له قوائم ولا يُحمل.

إِنَّ الْعَرْشَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عن السرير الَّذِي لِلْمَلِكِ وليس له فلك، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، فهو جسم عظيم نوراني علوي، وليس

كرويًا كما تقول أهل الهيئة، بل هو قبة ذات قوائم، يحمله الآن أربعة من الملائكة وفي الآخرة ثمانية، رؤوسهم فوق السماء السابعة وأقدامهم في الأرض السفلى.

وهو سقف المخلوقات، وإنما زيد في حملته في الآخرة لأنه يزداد تجلي الجلال عليه فيها. وقد ورد: أن له ثلثمائة وستين قائمة، عرض كل قائمة منها نحو الدنيا سبعين ألف مرة، بين كل قائمة وقائمة ستون ألف صخرة، في كل صخرة ستون ألف عالم، وكل عالم كالثقلين من الإنس والجن، ولذلك وصفه الله بالعظيم في قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، بناءً على قراءته بالجر كما هو القراءة المشهورة، وقريء بالرفع على صفة للرب.

وفي روايةٍ: فرأيت على قوائم العرش، (فإذا هو) مبتدأ وقوله: (مكتوب) خبر، (فيه) أَيْ: العرش أي مكتوب فيه، وقوله: (هذه) نائب فاعل مكتوب، و(الكلمات) بالرفع عطف بيان وهي جمع كلمة بفتح الكاف وكسر اللام.

(التي هي) أي الكلمات، (المباني) جمع مبنى بفتح الميم وسكون الموحدة، وهو ما تبنى عليه الكلمة من الحرف أو قواعد العقائد، (الإسلامية) المنسوبة إلى الإسلام، وأصله السكون، ومنه قبل السلم بالكسر خلاف الحرب، لما فيه من السكون، ثم استعمل في الخضوع فقيل: اسم الرجل واستسلم إذا خضع وتواضع، لأن مع الخضوع سكون الأطراف، هذا معناه لغة.

وأما معناه شرعًا كما قال بعضهم: الإسلام أعمال الجوارح من

الطاعات، كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج. ولذا فسّره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل لما سأله بذلك حيث قال له: أخبرني عن الإسلام إلخ.

وقوله: (لا إله) أَيْ: لا معبود بحق (إلا اللَّه) فالإله معناه المعبود بحق منفي إلا اللَّه، فإنه هو الثابت. وقوله: (محمد رسول اللَّه) وهاتان الكلمتان بدل من كلمات أَيْ: وليس في العرش ذكر رسول سواه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ف) لذلك (علمت) وتحققت أنك لم تضف إلى اسمك، إلا أحب الخلق إليك، وهذا من وفور عقل آدم وبدائع استنباطه حيث تذكر (أنه) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ذو) أَيْ: صاحب (الرفعان) بضم الراء أَيْ: العلو أو القرب، يقال: رفعه كمنعه وهو ضد خفضهن وفرش مرفوعة بعضها فوق بعض، أو مقربة لهم، ومنه رفعته إلى السلطان رفعانًا بالضم قربته، كما في "القاموس". أو بكسر الراء أي الرفعة، فالألف والنون زائدتان. وفي نسخة فعلمت أنه ذو الرفعة والرجحان.

(و) علمت أيضًا (أنه) أي الشأن (ليس أحد) من المخلوقين، وهو بالرفع اسم ليس. وقوله: (أعظم) بالنصب خبرها، أَيْ: أوقر وأفخم (عندك) قدرًا (منه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو الحبيب الذي اصطفيته واخترته. (منحة) بكسر الميم وسكون النون أَيْ: عطية، وهي بالنصب على التمييز من قوله: أعظم، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف أَيْ: هي منحة، وهذه منحة (قربية) منسوبة للقرب بضم القاف.

(و) علمت أيضًا (أن هذين الاسمين) هما الله ومحمد، (اللذين بهما) أي بسبب ذكرهما، (يتم) أي يكمل (الوصلان) بضم الواو ضد الهجران، أَيْ: يتم ويكمل بلوغ المراد وانتهاء المقصود والاتصال للعبد الذاكر لهما دنيا وأخرى.

وهو اسم من الوصلة بالضم، يقال: وصل الشيء ووصل إليه وصولاً ووصلة ووصلانًا، وصلة بلغة وانتهى إليه، والوصلة بالضم وزان غرفة الاتصال، كما في "القاموس".

ثم أن قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وأبدى) يحتمل أن يكون بالنصب عطفًا على قوله: أعظم المنصوب، فيكون اسم تفضيل بمعنى أول وأسبق، (ممن جعلت اسمه مع اسمك).

وقوله: (أمورًا) منصوب على التمييز فيكون المعنى على هذا، وعلمت أيضًا أنه ليس أحد أول وأسبق في الخلق، أمورًا من الذي جعلت اسمه مقرونًا مع اسمك في عرشك الذي هو أعظم المخلوقات.

فروحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخلوقة قبل الأرواح والمخلوقات، والأنبياء كلهم خلقوا لأجله، ووجوده سبب لوجودهم، فهو أب معنوي لهم، وكلهم أتباعه في الوجود.

ويحتمل أن قوله: وأبدأ بالرفع بصيغة المتكلم، أَيْ: أقدم وابتديء، فإنه يقال: بدأت الشيء وبالشيء أبدأ، بدأ بهمز الكل وابتدأت به قدمته، كما في "المصباح".

ومن في قوله: ممن، متعلق بمحذوف حال من الضمير في أبدأ،

وقوله: أمورًا مفعول أبدا، والمعنى: وأقدم وأبتديء الأمور، أَيْ: أموري كلها حالة كوني مستمدًا من الذي جعلت اسمه مقرونًا مع اسمك العظيم.

(فأوحى اللَّه إليه) أَيْ: إلى آدم، قيل: يقتضي أن هذا الخطاب وحي لا مشافهة، ولكن قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما تقدَّم لما خلقتني إلخ، يدل على خلافه، وقد يقال: أنه خاطبه أولاً وأوحى إيه بعد ذلك، مع أن الداعي يخاطب ربه، وإن لم يخاطبه فلا يدل كلامه الأول على أن كلام اللَّه تعالى معه بدء وحي (ذو العظمة) أَيْ: صاحب الجلال والكبرياء، وهو بفتحتين والرحمة (الرحيمية) نسبة للرحيم بزيادة الياء قبل الهاء.

فقال له الرب جلَّ جلاله: صدقت يا آدم (وعزتي) بكسر العين اسم من عزَّ الشيء، يعز من باب ضرب، أَيْ: وأقسم بعزتي وقدرتي، فالواو واو القسم، والعزة بمعنى القدرة.

أي: وأقسم بعزتي (وجلالي) أَيْ: عظمتي والجلال والعظمة مترادفان، فجلال اللَّه سبحانه وتعالى عظمته، والعظمة هي جلاله وكبرياؤه، أَيْ: أقسم الحق سبحانه وتعالى لآدم، أنه أحب الخلق إليَّ، وإذا سألتني بحقه غفرت لك.

وأنه (ليعلمه) أَيْ: يعلم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم يقين لا شك فيه ولا ظن، (عظمة) أي عظماء بفتحتين في عظمة، (عين) أي خيار (الأعيان) أَيْ: الرؤوس أَيْ: الأخبار من الخلق، وهم الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون وجميع عباد اللَّه الصالحين.

(إنه) بكسر الهمزة أَيْ: محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللَّه (لآخر

النبيين) في الزمان والبعث، فإنه لا نبي بعده، بدليل قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وفي الحديث: أنا العاقب فلا نبي بعدي، لا من أولاده ولا من غيرهم ولا رسول يجدد شريعة.

وأما سيدنا عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا نزل من السماء يكون على شريعة نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن أمته، ولا يرد حكمه بأشياء من وضع الجزية، وعدم قبوله غير الإسلام، ونحو ذلك مما جاء في الأحاديث مما يخالف شرعنا، فإنه لا يقبل منهم إلا الإسلام، أو القتل بالسيف إن لم يؤمنوا، فذلك مغيًا بنزوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لأن ذلك شرع نبينا عند نزوله عليهما الصلاة والسلام.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان؟، قلت: معنى كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسى ممن نبيء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والخضر والياس فقد اختلف في حياتهما، فعلى القول به فإنهما يعبدان الله بشريعة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أمته.

وقوله: (**من ذريتك**) متعلّق بآخر، والخطاب لآدم، والذرية بضم الذال المعجمة وكسر الراء المشددة قيل: مشتق من الذراء وهو الخلق، ترك همزه في الاستعمال تخفيفًا. وقيل: نسبة إلى الذر لأن الله أخرجهم من ظهر آدم كالذر وهو صغار النمل، ويكون هذا من النسب السماعي إذ كان القياس فتح الذال. وقيل: من الذر وهو النشر والتفريق، لأنه الله ذرَّهم في

الأرض أَيْ: نشرهم وفرَّقهم.

و(لولاه) أي لولا خلقه ووجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (ما خلقتك) ولا خلقت الجنة ولا النار ولا أرضًا ولا سماءً، إذ وجود آدم عليه السلام متوقف على وجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآدم أبو البشر، وقد خلق اللَّه لهم ما في الأرض، وسخَّر لهم الشمس والقمر والليل والنهار، وغير ذلك كما هو نص القرآن قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

وإذا كانت هذه الأمور إنما خلقت لأجل البشر، وأبو البشر إنما خلق لأجله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت الدنيا، إنما خلقت لأجله، فيكون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو السبب في وجود كل شيء، وهو المادة لكل موجود، لأنهم مخلوقون من نوره، كما تقدم في حديث جابر.

وورد في الحديث: لولاك ما خلقت سماءً ولا أرضًا ولا إنسًا ولا جنًا ولا ملكًا, ولذلك قال البوصيري في "بردة المديح":

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَن ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق":

تَنَقَّى مِنَ الأَكْوَانِ مُخْتَارَهُ رَبِّي ... لِيُشْهِدَهُ نُورَ الجَمَالِ المُقَرَّبِ

أَزَالَ حِجَابَ الوَجْهِ أَشْهَدَهُ طِبِّي ... فَقَالَ رَأَيْتُ اللهَ بِالعَيْنِ وَالقَلْبِ

سَمِعْتُ كَلَامَ الرَّبِّ حُلْواً وَيُذْهِلُ

فَقَالَ العَلِي يَا مَنْهَلِي أَنْتَ مَقْصِدِي ... فَشَاهِدْ جَمَالِي قُمْ تَمَلَّى بِمَشْهَدِي

فَأَنْتَ مُرَادِي مِنْ وُجُودِي المُفْرَدِ ... وَأَنْتَ لِنُورِي بَيْتُ خَلْوَتِهِ النَّدِي

أَبحْتُكَ اِشْهَدْ لِلجَمَالِ المُبَجَّلُ

لِأَجْلِكَ أَبْرَزْتُ الكِيَانَ مِنَ العَمَا   أَيَا كَعْبَةَ الأَسْرَارِ يَا مَظْهَرَ النَّمَا

أَيَا قِبْلَةً تَجلِّ فَيْضِي المُعظَّمَا   أَيَا مَرْكَزَ الأَسْمَاءِ يَا صَفْوَ آدَمَا

أَيَا مَظْهَرِي فِي كُلِّ فَرْدٍ مُكَمَّلُ

خَلَعْتُ عَلَيْكَ النُّورَ خَلْعاً تَهَيُّبًا   مَنَحْتُكَ فَتْحًا فِي الوُجُودِ مُطَيَّبًا

فَأَنْتَ غِيَاثِي لِلكِيَانِ وَصَيِّبًا   وَأَنْتَ مُرَادِي حَيْثُمَا كُنْتَ طَيِّبًا

فَمَنْ شِئْتَهُ شِئْنَا وَمَنْ لَا فَلَا يَعْلُو

فَدُسْ لِبِسَاطِ النُّورِ بِالنَّعْلِ مُفْرَدِي   وَلَا تَخْلَعَنْهَا مِثْلَ مُوسَى أَيَا نَدِي

تَقَدَّمْ إِلَى قُدْسِي وَسَلْ تُعْطَ مُرْشِدِي   فَأَنْتَ لَنَا أَنْوَارُنَا لَكَ تَنْبَدِي

عَلَيْكَ صَلَاتِي مَعْ سَلَامِي لِيَنْجَلُو

وهذا على لسان الحضرة كما هو دأب العارفين في كلامهم.

وقوله: (أحوالاً) منصوب على الحال من فاعل، خلقتك على حذف مضاف، أَيْ: ذا أحوال من الحق. (تشريفية) أي تشريف لحبيبه الأعظم الذي شرف به آدم، ولأجله تاب عليه، وأسجد له ملائكته.

وهذا الحديث المتقدّم رواه البيهقي في "دلائله" من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: تفرَّد به عبد الرحمن. ورواه الحاكم وصحَّحه.

وروي: أنه لما خرج آدم من الجنة رأى مكتوبًا على ساق العرش، وكانت الكتابة قبل خلق السماوات والأرض بألفي سنة، وعلى كل موضع في الجنة من قصر وغرفة ونحور حور عين، وشجرة طوبى وورق سدرة

المنتهى، وأطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، اسم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مقرونًا باسم اللَّه تعالى، وهو لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

فقال آدم: يا رب بحرمة هذا الاسم الذي هو محمد، من هو؟، فقال اللَّه تعالى: هذا ولدك الذي لولاه ما خلقتك، فقال آدم: يا رب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد، فنودي على لسان ملك أمره اللَّه بالنداء: يا آدم قد قبلنا دعاك، لو تشفعت إلينا بمحمد فى أهل السماوات والأرض لشفعناك.

تنبيه: قال في "المواهب": ثم بان في اسم محمد خصائص، منها: كونه على أربعة أحرف، ليوافق اسم اللَّه تعالى اسم محمد، فإن عدة الجلالة أربعة أحرف كمحمد، ومنها: أنه قيل: إن مما أكرم اللَّه به الآدمي إن كانت صورته على شكل كتب هذا اللفظ، فالميم الأولى رأسه، والحاء جناحاه، والميم الثانية سرته والدال رجلاه، كما تقدَّم.

زاد الشافعي: وباطن الحاء كالبطن، وظاهرها كالظهر، ومجمع الإليتين والمخرج كالميم، وطرف الدال كالرجلين. وفي ذلك أنشد:

له اسم صوّر الرّحمن ربّي   خلائقه عليه كما تراه
له رجل وفوق الرّجل ظهرٌ   وتحت الرّأس قد خلقت يداه

قيل: ولا يدخل النار ممن يستحق دخولها، أعاذنا اللَّه منها، إلا ممسوخ الصورة إكرامًا لصورة اللفظ. حكاهما ابن مرزوق، والأول ابن العماد فى كتابه "كشف الأسرار".

ومنها: أنه تعالى اشتق اسمه المحمود، كما قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أغـــر عليـــه للنبـــوة خـــاتم من الله مـن نـوره يلـوح ويشـهد
وضـم الإلـه اسـم النبي إلـى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشـقَّ لــه مـن اسـمه ليجلـه فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد سمَّاه اللَّه تعالى بهذا الاسم قبل الخلق بألفي ألف عام، كما ورد من حديث أنس بن مالك، من طريق أبي نعيم فى مناجاة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وروى ابن عساكر عن كعب الأحبار قال: إن اللَّه تعالى أنزل على آدم عصيًا بعدد الأنبياء والمرسلين، ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بني أنت خليفتي من بعدي، فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى، وكلما ذكرت اللَّه فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوبًا على ساق العرش، وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعًا إلا رأيت اسم محمد مكتوبًا عليه، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصرًا ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوبًا عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوبًا على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره فى كل ساعاتها.

بـدأ مجـده مـن قبـل نشـأة آدم فأسماؤه فى العرش من قبل تكتب

وروينا في "جزء الحسن بن عرفة" من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لما عرج بي إلى السماء ما مررت

بسماء إلا وجدت، أي علمت، اسمي فيها مكتوبًا: محمد رسول اللَّه، وأبو بكر خلفي، ووجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي مصلح أمين. ذكره في "الشفاء".

وعلى الحجر بالخط العبراني: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربى مبين، لا إله إلا الله محمد رسول اللَّه، وكتبه موسى بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وذكره ابن ظفر، بفتح الظاء المعجمة والفاء، في كتاب "البشر"، عن معمر عن الزهري.

وشوهد كما ذكره فى الشفاء، في بعض بلاد خراسان مولود ولد على أحد جنبيه مكتوب: لا إله إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول اللَّه.

وشوهد ببلاد الهند بنواحي مالكين، شجرة عظيمة لها ورد أحمر مكتوب عليه بالأبيض: لا إله إلا الله محمد رسول اللَّه. ذكره صاحب "الأمصار" عن أبي سعيد المغربي أنه أخبره بذلك من دخل الهند.

وذكره العلامة ابن مرزوق في "شرح البردة" عن عبد اللَّه بن صوحان قال: عصفت بنا ريح، ونحن في لجج بحر الهند، فأرسينا في جزيرة، فرأينا فيها وردًا أحمر زكي الرائحة، طيب الشم، وفيه مكتوب بالأبيض: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، وورد أبيض مكتوبًا عليه بالأصفر: براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات نعيم، لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

وفي "تاريخ ابن العديم" عن علي بن عبد اللَّه الهاشمي الرقي، بفتح الراء وشدة القافة نسبة إلى الرقة مدينة على الفرات: أنه وجد ببعض قرى الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء، عليها مكتوب بخط أبيض: لا إله إلا

اللَّه محمد رسول اللَّه، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق، قال: فشككت في ذلك وقلت: إنه معمول، فعمدت إلى وردة لم تفتح فكان فيها مثل ذلك، وفي البلد منه شيء كثير وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة، لا يعرفون اللَّه تعالى.

وقال أبو عبد اللَّه بن مالك: دخلت بلاد الهند فسرت إلى مدينة يقال لها نميلة أو ثميلة، فرأيت شجرة كبيرة تحمل ثمرًا كاللوز، له قشر، فإذا كسرت ثمرته خرج منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، وأهل الهند يتبركون بها ويستسقون بها إذا منعوا الغيث. حكاه القاضي أبو البقاء بن الضياء في "منسكه".

وفي كتاب "روض الرياحين" لليافعي عن بعضهم: أنه وجد ببلاد الهند شجرة تحمل ثمرًا كاللوز، له قشر إذا كسر خرجت منه ورقة خضراء طرية مكتوب فيها بالحمرة: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، كتابة جلية وهم يتبركون بها.

قال: فحدثت بذلك أبو يعقوب الصياد، فقال: ما استعظم هذا، كنت أصطاد على نهر الأبلة، بضم الهمزة والموحدة وشد اللام: بلد قرب البصرة، فاصطدت سمكة، فرأيت مكتوبًا على جنبها الأيمن: لا إله إلا اللَّه، وعلى جنبها الأيسر: محمد رسول اللَّه، فلما رأيتها قذفتها في الماء احترامًا لها.

وفي "تاريخ الخطيب" عن عبد الرحمن بن هارون المغربي قال: ركبت بحر المغرب، فوصلنا إلى موضع يقال له البرطون، ومعنا غلام، فصاد

بسنارة سمكة قدر شبر، فإذا مكتوبٌ على أذنها الواحدو: لا إله إلا اللهُ، وفي قفاها وخلف أذنها الأخرى: محمد رسول اللَّه، وكان أبيض من خط نقش على حجر، والسمكة بيضاء، والكتابة سوداء كأنها كتبت بحبر فقذفناها في البحر.

وعن بعضهم مما ذكره ابن مرزوق في "شرح بردة البوصيري": أنه أتي بسمكة فرأى في إحدى شحمتي أذنيها: لا إله إلا اللهُ، وفي الأخرى: محمد رسول اللَّه.

وعن جماعة: أنهم وجدوا بطيخة صفراء فيها خطوط شتى بالأبيض خلقة، ومن جملة الخطوط بالعربي في أحد جنبيها: اللهُ، وفي الآخر: عز أحمد، بخط بين لا يشك فيه عالم بالخط. وأنه وجد في سنة تسع، أو قال: سبع بالموحدة: ثمانمائة حبة عنب مكتوب فيها بخط بارع بلون أسود: محمد.

وفي كتاب "النطق المفهوم" لابن طغربك السياف عن بعضهم: أنه رأى في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة، مكتوب فيه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها اللَّه تعالى بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر، الأول: لا إله إلا اللَّه، والثاني: محمد رسول اللهُ، والثالث: إن الدين عند اللهُ الإسلام.

وفي حديث سلمان الفارسي عند ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن ربك يقول: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً، فقد اتخذتك حبيبًا، وما خلقت خلقًا أكرم عليَّ منك، ولقد خلقت

الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا.

وما أحسن قول سيدي علي وفا في قصيدته "الدالية" التي أولها:

سكن الفؤاد فعش هنيئًا يا جسد ... هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحت في كنف الحبيب ومن يكن ... جار الكريم فعيشه العيش الرغد
عش في أمان الله تحت لوائه ... لا خوف في هذا الجناب ولا نكد
لا تختش فقرًا وعندك بيت من ... كل المنى لك من أياديه مدد
رب الجمال ومرسل الجدوى ومن ... هو في المحاسن كلها فرد أحد
قطب النهى غوث العوالم كلها ... أعلى عليّ سار أحمد من حمد
روح الوجود حياة من هو واجد ... لولاه ما تم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هم أعين هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله ... عبَدَ الجليل مع الخليل ولا عند
لكن جمال الله جل فلا يرى ... إلا بتخصيص من الله الصمد
فأبشر بمن سكن الجوانح منك يا ... أنَّا قد ملأت من المنى عينا ويد
عين الوفا معنى الصفا سر الندى ... نور الهدى روح النهى جسد الرشد
هو للصلاة من السلام المرتضى ... الجامع المخصوص ما دام الأبد

(وقيل) في بعض الروايات، وقال في "شرح الشفا": قائله الآجري، (أبا محمد يكنى صفي اللّه آدم كان) أي صفي الله آدم يكنى في الجنة بأبي محمد كرامة له، وفيه تقديم وتأخير لأجل السجع، والأصل: كان آدم يكنى أبا محمد صفي الله.

فيكنى بصيغة المجهول مخففًا ومثقلاً نونه، كما في "القاموس". واقتصر في "المختار" على أن الكنية بالتشديد لا غير، وأن المخفف إنما هو ضمن تكلم شيء مريدًا غيره.

وأبا منصوب بالألف مفعول يكنى، وصفي الله بالنصب بدل من أبا، وصفي فعيل من صفا الود، يقال: صفا الود خلص، وأصفى لصديقه أخلص مودته، واصطفيتك الشيء جعلته لك خالصًا أَيْ: المخلص في مودته.

وقيل: في الرواية المذكورة بأبي محمد، ووجه تخصيصه لكونه أفضل أولاده، أو للتشرف باستناده، لأن العرب إذا عظمت إنسانًا كنته، ويكنى الإنسان بأصل ولده، وقيل: بأبي البشر أَيْ: عمومًا، كما رواه البيهقي عن عليّ مرفوعًا.

وفي كتاب "المولد الشريف" لابن طغربك: ويروى أنه لما خلق الله آدم ألهمه قبل أن يناديه أحد من الملائكة به، أن قال: يا رب لم كنيتني أبا محمد؟، قال الله تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد، أَيْ: النور الذي هو صورته، في سرادق العرش فقال: يا رب ما هذا النور؟ قال: هذا نور نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماء ولا أرضًا.

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم في "صحيحه": أن آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رأى اسم محمد مكتوبًا على العرش، وأن الله تعالى قال لآدم: لولا محمد ما خلقتك. ولله در من قال:

وكان لدى الفردوس في زمن الصبا وأثواب شمل الأنس محكمة السدى
يشاهد في عدن ضياء مشعشعًا يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلهي ما الضياء الذي أرى جنود السما تعشو إليه ترددا
فقال نبي خير من وطيء الثرى وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيرته من قبل خلقك سيدًا وألبسته قبل النبيين سؤددا
وأعددته يوم القيامة شافعًا مطاعًا إذا ما الغير حاد وحيدا
فيشفع في إنقاذ كل موحد ويدخله جنات عدن مخلدا
وإن له أسماء سميته بها ولكنني أحببت منها محمدا
فقال إلهي امنن علي بتوبة تكون على غسل الخطيئة مسعدا
بحرمة هذا الاسم والزلفة التي خصصت بها دون الخليفة أحمدا
أقلني من عثاري يا إلهي فإن لي عدوًا لعينًا جار في القصد واعتدى
فتاب عليه ربه وحماه من جناية ما أخطاه لا متعمدا

ذكرها صاحب "مصباح الظلام".

فإن قلت: مذهب السنة: أن أفعال اللَّه تعالى ليست معللة بالأغراض، فكيف يكون خلقة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علة في خلق آدم عليه السلام؟.

أجيب: بأن الظاهر من الأدلة تعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح التي هي غايات ومنافع لأفعاله تعالى، لا بواعث على إقدامه، ولا علل مقتضية لفاعليته، لأن ذلك محال في حقه تعالى، لما فيه من استكمال بغيره وهو محال.

والنصوص شاهدة بذلك بتعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح على سبيل الظهور، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أَيْ: قرنت الخلق بالعبادة، أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة، فالتعليل لفظي لا حقيقي، لأن اللَّه تعالى مستغن عن المنافع، فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره، لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل، فلا يتوقف عليه وصول المنفعة.

(وقال عيسى) عليه السلام، وفي بعض الشراح: رسول عيسى، (شاهدًا فيه) أي له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (ولست أهلاً أن أحمل) حذوه (حذاه) الحذاء بفتح الحاء وكسرها وبالذال المعجمة والمد، مصدر يقال حذوته أحذوه حذوًا، وحاذيته محاذاة، وحذا من باب قاتل، وهي الموازاة والمقابلة، واحتذيت به اقتديت به في أموره.

وحذوت النعل بالنعل قدرتها بها، وقطعتها على مثالها وقدرها. وداره بحذاء داره، والحذاء بالفتح وبالكسر والمد، مثل كتاب النعلوما وطيء عليه البعير من خفه والفرس من حافره، والجمع أحذية مثل كساء وأكسية، كما في "المصباح".

فعلى هذا يمكن ضبط أُحمَل بضم الهمزة مع فتح الميم مبنيًا للمجهول، والحذاء بكسر الحاء بمعنى المقابلة. فكان سيدنا عيسى عليه السلام قال: لست أهلاً أنا أقابله في رتبته.

ويصح ضبط أَحمِل مع كسر الميم مبنيًا للمعلوم، ويكون المعنى: لست أهلاً أن أحمل نعله الشريف، وهذا هو اللائق بتواضع سيدنا عيسى

عليه السلام، وهذا كله ما لم تعلم الرواية، وإلا فتتبع.

وقال في "بعض الشراح": وقال بعض القسيسين الذين أسلموا: ومما أتفق عليه الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة: أن عيسى عليه السلام رُفع إلى السماء، فقال للحواريين: إني ذاهب إلى ربي وإلهي، أبشركم برسول بعدي اسمه بارقليط، باللسان السريانية، أَيْ: أحمد.

قال القسيسيون: هذا الاسم الذي هو سبب. وفيما أوحى اللَّه تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن البكر البتول آمن بأكرم النبيين وسيد المرسلين، حبيبي منهم أحمد بن عبد اللَّه، صاحب الجمل الأحمر والوجه الأقمر، سيد ولد آدم في الدنيا، ويوم يلقاني له في الميعاد، شأنه لا يلغه أحد من النبيين.

قال عيسى: إلهي من هو قال: ارضَ فلك أرض، قال: يا رب قد رضيت، قال: محمد بن عبد اللَّه رسول إلى الناس كافة، وأقرب الأنبياء إليَّ وسيلة، وأخصم شفاعة، طوبى لأمته إذا كانوا على شريعته فيه، في عرصاته يلحقون، وتحت لوائه يحشرون، وفي كرامته معه يدخلون، يحمده أهل الأرض ويستغفرون له أهل السماء، يفتح بالتكبير ويختم بالتسلم. اه ابن زكريا.

وقوله: (وأنباءً) بالنصب معطوف على قوله سابقًا: أخبارًا مبشرية، أو بالرفع خبر لمبتدأ محذوف، أَيْ: والوارد في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنباءً أَيْ: أخبار من (مسطورية) بزيادة الياء أي مسطورة.

(ولو أخذت) أي شرعت (في النقل) أَيْ: في نقل أخباره المسطورة

زيادة على ذلك، (لتهت) أَيْ: ضللت، (في وسع) أَيْ: اتساع (هذا الميدان) بفتح الميم وكسرها، وهو محل تسابق فيه الفرسان. والمراد طريق نقل الروايات والأخبار الواردة في صفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشبهها بالميدان لشدة اتساعها وكثرتها.

ثم أن قوله: ولو أخذت في النقل إلخ، كلام مستأنف من كلام الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(وقدره) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (المعظّم) أي المفخّم (قد اتضح) أي ظهر (قبل بروزه) أي قبل وجوده وخروجه جسمًا، (وأشرقت) أَيْ: أضاءت (أنواره) جمع نور، وهو كالضوء إلا أن بينهما فرقًا، ولذا قال اللَّه تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾.

ثم أن النور لما كان ظاهرًا بنفسه مظهرًا لغيره، شاع إطلاقه على ما ضاهاه كالرسل والعلم والعقل. ذكره الشهاب. ويطلق النور على اللَّه وعلى المصطفى وعلى القرآن، أَيْ: إلى أن أضاءت أنواره في الأكوان، وسرى مدده (في العوالم) حتى ظهرت في زمنه (بالكلية) روحًا وجسدًا.

(وليس يحصر) بضم الصاد أَيْ: يضبط قدر (ذلك إلا الملك) بكسر اللام، ومعناه الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود، وقيل: غير ذلك. (الديان) من دان إذا قهر أَيْ: الذي أكرمه وفضّله على سائر خلقه.

ثم شرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورفعه في أعلى المراتب، بعد أن فرغ من الكلام على إثبات نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأزل وغير ذلك مما

تقدَّم، بانتقاله بأسلوب آخر، لكن بالصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عادته فيما سيأتي حيث قال: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

ثُمَ اعْلَمْ أَنَّ نَسَبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِلْسِلَةٌ ذَهَبِيَّة ❁ مُنَظَّمٌ كَالدُّرِّ المَعْرُوفِ بِالتَّشْرِيفِ عَلى كُلِّ الأَلْوَان ❁ فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ذِي العِصَابَةِ الهَاشِمِيّة ❁ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِلَا خِلَافٍ وَلَا غوَيَان ❁ ابْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ أَنْسَاباً قُرَشِيَّة ❁ ابْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بِضَبْطٍ وَحِفْظَان ❁ ابْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضرِ بْنِ كِنَانَةَ المَكْنُونِيَّة ❁ ابْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ المُزَان ❁ ابْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ رَوَاهُ أَهْلُ النَّسَبِيَّة ❁ وَذلِكَ المَشْهُورُ بِأَنَّهُ ابْنُ عَدْنَان ❁ وَمَنْ زَادَ عَلَى هذَا فَقَدْ كَذَبَ كَمَا جَآءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي الأَخْبَارِ المَرْوِيَّة ❁ وَهذَا النَّسَبُ لَمْ يَكُنْ أَعْلَى مِنْهُ فِي العَرَبِ نَسَبٌ بِلَا نُكْرَان ❁

نَسَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَحْفُوْظ فَلَا
يَلْحَقُهُ نَسَبٌ فِي الوُجُودِ مُبَرَّأُ
دُرٌ تَنَضَدَّ مِنْ قَدِيمٍ عَالِي
يَعْلُو عَلَى الجَوْزَاءِ نُورٌ أَسْنَأُ

وَهذَا النَّسَبُ لَمْ يَدْخُلْهُ سِفَاحٌ حِفْظاً مِنَ اللَّهِ فِي آبَائِه وَأُمَّهَاتِهِ مِنَ الأَوَّلِيَّة ❁ وَذَلِكَ لِحِفْظِ نُطْفَتِهِ الَّتِي شَرَّفَها قَدْرُهُ وَالشَّان ❁ بَلْ نِكَاحٌ مَضْبُوطٌ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ حِكَمٌ قَهَّارِيَّة ❁ وَذلِكَ مِنْ صُلْبِ طَاهِرٍ إِلَى رَحِمٍ طَيِّبٍ لَمْ يَدْخُلْهُ الشُّبْهَان ❁ فَتَحَفَّظْ لِهَذِهِ الأَنْسَابِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أَنْسَابٍ أَصِيلِيَّة ❁ تَزْدَدْ قُرْباً وَمَحبَّةً عِنْدَ هَذَا الرَّسُولِ المُعَان ❁ لِكَوْنِهِ مُعْتَنىً بِهِ كَمَا عُلِمَ تَحْقِيقاً مِنَ الحَضْرَةِ الرَّحَمُوتِيَّة ❁ فَيَنْبَغِي لَكَ التَّخَلُّقُ بِأَخْلَاقِ الَّذِي بِالدِّينِ مُدَان ❁ وَتَعْلُو عَلَى

سَائِرِ الأَجْنَاسِ بِحَوْزِكَ قُضُبَ الذَّهَبِ السَّبْكِيَّة ❁ وَتَنَلِ السُّمُوَّ بِمَدْحِ مِنْ فَاقَ سَائِرَ الإِنْسَ وَالجَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ❁ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

(ثم اعلم) أمر من العلم، وهي كلمة يؤتى بها للاهتمام بما بعدها، ويصدر بها ما يعتنى به من الكلام، تقوية وتأكيدًا، وحثًّا على إلقاء البال لما بعده، تنبيهًا على أنه مما ينبغي أن يعلم ولا يترك.

وقد ورد في القرآن وكلام العرب كقوله جل ذكره: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، ولذا التزم بعده في الغالب أن المؤكدة كقول الشاعر:

واعلمْ فعِلْمُ المرءِ يَنْفَعُهُ أنْ سوفَ يأتي كلُّ ما قُدِرا

(أن نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلسلة) أَيْ: ما ينتسب به من الأجداد إلى عدنان. والنسب بفتح النون والسين المهملة: اسم لعمود القرابة الذي يجمع متفرقه.

قال في "المصباح": نَسَبْتُهُ إِلَى أَبِيهِ نَسَبًا مِنْ بَابِ طَلَبَ عَزَوْتُهُ إِلَيْهِ، وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ اعْتَزَى، وَالِاسْمُ النِّسْبَةُ بِالْكَسْرِ فَتُجْمَعُ عَلَى نِسَبٍ كَسِدْرَةٍ وَسِدَرٍ، وَقَدْ تُضَمُّ فَتُجْمَعُ مِثْلُ غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ. قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: يَكُونُ مِنْ قِبَلِ الْأَبِ وَمِنْ قِبَلِ الْأُمِّ.

وَيُقَالُ: نَسَبُهُ فِي تَمِيمٍ مَثلاً أَيْ هُوَ مِنْهُمْ، وَالْجَمْعُ أَنْسَابٌ مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ، وَهُوَ نَسِيبُهُ أَيْ قَرِيبُهُ، وَيُنْسَبُ إِلَى مَا يُوَضِّحُ وَيُمَيِّزُ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ وَحَيٍّ وَقَبِيلٍ وَبَلَدٍ وَصِنَاعَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَتَأْتِي بِالْيَاءِ فَيُقَالُ مَكِّيٌّ وَعَلَوِيٌّ

وَتُرْكِيٍّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَيُسْتُعْمل النَّسَبُ وَهُوَ الْمَصْدَرُ فِي مُطْلَقِ الْوُصْلَةِ بِالْقَرَابَةِ فَيُقَالُ: بَيْنَهُمَا نَسَبٌ أَيْ قَرَابَةٌ، وسواؤ جاز بينهما التناكح أو لا، وجعه أنساب اه.

والسلسلة بالكسر دائر من حديد ونحوه، مشتبك بعض في بعض.

وقوله: (ذهبية) أَيْ: منسوبة للذهب. وَالذَّهَبُ مَعْرُوفٌ وَيُؤَنَّثُ فَيُقَالُ: هِيَ الذَّهَبُ الْحَمْرَاءُ، وَيُقَالُ: إنَّ التَّأْنِيثَ لُغَةُ الْحِجَازِ وَبِهَا نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَقَدْ يُؤَنَّثُ بِالْهَاءِ فَيُقَال ذَهَبَةٌ.

وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الذَّهَبُ مُذَكَّرٌ وَلَا يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ، إلَّا أَنْ يُجْعَلَ جَمْعًا لِذَهَبَةٍ، وَالْجَمْعُ أَذْهَابٌ مِثْلُ سَبَبٍ وَأَسْبَابٍ، وَذُهْبَانٌ مِثْلُ رُغْفَانٍ، وَأَذْهَبْتُهُ بِالْأَلِفِ. كما في "المصباح".

(منظم) خبر لمبتدأ محذوف أَيْ: هو منظم أَيْ: ملتصق بعضه ببعض على نهج غير مختلف. وقوله: (كالدر) بضم الدال المهملة وشد الراء، وهو اللؤلؤ الثمين أو الجوهر النفيس، يعني أن نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: آباؤه الكرام وأصوله الفخام، الوارد عنه نسب عظيم، لا أطهر ولا أجلّ منه في الأنساب، لأنه كسلسلة ذهب خالص من الغش، هو منظم على نهج غير مختلف كاللؤلؤ الثمين المنظوم في سلك.

(المعروف بالتشريف) في بياضه (على كل الألوان) من الجواهر النفيسة وغيرها.

تنبيه: اعلم أن لحوقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآبائه المذكورين في هذا النسب الشريف قطعي لا شك فيه، لوروده عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وصحة حديثه، وكذلك لحوقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسيدنا إسماعيل وأبيه إبراهيم وغيرهما من الأنبياء الذين اشتهرت نبوتهم، وأبوتهم له كنوح وشيث، فيكفر منكر ذلك، لكن إن لم يشترك في معرفة الخاص والعام لا يكفر منكره إلا بمكابرته بعد التعليم.

وأما بين عدنان إلى إسماعيل وإلى آدم فظني، لا يكفر منكره، لا يجب علمه.

ثم اعلم أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يشركه في ودلاته من أبويه أخ ولا أخت، يعني أنهما أي أبويه لم يلدا غيره. قال سبط ابن الجوزي: لم يتزوج عبد اللَّه قط ولم تتزوج آمنة غيره.

قال: وأجمع العلماء أن آمنة لم تحمل بغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ومعنى قوله: لم أحمل حملاً أخفّ منه المفيد حملها بغيره، خرج على وجه المبالغة، لأنها حملت بالمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقب التزوج بعبد اللَّه ولم يلدا غيره، لانتهاء صفوتهما أَيْ: خالصهما إليه، وقصور نسبهما عليه أَيْ: عدم مجاوزته إلى غيره تكريمًا ليكون مختصًا بنسب جعله اللَّه للنبوة غاية، أَيْ: ختمًا للنبوة بحيث لا يولد بعده نبي، ولتمام الشرف نهاية لا غاية بهذا، وأنت إذا اختبرت حال نسبه وعلمت طهارة مولده تيقنت أن ذاته الشريفة سلالة آباء كرام.

(فهو) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (محمد) أصله اسم مفعول حمد بتشديد الميم للتكثير، أَيْ: المحمود كثيرًا، أو للتعدية أي الموفق للحمد، سمي به تفاؤلاً بتحققهما له، وقد تحققا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أجل

المحمود وأفضل الحامدين من المخلوقين.

وهذا الاسم أشهر أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسمي له بذلك جده عبد المطلب، رجاء أن يحمد في السماء والأرض، وقد حقَّق اللَّه رجاه كما سبق في علمه.

وهذا بحسب الظاهر وإلا فالمسمي له حقيقة هو اللَّه تعالى، لأنه هو الذي ألهم جده ذلك، فهذا الاسم بتوقيف شرعي كسائر أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي توقيفية بالإجماع، وأما أسماؤه تعالى فهي توقيفية على الراجح، والحكمة في ذلك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر، فربما تسوهل في شأنه فسدت الذريعة بالإجماع، بخلافه سبحانه وتعالى، فقيل فيه: بعدم التوقيف.

وقوله: (ابن عبد اللَّه) بالرفع نعت لمحمد، وقد رمز بعضهم لهذا النسب الشريف بأوائل هذه الكلمات المجموعة في هذين البيتين بقوله:

علقت شفيعًا هال عقلي قرانه   كتاب مبين كسب لبي غرائبه
فذا معشر نفسي كرام خلاصة   مدى الفهم مذ نيل مجد عواقبه

فأشار بأول الكلمة الأولى إلى سيدنا عبد اللَّه، وبأول الثانية إلى شيبة الحمد وهو سيدنا عبد المطلب، وهكذا.

ثم اعلم أن عبد اللَّه لم يختلف في تسميته بهذا الاسم، قاله الحافظ العراقي. قال ابن الأثير: وكنيته أبو قثم بقاف مضمومة فمثلثة، وهو من أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مأخوذ من القثم وهو الإعطاء، أو من الجمع، يقال للرجل الجموع للخير: قثوم وقثم، وقيل: أبو محمد، وقيل:

أبو أحمد.

وإنما كني بذلك مع أنه مات والمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمل على الصحيح المشهور، تفاؤلاً أو بالإيهام من الله تعالى على أن الكنية لا تستدعي وجود من يكنى به، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطفل: يا أبا عُمَيْر، فقد كناه مع عدم وجود من يكنى به.

ولقبه الذبيح وقصته كما في "المواهب": أنه لما فرَّج الله عن عبد المطلب، ورجع أبرهة خائبًا، فبينما هو نائم في الحجر، إذ رأى منامًا عظيمًا فانتبه فزعًا مرعوبًا، هو كما رواه أبو نعيم من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي الخيثم، عن أبيه عن جده، قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب أنه قال: رأيت الليلة كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نورًا أزهر منها أعظم من نور الشمس سبعين ضعفًا، ورأيت العرب والعجم لها ساجدين، وهي تزداد كل ساعة عظمًا ونورًا وارتفاعًا ساعة تخفى وساعة تظهر، ورأيت رهطًا من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قومًا من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهًا ولا أطيب ريحًا، فيكسر أظهرهم ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول منها نصيبًا، فلم أنل، فقلت: لمن النصيب؟ فقيل لي: النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها.

ففزعت منها فزعًا شديدًا، وانتبهت مذعورًا فأتيت كاهنة قريش، فقصصتها عليه، فرأيت وجهها قد تغير ثم قالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس.

وفي روايةٍ: أنه رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء، وطرف في الأرض وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها.

فانتبهت فزعًا مرعوبًا، وأتى كهنة قريش، وقصَّ عليهم رؤياه، فقالوا: إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض وليكونن في الناس علمًا مبينًا.

فتزوج فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم، وحملت في ذلك الوقت بعبد اللَّه الذبيح. وقصته في ذبحه مشهورة مخرجة عند الرواة مسطورة.

وكان سببها حفر أبيه عبد المطلب زمزم، لأن الجرهمي عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم اللَّه الحوادث، وقيض اللَّه لهم من أخرجهم من مكة، فعمد عمرو بن الحارث إلى نفائس فجعلها في زمزم وبالغ في طمها، وفر إلى اليمن بقومه، فلم تزل زمزم من ذلك العهد مجهولة، إلى أن رفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب، دلته على حفرها بأمارات عليها.

فمنعته قريش من ذلك ثم آذاه من السفهاء من آذاه، فاشتد بذلك بلواه، ومعه ولده الحارث ولم يكن له ولد سواه فنذر لئن جاءه عشرة بنين وصاروا له أعوانا ليذبحن أحدهم للَّه قربانًا.

فغدا عبد المطلب ومعه الحارث فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر

عندها بين إثاف ونائلة، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها، فجاء بالمعول وقام يحفر حيث أمر، فقامت إليه قريش، فقالوا: والله ما نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما، فقال لابنه: رد عني حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به.

فلما عرفوا أنه غير تارك خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه، فلم يحفر إلا يسيرًا حتى بدا له الطمي، فكبَّر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد الغزالين والأسياف والأدراع التي دفنتها جرهم، فقالت قريش: إنَّا معك في هذا شرك، فقال: لا ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها القداح، قالوا: كيف نصنع؟، قال: أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وأسودين له وأبيضين لقريش، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، والأسودين على الأسياف والأدراع له، وتخلف قدحًا قريش فضرب الأسياف بابًا للكعبة وضرب بالباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب طليته به الكعبة فيما يزعمون. ثم أتم حفر زمزم وأقام سقايتها للحاج، فكانت له فخرًا وعزًّا على قريش وعلى سائر العرب.

فلما تكامل بنوه عشرة بعد حفره زمزم بثلاثين سنة، وهم الحارث وأمه صفية بنت جندب، والزبير، بفتح الزاي وضمها، وأمه فاطمة بنت عمرو، وحجل، بفتح المهملة فجيم ساكنة وفي روايةٍ: بتقديم الجيم على الحاء الساكنة. واسمه المغيرة، وأمه هالة بنت وهيب. وضرار بضاد معجمة

وراءين بينهما ألف، وهو شقيق العباس، والمقوم بفتح الواو مشددة اسم مفعول وكسرها مشددة اسم فاعل، وأمه هالة. وأبو لهب، والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمه نتلة بفتح النون وسكون الفوقية، ويقال: نتيلة بالتصغير. وحمزة سيد الشهداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمه هالة بنت وهيب. وأبو طالب وعبد اللّه والده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمر بن مخزوم.

وقرَّ اللّه عينه بهم، نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى في المنام قائلاً يقول: يا عبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعًا مرعوبًا، وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين. ثم نام فرأى: أن قرّب ما هو أكبر من ذلك، فاستيقظ من نومه وقرّب ثورًا، ثم نام فرأى: أن قرّب ما هو أكبر من ذلك، فانتبه وقرّب جملاً وأطعمه للمساكين، ثم نام فنودي: أن قرّب ما هو أكبر من ذلك، فقال: وما أكبر من ذلك؟ وقال: قرّب أحد أولادك الذي نذرته.

فاغتم غمًا شديدًا، وجمع أولاده وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء، فقالوا: إنا نطيعك، فمن تذبح منا؟، قال: ليأخذ كل واحد منكم قدحًا، والقدح بكسر القاف وسكون الدال وحاء مهملة: سهم بغير نصل. ثم ليكتب فيه اسمه، ثم ائتوا به، ففعلوا، وأخذوا قداحهم ودخلوا على هبل، بضم الهاء وفتح الموحدة فلام: اسم صنم عظيم من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان في جوف الكعبة، وكان تحته بئر يجمع فيها ما يهدى

للكعبة. وكانوا يعظمونه ويضربون بالقداح عنده، ويستقسمون بها أَيْ: يرتضون بما يقسم لهم، ثم يضرب بها السهم الذي لها، وكانوا يتفقون عند القيم بالرضا بما خرج، فكل من خرج اسمه على شيء رضي به.

قال: فدفع عبد المطلب إلى ذلك القيم القداح، وقام يدعو اللَّه تعالى، فخرج على عبد الله وكان أحب ولده إليه، فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد اللَّه، وأخذ الشفرة، بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وهي السكين العظيم أو العريض.

ثم أقبل إلى إساف، بكسر الهمزة وفتح المهملة مخففة، ونائلة، بنون فألف فتحتية: صنمين عند الكعبة تذبح وتنحر عندهما النسائك، فقام إليه سادة قريش، فقالوا: ما تريد أن تصنع؟، فقال: أوفي بنذري، فقالوا له: لا ندعك أن تذبحه حتى تُعْذر، بضم فسكون، فيه إلى ربك، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه وتكون سنة. وقالوا له: انطلق إلى فلانة الكاهنة، قيل: اسمها قطبة، وقيل: اسمها سبجاج، فلعلها أن تأمرك بأمر فيه فرج لك.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها بخيبر، فقصَّ عليها عبد المطلب القصة، فقالت لهم: قد جاءني الخبر، كم الدية عندكم؟، فقالوا: عشرة من الإبل، فقالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم، أَيْ: أحضروه إلى موضع ضرب القداح، ثم قربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت القداح على صابحكم فزيدوا في الإبل عشرة أخرى، ثم اضربوا أيضًا هكذا حتى يرضى ربكم، فإذا خرجت على

الإبل فانحروها وتخلص صاحبكم.

فرجع القوم إلى مكة وقربوا عبد الله وقربوا عشرة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو، فخرجت القداح على ولده، فلم يزل يزيد عشرًا عشرًا حتى بلغت الإبل مائة، فخرجت القداح على الإبل، فنحرت وتركت، لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع.

ولهذا روي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أنا ابن الذبيحين. وعند الحاكم في "المستدرك" عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول اللَّه خلفت البلاد يابسة، مجدبة لا خصب فيها، والماء أَيْ: محلاته التي يصيبها، يابسًا، لعدم الماء، وخلفت المال عابسًا، أَيْ: كالحًا متغيرًا مهزولاً وكأنه أراد بالمال الماشية، هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ، أَيْ: أعطني شيئًا أستعين به، مما أفاء اللَّه عليك يا ابن الذبيحين، قال: فتبسم رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينكر عليه الحديث.

قال معاوية: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج لعبد اللَّه، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا: ارض ربك وافد ابنك، ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول، من أبويه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سماه أولاً لقربه منه وأنه أبوه بلا واسطة، وإسماعيل الذبيح الثاني.

ويعني بالذبيحين: عبد اللَّه وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وإن كان قد ذهب بعض العلماء إلى أن الذبيح إسحاق، فإن صحَّ هذا

فالعرب تجعل العم أبًا، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، فجعل إسماعيل أبًا وهو عم.

قال ابن القيم: ومما يدل على أن الذبيح إسماعيل، أنه لا ريب أن الذبح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين، بفتح القاف جمع قربان بضمها وما ما يتقرَّب به لله، يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات بها تذكيرًا لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه.

ثم قال: ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب، ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة. وأيضًا فإن الله سمّى الذبيح حليمًا، لأنه لا أحلم ممن سلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سمّاه عليمًا.

وأيضًا فإن الله أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحبَّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الخلة تنزعها من قلب الخليل، فأمر بذبح المحبوب، فلما قدم على ذبحه، وكانت محبة الله عنده أعظم من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس، وقد حصل المقصود، فنسخ

الأمر وفدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا اه. وقد أنشد بعضهم فقال:

إن الــذبيح هــديت إســماعيل ظهــر الكتــاب بــذاك والتنزيــل

شــرف بــه خــص الإلــه نبينــا وأبانــه التفســير والتأويــل

(ابن) بالجر نعت لعبد الله وهكذا ما بعده، السيد (عبد المطلب) لقبه واسمه شيبة الحمد، وقيل: عامر، وكنيته أبو الحارث، وهو أكبر أولاده، كان مجاب الدعوة، محرم الخمس على نفسه، وهو أول من تحنّث بحراء، وكان إذا استهل رمضان صعده، وأطعم المساكين. وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال، يقال له الفياض لجوده.

وإنما قيل له: عبد المطلب لأن أباه هاشمًا قال لأخيه المطلب بن عبد مناف وهو بمكة حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب. وقيل: إن عمه المطلب جاء به إلى مكة رديفه بهيئة بذة، بفتح الموحدة والذال المعجمة المشددة، أَيْ: رثة. فسئل عنه فقال: هو عبدي، حياءً، فلما أدخله وأحسن من حاله أظهر أنه ابن أخيه، فلذلك قيل له: عبد المطلب. وبهذا القول جزم في "شرح البخاري".

وجزم الحافظ بما نصه: سمّي عبد المطلب، واشتهر بها لأن أباه لما مات بغزة، وكان خرج إليها تاجرًا، وترك أمه بالمدينة، فأقامت عند أهلها من الخزرج، فكبر عبد المطلب فجاء عمه المطلب فأخذه ودخل به مكة، فرآه الناس مردفه خلفه، فقالوا: هذا عبد المطلب. وقيل: سمي به على عادة العرب في قولهم لليتيم المربى في حجر إنسان عبده.

وسمي شيبة الحمد لأنه ولد وفي رأسه شيبة ظاهرة في ذوائبه. وفي

رواية: ووسط رأسه أبيض. وقيل: لأن أباه أوصى أمه بذلك. وأضيف للحمد رجاء أن يكبر ويشيخ ويكثر حمد الناس له، وقد حقَّق اللَّه له ذلك، فكثر حمدهم له.

وكانت قريش تفزع إليه في النوائب، وتلجأ إليه في مهمات الأمور، وصار سيدهم وشريفهم، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد اللَّه سبحانه وتعالى.

وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها، منها: الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان.

وهو أول من خضب بالسواد من العرب، وعاش مائة وأربعين سنة.

ومن مآثره قصته مع صاحب الفيل وهي: لما قدم أبرهة ملك اليمن من قِبَل أصحمة النجاشي لهدم بيت اللَّه الحرام، وبلغ عبد المطلب ذلك، فقال: يا معشر قريش لا يصل إلى هدم البيت، لأن لهذا له ربًا يحميه ويحفظه.

ثم جاء أبرهة فاستاق إبل قريش وغنمها، وكان لعبد المطلب فيها أربعمائة ناقة. وفي روايةٍ: مائتي بعير. فركب عبد المطلب في قريش حتى طلع جبل ثَبِير، بمثلثة مفتوحة فموحدة مكسورة فتحتية، فاستدارت دارة غرة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جبهته كالهلال، واستنار شعاعها على البيت الحرام مثل السراج، فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك قال: يا معشر قريش ارجعوا فواللَّه ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا،

فرجعوا متفرقين.

ثم إن أبرهة أرسل رجلاً من قومه ليهزم الجيش، فلما دخل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخرّ مغشيًا عليه، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خرّ ساجدًا لعبد المطلب، وقال: أشهد أنك سيد قريش حقًا.

ثم لما أفاق أخبره بمراد أبرهة، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه، وتكلم أنيس سائس فيل أبرهة، فقال: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فعظم في عين أبرهة فأجله وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه.

فنزل عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟، فقال له: حاجتي أن يرد الملك عليَّ إبلي، فقال لترجمانه: قل له: كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك، أتكلمني في إبلك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه، فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه، قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك، فرد عليه إبله.

وروي: أنه لما حضر عبد المطلب عند أبرهة، أمر سائس فيله الأكبر الأبيض العظيم، الذي كان لا يسجد للملك أبرهة كما تسجد الفيلة، أن يحضره بين يديه، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير، وخرَّ ساجدًا، وأنطق الله تعالى الفيل فقال: السلام على النور الذي

في ظهرك يا عبد المطلب.

ولما دخل جيش أبرهة، ومعهم الفيل، واسمه محمود وكنيته أبو العباس، لهدم الكعبة الشريفة برك بفتح الراء الفيل، فضربوه في رأسه ضربًا شديدًا ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فقام مسرعًا.

ثم أرسل اللَّه عليهم طيرًا أبابيل من البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجر في منقره وحجران في رجليه كأمثال العدس، لا تصيب أحدًا منهم إلا أهلكته، فخرجوا هاربين، يتساقطون بكل طريق.

وأصيب أبرهة في جسده بداء هو الجدري، وتساقطت أنامله أنملة أنملة، وسال منه الصديد والقيح والدم، وما مات حتى انشق قلبه، وانفلت وزيره ويقال له: أبو يكسوم، وطائره يحلق فوق رأسه، وهو لا يشعر به حتى بلغ النجاشي فأخبره بما أصابهم، فلما أتمَّ كلامه رماه الطائر فوقع عليه الحجر ميتًا بين يديه، فرأى النجاشي كيف كان هلاك أصحابه. وكان هلاكهم قرب عرفة، قبل دخول الحرم على الأصح، وقيل: بمحسر بين مزدلفة ومنى.

وإلى هذه القصة أشار سبحانه وتعالى بقوله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ إلى آخر السورة.

(ابن) السيد (هاشم) واسمه عمرو، وقيل: عمر، كان يكنى بأبي بالبطحاء، وكان مع أخيه عبد شمس في بطن، وكانت أصبع هاشم بجبهة عبد شمس، ولم يمكن نزعها إلا بسيلان دم، فكان يقولون سيكون بينهما دم، فكان بين ولديهما أي بين بني العباس وبين بني أمية سنة ثلاثة وثلاثين

ومائة من الهجرة.

وإنما سمي هاشمًا لأنه أول من هشم الثريد بمكة لأهل الموسم ولقومه في سنة المجاعة، وكان أفخر قومه وأعلاهم، وكانت مائدته منصوبة لا ترفع في السراء ولا في الضراء، وكان يحمل ابن السبيل، ويؤدي الحقوق.

وكان نور رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلألأ في وجهه ضياؤه، ويتوقد فيه شعاعه، لا يراه أحد إلا قبَّل يده، ولا يمر بشيء إلا سجد له، غدت إليه قبائل العرب ووفود الأحبار، وعرضوا عليه بناتهم أن يتزوج بهن، حتى بعث إليه هرقل بأن له بنتًا لم تلد النساء أجمل منها، ولا أبهى وجهًا، فأقدم إليَّ حتى أزوجكها، فقد بلغني جودك وكرمك، وإنما أراد بذلك نور المصطفى الموصوف عندهم في الإنجيل، فأبى هاشم.

وهو أول من مات من بني عبد مناف صغير السن، وسنه عشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة.

وقوله: (ذي العصابة) قال في "القاموس": العصبة بالضم من الرجال والخيل والطير، ما بين العشرين إلى الأربعين كالعصابة بالكسر. وقوله: (الهاشمية) أَيْ: الجماعة المنسوبة لهاشم، وهم أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين تحرم عليهم الصدقة.

(و) هاشم (هو ابن عبد مناف) واسمه المغيرة، وهو بفتح الميم مخفف النون من أناف ينيف إنافة، إذا ارتفع وقيل: الإنافة الأشراف والزيادة.

لُقِّب به لأن أمه حُبّى، بضم الحاء المهملة وموحدة مشددة ممالة،

أخدمته صنمًا عظيمًا لهم يسمى مناة، بالتاء المثناة من فوق، فسمي عبد مناة، ثم نظر أبوه فرآه يوافق عبد مناة بن كنانة فحوَّله إلى عبد مناف، بالفاء بدل التاء. وسمي المغيرة تفاؤلاً، وهو بضم الميم وكسر الغين المعجمة، منقول من اسم فاعل أغار، والهاء للمبالغة.

وساد في حياة أبيه، وأطاعته قريشًا، وكان يقال له قمر البطحاء لجماله، وكان فيه نور رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي يده لواء نزار وقوس إسماعيل. وذكر الزبير: أنه وجد كتابة في حجر: أنا المغيرة بن قصي آمر بتقوى اللَّه وصلة الرحم. وإياه عنى القائل: شعر.

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصه لعبد مناف

وأفاد بقوله: (بلا خلاف) أن سيدنا هاشمًا ابن سيدنا عبد مناف من غير نزاع، بل هو مجمع عليه. وقوله: (ولا غويان) بزيادة الألف والنون. قال في "المصباح": غوى من باب ضرب انهمك في الجهل، وهو خلاف الرشد يعني لا خلاف ولا جهل في ذلك.

(ابن) السيد (قصي) بضم القاف وفتح الصاد المهملة وتشديد المثناة التحتية، مصغر قَصِي بفتح فكسر فياء ساكنة، من قصى إذا بَعُد. سمي به لأنه قصى أي بَعُد عن عشيرته إلى بلاد قضاعة، بضم ففتح،حين احتملته أمه فاطمة بنت سعد العذري إليهم، لأنها كانت منهم في قصة طويلة ذكرها ابن إسحاق.

واسمه زيد، وقيل: يزيد، وكان يدعى مُجَمِّعًا، بضم الميم الأولى وفتح الجيم وكسر الميم الثانية مشددة، منقول من اسم فاعل جمع المثقل، لأنه

كان يجمع قوله يوم العروبة أي يوم الجمعة، فيذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم، ويخبرهم بأنه سيبعث فيهم نبي.

وبه جمع اللَّه القبائل من بني فهر في مكة بعد تفرقهم في البلاد، في قصة طويلة ذكرها ابن إسحاق. وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، وحاز شرف مكة جميعًا، وكان رجلًا جلدًا جميلاً، وعالم قريش وأقومها بالحق.

(ابن) السيد (كلاب) بكسر الكاف وتخفيف اللام، وهو إما منقول من المصدر الذي هو المكالبة، بمعنى المُشارَّة والمضالعة والتكالب والمواثبة، نحو كالبتُ العدو مكالبة وكلابًا. وأما من جمع كلب الحيوان المعروف، كأنهم أَيْ: العرب يريدون الكثرة كما يسمون بسباع.

وإنما سمي به لأنه كان مولعًا بالصيد بالكلاب، وإلا فاسمه حكيم. وقد سئل أعرابي: لم تختارون لعبيدكم الأسماء الحسنة دون أبنائكم؟، فقال: إن أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لنا. يريد أن الولد شأنه أن يقاتل عن أبيه، والعبد شأنه أن يتولى خدمة سيده فيقال: أخذ العدو كلاب مثلاً، وجاءني سرور بكذا مثلاً.

وحكيم بفتح الحاء وكسر الكاف، وقيل: عروة، وقيل: المهذب، وهو الجد الثالث للسيدة آمنة أم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهنا يجتمع نسب أبيه وأمه.

(ابن) السيد (مرة) بضم الميم وشد الراء، كانت تسمى به العرب في الجاهلية ولدها تفاؤلاً بأن يكون عن الحرب مُرًّا بين الأبطال والأعداء.

فهو منقول من وصف الرجل بالمرارة، فالتاء للمبالغة، أو من وصف العلقم أو الحنظل، والجامع شدة المرارة وشدة التناول، وتكون شدته هو على الصبر على لقائه في الحرب بين الأعداء، أو تكون التاء فيه للتأنيث.

وله ثلاثة أولاد: كلاب، وتيم ومن نسله الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الجد السادس له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقظة وبه كني.

وقوله: (أنسابًا) منصوب لفعل محذوف أَيْ: أنسب أنسابًا (قرشية) أَيْ: منسوبة ومتولدة لقريش، بضم القاف وفتح الراء وسكون المثناة، تحت آخره شين معجمة، قيل: منقول من مصغر قرش دابة عظيمة في البحر تأكل ولا تؤكل، وقيل: مصغر قرش بفتح القاف مصدر قرش إذا اجتر.

(ابن) السيد (كعب) بفتح الكاف وسكون العين المهملة، منقول من كعب القدم، أو من كعب القناة، سمي به لعلوه وارتفاعه، فإن كل شيء علا وارتفع يقال له كعب، ولذلك سمي البيت المشرف كعبة لعلوها وارتفاعها حسًّا ومعنًى.

ولشرفه في قومه، كانوا يخضعون له حتى أنهم كانوا يؤرخوا بموته إلى عام الفيل، فأرخوا به ثم بموت عبد المطلب. وقيل: من الكعب الذي هو قطعة السمن الجامد.

وهو أول من جمع الناس للوعظ يوم العروبة، أي الجمعة، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم فيخطبهم ويعظمهم، وكان فصيحًا خطيبًا وكان يأمرهم بتعظيم الحرم.

ويذكرهم بمبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعلمهم بأنه من ولده

لعلمه هو به من الوصية المستمرة من آدم أن من كان فيه ذلك النور لا يضعه إلا في المطهرات، لأن ختام الأنبياء منه، وقد علمه ظاهرًا فيه قائمًا به. ويأمرهم باتباعه إن أدركوه والإيمان به.

ويقول: سيأتي بحرمكم نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، وينشد أبياتًا منها، شعر:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته   إذا قريش تبغي الحق خذلانا

ومات قبل البعثة بخمسمائة وستين سنة.

(ابن) السيد (لؤي) بضم اللام وبالهمزة وبدونها، وشد المثناة تحت، ويسهل الهمزة بإبداله واوًا أو مصغرًا لايي بوزن عصى، واللاي الثور الوحشي وبقره، وكنيته أبو كعب، وله سبعة أبناء.

(ابن) السيد (غالب) من الغلب، وكنيته أبو تميم وهو أخو الحارث ومحارب، ذكر ذلك رواة الحديث، وهو بمعجمة وكسر اللام منقول من اسم فاعل الغلبة بفتحتين أو بفتح فسكون، أو الغلبة، سمي به تفاؤلاً بأنه يغلب أعداءه. ولد يتيمًا وبه يكنى ويلوي أيضًا.

وقوله: (بضبط) متعلق بمحذوف نعت لقوله: أنسابًا، وهو مصدر ضبط من باب ضرب، يقال: ضبطه ضبطًا حفظه حفظًا بليغًا. وقوله: (وحفظان) أي من الأئمة الثقاة بزيادة الألف والنون لأجل السجع، أَيْ: حفظ بكسر الحاء مصدر حفظ من باب علم، والحفظ عدم العقلة، يقال: حفظ القرن إذا وعاه على ظهر قلبه.

(ابن) السيد (فهر) بكسر الفاء وسكون الهاء، وهو مصدر في الأصل:

الحجر الأملس الطويل، وقيل: الصغير الذي يملأ الكف، وسمي به لطوله وصلابته في الأمور، ثم نقل عن الحجر المذكور له لصلابته وطوله في الأمور.

واسمه قريش، وإنما سمي بذلك لأنه كان يقرش الأعداء أَيْ: يأكلهم، وقيل: لأنه كان يقرش أي يفتش على خلقه المحتاج فيسدها، وكان بنوه كذلك، وقيل: إن أمه سمته به أي قريش، وسماه أبوه فهرًا، وقيل: الأول والثاني لقب.

وإليه تنسب قريش فما فوقه كناني بكسر الكاف نسبة إلى كنانة بن مدركة لا قرشي، أي فهو جماعها على الأصح. قال الزهري: وهو الذي أدركت عليه من أدركت من علماء النسب وأنساب العرب، أن من جاوز فهر فليس قرشيًا. ويشهد له حديث مسلم والترمذي: إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة إلخ.

وذهب آخرون إلى أن أصل قريس النضر، وبه قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعزاه العراقي للأكثر في قوله:

أما قريش فالأصح فهر   جماعها والأكثرون النضر

وقال النووي: وهو الصحيح المشهور، وصححه الحاكم لفظًا لصلاح العلا أي أيضًا، وعزاه للمحققين، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس: قدمت على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وفد كندة، فقلت: ألستم منا يا رسول اللَّه؟، فقال: لا نحن بني النضر بن كنانة، قال أشعث: واللَّه لا أسمع أحدًا نفى قريشًا من النضر بن كنانة إلا جلدته.

قال الحافظ في "سيرته": وعندي أنه لا خلف في ذلك، لأن فهرًا جمَّاع قريش وأبوه مالك لم يعقب غيره، فقريش كلها ينتهي نسبها إلى مالك بن النضر، والنضر ليس له عقب إلا ملك. فاتفق القولان بحمد اللَّه تعالى.

وقيل: قريش هو الياس، وقيل: مضر. وحكى ابن دحية في سبب تسمية قريش، ومن أول من سمي بها عشرين قولاً. هذا وقريش فرقتان بطاح وظواهر، فالبطاح من دخل مكة مع قصي، والظواهر من أقام بظاهر مكة ولم يدخل الأبطح.

(ابن) السيد (مالك) منقول من اسم فاعل، وكنيته أبو الحارث، وأخوانه الصلت ويخلد، وسمي بذلك لأنه كان ملك جميع العرب.

(ابن) السيد (النضر) بفتح النون وسكون الضاد المعجمة فراء مهملة، منقول من اسم الذهب الأحمر لنضارة وجهه وإشراقه وجماله، واسمه قيس، وله من الذكور مالك والصلت ويخلد بفتح التحتية وسكون المعجمة وضم اللام فدال مهملة، وبه كنى أبوه ولم يعقب إلا من مالك.

(ابن) السيد (كنانة) بكسر الكاف ونونين مفتوحين بينهما ألف ثم هاء، منقول من اسم الجعبة بفتح الميم وسكون العين المهملة، وعاء السهام إذا كانت من جلد، سمي به تفاؤلاً بأنه يصير كالكنانة الساترة للبسها في ستر قومه، فكان كذلك عظيم القدر، يحج له العرب لعلمه وفضله بينهم، وكنانة هو أبو القبيلة.

(المكنونية) أَيْ: المنسوبة للكن بكسر الكاف، وهو وقاء كل شيء

وستره، أَيْ: المستورة به، فكان وقاءً وسترًا لها، لأنه قيل: أنه كان يستر على قومه ويحفظ أسرارهم.

ولم يزل في كن أَيْ: في ستر بين قومه، وكان يقول لهم: قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد، يدعو إلى اللَّه والبر والإحسان ومكارم الأخلاق فاتبعوه، تزدادوا شرفًا إلى شرفكم وعزًا إلى عزكم، ولا تفندوا أَيْ: تكذبوا ما جاء به، فهو الحق.

قال ابن دحية: كان كنانة يأنف أن يأكل وحده، فإذا لم يجد أحدًا أكل لقمة، ورمى لقمة إلى صخرة نصبها بين يديه، أنفة من أن يأكل وحده.

(ابن) السيد (خزيمة) بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي وسكون المثناة تحت، منقول من مصغر خزمة بمعجمتين مفتوحين، وهي المرة من الخزم، وهو شد الشيء وإصلاحه، وإنما سمي بذلك تفاؤلاً بأن يكون مصلحًا لأموره، ولاجتماع نور آبائه مع نور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن عباس: مات خزيمة على ملة إبراهيم عليه السلام.

(ابن) السيد (مدركة) بضم الميم وسكون الدال وكسر الراء وفتح الكاف ثم هاء، مبالغة منقول من اسم فاعل أدرك، لُقِّب به لإدراكه كل عز وفخر كان في آبائه، وكان يُرى فيه نور المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا بيِّنًا لامعًا. واسمه عمرو عند الجمهور، وقال ابن إسحاق: عامر.

(ابن) السيد (إلياس) بتحتية، والمعروف أنه اسمه منقول من مصدر يئس، لأن أباه كبر ولم يولد، ثم ولد له على الكبر. وكنيته أبو عمرو. وفي "سيرة مغلطاي": أن اسمه حبيب، وله أخ يقال له الناس بنون، وهمزة

إلياس همزة قطع مكسورة، تثبت في الابتداء والتدرج عند ابن الأنباري. وبفتحها عند ابن ثابت، وهو ضد الرجاء، واللام فيه للتعريف والهمزة للوصل. قال السهيلي: وهذا أصح.

وهو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام. وفي "حياة الحيوان" للدميري: وهو أيضًا أول من وضع مقام إبراهيم عليه السلام للناس بعد غرق البيت وانهدامه زمن نوح عليه السلام، فكان إلياس هو أول من ظفر به فوضعه في زاوية البيت.

وفي "المنتقى": كان يسمع من ظهر إلياس أحيانًا دوي تلبية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحج. ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة كلقمان وأشباهه، وكان يدعى كبير قومه وسيد عشيرته، ولا يقطع أمر ولا يقضي سهم بينهم دونه.

وقال الزبير بن بكار: ولما بلغ إلياس أنكر على بني إسرائيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم، وبأن فضله عليهم، ولان جانبه لهم حتى جمعهم على راية ورضوا به، فردهم على سنن آبائهم وسيرهم، وهو وصي أبيه، وكان ذا جمال بارع.

وقوله: (المزان) نعت لإلياس، وهو اسم مفعول من أزان الرباعي، والزين نقيض الشين وأصله مزين بضم الميم وسكون الزاي وفتح الياء، بوزن مفعل، قلبت الياء ألفًا بعد نقل حركتها إلى الزاي. الذي زُيِّن بأنوار المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ابن) السيد (مضر) بضم الميم وفتح الضاد المعجمة فراء مهملة، غير

مصروف للعلمية والعدل، سمي به لأنه مضر أَيْ: ميل القلوب إليه بحسنه وجماله، ولم يره أحدًا إلا أحبه، وقيل: اسمه عمرو، وكنيته أبو إلياس.

ومن حكمه: من يزرع شرًّا يحصد ندامة، وخير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها على هواها فيما يفسدها، فليس بن الصلاح والفساد إلا صبر فواق، بضم الفاء وتفتح ما بين الحلبتين.

وهو أول من وضع الحداء بضم الحاء ممدود: الغناء للإبل، وكان من أحسن الناس صوتًا، وذلك أنه سقط هو ومولى له عن بعير وهو شاب، فصاح فاجتمعت إليه الإبل من المرعى، فوضع الحداء وزاد الناس فيه. وروى ابن المسيب: أنه كان على ملة إبراهيم.

(ابن) السيد (نـزار) بكسر النون وزاي مفتوحة فألف فراء، مأخوذ من النزر وهو القليل. قيل: سبب ذلك أنه لما ولد ونظر أبوه إلى نور محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين عينيه، وهو نور النبوة الذي كان ينتقل في الأصلاب، فرح فرحًا شديدًا، ونحروا طعم، وقال: إن هذا كله نزر أَيْ: قليل لحق هذا المولود، فسمي نزارًا لذلك. وأنه خرج أجمل أهل زمانه وأكبرهم عقلاً.

وقيل: سمي بذلك لأنه كان فريد عصره. وقيل: لقب به لنحافته. وكان اسمه خلدان، وكان مقدمًا، وانبسطت له اليد عند الملوك، وكان مهزول البدن، فقال له ملك الفرس: ما لك يا نزار؟، وتفسيره في لغة الفرس يا مهزول. فغلب عليه هذا الاسم وكنيته أبو إياد، وقيل: أبو ربيعة. ويقال: أن قبره بذات الجيش قرب المدينة.

(ابـن) السيد (معـد) بفتح الميم والعين المهملة وشد الدال المهملة، سمي به لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحدًا إلا رجع بالنصر والظفر. وكنيته أبو قضاعة، وقيل: أبو نزار.

وقال السهيلي: أوحى الله إلى بني أرميا أحمله على البراق إلى بلاد العراق، فإني مخرج من صلبه نبيًّا اسمه محمد.

هذا ما (رواه) علماء الأنساب (أهل النسبية) أَيْ: المنسوبة لعلم النسب لتعلقها به.

(و) أن معدًا (ذلك) هو (المشهور) عن الحفّاظ وغيرهم (بأنه) أَيْ: معد (ابن) السيد (عدنان) بزنة فعلان من العدن أَيْ: الإقامة، سمي به لأن أعين الجن والإنس كانت إليه وأرادوا قلته، ولما رأوا فيه من نور النبوة، قال: لئن تركناه حتى يدرك مدرك الرجال ليخرجن من ظهره من يسود الناس، فوكّل الله به من يحفظه.

وحكى الزبير: أنه أول من وضع علامات الحرم، وأول من كسى الكعبة.

وقيل: إنما سمي بعدنان تفاؤلاً بأنه يقيم ويسلم من أعين الجن التي يموت بها غالب من في القبور. وكان في زمن موسى عليه السلام. وقيل: في زمن عيسى عليه السلام، والأول هو الصحيح.

انتهى نسبه الصحيح المجمع على صحته، وروى ابن عباس: قال: مات عدنان ومعد وربيعة وخزيمة على ملة إبراهيم، فلا تذكروهم إلا بخير. وهذا النسب بهذه الصفة والترتيب لا خلاف فيه بين العلماء،

فجميع قبائل العرب الحجاز ينتهون إلى هذا النسب.

ولذلك قال ابن عباس وغيره في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، لم يكن بطن من بطون قريش، إلا ولرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسب يتصل بهم. قال بعض العلماء: صدق ابن عباس فيما قال، وذلك أن جميع قبائل العرب العدنانية إليه بالآباء وكثير منهم بالأمهات. كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره.

تنبيه: اعلم أنه يجب معرفة نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهته أبيه، وكذا من جهة أمه، كما نصّ عليه الأجهوري في "شرح السيرة". فأما نسبه من جهة أبيه فهو كما تقدَّم.

وأما نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة أمه فهو: سيدنا محمد ابن السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فتجتمع معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جده كلاب كما تقدَّم، ولذلك قال بعض الفضلاء شعر:

عشرون جدًا من جدود المصطفى … يجب علينا حفظهم بلا خفا
خذهم على الترتيب عبد المطلب … فهاشم عبد مناف افهم تصب
قصي مع كلاب ثم مرة … كعب لؤي غالب ذو مرة
فهر يليه مالك والنضر … كنانة خزيمة مشتهر
مدركة إلياس منهم مع مضر … نزار مع معد جاء في الخبر
وضف لهم عدنان يا فصيح … لكي يتم النسب الصحيح
من جهة الآباء وأما نسبته … من جهة الأم تجب معرفته

أم النبـــي صـــاحبة المفـــاخر آمنـــة بنـــت لوهـــب الطـــاهر
ابـــن لعبـــد منـــاف علـــي القـــدر ابـــن لزهـــرة مـــع كـــلاب فـــأدر
فـــأم طـــه مـــع أبيـــه تجتمـــع فـــي جـده كـلاب يـا هـذا اسـتمع

قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ومن زاد على هذا) النسب المتقدّم ذكره. قال ابن دحية: أجمع العلماء والإجماع حجة، على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انتسب لم يجاوز عدنان.

ومن جاوزه (فقد كذب) أي في النسب الزائد على عدنان، لأن نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتقدم من جهة أمه وأبيه، هو المتفق والمجمع عليه، يجب حفظه، ويكفر جاحده كما تقدَّم. ولله در القائل:

ونسـبة عـز هاشـم مـن أصـولها ومحتـدها المرضـي أكـرم محتـد
سميت رتبة علياء أعظم بقدرها ولـــم تســـم إلا بـــالنبي محمـــد

ورحم الله القائل شعر:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كـلا لعمـري ولكـن منـه شـيبان
وكـم أب قـد عـلا بـابن ذوي شـرف كمـــا عـــلا برســـول الله عـــدنان

(كما جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأخبار) الصحيحة (المروية) عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في "الفردوس": ما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا انتسب، في انتسابه، لم يجاوز معد بن عدنان، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون مرتين أو ثلاثًا. ورواه في "مسند الفردوس".

لكن قال السهيلي: الأصح في هذا الحديث المروي مرفوعًا أنه من قول عبد الله بن مسعود، وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، قال: كذب النسابون، يعني أنهم يدعون علم الأنساب، ونفى الله علمها عن العباد.

وروي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إنما ينسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا يدرى ما هو. وعن ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون. وعن عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدًا يعرف بعد معد بن عدنان.

وسئل مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فكره ذلك، وقال: من أخبره بذلك؟، وكذا روي عنه في رفع نسب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالذي ينبغي لنا، الإعراض عما فوق عدنان، لما فيه من التخليط والتغيير للألفاظ، وعواصة تلك الأسماء مع قلة الفائدة في ذكرها، لما فيها من الأقوال المتباينة.

لكن أصحها ما ذكره العراقي في "السيرة": وهو أن عدنان بن أُدَّى بضم الهمزة وتشديد الدال المفتوحة، ابن أُدَد بضم الهمزة وفتح الدال الأولى، ابن مُقوَّم بضم الميم وفتح الواو المشددة، ابن ناحور بحاء مهملة، ابن تيرح بمثناة فوقية فتحتية فراء فحاء مهملة وزن جعفر، ويقال تارح بألف بدل التاء، ابن يعرب بفتح الياء وسكون العين وضم الراء وبالموحدة، ابن يشحب بفتح الياء وسكون الشين وضم الجيم وبالباء

الموحدة، ابن نابت بنون فألف موحدة فتاء فوقية، ابن إسماعيل باللام أو النون.

ابن إبراهيم بلغاته المشهورة، ابن تارح بمثناة فوقية فألف فراء مفتوحة فحاء مهملة كما في "الفتح"، وفي خط بعضهم أعجامها، ابن ناحور، وهذا غيرنا حور المار، ابن شاروخ بشين معجمة فألف فراء مضمومة فخاء معجمة، كذا ضبطه بعض الحفّاظ وضبطه النووي بمهملتين. وقال بعضهم: ساروغ بألفين المعجمة. وقال بعض آخر: ربما قيل بالعين المهملة، ابن أرغو بفتح الهمزة وسكون الراء وضم الغين أو العين المهملة، ابن فالخ بفاء فألف فلام مفتوحة فخاء معجمة كما قاله النووي.

ابن عيبر بفتح العين وسكون المثناة التحتية وفتح الياء الموحدة، ويقال له عابر بألف بدل الياء، قال بعضهم: هو سيدنا هود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقيل: سيدنا هود فالخ. قال السهيلي والطبراني: ورأيت أن بين فالخ وعيبر أبًا اسمه قينان بفتح القاف وسكون التحتية وبنونين بينهما ألف، ويغلط بعضهم فيقول: قينون بنونين بينهما واوًا.

ابن نالخ بنون معجمة فألف فلام مفتوحة فخاء معجمة كما قاله النووي، ابن أرْفَخْشَذ بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الفاء وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة كما قاله النووي، ويقال: أنفخشذ وألفخشذ بالنون أو اللام، زاد صاحب "الغرر" ألفشخذ بتقدم الشين على الخاء.

ابن سام بسين مهملة فألف فميم مخففة، وهو ليس بنبي خلافًا لأبي

الليث السمرقندي ومن وافقه، ابن نوح عليه السلام، واسمه عبد الغفار كما قاله جماعة، ابن لامك بفتح الميم وتكسر ويقال: لمك بسكون الميم، ويقال: بالحاء بدل الكاف.

ابن متوشلخ بميم وتاء مثناة فوقية مشددة مضمومتين وبفتحات وواو وشين معجمة مفتوحة وتكسر فلام ساكنة وقد تفتح وتكسر فخاء معجمة، وضبطه بعضهم بفتح الميم وضم التاء. ابن خنوخ بخائين معجمتين بينهما نون فواو بوزن عمود، قال ابن إسحاق: إن خنوخ هو إدريس فيما يزعمون.

ابن يرد بفتح التحتية وسكون الراء فدال مهملة، ابن مَهْلَائيل بميم مفتوحة فهاء ساكنة فلام فألف فاءين فلام. ابن قَيْنَن بقاف مفتوحة فمثناة تحتية ساكنة فنونين وزن جعفر، ابن يانش بتحتية فألف فنون مفتوحة وقيل: مكسورة فشين معجمة، ويقال: أنوش بهمزة مفتوحة ونون مضمومة بعدها واو ساكنة وشين معجمة.

ابن شيث بشين معجمة مكسورة فمثناة تحتية فمثلثة ويقال: شياث، ابن آدم عليه السلام.

(وهذا النسب) المتقدّم ذكره (لم يكن) أَيْ: لم يوجد، فكانت تامة وليست بناقصة تحتاج لاسم وخبر، (أعلى) أَيْ: أشرف وأرفع وأفخم (منه) أَيْ: من هذا النسب الفخيم الرفيع القدر (في العرب) أي في أنساب العرب (نسب) أَيْ: صحيح مجمع على صحته من الثقاة والحفّاظ للأنساب باتفاق، (بلا نكران) أي نكير، وهو بضم النون وسكون الكاف وضمها اسم

من الإنكار بمعنى الجحد.

ثم قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شعرًا: (نسب) بفتح النون والسين أَيْ: هذا عظيم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أطهر ولا أجل منه في الأنساب.

ولجلالته أنه (من الرحمن) جلَّ جلاله وعمَّ نواله (محفوظ) أَيْ: من سبق الشيطان والفحش والخنا، وكذب الكذابين (فلا يلحقه نسب) أي مثله (في الوجود) أَيْ: الموجودات بأسرها. وقوله: (مبرأ) نعت لنسب أَيْ: مبرأ من الزيادة والنقص فيه من لدن آدم من الآباء والأمهات.

هو (در) بضم الدال وشد الراي أَيْ: لؤلؤة ثمين (تنضد) أَيْ: بعضه فوق بعض، يقال: نضدته نضدًا من باب ضرب جعلته بعضه على بعض، (من قديم) أي متقدّم من لدن آدم عليه السلام إلى أبيه عبد اللَّه.

(عالي) مرتفع في الشرف والعلو، فلكل واحد من أجداده علو ومرتبة، ومزية في قومه لم توجد في غيره كما تقدَّم، وعلم مما مرَّ فيما اختصوا به من المزايا الكاملة.

(يعلو) أَيْ: يرتفع في انتظامه (على الجوزاء) بضم الجيم وسكون الواو وبالزاي والمد، اسم لبرج في السماء يقال: أنها تعرض في جوز السماء أي وسطها، وتطلق عرفًا على النجوم المجتمعة المعروفة، قيل: وهي تشبه المرأة. (نور أسنأ) بالقصر أَيْ: أرفع وأضوأ.

(وهذا النسب) بفتح النون والسين أَيْ: المتقدّم، قد طهّره اللَّه حتى أنه (لم يدخله سفاح) وهي من قبل البعثة سموا بذلك لكثرة جهالتهم بشرائع الإسلام، ويقال: هي ما قبل الفتح وهو الظاهر. فقد خطب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بهدم أمر الجاهلية وما كانت عليه في القبح.

والسفاح بسين مهملة مكسورة ففاء مفتوحة فألف فحاء، الزنا مأخوذ من سفحت الماء إذا صببته، فكأنه أراق ماءه وأضاعه، أو من سفحت المرأة إذا أزينت، وسواء كان جهرًا أو سرًا، كما هو إطلاقه غير واحد كصاحب "القاموس و"المصباح".

لكن في "الأنوار" تخصيصه بالأول وهو الجهر وهو الذي يقتضيه كلام البيضاوي في سورة المائدة ونصه في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا.

والأولى أن يراد بالسفاح هنا جميع ما كان عليه الجاهلية من نكاح السفاح، وهو أن تسافح المرأة رجلاً مدة، ثم إذا أعجبته وأعجبها تزوجها.

ومن نكاح البغايا وهو أن يطأ البغي جماعة متفرقون واحدًا بعد واحد، فإذا ولدت ولدًا ألحق بمن غلب عليه شبهه منهم. ومن نكاح الاستبضاع وهو أن المرأة إذا طهرت من الحيض قال لها زوجها: أرسلي لفلان استبضعي منه ويعتزلها زوجها حتى يبين حملها منه، فإن بان أصابها زوجها إن أحب.

ومن نكاح الجمع وهو أن يجتمع رجال دون العشرة، ويدخلوا على امرأة ذات راية كلهم يطؤها، فإذا وضعت ومرّ لها من الوضع ليال أرسلت لهم، فلا يتخلف رجل منهم، فتقول: قد عرفتم ما كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من شاءت فيلحق به، وإن لم يشبهه لا يستطيع نفيه. ومن نكاح المقت وهو أن ينكح أكبر أولاد الرجل زوجته.

ومن نكاح الجمع بين الأختين، وغير ذلك.

فطهَّر اللَّه تعالى نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك كله. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ولدني أَيْ: مسني من نكاح الجاهلية شيء، وما ولدني إلا نكاح الإسلام. رواه ابن عباس. وعن عليّ كرَّم اللَّه وجهه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من نكاح أهل الجاهلية شيء.

وعن ابن عباس مرفوعًا: لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل اللَّه ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذبًا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

وعن أنس قال: قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء، وقال: أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح.

وقال محمد بن السائب قال: كتبت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان في أمر الجاهلية أَيْ: الجدات وجدات الجدات، وإلا فأمهاته لا تبلغ هذا العدد.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أَيْ: انتقالك من صلب نبي إلى نبي، وفعلت ذلك معك حتى أخرجتك نبيًا. رواه البزار. وعنه أيضًا في تفسير الآية قال: ما زال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقلّب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه. رواه أبو نعيم.

والمراد أن نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحواشيه وجميع أطرافه، جميل لم يمسه دنس، ولم يدخله سفاح قط.

(حفظًا) بكسر الحاء مصدر حفظ من باب علم أَيْ: صونًا (من اللَّه) سبحانه وتعالى له (في) جميع (آبائه) جمع أب وأصله أبو بالتحريك حذفت واوه تخفيفًا، (و) جميع (أمهاته) جمع أم وهي الوالدة وإن علت، وأصلها أمهة لجمعه على أمهات، وقيل: أمهات للأدميات وأمات لغيرهن.

(من الأولية) أَيْ: من المدة الأولى من لدن آدم وحواء، فالياء مصدرية، وإلى ذلك أشار في "الهمزية" بقوله:

لم تزل في ضمائر الكون تختار   لك الأمهات والآباء

أي: كما طابت ذاتك بما أوتيته من الكمال الأعلى، كذلك طاب نسبك فلم يكن في أمهاتك من لدن حواء إلى أمك آمنة، ولا في آبائك من لدن آدم إلى أبيك عبد الله، إلا من هو مصطفى مختار.

وشاهد ذلك حديث البخاري: بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه. وحديث مسلم: إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى قريشًا من بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خير من خيار.

وحديث الترمذي بسند حسَّنه: إن اللَّه خلق الخلق فجعلني في خير فرقهم، ثم تخيَّر القبائل فجعلني في خير القبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا أَيْ: روحًا، وخيرهم بيتًا أي أصلا.

وحديث الطبراني: إن اللَّه اختار الخلق فاختار منهم بني آدم، ثم اختار

من بني آدم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خيارًا من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم.

(وذلك) أَيْ: حفظًا لله تعالى لآبائه وأمهاته، (لحفظ) أي صون (نطفته) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والنطفة بضم النون وسكون الطاء ماء الرجل والمرأة، وجمعها نطف ونطاف مثل برمة وبرم، ولم يستعمل فعل من لفظها، كما في "المصباح".

(التي شرَّفها قدره والشان) الشرف محرك العلو والمكان العالي والمجد، ولا يكون إلا بالآباء أو علو الحسب، والقدر بسكون الدال الحرمة يقال: ما له عندي قدر أَيْ: حرمة ووقارًا. والشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور، ويجمع على شؤون وشيئين.

(بل) هو (نكاح) خال من نقص الجاهلية، (مضبوط) أَيْ: محفوظ حفظًا بليغًا بالعصمة الإلهية، بأحكام وأركان وآداب، كنكاح الإسلام في كونه بعقد صحيح مبيح للوطء.

قال بعضهم: وهذا من أعظم العناية به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آبائه من لدن آدم عليه السلام، إلى أن أخرجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين أبويه على نمط واحد، وفق شريعته.

ولذلك قال الإمام السبكي: إن الأنكحة الواقعة في نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها مستجمعة لشروط الصحة كأنكحة الإسلام.

ولذلك قال الزرقاني في "شرح المواهب": المراد أنه كأنكحة الإسلام

في كونه مبيحًا للوطء، وإن لم يستجمع شرائط الإسلام الآن فلا يرد أن نكاح الأخت كما وقع لشيث ليس من نكاح الإسلام، الآن إذ المقصود نفي الفجور، فشمل الزواج وغيره، ودخل فيه أم إسماعيل عليه السلام، فإنها كانت ملكًا لإبراهيم عليه السلام باتفاق المؤرخين وهبتها لها سارة.

وبهذا أيضًا اندفع إيراد أن كنانة خلف أباه خزيمة على زوجته، فولدت له النضر لأنه كان يحل قبل الإسلام، أنه إذا مات الرجل خلف على زوجته أكبر أولاده من غيرها. كذا قاله الزبير بن بكار، وتبعه السهيلي واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من تحليل ذلك قبل الإسلام.

وفائدة الاستثناء هنا لئلا يعاب نسب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ألا ترى أنه لم يقل في شيء نهى عنه في القرآن إلا ما قد سلف إلا في هذه الآية، وفي آية الجمع بين الأختين. وهذه النكتة من الإمام ابن العربي اه. وتعقبوه بأن هذا اللفظ نشأ من اشتباه.

وذلك أن أبا عثمان الحافظ قال: إن كنانة خلف أباه على زوجته فماتت، ولم تلد منه ذكرًا ولا أنثى، فنكح ابنة أخيها فولدت له النضر. قال: وإنما غلط كثيرون لما سمعوا أن كنانة خلف أبيه على زوجته مع اشتباهها بابنة أخيها لاتفاقها اسمًا ونسبًا. قال: وهذا الذي ارتضاه مشائخنا من أهل العلم والنسب، ومعاذ اللَّه أن يكون في نسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك. والحمد لله هذا النسب من كل وصم تطهيرًا، ومن قال غير هذا فقد أخطأ، وقد صوّب مغلطاي ما ذكره الحافظ قال: وخلافه غلط ظاهر اه.

ومثل ذلك فيما نقل من أن هاشمًا خلف أبيه على زوجته فبغرض صحته تكون الزوجة ليست جدة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(من أب وأم) كريمين أَيْ: سالمين من كل صفة نقص جامع لكل صفة كمال، وهذا ظاهر في إسلامه أبويه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سيأتي، وإلى ذلك أشار البوصيري في "همزيته" بقوله:

تتباهى بك العصور وتسمو بك علياء بعدها علياء
وبدأ للوجود منك كريم من كريم أباؤه كرماء

كل ذلك (حكم قهارية) بحيث لم يطرق أحد من آبائه وأمهاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر الجاهلية شيء، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف، جمع حكمة ومرَّ معناها، والقهَّار مبالغة في القهر، والقهر في اللغة الغلبة، وصرف الشيء عما طبع عليه على سبيل الإلجاء، فيرجع إلى القدرة على المنع، وقيل: نفس المنع فمن قهره جمعه بين الطبائع المتنافرة، وإسكان الروح اللطيف النوراني في البدن الكثيف المظلم، ومن قهره تسخيره الأفلاك الدائرة، وجمع الخلائق في مشيئته ومنع العقول من الوصول إلى كتبه حقيقته.

ولا يحيطون به علمًا، ومعناه الذي يفصم بألف ظهور الجبابرة فيقهرهم بالإماتة والإذلال والإهلاك، فهو من أسماء الأفعال، وقيل: هو الذي قهر قلوب الطالبين فآنسها بلطف مشاهدته، وقيل: هو الغالب جميع الخلائق، وحظ العبد منه قهر النفس الأمّارة بالسوء، والإضرار بالقوى الشهوانية والغضبية، وتضييق مجاري الشيطان بالصوم، قال تعالى:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الآية، كذا في "الفتوحات الإلهية".

(وذلك) أَيْ: ضبط النسب الشريف بالنكاح الصحيح، أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينتقل (من صلب) بضم الصاد فسكون اللام، وقد تضم اتباعًا، وأصل الصلب معناه الشديد، فسمي به الظهر وعظم فيه ممتد مما بين الكاهل إلى مؤخر الذنب، وهو فقار الظهر الممتدة فيه كالسلسلة.

(طاهر) من السفاح وهو وصف للصلب، (إلى) أم ذات (رحم) محصن بفتح الراء وكسر الحاء المهملة موضع تكوين الولد. وقوله: (طيب) نعت لرحم أَيْ: لا دنس فيه، و(لم يدخله) أَيْ: كل واحد من الصلب والرحم، (الشبهان) بضم الشين أَيْ: الشبهة واللبس، فالألف والنون زائدتان للسجع.

والمعنى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينتقل من صلب طاهر إلى رحم طيب، ولم يلتق أبواه على نكاح فيه شبهة، بل هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلالة الطيبيين الطاهرين، ونتيجة الكرام الموحدين، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لم أزل انتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات.

وقد استدل بعضهم بذلك على أن أباه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير الأنبياء وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر ولا كافرة، لأنه لا يوصف بالطاهر إلا المؤمن والمؤمنة، وأما الكافر فلا يقال في حقه طاهر، بل نجس، كما في آية: ﴿إنما المشركون نجس﴾.

وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون، وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات، وأيضًا فهم إلى إسماعيل كانوا من أهل الفترة، وهم

في حكم المسلمين بنص الآية، وكذا من بين كل رسولين.

وأيضًا للآية وهي قوله تعالى: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ على أحد التفاسير فيها أن المراد تنقل نوره من ساجد إلى ساجد، وحينئذ فهذا صريح في أن أبوي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله وآمنة من أهل الجنة، لأنهما أقرب المختارين له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو الحق، بل ورد في حديث صححه غير واحد من الحفّاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه أن الله أحياهما فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقول ابن دحية يرده القرآن والإجماع ليس في محله، لأن ذلك ممكن عقلاً وشرعًا على جهة الكرامة والخصوصية، فلا يرده قرآن ولا إجماع، وكون الإيمان به لا ينفع بعد الموت محله في غير الخصوصية والكرامة.

وقد صحَّ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردّت عليه الشمس بعد مغيبها فعاد الوقت، حتى صلى على العصر أداء كرامة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكذا هذا، وطعن بعضهم في صحة هذا مما لا يجري أيضًا.

وحديث أنه تعالى لم يأذن لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الاستغفار لأبيه، كان لمصلحة اقتضت تأخير الاستغفار لهما عن ذلك الوقت، فلم يؤذن له فيه حينئذ.

فإن قلت: إذا قررتم أنهما من أهل الفترة وأنهما لا يعذبان، فما فائدة الإحياء؟، قلت: فائدته إتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة، لأن غاية أمرهم أنهم ألحقوا بالمسلمين في مجرد السلامة من العقاب، وأما مراتب الثواب العلية فهم بمعزل عنها فأتحفا بمزية الإيمان زيادة في شرف

كمالهما، بحصول تلك المراتب لهما.

وما ورد من قوله: أبي وأبوك في النار، فمتكلم فيه، وعلى صحته فمؤول بأنه أراد بأبيه عمه أبو طالب، لأنه هو الذي كفله بعد جده عبد المطلب، لما تقرر أن العرب تسمي العم أبًا، وعليه قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾، فالصحيح أنه كان عمه ولم يكن أباه. وفي هذا المقام مزيد مذكور في "المواهب".

(فتحفّظ) أيها المكلّف (لهذه الأنساب) بأن تعتقد أنها مبرأة من كل شبهة ودنس، (التي هي أعظم أنساب) للعرب وغيرهم مصفية (أصيلية) والتحفظ فعل أمر من التحفظ وهو التحرز، والأنساب جمع نسب، والأصيل الشريف، يقال: أصل النسب بالضم أصالة شرف، فهو أصيل مثل كريم.

والتقدير إذا كان الأمر كذلك فاجعل هذه الأنساب التي تقدّم ذكرها في حفظك وحرزك ولا تضيعها، فإنها أعظم أنسب وجدت أصيلة وشريفة. ولذلك قال العلماء: من الاعتقاد الواجب أن يعتقد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العرب وأنه قرشي، وأن نسبه مبرأ من سفاح الجاهلية، كما تواترت النصوص بذلك.

وجواب الأمر في قوله: تحفّظ قوله: (تزدد) بحفظك إياها إيمانًا و(قربًا ومحبةً عند هذا الرسول المعان) أَيْ: المستعان بالحق من اللَّه على أعدائه، وفي كل حال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لكونه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو هذا النسب (معتنى به كما علم) ذلك (تحقيقًا) بالنصوص الصريحة (من

الحضـرة الرحموتيـة) الرحموت صيغة مبالغة من الرحمة أَيْ: معتنى به بالمحبة والخلة في حضرة الرحمن.

وإذا عرفت أيها المكلّف عظمة هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند اللَّه وتحققت مكانته عند مولاه، وعلمت محامد أوصافه (فينبغي لك) على سبيل الوجوب الاقتداء به و(التخلق بأخلاق) هذا النبي الكريم (الذي) هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بالدين) أَيْ: الملة الحنيفية السمحة، (مدان) بضم الميم اسم مفعول من أدان.

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وتعلُ) مجزوم بحذف الواو ومعطوف على قوله: تزدد إلخ، ومعنى تعلُ ترتفع (على سائر) أي جميع (الأجناس) والأنواع من إنس وجن، (بحوزك) بتمليكك (قضب الذهب السبكية).

ثم إن الأجناس جمع جنس، وهو الضرب من كل شيء، وهو أعم من النوع، فالحيوان جنس والإنسان تحته نوع منه. والحوز بفتح الحاؤ مصدر حاز أَيْ: ملك يقال: حزت الشيء أحوزه حوزًا وحيازة ملكته وضممته وجمعته، وكل من ضم إلى نفسه شيئًا فقد حازه.

والقضب بضم القاف جمع قضيب، أصله قضبان حذفت النون هنا للإضافة. والسبكية بفتح السين أَيْ: المنسوبة للسبك، وهو الإذابة يقال: سبكت الذهب سبكًا أذبته، وهو من باب قتل أَيْ: أذبته وخلصته من خبثه وغشه، والسبيكة هي القطعة المستطيلة من الذهب مثلاً، والجمع سبائك، وربما أطلقت السبيكة على كل قطعة متطاولة من أي معدن كان، كما في "المصباح".

(وتنـل) بفـتح المثنـاة الفوقيـة والنـون، وهـو معطـوف علـى تـزدد أيضًـا، فيكون مجزومًا وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين، بمعنى تبلغ (السـمو) بضـم السين أَيْ: العلو وارتفاع المقام والرفعة.

(بمدح) الباء للسببية أَيْ: بسبب مدح وهو الثناء والوصف بالأوصاف الحميدة الجميلة أَيْ: مدحك ووصفك بخير (من) أي النبي الكامل الذي (فاق) تميّز بالفضائل المحمودة والمزايا التي اختص بها، (سـائر) أي جميع (الإنس والجان) والملائكة، والجان الواحد من الجن وهو خلاف الإنس.

ولمـا فـرغ المُصـنِّف رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ من الكـلام علـى مـا يتعلّـق بنسـبه الشريف، شرع يتكلم على مدة الحمل على عادته رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ بالفاصل الذي هو صيغة الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتضمنة لطلب المغفرة لحوز المشربين فقال:

(اللَّهُمَّ) أَيْ: يا الله (صل وسلم) وبارك (علـى) الإكسير الأكبر الـذي عـلا عنصر نسبه الشـريف، والإبريز الأفخر الـذي صـفى جوهر حسبه المنيف، صاحب (الذات المحمدية) المنسـوبة لكثرة المحمودية والحامدية، (واغفـر لنـا) بفضـلك جمعًـا (مـا يكـون) أي مـا يوجد في الحال والمستقبل، (ومـا) وكل الذي (قد كان) وُجد في الماضي. آمين.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ اللَّمْعَةَ المُفخَّمة المُعَظَّمَةَ المُكَمَّلَةَ النُّورِيَّة ❁ انْتَقَلَتْ مِنْ وَجْهِ آدَمَ لِوَجْهِ ابْنِهِ شِيثٍ كَمَا رَوَاهُ أَهْلُ الإِتْقَان ❁ وَلَمْ تَزَلْ تَنْتَقِلُ إِلَى أَنْ جَاءَتْ فِي جَبْهَةِ عَبْدِ اللَّهِ لِسُبُوقِ العِنَايَةِ الأَزَلِيَّة ❁ فَوَضَعَهَا فِي آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ سَيِّدِ العُجْمِ وَالعُرْبَان ❁ فَكَانَتْ تَرَى مِنَ العَجَائِبِ فِي حِينِ حَمْلِهَا بِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّة ❁ مَا يَقْصُرُ عَنْهُ فِي الحَقِيقَةِ تَعْبِيرُ اللِّسَان ❁ وَنَاهِيكَ بِمَنْ فِي بَطْنِهَا الَّذِي هُوَ مُتَعَشِّقَةٌ بِهِ الْعَوَالِمُ المُلْكِيَة ❁ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُنَاظِرٌ لِبُرُوزِ خَيْرِ الصِّبْيَان ❁ وَكَذَلِكَ اسْتِشْرَافُ ظُهُورِهِ وَاقِعٌ لِلعَوَالِمِ المَلَكُوتِيَّة ❁ وَهِيَ أَهْلٌ لِلتَّشَرُّفِ بِخَيْرِ مَنْ عَرَجَهَا وَنَالَتْ بِهِ الأَمَان ❁ وَجَاءَهَا آدَمُ فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ وَبَشَّرَها بِأَنَّهَا حَمَلَتْ بِخَيْرِ من يَمْشِي عَلَى الأَرْضِيَّة ❁ وَقَصْدُهُ التَّشَرُّفُ بِهِ فَرَحاً وَسُرُوراً وَقَدْ كَان ❁ وَلَمْ تَزَلْ فِي كُلِّ شَهْرٍ تَرَى نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَهْلِ العَزَائِمِ العَزْمِيَّة ❁ فَيُبَشِّرُهَا بِهِ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى لِيَتِمَّ لَهَا الاِطْمِئْنَان ❁ فَبُشْرَى لَنَا أَجْمَعِينَ بِهِ وَبِكَمَالَاتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أُمْنِيَّة ❁ وَهَنِيئاً لَنَا بِقُدُومِهِ وَلِسَآئِرِ الأَكْوَان ❁ فَوَ اللَّهِ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الأَوْقَاتِ الَّتِي أُعْطِيَتْهَا جَمِيعُ البَرِيَّة ❁ إِذْ بَانَتْ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُرُقُ الحَقِّ وَاضْمَحَلَّتْ سُبُلُ الخُسْرَان ❁

(ثم) قال: (اعلم) أي يا من يتأتى منك العلم والاهتمام بشأن ما أذكره لك من الكلام على ما يتعلّق بالحمل من (أن تلك اللمعة) التي كانت تتلألؤ في جبين آدم ومن بعده إلى أبيه عبد الله.

واللمعة بالفتح مصدر لمع من اللمعان أَيْ: البريق وهو الضوء اللامع

الشديد، ومن ذلك قولك: لمعت سيوفنا أَيْ: أضاءت من البريق، وهو المراد هنا، وأما اللُّمعة بضم اللام فتقال عند ترك شيء من بعض أعضاء الوضوء فيقال: ترك لُمعة بالضم، وليست مرادة هنا.

(المفخمة) بضم الميم وفتح الخاء المعجمة مشددة من التفخيم، أَيْ: المهابة بأنوار الجمال، (المعظمة) الموقرة بهيبة الجلال، (المكملة) بتشديد الميم الثانية المفتوحة أَيْ: التي كملت محاسنها خَلقًا وخُلقًا بمحاسن الخصال.

(النورية) بضم النون نسبة للنور الذي هو أصل الوجود، ومنه استمد كل موجود. روي: أن الله تعالى خلق من هذا النور ياقوتة غلظها سبع سماوات وسبع أرضين وما بينهما، ثم دعاها فذابت من هيبة الخطاب فصارت ماءًا، ثم خلق الريح فوضع الماء على بطنه، ثم خلق العرش فوضعه فوقه، ثم الكرسي ثم اللوح ثم القلم، ثم نظر تعالى إلى القلم نظر هيبة فانشق، وأمره أن يكتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بمقدار خمسين ألف عام. فلما وصل إلى كتابة أحوال الأمم صار يكتب في كل واحدة: من أطاع فإلى الجنة ومن عصى فإلى النار.

فلما وصل إلى أمة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يكتب ذلك، قال له تعالى: اكتب أمة مذنبة ورب غفور.

ثم نظر الله تعالى إلى الماء نظر هيبة، فأزبد فخلق منه أكمة خلق منها موضع الكعبة، ثم صعد دخان خلق منه السماوات، ثم مدت الأرض من موضع الكعبة، وكانت السماوات طبقة واحدة، ففتقها سبعًا، وجعل بين

كل سماء خمسمائة عام، والأرض كذلك أَيْ: فتقها سبعًا، وجعل بين كل واحدة والأخرى خمسمائة عام.

لما حصل اضطراب وتزلزل خلق من الزبد المتقدّم الجبال وأرساها عليها فقرت، ثم خلق الجنة ثم النار ثم الشمس ثم القمر ثم الكواكب، ثم الحور العين، ثم الملائكة.

ثم خلق تعالى شجرة من ذلك النور، ثم خلق قنديلاً وعلّقه بسلاسل من نور في تلك الشجرة، ثم وضع روح المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك القنديل، فصار يسبح اللَّه تعالى بكل اسم من أسمائه الحسنى ألف عام.

فلما بلغ الرحمن عرق واستحيا من اللَّه خلق اللَّه بكل قطرة من عرقه روحًا من أرواح الأنبياء، فلما وصل إلى اسم القهار عرق من سطوته، فخلق من ذلك العرق جميع الأرواح.

ثم إن الأرض لما تجد لها قرارًا فأنزل اللَّه ملكًا، فدخل تحتها فوضعها على عاتقيه إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب، قابضين على الأرضين السبع، فلم يجد لقدمه قرارًا، فأهبط اللَّه من الفردوس ثورًا عظيمًا، وجعل قدمي الملك على سنامه، فلم يكن لقوائم الثور قرار، فخلق اللَّه صخرة عظيمة فاستقرت قوائم الثور عليها.

ثم خلق حوتًا تحت الصخرة، جسده في البحر وهو على متن الريح، والريح ممسك بالقدرة.

ثم لما أراد اللَّه أن يخلق المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: بصورة

مماثلة لصورته التي يوجد بها وقت بروزه إلى عالم الشهادة، قبل خلق آدم خصوصية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمر جبريل أن يهبط إلى الأرض، ويأتيه بالطيبنة التي هي قلبها وبهاؤها، فهبط في ملائكة الفردوس وملائكة الرقيع الأعلى، فقبض قبضة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موضع قبره الشريف، وأصلها من موضع الكعبة، موجهًا الماء إلى طيبة، فعجنت بماء التسنيم، وغمست في أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعا عظيم.

ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي وفي السماوات والأرض، فعرفت الخلق سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه قبل أن تعرف آدم وتجسيمه.

ثم أوحى اللَّه إلى الأرض: أني خالق منك خلقًا من يطيعني منهم أدخله الجنة، ومن يعصيني منهم أدخله النار، فبكت فانفجرت منها العيون.

ثم أرسل لها جبريل لأخذ قبضة آدم منها، فاستعاذت باللَّه فرجع، ثم ميكائيل ثم إسرافيل وهما يرجعان كذلك، ثم أرسل عزرائيل فلما استعاذت منه قال: وأما أعوذ بعزة ربي أن لا أعصي له أمرًا، فقبض آدم من جميع أنواعها ستين نوعًا من ألوانها وطباعها.

فخرجت ذريته على نحو ذلك منهم الأبيض والأسود والأحمر والسهل والحزن والطيب والخبيث. فقال اللَّه تعالى: لا أسلطنك على قبض أرواحهم، ثم جعلت نصف القبضة في الجنة ونصفها في النار ما

شاء اللَّه، ثم أخرجت وعجنت بماء من الجنة وخمّرت، وتركت أربعين سنة حتى صارت طينًا لازبًا، ثم صارت حماءً مسنونًا أَيْ: طينًا منتنًا متغير الريح أربعين سنة كذلك، ثم صلصالاً مصورة أَيْ: صورًا لطينة مجوفة على صورة إنسان.

وجفت ويبست حتى كانت الريح تدخل فيها فيسمع لها صلصة أَيْ: صوت. ثم صوّرت جسدًا وألقيت على باب الجنة مدة أربعين سنة، فكانت الملائكة تتعجب منها، إذ لم يروا مثلها، وكان إبليس يقول: ما خلق هذا الأمر، وقال يومًا للملائكة: إن فضّل هذا عليكم ما تصنعون؟، قالوا: نسمع ونطيع أمر ربنا، فقال في نفسه: لئن فضّل عليّ لأعصينه، ولئن فضّلت عليه لأهلكنه.

ثم بعد تكامل مائة وعشرين سنة أمر اللَّه الروح أن تدخل في جسده، فاستصعبت ذلك لضيق مدخله، فقالت: يا رب كيف أدخل هذا الجسد؟، قال تعالى: أدخليه كرهًا وستخرجين منه كرهًا. وهذا كان عند باب الجنة، وأما العجن والتصوير فكان ببطن نعمان واد من أودية عرفات.

فدخلت الروح في نافوخه فمكثت مائة عام، ثم وصلت عينيه فجعل ينظر إلى سائر جسده طينًا، فلما وصلت منخريه عطس، ولما وصلت لسانه حمد، فناداه ربه: يرحمك اللَّه يا أبا محمد لهذا خلقتك. ثم مكثت في صدره مائة عام، فلما وصلت ركبتيه همَّ ليقوم فلم يقدر، ثم مكثت في ساقه مائة عام، فلما وصلت إلى قدميه استوى قائمًا.

ثم رفع على أكتاف الملائكة على سرير من ذهب أو ياقوت أحمر له

سبعمائة قائمة، فقال تعالى: طوفوا به سماواتي ليرى عجائبها، فطافوا به السماوات كلها، وهو يسلّم على الملائكة عن يمينه وشماله، فيقول: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، فيردون عليه، فقيل له: هذه تحيتك وتحية ذريتك إلى يوم القيامة.

ثم جعل نور المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظهره، فغلب على باقي النور الذي أودع في ظهره كأنوار الأنبياء والأولياء، وكان ذلك النور يلمع في ظهره لشدة لمعانه وبريقه، وكذلك كانت الملائكة تقف خلفه صفوفًا، ينظرون إلى تلألؤ نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال آدم: يا رب مالِ هؤلاء الملائكة يقفون خلفي صفوفًا، فقال اللَّه تعالى: يا آدم ينظرون نور محمد الذي استخرجته من ظهرك، فهو خاتم الأنبياء.

فقال: يا رب اجعل هذا النور في مقدمي كي تستقبلني الملائكة، فجعله سبحانه وتعالى في وجهه. ثم قال: يا رب اجعل هذا النور في موضع أراه، فجعله في سبابته فكان آدم ينظر إلى حسنس ذلك النور، ثم قال: يا رب لعله بقي من هذا النور شيء في ظهري، فقال: نعم نور أصحابه، فقال: يا رب اجعله في بقية أصابعي، فجعل نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور علي في الإبهام، فكانت تتلألأ في أصابع آدم عليه السلام ما دام في الجنة.

فلما هبط إلى الأرض ومارس أعمال الدنيا زالت الأنوار من أصابعه، ورجعت إلى ظهره، فكان يلمع في جبينه لاتصال شعاعه به، فيغلب على سائر نوره أَيْ: نور آدم، الذي في بدنه أو يغلب على بقية النور الذي خلقه

فيه كأنوار الأنبياء.

والحاصل أن آدم عليه السلام اجتمع فيه نور جميع الأنبياء والأولياء، فكان نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغلب على سائر الأنوار.

قال جعفر بن محمد: مكثت الروح فى رأس آدم مائة عام، وفي ساقيه وقدميه مائة عام، ثم علَّمه اللَّه تعالى أسماء جميع المخلوقات، ثم عرض المسميات على الملائكة بأن خلقها أمثال الذر، ثم سألهم عن أسمائها، فقالوا اعترافًا بالعجز: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، فعلّمهم آدم بأمر اللَّه تعالى.

ثم أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس فاستكبر وادعى، فكان أول من عصى اللَّه، وأول حاسد لمن فضله اللَّه تعالى، فطرده اللَّه تعالى ولعنه وأهبطه من الجنة مذمومًا مخذولاً. وكان السجود لآدم سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة، كسجود أخوة يوسف له فإنه ما كان سجود عبادة، فالمسجود له في الحقيقة هو اللَّه وآدم كالقبلة.

وروي عن جعفر الصادق أنه قال: كان أول من سجد لآدم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون. وعن ابن عباس: كان زمن السجود لآدم يوم الجمعة من الزوال إلى العصر. لو فرض من أيام الدنيا فلا يشكل بخبر: أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة المقدّر بألف سنة.

ثم خلق اللَّه تعالى حواء زوجته، من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو نائم قبل دخوله الجنة ولم يشعر بذلك، وسميت حواء لأنها خلقت من

حي.

فلما استيقظ ورآها سكن إليها، ومد يده إليها فقالت الملائكة: مه يا آدم، قال: ولم وقد خلقها الله لي؟، فقالوا: حتى تؤدي مهرها، قال: وما مهرها؟، أن تصلّي على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرات. وفي روايةٍ: أنه لما رام القرب منها طلبت منه المهر، قال: يا رب وماذا أعطيها؟، فقال: يا آدم صل على محمد بن عبد الله عشرين مرة، ففعل آدم ما أُمر به من الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعدد المذكور.

فزوَّجه الله تعالى إياها وخطب فقال: الحمد لله ثنائي والعظمة إزاري والكبرياء ردائي، والخلق كلهم عبيدي وإمائي، اشهدوا يا ملائكتي وحملة عرشي وسكان سماواتي أني زوّجت حواء أمتي من عبدي آدم بديع فطرتي وصنيع يدي، على صداق تقديسي وتسبيحي وتهليلي، ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قيل: الحنطة، وقيل: العنب، وقيل: التين، وقيل: غير ذلك.

فحسدهما إبليس فاحتال حتى دخل الجنة، وذلك أنه جلس على باب الجنة في صورة شيخ يعبد قدر ثلاثمائة سنة، انتظارًا لخروج أحد يأتيه بخبر آدم، فخرج الطاوس فقال له: من أين؟، قال: من حديقة آدم، قال: ما الخبر عنه؟، قال: هو في أحسن الحال وأطيب العيش هنأت له الجنان ونحن من خدامه، فقال له: هل تستطيع أن تدخلني عليه؟،قال: من أنت؟، قال: من الكروبيين عندي له نصيحة، فقال: اذهب إلى رضوان فإنه لا يمنع أحدًا من النصيحة، فقال: أريد أن أخفيها، قال: المخفية لا تكون نصيحة،

قال: نحن معاشر الكروبيين لا نقول الأسرار، إن فعلت ما أقول أعلمك دعاء لن تشيب بعده، فقال: لا أقدر ولكن أدلك على الحية، فلما كلَّمها في ذلك قالت: كيف أدخلك ورضوان لا يمكنني، فقال: أنا أتحول ريحًا فاجعليني بين أنيابك، ففعلت وأطبقت فاها، فأمرها بالذهاب إلى الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، فذهبت ووقفت عندها.

وغنى بمزمار وهو في فم الحية، فجاء آدم وحواء يسمعان المزمار ظنًا أن الحية هي التي تغني، فقال لهما إبليس: تقدما، فقالا: نهينا عن قرب هذه الشجرة، فبكى وناح نياحة أحزنتهما، فهو أول من ناح، فقالا له: ما يبكيك؟، فقال: أبكي عليكما، تموتان وتفقدان هذا النعيم المقيم، ألا أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فكلا من هذه الشجرة فإنها شجرة الخلد، وحلف لهما أنه ناصح، فهو أول من حلف كاذبًا، وأول من غش.

ولما قاسمهما قال: أيكما بادر إلى الأكل فله الغلبة على صاحبه، فأكلت حواء منها حبة وخبأت حبة، ثم زيّنت لآدم حتى أكل فأتت له بثلاث حبات، وقالت: أنا أكلت منها واحدة فكانت طيبة الطعم، وما أصابني منها مضرة، فمكث آدم مائة سنة بعد أكلها لم يأكل، ثم ناول وأخذ منها الحبات وجعل منها حبة في فيه، فقبل أن يصل طعمها إلى حلقه وجرمها إلى جوفه، طار من رأسه تاجه المكلل بالدر والياقوت، والجوهر ينادي: يا آدم طالت حسرتك، وتزحزح السرير من تحتهما، وقال: أستحيي من الله أن أكون سريرًا لمن عصاه، وتساقط ما عليهما من

سوار ودملج وخلخال ومنطقة مرصعة ونزع عنهما لباسهما، وكان على آدم سبعمائة حلة، وكان من أمرهما ما كان. وإنما أكلا منها لأنهما ظنا أن أحدًا لا يتجاسر أن يحلف باللَّه كاذبًا.

فقال اللَّه تعالى: ألم يكن لكما من الجنة مندوحة، بفتح الميم سعة وفسحة، عن هذه الشجرة، قالا: بلى يا رب وعزتك وجلالك، ولكن ظننا أن أحدًا لا يحلف بك كاذبًا، قال اللَّه: وعزتي وجلالي لأهبطنكما إلى الأرض لا تنالا العيش منها إلا كدًّا، بفتح الكاف وتشديد المهملة أَيْ: تعبًا.

فتضرّع آدم واعتذر، فقال اللَّه تعالى: لا يجاورني من عصاني، فسأله بحق محمد أن يغفر له، فقال: قد غفرت لك بحقه، ولكن لا يجاورني من عصاني، فبكى وودع كل من في الجنة، حتى بكت عليه أشجارها إلا العود، فقيل له: لم لا تبك؟، قال: لا أبكي على عاص، فنودي: كما عظمت أمرنا عظمناك، ولكن هيأناك للإحراق، فقال: ما هذا؟، فنودي: أنت عظمتنا فكذلك يعظمونك، لكن لم يحترق قلبك على محبتنا فلذلك يحرقونك.

فلما انتهى لباب الجنة ووضع إحدى رجليه خارج الباب، قال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، فقال له جبريل: تكلمت بكلمة عظيمة، فقف ساعة فربما يظهر من الغيب لطف، فنودي: أن دعه يخرج، فقال: إلهي دعاك رحيمًا فارحمه، فقال: إن أرحمه لا ينقص من رحمتي شيء وإن يذهب لا يعاب عليه شيء، فخل عنه يذهب ثم يرجع في مائة ألوف من أولاده

عصاة حتى يشاهد فضلنا، ويعلم سعة رحمتنا.

فأهبط من الجنة بسرنديب، بسين وراء مهملتين فنون فدال مهملة فتحتية فموحدة، محل من الهند بجبل نوذ، بنون مفتوحة وذال معجمة، وأهبطت حواء بجدة، وقيل: بعرفة، وقيل: بالمزدلفة، وإبليس بالأبلة، بضم الهمزة والموحدة وشد اللام، بلد بقرب البصرة. وقيل: أهبط بجدة والحية ببيسان، وقيل: بسجستان، وقيل: بأصبهان، وقيل: غير ذلك.

واختلف في قدر مكثه في الجنة، فعن ابن عباس مكث فيها نصف يوم من الآخرة وهو خمسمائة عام، وقيل: دخلها ضحوة وخرج بين الصلاتين. وقال الحسن البصري: لبث فيها ساعة من نهار، وهي مائة وثلاثون سنة من سني الدنيا.

وعن ابن عباس: قال اللَّه: يا آدم ما حملك على ما صنعت؟، قال: زينّته لي حواء، وقد ورد: النساء حبائل الشيطان، قال: فإني أعقبها، بضم الهمزة وسكون المهملة وكسر القاف أَيْ: أجازيها، أن لا تحمل إلا كرهًا ولا تضع إلا كرهًا، ولأدميها في الشهر مرتين.

وقال وهب بن منبه: لما هبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة سنة لا يرقأ، أَيْ: لا يسكن ولا يجف، له دمع. وقال مجاهد: بكى آدم مائة عام لا يرفع رأسه حياءً من ربه عزَّ وجلَّ، وأنبت اللَّه من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل وأنواع الطيب، وبكت حواء حتى أنبت اللَّه من دموعها القرنفل والأقاوى.

ثم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، وكان ذلك بعد

هبوطهما بمائة سنة، وقيل: مائة وعشرين، فكان كل بطن من تلك البطون ذكرًا وأنثى، وكان يزوّج أنثى كل بطن لذكر الأخرى، تنزيلاً لاختلاف البطون منزلة اختلاف القبائل.

ثم أوحى الله إلى آدم عليه السلام أن اغتسل وسبّح وقدّس، واغش زوجتك على طهارة منك ومنها، فإني مخرج منك نور حبيبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل ذلك وكان يوم الجمعة، فلما غشيها حملت فأصبح.

وقد (انتقلت) تلك الوديعة من وجهه إلى حواء، فكان يرى في جبهتها دارة كدارة الشمس، فلما تمت حملها وضعت شيئًا عليه السلام وحده ولا أخت معه على المشهور، قيل: مكث في بطنها حتى نبتت أسنانه.

فانتقل ذلك النور (من وجه آدم) عليه السلام (لوجه ابن شيث) بكسر الشين المعجمة فتحتية ساكنة فمثلثة مصروف منون، ومعنى شيث هبة الله، ويقال: عطية الله، وقال السهيلي: وهو بالسريانية: شاث، وبالعبرانية: شيث. وقال ابن كثير وغيره: سماه هبة الله لأنه ولد بعد قتل هابيل على شكله وصورته.

وقد كان آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحبه كثيرًا، فلما رزق بهذا تسلبه عنه، وكان أجمل أولاده وأشبههم به وأحبهم إليه وأفضلهم، وعلمه الله الساعات والعبادة في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة، وزوّجه الله أخته التي ولدت بعده وكانت جميلة كأمها حواء، وخطب جبريل وشهدت الملائكة، وكان آدم وليها ورزقه الله أولادًا في حياة أبيه وعمره تسعمائة واثنتي عشرة سنة، وقيل: وعشرين.

ومات بمضي ألف واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم، ودفن في غار أبي قيس. وقيل: أنساب بني آدم كلها تنتهي إليه، لأن نسب نوح عليه السلام ينتهي إليه، وهو آدم الصغير كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

وما عدا شيث من أولاد آدم فقد انقرض كرامة لمن أطلع الله بالنبوة سعده الذي هو نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(كما رواه) الحفّاظ (أهل الإتقان) كرواية الطبراني وأبي نعيم وابن عساكر: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى الآن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء. وروى أبو نعيم: لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة والأرحام الطاهرة، مصفى مهذبًا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت من خيرهما.

ولما توفي آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكانت وفاته آخر ساعة من يوم الجمعة، لست أيام مضت من شوال، وكان سنه ألف سنة، وقيل: إلا أربعين، وقيل: إلا ستين، وقيل: إلا سبعين، وصلَّى عليه جبريل عليه السلام، إمامًا بالملائكة. وقيل: ولده شيث بأمر من جبريل. ودفن بغارٍ في جبل أبي قبيس، وقيل: بالمسجد الأقصى ورجلاه عند مسجد الخليل. وقيل: بسرنديب وهو الموضع الذي أهبط فيه.

وكسفت الشمس وخسفت القمر عليه أسبوعًا، وعاشت حواء بعده عامًا واحدًا، وقيل: ثلاثة أيام ودفنت بجنبه. وقيل: بجدة.

كان شيث عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وصيًا لآدم على أولاده، ثم بعد ما أوحى اللَّه إلى شيث: أن اتخذ ابنك أنوش صفيًا ووصيًا، علم أنه نعيت إليه نفسه، أوصى شيث واستخلف ولده أنوش، بوصية أبيه آدم أن لا يضع هذا النور إلا في المطهّرات من النساء.

(ولم تزل) لم للنفي وتزل نفي، ونفي النفي إثبات أَيْ: تستمر هذه الوصية جارية ومعمولًا بها وتلك اللمعة النورية (تنتقل) من قرن إلى قرن أَيْ: أي من أهل زمن إلى زمن آخر. (إلى أن جاءت) أَيْ: وصلت تلك الوديعة وهي النور المحمدي، (في جبهة) أَيْ: جبين عبد المطلب، فازداد علوًا ومكانًا.

ذكر الحافظ أبو سعيد النيسابوري عن أبي بكر بن أبي مريم عن سعد بن عمرو عن أبيه عن كعب الأحبار: أن نور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صار أَيْ: انتقل، إلى عبد المطلب وأدرك أَيْ: بلغ، نام يومًا في الحجر، فانتبه مكحولا مدهونًا، قد كسي حلة البهاء والجمال، فبقي متحيرًا لا يدري من فعل به ذلك، فأخذه أبوه بيده، أَيْ: عمه المطلب بن عبد مناف، إذ العرب تسمي العم أبًا حقيقة أو على التشبيه لقيامه مقامه في التربية، فلا يرد ما مرَّ من موت أبيه بغزة وهو حمل، أو بمكة على أثر ولادته.

ثم انطلق به إلى كهنة قريش فأخبرهم بذلك، فقالوا له: اعلم أن إله السماوات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج، فزوّجه قيلة، بفتح القاف وسكون التحتية فلام فهاء، فولدت له الحارث ثم ماتت، ثم صفية بنت جندب من بني عامر بن صعصعة، ثم نثيلة بنت جناب بن كليب، ثم هالة بنت وهيب،

ثـم آمنة بنـت هـاجر الخزاعـي، ثـم فاطمـة جـدة المصـطفى صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ المخزومية، بنت عمرو بن عائذ بن عمرو ابن مخزوم، ومهرها مائة ناقة وعشرة أواق من ذهب، فولدت له أولادًا.

فانتقلت اللمعة إلى جبهة (عبد اللّه) والده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما انتقل ذلك النور اللامع إليه، وعظم حتى صار يتلألأ في جبينه، وحظي به وخصّ به (لسبوق) وفي نسخة: لسبق (العناية الأزلية) أَيْ: المقدّرة أزلاً، وإنما لم يوصه أبوه عبد المطلب بتلك الوصية لتعاطيه تزويجه بنفسه من آمنة، مع علمه بمكانها من النسب، وأن إنكاحه لها لا أثر فيه من الأمور التي تقع من الجاهلية، فكفاه ذلك عن الوصية.

(فوضعها) أَيْ: تلك اللمعة أَيْ: النور اللامع وهو نور المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (في) بطن السيدة (آمنة) بمد الهمزة وكسر الميم وبالنون، اسم أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منقول من اسم فعل أمن، تفاؤلاً بأمنها من كل مكروه، بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، بضم الزاي وسكون الهاء، ابن كلاب.

فيجتمع نسب أبيه وأمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلاب، وكان وهب سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، أي من جهة النسب والشرف، والمراد بالنسبة القرابة، وبالشرف الفخر.

وكانت آمنة يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبًا وموضعًا، أَيْ: من جهة النسب والموضع والمراد بالنسب القرابة من جهة الآباء وبالموضع القرابة من جهة الأمهات، لأن الأم موضع الولد.

واسم أمها برة بفتح الموحدة وشد الراء المفتوحة، بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة. وأم برة ولدة آمنة أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي. وأم أم حبيب هي برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب بن لؤي.

(أم سيد العجم والعربان) العُجم بضم العين وزان قفل لغة في العجم بفتحتين، خلاف العرب الواحد عجمي مثل زنج زنجي وروم روحي، فالياء للوحدة، وينسب إلى العجم بالياء فيقال للعجمي هو عجي أي منسوب.

والعُرب بضم العين وزان قفل لغة في العرب بفتحتين خلاف العجم، والعربان لغة فيه فنونه أصلية، ويجمع العرب على أعرب مثل زمن وأزمن، وعلى عُرُب بضمتين مثل أسد وأسد.

والعرب عاربة ومستعربة، فالعاربة الذين تكلموا بلسان يعرب بن قحطان، وهو اللسان القديم، والمستعربة هم الذين تكلموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهي لغات الحجاز وما والاها. كما في "المصباح".

قال أستاذنا المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" في حرف الدال بعد أبيات:

وَأَظْهَرَ ذَاكَ النُّورَ فِي وَجْهِ آدَمٍ وَأَسْجَدَ أَمْلَاكاً لَهُ يَا مُنَادِمِي
نَقَلْهُ إِلَى حَوَّا إِلَى شِيثِ قَادِمِ إِلَى صُلْبِ عَبْدِ اللهِ مِنْ بَعْدِ مُعْظَمِ
مِنَ الصَّائِنِينَ الصَّائِنَاتِ المُمَجَّدِ

فَنَسَــبٌ كَــرِيمٌ بِــالكَرِيمِ مِــنَ الكُرَمَــا   إِلَــى الكُرَمَــا عَــنْ قَــادَةٍ سَــادَةٍ كُرَمَــا
تَــدَلَّى إِلَــى رَحْــمٍ لِآمِنَــةَ النَّمَــا   تُبَشِّــرُهَا فِــي كُــلِّ شَــهْرٍ أَكَارِمَــا
بِأَنَّكِ لِلمَحْبُوبِ طَهَ سَتُولِدِي

قال في "المواهب" و"شرحها" للزرقاني: "ولما انصرف أَيْ: فرغ عبد الله مع أبيه من نحر الإبل، مرَّ على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي عند الكعبة واسمها قُتَيْلة بضم القاف وفتح المثناة الفوقية فتحتية ساكنة فلام فهاء تأنيث، ويقال اسمها رقيقة بنت نوفل، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، وفيه نور المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وظنَّت أن النبي الكائن في هذه الأمة منه.

وكان أحسن رجل رئي، بكسر الراء ثم همزة مفتوحة ويجوز ضم الراء وكسر الهمزة ثم ياء أَيْ: شوهد، في قريش، وقالت له: أدفع لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع عليّ، أَيْ: جامعني، وقالت ذلك لما رأت في وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لها: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، ومراده بذلك دفع كلامها. وقيل: أجابها بقوله:

أمــا الحــرام فالممــات دونــه   والحــل لا حــل فأســتبينه
فكيــف بــالأمر الــذي تبغينــه   يحمــي الكــريم عرضــه ودينــه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فخطب بنته آمنة لولده عبد اللَّه، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، فأجابه من غير توقف.

ولما رأى أن اليهود لما علموا بعبد الله يخرج منهم سبعون من الشام، وتحالفوا أن لا يرجعوا حتى يقتلوه، فجعلوا يسيرون بالليل ويكنون بالنهار حتى وصلوا إلى مكة، فلما خرج عبد الله إلى صيده وكان وحده، رآه اليهود فعرفوه، فأحدقوا به من كل جانب.

فلما نظر إليهم وهب بن عبد مناف أدركته الحمية، فقال: سبعون رجلاً على رجل واحد يريدون قتله لأنصرنه، فالتفت فإذا هو برجال في الهواء لا يشبهون رجال الدنيا، قد نزلوا من السماء فقطعوهم عن آخرهم، فهاله ما رأى ورجع إلى أبيه عبد المطلب وأخبره بذلك، وكان سن عبد الله إذ ذاك ثمانية عشر عامًا، وقيل: ثلاثين سنة.

فلما زوّجها له دخل عليها عبد الله حين تزوّج بها، فوقع عليها أَيْ: جامعها، يوم الاثنين من أيام منى، وقيل: من شهر رجب في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى، فحملت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم خرج من عندها بعد ما أقام عندها ثلاثًا، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما عرضت عليّ بالإمس؟، قالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور فيَّ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء.

وروي: أنه لما بنى عبد الله بآمنة أحصوا مائتي امرأة من بني مخزوم وبني عبد مناف متن، ولم يتزوجن أسفًا على ما فاتهن من عبد الله بآمنة.

ولما حملت آمنة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر لحمله عجائب

ووجد لإيجاده غرائب. فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية، ودرته المحمدية في صدفة أَيْ: رحم آمنة القرشية، نودي في الملكوت ومعالم الجبروت: أن عطّروا جوامع القدس الأسنى أَيْ: الأشرف، وبخّروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات في صفف الصفاء الصفوفية للملائكة المقربين أهل الصدق والوفاء، فقد انتقل النور المكنون إلى آمنة ذات العقل الباهر والفخر المصون، قد خصّها اللَّه تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب، لأنها أفضل قومها حسبًا، وأنجب وأزكاهم أخلاقًا وفرعًا وأطيب.

وقال سهل بن عبد اللَّه التستري: لما أراد اللَّه تعالى خلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن آمنة، ليلة رجب، أمر اللَّه تعالى في تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس الذي هو أعلى درجات الجنة وأعلاه الوسيلة، إظهارًا لكرامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونادى مناد في السماوات والأرض: ألا إن النور المخزون المكنون الذي يكون منه النبي الهادي، في هذه الليلة يستقر في بطن آمنة الذي يتم فيه خلقه، ويخرج إلى الناس بشيرًا ونذيرًا.

وفي رواية كعب الأحبار: أنه نودي تلك الليلة في السماء وأصفاحها والأرض وبقاعها، أن النور المكنون الذي منه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتقل في بطن أمه، فيا طوبى لها ثم يا طوبى، وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا منكوسة، وكانت قريش في جدب شديد وضيق عظيم، فاخضرت الأرض وحملت الأشجار، وأتاهم الرفد بكسر الراء الخير

الكثير، من كل جانب، فسميت تلك السنة التي حمل فيها برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة الفتح والابتهاج.

(فكانت) أي السيدة آمنة (ترى) أَيْ: في المنام، قال الشامي في "سيرته": الرؤيا التي وقعت لآمنة في الحمل فهي رؤيا منام، وأما الرؤيا ليلة المولد فرؤية عين. (من العجائب) جمع أعجوبة، وهي الشيء الذي يتعجب منه، (حين) أَيْ: أثناء (حملها به).

ثم كمل المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السجعة بقوله: (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ و) أزكى (التحية). قال في "المصباح": حَيَّاهُ تَحِيَّةً أَصْلُهُ الدُّعَاءُ بِالْحَيَاةِ وَمِنْهُ التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ أَيْ الْبَقَاءُ، وَقِيلَ: الْمُلْكُ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اُسْتُعْمِلَ فِي مُطْلَقِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُ الشَّرْعُ فِي دُعَاءٍ مَخْصُوصٍ وَهُوَ سَلَامٌ عَلَيْك اه.

وقوله: (ما) مفعول ترى أَيْ: ترى من العجائب، فما اسم موصول بمعنى الذي (يقصر) بضم الصاد أَيْ: يعجز (عنه) أي عن الذي رأته من العجائب، (في الحقيقة تعبير) أَيْ: تعبير وبيان نطق (اللسان) هُو الْعُضْوُ يُذَكَّرُ فيجمع عَلَى أَلْسِنَةٍ، وَيُؤَنَّثُ ويجمع عَلَى أَلْسُنٍ، وَالتَّذْكِيرُ أَكْثَرُ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ مُذَكَّرٌ. وَاللِّسَانُ اللُّغَةُ مُؤَنَّثٌ، وَقَدْ يُذَكَّرُ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَفْظٌ فَيُقَالُ لِسَانُهُ فَصِيحَةٌ وَفَصِيحٌ أَيْ: لُغَتُهُ فَصِيحَةٌ أَوْ نُطْقُهُ فَصِيحٌ. كما في "المصباح".

قال في "المواهب": وفي حديث ابن إسحاق: أن آمنة كانت تحدّث أنها أُتيت بضم الهمزة، أَيْ: رأت في المنام حين حملت بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت

بفتح أوله وثانيه أَيْ: علمت، بأني حملت به ولا وجدت له ثقلاً بكسر المثلثة وفتح القاف، ولا وحمًا بفتحتين أَيْ: شهوة الحبلى، كما تجد النساء إلا أني أنكرت رفع حيضتي بكسر الحاء.

وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك قد حملت بسيد الأنام. ثم أمهلني حتى إذا دنت أَيْ: قربت ولادتي أتاني، فقال لي: قولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدًا. وفي رواية غير ابن إسحاق: وعلّقي عليه هذه التميمة.

قالت: فانتبهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها هذه النسخة:

أعيذه بالواحد   من شر كل حاسد
وكل خلق رائد   من قائم وقاعد
عن السبيل حائد   على الفساد جاحد
من نافث وعاقد   وكل خلق مارد
يأخذ بالمراصد   في طرق الموارد

وعن شداد بن أوس: أن رجلاً من بني عامر سأل رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما حقيقة أمرك، فقال: بدو شأني أَيْ: ظهور أمري أني دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، وأني كنت بكر أبي وأمي، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إن أمي رأت في منامها أن الذي في بطنها نور. الحديث.

ففيه تصريح أن أمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وجدت الثقل في حمله، وفي

سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً. وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما بأن الثقل به كان في ابتداء علوقها به، ولعلها حملته على أنه مرض أصابها، فلا ينافي قولها: ما شعرت أيْ: حملت به، والخفة عند استمرار الحمل به، فيكون أمر حمله على الحالين خارجًا عن المعتاد المعروف في الحوامل اهـ.

وروى أبو نعيم أيضًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة، وتخصيص دوابهم بالنطق لإعلامهم فضله من أول الأمر، فلا يكون لهم شبهة ولا عذر وقت دعوته، لكن هذا لايتوقف على سماع ذلك ولو بعضهم، ولا مانع منه.

وقالت: حمل برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير مِلِك بكسر اللام، من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسًا أيْ: مقلوبًا عن الهيئة التي كان عليها بأن صار أعلاه أسفله، وذلك إشارة إلى تنكيس أحوالهم، وفرّت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار يبشر بعضهم بعضًا، وله في كل شهر من شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء: أن أبشروا فقد آن أيْ: قرب أن يظهر أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميمونًا مباركًا.

وروي أنه لم يبق في تلك الليلة دار إلا أشرقت ولا مكان إلا دخله النور، ولا دابة إلا نطقت. وعن أبي زكريا يحيى بن عائذ: بقي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعًا في رأسها من

نحو الدوخة التي تعرض للحامل ولا في بدنها من استرخاء الأعضاء والمفاصل، ولا تشكو مغصًا ولا ريحًا في بطنها، ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء من حب بعض المأكول وبغض بعضه.

وكانت تقول: واللَّه ما رأيت من حمل لواحدة من النساء، لأنها ما حملت بغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أخف منه، ولا أعظم بركة.

ولذلك قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وناهيك) كلمة تعجب واستعظام، هي كما يقال: حسبك وتأويله أنه غاية ننهاك عن طلب غيره. كما في "المصباح".

(بمن في بطنها الذي هو متعشقة به العوالم الملكية) بضم الميم وسكون اللام أَيْ: المنسوبة للملك أفصح من فتح الميم واللام.

(و) هو لما ظهر (لم يبق شيء) في الوجود (إلا وهو مناظر لبروز) أي خروج وظهور (خير) كافة (الصبيان) أل للاستغراق أَيْ: جميع الصبيان جمع صبي وهو الصغير، ويجمع أيضًا على صبية بكسر الصاد، بل وجميع العالم بأسره. وإنما قال الصبيان لأن المقام والسياق يقتضي ذلك.

(وكذلك استشراف) أي استظهار وطلب شرف، فالسين والتاء للطلب، (ظهوره واقع) وحاصل (للعوالم الملكوتية) أَيْ: المنسوبة للملكوت وهو صيغة مبالغة من الملك بفتح الميم واللام، وهو العالم الخفي الذي لم نشاهده كالملائكة والجنة والنار، ويسمى عالم الشهادة وعالم الملك.

(وهي) العوالم الملكوتية (أهل للتشرف بخير من عرجها) أي رقاها (ونالت) أَيْ: بلغت مقصودها، وحازت (به) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الأمان) أَيْ: السلامة ليلة الإسراء.

(وجاءها) أَيْ: في المنام (آدم) عليه السلام (في الشهر الأول) من شهور رجب وهو رجب على الصحيح، (وبشّرها بأنها حملت بخير من يمشي على) البقاع (الأرضية) بسكون الراء وزيادة الياء والهاء أَيْ: الأرض. (وقصده) أي آدم بتلك البشارة (التشرف به) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فرحًا وسرورًا وقد كان) كذلك.

(ولم تزل) أَيْ: تستمر آمنة (في كل شهر) مرّ عليها من شهور حملها (ترى) أَيْ: في المنام (نبيًا) ورسولاً، (من الأنبياء) والرسل، (أهل) أي أصحاب (العزائم) أَيْ: الهمم جمع عزيمة، (العزمية) أي القوية مصدر عزم عزيمة وعزمة اجتهد وجدَّ في أمره، فالياء وما بعدها للمبالغة، وأولو العزم من الرسل خمسة جمعها بعضهم في بيت بقوله:

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

والمذكورون في سورة الأنعام هم نجباء الرسل وهم ثمانية عشر. وقال ابن زيد: كل الرسل كانوا أولي عزم ولم يبعث الله عزَّ وجلَّ نبيًا إلا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال عقل.

(فيبشرها به) أي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بعبارة أخرى) أي بعبارة غير عبارة الآخر منهم، (ليتم) أَيْ: ليكمل (لها) أَيْ: للسيدة آمنة (الاطمئنان) مصدر أطمأن يقال: أطمأن يطمئن اطمئنانًا وطمأنينة أَيْ: سكن.

قال ابن الجوزي: روي أن آمنة قالت: لما حملت بحبيبي محمد صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول شهر من حملي وهو شهر رجب الأصم، بينما أنا ذات ليلة في لذة المنام إذ دخل عليّ رجل مليح الوجه طيب الرائحة وأنواره لائحة، وهو يقول: مرحبًا بك يا محمد، فقلت له: من أنت؟، فقال: أنا آدم أبو البشر، فقلت: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بسيد البشر وفخر ربيعة ومضر.

وفي الشهر الثاني دخل عليّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا رسول اللَّه، فقلت له: من أنت؟، فقال: أنا شيث، فقلت له: ما تريد؟، فقال: أبشري فقد حملت بصاحب التأويل والأحاديث.

وفي الشهر الثالث دخل عليّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا نبي اللَّه، فقلت له: من أنت؟، فقال: أنا إدريس، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بالنبي الرئيس.

وفي الشهر الرابع دخل عليّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا حبيب اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا نوح، فقلت له: ما تريد؟، فقال: أبشري يا آمنة فقد حملت بصاحب النصر والفتوح.

وفي الشهر الخامس دخل عليَّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا صفوة اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا هود، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بصاحب الشفاعة في اليوم المشهود.

وفي الشهر السادس دخل عليَّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا رحمة اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا إبراهيم الخليل، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بالنبي الجليل.

وفي الشهر السابع دخل عليَّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا من اختاره اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا إسماعيل الذبيح، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بالنبي المليح.

وفي الشهر الثامن دخل عليَّ رجل وهو يقول: السلام عليك يا خيرة اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا موسى بن عمران، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بمن ينزل عليه القرآن.

وفي الشهر التاسع وهو ربيع الأول دخل عليَّ رجل وهو يقول: السلام عليك دنا القرب منك يا رسول اللَّه، فقلت له: من أنت؟، قال: أنا عيسى ابن مريم، فقلت له: ما تريد؟، قال: أبشري يا آمنة فقد حملت بالنبي الأكرم والرسول الأعظم، وزال عند البأس، وجاءك السرور والهناء.

وهذا كله معنى قوله: وفي كل شهر ترى نبيًا إلخ، وقوله: فيبشرها بعبارة أخرى إلخ. ولذلك قال في "البرَّاق":

تبشرها في كل شهر أكارما   بأنك للمحبوب طه ستولدي

(فبشرى) بضم الباء الموحدة وسكون الشين المعجمة وفتح الراء، فعلى مصدر كالبشارة بكسر الباء وهي الخبر السار، وبضمها ما يعطى البشير، واسم مصدر بمعنى المبشور، والبشارة تختص بالصدق وجهل المخاطب والخبر، لأن ذلك بغير بشرة الوجه الفرح بكسر الراء، وهي في اللغة خبر بغير بشرة الوجه مطلقًا، ثم خصّت بالخبر وصارت حقيقة عرفية.

(لنا) أَيْ: معشر المسلمين والمؤمنين به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي

الحقيقة ولغيرنا، إذ بظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصلت مزايا كثيرة كالأمن من الخسف والمسخ وتأخير المقت والعذاب إلى الآخرة، وغير ذلك مما لا يحصى، ونعم كثيرة لا تستقصى.

(أجمعين) تأكيد للتاء المجرور ولذلك أكد بالياء، وقوله: (به) أي بوجوده وظهوره (وبكمالاته) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (التي هي) أَيْ: كل من الوجود والكمالات (أعظم) وأفخر وأجلّ من كل (أمنية) أي وجوده وظهوره أعظم من كل ما يتمنى ويطلب.

وهي بضم الهمزة وكسر النون وتشديد الياء التحتية وقد تخفّف، أفعولة من التمني كأضحوكة وجمعها أماني، وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى، إذا قدر مطلقًا صدقًا أو كذبًا، ولذلك تطلق على الكذب كما تطلق على الصدق.

(وهنيئًا لنا) بفتح الهاء والهناء ما أتاك بلا مشقة يقال: هنوء الشيء بالضم هناءة بالفتح والمد أَيْ: يسر من غير مشقة ولا تعب ولا عناء فهو هنيء. (بقدومه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: فالباء للسببية أَيْ: بسبب قدومه ومجيئه لنا بل (ولسائر) أي جميع (الأكوان) من إنس وملك وجان.

ثم أقسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو بار في قسمه في كون الساعة التي حمل فيها برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: (فوالله إنها) أَيْ: الساعة (لمن أعظم الأوقات) أَيْ: السعيدة (التي أعطيتها) بضم الهمزة وسكون المثناة الفوقية مبني للمجهول، و(جميع) نائب فعل، (البرية) من البر وهو الخلق أَيْ: جميع المخلوقات، وهي بفتح الباء وكسر الراء وشدة المثناة التحتية.

ثـم علّـل ذلـك بقولـه: (إذ بانــت) أَيْ: ظهـرت واتضــحت وانكشـفت وانجلت بعد الخفاء بظلمة الجهل، (به) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: بوجوده وظهوره (طرق) بضمتين جمع طريق، والمراد به الشريعة.

وقولـه: (الحـق) وهـو الإسـلام لنسـخ الشـرائع بـه، وغيـره مـن الشـرائع بالباطل إلى يوم القيامة، ونزول سيدنا عيسى عليه السلام بحكم شريعة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك لم يقبل من الكفار إلا الإسلام أو القتل إذا امتنعوا.

(و) لما ظهر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اضمحلت) أَيْ: تلاشت وتفرّقت به (سبل الخسران) السبل بضمتين بمعنى الطريق وهو جمع سبيل، والخسران بضم الخاء أحد مصادر خسر أَيْ: الضلال.

ثم شرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الباب الخامس، وهو ذكر الولادة على عادته بالانتقال بذكر الصلاة والسلام حيث قال: (اللَّهُـمَّ صَـلِّ وَسَـلِّمْ عَلَـى الـذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

وَلَمَّا جاءَ شَهْرُ وِلَادَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ عَطِيَّةً مِنَ المَلِكِ الحَقِّ الْمُتَفَضِّلِ بِتِلْكَ الهَدِيَّة ❁ أَخَذَتْ آمِنَةُ فِي أَتْعَابِ الوِلَادَةِ وَهِيَ كَلَا شَيْءَ بِالنِسْبَةِ لِمُعَالَجَةِ النِّسْوَان ❁ وَلَمْ تَزَلْ وَهِيَ فِي ذَلِكَ تَتَرَاكَمُ عَلَيْهَا الأَعْرَافُ العِطْرِيَّة ❁ وَتَزْدَادُ بُشْرَى بِقُرْبِ ظُهُورِ مُنَوِّرِ سَائِرِ البُلْدَان ❁ وَحَضَرَهَا فِي لَيْلَةِ الوِلَادَةِ بَعْضٌ مِنَ الحُورِ العِينِيَّة ❁ وَكَذَلِكَ مِنَ النِّسَاءِ آسِيَةُ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَان ❁ فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ لِتَمَامِ المُدَّةِ فِي لَيْلَةِ الاِثْنَيْنِ المَطْلِيَّة ❁ بِأَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ وَحِكَمٍ وَرَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وَغُفْرَان ❁ وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ حَاضِرَةً عِنْدَهَا أُمُّ عُثْمَانَ ابْنِ أَبِي العَاصِ ذَاتُ الحُظُوظِ الْهَنِيَّة ❁ وَالشَّفَّاءُ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ سَيِّدِ أَهْلِ الشُّكْرَان ❁ فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ فَوضَعَتْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ❁ مَخْتُونًا حِكْمَةً رَبَّانِيَّة ❁ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ سَتْرَ الدَّارَان ❁ وَقَدْ حَكَتْ أُمُّهُ عِنْدَ ذَلِكَ أُمُوراً نُورَانِيَّة ❁ وَخُرُوجَ نُورٍ مَعَهُ سَطَعَ فِي الأُفُقَان ❁ وَقَالَتْ أُمُّ عُثْمَانَ تَدَلَّتِ النُّجُومُ وَلَمْ تَنْظُرْ عِنْدَ وِلَادَتِهِ إِلَّا أَنْوَاراً عُمُومِيةً ❁ وَذلِكَ أَنَّهَا عَمَّتْ فِي سَائِرِ الكِيَان ❁ وَقَالَتْ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَمّا سَقَطَ عَلَى يَدَيَّ وَاسْتَهَلَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقْرُونَتَانِ بِالزَّكِيَّة ❁ سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ رَحِمَكَ اللَّهُ فَيَا هَنِيئاً لَهَا بِتِلْكَ المَجْلِسَان ❁ وَأَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ مِنْ أَنْوَارِهِ العَظَمُوتِيَّة ❁ حَتَّى لَقَدْ نَظَرَتْ إِلَى قُصُورِ الرُّومِ وَكَنْعَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ❁ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

لما فرغ من الكلام على حمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم على بروزه جسمًا وروحًا فقال: (ولما جاء شهر ولادته) أي خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بطن أمه، (التي هي) أَيْ: الولادة (أعظم عطية) أَيْ: هدية.

(من الملك) بفتح الميم وكسر اللام، ومعناه الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، فالأعراض لا تشغله والشواغل لا تقطعه، والعوائد لا تحجبه سبحانه وتعالى. (الحق) أَيْ: الثابت وجوده أزلاً وأبدًا، فلا يقبل الانتفاء بحال، (المتفضل) أَيْ: المنعم علينا (بتلك الهدية) المهداة إلى المخلوقات.

(أخذت آمنة) جواب لما، أَيْ: نزل بها ما ينزل بالنساء من المخاض، (في أتعاب) بفتح الهمزة جمع تعب مصدر تعب يقال: تعب كفرح تعبًا فهو تعب إذا أعيا وكلَّ، ويتعدى بالهمزة فيقال: أتعبته فهو متعب مثل أكرمته فهو مكرم، كما في "المصباح".

أي: أسباب (الولادة وهي كلا شيء) بالمناسبة وفي نسخة (بالنسبة لمعالجة النسوان) بكسر النون وضمها جمع المرأة من غير لفظها، كالنسوة بالكسر والضم، والنساء والنسبة نسوي بكسر النون وفتح السين، كما في "القاموس".

(ولم تزل) أَيْ: تستمر السيدة آمنة (وهي في ذلك تتراكم) أَيْ: تجتمع (عليها الأعراف) بفتح الهمزة وسكون العين آخره فاء جمع عَرْف بفتح العين وسكون الراء: الرائحة (العطرية) المنسوبة للعطر بكسر العين وهو

الطيب أَيْ: الروائح الحسنة الطيبة الزكية.

(وتزداد بشرى) بضم الباء بوزن فعلى، أَيْ: فرحًا وسرورًا، وفي نسخة: بِشرًا بكسر الباء والتنوين، أَيْ: طلاقة وجه. (بقرب ظهور منور سائر) أَيْ: جميع (البلدان) بكسر الباء جمع بلد، يذكر ويؤنث، والبلدة البلد وجمعها بلاد.

(وحضرها) أَيْ: حضر عندها أَيْ: آمنة في حجرتها (في ليلة الولادة بعض من) نساء (الحور العينية) بزيادة الياء والهاء، والحور بضم الهاء المهملة جمع حوراء من الحَوَر بفتحتين، وهو شدة الاتساع في العين، وقيل: شيء فيها يؤخذ بالنفوس، والعِين بكسر العين جمع عيناء بمعنى متسعة العين، فهو تأكيد لما قبله على القول الأول، بخلافه على القول الثاني.

(وكذلك) أَيْ: حضر عندها (من النساء) السيدة (آسية) بمد الهمزة وكسر السين المهملة، هي بنت مزاحم، وكانت عمة موسى فهي إسرائيلية، وقيل: أنها ابنة عم فرعون فهي من العمالقة، وهي امرأة فرعون لكن إنما تزوجها كرهًا، ولم همَّ بها أخذه اللَّه عنها، فرضيت بمجرد النظر إليها، لأنها كانت بارعة في الجمال.

وقد ادخرها اللَّه لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعلها من نسائه في الجنة، وكانت ذات فراسة صادقة ولذلك قالت في موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قرن عين لي. ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك والعذاب على النعيم الذي كانت فيه، وقيل: بنبوتها، والأصح خلافه.

(و) حضرت عندها (مريم) أم عيسى عليه السلام وهي (ابنة عمران) ومريم معناها العابدة لأنها منذورة للعبادة وهو خدمة بيت المقدس، فالاسم طابق المسمى، واسم أمها حنة بفتح الحاء وتشديد النون بنت فاقوذ امرأة عمران. وقال السيوطي: معنى بالعربية الخادم. وقيل: المرأة التي تغازل الصبيان.

وليس في القرآن من اسم النساء غيرها، وإنما ذكرت مريم باسمها على خلافة عادة الفصحاء لنكتة، وهي أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ، ولا يبتذلون أسمائهن، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والعيال ونحو لك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماهن عن الذكر.

فلما قال النصارى في مريم ما قالوا صرَّح اللَّه باسمها، ولم يكن بأكيد للعبودية التي هي صفة لها، وتأكيد لأن عيسى لا أب له ينسب إليه.

وتسمى بالبتول لانقطاعها عن الرجال، بحيث لا شهوة لها فيهم، وتمسى السيدة فاطمة الزهراء بذلك لانقطاعها عن الدنيا إلى اللَّه تعالى، والمشهور أن مريم لم تتزوج أصلاً، وقيل: أنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها.

وهي من نساء نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة كآسية، وهي من ذرية سليمان بن داود عليهما السلام، وبينها وبينه أربعة وعشرون نبيًا، وأقامت بمصر مع ولدها عيسى اثنى عشر عامًا، ثم رجعت إلى الشام، وسنها بعد رفع ولدها إلى السماء ثلاث وخمسون سنة, وتأخرت بعده

خمس سنين.

وقيل: بنبوتها كآسية. وقال القرطبي: الصحيح أن مريم نبية. وعن الأشعري أنه نبِّي هاتان وحواء وسارة وهاجر وأم موسى، والجمهور على خلاف ذلك كله. بل حكى الإجماع على عدم نبوة النساء، ولعله لم يعتد بقول المخالف.

قيل: لما حضرت ولادة آمنة قال اللَّه تعالى للملائكة: افتحوا أبواب السماء كلها، وافتحوا أبواب الجنان كلها، وألبست الشمس يومئذ نورًا عظيمًا، وكان قد أذن اللَّه تعالى تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكورًا، إكرامًا لسيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ورُوي عن كعب وابن عباس: أن آمنة كانت تقول: أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام، وقال لي: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا ولدته فسميه محمدًا واكتمي شأنك، قالت: ثم أخذني ما يأخذ النساء، ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة بفتح الواو وسكون الجيم وفتح الباء الموحدة أَيْ: سقطة عظيمة، وأمرًا عظيمًا هالني، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي، فذهب عني الرعب وكل وجع أجده، ثم التفت فإذا أنا بإناء فيه لبن أحلى من العسل، فتناولتها فأصابني نور عال.

ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً كأنهن من بنات عبد مناف، يحدقن بضم الياء أَيْ: يجتمعن حولي كالحديقة ويشتد نظرهن إليَّ، فبينما أنا أتعجب وأقول: واغوثاه من أين علمن بي. قال في غير هذه الرواية فقلن لي: نحن

آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، وهؤلاء من الحور العين. ولعل الحكمة في شهودهن كثرة الحور له في الجنة، كما أن مريم وآسية من نسائه في الجنة، كما في الحديث.

(فاشتد) أَيْ: زاد (بها الطلق) بفتح الطاء المهملة وسكون اللام، وهو ما يأخذ النساء من المخاض عند الولادة.

قالت آمنة: واشتد بي الأمر، وإني أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدّم، فبينما أنا كذلك إذ بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض، وإذ بقائل يقول: خذاه إذا وُلد عن أعين الناس.

قالت: ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات، علمًا بالمشرق وعلمًا بالمغرب، وعلمًا على ظهر الكعبة.

فأخذها المخاض (لتمام المدة) أَيْ: مدة الحمل، واختُلف في مدة الحمل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية، وقيل: تسعة أشهر كاملة وهو الصحيح، لأنها هي الأغلبية في مدة الحمل.

(في ليلة الاثنين) على المعتمد. قال ابن إسحاق: أخطأ من قال وُلد يوم الجمعة. قال ابن حجر: إنما وُلد يوم الاثنين ولم يكن يوم الجمعة.

وكان في ربيع ولم يكن في الأشهر الحرم أو في رمضان، لئلا يتوهم

أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرف بذلك الزمن الفاضل، بل وُلد في المفضول لتظهر مزيته على الفاضل، ونظير ذلك دفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة دون مكة، لأنه لو دفن بها لكان يقصد تبعًا، وأُفرد بموضوع مفضول عند أكثر العلماء ليفوق به الفاضل عن الأكثر، وليقصد قبره ومسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريق الاستقلال، أَيْ: مفرد إظهار لمزيد كرامته على ربه.

لأجل ذلك شرفت ليلة الاثنين لكونها (المطلية) أَيْ: التي طليت وزيّنت (بأنوار وأسرار وحكم) والأنوار جمع نور، والحكم جمع حكمة وهي بكسر الحاء وفتح الكاف، (ورحمة) للعالمين (ورأفة) بالمؤمنين، وكل نعمة من اللَّه تكون بواسطته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وغفران) بضم الغين المعجمة أحد مصادر غفر.

واعلم أنه اختُلف في عام ولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأكثر أنه عام الفيل، وبه قال ابن عباس، كما اختُلف في شهر ولادته، والصحيح أنه شهر ربيع كما تقدَّم.

ولذلك قال بعضهم: فقد اختُص شهر ربيع الأول بمنقبة أَيْ: مفخرة عظيمة، فاق بها على سائر الشهور، وكرامة جسيمة صار مذكورًا بها على ممر الدهور، حيث وُلد فيه من اختاره اللَّه لرسله خير خاتم، وانتخبه من ولد عبد اللَّه بن عبد المطلب بن هاشم. ولذلك قال بعضهم شعر:

لهذا الشهر في الإسلام فضل ... ومنقبة تفوق على الشهور
فمولود به واسمًا ومعنى ... وآيات بهرن لذي الظهور

ربيـــع فـــي ربيـــع فـــي ربيـــع ونـــور فـــوق نـــور فـــوق نـــور

فربيع الأول هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وربيع الثاني شهر ربيع، وربيع الثالث فصل الربيع الذي هو أعدل فصول السنة، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعدل الخلق اه.

وقال أستاذنا جد المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

صَــلَاةٌ فِــي صَــلَاةٍ فِــي سَــلَامٍ عَلَـى خَيْـرِ الـوَرَى الهَـادِي الشَّـفِيعِ
رَبِيــعٌ فِــي رَبِيــعٍ فِــي رَبِيــعٍ بِمِــيلَادِ الحَبِيــبِ المُسْــتَطِيعِ
زُهُــورٌ فِــي حِيَــاضٍ فِــي رِيَــاضٍ بِمَبْــدَأِ ذَلِــكَ النُّــورِ السَّــطِيعِ
سَــنَاءٌ فِــي ضِــيَاءٍ فِــي بَهَــاءٍ بِوَجْـهِ المُصْـطَفَى الهَـادِي البَـدِيعِ
وَنُــورٌ ثُــمَّ نُــورٌ ثُــمَّ نُــورٌ بِمَحْيَــا ذَلِــكَ الشَّــهْمِ الرَّفِيــعِ
جَمَــالٌ فِــي جَمَــالٍ فِــي جَمَــالٍ بِطَلْعَــةِ غُــرَّةِ الوَجْــهِ المَنِيــعِ
جَـلَالٌ فِـي جَـلَالٍ فِـي جَـلَالٍ لِطَـهَ المُصْـطَفَى خَيْـرِ الجَمِيـعِ
فَبُشْــرَى ثُــمَّ بُشْــرَى ثُــمَّ بُشْــرَى بِــأَعْظَمِ مُنْتَهَــى الحُسْــنِ البَــدِيعِ
وَطُــوبَى ثُــمَّ طُــوبَى ثُــمَّ طُــوبَى لَنَــا يَــا أُمَّــةَ الهَــادِي الشَّــفِيعِ
بِأَحْمَــدَ ثُــمَّ يَاسِــينٍ وَطَــهَ وَمَحْبُــوبِ العَلِــيِّ البَــارِي البَــدِيعِ
وَفَــوْزٌ ثُــمَّ سَــعْدٌ ثُــمَّ حُسْــنٌ بِمَـنْ قَـدْ دَامَ فِـي حُسْـنِ الصَّـنِيعِ
أَيَــا خَيْــرَ الأَنَــامِ لَنَــا تَشَــفَّعْ وَيَـا مَـوْلَى الكِـرَامِ فَكُـنْ شَـفِيعِي
فَعَبْــدُكَ يَــا رَسُــولَ اللهِ سِــبْطٌ وَيَرْجُــو مِنْــكَ إِيصَــالَ القَطِيــعِ
وَيَرْجُــو مِنْــكَ رُحْمَــاً ثُــمَّ قُرْبًــا وَدَفْنًــا عِنْــدَكُمْ قُــرْبَ البَقِيــعِ
وَفِــي يَــوْمِ القِيَامَــةِ عِنْــدَ هَــوْلٍ وَفِــي مَــرِّ الصِّــرَاطِ فَكُــنْ مَنِيعِــي

وَفِــي جَنَّــاتِ عَــدْنٍ فِــي رُبَــاكُمْ   وَفِــي رُؤْيَــا الإِلَــهِ فَكُــنْ جَمِيعِــي
عَلَيْــكَ اللَّهُ صَــلَّى مَــا تَغَنَّــتْ   قُمَــارَى فَــوْقَ أَغْصَــانِ الرَّبِيــعِ
وَآلٍ وَالصِّــحَابِ وَتَــابِعِيهِمْ   مَتَــى مَــا دَرَّ دَرٌّ فِــي ضَــرِيعِ
وَمَهْمَــا أَطْــرَبَ الحَــادِي وَغَنَّــى   رَبِيــعٌ فِــي رَبِيــعٍ فِــي رَبِيــعِ

واختُلف أيضًا في الوقت الذي وُلد فيه، أهو الليل أم النهار؟، والمشهور أنه يوم الاثنين. فعن أبي قتادة الأنصاري: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صيام يوم الاثنين؟، فقال: ذاك يوم ولدت فيه، وأنزلت عليَّ فيه النبوة رواه مسلم، وهذا يدل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلد نهارًا.

وفي "المسند" عن ابن عباس قال: وُلد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين، واستنبيء يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود إلى موضعه فوضعه فيه بيده يوم الاثنين اه. وكذا فتح مكة ونزول سورة المائدة يوم الاثنين.

وقد رُوي أنه وُلد يوم الاثنين عند طلوع الفجر، فعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: كان بمر الظهران موضع على مرحلة من مكة، راهب يُسمَّى عِيصا بكسر العين آخره ألف منونًا سواء قلنا: إنه أعجمي أو عربي لأنه ثلاثي ساكن الوسط كنوح وهو مصروف، كما في "الزرقاني". وعيصا من أهل الشام.

وكان يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه، فكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه.

فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم

خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فناداه، فأشرف عليه، فقال له عيصا: كن أباه، فقد وُلد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين، ويبعث يوم الاثنين، ويموت يوم الاثنين. قال: وُلد لي الليلة مع الصبح مولود، قال: فما سميته؟، قال: محمدًا، قال: واللَّه لقد كنت أتشهى أن يكون هذا المولود فيكم أهل هذا البيت، بثلاث خصال تُعَرّفه بضم الفوقية فعين مفتوحة فراء مشددة، أَيْ: تميّزه تلك الخصال وتدل على أنه ذلك المولود، فقد أتى عليهن منها: أنها طلع نجمه البارحة، وأنه ولد اليوم وأن اسمه محمد. رواه أبو جعفر بن أبي شيبة.

وقيل: كان مولده ليلة الثامن والعشرين من شهر نيسان بكسر النون، سابع الأشهر الرومية، سنة ثمانية واثنين وثمانين لذي القرنين، وأن الطالع كان عشرين درجة من برج الجدي، وأن المشتري وزحل كانا في ثلاث درج من العقرب، وهي درجة وسط السماء.

وقيل: كان وقت ذلك حين طلع الفجر بمنزلة الغَفْر، بفتح الغين المعجمة وسكون الفاء ثم راء مهملة، وهو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهو مولد النبيين. ووافق ذلك من الشهور الشمسية نيسان وهو برج الحمل، وكان لعشرين مضت منه.

وقيل: وُلد ليلاً من غير تعيين وقت ولادته، فعن عائشة: كان بمكة يهودي متجر فيها، فلما كانت الليلة التي وُلد فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا معشر قريش، هل وُلد فيكم الليلة مولود؟، قالوا: لا نعلمه، قال: وُلد في هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها

شعرات متواترات كأنهن عرف الفرس، فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه، فقالوا: أخرجي المولود ابنك، فأخرجته فكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشيًا عليه، فلما أفاق قالوا: ما لك ويلك؟، قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل. رواه الحاكم.

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: والصحيح أن ولادته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت نهارًا، قال: وأما ما رُوي من تدلي النجوم فضعَّفه ابن دحية لاقتضائه أن الولادة ليلاً. قال: وهذا لا يصح أن يكون تعليلاً، فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النجوم نهارًا.

وقال ابن حجر: فمن أطلق أنه وُلد ليلاً، أراد بالليل ما قبل طلوع الشمس، أو أراد مجاز المجاورة، وليس في رواية: أن النجوم تدلت عند ولادته، ما يدل على أن ذلك كان قبل الفجر، فيمكن تدليها حينئذ بل بعد طلوع الشمس، خرقًا للعادة للمبالغة في إكرامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أنه وُلد ليلاً.

قيل: ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من ليلة القدر، واستدل قائله بوجوه ثلاثة: الأول: أن ليلة المولد ليلة ظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليلة القدر معطاة له، وما شرف بظهور ذات المشرّف من أجله أشرف مما شرف بسبب ما أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد بهذا الاعتبار أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرّفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن شرّفت به ليلة المولد أفضل ممن

شرفت بهم ليلة القدر، على الأصح المرتضى، فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع فيها التفضيل على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليلة المولد الشريف وقع التفضيل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عزَّ وجلَّ رحمة للعالمين، فعمَّت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعمَّ نفعًا وكانت أفضل.

والحاصل أن أفضل الليالي ليلة المولد الشريف، ثم ليلة القدر، ثم ليلة الإسراء، فعرفة، فالجمعة، فنصف شعبان، فالعيد. وأفضل الأيام يوم عرفة، ثم يوم نصف شعبان، ثم يوم الجمعة، والليل أفضل من النهار.

واختُلف أيضًا في محل مولده، والمشهور بل حكى عليه الإجماع ولا اختلاف فيه بين أهل مكة، أنه محل المولد المشهور بمكة في سوق الليل آخر شعب بني هاشم، كان دار لأخي الحجاج بن يوسف وصلت إليه من ولد عقيل بن أبي طالب، وكان عقيل وضع يده عليها لما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم اشترتها الخيزران جارية المهدي أم هارون الرشيد حين حجَّت، فأفردت تلك الدار وبنتها مسجدًا لله يُصلى فيه.

ثم لا زال الخلفاء والسلاطين يتعاهدونها بالبناء والتجديد إلى الآن، وكان وراءها بركتان عظيمتان يستسقي منهما الحاج ثم خربتا، ومحلهما ظاهرإلى الآن.

ومن الغريب جدًّا ما قيل: أن المولد بردم بني جمح بمكة، وهو لبني قراد، سمي به لما ردم فيه من قتلاهم لما قاتلوا بني محارب بن فهر. قيل: ليس هو الردم المسمى بالمدعى الآن، هذا إنما كان في خلافة عمر رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُ.

وأغرب منه ما قيل: أنه ولد بعسفان، ولم يعوّل أئمتنا عليه، بل قالوا: أنه يجب الإيمان بأنه وُلد بمكة، وهذا أول واجب للأولاد على أصولهم أنهم يعلمونه لهم إذا بلغوا سبع سنين، بل قضية كلام بعضهم أن إنكار ذلك كفر، كإنكار كونه قرشيًا. كذا في "المواهب" وابن حجر في "المولد الكبير".

(وكانت إذ ذاك) أَيْ: وقت الولادة (حاضرة عندها) أَيْ: عند آمنة بالمنزل فاطمة الثقفية بنت عبد اللَّه الصحابية رضي الله تعالى عنها، (أم عثمان) الثقفي (ابن أبي العاص).

قال النووي: الجمهور على كتابة العاصي بالياء، وهو الصحيح عند أهل العربية، ويقع في كثيرًا في كتب الحديث وغيرها بحذف الياء، وهي لغة قريء بها في السبع كاالمتعال والداع ونحوهما.

(ذات) أَيْ: صاحبة (الحظوظ) بضم الحاء جمع حظ بفتحها وهو النصيب بمعنى الحصة أَيْ: صاحبة الحصص (الهنية) بفتح الهاء أَيْ: المتيسرة لها بلا مشقة ولا عناء.

(و) كانت حاضرة عندها أيضًا (الشفا) بفتح الشين مشددة وبالمد، بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة، وهي بنت عم زوجها أسلمت وهاجرت. قال ابن سعد: ماتت في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكون الفاء مشددة مع المد هو ما جرى عليه البوصيري في "همزيته" حيث قال:

وَشَفَّتْنَا بِقَوْلِهَا الشَّفَّاءُ

وصرّح البرهان ورجَّحه الشهاب في "شرح الشفا" بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء والقصر. وقال ابن الأثير في "الجامع": بالتخفيف والمد. وقال الدلجي: بفتح المعجمة وشد الفاء والمد، كالبوصيري.

(أم عبد الرحمن بن عوف) بن عبد مناف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشي الزهري، (سيد أهل الشكران) بضم الشين مصدر شكر ككفر، يقال: شَكَرَهُ وشَكَرَ اللّهَ شُكْرًا وشُكُورًا وشُكْرانًا، بالضم الشُّكْرُ: عِرْفان الإِحْسان ونَشْرُه، ومن اللَّهِ المُجازاة والثَّناء الجميل. كما في "القاموس". أَيْ: سيد أهل الاعتراف بنعم اللَّه تعالى.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ذو الهجرتين، البدري الذي صلَّى خلفه المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُتصدّق بأربعين ألف دينار، الحامل على خمسمائة فرس في سبيل اللَّه وخمسمائة راحلة. أخرجه ابن المبارك عن معمر عن الزهري.

وفي "الحلية" لأبي نعيم: أنه أعتق ثلاثين ألف نسمة. وتوفي سنة اثنتين وثلاثين على الأشهر، وله اثنتان وسبعون سنة على الأثبت، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واعلم أن وجود الشفا ووجود أم عثمان بن أبي العاص عند أمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ولادته، لا ينافي ما تقدَّم في رواية كعب الأحبار من قوله: وإني لحيدة في المنزل إلخ، لجواز وجود الشفا وأم عثمان بعد ذلك، وتأخر خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القول المذكور، حتى نزل على يد الشفا التي هي دايته كما سيأتي.

(فاشتد) أَيْ: قوي وزاد حين ولادتها، (بها) أَيْ: آمنة، (الطلق) بفتح

الطاء مصدر، طُلِقَتْ الْمَرْأَةُ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ طَلْقًا فَهِيَ مَطْلُوقَةٌ إِذَا أَخَذَهَا الْمَخَاضُ وَهُوَ وَجَعُ الْوِلَادَةِ عند تحرك الجنين للنزول، كما في "المصباح".

قال المدابغي في "مولده": تنبيهٌ: جرت العادة بقيام الناس إذا انتهى المدَّاح إلى ذكر مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بدعة مستحسنة لما فيها من إظهار الفرح والسرور والتعظيم.

قال الصرصري نفعنا اللَّه تعالى به آمين:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب ... على فضة من خط أحسن من كتب
وأن تنهض الأشراف عند سماعه ... قيامًا صفوفًا أو جثيًا على الركب
أما اللَّه تعظيمًا له كتب اسمه ... على عرشه يا رتبة سمت الرتب

وقال ابن حجر الهيتمي: أن البدعة الحسنة متفق على ندبها.

صلوا على خير الأنام محمد ... إن الصلاة عليه نور يعقد
من صلَّى قاعدًا يغفر له ... قبل القيام وللمتاب يجدد
وكذاك إن صلَّى عليه قائمًا ... يغفر له قبل القعود ويسعد

والقيام المستحب عند قوله: (فوضعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيْ: ولدته لأن الوضع هو الولادة. وهل كانت ولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموضع المعتاد أو من تحت السرة؟، ونُقل عن ابن سبع أنها كانت من تحت السرة لا من الموضع المعتاد، تنزيهًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من محل القذر، وكذا غيره من جميع إخوانه من النبيين والمرسلين.

ولعل المستبعدين لذلك يقولون: لو كان كذلك لنُقل وتواتر، لأنه لا شك أن الولادة يحضرها جمع من النساء، وهن أشد الناس حرصًا على إفشاء ما يرونه من العجب لعدم صبرهن على الكتم.

وأجيب عن ذلك: بأن هذا أمر أراده اللَّه عدم إفشائه، فلم يطلع النسوة لغفلتهن حين الولادة، مع شدة سرعة الالتئام.

ثم أنهم عند القيام اعتادوا أن ينشدوا أبياتًا ومدائح من كلام المُصنِّف، ومدائحه ويردون على أنفسهم مثل قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

صـــــلاة اللَّه مطلـــــوبي على المختـار محبـوبي
محمد ما اجتلى صوبي وهـام الجلمـد النـوبي
ملـيح القـد محبـوبي وقصـدي ثـم مرغـوبي

إلى آخر القصيدة. وأحدهم ينشد البيت وهم يردون عليه.

(مختونًا) أَيْ: على هيئة المختون، لأن الختن القطع ولا قطع هنا، ففيه مجاز علاقته المشاكلة، وهو حال من مفعول وضعته.

وإنما وُلد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختونًا لأنه في حقه غاية الكمال، فإن الغلفة تمنع كمال النظافة والطهارة، فأوجده اللَّه مكملاً سالمًا من النقائص والمعائب.

وأما العلقة التي أُخرجت من قلبه الشريف حين شقّ مرارًا، فلأنها من الباطن فلا ترد، وأُخرجت على يد جبريل لأجل أن يستحقق الناس كلام باطنه بظهور إخراجها على يد جبريل كظاهره، ولأجل أن لا يكون لأحد عليه منّة دون ربه، ولئلا يرى أحد سوءته، إذ في الغالب اطلاع الناس

عليها حين الاختتان، فهذا من كرمه على ربه كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من كرامتي على ربي أني ولدت مختونًا ولم ير أحدًا سوءتي.

وليس هذا الختان من خصوصياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في "الوشاح". وقد نظم الحافظ السيوطي في "قلائد الفوائد" من خلق مختونًا فقال:

وسبعةٌ مع عشرٍ قد رُوِي خُلقوا وهم ختانٌ فخذ لا زلت مأنوسا
محمدٌ آدم إدريس شيث ونو حٌ سام هودٌ شعيبٌ يوسف موسى
لوط سليمان يحيى صالحٌ زكر يّا وحنظلة الرسي مع عيسى

وأما إبراهيم عليه السلام فقد اختتن بالقدوم كما في "الصحيحين"، والقدوم بفتح القاف وتخفيف الدال وقيل: بتشديدها. والمراد الفأس كما في رواية ابن عساكر والأصيلي. وقيل: ليس المراد بذلك، بل المراد المكان الذي وقع الختان فيه وهو قرية بالشام. وقال الحافظ أبو نعيم: قد يتفق الأمران فيكون قد اختتن بتلك بالآلة في ذلك الموضع.

وما ذُكر من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلد مختونًا هو ما عليه أكثر العلماء، وقيل: أنه وُلد غير مختون. واختلف القائلون بهذا، فقال بعضهم: أنه ختنه جده عبد المطلب يوم سابع ولادته، وصنع له مائدة. وقال بعضهم: أنه ختنه جبريل عند حليمة السعدية حين طهر قلبه. والراجح ما عليه الأكثر، وأدلته مع ضعفها أمثل من أدلة غيرها.

وقد قال الحاكم في "المستدرك": تواترت الأخبار بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد مختونًا. وتعقّبه الذهبي في "مختصر المستدرك" فقال: ما أعلم

صحتها، فكيف يدعي تواترها؟ اه.

صحّح في "الضياء" بعضها كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من كرامتي على ربي أني ولدت مختونًا، ولم ير أحدًا سوءتي. وكقول ابن عمر: وُلد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسرورًا أَيْ: مقطوع السُّرة بضم السين، مختونًا.

وقال ابن حجر في "النعمة الكبرى": وأجيب: باحتمال أن يكون أراد بتواتر الأخبار اشتهارها وكثرتها في السير، لا من طريق السند المصطلح عليه عند أئمة الحديث.

وحكى الحافظ ابن حجر: أن العرب تزعم أن الغلام إذا وُلد في القمر كالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه وُلد في سلطانه على القول أنه لاثنتي عشرة. فسخت قلفته أَيْ: اتسعت فتقلصت عن موضعها بحيث تصير الحشفة مكشوفة فيصير كالمختون.

واعلم أن الختان هو قطع القلفة التي تغطي الحشفة من الرجل، وقطع لبعض الجلدة التي في أعلى الفرج من المرأة، ويسمى ختان الرجل إعذارًا، بالعين المهملة الساكنة قبلها ألف والذال المعجمة والراء بعدها ألف، وختان المرأة خفاضًا، بالخاء المعجمة المكسورة والفاء والضاد المعجمة.

واختلف العلماء هل هو أَيْ: الختان، لكل من الرجل والمرأة واجب أو سنة؟. فذهب أكثرهم إلى أنه سنة للرجال وليس بواجب، وهو قول مالك وأبي حنيفة، وهو من شعائر الإسلام، فلو اجتمع أهل بلدة على تركه حاربهم الإمام، فلا يترك إلا لعذر، وعذر شيخ لا يطيقه ظاهرًا.

وذهب الشافعي إلى وجوبه، وهو مقتضى قول سحنون من المالكية، وذهب بعض الشافعية إلى أنه واجب في حق الرجال، سنة في حق النساء، وهو مذهب الإمام أحمد، وعنه الوجوب فيهما.

واحتجّ من قال: إنه سنة، بحديث أبي المليح بن أسامة عن أبيه أسامة بن عمير: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الختان سنة للرجال مكرمة للنساء، رواه أحمد في "مسنده" والبيهقي. وأجاب من أوجبه بأنه ليس المراد بالسنة هنا خلاف الواجب، بل المراد الطريقة.

واحتجوا على وجوبه بقوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وذلك لأنه ثبت في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اختتن إبراهيم النبي وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم. واحتج بعضهم لوجوبه بأن بقاء القلفة يحبس النجاسة ويمنع صحة الصلاة، فتجب إزالتها.

واختلفوا في وقت الختان فقال أبو حنيفة: لا علم بي بوقته، ولم يرد عن صاحبيه فيه شيء، فلذا اختلف الأئمة الحنفية فيه، فقال بعضهم: سبع سنين، وقيل: عشر، وقيل: أقصاه اثنتا عشرة سنة، وقيل: العبرة بطاقته وهو الأوجه.

وختان المرأة ليس سنة بل مكرمة للرجال، وقيل: سنة، ومحل الوجوب بعد البلوغ على الصحيح من مذهب الشافعي، وقال بعض الشافعية: يجب على الولي أن يختن الصبي قبل البلوغ، والله أعلم.

وكره الحسن أن يختن الولد يوم السابع، لأنه فيه تشبهًا باليهود، أَيْ:

لأن إبراهيم عليه السلام لما ختن ولده إسحاق يوم سابع ولادته، اتخذه بنو إسرائيل سنة، وختن ولده إسماعيل لثلاثة عشرة سنة، فصارت سنة في ولده، يعني العرب.

وفي كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلد مختونًا (حكمة ربانية) بفتح الراء وشد الموحدة وكسر النون وشد التحتية، أَيْ: منسوبة للرب تبارك وتعالى، بزيادة ألف ونون على غير قياس.

وأخرج البيهقي عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وُلد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مختونًا مسرورًا، مقطوع السُّرة، وأعجب جده عبد المطلب وقال: ليكونن لابني هذا شأن، فكان له شأن اه.

حال كونه (شاخصًا) فهو حال مما منه الحال الأولى، وتعدد الأحوال جائز كتعدد الأخبار، وهو اسم فعل شخص يقال: شخص البصر إذا ارتفع، ويتعدّى بنفسه فيقال: شخص الرجل بصره إذا فتح عينينه لا يطرف، وربما يتعدى بالباء فيقال: شخص الرجل ببصره فهو شاخص. كما في "المصباح".

(ببصره) ينظر (إلى السماء) وفيه إشارة وإيماء إلى ارتفاع شأنه وعلو قدره، وأنه يسود الخلق أجمعين، وكان هذا من آياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أول فعل وجد منه في أول ولادته.

وفيه أيضًا إشارة وإيماء لمن تأمل إلى أن جميع ما يقوله من حين وُلد إلى حين يقبض دالٌّ على العقل، فإنه لا يزال متزايد الرفعة في كل وقت وحين، عالي الشأن على المخلوقات.

وفي رفع رأسه وشخوص بصره إلى السماء أشار البوصيري في "الهمزية" بقوله:

رافعًا رأسه وفي ذلك الرفـ ... ـع إلى كل سؤود إيماء

رامقًا طرفه إلى السماء ومرمى ... عين من شأنه العلو العلاء

أي: وضعته حالة كونه رافعًا رأسه إلى السماء،

كما رواه ابن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس: أن آمنة قالت: لما فصل مني، تعني: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء.

وفي ذلك الرفع الذي هو أول فعل وقع منه بعد بروزه إلى هذا العالم، إشارة إلى كل رفعة وسيادة على الخلق، وإلى أن شأنه وقدره يرتفع ويعلو في الدنيا والآخرة إلى مراتب لا يصلها غيره من ملك ولا جن وإنس.

وكما أن رفع رأسه إيماءً إلى ما ذُكر فكذلك نظره ببصره إلى جهة العلو إيماءً إلى أنه لا يقصد إلا أعلى المراتب، إذ من شأنه العلو والرفعة لا يقصد إلا جهاتها وما يوصل إليها دون غيرها مما لا يناسب قصده.

فائدة: قال بعض أهل الإشارات: لما وُلد عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الآية، فأخبر عن نفسه بالعبودية والرسالة، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وُلد وقع ساجدًا وخرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، وقبض قبضة من تراب، ورفع بصره إلى السماء، فكانت عبودية عيسى بالمقال وعبودية نبينا بالفعال، ورسالة عيسى

بالأخبار ورسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنوار.

وقد رُوي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدًا، ففيه إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب من ربه قرب مكانة، قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فحال عيسى عليه السلام يشير إلى مقام العبودية، وحال سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشير إلى مقام القرب من الحضرة العلية، كما قيل في هذا المعنى المثيل:

لك القرب من مولاك يا أشرف الورى وأنت لكل المرسلين ختام

عليك من اللَّه الكريم تحية مباركة مقبولة وسلام

وأنت لنا يوم القيامة شافع وأنت لكل الأنبياء إمام

ثم ذكر المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما وُعد به أولاً في قوله: وأنه يستجاب الدعاء عند ذكر الولادة، فقال: (فنسألك) أَيْ: نطلب منك (اللهم) أَيْ: يا اللَّه بجاهه عندك العظيم. ثم أن السؤال يتعدى لمفعولين الأول الكاف في نسألك والثاني قوله: (ستر) وهو بفتح السين مصدر ستر وبكسرها ما يستر به، وستر مضاف و(الداران) مضاف إليه وهو مجرور بالألف على قاعدة من يلزم المثنى والملحق به الألف في الأحوال الثلاثة.

أو على لغة من يعربه إعراب المفرد فيكون الإعراب على النون فتقول: ستر مضاف والداران مضاف إليه مجرور بكسرة ظاهرة تحت النون كما تقدَّم.

والداران: الدنيا والآخرة أَيْ: فنسألك الستر في الدنيا من الوقوع في

المخالفات ونزول الشدائد والبليات، وفي الآخرة من المؤاخذة بالأعمال السيئات.

(وقد حكت) أَيْ: حدّثت وأخبرت (أمه) السيدة آمه (عند ذلك) أَيْ: وقت وضعه (أمورًا) جمع أمر، (نوارنية) بضم النون نسبة للنور بضمها أيضًا، وهو الإنارة من الأمور، أنها قالت: رأيت جماعة قد نزلوا من السماء ومعهم ثلاثة أعلام بيض، فركزوا علمًا على ظهر الكعبة، وخصَّت به الكعبة أو مكة لأن مبدأ ظهوره منها، وعلمًا على سطح داري، وعلمًا على بيت المقدس، ودنت أَيْ: قربت مني النجوم، حتى أقول ليقعن عليَّ، وامتلأت الأرض نورًا، وفتحت أبواب السماء.

ثم عكف على منزلي طيور كثيرة، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت الديباج قد بسط بين السماء والأرض، ورأيت رجلاً كأن وجهه القمريقول: يا عز الدنيا ويا شرف الآخرة من قال بمقالتك وشهد بشهادتك، يحشر يوم القيامة تحت لوائك. قال ابن عباس: هو رضوان خازن الجنة، وهو الذي ختم بين كتفيه خاتم النبوة.

قالت: ورأيت رجالاً في الهواء بأيديهم أباريق الفضة بسلاسل الذهب، فشربت من أحدها. ثم رأيت سحابة قد أقبلت من السماء حتى غشيته فغيَّبته عني، فسمعت مناديًا ينادي: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلمون أنه سُمِّي فيها الماحي، لا يبقي شيء من الشرك إلا محي في زمنه، ثم انجلت عنه في

أسرع وقت.

(و) قد حكت أيضًا (خروج) أَيْ: ظهور (نور معه) أَيْ: مصاحب له، وفي الحقيقة هو نوره الذاتي، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نور هو أصل كل نور، فخروج النور معه كان حسيًّا لا معنويًّا، فكان له نور يعلوه، بل كان جسمه لا يرى له ظل، بل كان كالنور الصافي يرى ظاهره من باطنه وباطنه من ظاهره.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَت: بينما أنا أخيط ثوبًا فِي السحر فَوقعت مني الإبرة، وانطفأ المصباح إذ دخل رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتقطت الإبرة من نور وجهه، فقلت: يا رسول اللَّه ما أبهى وجهك وما أنور طلعتك، فقال: يا عائشة الويل كل الويل لمن لم يرني يوم القيامة، فقلت: ومن ذا الذي لا يراك يوم القيامة؟، فقال: البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل عليَّ. فالنور بالضم خلاف الظلمة وأما بفتحها فهو زهر الشجر وليس بمراد هنا.

(سطع) أَيْ: ارتفع (في) الجو وأشرقت منه (الأفقان) أَيْ: الأرض والسماء. وفي "القاموس": الأُفُق بضمتين وبضم فسكون الناحية.

واعلم أن خروج النور معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت في الروايات، فروى محمد بن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس: أن آمنة بنت وهب قالت: لما فصل مني خرج معه نور، أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمدًا على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وفي روايةٍ: أن آمنة قالت: لما ولدته خرج

من فرجي نور أضاء له قصور الشام، فولدته نظيفًا ما به قذر.

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب في شعره حيث قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرجعه من تبوك: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: قل لا يفضض الله فاك، فأنشأ يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفن وقد ألجم نسرًا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتتمًا في صلبه أنت كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأ رض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي ال نور وسبل الرشاد نخترق

وقوله: من قبلها أَيْ: النبوة أو الدنيا أو الولادة أو النزول من الجنة الأرض، فكنى عنها ولم يتقدّم لها ذكر لبيان المعنى. وقوله: في الظلال أَيْ: ظلال الجنة أَيْ: أنك كنت طيبًا في صلب آدم حيث كان في الجنة.

قال في "اللطائف": وخروج هذا النور الحسي المدرك بالبصر عند وضعه، إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك، كما قال تعالى إخبارًا عما جاء به من الأحكام حيث جعله نورًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، قال البيضاوي: يعني القرآن، فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز.

وقيل: يريد بالنور محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ بالكتاب ﴿اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ بأن من آمن به ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طريق السلامة ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته. الآية.

وقبضة التراب إشارة إلى أنه يغلب أهل الأرض، ويكون التراب من جملة معجزاته، ألا ترى أنه حثا في وجوه أعدائه قبضة من تراب ليلة الهجرة ويوم بدر وأُحُد وحُنَيْن، وللإشارة إلى الإعراض عن الدنيا، فكأنه حين رفع رأسه يقول: لا ألتفت إلى الدنيا وما فيها، فإنها كهذا التراب.

(وقالت) فاطمة الثقفية (أم عثمان) المتقدّم ذكرها (تدلّت) أَيْ: دنت وقربت (النجوم) أَيْ: الكواكب المستضيئة إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرامة له وتعظيمًا لم يقع لغيره نظيره.

ونصه كما رواه البيهقي والطبراني وابن عبد البر: عن عثمان بن أبي العاصي عن أمه أم عثمان الثقفية أنها قالت: لما حضرت ولادة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيت البيت الذي وُلد فيه حين وقع أَيْ: نزل من بطن أمه، قد امتلأ نورًا، ورأيت النجوم تدنو أَيْ: تقرب مني حتى ظننت أنها ستقع عليَّ.

(ولم تنظر) أَيْ: أم عثمان (عند ولادته) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إلا أنوارًا عمومية) خارقة للعادة، (وذلك أنها) تلك الأنوار (عمَّت) أَيْ: شملت (في سائر) أَيْ: جميع (الكيان) بفتح الكاف وبالكسر أَيْ: الجهات.

(وقالت) الشفا (أم عبد الرحمن) ابن عوف المتقدّم ذكرها، (لما سقط)

أَيْ: وقع (على يدي) أَيْ: أولاً ثم وقع على الأرض كما تقدَّم، وعُلم من ذلك أنها قابلته المعروفة بالداية، وحضور الشفا لا ينافي قول آمنة: وإني وحيدة في المنزل إلخ، لإمكان أن تكون أول الأمر كانت وحدتها ثم حضرت الشفا بعد كما تقدَّم.

(واستهلّ) بالبناء للفاعل أَيْ: رفع صوته بالبكاء عند ولادته. قال في "المغرب": أصل الإهلال والاستهلال رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم أُلحق على رؤية الهلال وعلى رفع الصوت مطلقًا، ومنه أهل المحرم بالحج أَيْ: رفع صوته بالتلبية.

واستهل الصبي إذا رفع صوته بالبكاء عند ولادته، وأما المبني للمجهول فيقال: اُسْتهلّ الهلال أَيْ: أُبصر. ولا يلزم من التشميت تقّدم العطاس.

(عليه) من الله (الصلاة والسلام) هما (مقرونتان بالزكية) أَيْ: الصالحة من زكيَّته بالتثقيل نسبة إلى الزكاء وهو الصلاح. وقوله: مقرونتان بنون ثم مثناة فوقة تثنية مقرونة، ففيه تغليب لفظ الصلاة.

(سمعت قائلاً) أَيْ: مَلَكًا (يقول: رحمك اللّه) أخذ الدلجي وغيره من ذلك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطس حين الولادة وحمد الله تعالى، ورد بأنه لا دلالة فيه على ذلك، لأنه ليس تشميتًا حقيقة، وإنما هو دعاء له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشبه التشميت.

ولذلك قال السيوطي: لم أقف في شيء من الأحاديث على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين الولادة عطس، بعد مراجعة أحاديث المولد من

مظانّها، وإنما الحديث الذي روته الشفاء فيه لفظ يشبه التشميت، لكن لم يصرح فيه بالعطاس، والمعروف في اللغة أن الاستهلال صياح المولود أول ما يولد، فإن أريد به هنا العطاس كان محتملاً، وحمل القائل على الملك ظاهر.

ولذلك قال بعضهم في "شرح الهمزية": الاستهلال وإن كان هو صياح المولود أول ما يولد إلا أن حمله هنا على العطاس قريب، كحمل القائل على الملك.

وتشميت الملك له بالقول المذكور يقتضي أنه حمد الله تعالى بعد عطاسه، لأن التشميت إنما يسن بعد حمد العاطس، فعلى هذا يكون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جملة من تكلم في المهد اه.

وسبب صياح المولد أول ما يولد أن الشيطان يمسه فيصيح من أثر مسه. وفي الحديث: لم يسلم من مسه إلا مريم وابنها. وظاهر أنه يمس غير مريم وابنها حتى الأنبياء، حتى رئيسهم الأعظم وهو نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا مانع من ذلك ولا ينافي العصمة، لأن هذا من جملة الأعراض البشرية وهي جائزة على الأنبياء، ومزية مريم وابنها بعدم مس الشيطان لا تقتضي الأفضلية.

(فهنيئًا) أَيْ: فبسبب ما حصل للشفا من الشرف الأكبر بلا مشقة، حقّ أن يقال في شأنها: هنيئًا، أَيْ: لا آفة فيه ولا نكد. (لها) أَيْ: للشفا أم عبد الرحمن (بتلك) الحضرة وثبت لها (المجلسان) أَيْ: مجلس حضورها عند آمنة، ومجلس سقوطه على يديها.

(وأضاء لها) أَيْ: لأم عبد الرحمن بسبب النور الحاصل إذ ذاك، يعني أن أم عبد الرحمن قالت: أضاء لي (ما بين المشرق والمغرب) أَيْ: ما بين آخر المشرق وآخر المغرب، والمشرق محل شروق الشمس والمغرب محل غروبها.

وقد جاء في القرآن المجيد إفرادهما وتثنيتهما وجمعهما، فالإفراد باعتبار الواقع، والتثنية باعتبار مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربهما، والجمع باعتبار البلاد التي في جهتهما، أو باعتبار تعدد المطالع والمنازل، وفيه إشارة إلى أن بعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنتشر في مشارق الأرض ومغاربها.

وقوله: (من أنواره) متعلّق بأضاء، وقوله: (العظموتية) صفة مبالغة كجبروت، والعظمة محركة الزهو أَيْ: المنظر الحسن ضياءً عظيمًا، (حتى أنها (لقد نظرت) أَيْ: أبصرت ورأت الشفا، فهي رؤية عين بصرية، واطلعت أيضًا (إلى قصور) بضم القاف جمع قصر بمعنى بيت الملك، وسميت قصور لقصور الفقراء عن تحصيلها.

أي: أضاء النور وانتشر حتى رأت قصور (الروم) وأضاءت تلك القصور من ذلك النور. والروم اسم قبيلة بأرض الشام، سميت باسم جدها وهو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

(و) نظرت أيضًا إلى قصور (كنعان) كما وقع ذلك لأمه السيدة آمنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكنعان بلدة بالشام بينها وبين الشام ثلاث مراحل على ما قيل، سميت باسم كنعان بن سام بن نوح عليه السلام.

ونص حديث الشفا ما أخرجه أبو نعيم: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أُمِّهِ الشَّفاء قَالَتْ: لَمَّا وَلَدَتْ آمِنَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ عَلَى يَدَيَّ، فَاسْتَهَلَّ، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: رَحِمَكَ اللهُ، قَالَتِ أَيْ: الشِّفَاءُ: فَأَضَاءَ لِي مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى بلاد بَعْضِ قُصُورِ الرُّومِ، ثُمَّ أَلْبَنْتُهُ بالباء والنون أَيْ: سقيته اللبن، لكن من غيرها لا منها، لأنها ليست من مرضعاته. وفي روايةٍ: ألبسته أَيْ: ألبست النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثيابه، وهو بالباء الموحدة والسين المهملة. وَأَضْجَعْتُهُ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ غَشِيَتْنِي ظُلْمَةٌ وَرُعْبٌ وَقُشْعَرِيرَةٌ بضم القاف وفتح الشين أَيْ: رعدة وانتشار شعر واختلاج أعضاء. ثُمَّ غُيِّبَ عَنِّي، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: أَيْنَ ذَهَبْتَ بِهِ؟، قَالَ: إِلَى الْمَغْرِبِ وَالْمَشْرِقِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلِ الْحَدِيثُ مِنِّي عَلَى بَالٍ حَتَّى بَعَثَهُ أَيْ: أرسله اللَّهُ، فَكُنْتُ فِي أَوَّلِ النَّاسِ إِسْلَامًا، أَيْ: فكنت مندرجة في أول من أسلم أولادًا وبادر إلى الإسلام وسيق إليه اه.

وقد أشار المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ذلك في "البرَّاق" بقوله في حرف الدال:

وُضِعْ وَمَعَهُ النُّورُ أَمْلَأَ بَيْتَهَا
بَدَا مُكْحلاً مَخْتُونَ مَخْتُومَ مَشْهَدِ

أَخَذْنَ لَهُ الْأَمْلَاكُ طَافَتْ بِهِ شَرْقَا   وَغَرْبًا وَعَمَّتْ للسَّمَا جَمْعِهَا حَقَّا
وَخَاضَتْ بِهِ الأَبْحَارَ كَيْ يَعْرِفُوا الْمُنْقَى   وَنُكِّسَتِ الأَصْنَامُ وَالطِّيبُ عَابِقَا
عَلَيْهِ مِنَ اللهِ السَّلَامُ الْمُؤَبَّدِ

والحكمة في إضاءة قصور الشام بالنور الذي خرج معه، الإشارة إلى

ما خصّ الشام من نور نبوته، وأنها دار ملكه، وأما دار خلافته فالمدينة كما في الحديث: الخلافة بالمدينة والملك بالشام، وكما ذكر كعب الأحبار فيما تقدَّم: أن في الكتب السابقة: محمد رسول الله مولده بمكة ومهاجره بيثرب، وملكه بالشام.

فمن مكة بدت نبوة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى الشام انتهى ملكه، ولهذا أسري به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الشام إلى بيت المقدس، كما هاجر قبله إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وبها ينزل السيد عيسى عليه السلام، وهي أرض المحشر والمنشر، أَيْ: الشام هي الأرض التي تجمع فيها الموتى ويساقون إليها، وهي خيرة الله من أرضه، كما في حديث صحيح: عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده. فهي أفضل البلاد بعد الحرمين، ومسجد القدس يلي الحرمين في الفضل، حتى المساجد المنسوبة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتخصيص بصرى من أرض الشام للإشارة إلى أنه يصل إليها بنفسه الكريمة، وقد كان ذلك مرتين ولم يتجاوزها، أو لأنها أول موضع من بلاد الشام دخلها ذلك النور المحمدي، ولذلك كانت أول ما افتتح من بلاد الشام، للإشارة إلى أنه ينوّر البصائر ويحيي القلوب الميتة، ولا مانع من الجمع.

ثم لما فرغ الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الكلام على ذكر الولادة، وما يتبعها مما تقدَّم، وانتقل على عادته والتبرك بصيغة الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

وَأَمَّا الَّذِي جرَى لَيْلَةَ مَوْلِدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العَجَائِبِ العَجِيبِيَّة ❁ فَأُمُورٌ دَالَّةٌ عَلَى عَظِيمِ مَكَانَتِهِ مِنَ الحقِّ وَالمَكَان ❁ كَالِارْتِجاجِ الوَاقِعِ فِي إِيوَانِ كِسْرَى ذِي البِنَاءَاتِ القَوِيَّة ❁ المَعْرُوفِ بِأَنُوشَرْوَان ❁ فَذلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ وَكُنْتَ ذَا نَظَرٍ وَبَصِيرَةٍ بَصِيرِيَّة ❁ تَرَى فِيهِ أَعْظَمَ البَشَائِرِ بِانْهِدَامِ دَعْوَةِ البُطْلَان ❁ وَغَيْضُ البُحَيْرَةِ المَعْرُوفَةِ بِنَاحِيّةِ الفُرْسِ بِطَبَرِيَّة ❁ فِيهِ مِنَ الآيَاتِ السَّاطِعَةِ بِالحَقِّ وَالبُرْهَان ❁ وَأَعْجَبُ مِنْ ذِلِكَ كُلِّه إِذَا دَقَّقْتَ خُمُودُ النَّارِ الفَارِسِيَّة ❁ فَيَا عَجَباً مِمَّنْ يَسْمَعُ مِثْلَ هَذَا وَيُكَذِّبُ فَلَيْسَ أَقْوَى مِنْهُ خُسْرَان ❁ وَكَانَ لَهَا عَلَى الصَّحِيحِ أَلْفُ عَامٍ لَمْ تَخْمَدْ لِعِبَادَتِهِمْ أَوْقَدَهَا الجَاهِلِيَّة ❁ وَقَدْ خَمِدَتْ لِظُهُورِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ النِّيرَان ❁ وَأَصْبَحَتِ الأَصْنَامُ مُنَكَّسَةً عَلَى رُءُوسِهَا لِبُدُوِّ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّة ❁ وَبُطْلَانِ عِبَادَتِهَا وَعَمَّ ذلِكَ فِي جَمِيعِ المَشْرِقَان ❁ ثُمَّ أَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ فَطَافَتْ بِهِ جَمِيعَ الأَرْضِيَّة ❁ وَعَمَّتْ بَرَكَتُهُ العُظْمَى عَلَى أَصْنَافِ الوِدْيَان ❁ وَقِيلَ دَارَتْ بِهِ كَذَلِكَ فِي العَوَالِمِ العُلْوِيَّة ❁ لِتَنَالَ مَا نَالَتْهُ الأَرَضُونَ مِنَ الفُخْرَان ❁ وَزُيِّنَتِ السَّمَاءُ لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ وَفَرِحَتْ الخَلَائِقُ المَلَكِيَّة ❁ فَكَيْفَ لَا وَمِنْ نُورِهِ خَلَقَهَا الرَّحْمَن ❁ وَعَّمتِ الأَرْضَ الزِّينَةُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ يَا مَعْشَرَ الأُمَّةِ التَّخْصِيصِيَّة ❁ وَيَحِقُّ لَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ أَنْ تُزَان ❁ وَهُوَ لِمَا عَمَّ فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ تَشَرَّفَتْ بِهَا عَلَى جَمِيعِ العَوَالِمِ الأُخْرَوِيَّة ❁ فَيَا لَهَا مِنْ مَفَاخِرَ وَلَا سِيَّمَا لِلمَوْضِعَان ❁ وَذَلِكَ حَيْثُ وُلِدَ وَنَشَأَ وَبَدَأَهُ الوَحْيُ فِي الأَرْضِ المَكِّيَّة ❁ وَحَيْثُ دُفِنَ فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ تِلْكَ الأَرْضُ الَّتِي زَادَتِ الفَخْرَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ❁ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

شرع يتكلم على ما حصل ليلة مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما حصل فيها من الإرهاصات. والإرهاص معناه: الأمر الخارق للعادة قبل النبوة، أَيْ: التأسيس للنبوة لمختار اللَّه ومجتباه.

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وأما الذي جرى) أَيْ: حصل ووقع (ليلة مولده) الشريف (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العجائب) أَيْ: الإرهاصات التي خرجت للعادة، وهي جمع عجيب كما في "القاموس" وهو الأمر الذي يتعجب منه لعظمه وغرابته.

(العجيبية) أي البالغة في العجب من خروج الأصنام وتنكيسها، واستشراف النور الذي ملأ الأفق وارتجاس الجن.

حكى السهيلي في "مختصر ابن إسحاق": أن إبليس رنَّ أَيْ: صاح حين لُعن، وحين أُهبط، وحين ولد رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحين نزلت سورة الفاتحة.

(فأمور) جواب أما، فهي أمور (دالة) أي يستدل بها (على عظيم) شأنه وارتفاع قدره وعلو (مكانته) أَيْ: مرتبته الحسية والمعنوية (من) اللَّه (الحق) جلَّ جلاله وعمَّ نواله، (و) عظم شأنه (المكان) أَيْ: المنزل الذي ضمَّ جسده الشريف، أو الذي فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهي أمور كثيرة (كالارتجاج) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، والارتجاج بجيمين بينهما ألف: التحرك والاهتزاز، ويروى ارتجاس بالسين وهو التصويت الشديد من الرعد ومن هدير البعير، فكأنه لما تحرك ظهر له صوت. والمراد به هنا الاهتزاز والتحرك.

(الواقع في إيوان) بكسر الهمزة وسكون المثناة تحت بوزن ديوان، أَيْ: الصفة العظيمة، وتجمع على إيوانات وأواوين، ويقال: إِوان بوزن كِتاب، وهو بناء عظيم يبنى طولاً غير مسدود الوجه، يعده الملك لجلوسه لتدبير ملكه.

و(كسرى) بكسر الكاف وفتحها معرب خسر وبالخاء المعجمة، ومعناه حسن الوجه وهو لقب لكل من ملك الفرس كقيصر، فإنه لقب لكل من ملك الروم، وتبع فإنه لقب لكل من ملك اليمن، ونعمان فإنه لقب لكل من ملك العرب، والنجاسي فإنه لقب لكل من ملك الحبشة، وفرعون فإنه لقب لكل من ملك القبط، والعزيز فإنه لقب لكل من ملك مصر، وجالوت فإنه لقب لكل من ملك البربر، وخاقان فإنه لقب لكل من ملك الترك.

وقوله: (ذي البناءات القوية) أَيْ: الأبنية المشيَّدة المتينة، وكان بناء ذلك الإيوان بالمدائن من العراق، محكمًا مبنيًا بالأحجار الكبار والآجر والجص، لا يعمل فيه الحديد، بناه سابور الأكناف ولم يتمه، فأتمه برو بن هرمز، ومكث في بنائه نيفًا وعشرين سنة.

وكان طوله مائة ذراع في مثلها، وكان مكتوبًا في جدرانه بدائع من الحكم المنقولة من الأولين، فمن جملة ما كُتب في الجدار الأول: لا ملك إلا بالرجال، وفي الثاني: لا رجال إلا بالمال، وفي ا الثالث: لا مال إلا من الرعايا، وفي الرابع: لا رعايا إلا بالعدل.

وقد كان بجناب الإيوان دار لامرأة، وتوقف اعتدال الإيوان على إدخالها فيه، فطلب كسرى منها ذلك فأبت فلم يجبرها، وبقي الإيوان

معوجًا، وهذا مما يدل على عدله.

ومع كون ذلك الإيوان محكم البناء الذي كان يظن به أنه لا تهدمه إلا نفخة الصور، اهتزَّ وتزلزل وسمع له صوت شديد كالرعد من زلزلته، وانشق لا لخلل حتى في بنائه شقًّا بيِّنًا آل به إلى إخرابه، وكان الشق طولاً في سقفه نحو سبعة أذرع، قدر ما يقفزه الشخص القوي.

ووقعت منه أربع عشرة شرفة بضم الشين المعجمة وسكون الراء، من شرفاته بضم الشين المعجمة والراء وتفتح وحكي سكونها، جمع شرفة بضم فسكون، وهي بناء مخصوص يجعل على الحائط للزينة، وكانت اثنين وعشرين.

وسر سقوط تلك الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه لم يبق منهم إلا أربعة عشر، وإلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، وقد ملك منهم عشرة في أربعة سنين في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأربعة إلى زمن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد فتح في زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر أقاليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، ثم قتل في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزال ملكه بالكلية، ولم يكن جميعهم ذكورًا بل كان منهم امرأتان.

ولما رأى كسرى ما وقع بإيوانه، ورأى تلك الليلة الموبذان أعلم علماء مملكته إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، أفزع كسرى ذلك، فسأل الرائي قال: حدث يكون من ناحية العرب، فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر ملك العرب أن يرسل له

أعلم من في أرضه من العرب، فبعث إليه عبد المسيح بن عمرو الغساني، وكان معمرًا فدلهم على خاله سطيح وهو بالشام، فأمره كسرى بالذهاب إليه.

فجاءه فوجده مشرفًا على الموت فقال سطيح: جاء عبد المسيح على جمل مشيح إلى خاله سطيح وقد أوفى على الضريح، بعثه ملك ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها.

يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شامًا ولا بابل للفرس مقامًا، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكلما هو آت آت، ثم قضى على سطيح مكانه. وقد أراد الخليفة هارون الرشيد هدمه لما بلغه أن تحته مال عظيم، فعجز عن هدمه.

وإنما أراد اللَّه أن يكون ذلك آية باقية مدى الدهر لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله فيما تقدَّم الموبذان بضم الميم وواوًا ساكنة وباءً موحدة مكسورة وذال معجمة: هو فقيه الفرس بضم الفاء وسكون الراء: حاكم المجوس. وفي "نهاية ابن الأثير": الموبذان للمجوس كقاضي القضاة للمسلمين، والموبذ كالقاضي للمسلمين كما في "القاموس".

وسطيح بفتح السين المهملة وكسر الطاء: المستلقي على قفاه من الزمانة، وسطيح كاهن بني ذو ذويب، يقال: كان لا عظم فيه سوى رأسه

اه.

وقوله: مشيح بضم الميم وكسر الشين المعجمة ومثناة تحتية ساكنة ثم حاء مهمل: وهو الجار المسرع، وبعبارة أخرى المشيح المواظب على الشيء، والمشيح أيضًا المعرض عن الشيء والمقبل عليه. كذا في كتاب اللغة.

وكسرى (المعروف) والمشهور (بأنوشروان) بفتح الهمزة وضم النون وفتح الشين المعجمة وسكون الراء: علم أعجمي علا ملك الفرس، ابن قياد ابن فيروز، ملك بعد ولادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين، وقتله ابن هرمز.

وقال أنو شروان: واللَّه لأقتلن قاتلي، فوضع سمًا في حق، وكتب عليه هذا دواء الجماع، فوجده هرمز وله ألف امرأة، فأكل منه فمات وتولى بعد ابنه برو وهو الذي مزَّق كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا عليه بتمزيق ملكه فقتل وتولى بعده شبريه.

ومعنى أنو شروان بالفارسية: مجدد الملك، ومعنى كسر بها: واسع الملك، وكان لأنوشروان خمسون ألف دابة وثلاثة آلاف امرأة.

(فذلك) الارتجاج والانشقاق الواقع في إيوان كسرى (إذا تأملته) أَيْ: إذا تدبرته وأعدت نظرك فيه مرة بعد أخرى، (وكنت ذا) صاحب (نظر بفتح الظاء المعجمة: البصر، (وبصيرة) هي قوة قائمة بالقلب يُدرك بها بواطن الأمور وخفياتها، كما أن العين في الرأس يُدرك بها الأمور المحسوسة أَيْ: وكنت ذا علم باطن وخبرة.

(بصيرية) وفي نسخة: وروية بفتح الراء وكسر الواو وشدة المثناة تحت، أَيْ: فكر وتدبر، (ترى) أَيْ: تبصرًا وتعلم (فيه) أَيْ: في هذا الأمر، (أعظم البشائر) جمع بشارة أو بشرى وهو الخبر السار، (بانهدام) أَيْ: بسبب سقوط (دعوة البطلان) بضم الباء أحد مصادر، يقال: بَطَلَ الشَّيْءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وَبُطُولًا وَبُطْلَانًا بِضَمِّ الْأَوَائِلِ: فَسَدَ أَوْ سَقَطَ حُكْمُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ. كما في "المصباح". ودعوة البطلان هي الأديان الفاسدة.

(و) قوله: (غيض) مبتدأ، وقوله: (البحيرة) مضاف إليه، وغيض بغين معجمة مفتوحة وضاد معجمة أيضًا بينهما ياء تحتية، مصدر غَاضَ الْمَاءُ غَيْضًا بمعنى نقص وقلَّ وقيل: جفَّ بالمرة. والبحيرة بضم الموحدة وفتح الحاء المهملة تصغير بحرة للتعظيم، وهي ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث لا تصغير بحر، لأن تصغيره بُحير.

وقوله: (المعروفة) صفة لبحيرة (بناحية) أَيْ: جهة (الفرس) بضم الفاء وسكون الراء: أمة عظيمة كان مسكنهم في شمال العراق، (بطبرية) بفتح الطاء والياء، وتسمى عين ساوة بسين مهملة وبعد الألف واو مفتوحة فهاء ساكنة: اسم لمدينة من مدن الفرس في طريق همدان، بينها وبين الري اثنان وعشرون فرسخًا تقريبًا.

وهي بحيرة كبيرة بين همدان وقم، وكانت هذه البحيرة بركة عظيمة تسير فيها السفن للبلاد التي على ساحلها، وكان طولها ستة أميال في مثلها عرضًا، وقيل: ستة فراسخ في مثلها عرضًا. وقال البكري: كان طولها عشرة أميال وعرضها ستة، وكان حولها بيع وكنائس.

وليلة ولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جفَّ ماؤها بالكلية، ولم يبق له أثر، فأصبحت يابسة كأن لم يكن بها شيء من ماء، حتى بنيت موضعها ساوة الباقية إلى اليوم.

وهذه البحيرة التي في بلاد فارس غير بحيرة التي في بلاد الشام، وغيض كليهما ثابت في الأحاديث التي نقلها السيوطي وغيره، فالتي في بلاد فارس جفَّ ماؤها بالكلية فأصبحت يابسة، والتي في بلاد الشام نقص ماؤها فقط نقصًا لا ينقص مثله في زمان طويل، وقيل: غار ماؤها ثم عاد لما فيها من العيون النابعة التي تمدها الأمطار. وهي بحيرة عظيمة يخرج منها نهر، بينها وبين الصخرة ثمانية عشر ميلاً وطولها عشرة أميال وعرضها ستة.

وطبرية بفتحتين: مدينة معروفة بالشام بناحية الأردن ذات حصن، بينها وبين بيت المقدس نحو مرحلتين، وهي من الأرض المقدسة، وبحيرتها باقية إلى اليوم، وغيضها بالكلية علامة لخروج الدجال، تيبس حتى يلا يبقى فيها قطرة، وذلك عند خروج يأجوج ومأجوج يجيء أوائلهم فيشرب ماؤها، ثم يجيء آخرهم فيقول: لقد كان بها ماء.

ترى أَيْ: تعلم (فيه) فرأى علمية أَيْ: في غيض تلك البحيرة، (من) أَيْ: بعض (الآيات) جمع آية أَيْ: العلامة الدالة على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أن يكون المراد بالآيات الأمور الخارقة للعادة لا على وجه التحدي.

(الساطعة) أَيْ: المضيئة واللامعة والمرتفعة (بالحق) هو ضد الباطل

وهو ما يوافق الاعتقاد الذهني، (والبرهان) مأخوذ من البره وهو البياض، يقال: امرأة برهاء أَيْ: بيضاء، وسمي برهانًا لأنه بيّض قلب معتقده، ويسمي دليلاً قويًا.

(وأعجب) خبر مقدم، (من ذلك) اسم الإشارة يعود على ما تقدَّم أَيْ: المذكور (كله) توكيدًا، (إذا دققت) أَيْ: تأملت بفهم زكي. وقوله: (خمود) بالرفع مبتدأ مؤخر، مصدر خمد كنصر وسمع خمدًا وخمودًا أَيْ: انطفأ، (النار) مضاف إلى خمود، وهي جسم لطيف محرق، وأما الهمود فانطفاء لهبها مع جمرها.

والمراد من النار هنا نار أعمالك، (الفارسية) صفة للنار أَيْ: المنسوبة للفرس بضم فسكون: طائفة من العجم كانوا مجوسًا يعبدون النار، ويشتد إيقادهم لها، وكان لها خدمة يوقدونها حتى كانوا يهدون إليها الحطب لوقودها، لكن لم يعبدوها في مدة ملكهم، وهي ثلاثة آلاف ومائة وأربعة وستون سنة، وإنما حدثت عبادتهم لها في أثناء تلك المدة.

ويؤيد ذلك ما صرَّح به بعض الأئمة من أن المجوس لهم شبهة كتاب، لأنه رفع كتابهم حين بدّلوه، فعبادتهم النار إنما كانت بعد التبديل.

(فيا عجبًا ممن) أَيْ: من شخص (يسمع) أَيْ: يعلم (مثل هذا) البرهان (ويكذب) بضم أوله من التكذيب، وإذا كذب (فليس أقوى) أَيْ: أشدّ وأبلغ (منه) أَيْ: التكذيب، (خسران) أَيْ: ضلال.

(وكان لها) لتلك النار (على الصحيح) من الأخبار الواردة (ألف عام) هكذا بصيغة الإفراد في ألف في رواية البيهقي، وفي عبارة بعض المؤلفين

بصيغة التثنية.

وكانت هذه المدة مدة عبادتهم للنار (لم تخمد) بضم الميم وفتحها من باب نصر وعلم، وقوله: لعبادتهم متعلّق بقوله: أوقدها أَيْ: (لعبادتهم) إياها واشتغالهم بها، (أوقدها) أشد الإيقاد ليلاً ونهارًا أهل الفرس وهم المجوسية (الجاهلية) المنسوبة للجهل وهو خلاف العلم وضده، وسموا جاهلية لكثرة جهالتهم بالله ورسوله وشرائع الإسلام.

(وقد خمدت) بفتح الخاء والميم ويصح كسرها، ومعناه انطفاء لهبها (لظهوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك النيران) التي كانوا يوقدونها ويعبدونها، وهي جمع نار باعتبار الطبقات.

ولما برز نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تغيّر كل أمر باطل، وأخمدت نار فاس التي يعبدونها ألف عام، حتى أحالت عادتهم طفوها، فلما انطفأت من بلادهم كلها وبيوتهم التي كانوا يوقدونها فيها ساعة واحدة بغير سبب، وهم يوقدونها ويعالجونها، علموا أن ذلك أمر عظيم حدث في العالم.

(وأصبحت الأصنام) وكل من يُعبد من دون الله، وهو جمع صنم وهو والوثن بمعنى واحد، وقيل: الصنم ما كان مصورًا والوثن ما كان غير مصور، وقيل: الصنم ما كان من حجر والوثن ما كان من غيره كنحاس.

حال تلك الأصنام (منكسة) بضم الميم وفتح النون وشد الكاف المفتوحة، اسم مفعول من التنكيس وهو قلب الشيء بجعل الأعلى أسفل أَيْ: مقلوبة (على رءوسها) بأن صار أعلاها أسفلها للإشارة إلى تنكيس أحوالهم.

(لبدو) بضم الباء الموحدة والدال المهملة وشد الواو أَيْ: ظهور (الملة الحنيفية) أَيْ: الشريفة المائلة عن الأديان كلها إلى الدين القوي المتين، (وبطلان) بالجر عطف على بدو أَيْ: ولبطلان (عبادتها) أَيْ: الأصنام.

(وعمَّ ذلك) المذكور من ظهور الملة الحنيفية وبطلان عبادة الأصنام (في جميع) الأرض حتى امتلأ منه (المشرقان) تثنية مشرق، وفيه تغليب المشرق على المغرب.

(ثم أخذته الملائكة) أَيْ: بعد بروزه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن أمه. أخرج هِشَام عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: كَانَ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ أَتَيَا النَّجَاشِيَّ بَعْدَ رُجُوعِ أَبْرَهَةَ، قَالَا: فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: اصْدُقَانِي أَيُّهَا الْقُرَشِيَّانِ هَلْ وُلِدَ فِيكُمْ مَوْلُودٌ أَرَادَ أَبُوهُ ذَبْحَهُ، ثم ذبح مائة من الإبل فداءً، قال: قد قُلْنَا: نَعَمْ، وَقَالَ: هَلْ وُلد له ولد؟، قُلْنَا: تَزَوَّجَ امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا آمِنَةُ وَتَرَكَهَا حَامِلًا وَخَرَجَ، قَالَ ورقة: قلت له: أيها الملك أخبرك أن ليلة بتنا عند وثننا إذ سمعت من جوفه هاتفًا يقول:

وُلِـدَ النَّبِـيُّ فَنَزَلَـتِ الْأَمْـلَاكُ وَنَـأَى الضَّـلَالُ وَأَدْبَـرَ الْإِشْـرَاكُ

ثُمَّ انْتَكَسَ الصَّنَمُ عَلَى وَجْهِهِ. فَقَالَ زَيْدُ: عِنْدِي كَخَبَرِهِ أَيُّهَا الْمَلِكُ، فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ إِذْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لَهُ جَنَاحَانِ أَخْضَرَانِ، فَوَقَفَ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ: ذَلَّ الشَّيْطَانْ، وَبَطَلَتِ الْأَوْثَانْ، وَوُلِدَ الْأَمِينُ ثُمَّ نَشَرَ ثَوْبًا مَعَهُ وَأَهْوَى بِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، فَرَأَيْتُهُ قَدْ جَلَّلَ مَا تَحْتَ السَّمَاءِ وَسَطَعَ نُورٌ كَادَ أَنْ يَخْتَطِفَ بَصَرِي وَهَالَنِي مَا رَأَيْتُ، وَخَفَقَ الْهَاتِفُ بِجَنَاحَيْهِ حَتَّى سَقَطَ عَلَى الْكَعْبَةِ، فَسَطَعَ لَهُ نُورٌ أضاءت لَهُ

تِهَامَةُ وَقَالَ: ذَكَتِ الْأَرْضُ وَأَدَّتْ رَبِيعَهَا، وَأَوْمَأَ إِلَى الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَسَقَطَتْ كُلُّهَا. قَالَ النَّجَاشِيُّ: وَيْحَكُمَا أُخْبِرُكُمَا عَمَّا أَصَابَنِي إِنِّي لَنَائِمٌ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي ذَكَرْتُمَا فِي قُبَّتِي وَقْتَ خَلْوَتِي، إِذْ خَرَجَ عَلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ عُنُقٌ وَرَأْسٌ وَهُوَ يَقُولُ: حَلَّ الْوَيْلُ بِأَصْحَابِ الْفِيلْ، رَمَتْهُمْ طَيْرٌ أَبَابِيلْ، بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلْ، هَلَكَ الْأَشْرَمْ، الْمُعْتَدِي الْمُجْرِمْ، وَوُلِدَ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْمَكِّيُّ الْحَرَمِيُّ، مَنْ أَجَابَهُ سَعِدْ، وَمَنْ أَبَاهُ عَنَدْ، ثُمَّ دَخَلَ الْأَرْضَ فَغَابَ فَذَهَبْتُ أَصِيحُ فَلَمْ أُطِقِ الْكَلَامَ، وَرُمْتُ الْقِيَامَ فَلَمْ أُطِقِ الْقِيَامَ فلم ألف، فأتاني أهلي فَقُلْتُ: احْجُبُوا عَنِّي الْحَبَشَةَ، فَحَجَبُوهُمْ عَنِّي، ثُمَّ أُطْلِقَ عَنْ لِسَانِي وَرِجْلِي إلخ الحديث.

(فطافت) أَيْ: الملائكة المقربون (به) أَيْ: بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (جميع) البقاع (الأرضية) بسكون الراء وزيادة الياء والهاء أَيْ: الأرض مشارقها ومغاربها، إنما خصت الأرض بذلك لأنها محل ظهور شريعته.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: بلغني أن مسيرة الأرض خمسمائة سنة، منها مسيرة مائة سنة عامر، ومنها مسيرة مائة سنة خراب، وثلاثمائة الباقية مجرى بحورها. أَيْ: فلا يبقى موضع من الأرض إلا ودخلوا به فيه.

(وعمَّت) أَيْ: سرت (بركته) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (العظمى) بضم العين تأنيث الأعظم، (على أصناف) جمع صنف بكسر الصاد مثل حمل وأحمال، والصنف الطائفة من كل شيء، وقيل: النوع والضرب. أَيْ: وعمَّت بركته على جميع طوائف الجهات وطوائف (الوديان) الوادي كل منفرج من

جبال أو آكام يكون منفذًا للسيل، والجمع أودية، والوديان جمع الجمع.

(وقيل: دارت به) أَيْ: طافت الملائكة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (كذلك) أَيْ: كما طافت به جميع الأرضين طافت به (في العوالم العلوية) أَيْ: صعدت به، والعلوية بضم العين المنسوبة للعلو، وهي السماوات والعرش والكرسي وسدرة المنتهى والجنة.

(لتنال) من البركة منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: لتعطى (ما نالته) ما أعطيته (الأرضون) بفتح الراء جمع أرض كما في "المصباح". وفي نسخة: ما نالته الأرض (من الفخران) بضم الفاء مصدر فخر من باب نفع، يقال: فخر يفخر فخرًا وفخرانًا مثل غفر يغفر غفرًا وغفرانًا، والاسم الفخار بالفتح وهو المباهاة بالمكارم والمناقب.

(وزيّنت السماء) بالأنوار والضياءات كما تزيّن الأمصار والمدن لقدو عظيم من الملوك، وكذلك تزيّن الملكوت (ليلة مولده) الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه عروس المملكة وإنسان عين الوجود، كما أمرها الجليل جلَّ جلاله، قيل: لما حضرت ولادة آمنة قال اللَّه تعالى للملائكة: افتحوا أبواب السماء كلها، وأبواب الجنان كلها، وألبست الشمس يومئذ نورًا عظيمًا.

(وفرحت) بكسر الراء (الخلائق الملكية) بفتح اللام أَيْ: الملائكة بأسرها، فاستبشروا بمولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحًا وسرورًا، (فكيف لا) أَيْ: فكيف لا تزيّن السماء ولا تفرح الملائكة (و) الحال أنها (من نوره) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد (خلقها) بقدرته (الرحمن) سبحانه

وتعالى المحسن الذي إذا سُئل أعطى النعم الجليلة.

(وعمَّت) أَيْ: شملت (الأرض) بالنصب مفعول، و(الزينة) بالرفع فاعل عمَّت، أَيْ: ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باليقين (من غير شك) فيما روي من ذلك، (يا معشر) أَيْ: جماعة (الأمة التخصيصية) أَيْ: المخصوصة بالإجابة، وخصهم بالخطاب لأنهم المنتفعون بذلك انتفاعًا حقيقًا تامًّا دنيويًا وأخرويًا دون غيرهم، وإن كان الغير أكثر إفرادًا.

وبعثته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاملة وعامة لجميع الموجودات حتى لمن تقدَّم من الأنبياء والمرسلين على قول قوي للإمام السبكي، وأنهم نوّابه في تبليغ الأحكام لأممهم، ونسخ بعض الشرائع ببعض لحكم اقتضاها الحال، على أنه سبحانه وتعالى يحكم لا معقب لحكمه، وكذلك مرسل للملائكة على التحقيق لكن إرسال تشريف لا إرسال تكليف.

(ويحق) مضارع من بابي ضرب وقتل أَيْ: يجب ويثبت (لها) أَيْ: الأرض، (إن كنت ذا) أَيْ: صاحب (فهم) بحلم (أن تزان) بضم المثناة الفوقية وفتح الزاي، مضارع مبني للمجهول من زان أو أزان، يقال: زان الشيء صاحبه زينًا، من باب سار، وأزانه إزانة مثله، والاسم الزينة، والزين نقيض الشين، كما في "المصباح".

(وهو) أَيْ: التزين (لما) بكسر اللام وتخفيف الميم، (عمَّ) أَيْ: شمل (فيها) أَيْ: الأرض، (من خيرات) بيان لما، (تشرفت) الأرض (بها) بخيرات (على جميع) متعلّق بتشرفت أَيْ: سائر (العوالم الأخروية) أَيْ: العلوية.

(فيا لها من مفاخر) بلا تنوين لمنعه من الصرف، أَيْ: مباهاة نالتها (ولا

سيما) أَيْ: ولا مثل شيء في المفاخر من مواضع محل ولادته ومحل دفنه اللذين هما (الموضعان).

اعلم أن لا سيما قد أفردت بالتأليف، وهي كلمة يؤتى بها للدلالة على أن ما بعدها أولى مما قبلها، نحو قولك: أكرِم العلماء لا سيما زيد، فتكون دالة على أن زيد أولى بالإكرام من غيره من العلماء. ولا نافية للجنس وسمي اسمها، وما يحتمل أن تكون زايدة فيكون ما بعدها مجرورًا بالإضافة، وأن تكون موصولة أو موصوفة فيكون ما بعدها مرفوعًا على أنه خبر مبتدأ محذوف.

والجملة صلة أو صفة، وأن تكون نكرة تامة، وعلى أنه مفعول لمحذوف وجوبًا نحو أعني إن كان معرفة، وقد يحذف ما بعدها وتجعل بمعنى خصوصًا فتكون منصوبة المحل على أنه مفعول مطلق مع بقاء نصب سي على أنه اسم لا، ويكون ما بعدها منصوبًا على الحال بالفعل الناصب لها، كقولك: أحب زيدًا لا سيما راكبًا أو في المسجد.

وفي بعض النسخ: ولا سيما للموضعان، فعلى هذا تكون بمعنى خصوصًا لأنه لم يذكر بعدها اسم مفرد بل جار ومجرور، فيكون قوله: للموضعان منصوبًا على الحال، والتقدير: اختصت الأرض بالمفاخر خصوصًا حال كون المفاخر للموضعين، وهما موضع مولده وموضع قبره الشريف، والموضعان في كلام المُصنِّف مجرور بالألف على لغة كما تقدّم من اللغات المتقدمة.

(و) أن (ذلك) الافتخار الخاص بالموضعين المذكورين (حيث) أَيْ:

الموضع الذي (وُلد) فيه بمكة (ونشأ) كبر بها (وبدأه) أَيْ: نزل له (الوحي) بالمجيء وهو (في) جهة (الأرض المكية) أَيْ: المنسوبة لمكة نسبة الجزء لكله.

(وحيث دُفن) أَيْ: بالمدينة المنورة (فيا ليتني كنت) أدفن في (تلك الأرض) أو يا ليتني كنت عين تلك الأرض (التي) أعزها الله، وبحلول حبيبه فيها قد (زادت الفخران) بضم الفاء مصدر أَيْ: زادت الشرف والافتخار على غيرها بدفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، ولذلك كانت أفضل من جميع المواضع حتى الجنة والعرش. أَيْ: فخر الدنيا والآخرة.

وقد اختلف العلماء في التفضيل بين مكة والمدينة، فقال بعضهم: أن المدينة أفضل، واستدل بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليك إلخ الحديث، فاستجاب الله دعاء رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنقله إلى أحب البلاد غليه وهو طيبة.

وقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بل مكة أفضل بأن ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾. وبكة بالباء الموحدة اسم من أسماء مكة.

ولابن زكريا هنا قياس جيد وهو قوله: شرف كل شريف بحسب القرب منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هنا أن ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من ليلة القدر، والقرن الذي كان فيه أفضل القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهكذا. ولهذا كان أفضل الصحابة أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ، لأن أبا بكر أشدهم بالقرب، واللزوم المعنوي.

وهذا الاختلاف المتقدّم في التفضيل ما عدا القبر الشريف والبقعة التي ضمَّت جسده الشريف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنها أفضل جميع الأماكن حتى من الجنة والنار والعرش كما تقدَّم وغير ذلك من الأماكن الشريفة، فإن شرف هذه الأماكن بالغ الغاية وواصل النهاية.

لكن لما كان بعض المواضع الشريفة أقرب بالمباشرة للجسد المقدّس، والجنة الشريفة المطهرة فُضّل عليها، وقد كان العرش مضطربًا ثم سكن بكتابة اسمه الشريف عليه كما في الحديث، فكيف بالمكان الذي ضمَّ أعضاءه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأي قياس بينهما في القرب، وكذلك الأرض على السماء لخلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها ودفنه فيها، مع أن السماوات محل الطاعات التي لا تشوبها معصية.

فلما كانت الأرض أقرب إليه لخلقه من جنسها، لم تقاوم جهات تفضيل الأرض، وهي جهة القرب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وانظر قول مالك رضي اللَّه تعالى عنه: أن المدينة أفضل من مكة.

مع أن مكة هي التي لها الفضل في سائر أعصار الأنبياء والمرسلين، والمشهودة، والحج والعمرة والمناسك، ومع هذا لما انتقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وصارت دار هجرته، فضلت على مكة، ولم يقاوم شرف مكة شرف المدينة التي هي أقرب إليه والاشتمال عليه.

وقول مالك أيضًا لما سئل في أفضلية خديجة وعائشة وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُن: لا أساوي ببضعة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا. وظهر بهذا أن المدينة أفضل، وكل من قرب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له الشرف

على غيره اه.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

ثُمَّ نَشَأَ مَعَ أُمِّهِ وَتُوُفِيَتْ بَعْدَ مُدَّةٍ مِن الزَّمَانِ قَلِيلِيَّة ۞ وَقَدْ تُوُفِّي أَبُوهُ قَبْلَهَا كَمَا صَحَّحَهُ الشَّهْمَان ۞ ثُمَّ تَوَجَّهَتْ بِهِ كَمَالُ العِنَايَةِ الأَبَدِيَّة ۞ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهُ بَعْضُ النِّسْوَان ۞ وَذَلِكَ إِلَى حَضْرَةِ سَيِّدَتِنَا كَامِلَةِ الحظِّ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّة ۞ فَيَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ فَاقَتْ بِهَا عَلى جَمْعٍ مِنَ الإِنْسِ وَالجَان ۞ وَحَصَلَ لَهَا مِنَ البَرَكَةِ مَا خَبَّرَتْ بِهِ فِي الدِّيَارِ الحَرَمِيَّة ۞ كَمِثْلِ دُرُورِ شَاتِهَا الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الأَلْبَان ۞ وَخِصْبِ غَنَمِهَا الَّتِي كَانَتْ لَمْ تَحْوِ شَيْئاً مِنَ المَنْفَعِيَّة ۞ فَعَادَتْ بِالإِعْطَاءِ مِمَّا جَادَ بِهِ فِيهَا الحَنَّان ۞ وَفِي سُرْعَةِ شَبَابِهِ مِنَ الغَرَائِبِ مَا حَكَتْهُ الأَفْضَلِيَّة ۞ دِلَالَاتٌ عَلَى عِظَمِ اعْتِنَاءِ البَرِّ بِهِ لِأَنَّهُ يَتِيماً كَان ۞ وَفِي الضُّحَى أَسْرَارٌ مِنَ الرَّحِيمِ الكَرِيمِ مَتْلِيَّة ۞ مِنْ إِيوَاءٍ وَإِهْدَاءٍ وَإِغْنَاءٍ وَقَدْ حَان ۞ وَفِي حُسْنِ نَشْأَتِهِ وَنَظَافَتِهِ مَعَ صِغَرِهِ تَأْدِيبُ أَدَبِيَّة ۞ وَإِصْبَاحُهُ صَقِيلاً دَهِيناً كَحِيلاً يُشِيرُ لِهَذَا الدَّوَرَان ۞ وَبَرَكَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَكْلِ مِنْ صِغَرِهِ إِذَا حَضَرَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ مَشْهُورَةٌ مَرْمُوزِيَّة ۞ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَكَلَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِهِ شَبِعُوا بِغَيْرِ تَوَان ۞ وَإِذَا غَابَ خَرَجَتْ تِلْكَ البَرَكَةُ فَلَمْ تَشْبَعِ الجَمْعِيَّة ۞ وَثَمَّ مِنْ عِظَمِ قَدْرِهِ مَا يَكِلُّ عَنْهُ الوَصْفَان ۞ فَتَأَهَّبْ بِتَفْرِيغِ سِرِّكَ لِحُبِّ هذِهِ النَّشْأَةِ المَحْفُوظِيَّة ۞ وَتَوَجَّهْ لِإِنْزَالِ المَوَدَّةِ فِيهِ سِرًّا وَإِعْلَان ۞

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ولما فرغ الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذكر العجائب والغرائب التي ظهرت عند ولادته، أخذ يتكلم على رضاعه فقال:

(ثم) للترتيب (نشأ) بفتح النون والشين المعجمة والهمز، من باب نفع أَيْ: تجدد ومكث وكبر (مع أمه) السيدة آمنة وقد (توفيت) بضم الفاء الفوقية والواو مبنيًا للمجهول، أَيْ: توفاها اللَّه، وفي نسخة: توفيت (بعد) ولادته (مدة من الزمان قليلية) أَيْ: قليلة من عمره نحو ستة أيام، وفيها خلاف؟

فقد قال في "المواهب": ولما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع سنين وهو الأشهر، وقيل: خمسًا، وقيل: ستًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا، وقيل: اثنى عشر سنة وشهرًا وعشرة أيام، ماتت أمه بالأبواء بفتح الهمزة وسكون الموحدة ممدود: واد بين مكة والمدينة، ودفنت به هذا هو المشهور، وهو قول ابن إسحاق، وجزم به العراقي وتلميذه الحافظ.

وقيل: بشعب بكسر الشين المعجمة وسكون العين المهملة: ما انفرج بين الجبلين أو الطريق في الجبل، وهو شعب أبي ذئب بالحجون بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وبالواو والنون. قال المجد: جبل بمعلاة مكة. وفي "القاموس" في فصل الراء من باب العين المهملتين في روع: ودار رائعة براء وبعد الألف تحتية، بمكة فيه مدفن آمنة أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروى ابن سعد عن ابن عباس وغيره: لما بلغ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ست سنين، خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار

بالمدينة تزورهم، ومعه حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، فنزلت به دار التابعة بفوقية فموحدة فمهملة، رجل من بني عدي بن النجار.

فأقامت به عندهم شهرًا، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر أمورًا كانت في مَقامه بضم الميم، ونظر إلى الدار فقال: هاهنا نزلت بي أمي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار. وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليَّ، قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه الدار دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم. ثم رجعت به أمه قاصدة إلى مكة سريعًا، خوفًا عليه من اليهود. فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت فيها.

وروى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علتها التي ماتت بها، ومحمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غلام يفع له خمس سنين عند رأسها، فنظرت أمه إلى وجهه ثم قالت:

بارك الله فيك من غلام ... يا ابن الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك المنعام ... فودي غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام ... إن صح ما أبصرت في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنام ... تبعث في الحل وفي الحرام
تبعث في التحقيق والإسلام ... دين أبيك البر إبراهام
فالله أنهاك عن الأصنام ... أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كثير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيرًا، وولدت طهرًا، ثم ماتت. فكنا نسمع نوح

الجن عليها فحفظنا من ذلك هذه الأبيات:

نبكـــي الفتـــاة البـــرة الأمينـــه ذات الجمـــال العفـــة الرزينـــه
زوجـــة عبـــد الله والقرينـــه أم نبـــــي الله ذي الســـــكينه
وصـــاحب المنبـــر بالمدينـــه صـــارت لـــدى حفرتهـــا رهينـــه
لـــو فوديـــت لفوديـــت ثمينـــه وللمنايـــا شـــفرة ســـنينه
لا تبـــق ظعانًـــا ولا ظعينـــه إلا أتـــت وقطعـــت وتينـــه
أمـــا حللـــت أيهـــا الحزينـــه عـن الـذي ذو العـرش يعلـي دينه
فكلنـــا والهـــة حزينـــه تبكيـــك للعطلـــة أو للزينـــه
وللضـــعيفات وللمســـكينه

فروى الطبري بسنده عن عائشة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل الحجون كئيبًا حزينًا، فأقام به ما شاء اللَّه عزَّ وجلَّ، ثم رجع مسرورًا، قال: سألت ربي فأحيا لي أمي، فآمنت بي ثم ردها. وكذا روي من حديث عائشة أيضًا إحياء أبويه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حتى آمنا به اه.

قال السهيلي: واللَّه قادر على كل شيء، له أن يخص نبيه بما شاء من فضله، وينعم عليه بما شاء من كرامته، وقد مرَّ ما يتعلّق بذلك مستوفى.

فالحذر الحذر من ذكرهما بما فيه نقص، فإذن ذلك يؤذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن العرف جار بأنه إذا ذُكر أبو الشخص بما ينقصه، أو وصُف بوصف به وذلك الوصف فيه نقص، تأذّى ولده بذكر ذلك له عند المخاطبة. وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات رواه الطبراني.

ولقد أطنب بعض العلماء في الاستدلال لإيمانهما، فالله يثيبه على قصده الجميل. وقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله تعالى حيث قال:

حبا الله النبي مزيد فضل ... على فضل وكان به رؤوفا
فأحيا أمه وكذا أباه ... لإيمان به فضلاً منيفا
فسلِّمْ فالقديم بذا قدير ... وإن كان الحديث به ضعيفا

ولعل هذا الحديث صحَّ عن أهل الحقيقة بطريق الكشف، كما أشار إليه بعضهم بقوله:

أيقنت أن أبا النبي وأمه ... أحياهما الرب الكريم الباري
حتى له شهدا بصدق رسالة ... صدق فتلك كرامة المختار
هذا الحديث ومن يقول بضعفه ... فهو الضعيف عن الحقيقة عاري

وقد ألَّف الجلال السيوطي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما يتعلّق بنجاتهما مؤلفات كثيرة، فجزاه الله خيرًا، وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول لها: أنت أمي بعد أمي.

(وقد توفي) بضم التاء والواو أَيْ: مات (أبوه) السيد عبد الله بن عبد المطلب، عن خمس وعشرين سنة أو عن ثلاثين سنة أو عن ثمان وعشرين أو عن ثمان عشرة سنة، وهو الذي صححه الحافظ العلائي والحافظ ابن حجر واختاره السيوطي.

(قبلها) قبل السيدة آمنة، أَيْ: وهي حامل به حين تمّ لها من حملها شهران، وقيل: قبل ولادته بشهرين، وقيل: توفي أبوه عبد الله وهو صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهد ابن شهرين، وقيل: ابن سبعة أشهر، وقيل: هو ابن ثمانية وعشرين شهرًا.

وكان عبد الله رجع من غزة ضعيفًا مع قريش، لما رجعوا من تجارتهم، ومروا بمدينة يثرب، فتخلّف عند أخواله أَيْ: أخوال أبيه بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضًا شهرًا، فلما قدم أصحابه مكة سألهم عبد المطلب عنه فقالوا: خلفناه مريضًا، فبعث عبد المطلب إليه أخاه الحارث فوجده قد توفي بها أَيْ: المدينة، ودفن في دار النابغة، وقيل: دفن بالأبواء.

وقالت آمنة زوجته ترثيه:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم وجاور لحدًا خارجًا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تعاوره أصحابه في التزاحم
فإنك تك غالته المنون وريبها فقد كان معطاء كثير التراحم

ويذكرعن ابن عباس: أنه لما توفي عبد الله قالت الملائكة: إلهنا وسيدنا بقي نبيك يتيمًا، فقال اللَّه تعالى: أنا له حافظ ونصير.

وقيل لجعفر الصادق: لم يتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. وليعلم أن العزيز من أعزَّه اللَّه، ولتظهر معجزته في كونه على أحسن حال وتأديب، قال اللَّه تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين، وقيل: أكثر، وقيل: أقل، مات جده عبد المطلب كافله، عن مائة سنة وعشرة وقيل: وأربعين، ودُفن

بالحجون فكفله عمه شقيق أبيه عبد مناف أبو طالب بوصية من عبد المطلب.

(كما صحَّحه) ابن كثير ورجّحه الواقدي لأنهما هما (الشهمان) وكذا رجحّه ابن سعد والبلاذري والذهبي، وذكره الزرقاني "على المواهب". والشهمان بفتح الشين المعجمة وكسر الهاء تثنية شهم بفتح فكسر، أَيْ: بطل والبطل القوي الشجاع، فهو إما تشبيه بليغ أو استعارة تصريحية، وقيل: معناه الزكي الفؤاد.

واعلم أن أول من أرضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمه السيدة آمنة، أرضعته سبعة أو تسعة أيام. ثم أرضعته ثويبة بضم المثلثة وفتح الواو وسكون التحتية فباء موحدة فتاء تأنيث، عتيقة أبي لهب، أرضعته أيامًا قلائل بعد إرضاع أمه له، قبل أن تقدم حليمة، بلبن ابنها مسروح بفتح الميم وسكون السين المهملة وراء مضمومة فحاء مهملتين.

أعتقها أبو لهب حين بشَّرته بولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت له: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلامًا لأخيك عبد الله، فقال لها: اذهبي فأنت حرة.

وقد رآه أخوه العباس في النوم بعد موته بسنة في شر حال، فقال له: ما حالك؟، قال: في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين، وأمص من بين أصبعي هاتين ماء، وأشار أبو لهب برأس أصبعه إلى النقرة التي بين السبابة والإبهام، وأن ذلك بإعتاقي لثويبة حين بشَّرتني بولادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبأمري لها بإرضاعه.

ثـم أرضـعنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثـلاث بنـات أبكـار مـن بنـي سـليم، فأخرجن ثديهن فوضعنه في فيه الشريف واحدة بعد أخرى، فنزل اللبن ودرَّ فرضع منهن. وهؤلاء الأبكار كل واحدة منهن تسمى عاتكة، وهن اللاتي عناهن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: أنا ابن العواتك من سليم.

وأرضعته أم فروة، وأرضعته خولة بنت المنذر الأنصارية، وأرضعته أم أيمن بركة الحبشية، والمشهور أنها من الحواضن لا المراضع. وقد ذكر العلماء جملة مرضعاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة، نظمها بعضهم بقوله:

إن رمت تحفظ مرضعات المصطفى ... خـذهن بالترتيـب فـي التبيـان

أم لـه وكـذا ثويبـة يـا فتـى ... وحليمـة نالـت رضـا الـرحمن

وكـذلك امـرأة لحمـزة أرضـعت ... وثـلاث أبكـار روى فـي الشـان

مـع أم فـروة أم أيمـن بعـدها ... مـع خولـة تشـرفن بالعـدنان

وذكر الحافظ أبو بكر ابن العربي في "سراج المريدين": أنه لم ترضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرضعة إلا أسلمت. ونقله السيوطي عن بعضهم.

واقتصـر المُصـنِّف علـى حليمـة لأنهـا هـي التـي اسـتقلت بإرضـاعه، وهـؤلاء لـم يتصـفن بـذلك، وللنـزاع فـي خولـة وأم أيمـن، وأمـا إرضـاع العواتك فإنما هو اتفاقي خصوصًا وقد كن أبكارًا، وأما ثويبة وإن قلت أيام رضاعها فليست مستقلة به فيها، وأما أمه وإن أرضعته تلك المدة فهي في معرض دفعه لمرضعة فلم تستقل به.

(ثم) من بعد هؤلاء النسوة اللاتي أرضعنه (توجهـت بـه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كمـال العنايـة) بكسـر العـين المهملـة: الهمـة والإعانـة والعصـمة

السابقة في الأزل. (الأبدية) المنسوبة للأبد، وهو الدهر الطويل الذي ليس بمحدود، والفرق بين الأزل والأبد وما لا يزال، أن الأزل هو وجود اللَّه وحده ولا شيء معه، وبعد النور المحمدي هو ما لا يزال إلى يوم القيامة، ثم بعده الأبد إلى ما لا نهاية له.

(بعد أن تركه) أعرض عنه (بعض النسوان) بكسر النون وضمها كالنسوة، أَيْ: لا واحد له من لفظه كذلك النساء، كما في "القاموس". والمراد بهن المراضع، وكان إذا عرض عليهن يتركنه ويأبين أخذه ليتمه، ويقلن: إنما تركناه لأنا إنما نبغي الرضعاء رجاءً للمعروف من آبائهم، وأما الأم والجد فما عسى أن يصنعا.

وذلك أن عادة نساء القبائل التي حول مكة ونواحي الحرم، كن يأتين إلى مكة كل عام مرتين ربيعًا وخريفًا للرضعاء، ويذهبن بهم إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وكان عادة نساء قريش دفع أولادهن إلى المراضع، لأن إرضاع المرأة ولدها عار عندهم، ولينشأ الولد عربيًا، فيكون أنجب ولسانه أفصح كما في الحديث: أنا أعربكم، أنا من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر، وكانت مشهورة في العرب بالكمال وتمام الشرف.

وقال ابن إسحاق: شبَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلاءة اللَّه له، ويحفظه ويحوطه من أقوال الجاهلية، كما به من كرامته حتى بلغ، وكان يتيمًا فأواه، وعائلاً فأغناه اه.

(و) كان (ذلك) التوجه (إلى حضرة سيدتنا كاملة الحظ) أَيْ: النصيب

الوافر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدارين، وفيه إيماء إلى إسلامها، لأن الكافر لا يقال في حقه سيدنا، خلافًا لمن توقف في إسلامها.

(حليمة) بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث، وقيل: الحارث بن عبد اللَّه، وتكنى أم كبشة باسم بنت لها يقال لها كبشة. (السعدية) بفتح السين المهملة وسكن العين المهملة وشد المثناة تحت، أَيْ: المنسوبة إلى سعد بن أبي بكر، ونسبت إليه مع أنه الجد التاسع، لأنه أشهر وبه عرفت القبيلة، وزوجها منهم أيضًا.

والمنسوبة للسعد الذي حصل لها ببركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الأحسن، ومن سعادتها توفيقها للإسلام كما تقدَّم، وزوجها الحارث وبنوها وهم: عبد اللَّه والشيماء وأنيسة.

وقد ذُكر أنه لما وُلد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيل: من يكفل هذه الدرة اليتيمة التي لم يوجد لمثلها قيمة؟، فقالت الطيور: نحن نكفله ونغتنم خدمته العظيمة، وقالت الوحوش: نحن أولى بذلك ننال شرفه وتعظيمه.

فنادى لسان القدرة أن: يا جميع المخلوقات إن اللَّه كتب في سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعًا لحليمة بنت أبي ذؤيب. ذُكر أن عبد المطلب سمع وقت دخول حليمة هاتفًا يقول:

إن ابـن آمنـة الأمـين محمـدا   خيـر الأنـام وخيـرة الأخيـار

مـا أن لـه غيـر حليمـة مرضـع   نعـم الأمينـة هـي علـى الأبـرار

مأمونـة مـن كـل عيـب فـاحش   ونقيـــة الأثـــواب والأزرار

لا تسـلمنه إلـى سـواها إنـه   أمـر وحكـم جـاء مـن الجبـار

وقوله: (فيا لها) كلمة تعجب والنداء للتعجب إذ لا ينادى إلا العاقل أو المنزل منزلته، والعرب إذا استعظمت أن ابن سيا نادته على سبيل التعجب. وفيه مجاز لتنبيه ما تعجب منه لعظمته بمنادى يسمع ويعقل.

والتقدير فيا متعجبًا تأمل ما استقر لها (من سعادة) أَيْ: خير وحسن حال وبركة (فاقت) أَيْ: علت وتميّزت (على جميع) كثير (من الإنس والجان).

وقد تقدَّم أن من سعادتها بل أعظمها توفيقها للإسلام للإسلام هي وزوجها وبنوها، وردَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبي هوازن إليهم بواسطة كونهم قومها، وكانت تقدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكرم مثواها.

(وحصل لها) أَيْ: لحليمة (من البركة) أَيْ: الزيادة والنمو والخير العميم والفضل الجسيم لرضاعها المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه مزية اختصت بها دون غيرها، (ما خبّرت) أَيْ: الذي خبّرت (به) وخبرّت بفتح الخاء المعجمة وتشديد الباء الموحدة مبنيًا للفاعل، أَيْ: حدّثت حين رجوعها به إلى أمه السيدة آمنة بعد فصاله وهو ابن سنتين.

(في الديار الحرمية) أَيْ: المنسوبة للحرم، (كمثل درور) أَيْ: امتلأ ضرع (شاتها) باللبن. وَالشَّاةُ مِنْ الْغَنَمِ تَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَيُقَالُ: هَذَا شَاةٌ لِلذَّكَرِ وَهَذِهِ شَاةٌ لِلْأُنْثَى، وَتَصْغِيرُهَا شُوَيْهَةٌ، وَالْجَمْعُ شَاءٌ وَشِيَاهٌ بِالْهَاءِ رُجُوعًا إلَى الْأَصْلِ كَمَا قِيلَ شَفَةٌ وَشِفَاهٌ، وَيُقَالُ: أَصْلُهَا شَاهَةٌ مِثْلُ عَاهَةٍ. كما في "المصباح".

(التي لم يكن) يوجد (فيها) قبل ذلك (شيء من الألبان) لكبر سنها

ووهنها، والألبان بفتح الهمزة جمع لبن بفتحتين مثل سبب وأسباب، (و) كمثل (خصب) بكر الخاء المعجمة وسكون الصاد المهملة، هو كثرة الثمار ونحوها.

قال في "المصباح": الْخِصْبُ وِزَانُ حِمْلٍ النَّمَاءُ وَالْبَرَكَةُ، وَهُوَ خِلَافُ الْجَدْبِ، وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَخْصَبَ الْمَكَانُ فَهُوَ مُخْصِبٌ، وَفِي لُغَةٍ: مِنْ خَصِبَ يَخْصَبُ مِنْ بَابِ تَعِبَ فَهُوَ خَصِيبٌ، وَأَخْصَبَ اللَّهُ الْمَوْضِعَ إِذَا أَنْبَتَ بِهِ الْعُشْبَ وَالْكَلَأَ اه.

أي: اتساع وكثرة وحصول البركة ونمو (غنمها) بفتحتين اسم جنس لا واحد له من لفظه، فلا يقال: غنمة، ويطلق على الضأن والمعز، وقد تجمع على أغنام، وتقول العرب: راح على فلان غنمان أَيْ: قطيعان من الغنم كل قطيع منفرد بمرعى وراع.

أي: الغنم (التي كانت) موجودة عندها، و(لم تحو) بفتح المثناة الفوقية مضارع حوى، يقال: حويت الشيء أحويه حوايةً، واحتويت عليه إذا ضممته واستوليت عليه.

أي: لم تجمع (شيئًا من المنفعية) أَيْ: المنفعة بالكلية لهزالها، (فعادت) أَيْ: رجعت (بالإعطاء) للخير (مما) أَيْ: من بعض الخير الذي (جاد) أَيْ: تكرَّم وتفضَّل (به فيها) أَيْ: في الغنم، (الحنَّان) معناه الرحيم أو الذي يقبل على من أعرض عنه.

وقد أشار المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قصة حليمة في "البرَّاق" في حرف الزاي بقوله:

تَرَبَّى يَتِيمًا خَيْرُ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى وَمَعْ ذَاكَ مَحْمُودُ السَّجَايَا كَمَا تَرَى
مِنَ القِصَصِ المَشْهُورَةِ الغُرِّ مَنْ قَرَأَ لِآيِ الضُّحَى يَعْلَمْ مَقَامَ عُلَا العُرَى
فَبِاللَّهِ فِي صِغَرٍ وَكِبَرٍ لَهُ العِزُّ
أَتَتْهُ فَتَاةٌ فِي الفُتُوَّةِ حَظُّهَا عَظِيمٌ حَلِيمَةٌ جَاءَ حِلْمٌ لِاِسْمِهَا
وَمِنْ آلِ سَعْدٍ أُسْعِدَتْ بَانَ فَوْزُهَا بِاِسْمٍ وَاِسْمُ الجَدِّ عَظَّمَ قَسْمَهَا
بِإِرْضَاعِهَا لِلنُّورِ بِالنُّورِ يَنْهَزُّ
أَتَتْهُ مِنَ الأَمْلَاكِ اِثْنَانِ أَوْ جَمْعَا لَدَيْهَا مِنَ الأَعْوَامِ أَرْبَعُ مُتْبِعَا
فَشَقَّا لِصَدْرٍ بِالفَضَائِلِ سَاطِعَا وَلِلمُضْغَةِ السَّوْدَاءِ أَخْرَجَ نَافِعَا
وَرَدُّوهُ بَعْدَ الخَتْمِ بِالسِّرِّ مُرْتَزُّ
وَمِنْ بَعْدِ ذَا رَدَّتْهُ لِلأَهْلِ لَمْ تَكَدْ تَجُودُ بِهِ لَكِنْ أَرَادُوهُ فَاعْتَضَدْ
بِرَبِّ العُلَا وَنَشَأَ كَرِيمًا وَمُرْتَشَدْ إِلَى أَنْ أَظَلَّتْهُ الغَمَامَةُ فَارْتَصَدْ
لِوَحْيٍ وَجَاءَ الفَيْضُ يَبْدُو لَهُ نَزُّ

إلى آخر الحرف.

وحاصل هذه القصة وأصلها ما رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قدمت إلى مكة في نسوة من بني سعد، نلتمس الرضعاء، وكان قدومنا في سنة شهباء ذات قحط وجدب، على أتان لي، ومعي صبي لنا، وشارف لنا مسنة، ما تبض بقطرة لبن، وما ننام ليلنا ذلك أجمع لشدة الجوع مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغذيه، ولا في شارفنا ما يغذيه.

وما علمت امرأة منا إلا وقد عُرض عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فتأباه، إذ قيل: إنه يتيم، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعًا غيري، فلم آخذ لأني لم أعط لما أنا عليه من الضيق. فقلت لزوجي الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك المولود الذي عرض جده عليَّ، وقلت له: ألا تذرني أراجع صاحبي، فلآخذنه. فقال لها الحارث: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت: فذهبت إليه فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضراء، راقد على قفاه، يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويدًا فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكًا، وفتح عينيه لينظر إليَّ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر، فقبّلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحوّلته إلى الأيسر فأبى أن يرضعه، واستمر على هذه الحالة بعد ذلك. قال العلماء: لأن الله ألهمه أن له شريكًا فألهمه العدل، وأخذ الأيمن لأنه كان يحب التيامن في أموره كلها.

قالت حليمة: فروي وروي أخوه، ثم أخذته بما هو مشتمل عليه إلى أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي.

فقام صاحبي تعني زوجها إلى شارفنا تلك، فإذا أنها لحافل بحاء مهملة وفاء: ممتلئة الضرع من اللبن، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليمة، والله إني لأراك قد أخذت نسمة

مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من البركة والخير حين أخذناه، قالت: فلم يزل اللَّه يزيدنا خيرًا.

فلما نظر صاحبي إلى هذا قال: اسكتي واكتمي أمرك، فمن ليلة ولد هذا الغلام أصبحت الأحبار قوامًا على أقدامها، لا يهنؤها عيش النهار ولا نوم الليل.

قالت حليمة: فمكثنا بمكة ثلاث ليال، وودعت أنا أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ركبت أتاني، وأخذت محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي، فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات، ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت حتى سبقت دواب الناس الذين كانوا معي، وصار الناس يتعجبون مني ويقلن النساء لي وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب أهذه أتانك التي كنت عليها وأنت جائية معنا تخفضك طورًا وترفعك أخرى؟، فأقول: تاللَّه إنها هي، فيتعجبن منها ويقلن: إن لها لشأنًا عظيمًا.

قالت: فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول: واللَّه إن لي لشأنًا ثم شأنًا، بعثني اللَّه بعد موتي وردّ لي سمني بعد هزالي، ويحكن يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة، وهل تدرين من على ظهري؟، على ظهري خيار النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين.

ثم قالت: ثم قدمنا منازل بني سعد، ولا أعلم أرضًا من أرض اللَّه أجدب منها، فكانت غنمي تروح علي شباعًا لُبَّنًا حين قدمنا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في

ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح أغنامي شباعًا لُبَّنًا.

قالت: فلم نزل نعرف من اللَّه تعالى الزيادة والخير، حتى تمّت سنتاه وفصلته، فللَّه درها من بركة كثرت بها مواشي حليمة ونمت وارتفع قدرها به وسمت، فلم تزل حليمة تتعرف الخير والسعادة وتفوز منه بالحسنى وزيادة. شعر:

لقد بلغت بالهاشمي حليمة   مقامًا علا في ذروة العز والمجد
وزادت مواشيها وأخصب ربعها   وقد عم هذا السعد كل بني سعد

وقد أشار الفاضل البوصيري في "همزيته" إلى ذلك في قوله:

وبدت في رضاعه معجزات   ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات   قلن ما في اليتيم عنّا غناء
أرضعته لبانها فسقتها   وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت شولاً عجافًا وأمست   ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل   إذ غدا للنبي منها غذاء

(وفي سرعة شبابه) بفتح الشين المعجمة أَيْ: نموه وزيادته، (من الغرائب) جمع غريبة وهي الشيء الذي لم يعهد مثله التي لم تسع ولا تسمع لأحد قبله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ما) أَيْ: الذي (حكته) أَيْ: حدّثت به العلماء المحدّثون أولو الصدق و(الأفضلية) أَيْ: الأفاضل، أَيْ: وأخبرت عنه حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

وقالت: لم نزل نتعرف من اللَّه الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشبّ شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتاه حتى كان غلامًا جفرًا، والجفر ما بعد المعظوم، لأن العرب تسمي الولد في بطن أمه جنينًا، وبعد الولادة منفوسًا ثم مغطومًا ثم جفرًا ثم مراهقًا، وسرعة شبابه وكمال عقله من صغره لينال الفضائل كرامة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه (دلالات) إشارات واضحات جمع دلالة بكسر الدال وفتحها، وعلامات (على عظم) كثير (اعتناء) أَيْ: اهتمام وحسن رعاية اللَّه (البر) بفتح الباء وهو اسم من أسماء اللَّه الحسنى، ومعناه البِر بكسرها، وقيل: هو الذي مَنَّ على السائلين بحسن عطائه وعلى العابدين بجميل جزائه، وقيل: الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان.

فقد اعتنى (به) ربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لأنه) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يتيمًا كان) أَيْ: بموت والده السيد عبد اللَّه كما سبقت به الإرادة المنزهة عن الأغراض.

قال في "شواهد النبوة": روي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صار ابن شهرين كان يتزحلق مع الصبيان إلى كل جانب، وفي ثلاثة أشهر كان يقوم على قدميه، وفي أربعة كان يمسك الجدار ويمشي، وفي خمسة حصلت له القدرة على المشي، ولما تمّ له ستة أشهر كان يسرع في المشي، وفي سبعة أشهر كان يسعى ويغدو إلى كل جانب، ولما مضى له ثمانية أشهر شرع يتكلم بكلام فصيح، وفي عشرة أشهر كان يرمي بالسهام مع الصبيان.

(وفي) سورة (الضحى أسرار) بفتح الهمزة جمع سر، (من الرحيم) المنعم بالنعم كلها دقائقها وجلائلها، (الكريم) الذي يعطي النوال من غير سؤال، (متلية) مقروءة في القرآن الشريف، وهي قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أَيْ: ما تركك منذ اختارك، ﴿وَمَا قَلَى﴾ أَيْ: ما أبغضك منذ أحبك، وإنما قال قلى ولم يقل قلاك لموافقة رءوس الآي، وقيل: وما قلى أَيْ: ما أبغض أحدًا من أصحابك ومن هو على دينك إلأى يوم القيامة.

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري: عَنْ جُنْدُب بْن سُفْيَان قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتِ أم جميل امْرَأَة أبي لهب فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ. فَنَزَلَت: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾. أَيْ: الذي أعطاك ربك في الآخرة خير لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا.

وروى البغوي بسنده عَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ اخْتَارَ اللَّهُ لَنَا الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا.

قال البقاعي: أن الناس على أربعة أقسام: منهم من له صورة خير في الدنيا وشر الآخرة وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء، منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو الشفاعة في أمته حتى يرضى.

روى مسلم: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ.

وروى البخاري ومسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا.

وأخرج الترمذي: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَتَانِي آتٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يُدْخِلَ نِصْفَ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ لِمَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا.

قَالَ حَرْبُ بْنُ شُرَيْحٍ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْعِرَاقِ تَقُولُونَ: أَرْجَى آيَةٍ فِي القرآن: ﴿قل يا عبادي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وَإِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ نَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وقيل في معنى الآية ولسوف يعطيك ربك من مِنَ الثَّوَابِ فترضى.

وَقِيلَ: مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَكَثْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَرْضَى.

وقيل: حمل الآية على خير الدنيا والآخرة معًا أولى، وذلك أن اللَّه عزَّ وجلَّ أعطاه في الدنيا القرآن والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في دين اللَّه أفواجًا، والغلبة على بني قريظة والنضير،

وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وما قذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وإعطاؤه في الآخرة الشفاعة العامة والخاصة، والمقام المحمود، والوسيلة في الجنة، والدرجة الرفيعة، والكوثر.

وقال ابن عباس: يعطيه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلَّت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كل ما يرضيه. وأما ما يفتريه الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات اللَّه وسلامه عليه يرضي بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحد لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدًا يشفع فيهم، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحدًا من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء اللَّه أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

وبيَّنَ المُصنِّف الأسرار المتلية بقوله: (من إيوان) إلخ بكسر الهمزة كإكرام مصدر آواه يؤويه رباعيًا، وأصل آوى بالمد أأوى بهمزتين قلبت الثانية ألفًا، وهو بوزن أكرم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ أَيْ: ألم يعلمك اللَّه يتيمًا من الوجود الذي هو بمعنى العلم، والمعنى ألم أجدك

يتيمًا صغيرًا حين مات أبوك، ولم يخلف لك مالاً ولا مأوى، فجعلت لك مأوى تأوي إليه، وضممتك إلى عمك أبي طالب، حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة.

وذلك أن عبد اللَّه مات ورسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمل، فكفله جده عبد المطلب، فلما مات عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب إلى أن قوي واشتد وتزوّج خديجة وبعثه اللَّه نبيًّا.

وقيل: هو من قولهم: درة يتيمة أَيْ: ألم أجدك واحدًا في أرض قريش، عديم النظير فآواك إليه، وشرّفك بنبوته واصطفاك برسالته.

(و) من (إهداء) مصدر أهدى الرباعي. قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾. اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ضلَّ لحظة واحدة قط، وهل هو جائز عقلًا على الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين قبل النبوة؟. قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلًا لما فيه من التنفير.

وعند أصحابنا: أنه جائز في العقول، ثم يكرم اللَّه من أراده بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع لنبي، قال اللَّه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾، قاله الإمام فخر الدين.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبي في "الشفا": والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل باللَّه تعالى وصفاته، والتشكيك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على أسرار إشراق

أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدًا نبيء واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل.

ثم قال: وقد استبان لك مما قررناه ما هو الحق من عصمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلًا وإجماعًا، وقبلها سمعًا ونقلًا، ولا بشيء مما قرره من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعًا، عقلاً وشرعًا، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله، قصدًا أو غير قصدًا، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا، ونظرًا وبرهانًا، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعًا، وتنزيهه عن الكبائر إجماعًا، وعن الصغائر تحقيقًا، وعن استدامة السهو والغفلة، والشهوة واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضا وغضب، وجد ومزح، ما يجب لك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين.

فإن من يجهل ما يجب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يجوز أو يتسحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هو عليه، ولا ينزهه عما لا يجوز أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظن الباطل به، واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه دار البوار.

وقداستدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر، بالمصير إلى امتثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقًا، وجمهور الفقهاء على ذلك

من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة بل مطلقًا عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله بقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية اه.

واختلف في تفسير هذه الآية على وجوه كثيرة: فأكثر المفسرين أنه كان ضالًا عما هو عليه الآن من الشريعة، فهداه الله تعالى إليها، فالمراد بضلاله كونه من غير شريعة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أَيْ: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، قاله السمرقندي.

وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فقد كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قبل مؤمنًا بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل، فازداد بالتكاليف إيمانًا.

وقيل: الضلال بمعنى الغفلة كقوله تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أَيْ: لا يغفل، وقال تعالى في حق نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أَيْ: فِي قَوْمٍ ضُلَّالٍ، فَهَدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَ، أَوْ فَهَدَاكَ إِلَى إِرْشَادِهِمْ.

وقيل: كنت مغمورًا بين الكفار بمكة فقوّاك اللَّه حتى أظهرت دينه، من قولهم: ضلَّ الماء في اللبن إذ صار مغمورًا. وقيل: وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها، وقيل: ناسيًا شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فذكّرك كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾.

وقيل: وجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها كقوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية، فيكون الضلال بمعنى الطلب، لأن الضلال طالب.

وقيل: ووجود ضائعًا في قومك فهداك إليهم، ويكون الضلال بمعنى المحبة كما قال تالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي محبتك.

وروى الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضلّ في شعاب مكة وهو صبي صغير، فرآه أبو جهل منصرفًا عن أغنامه فردّه إلى عبد المطلب.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فِي قَافِلَةِ مَيْسَرَةَ عَبْد خَدِيجَةَ، فَبَيْنَمَا هُوَ رَاكِبٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ نَاقَة، فَجَاءَ إِبْلِيسُ فَأَخَذَ بِزِمَامِ النَّاقَةِ فَعَدَلَ بِهَا عَنِ الطَّرِيقِ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَنَفَخَ إِبْلِيسَ نَفْخَةً وَقَعَ مِنْهَا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَرَدَّهُ إِلَى الْقَافِلَةِ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ.

وَقِيلَ: وَجَدَكَ ضَالاً نَفسِكَ لَا تَدْرِي مَنْ أَنْتَ، فَعَرَّفَكَ نَفْسَكَ وَحَالَكَ.

وَقَالَ كَعْبٌ: إِنَّ حَلِيمَةَ لَمَّا قَضَتْ حَقَّ الرَّضَاعِ، جَاءَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَرُدَّهُ عَلَى عَبْدِ الْمُطلِب فَسَمِعَتْ عِنْدَ بَابِ مَكَّةَ: هَنِيئًا لَكِ يَا بَطْحَاءَ مَكَّةَ، الْيَوْمَ يُرَدُّ اللَّهَ إِلَيْكِ النُّور وَالدِّينُ وَالْبَهَاءُ وَالْجَمَالُ. قَالَتْ: فَوَضَعْتُهُ لِأُصْلِحَ شَأْنِي، فَسَمِعْتُ هَدَّةً شَدِيدَةً، فَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَهُ، فَقُلْتُ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ أَين الصَّبِي؟، فقالوا: لم نر شيئًا، فصاحت: وَا مُحَمَّدَاه، فَإِذَا شَيْخٌ فَانٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ، فَقَالَ: اذْهَبِي إِلَى الصَّنَمِ الْأَعْظَمِ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْكِ فَعَلَ. ثُمَّ طَافَ الشَّيْخُ بِالصَّنَمِ، وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَقَالَ: يَا رَبِّ، لَمْ

تَـزَلْ مِنَّتُك عَلَـى قُـرَيْشٍ، وَهَـذِهِ السَّـعْدِيَّةُ تَـزْعُـمُ أَنَّ ابْنَهَـا قَـدْ ضَـلَّ، فَـرُدَّهُ إِنْ شِئْتَ. فَانْكَـبَّ عَلَـى وَجْـهِـهِ، وَتَسَـاقَطَتِ الْأَصْـنَامُ، وَقَالَـتْ: إِلَيْـكَ عنـا أيهـا الشيخ، فهلا كنا عَلَى يَدَيْ مُحَمَّدٍ. فَأَلْقَى الشَّيْخَ عَصَاهُ، وَارْتَعَدَ وَقَالَ: إِنَّ لِابْنِكِ رَبًّا لَا يُضَيِّعُهُ، فَاطْلُبِيهِ عَلَى مَهَلٍ.

فَانْحَشَـرَتْ قُـرَيْشٌ إِلَـى عَبْـدِ الْمُطَّلِـبِ، وَطَلَبُـوهُ فِـي جَمِيـعِ مَكَّـةَ، فَلَـمْ يَجِدُوهُ. فَطَافَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِالْكَعْبَةِ سَبْعًا، وَتضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّهُ وَقَالَ:

يـــا رب ردّ ولـــدي محمـــدًا   اردده ربـي واصـطنع عنـدي يـدا

فَسَمِعُوا مُنَادِيًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: مَعَاشِرَ النَّاسِ لَا تَضِجُّوا، فَإِنَّ لِمُحَمَّدٍ رَبًّا لَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُضَيِّعُهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا بِوَادِي تِهَامَةَ، عِنْدَ شَجَرَةِ السَّمُرِ. فَسَارَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ هُوَ وَورَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، فَإِذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ تَحْتَ شَجرَةٍ، يَلْعَبُ بِالْأَغْصَانِ وَبِالْوَرِقِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَمَا زَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يُرَدِّدُ الْبَيْت حَتَّى أَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ عَلَى نَاقَةٍ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: لَا نَدْرِي مَاذَا جَرَى مِنِ ابْنِكَ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَلِمَ؟، قَالَ: إِنِّي أَنَخْتُ النَّاقَةَ وَأَرْكَبْتُهُ مِنْ خَلْفِي فَأَبَتِ النَّاقَةُ أَنْ تَقُومَ، فَلَمَّا أَرْكَبْتُهُ أَمَامِي قَامَتِ النَّاقَةُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى جَدِّهِ بِيَدِ عَدُوِّهِ كَمَا فَعَلَ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ حَفِظَهُ عِنْدَ فِرْعَوْن.

وَقِيلَ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، حِينَ انْصَرَفَ عَنْكَ جِبْرِيلُ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ، فَهَدَاكَ إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ.

وقال بعض المتكلمين: إذا وجدت العرب شجرة منفردة من الأرض لا شجرة معها، سموها ضالة فيهدى بها إلى الطريق، فقال الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ووجدك ضالاً﴾ أَيْ: لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق إليَّ.

وقيل: الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمراد غيره فقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أَيْ: وجد قومك ضُلَّالاً فهداهم بك، وقيل: غير ذلك.

(و) من (إغناء) قال تعالى: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾، قال مقاتل: أَيْ: فقيرًا فرضاك بما أعطاك من الرزق، واختاره الفراء، وقال: لم يكن غناه عن كثرة المال، ولكن الله أرضاه بما أعطاه، وذلك حقيقة الغني.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس. العَرَض بفتح العين والراء أَيْ: المال. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه.

وقيل: أغناك بمال خديجة وتربية أبي طالب، ولما اختل ذلك أغناه بمال أبي بكر، ولما اختل ذلك أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم. رُوِي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: جُعل رزقي تحت ظل سيفي رمحي.

(وقد حان) ذلك أَيْ: قرب وحصل بالفعل.

تنبيه: امتن الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بثلاث أشياء، والقصد من تعداد هذه النعم تقوية قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، لأنه في معرض الذم.

ثم أمره بعد ذلك أن يذكر نعم ربه كأنه قال له: فَالطَّرِيقُ فِي حَقِّكَ أَنْ تَفْعَلَ فِي عَبِيدِي مِثْل مَا فَعَلْتُهُ فِي حَقِّك، كُنْتَ يَتِيمًا فَآوَيْتُك فافعَلْ فِي حَقِّ الْأَيْتَامِ ذَلِكَ، وَكُنْتَ ضَالًّا فَهَدَيْتُك فَافْعَلْ فِي حَقِّ عَبِيدِي ذَلِك، فكن أبدا ذاكرًا لهذه النعم والألطاف.

فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فأمره سبحانه وتعالى أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعمة بل يحدّث بها، فإن من شكر النعمة الحديث بها، وقيل: المراد بالنعمة النبوة والتحدّث بها تبليغها.

(وفي حسن) جمال (نشأته) منزّهًا مطهّرًا محفوظًا من كل عيب، وهي اسم من نشأ الشيء نشأ مهموزًا من باب نفع أَيْ: تربيته وابتداء أمره، (ونظافته) الحسية والمعنوية (مع صغره تأديب) بالمد من غير تنوين جمع تأديب.

(أدبية) منسوبة للأدب، أَيْ: ألهمه ربه حسن الأدب معه. قال أبو زيد الأنصاري: الأدب يقع على كل رياضة محمودة، يتحرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل، وقيل: الأدب أن لا تنظر في الدنيا إلى من فوقك، ولا تحقر لمن دونك، وفي أمور الآخرة أَيْ: العبادة، أن لا تنظر لمن دونك فيها، وانظر لمن فوقك بالتوفيق لها، وافعل مثله.

رُوي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخرج هو وأخوه أَيْ: من الرضاع، فيلعب أخوه مع الغلمان فيتجنبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويأخذ بيد أخيه

ويقول له: إنا لم نخلق لهذا.

(وإصباحه) بكسر الهمزة مصدر أصبح الرباعي، أَيْ: دخوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقت الصباح كل يوم إذا قام من نوم يصبح حال كونه (صقيلاً) بالصاد المهملة فعيل بمعنى مفعول أَيْ: مصقول رائق اللون غير متغير البشرة، فهو استعارة من المرآة الصقيلة.

(دهينًا) أَيْ: مدهونًا كأن وجهه دهن بغالية ونحوها مما كانوا يدهنون به، حتى تبرق وجوههم أَيْ: لنعومة جسده ولينه وبروق الأنوار فيه كأنه دهين.

(كحيلاً) أَيْ: مكحل العين ذا رائحة زكية، وكل ذلك من غير صنع لأحج، وفسّر بعضهم المدهون بغير الأشعث، والمصقول بالمسوي الشعر، والكحيل بالذي لا رمص بعينيه ولا قذى.

(يشير لهذا الدوران) أَيْ: دوران الفلك وهو تراتر حركاته بعضها إثر بعض من غير ثبوت ولا استقرار.

روي عن ابن عباس قال: كان بنو أبي طالب يصبحون عمشًا رمصًا، ويصبح محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صقيلاً دهينًا كحيلًا، وكان أبو طالب يحبه حبًّا شديدًا ولا يحب أولاده كذلك، ولا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج به متى خرج. وفي عبارة بعضهم: أَيْ: دوائر العينين من شدة حسنهما وجمالهما كأنّ بهما كحل.

(وأما بركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأكل من صغره) فكانت ترى (إذا حضر) النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيه) أَيْ: الأكل، كيف لا وهي (ظاهرة)

لا تخفى على أحدٍ، بل هي (مشهورة) معروفة بين المحدّثين.

(مرموزية) بزيادة الياء قبل الهاء أَيْ: مرموزة يقال: رمز رمزًا من باب قتل. وفي لغة من باب قتل ضرب أَيْ: أشار بعين أو حاجب أو شفة، والمعنى مشيرة إلى بركته في الأكل صغيرًا وكبيرًا.

وعن أم أيمن قالت: ما رأيتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكو جوعًا ولا عطشًا قط في صغره ولا في كبره، وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضتُ عليه الغداء، فيقول: أنا شبعان.

(وهو أنه) بفتح الهمزة أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان وهو طفل صغير، كما رواه ابن سعد وغيره عن ابن عباس: كان (إذا أكل مع عمه أبي طالب) كنيته واسمه عبد مناف، وقيل: اسمه كنيته، وكان عبد المطلب أوصاه بكفالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكونه شقيق أبيه، أَيْ: لأنه أشفق عليه من غيره لقوة القرابة. قيل: وشاركه في ذلك الزبير، ولم يدرك الإسلام، وقيل: أقرع عبد المطلب بينهما فخرجت القرعة لأبي طال.

(وآله) أَيْ: أهل أبي طالب وأولاده، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده في حضانته بعد عبد المطلب، وكان إذا أكل معهم (شبعوا) جميعًا بسرعة (بغير توان) بفتح التاء المثناة والواو أَيْ: تراخ وطول في الأكل من تواني في الأمر توانيًا، لم يبادر إلى ضبطه ولم يهتم به.

(وإذا غاب) أَيْ: خرج من بيت عمه أبي طالب، ولم يكن معهم (خرجت) وذهبت معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تلك البركة) من بينهم (ولم تشبع الجمعية) التي كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأكل معها.

(وثَمَّ) بفتح المثلثة أَيْ: هناك (من عظم قدره) وشرف منزلته (ما يكل) بفتح الياء وكسر الكاف مضارع كل من باب ضرب أَيْ: ويثقل ويعجز (عنه) أَيْ: ذكره (الوصفان) بزيادة الألف والنون للسجع، وفي نسخة: ما يكل عنه الوصف ويعجز البيان.

ذكر الواقدي: أن عيال أبي طالب كانوا إذا أكلوا جميعًا وليس فيهم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو فرادى، لم يشبعوا، وإذا أكل المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم شبعوا، وفضل الطعام عنهم.

فكان أبو طالب يقول إذا أراد أن يغديهم: كما أنتم حتى يأتي ابن أخي، فيأتي فيأكل معهم فيشبعون، ويفضل من طعامهم، وإن كان لبنًا شرب أولهم ثم يشربون فيروون كلهما من قعب واحد.

وَالْقَعْبُ بفتح القاف: إنَاءٌ ضَخْمٌ كَالْقَصْعَةِ، وَجَمْعُه قِعَابٌ وَأَقْعُبٌ مِثْلُ سَهْمٍ وَسِهَامٍ وَأَسْهُمٍ اه "المصباح". وإن كان أحدهم يشرب قعبًا وحده، فيقول أبو طالب له: إنك لمبارك.

(فتأهب) أَيْ: استعد (بتفريغ سرك) أَيْ: قلبك (لحب) صاحب هذه (النشأة المحفوظية) بزيادة الياء قبل الهاء أَيْ: المصونة، (وتوجّه) بقلبك (لإنزال) أَيْ: إسكان (المودة) له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسم من وددته أوده من باب تعب ودًّا بفتح الواو وضمها: أحببته أَيْ: المحبة. (فيه) أَيْ: القلب. (سرًّا) أَيْ: باطنًا (وإعلان) أَيْ: ظاهرًا.

ثم انتقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عادته بهذه الصيغة الشريفة وهي: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

وَعِنْدَ حَلِيمَةَ مَعَ أَخِيهِ كَانَ يَرْعَى غَنَمَهُمُ المَسْمِيَّة ۞ فَكَانَ يُظِلُّهُ الغَمَامُ وَقَدْ صَحَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَكَان ۞ وَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَرْعَى الغَنَمَ عُصْبَةٌ مَلَكِيَّة ۞ قِيلَ ثَلَاثَةٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلِ اثْنَان ۞ وَفِي يَدِ أَحَدِهِمْ طِسْتٌ مِنَ الأَلْوَانِ الذَّهَبِيَّة ۞ وَهُوَ مَمْلُوءٌ ثَلْجاً بِغَيرِ زَيْغٍ وَلَا بُهْتَان ۞ فَشَقَّا صَدْرَهُ الشَّرِيفَ وَاسْتَخْرَجَا مِنهُ المُضْغَةَ القَلْبِيَّة ۞ ثُمَّ شَقَّا قَلْبَهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَآءَ فَطَرَحَاهَا مِنْ ثَمَّ لِيُطَهِّرَان ۞ ثُمَّ غَسَلَا بَطْنَهُ بِذلِكَ الثَّلْجِ حَتَّى تَرَكَا تِلْكَ المُضْغَةَ مَنْقِيَّة ۞ فَخَتَمَاهَا بِخَاتَمِ النُّورِ فَمَلَآهَا حِكْمَةً وإِيمَان ۞ ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ قَلْبٌ وَكِيعٌ شَهَادَةً مِنْهُ حَقِّيَّة ۞ أَيْ شَدِيدٌ وَفِيهِ يَا بُنَيَّ عَيْنَانِ تُبْصِرَان ۞ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّيَا عَنْهُ فَصَارَ يَرَى الْأَمْرَ مُعَايِنَةً عِيَانِيَّة ۞ وَكَانَ لَهُ كَمَا صَحَّ أُذْنَانِ لِلوَقَائِعِ تَسْمَعَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الخَيْرِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ بِهِمْ وَهَيْهَاتَ أَنْ يَزِنَهُ الكَوْنَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الأُخْرَوِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ بِهِمْ كَمَا صَحَّحَهُ الحَبْرَان ۞ ثُمَّ قَالَ زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْهُمْ لِتَتِمَّ مِنَ اللَّهِ وَالخَلْقِ الشَّهَادَةُ العَدْلِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهَا مُرَجحُ المِيزَان ۞ ثُمَّ ضَمُّوهُ إِلَى صُدُورِهِمْ وَقَبَّلُوا رَأْسَهُ وَقَالُوا لَنْ تُرَاعَ يَا سَيِّدَ جَمَاعَةِ النُّبُوَّةِ وَالرُّسْلِيَّة ۞ فَلَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخَيْرِ وَالهَدَيَان ۞ فَوَحَقِّكَ عَلَى اللَّهِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ الجَمِيلَةُ الحُسْنِيَّة ۞ وَكَانَ الأَمْرُ فِيهِ الجُودُ السَّارِي إِلَى سَائِرِ العَالَمَان ۞ وَقَالَا لَهُ مَا أَكْرَمَكَ عَلَى اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الأَرْضَ الفَتْقِيَّة ۞ إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ فَمَا عَلَيْكَ مِنْ خَوْفٍ بَعْدَ هَذَا العِصْمَان ۞ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا وَهُوَ يَكْبُرُ وَدُعِيَ الْأَمِينَ لِأَمَانَتِهِ القَرِيحِيَّة ۞ وَتَزَوَّجَ بِخَدِيجَةَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ

وَعِشْرِينَ الحَائِزَةِ القَصْرَان ۞ وَسافَرَ الشَّامَ فِي تِجَارَةٍ وَكَانَتْ تُظَلِّلُ عَلَيْهِ جمَاعَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ المَعْصُومِيَّة ۞ وَرَأَتْ خَدِيجَةُ مَعَ نِسَاءٍ حِينَ قُدُومِهِ يُظِلَّانِهِ مَلَكَان ۞ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِمَيْسَرَةَ فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مُنْذُ خَرَجَ مَعَهُ فِي السَّفَرِيَّة ۞ فَيَا عَظِيمَ شَأْنِكَ يَا رَسُولَ المَلِكِ الدَّيَّان ۞

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ولما فرغ من ذكر إرضاعه ووفاة أمه وكفالة جده له، وتبعه أيضًا بكفالة عمه أبي طالب، أخذ يتكلم عن شق صدره الشريف أَيْ: لما كان عند السيدة حليمة، لأن المُصنِّف ترك ذكر ذلك فيما فات، وذكره هنا نظرًا لما يناسبه فقال:

(وعند) مرضعته السيدة (حليمة مع أخيه) أَيْ: من الرضاع لا من النسب، إذ ليس له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخ ولا أخت من النسب، وأخوه المذكور هو حمزة أو عبد اللَّه ابنا حليمة.

(كان يرعى غنمهم) الرعي: أكل الحيوانات النبات والذهاب بها لترعى وهو المراد هنا، والمراد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مع الرعاة لا راعيًا لصغر سنه إذ ذاك. (المسمية) أَيْ: المحكى عنها.

(فكان) في وقت الظهيرة (يظله الغمام) أَيْ: السحاب من الشمس. قال في "شرح منظومة ابن العماد": ويقال أن طول الغمامة التي كانت تظله عشرة أذرع وعرضها كذلك، وكان علوها على رأسه عشرة أذرع.

(وقد صحَّ) وثبت (ذلك) أَيْ: إظلال الغمام له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (في

غير مكان) بل في أمكنة متعددة. وقد روى محمد بن سعد وأبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حليمة لا تدع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذهب مكانًا بعيدًا، فغفلت عنه، فخرج مع أخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حليمة تطلبه، فوجدته مع أخته فقالت: في هذا الحر؟، قالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حرًّا رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت معه تظله، حتى انتهى إلى هذا الموضع الذي نحن فيه.

قال سيدي محمد الزرقاني: وفي هذا الحديث، إظلال الغمام له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو حجة على من أنكره.

قال ابن جماعة: من ذهب إلى أن حديث إظلال الغمام لم يصح بين المحدثين فهو باطل، نعم لم يكن كما قال السخاوي وغيره دائمًا في حديث الهجرة: إن الشمس أصابته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظلله أبو بكر بردائه، وثبت أنه كان بالجعرانة ومعه ثوب قد أظل عليه، وأنهم كانوا إذا أتوا على شجرة ظليلة تركوها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير ذلك اه.

ومنها ما رواه جماعة وهو على شرط الصحيح: أن أب طالب خرج به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الشام، في أشياخ من قريش، فمروا ببحيرى فخرج إليهم على خلاف عادته، فجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هذا سيد العالمين ورسول رب العالمين، هذا يبعثه اللَّه رحمة للعالمين، فقالوا له: وما علمك؟، قال: إنكم حين أشرفتم من الثنية، لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبي،

وإني أعرفه بخاتم النبوة، أسفل من غضروف كتفه.

ثم رجع فصنع له لهم طعامًا، فلما أتاهم به وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رعية الإبل، فقال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. الحديث. رواه أبو موسى الأشعري، وهو إما أن يكون تلقاه عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكون أبلغ، أو من بعض الصحابة، أو كان مشهورًا أخذه بطريق الاستفاضة.

وروى ابن إسحاق معضلاً والبيهقي في "الدلائل" موصولاً: أنهم لما نزلوا قريبًا من صومعة بَحِيرَى، صنع لهم طعامًا كثيرًا، لأنه رأى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أقبل وغمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمام حين أظلته الشجرة وتهصرت أغصانها أَيْ: مالت وانعطفت على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استظل تحتها. القصة.

وورد: أن حليمة رأت غمامة تظله وهو عندها. وورد ذلك أيضًا عن أخيه من الرضاعة، وأشار غير واحد إلى أن تظليل الغمام له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان قبل النبوة إرهاصًا وتأسيسًا لنبوته، قاله ابن حجر على "الهمزية".

(وجاءه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عند مرضعته حليمة بعد أن فصلته من الرضاع عند تمام سنتين، وردّته لأمه كما هي عادة المرضعات من ردّ الرضيع لأهله بعد الفطام. وتلطّفت بها حتى ردّته إليها، وذلك لأمرين:

الأول شفقته عليها لما رأت بها من ألم الفراق، والثاني خوفًا عليه من الوباء الذي كان بمكة.

فبعد رجوعه به لمنزلها بشهرين أو ثلاثة أتاه (ذات يوم) تأنيث ذا بمعنى صاحب، أَيْ: في ساعة ذات يوم أَيْ: منه، فحذف ذلك لوضوح المراد، والظاهر أنه يوم رؤيا حليمة المنام، وكان ذلك في وقت الظهيرة.

(وهو) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يرعى الغنم) أي كان مع الرعاة لا راعيًا كما تقدّم. وقوله: (عصبة) بضم العين فاعل جاء أَيْ: نزل عليه جماعة (ملكية) أَيْ: ملائكة في صورة الرجال.

(قيل: ثلاثة) هم جبريل وإسرافيل وميكائيل، (وقال بعضهم) أَيْ: بعض المحدّثين (بل) هما (اثنان) جبريل وإسرافيل وميكائيل، وجمع بينهما بأنه جاءه اثنان أولاً لشق صدره، والثالث أتى بعد لمباشرته.

(وفي يد أحدهم طست) أَيْ: إناء (من الأواني الذهبية). الطست فيه أربع لغات: كسر الطاء وفتحها مع السين المهملة، وإعجامها ليس بلحن بل لغة صرّح بها في "القاموس"، وقد تبدل التاء سينًا وتدغم في السين، فيقال: طس بتشديد السين، وهذه خامسة.

قال الجلال السيوطي في "المزهر": وطست جمعه طساس وطسوس وطساس، بالسين لأنها الأصل وأبدلت في المفرد تأكل اجتماع سينين في آخر الكلمة فكره للاستثقال، فإذا جمع ردّت لفرق الألف بينهما، ونظره سداس فإن أصلها سدس، ونزر في الجمع تقول: أساس اه.

وهو إناء معروف والغالب عليه كونه من النحاس، واختير على غيره

لأنه أشهر الآت الاستعمال في الغسل، وكان من ذهب لأنه أصفى المعادن، ولا يعلوه صداءً، ولا تسلط عليه النار ولا التراب، فهو مناسب في المعنى لقلبه الشريف، إذ هو أصفى القلوب ولا يعتريه الصداء المعنوي، ولا تسلط للشيطان عليه، ولما فيه من المناسبة اللفظية أيضًا، وهي ذهاب الرعونات البشرية عنه.

وجواز استعماله إما خصوصية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإما لكون حرمته لم تكن شرعت لأنه إنما حرم بعد الهجرة، وإما لكونه من عالم الملكوت.

والمحرم إنما هو ما كان من عالم الملك، وإما لأنه من أواني الجنة، وهي لا يحرم استعمالها. وفي روايةٍ: أنه كان من زمرد أخضر، وأنه صبّ عليه من إبريق فضة.

وهو أَيْ: الطست (مملوء ثلجًا) بفتح المثلثة وسكون اللام، وقال التلمساني بفتحها بمعنى اليقين، فيجوز قراءته بفتح اللام وسكونها.

وروي: أن الطست مملوء حكمة وإيمانًا، وأن الثلج لبرد اليقين، فهو إما بتأويله أو بتجسيم الأعراض، وليس ذلك على اللَّه بعزيز. وذلك (من غير زيغ ولا بهتان) بضم الباء وسكون الهاء: اسم من بهت أَيْ: من غير ميل ولا تحيُّر وكذب في ذلك.

(فشقا) أَيْ: الملكان (صدره الشريف) أَيْ: طولاً ما بين نقرة صدره إلى منتهى عانته. وفي روايةٍ: من نقرة نحره إلى أسفل بطنه أَيْ: إلى سرته. وفي روايةٍ: إلى عانته. والمراد قرب عانته، فتوافق رواية إلى سرته.

وإنما بالغ في الشق لأنه أبلغ في التعجب والمعجزة وقوة فؤاده، وهذا من غير حصول ألم مع سرعة الالتئام ومن غير دم. وظاهر الروايات أن الشق كان بآلة، وهو كذلك عند جمع كالمنذري والنووي والسيوطي.

وقيل: بل ظاهر الروايات أنه كان بغير آلة، ولم يثبت أنه كان بسكين بيضاء مجلية كما سيأتي، وإن لم يجد لذلك مسًّا أَيْ: أثرًا كأنه لم يمس، ولا ينافيه وجدانه منتقعًا لونه أَيْ: متغيرًا لجواز أنه من الفزع الحاصل من مجرد رؤية الملك وشق الصدر.

(واستخرجا) أَيْ: الملكان. وقوله: (منه) أَيْ: من الصدر الشريف (المضغة القلبية) أَيْ: التي محلها القلب. (ثم) بعد إخراج أحشاء بطنه، وغسلها بذلك الثلج كما في حديث شداد بن أوس.

(شقا قلبه) الشريف، وهذا من المعجزات لأن الأطباء أجمعوا على أن القلب لا يحتمل جراحة أصلاً فكيف يعيش صاحبه إذا شقَّ.

قال العلماء: وجعل اللَّه القلب في الإنسان هو الذي يعقل عنه، وهو أصل وجوده، وبه صلاحه وفساده، وهو محل أسراره التي يودعها قلب من يشاء، فأول قلب أودعه قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه أَوَّل خلق وصورته آخر صور الأنبياء، فهو أولهم وآخرهم، فلذا حاز جميع كمالاتهم، وزاد عليهم بما لا يعلمه إلا اللَّه تعالى.

وقد أشار الأستاذ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" بقوله:

أَتَتْهُ مِنَ الأَمْلَاكِ اِثْنَانِ أَوْ جَمْعَا لَدَيْهَا مِنَ الأَعْوَامِ أَرْبَعُ مُتْبِعَا
فَشَقَّا لِصَدْرٍ بِالفَضَائِلِ سَاطِعَا وَلِلمُضْغَةِ السَّوْدَاءِ أَخْرَجَ نَافِعَا

وَرَدُّوهُ بَعْدَ الخَتْمِ بِالسِّرِّ مُرْتَزٌّ

(فأخرجنا منه) أَيْ: من القلب (علقة) بفتح العين المهملة والقاف واللام، وهي دم متجمد كالعلقة المعروفة في دود الماء. (سوداء) صفة لعلقة وهذه العلقة أخرجت من المرة الأولى، وباقي المرات تنظيف من آثارها، لأن القصد بتكرير الشق زيادة تطهير.

(فطرحاها) أَيْ: العلقة السوداء أَيْ: رمياها (من ثَمَّ) بفتح المثلثة أَيْ: من القلب (ليطهران) أَيْ: لأجل تطهيرهما القلب منها، لأنها حظ الشيطان ومغمزه، وفيها الحسد والحقد ووسوسة الشيطان والحرص والشهوة المذمومة.

قال السبكي في "طبقاته": سئل والدي رحمه اللَّه عن هذه العلقة التي أخرجت من قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين شقّ فؤاده، وَقَول الْملك هَذَا خطّ الشَّيْطَان مِنْك.

فأجاب: بأن تِلْكَ الْعلقَة خُلقت فِي قُلُوب الْبشر قَابِلَة لما يلقيه الشَّيْطَان فِيهَا، وَلم يكن للشيطان فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حظ، وإنما الذي نقاه الملك منه أمر قابل في الجبلة البشرية، فأزيل القابل الَّذِي لا يلْزم من حُصُوله حُصُول الإلقاء فِي الْقلب، وإنما خلقت على هذا لأنها من أجزاء البدن المكملة لخلقه فلا بد منه، ثم نزعت بأمر رباني طرأ بعده له.

وقريب منه قول الأستاذ محمد البكري في رسالته النافعة: نزع العلقة من باطنه المقدّس المطهّر، وقول الملك أنها حظ الشيطان أَيْ: لو تعلّق الشيطان بمحل منه كان هذا فخلق ابتداء تكملته لأصل الخلقة وتسوية

للنشأة الإنسانية مع زيادة إظهار يأس الشيطان بإخراجها منه، وهذا من تقديس السر وتنزيهه أعلاه وأشرفه، وقدر لا يدانيه أحد فيه.

أقول: حاصله إن اللَّه تعالى خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كامل البنية مكمّلاً، فاقتضت الحكمة الربانية أن يكون جسمه أحسن الأجسام، وقلبه أقوى القلوب، كما أن روحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الأرواح وأنوارها.

ولما كان القلب رئيس الأعضاء بقوته تقوي صفاته من الشجاعة والفطنة وغيرهما، وهذه العلقة جزء سوداوي به يكون القلب قوي البنية، وعليه ينبني لكونه كحب العنب والفواكه، فبعد نضج ثمرته ينزع عجمه ويرم، ولكونه سوداويًا رديء الأخلاط كان محلاً لأقذار الأوهام والخيال، الذي هو لريحان الفكر كالحشيش النابت بينه بقلعه يقوى، فاندفع أنه لَمَ لَمْ يخلقه اللَّه بدونها حتى يتطهَّر من دنس الوسوسة وما يقبلها، فلا يألم بشق قلب، وظهر أن معنى كونها حظ الشيطان أنها محل حظه لو كان، لكنه لم يكن، وإنما أطلت هنا لأنه سر من أسرار اللَّه تعالى. ولِلَّه در ابن قرناص الحموي في قوله:

أَمَــا واللَّهِ لَــو شُــقَّتْ قُلُــوبٌ ... لِــيُعْلَمَ مـا بهـا مـن فَـرْطِ حُـبِّ
لأَرْضَاكَ الّذي لَكَ في ضَمِيْري ... وأَرْضَـانِي رِضَـاكَ بشَـقِّ قَلْبـي

(ثم غسلا) أَيْ: الملكان (بطنه) أَيْ: وقلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بذلك الثلج) ما يشعر به من ثلج اليقين وبرد على الفؤاد، ولذا حصل له اليقين بالأمر الذي يراد به بوحدانية ربه.

(حتى تركا تلك) أَيْ: محلها (المضغة) نظيفة (منقية) يقال: نقَّاه

بالتشديد وأنقاه إذا جعله نقيًّا نظيفًا، وفي هذا دليل على عصمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل النبوة من جميع الآثام والنقائص.

(فختماها بخاتم النبوة) أَيْ: القلب كما يختم الكيس والخزانة التي فيها الجواهر وكل نفيسٍ، وختم قلبه أيضًا لئلا يصل إليه ما لا يليق من الوسوسة، ولئلا يضيع ما فيه، وكونه بخاتم النور ليتلألأ ويضيء إضاءة زائدة، حتى كأنه مجسم من النور، فيكون فيه مبالغة في إشراقه. وفي روايةٍ: أنه خِيط بمخيط وكان يرى في صدره الشريف أثر الخياطة.

(فملآها حكمة) بكسر الحاء وسكون الكاف. قال النووي: فيها أقوال كثيرة مضطربة، صفا لنا منها أنها العلم المشتمل على المعرفة بالله، مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك.

وقوله: (وإيمان) هو بكسر الهمزة: تصديق القلب وتيقنه أَيْ: جعل في القلب شيء أَيْ: جسم يحصل به كمال العلم واليقين.

وتجسد المعاني جائز، والقدرة صالحة لذلك كما جاء أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها الظلة، والموت في صورة الكبش، والصوم كذلك بجسم، والقرآن كذلك، ويشفعان كما قال سيدي علي الأجهوري في "فضائل رمضان":

ويشفع الصيام والقرآن في ... من صام والقاريء فاعرفي

أي: بأن يجسما فالقرآن يقول: أسهرته الليل الطويل فشفّعني فيه، والصيام يقول: منعته الطعام والشراب في الهواجر فشفّعني فيه اه.

وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك، وفي وضع الإيمان والحكمة بالقلب أيضًا دليل لما عليه أكثر أهل السنة: أن العقل في القلب، كما دلت عليه الآيات لا في الدماغ.

قال الشيخ أبو محمد ابن أبي جمرة: الحكمة في شق صدره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يمتليء قلبه إيمانًا وحكمة بغير شق، الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشجع حالاً ومقالاً، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

وكل هذه الأمور يجب الإيمان بها، والقدرة صالحة لذلك، وقد انخرقت العادة لكثير من أولياء اللَّه تعالى المتطفلين على جناب هذا السيد الأعظم المحبوب الأكبر، فكيف به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!.

(ثم قال) بعد ما مرَّ (جبريل) معناه عبد اللَّه لأن جبر بمعنى عبد وإيل بمعنى اللَّه، وقيل: بالعكس، وكنيته أبو الفتح ولُقّب بالأمين لأنه أمين اللَّه على الوحي والكتب المنزلة.

هذا (قلب وكيع) أَيْ: قوي على تحمل الأسرار وتلك (شهادة) بالرفع ويصح بالنصب أعني: زيادة (منه) أَيْ: من جبريل (حقية) أَيْ: شهادة حق.

ثم فسّر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكيع بقلبه (أي: شديد) ومعنى وكيع: متين في العلم ومحكم في الفهم. وفي كتب اللغة تفسيره بصلب وغليظ، والمراد هنا ما ذكره المُصنِّف.

(وفيه) أَيْ: في قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يا بني عينان) في قلبه صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومعنى قوله: (تبصران) تدركان الأمور العقلية، فلا يتوقف على النهار ولا على شعاع ومقابلة خرقًا للعادة.

قال العلقمي: الصواب أنه على ظاهره، وأنه إبصار حقيقي خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال الشهاب في "شرح الشفا": لا يخفى أنه حمله على ظاهره كما قيل بعيد، فالمراد أنه شديد الإدراك لما يبصر ويسمع، وكون القلب لا يدرك المحسوسات لأنه إنما يدرك المعقولات، لا وجه له، فإنه يدركها بواسطة الحواس.

(فما هو) أَيْ: فعلهما بعد ذلك، وما نافية، وقيل: الضمير للشأن وهو على حد قولك: لم يلبث فلان إن فعل كذا أو المراد السرعة. (إلا أن ولَّيا) أَيْ: أدبر الملكان ورجعا وانصرفا (عنه) بعد فعلهما ومقابلتهما.

(فصار) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يرى الأمر) أي رواية إدراك (معاينة عيانية) بكس العين أَيْ: عيانًا، إشارة إلى شدة استحضاره، والمراد بالأمر هنا ما أكرمه اللَّه تعالى به، وما سيكرمه به من مقدمات النبوة وإرهاصاتها.

وما زاد في فطنته وعلمه ولتحققه لذلك جعل كالمحسوس المرئي ببصره، وليس المراد به القصة المذكورة من مشاهدة الملكين وما فعلاه كما توهم. قاله الشهاب في "شرح الشفا".

(وكان له) أَيْ: لقلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا (كما صحَّ) أَيْ: ثبت في رواية للدارمي وأبي نعيم في "الدلائل"، (أُذنان للوقائع) أَيْ: النوازل والحوادث (تسمعان) أَيْ: تعيان العلوم.

(ثم قال) أحد الملكين (له) أَيْ: للملك الآخر: (زنه) بكسر الزاي أمر

من وزن أَيْ: اعتبره (بعشـرة مـن أمتـه) أَيْ: في الفهـم والعقل لا في الأجر والفضل.

(الخيرية) أَيْ: المنسوبة للخير أَيْ: الفضل والشرف، نسبة الموصوف إلى صفته، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وكما ثبت أنه موسى عليه السلام سأل ربه أن يجعله من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعله منهم. وفي "بعض الشراح": بأن يكون هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كفة وهم في الأخرى.

وميكائيـل أخـذ بلسـان الميـزان (فوزنـه) الملـك أَيْ: حسًّـا أو معنًـى، (فرجح) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفتح الجيم مخففة أَيْ: ثقل وزاد ومال (بهم) أَيْ: بالعشرة المذكورين.

(وهيهات) اسم فعل والغالب في الاستعمال أن تستعمل هذه الكلمة مكررة والثانية توكيد لفظي للأولى، واسم الفعل فيه الخلاف المشهور من أنه اسم للفظ الفعل، أَيْ: اسم لمدلول لفظ الفعل، أو من أنه اسم للمصدر أَيْ: اسم مدلوله لفظ المصدر، ومعناه بُعَدَ بضم العين وفتح الباء والدال ضد قَرُبَ بفتح القاف وضم الراء وفتح الباء الموحدة.

(أن يزنه الكونان) أَيْ: الدنيا والآخرة، قال الشهاب في "شرح الشفا": الوزن معروف، ورجحانه زيادة ما في الكفتين وثقله، فينزل الراجح ويعلو مقابله.

والمراد بأمته من اتبعه وآمن به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أمة الإجابة، أو من وجد في عهده وهم أمة الدعوة، فمن فسره بالأول لعلم الثاني منه

بالطريق الأولى وعدم الاعتداد بغيرهم، ويجوز إرادة الثاني، وهذا الوزن الظاهر أن المراد منه مجرد المقابلة بين كماله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمالاتهم بحسب النظر العلمي.

ومنهم من ذهب إلى أنه ظاهره وحقيقته، وإن لم تعرف كيفيته إلا أنه يحتاج لتأويله لأن الأمة لم يكونوا موجودين، فقيل: المراد منهم أرواحهم وأن اللَّه أطلعهم على ذلك لتعلم به أمته، وقيل: غير ذلك.

(ثم قال) أَيْ: الملك (له) أَيْ: لصاحبه ثانيًا: (زنه بمائة من أمته الأخروية) أَيْ: المتأخرة التي ستوجد بعد قرنه من أمة الإجابة، (فوزنه) أَيْ: بمائة منهم (فرجح بهم) أَيْ: في الوزن (كما صححه الحبران) تثنية حبر، وهو العالم الفاضل، والمراد بالحبرين هنا الدارمي وأبو نعيم، كما يستفاد من "شرح الشفا".

(ثم قال) الملك (له) أَيْ: لصاحبه ثالثًا: (زنه بألف منهم) أَيْ: من الأمم (لتتم) وتكمل له (من اللَّه و) من (الخلق الشهادة العدلية) المنسوبة للعدل وهو القصد والتوسط في الأمور خلاف الجور. (فوزنه فرجح) بهم الثالثة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فقال) الملك (لصاحبه): دعه عنك واترك وزنه فإنك (لو وزنته بأمته) أَيْ: جميعهم (لوزنها) أَيْ: عادلها في الوزن حال كونه (مرجح الميزان) أَيْ: زائدًا عليها في الوزن، ومرجح بكسر الجيم اسم فاعل من رجّح بالتشديد، أو يقرأ: مرجح بالرفع على أنه فاعل وزن، والضمير على المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه دليل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من جميع الناس، وأقواهم شجاعة وعلمًا وفطنة، لما أودع في قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما لم ينله غيره.

(ثم ضموه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجمع على رواية أنهم كانوا ثلاثة، وكذلك قوله: (إلى صدورهم) أَيْ: عانقوه أظهارًا لمحبتهم وتكريمهم له، (وقبّلوا رأسه) الشريف، وبين عينيه أيضًا كما في الحديث، وهذا للتبرك به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللإكرام.

وفيه استحباب تقبيل الرأس وبين العينين لمن تنبغي محبته وإكرامه، لما روى الحاكم: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَزْدَادُ بِهِ يَقِينًا. فَقَالَ: اذهب إِلَى تِلْكَ الشَّجَرَة فادعها، فذهب إليها، فقال لها: إن رسول اللَّه يدعوك، فَجَاءَتْ حَتَّى سَلَّمَتْ عَلَى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا: ارْجِعِي، فَرَجَعَتْ، فقَالَ الرجل: ائْذَنْ لِي يا رسول اللَّه أن أسجد لك، فقَالَ: لَوْ كُنْتُ آمُرُ أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا. فقال: ائْذَنْ لي أن أقبّل رأسك ورجليك، فأذن له، فقبّل رأسهس ورجليه.

وفي حديث وفد عبد القيس عن زارع وكان فيهم قال: فَجَعَلْنَا نَتَبَادَرُ مِنْ رَوَاحِلِنَا، فَنُقَبِّلُ يَدَي النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِجْلَيْهِ. ورُوي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه كان في سرية من سرايا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –فذكر قصة– ثم قال: فدنونا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبَّلنا يده.

وكانت فاطمة بنت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل عليها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قامت إليه تقبّله وتجلسه مجلسها. وأخرج الترمذي: أن قومًا من اليهود قبّلوا يد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشرنبلالي: فعلم إباحة تقبيل اليد والرجل والرأس والكشح كما علم من الأحاديث المتقدّمة إباحتها، وعلى الجبهة وبين العينين وبين الشفتين إذا كان على وجه المبرة والإكرام، فأما إذا كان على وجه الشهوة فلا يجوز إلا في حق الحليل والحليلة اه.

وأما تقبيل الأرض بين يدي العلماء والعظماء فحرام، والفاعل والراضي به آثمان، لأنه لا يشبه عبادة الوثن من حيث أنه فيه صورة السجود لغير اللَّه تعالى. وهل يكفر؟. قال الزيلعي: وذكر الشهيد أنه لا يكفر بهذا السجود لأنه يريد التحية بل يأثم.

وقال شمس الأئمة السرخسي: إن كان لغير اللَّه على وجه التعظيم كفر اه. قال القهستاني في "الظهيرية": يكفر بالسجدة مطلقًا. وفي "الزهاد": الإيماء بالرأس في السلام إلى قرب الركوع كالسجود. وفي "المحيط": يكره الانحناء للسلطان وغيره.

وظاهر كلامهم إطلاق السجود على هذا التقبيل. وفي "الملتقط": التواضع لغير اللَّه حرام أَيْ: إذلال النفس لنيل الدنيا، وإلا فخفض الجناح لمن دونه مأمور به سيد الأنام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يدل عليه ما رواه البيهقي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ خَضَعَ

لِغَنِيٍّ وَوَضَعَ لَهُ نَفْسَهُ إعْظَامًا لَهُ وَطَمَعًا فِيمَا قِبَلَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا مُرُوءَتِهِ وَشَطْرُ دِينِهِ.

ولا بأس بتقبيل يد الرجل العالم والمتورع على سبيل التبرك، والسلطان العادل، وتقبيل رأس العالم أجود، ولا رخصة في تقبيل اليد لغير العالم والعادل. وفي "المحيط": إن كان التعظيم إسلامه وإكرامه جاز، وإن كان لنيل الدنيا كره، وعليه يحمل قول ابن الوردي في "لاميته":

أنا لا أختار تقبيل يد   قطعها أجمل من تلك القُبَل

أي: ما لم تكن يد عالم أو رجل صالح يتبرك به أو مسلم لإسلامه، وإلا فهو مكروه، ومحل كراهة ذلك ما لم يخف ضررًا، أما إذا خاف الضرر على نفسه أو ماله فجائز، بل ربما تجب ولو كانت يد يهودي، وما يفعله الجهّال من تقبيل يد نفسه إذا لقي غيره فهو مكروه. وأما تقبيل يد صاحبه عند اللقاء فمكروه بالإجماع.

ونقل بعضهم أن التقبيل على وجوه: قبلة المودة للولد وتكون على الخد، وقبلة الرحمة للوالدين وتكون على الرأس، وقبلة الشفقة لأخيه وتكون على الجبهة، وقبلة الشهوة لامرأته أو أمته وتكون على الفم، وقبلة التحية للمؤمنين وتكون على اليد، وقبلة الصاحب المتوفي وتكون بين العينين، وقبلة الديانة وتكون على الحجر الأسود وعتبة الكعبة، ويلحق به تقبيل أعتاب الأنبياء والأولياء وستورهم وقبورهم، وقبر الوالدين، ولهذا الصلاح بقصد التبرك بآثارهم، والأولى تركه.

وأما تقبيل المصحف فقيل: بدعة، لكن رُوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أنه كان يأخذ المصحف كل غداة ويقبّله ويقول: عهد ربي ومنشور ربي عزّ وجلّ، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبّل المصحف ويمسحه على وجهه.

وأما تقبيل الخبز فجوّزه الشافعية لأنه بدعة مباحة، وقيل: حسنة. وقالوا: يكره دوسه لا بوسه، وقواعد الحنفية لا تأباه.

وأما المصافحة فجائزة لأنها سنة قديمة متواترة، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن المؤمن إذا صافح أخاه المؤمن وحرّك يده، تناثرت ذنوبه. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلّم عليه وأخذ بيده فصافحه، تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر رواه الطبراني والبيهقي.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من صافح مسلمًا وقال عند مصافحته: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، لم يبق من ذنوبه شي.

وهي إلصاق صفحة الكف بالكف، وإقبال الوجه بالوجه، فأخذ الأصابع ليس بمصافحة خلافًا للروافض، والسنة أن تكون بكلتا يديه وبغير حائل من ثوب أو غيره، وعند اللقاء وبعد السلام، وأن يأخذ الإبهام فأن فيه عرقًا ينبت المحبة، كما جاء في الحديث: إِذَا صَافَحْتُمْ فَخُذُوا الْإِبْهَامَ، فَإِنَّ فِيهِ عِرْقًا تَنْبتُ مِنْهُ الْمَحَبَّةُ.

قال النووي في "أذكاره": اعلم أن المصافحة مستحبّة عند كل لقاء، وأما ما اعتاده الناس من المصافحة بعد صلاتي الصبح والعصر، فلا أصل له في الشرع على هذا الوجه، ولكن لا بأس به، فإن أصل المصافحة سنّة، وكونهم حافَظوا عليها في بعض الأحوال، وفرّطوا فيها في كثير من الأحوال، وأكثرها لا يخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد

الشرع بأكثرها اه.

قال الشيخ أبو الحسن البكري: وتقييده بما بعد الصبح والعصر على عادة كانت في زمنه، وإلا فعقب الصلوات كلها كذلك. كذا في "رسالة الشرنبلالي في المصافحة".

ونقل مثله عن الشيخ الحانوتي: وأنه أفتى به مستدلاً بعموم النصوص الواردة في مشروعيتها، لكن يقال: أن المواظبة عليها بعد الصلوات خاصة قد يؤدي الجهلة إلى اعتقاد سنيتها في خصوص هذه المواضع، وأن لها خصوصية زائدة على غيرها، مع أن ظاهر كلامهم أنه لم يفعله أحد من السلف في خصوص هذه المواضع.

ونقل في تبيين المحارم عن الملتقط أنه تكره المصافحة بعد أداء الصلاة لكل حال، لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما صافحوا بعد أداء الصلاة، ولأنها من سنن الروافض اه.

ثم نقل عن ابن حجر عن الشافعية: أنّها بِدعة مكروهة لا أصل لها في الشرع، وأنّه يُنبَّه فاعِلُها أوّلاً ويُعذر ثانيًا، ثم قال: وقال ابن الحاج من المالكية في "المدخل": إنها من البدع. وموضع المصافحة في الشرع إنما هو عند لقاء المسلم لأخيه لا في أدبار الصلوات. فحيث وضَعَها الشرع يَضَعُها فيُنهَى عن ذلك ويُزجَر فاعِلُه لِما أتى به من خلافِ السُّنّة. ثُمَّ أَطَالَ فِي ذَلِكَ فَرَاجِعْهُ.

وأما القيام تعظيمًا للقادم إن كان ممن يستحق التعظيم، بل جاز بل ندب لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار: قوموا لسيدكم يعني: سعد بن

معاذ.

ونقل الشرنبلالي عن ابن وهبان ما نصه: وَفِي عَصْرِنَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَحَبَّ ذَلِكَ أَيْ الْقِيَامُ، لِمَا يُورِثُ تَرْكُهُ مِنْ الْحِقْدِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ فِي مَكَان اُعْتِيدَ فِيهِ الْقِيَامُ، وَمَا وَرَدَ مِنْ التَّوَعُّدِ عَلَيْهِ، إنما هو فِي حَقِّ مَنْ يجب الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَمَا يَفْعَلُهُ التُّرْكُ وَالْأَعَاجِمُ اه.

وعدم وروده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة ولم يفعلوا أَيْ: القيام للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يدل على كراهته لأنه لم يكن من عادتهم، وإنما أطلت الكلام هنا لأنه مما ينبغي أن يعلم، فإن أكثر الناس عنه غافلون.

(وقالوا) أَيْ: الملائكة قبل انصرافهم عنه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لن تراع) بضم الفوقية وفتح الراء المهملة بعدها ألف ثم عين مهملة، مبني للمجهول منصوب يكن، والورع الخوف والفزع.

والمقصود بشارته والتسهيل عليه حتى لا يحصل له الروع في المستقبل ويطمئن قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد ما وقع من الشق به. أَيْ: لا تخاف منا لأننا إنما نحن رسول ربك نأتيك منه بالبشائر والأُنس والرضوان لك العز.

(يا سيد جماعة النبوة) وحقيقة النبي ما جاءه الوحي ولم يؤمر بتبليغ، (و) سيد (الرسلية) بزيادة الياء والهاء أَيْ: الرسل. (فلو تدري ما يراد بك) أَيْ: تعلم بما أعدّ اللَّه لك (من الخير) أَيْ: ما يريده اللَّه لكل من الكمال والخير الدنيوي والأخروي.

(والهديان) بفتح الهاء وسكون الدال وبزيادة الألف والنون، أَيْ: الهدي أَيْ: سيرته، أو بفتح الهاء والدال وزيادة الألف والنون أَيْ: الهداية بمعنى الدلالة الموصلة للحق بالفعل أو الهدية، بمعنى العطية أو الهدايان بعلوم القرآن وشروح الصدور ورفع الذكر ورفع الدرجات لك ولمن اتبعك، وغير ذلك مما لا يحصى.

(فوحقك) أَيْ: فأقسم بحقك وقدرك، وأقسموا به لمراعاتهم قول الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقولهم له: (لقرت عيناك) جواب قولهم له: لو تدري، وقرّت بفتح القاف وشد الراء أَيْ: سرت سرورًا عظيمًا، قال في "الفتح": سرة العين يعبر بها عن المسرة ورؤية ما يحبه الإنسان ويوافقه، لأن عينه قرّت أَيْ: سكنت حركتها عن التلف لحصول غرضها، فلا تتشوف لشيء آخر، وكأنه مأخوذ من القرار.

وقيل: معناه أنام الله عينك وهو يرجع إلى هذا، وقيل: بل مأخوذ من القر بفتح القاف: وهو البرد أَيْ: أن عينيه باردة لسروره، ولذا قيل: دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة، ومن ثم أسخن اللَّه عينه، وقيل: بلغك اللَّه أمنيتك حتى ترضى ولتسكن عيناك بما ربك حباك.

(الجميلة) المعظمة المكحلة بحسن رباني ولذا كانت (الحسنية) بضم الحاء أَيْ: ذات الحسن بالضم أَيْ: الجمال. (وكان) ذلك (الأمر) المذكور من إرادة الخير والهدى والنبوة والرسالة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محققًا (فيه) أَيْ: القلب.

وقوله: (الجود) بالرفع بدل من الأمر أَيْ: وجود اللَّه تعالى (الساري)

نعت الجود أَيْ: الواصل من الله تعالى (إلى) نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنه إلى (سائر) أَيْ: جميع من في الملك والملكوت اللذين هما (العالمان) ويصح إن كان ناقصة ترفع الاسم وتنصب الخبر، والأمر اسمها مرفوع والجود خبرها منصوب، والساري نعت الجود فيكون منصوبًا بفتحة ظاهرة على الياء. وكل من الأعرابين صحيح.

والعالم عالم الملك وعالم الملكوت، وقد أفزع الله تعالى عليه الكمالات التي منها الجود، وشرح له صدره وأظهر أمره، ولذا كانت معارفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سائر ما أطلعه الله عليه من علم ما يكون وما قد كان.

وعجائب قدرته وعظيم ملكوته قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجبولاً على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة بل بجود إلهي، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وصل إلى الغاية والمقام الأسنى.

(وقالا) أَيْ: الملكان (له) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ما أكرمك على اللّه) تعجب من رفعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرامته عند ربه، (يا) حرف نداء و(خير) منادى، (من وطيء الأرض) صلة من وعائدها الضمير المستتر في وطيء. والوطيء: العلو مصدر وطيء من باب تعب.

أي: يا خير من علا الأرض (الفتقية) أَيْ: المنسوبة للفتق بفتح الفاء،

أو المفتوقة، والفتق بفتح الفاء وسكون التاء: المكان المنفرج المتصل أو المنفصل بعضه عن بعض، كما في "القاموس".

قال كعب الأحبار: خلق الله السماوات والأرض بعضعها على بعض، ثم خلق ريحًا توسطتها ففتقتها، وجعل السماوات والأرضين سبعًا.

وحكى القتيبي في "عيون الأخبار" له: عن إسماعيل بن أبي خالد قال في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها، ففتق من هذه سبع سماوات، ومن هذه سبع أرضين، خلق الأرض العليا فجعل سكانها الإنس والجن، وشقّ فيها الأنهار وأنبت فيها الثمار، وجعل فيها البحار، وعرضها خمسمائة عام.

ثم خلق الثانية مثلها في العرض والغلظ، وجعل فيها أقوامًا أفواههم كأفواه الكلاب، وأيديهم أيدي الناس، وآذانهم آذان البقر، وشعورهم شعور غنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج.

ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام، ومنها هواء إلى الأرض الرابعة، ثم خلق الرابعة وخلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود، ولها أذناب مثل أذناب الخيل في الطول، يأكل بعضها بعضًا، فتسلّط على بني آدم.

ثم خلق الله الخامسة مثلها في الغلظ والطول والعرض، فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار. ثم خلق الله الأرض السادسة فيها حجارة سود بهم ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام تبعث تلك الحجارة يوم القيامة

وكل حجر منها كالطود العظيم وهي من كبريت تعلق في أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾،

ثم خلق اللَّه الأرض السابعة وفيها جهنم فيها بابان اسم الواحد سجين، واسم الآخر الفلق، فأما سجين فهو مفتوح وهو كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون، وأما الفلق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة. ذكره في "الفتوحات الإلهية".

(إن اللَّه معك) أَيْ: بولايته الدائمة التي يحوم حولها شيء من الخزن وعنايته وحفظه ولطفه وفضله. (وملائكته) أَيْ: معك كذلك بالحفظ والحراسة والنصرة والمعونة والعناية. (فما عليك) أَيْ: ليس عليك (من خوف) بأس تخافه.

(بعد هذا العصمان) أَيْ: الحفظ وهو بكسر العين مصدر عصم من باب ضرب مثل غرف يغرف غرفة وغرفانًا، يعني: عصمه اللَّه من المكروه حفظه ووقاه.

ثم اعلم أن أصل قول المؤلف: وجاءت ذات يوم إلى آخره، قول حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كما في السير عنها: لم نزل نعرف من اللَّه الزيادة والخير حتى مضى سنتاه وفصلته.

وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا، والجفر بالجيم والفاء: من ولد الشاة ما عظم واستكثر واتسع جنباه أو بلغ أربعة أشهر، والصبي إذا انتفخ لحمه وأكل اه "القاموس".

فقدمنا به إلى أمه ونحن أحرص شيء على بقائه عندنا، لما نرى من بركته، فقلنا لأمه: لو تركتيه عندنا حتى يغلظ فإنّا نخشى عليه وباء مكة، فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به، فو الله إنه لبعد مقدمنا به بشهر أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة، لفي بُهم لنا خلف بيوتنا جاء أخوه يشتد فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقّا بطنه.

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه، فوجدناه قائمًا منتقعًا لونه فاعتنقه أبوه وقال: أي بني ما شأنك؟، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقّا بطني ثم استخرجا منه شيئًا، فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا. فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي فرديه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوفه، قالت: فاحتملناه حتى قدمنا به مكة على أمه، بعد أن ضلّ بنا في باب مكة، حتى نزلت لقضاء حاجتي فأعلمت عبد المطلب بذلك.

فطاف بالبيت أسبوعًا ودعى الله يرده، فسمع مناديًا ينادي: يا معاشر الناس لا تضجوا فإن لمحمد ربًّا لا يضيعه ولا يخذله. فقال عبد المطلب: يا أيها الهاتف من لنا به وأين هو؟، فقال: بوادي تهامة.

فأقبل عبد المطلب راكبًا مسلحًا، فلما صار في بعض الطريق لقي ورقة بن نوفل فسارا جميعًا فوجداه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة.

وفي رواية بني أبو مسعود الثقفي وعمرو بن نفيل: على راحلتها إذا هما به قائمًا عند شجرة الموز، يتناول من ورقها، فأقبل إليه عمرو وهو لا

يعرفه، فقال: من أنت؟، فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى أتى به عبد المطلب.

وعن ابن عباس: لما ردَّ الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عبد المطلب، تصدّق بألف ناقة كرماء بفتح الكاف وضمها أَيْ: ضخمة السنام، كما في "المصباح"، وخمسين رطلاً من ذهب، وجهّز حليمة بأفضل الجهاز.

فقال أمه: ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه؟، قلنا: خشينا عليه الإتلاف والأحداث، فقالت: ما ذاك؟ فأصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، قالت: أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن عظيم، فدعاه عنكما.

قالت أمه ذلك لما شاهدته في حملها به وعند ولادته، كما صرحَّت به لحليمة فقالت كما في حديث ابن إسحاق: أَفَلَا أُخْبِرُكِ خَبَرَه؟، رَأَيْتُ حِينَ حملتُ به خرج مني نور أضاء قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَوَاَللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْ حَمْلٍ قطُّ كان أخفَّ وَلَا أَسرع مِنْهُ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتُهُ وَإِنَّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بالأرضِ، رَافِعٌ رَأَسَهُ إلَى السَّمَاءِ. إلى آخر ما تقدَّم.

وظاهر هذا السياق بل صريحه أن شق الصدر ورجوعه إلى أمه كان في السنة الثالثة، لقوله فيه بشهرين أو ثلاثة. وقد قال ابن عباس: رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين ويومين. وقال الأموي: هو ابن ست سنين.

والراجح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين، وأن شق صدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان في الرابعة، كما جزم به

الحافظ العراقي في "نظم السيرة" وتلميذه الحافظ ابن حجر في "السيرة".

قال العراقي:

أقـامَ فـي سَـعدِ بـنِ بكـرٍ عنـدَها   أربعــةَ الأعــوامِ تَجْنــي سَــعْدَها

وحــينَ شَــقَّ صــدرَهُ جبريــلُ   خَافــتْ عليــهِ حَــدَثًا يَــؤولُ

ولفظ سيرة ابن حجر: أقام عندها أربع سنين أرضعته حولين كاملين، ثم أحضرته إلى أمه وسألتها أن تتركه عندها إلى أن يشب ففعلت، فأتاه جبريل فشقَّ صدره وأخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، فخافت عليه حليمة فأرجعته إلى أمه.

وفي حديث عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "كنت مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن واد، مع أتراب لي من الصبيان، إذ أنا برهط ثلاثة، معهم طست من ذهب مليء ثلجًا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصبيان هربًا بكسر الهاء وتخفيف الراء جمع هارب اه "زرقاني". مسرعين إلى الحي.

فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم شقَّ ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه، لم أجد لذلك مسًا، ثم أخرج أحشاء بطني، ثم غسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني فقال لصاحبه: تنح، ثم أدخل يده في جوفي وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه وصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها.

ثم قال أَيْ: أشار بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيئًا، فإذا بخاتم في يده

من نور يحار الناظر دونه، فختم به في قلبي وامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا. ثم قال الثالث لصاحبه: تنح، فمر يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن اللَّه تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضًا لطيفًا.

ثم قال الأول للثالث: زنه بعشرة من أمته فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فرجحتهم، ثم قال: زنه بألف فرجحتهم، فقال: دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم، ثم ضموني إلى صدورهم وقبَّلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا: يا حبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرّت عيناك.

وفي بقية هذا الحديث من قولهم: ما أكرمك على اللَّه إن اللَّه معك وملائكتك، قال أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي ذر كما رواه الدارمي: فما هو إلا أن وليًا عني فكأنما أعاين الأمر أَيْ: أمر النبوة والرسالة معاينة.

وفي رواية ابن عباس عند البيهقي: قالت حليمة: إذا أنا بابني ضمرة يعدو فزعًا ينادي: يا أبت يا أماه، الحقا محمدًا أتاه رجل فاختطفه من أوساطنا، وعلا به ذروة أَيْ: أعلى الجبل، حتى شقّ صدره إلى عانته.

وفيه أَيْ: حديث ابن عباس: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أتاني رهط ثلاثة بيد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمردة خضراء.

والحديث بطوله، ولا مخالفة بين الحديثين لاحتمال واللَّه أعلم أن

الطست من ذهب، وأن الزمرد مرصع فوق الذهب.

فإن قلتَ: هل غسل قلبه الشريف في الطست خاص به، أو فعل بغيره من الأنبياء عليهم السلام؟.

أُجيب: بأنه ورد في خبر التابوت والسكينة المذكورين في الآية، أنه كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء، فليس خاصًّا بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذكره الطبري محمد بن جرير أحد الأعلام.

و التابوت هو الصندوق الذي كان فيه صور الأنبياء، أنزله اللَّه على آدم قاله الجلال، وقال البيضاوي: هو صندوق التوراة وكان من خشب الشمشار مموهًا بالذهب نحوًا من ثلاثة أذرع في ذراعين.

ولا منافاة بينهما، والسكينة الطمأنينة الحاصلة من ذلك التابوت، وقيل: إنها ريح هفافة لها وجه كوجه إنسان، ورأس كرأس الهر، وبعينيها شعاع. إذا التقى الجمعان أخرجت يديها ونظرت إليها، فيهزم الجيش من الرعب، قاله الزرقاني.

وحكمة ختم قلبه المقدس الإشارة إلى ختم النبوة به، وهذا مسلم إن كان خاصًّا به، بل بكل نبي، فتكون الحكمة أنه علامة يمتاز بها النبي عن غيره ممن ليس بنبي.

على أن هذه الكيفية المذكورة في شق قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظاهر أنها من خواصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع تكرر الشق، لأن الوارد فيهم مجرد غسل قلوبهم وهو لا يستلزم هذه الكيفية البديعة البالغة من خرق العادة والتعظيم مبلغًا لا يدركه العقل.

والحكمة في شق صدره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حال صباه، وهو عند ظئره، واستخراج العلقة منه، تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية، ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره، وخلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقت تكملة للخلق الإنساني ولا بد ونزعها كرامة ربانية طرأت بعده، فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية من خلقه بدونهما، قاله العلامة السبكي.

قال بعض الأئمة: ولعل هذا الشق كان سببًا في إسلام قرينه المروي عند البزار، وإشارة إلى حظ الشيطان المباين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه اللَّه منه.

وأما قول الرازي وقوعه حال الطفولية مشكل لأنه معجزة وهي لا تجوز تقدمها على النبوة، لأن الذي عليه أكثر أهل الأصول اشتراط اقتران المعجزة بالتحدي، فمردود، بأن هذا من باب الإرهاص لا المعجزة، ونظائر ذلك كثيرة.

قيل: وهذا الشق هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وروي الشق أيضًا وهو ابن عشر من السنين أو نحوها يعني أشهرًا كما في رواية الزوائد، وهي المرة الثانية مع قصة له مع عبد المطلب.

وقد رواها أبو نعيم في "الدلائل" ورواها أيضًا عبد اللَّه بن أحمد في "زوائد المسند" بسند رجاله ثقاة، وابن حبان والحاكم وابن عساكر والضياء في "المختارة": عن أبي بن كعب: أنا أبا هريرة قال: يا رسول اللَّه ما أول ما

ابتدئت به من أمر النبوة؟، قال: إن لفي صحراء ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي، يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟، قال: نعم، فأخذاني فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على خلق قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأخذهما مسًّا، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، ففلقاه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، ثم قال: شق قلبه، فشق قلبي فأخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به.

ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئًا كهيئة الفضة، ثم أخرج ذرورًا كان معه فذر عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد، فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورأفتي على الكبير.

قال الشامي: والحكمة فيه أن العشر قريب من سن التكليف فشقّ قلبه وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال. قال: لكن هل كان في هذه المرة بختم لم أقف عليه في شيء من الأحاديث. وأما الثلاث المرات ففي كل مرة يختم كما هو مقتضى الأحاديث اه ملخصًا.

وقد وقع شق صدره الشريف واستخراج قلبه منه مرة أخرى هي ثالثة، عند مجيء جبريل له بالوحي، وهو بغار حراء كما يأتي، وممن رواها الطيالسي والحارث في "مسنديهما" وكذا أبو نعيم والبيهقي في "دلائلهما"، ولفظه: أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه ثم قالا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات.

والحكمة فيه زيادة الكرامة وكمال النبوة، والتقوى على ما يلقى إليه من القول الثقيل بقلب قوي في أكمل أحوال التطهير.

وثبت شق صدره الشريف مرى أخرى هي رابعة، تواترت بها الروايات خلافًا لمن أنكرها ليلة الإسراء، ففي "البخاري" وغيره: أنه شقّ قلبه فيها وهو بالمسجد الحرام، قبل أن يخرج به إلى ركوبه البراق، فشقّ نقرة نحره إلى عانته، فأخرج قلبه ثم غسله ثلاث مرات في طست من ذهب، أَيْ: لأن تحريم الذهب إنما كان بعد على أن الغالب في أحوال تلك الليلة، أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحكام الآخرة مملوء حكمة وإيمانًا، ثم حشى أَيْ: وتجسم المعاني جائز، ومنه الرواية الصحيحة بذبح الموت إلخ.

ثم أعيد قال الحافظ: والحكمة فيه الزيادة في إكرامه ليتهيأ للترقي إلى الملإ الأعلى، وليتأهب للمناجاة وليتقوى على استجلاء ما شاهد تلك الليلة، ولم يتفق هذا لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لم يطق الرؤية.

وقيل: يحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروي: شق صدره الشريف مرة خامسة وهو ابن عشرين سنة فيما قيل، ولا تثبت فلا تذكر إلا مقرونة ببيان عدم الثبوت. وقيل: بل الوارد أربع مرات ونظمها العلامة الأجهوري بقوله:

وشق صدر الْمُصْطَفى وَهُوَ فِي دَار بني سعد بِلَا مرية
كشقه وَهُوَ ابْن عشر ثم فِي ليلة معراجه وَعند الْبعْثَة

واعلم أن جميع ما ورد من الشق وإخراج القلب وغيرهما يجب

الإيمان به، وإن كان خارقًا للعادة، ولا يجوز تأويله لصلاحية القدرة له، ومن زعم ذلك وقع في هوة المعتزلة المكفرين عند كثير من العلماء في تأويلهم نصوص سؤال الملائكة وعذاب القبر ووزن الأعمال والحوض وغير ذلك بالتشهي، فقبَّح اللَّه هؤلاء ومن تبعهم.

وقد رُمي إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في النار، فكانت عليه بردًا وسلامًا، وهذا الشق أبلغ في الصبر، والكرامة مما وقع لإسماعيل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه مقدمات ذبح لا حقيقته، كما هو رأي أهل السنة، وبتقديره الذي ذهب إليه المعتزلة أنه أضجعه وأمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئًا، فذلك مقتل واحد وهذه مقاتل عديدة، شق الصدر، ثم إخراج القلب ثم شقه.

ووقع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك الشق الأول نوع مشقة لرواية، فأقبل وهو منتقع اللون أَيْ: صار لكون النقع أَيْ: الغبار، وهو شبيه بألوان الموت.

ومعنى قول ابن الجوزي: فشقَّه وما شقَّ عليه أنه صبر صبر من لم يشق قلبه، ومما يدل على المشقة أنه بعيد ما فطم مع انفراده عن أمه ويتمه من أبيه، واختطافه من بين الأطفال ليكون ذلك تسهيلاً لما يلقاه في المآل. ومن ثم لم شجّ وجرح وكسرت رباعيته يوم أُحد قال: اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وفي روايةٍ: أنه غسل ليلة الإسراء بماء زمزم أَيْ: لأنه يقوي القلب ويسكن الروع، وأخذ البلقيني من إيثار الملك له على ماء الكوثر، أنه

أفضل منه وهو ظاهر، لأنه لم يكن يغسل قلبه الشريف إلا بأفضل المياه أَيْ: المحمودة إذا ذاك.

فلا يرد عليه قول ابن الرفعة: والماء الذي نبع من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف المياه، لأنه لم يكن موجودًا إذ ذاك، نعم قد ينازع فيما قال ابن الرفعة الحديث الصحيح: خير ما على وجه الأرض ماء زمزم، إلا أن يجاب بنحو ذلك بأنه لم يكون موجودًا عند قول ذلك كما في "شرح العباب" لابن حجر.

قال الطبلاوي في "شرح التجريد": وأفضل المياه على الإطلاق الماء النابع من بين أصابعه الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ماء زمزم، ثم ماء الكوثر، ثم الأنهار الخمسة النازلة من الجنة وهي: سيحان وحيجان بالألف لا بالواو خلافًا لجمع، ودجلة والفرات، ونيل مصر. وأفضل الخمسة فيما يظهر نيل مصر، إلى أنه أكثر نفعًا من سائر المياه. ونظم ذلك بعضهم بقوله:

وأفضل المياه ما قد نبع ... من بين أصابع النبي المتبع
يليه ماء زمزم فالكوثر ... فنيل مصر ثم باقي الأنهر

تنبيه: قال القاضي عياض: خاتم النبوة أثر شق الملكين بين كتفيه. قال النووي: هذا الذي قاله ضعيف، بل باطل، لأن شق الملكين إنما كان فى صدره وبطنه اه.

ويشهد له قول أنس فى حديث عند مسلم: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتاه جبريل وَهُوَ يلْعَب مَعَ الغلمان، فَأَخذه فصرعه فشق عَن قلبه واستخرج

الْقلب ثمَّ شقّ الْقلب، فاستخرج مِنْهُ علقَة فَقَالَ: هَذَا حَظّ الشَّيْطَان مِنْك، ثمَّ غسله فِي طست من ذهب بِمَاء زَمْزَم، ثمَّ لامه فَأَعَادَهُ فِي مَكَانَهُ، وَجعل الغلمان يسعون إِلَى أمه يعْني ظئره، فَقَالُوا: إِن مُحَمَّدًا قد قتل، فَجَاءُوا وَهُوَ منتقع اللَّوْن، قَالَ أنس: فَلَقَد كنت أرى اثر الْمخيط بكسر الميم فِي صَدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وظاهره أنه كان بآلة كالشق، ويدل له قول الملك في حديث أبي ذر: خط بطنه فخاطه. وقوله في حديث عتبة بن عبد السلمي: حِصْهُ فَحَاصَهُ. وقد وقع السؤال عن ذلك ولم يجب عنه أحد، ولم أر من تعرض له بعد التتبع.

وأما قوله: وأتيت بالسكينة فوضعت في صدري، فالصواب كما قال ابن دحية: تخفيف السكينة لذكرها بعد شق البطن، خلافًا للخطابي. وقوله: حصه بمهملة مضمومة ثم صاد مهملة ساكنة يحوص حوصًا إذا خاطه، ذكره الزرقاني عن الشافعي.

وأجيب عن القاضي عياض بأن في حديث عتبة بن عبد السلمي: أن الملكين لما شقا صدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في بني سعد بن بكر، قال أحدهما للآخر: خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة، فلما ثبت أن خاتم النبوة بين كتفيه حمل القاضي عياض ذلك على أن الشق لما وقع في صدره، ثم خيط حتى التأم كما كان، ووقع الختم بين كتفيه كان ذلك أثر الختم.

وفهم النووي وغيره منه: قوله: بين كتفيه متعلق بالشق وليس كذلك،

بل هو متعلق بأثر الختم، وحينئذ فليس ما قاله القاضي عياض باطلاً.

وأجاب أبو عبد الله الآبي بأنه نص في حديث أبي ذر أن وضع الخاتم كان بعد الشق، قال: فلفظة أثر في كلام القاضي ليست بفتح الهمزة والثاء، وإنما هي بكسر الهمزة وسكون الثاء، ويتخرج الكلام على حذف مضاف تتعلق به لفظة بين، أَيْ: وضع هذا الخاتم بين كتفيه أثر شق الصدر والكلام مستقيم دون غلط، ولا بطلان وإنما جاء ما فهمه النووي وغيره من قبيل التصحيف اه.

وفي "نسيم الرياض": حديث أبي ذر المذكور موافق لكلام عياض سواء قرئ أثر بفتحتين أو بكسر فسكون. أما الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأنه لما وقع بعده وبسببه جعل أثرًا.

وأجاب بعضهم بأن قوله: بين كتفيه خبر بعد خبرن لقوله هو فقد تحامل من اعترض عياضًا، لأن مثل هذا ظاهر جدًا. وقال السهيلي: والصحيح أنه -يعني خاتم النبوة- كان عند نغض كتفه الأيسر، وهو بنون مضمومة وتفتح فمعجمتين: أعلاه. ورواية الأيمن ضعيفة.

واختلف هل ولد وهو به؟، أو وضع بعد ولادته؟، على قولين. وقد وقع التصريح بوقت وضع الخاتم وكيف وضع ومَن وضعه في حديث أبي ذر عند البزار وغيره قال: قلت يا رسول الله كيف علمت أنك نبي، وبمَ علمت أنك نبي حتى استيقنت؟، قال: أتاني آتيان، وفي روايةٍ: ملكان، وأنا ببطحاء مكة أَيْ: بنواحيها لأنه كان في بني سعد وليس بمكة إذ الأبطح بمكة المحصب، فوقع أَيْ: نزل أحدهما بالأرض، فقال لصاحبه: أهو

هو؟، قال: هو هو، قال: زنه برجل. الحديث.

وفيه: ثم قال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، واغسل قلبه غسل الملاء جمع ملاءة بالضم والمد: الثوب الذي يتغطى به، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطني، وجعل الخاتم بين كتفي، كما هو الآن، ووليًّا عني وكأني أرى الأمر معاينة. فصرح في هذا الحديث بأنه ما وُلد بالخاتم، وإن واضعه الملك وكيفية وَضعه.

وفيه أَيْ: حديث أبي ذر: ثم دعا بسكينة كأنها برهرة بيضاء، فأدخلت قلبي. قال السهيلي: البرهرة بصيص البشرة، وزعم الخطابي: أنه أراد بها سكينة بيضاء صافية الحديد، متمسكًا بأنه عثر على رواية فيها، فدعا بسكينة كأنها درهمة بيضاء، قال ابن الأنباري: هي السكينة المعوجة الرأس، التي تسميها العامة: المنجل بالجيم.

قال ابن دحية: والصواب السكينة بالتخفيف لذكرها بعد شق البطن، فإنما عنى بها فعيلة من السكون وهي أكثر ما تأتي في القرآن بمعنى السكون والطمأنينة.

وصحَّ عند أحمد وصححه الحاكم: ثم استخرجا قلبي فشقَّاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء وثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه فحاصه، وختم عليه بخاتم النبوة.

وعند أبي نعيم في "الدلائل": أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وُلد ذكرت

أمه أن الملك غمسه في الماء الذي أنبعه أَيْ: أحضره الملك ذلك الوقت في الإبريق الفضة، كما مرّ ثلاث غمسات، ثم أخرج سرقة بفتح المهملة والراء والقاف، أَيْ: قطعة، فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه فأثر فيها ما صورته كالبيضة المكنونة، تضيء كالزُّهَرة بضم الزاي وفتح الهاء: النجم، قاله النووي وغيره، فأفاد في ذا الخبر أن الخاتم وضع عقب الولادة، فهو دليل القائل به لكن فيه نكارة.

وروى الحاكم في "المستدرك" عن وهب بن منبه قال: لم يبعث اللَّه نبيًا إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه. وعلى هذا فيكون وضع الخاتم بين كتفيه بإزاء أَيْ: حذاء قلبه مما اختص به على سائر الأنبياء واللَّه أعلم.

وتباينت الروايات في كتفيه تشبيه ذلك الخاتم وفي محله من الظهر. ففي "البخاري": أنه كان بين كتفيه وأنه كان ينم بضم النون وكسرها أَيْ: تظهر منه رائحة المسك، من قولهم: نمت الريح إذا جلبت الرائحة، وهو مستعار من النميمة، ومنه سمي الريحان نمامًا لطيب رائحته، وهي استعارة لطيفة شائعة كما قاله الزرقاني ينم مسكًا.

وأنه مثل زر الحجلة أَيْ: بالزاي فالراء وبالحاء فالجيم، قاله النووي: واحدة الحجال، وهي بيت كالقبة له أزرار كبار وعرًا، وشذ من جعلها الطائر المعروف. وزرها: بيضها. وفي "مسلم": جمع أَيْ: بضم فسكون أَيْ: كجمع الكف عليه. وقوله: خيلان أي بكسر فسكون: جمع خال وهو

الشامة على الجسد. كأنها الثآليل السود بالمثلثة جمع ثؤلول: وهو حب يعلو ظاهر الجسد، واحدته كالحمصة فما دونها. عند نغض كتفه أَيْ: أعلاه.

وفي روايةٍ: أنه الأيسر، وصححها القرطبي والسهيلي وغيرهما. وأخرى: أنه الأيمن. وفي "مسلم" أيضًا: كبيضة الحمامة. وفي صحيح الحاكم: شعر مجتمع. وفي "البيهقي": مثل السلعة بين كتفيه. وفي "الشمائل": بضعة ناشزة. وفي حديث عمرو بن أخطب: كشيء يختم به. وفي "تاريخ ابن عساكر": مثل البندقة. وفي الترمذي و"دلائل البيهقي": كالتفاحة. وفي "الروض": كأثر المحجمة بكسر الميم القابضة على اللحم. وفي "تاريخ ابن أبي خيثمة": شامة خضراء محتفرة بالراء أَيْ: غائرة في اللحم مغطاة بالجلد.

وفيه أيضًا: شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكمات كأنهن عرف الفرس. وفي "تاريخ القضاعي": ثلاث شعرات مجتمعات. وفي كتاب الترمذي الحكيم: كبيضة حمامة مكتوب في باطنها: اللَّه وحده لا شريك له، وفي ظاهرها: توجّه حيث كنت فإنك منصور. وفي كتاب المولد لابن عائذ: كان نورًا يتلألأ. وفي سيرة ابن أبي عاصم: عذرة كعذرة الحمام. قال أبو أيوب: يعني قرطمة الحمامة في "القاموس" بكسر القاف. وهي نقطتها على أصل منقارها. وفي "تاريخ نيسابور": مثل البندقة من لحم مكتوب فيه: محمد رسول اللَّه.

ولا تعارض بين هذه الروايات بل كل راوٍ شبّه ذلك الخاتم بحسب ما

سنحله وما وقع في روايته أو مع تأمل، فكلها ألفاظ مؤداها واحد وهو قطعة لحم حولها شعرات.

ومن ثم قال القرطبي: الأحاديث الثابتة دالة على أن خاتم النبوة كان شيئًا بارزًا أحمر عند كتفه الأيسر، إذا قلل كان كبيضة الحمامة، وإذا كبر كان كجمع الكف أَيْ: على هيئته لكنه أصغر منه، ويشكل عليه رواية: محتفرة في اللحم. ويجاب: بأنه يحتمل أن حواليها احتفار ليزداد ظهورها وتميزها عن الجلد، والله أعلم.

(ثم) بعد قولهما أَيْ: الملكين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن اللَّه معك. (لم) للنفي و(يزل) نفي، ونفي النفي إثبات أَيْ: يستمر (هكذا) في حفظ ورعاية من اللَّه وزيادة خير ورفعة وعناية.

(وهو) أَيْ: والحال أنه مع ذلك (يكبر) بفتح الباء إن حمل على السن في الماضي وفي الجسم، والمعنى بضم الباء، يقال: كبر جسمه بالضم وكبر مقتًا بالضم أيضًا، يقال: كبر يكبر بضم الباء في الماضي والمضارع من باب قرب أَيْ: عظم فهو كبير أَيْ: عظيم، فعلى هذا ينزل كلام المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونظم بعضهم هذه المادة في الماضي والمضارع فقال:

كبر بكسر الباء في السن وارد ... مضارعه بالفتح لا غير يا صاحي
وفي الجسم والمعنى كبرت بضمها ... مضارعه بالضم جاء بمصباح

لأن بمعنى سُمي (و) قوله: (دُعي) بالبناء للمجهول ونائب الفاعل يعود على المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يتعدى لمفعولين الأول نائب

الفاعل. و(الأمين) مفعوله الثاني. والتقدير وسمى أهل مكة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمين، سمي بذلك لأنه حافظ الوحي قوى على الطاعة. فعيل بمعنى فاعل.

روى مسلم عن أبي سعيد رفعه: ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، نسب عياض لأكثر المفسرين أن الرسول هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كان يدعى بذلك في صغره لوقاره وصدق لهجته، واجتنابه القاذورات والأدناس، وقد قالت قريش عند بناء البيت: هذا الأمين رضينا. وقال كعب بن مالك فيه:

أمين محب للعباد مسوم بخاتم رب قاهر للعوالم

أو بمعنى مأمون فعيل بمعنى مفعول من الائتمان، بمعنى الاستحفاظ والوثوق بالأمانة. سمي بذلك لأن اللَّه ائتمنه على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه، وكساه من الأمانة التي هي ضد الخيانة حلة وافرة، وتوجّه بتاج الصدق المرصع بدررها الفاخرة. فهو معصوم من الخيانة في ظاهره وباطنه قبل النبوة وبعدها.

(لأمانته القريحية) بزيادة الياء قبل الهاء أَيْ: الطبيعة الأصلية، والقريحة أول ما يستنبط البئر كالقرح، وأول كل شيء، والقرح بالضم: أول الشيء، والقريح: السحابة أول ما تنشأ، والخالص اه. "القاموس".

(وتزوج) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بخديجة) أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،

بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فتجتمع مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الجد، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم لقبه واسمه جندب بن حجر بن يغيض بن عامر بن لؤي.

كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تدعى في الجاهلية والإسلام بالطاهرة لسدة عفافها وصيانتها، وكانت تسمى سيدة نساء قريش، وكانت تحت هالة النباش بن زرارة بن عدي التميمي بميمين من بني تميم، فولدت له هندًا الصحابي راوي حديث الصفة النبوية البدري الفصيح الوصَّاف، وهالة التميمي له صحبة أيضًا، وهما ذكران.

ثم بعد موت أبي هالة في الجاهلية تزوجها عتيق بن عابد بالموحدة والدال المهملة ابن عبد اللَّه بن عمرو بن مخزوم المخزومي القرشي، فولدت له جارية اسمها هند أسلمت وصحبت ولم ترو شيئًاز وبعضهم يقدّم عتيقًا على أبي هالة.

بعد موت عتيق عنها تزوجها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد قدومه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يومًا، ولها من العمر أربعون سنة وبعض أخرى.

(وهو) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ (ابن خمس وعشرين) سنة، وهذه الرواية صدر بها ابن عبد البر، وقطع بها عبد الغني وهي رواية الواقدي وابن السكن. قال في "الغرر": وهو الصحيح الذي عليه الجمهور. وقيل: كان سنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إحدى وعشرين سنة. وقيل: ثلاثين سنة.

وكانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول خلق اللَّه تعالى إسلامًا بإجماع

المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة، فسنَّت أحسن السنن، فلم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. وكانت ربة بيت في الإسلام منفردة به، فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضًا غيرها.

وفي "الصحيحين": من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن جبريل قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام -أو إدام أو شراب-، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيها ولا نصب. والقصب: اللؤلؤ المجوف.

فلذا كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي (الحائزة) بالرفع خبر، أَيْ: الجامعة للبيتين اللذين هما (القصران)، ويصح أن يكون قوله: الحائزة نعت لخديجة فيكون مجرورًا والقصران مضاف إليه، ويتمشى على أحد اللغات المتقدمة. أما على أنه على لغة من يلزم المثنى الألف في أحواله، أو على لغة من يعربه إعراب المفرد، فيكون الإعراب على النون مجرورًا بكسرة ظاهرة، وكل صحيح. والقصر: المنزل، أو كل بيت من حجر وغيره، والمقصورة: الدار الواسعة المحصنة.

وسبب تزويج خديجة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن أبا طالب قال له: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من

طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهودها، ولكن لا نجد من ذلك بدًا، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لعلها ترسل إليَّ في ذلك، فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك، فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، وأرسلت إليه، وقالت: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، فذكر ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه، فقال: إن هذا الرزق ساقه الله إليك.

فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وسافر الشام) بالهمزة وغيره أَيْ: جهة، ومعه ميسرة غلام خديجة كما سيأتي، (في تجارة) لها، وكانت خديجة تاجرة ذات شرف ومال كثير، وتجارة تبعث بها إلى الشام، فتكون عيرها كعامة عير قريشن وكانت تستأجر الرجال، وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن منهم تاجرًا فليس عندهم بشيء.

فسار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بلغ سوق بُصرى بضم الموحدة وسكون الصاد المهملة: مدينة حوران، فتحت صلحًا لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاثة عشرة، وهي أول مدينة فتحت بالشام. وقيل: حتى بلغ سوق حباشة بحاء مهملة مضمومة فموحدة فألف فشين معجمة فتاء تأنيث، وهو سوق بتهامة بكسر التاء: اسم لكل ما نزل عن نجد إلى بلاد الحجاز ومكة من تهامة.

وذلك لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فنزل تحت ظل شجرة

في سوق بصرى قريبًا من صومعة نسطورا الراهب، فاطلع إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال نسطورا الراهب: يا ميسرة مَن هذا الذي تحت هذه الشجرة؟، فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي. وفي روايةٍ: بعد عيسى.

فعرف نسطورا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ مال إليه ظل الشجرة، ودنا إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبَّل رأسه وقدميه، وقال: آمنت بك وأنا أشهد أنك رسول اللَّه النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة ولواء الحمد. ذكره أبو سعيد في "الشرف".

وعند الواقدي وابن السكن: ثم قال نسطورا لميسرة: أفي عينيه حمرة؟، فقال ميسرة: نعم، لا تفارقه أبدًا، فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة.

ثم حضر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوق بُصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أحلف باللات والعزى، فقال له: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال لميسرة وقد خلا به: هذا نبي، والذي نفسي بيده إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتًا في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعًا.

في شدة الحر (و) وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كانت تظلل عليه) من الشمس وهو راكب على بعيره، إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، والمظلون عليه (جماعة من الملائكة المعصومية) أَيْ: المعصومين من فعل ما لا يليق،

إذ هم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلانه في الشمس، لما رجع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وميسرة إلى مكة ساعة الظهيرة وشدة الحر، (ورأت) السيدة (خديجة) النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي في علية أَيْ: غرفة لها في بيتها بمكة، ولم تكن منفردة بل (مع نساء) كم معها في العلية، (حين) أَيْ: وقت (قدومه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راكبًا على بعير و(يظلانه) أَيْ: يمدان أجنحتهما عليه ليكون ظلة له ووقاية من حر الشمس، (ملكان) بفتح اللام مثنى ملك بفتح اللام أيضًا.

فأرته النسوة اللاتي كن حاضرات وجالسات معها، فعجبن لذلك، ودخل عليها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما ربحه في التجارة، وقد ربحت ضعف ما كانت تربح، فسرّت وفرحت بذلك، وأضعفت أَيْ: زادت ما كانت سمته له.

(فذكرت) خديجة (ذلك) أَيْ: ما رأته من إظلال الملائكة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الظهيرة من حر الشمس، (لميسرة) بفتح السين المهملة وضمها كما في "الشهاب"، وهو غلامها الذي بعثته مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفره.

فسألته حين دخل عليها (فأخبرها) ميسرة (أنه رأى ذلك) أَيْ: كونه مظللاً من السماء بالملكين وشاهده بعينه (من) وقت ما صحبه (منذ خرج معه في السفرية) أَيْ: في السفر كله من أوله إلى آخره.

وأخبرها أيضًا بقول نسطورا الراهب له، وبما أودعه إليه من الوصية

بعدم مفارقته له، وكونه معه بعزم صادق ونية حسنة، وبما قاله الرجل الآخر الذي اختلف معه في السلعة.

وما ذكره ابن إسحاق في المبتدأ حيث قال لنساء قريش في عيد يجتمعن فيه فاجتمعن يومًا فيه، فجاءهن يهودي فنادى بأعلى صوته فقال: أنه سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد، فمن استطاعت منكن أن تكون فراشًا وزوجًا له فلتفعل، فحصبنه أَيْ: رمينه بالحصباء وقبّحنه وأغلظن له، وأغضت بغين وضاد معجمتين أَيْ: سكتت خديجة على قوله، ولم تعرض فيما أعرض فيه النساء.

ووقر ذلك في نفسها، وأدركت بقوة ذكائها وتفرسها فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه وبه، كلما تمنَّته وأمَّلته مما لم تبلغه امرأة من هذه الأمة.

فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات والإرهاصات وما رأته هي، وقالت: إن كان ما قاله اليهودي حقًّا ما ذاك إلا هذا. فخطبته إلى أن تتزوج به، وعرضت نفسها عليه بلا واسطة، كما عند ابن إسحاق: أنها عرضت عليه نفسها، فقالت: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسلطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك.

أو بواسطة كما رواه ابن سعد من طريق الواقدي عن نفيسة بنت منية، قالت: كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد اللَّه تعالى بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيسًا إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد

أن رجع في عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟، فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟، قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟. فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه: أن ائت لساعة كذا واخطبني، قال: إن أباك رجل كثير المال ولا يفعل اه.

وفي "الروض": ذكر الزهري في "سيرته": أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة: هلم فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمهما وتتحفهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة هي أختها، فقالت له: جئت خاطبًا يا محمد؟، قال: كلا، فقالت: ولِمَ؟، فواللَّه ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤًا لها.

فرجع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطبًا لخديجة مستحيًا منها، وكان أبوها خويلد سكران من الخمر، فلما كلم في ذلك أنكحها، فألقت عليه خديجة حلة وضمخته بخلوق، فلما صحا من سكره، قال: ما هذه الحلة والطيب؟، فقيل: إنك أنكحت محمدًا خديجة، وقد ابتنى بها، فأنكر ذلك ثم رضيه وأمضاه.

ولا تعارض بين هذه الأسباب لعرضها نفسها عليه، فإن من جملة أسبابه وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشدة الحياء والعفة وغيرهما. فأرسلت له أولًا نفيسة لتعلم أله فيها رغبة، فلما علمت ذلك كلّمته بنفسها، فكأنه أبطأ عليها بعض أيام، فذكرته لأختها فمرّ عليها مع عمار، فقالت لعمار ذلك، فوافق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك، وكلَّم أعمامه، فذهب معه

اثنان منهم حمزة، حتى دخلا على أبيها خويلد بن أسد، فخطبها إليه فأجاب، فتزوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما تحيلت على أبيها بما ذكر، لأنه كان يرغب عن أن يزوجه والله هداها ووفقها، وكون أبيها هو الذي زوّجها هو ما جزم به ابن إسحاق، وقيل: أخوها عمرو بن خويلد، وقيل: عمها عمرو بن أسد، ورجّحه الواقدي. وأصدقها من ماله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة ما دفعه أبو طالب.

وحضر أبو طالب ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم.

فقال ورقة بن نوفل: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ يا معشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار.

ثم قال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا

عليَّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمدًا بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

ثم أن قوله في خطبته: وضئضيء معد بكسر الضادين المعجمتين وبهمزتين الأولى ساكنة، ويقال: ضيضيء بوزن قنديل وضؤضؤ بوزن هدهد وضؤضوء بوزن سرسور، ويقال أيضًا: بصادين وسينين مهملتين، وهو في الجميع: الأصل والمعدن، ذكره الشامي.

وعنصر مضر بضم العين المهملة وسكون النون وضم الصاد المهملة وقد تفتح: الأصل أيضًا، وغاير تفننًا والإضافة فيهما بيانية، أَيْ: أصل هو معد ومضر، وخصهما لشرفهما وشهرتهما، أو لما ورد أنهما ماتا على ملة إبراهيم عليه السلام، لكن وروده كان بعد ذلك بمدة فلعله كان مشهورًا في الجاهلية، ويجوز أن المراد بالأصل الشرف والحسب، والمعنى: من أشراف معد ومضر. وجعلنا حضنة بيته: كفلته والقائمون بخدمته. وسواس حرمه: من ساس الرعية.

وذكر الدولابي وغيره: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصدق خديجة من ماله زيادة على ما أعطاها أبو طالب، عشرين بكرة واثنتي عشر أوقية ذهبًا ونشًا. والأوقية: أربعون درهمًا، والنش بفتح النون وبالشين المعجمة: نصف أوقية.

وفي "المنتقى": فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكرًا من بكراتك، وأطعم الناس وهلم فقل مع أهلك، ففعل، وهي أول وليمة أولمها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم دخل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال معها فقرَّ اللَّه عينه، وفرح أبو طالب فرحًا شديدًا وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم.

وولدت منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولادًا ذكورًا وإناثًا، فالذكور: عبد الله ولُقِّب بالطيب والطاهر، والقاسم، والإناث: فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم، وأما إبراهيم فمن مارية التي هداها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقوقس ملك مصر. فجملة أولاده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعة، ثلاثة ذكور وأربعة إناث.

وماتت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بأربع، وقيل: خمس، لعشر خلون من شهر رمضان على الصحيح، وهي ابنة خمس وستين سنة في رواية الواقدي، وفي رواية: أريع وستين وستة أشهر، ودفنت بالحجون، ونزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفرتها، ولم يكن يومئذ يصلي على الجنازة لأنها لم تكن شرعت.

وكانت مدة مقامها مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسًا وعشرين سنة على الصحيح، وقيل: أربعًا وعشرين سنة وأربعة أشهر، قاله ابن عبد البر.

قال الشيخ ولي الدين العراقيك خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصحيح المختار عند العلماء بدليل حديث إقراء السلام عليها من الله تعالى، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة، رواه البخاري. أَيْ: مريم خير نساء الأمة الماضية، وخديجة خير نساء هذه الأمة.

وبقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفضل نساء الجنة: خديجة، وفاطمة بنت

محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم، من حديث ابن عباس.

(فيا عظيم شأنك) أَيْ: قدرك وعلو مكانتك، وعظم شأنك الذي لا يضاهى عند ربك (يا رسول الملك) بكسر اللام: الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ويحتاج إليه كل موجود. وقيل: من ملك نفوس العابدين فأفلقها، وملك قلوب العارفين فأحرقها. وقيل: من إذا شاء ملك، وإذا شاء أهلك. وقيل: غير ذلك. وحظ العبد منه ما قيل: من لاحظ الملك فنى عن المملكة، فالأعراض لا تشغله، والشواهد لا تقطعه، والعوائد لا تحجبه.

(الديان) معناه القاضي والقهار والحاكم، والمجازي الذي يضيع عملاً، بل يجازي بالخير والشر.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

اعلم أنه وقعت له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بين انتهاء رضاعه وما بين مبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمور وعلامات وإرهاصات، لا بأس بالإشارة إليها باختصار.

وذلك أن حليمة لما ردّته إلى أمه وجده، وكان في حفظ اللَّه، أنبته نباتًا حسنًا، ويوفّقه لأفضل الأعمال والأحوال، كما أشار بذلك البوصيري في "الهمزية" بقوله:

ألــف النســك والعبــادة وال   خلــوة طفــلاً وهكــذا النجبــاء

ولما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع سنين، وقيل: غير ذلك، كانت أمه

قدمت به طيبة تزور أخوال أبيه، فأقامت عندهم شهرًا، ومعها مملوكته أم يمن بركة الحبشية.

ولما رجعت به ماتت بالأبواء. وفي روايةٍ: أنها دفنت بالحجون. وفي أخرى: في بعض دور مكة. وحضنته بعدها أمته أم أيمن بركة.

ثم مات جده كافله، وله ثمان سنين. وقيل: أكثر. وقيل: أقل. فكفله عمه أبو طالب شقيق والده.

وأخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة، وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق السحاب وأغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والثمال بكسر المثلثة: الملجأ والغياث. وقيل: المطعم في الشدة. والعصمة: الحافظ من الضياع. والأرامل: المساكين رجال ونساء، لكنه في النساء أكثر استعمالاً، الواحد أرمل والواحدة أرملة.

وهذا البيت من جملة قصيدة له، فيها مدح عجيب له صلى الله عليه وسلم، ذكرها ابن إسحاق بطولها، وهي أكثر من ثمانين بيتًا.

قال ابن التين: إن فى شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان يعرف

نبوة النبي صَلى اللَّه عليه وسلم قبل أن يبعث، لما أخبره به بحيرى وغيره من شأنه.

وتعقبه الحافظ أبو الفضل ابن حجر: بأن ابن إسحاق ذكر أن إنشاء أبى طالب لهذا الشعر كان بعد البعثة، ومعرفة أبي طالب بنبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءت فى كثير من الأخبار وتمسك بها الشيعة فى أنه كان مسلمًا.

قال: ورأيت لعلي بن حمزة البصرى جزًا جمع فى شعر أبي طالب، وزعم أنه كان مسلمًا، وأنه مات على الإسلام، وأن الحشوية تزعم أنه مات كافرًا، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه.

ولما بلغ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، حتى بلغ بصرى، فرآه بحيرى الراهب، واسمه جرجيس، فعرفه بصفته فقال، وهو آخذ بيده: هذا سيد المرسلين، هذا يبعثه رحمة للعالمين.

فقيل له: وما علمك بذلك؟، فقال: إنكم حين أشرفتم به من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجدًا، ولا يسجد إلا لنبي، وإنى أعرفه بخاتم النبوة، فى أسفل من غضروف كتفه، مثل التفاحة، ثم سأل عمه أن يرده خوفًا عليه من اليهود. رواه ابن أبي شيبة.

وفيه: أنه صلى اللَّه عليه وسلم أقبل وعليه غمامة تظله.

ولما بلغ ثماني عشرة سافر إلى الشام مرة أخرى لتجارة على ما ورد، لكن بسند ضعيف. وفيه: أن أبا بكر قال: هذا واللَّه نبي، وأن ذلك سبب

إيمان أبي بكر به، لما بعث اتبعه قبل غيره.

ثم خرج وله خمس وعشرون سنة مرة ثالثة، في تجارة لخديجة ومعها غلامها ميسرة، فرأى في الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس، وكذا رأت خديجة لما أقبلوا وهي في علية لها. وفي هذه السنة تزوجها.

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين سنة، خافت قريش أن تنهدم الكعبة من السيول، وذلك أن السيل أتى من فوق الردم الذي بأعلى مكة، فأخربها فخافوا أن يدخلها الماء.

وقيل: سبب ذلك احتراقها، وذلك أن امرأة أجمرت الكعبة فطارت شرارة في ثيابها فأحرقتها. وقيل: كانت الكعبة فوق القامة فأرادت قريش رفعها وتسقيفها. وقيل: إن السيل دخلها وصدع جدرانها بعد توهينها.

وقيل: إن نفرًا سرقوا حلي الكعبة وغزالين من ذهب مرصعين بدُرٍّ وجوهر، من بئر في جوفها، فأرادوا أن تشييد بنيانها ورفعه حتى لا يدخلها إلا من شاءوا.

ويمكن الجمع أن خشية هدم السيل حصل من الحريق حتى أوهن بناءها ووجدت السرقة بعد ذلك أيضًا، فأمروا باقوم -بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم-: النجَّار القبطي مولى سعيد بن العاصي، وصانع المنبر الشريف، بأن يبني الكعبة المعظمة.

وذلك أنه كان بسفينة ألقاها الريح بجدة فتحطمت، فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إليها، فابتاعوا خشبها وأعدوه لتسقيف الكعبة وكلموا باقوم الرومي في بنائها فقدم معهم.

قال ابن إسحاق: وكان بمكة رجل قبطي نجار، فهيأ لهم بعض ما يصلحها، فهاب الناس هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام، وهو يقول: اللهم لم ترع -بفوقية مضمومة فراء مفتوحة-، أَيْ: لم تفزع الكعبة، وفي روايةٍ: لم ترغ، -بفتح النون وكسر الزاي فغين معجمة، أَيْ: لم نمل عن دينك ولا خرجنا عنه، اللَّهُمَّ لا نريد إلا الخير.

ثم هدم من ناحية الركنين الأسود واليماني، وتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ونردها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمنا، فقد رضي اللَّه ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته عائدًا إلى عمله فهدم وهدم الناس معه.

حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى أساس إبراهيم عليه السلام، فوجدوا حجارة خضر كالأسنمة، أخذ بعضها ببعض فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منها ليقطع بها بعضها.

فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها وأبصروا برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل، فانتهوا عن ذلك الأساس وبنوا عليه.

وفي روايةٍ: لما شرعوا في نقض البناء خرجت عليهم الحية التي كانت في بطنها تحرسها سوداء البطن، فمنعتهم من ذلك فاعتزلوا عند مقام إبراهيم وتشاوروا، فقال لهم الوليد: ألستم تريدون بها الإصلاح؟، قالوا: بلى، قال: فإن اللَّه لا يهلك المصلحين ولكن لا تدخلوا في بيت ربكم إلا

طيب أموالكم، وتجنبوا الخبيث فإن اللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

فلا تجعلوا فيها مالًا غصبًا ولا قطعت فيه رحم، ولا انتهكت فيه حرمة، ففعلوا ودعوا، وقالوا: اللَّهُمَّ إن كان لك في هدمها رضا فأتمه، وأشغل عنا هذا الثعبان، فأقبل طائر من جو السماء كهيئة العقاب، والحية على جدار البيت، فأخذها وطار بها رمى بها نحو أجياد، فابتلعتها الأرض.
فقالت قريش: إنا لنرجو أن اللَّه تعالى قبل عملكم ونفقتكم.

فشرعوا في بنائها وحضر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناءها، ونقل معهم الحجارة من أجياد، وكان يضعون أزرهم على عواتقهم ويحملون الحجارة، فقال له العباس: اجعل إزارك على رقبتك، ليقيك من الحجر، فسقط من قيامه، ونُودي: يا محمد عورتك، فكان ذلك أول نداء نودي به.
وقال له العباس أو أبو طالب: اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابني ما أصابني إلا من التعري.

ولما أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا: نحكم بيننا أول من يخرج من هذه السكة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّل من خرج فحكم بينهم أن يجعلوه في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل.

وذكر الطيالسي: أنهم قالوا: نحكم أول من يدخل من باب بني شيبة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من دخل منه، وكان يسمونه قبل الرسالة الصادق الأمين، فقالوا: هذا الأمين، وكلنا نقبله ونرضاه حَكمًا، فأخبروه فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه ثم أخذه فوضعه بيده الشريفة في موضعه الآن. وصاروا

كلهم رافعين له، وانجبر خاطر الكل وزال ما كان بينهم، فللَّه درّهُ من حَكَمٍ عدلٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذكر الفاكهي وابن إسحاق: أن الذي أشار عليهم أن يحكموا أول داخل أبو أمية المخزومي أخو الوليد، وعند موسى بن عقبة أن المشير أخوه الوليد.

قال السهيلي: ذكر أن إبليس كان معهم في صورة شيخ نجدي، فلما أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحجر من الثوب ووضعه في محله، صاح بأعلى صوته: يا معشر قريش، أقد رضيتم أن يضع هذا الركن وهو شرفكم، غلام يتيم دون ذوي أسنانكم، فكاد يثير شرًّا بينهم، ثم سكتوا.

وحكى في "الروض": أن طول الكعبة كان تسعة أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، فزادت قريش فيه تسعة أذرع، ورفعوا بابها عن الأرض، فصار لا يصعد إليها إلا على درج أو سلم.

وقال الأزرقي: كان طولها سبعة وعشرين ذراعًا، فاقتصرت قريش منها على ثمانية عشر، ونقصوا من عرضها أذرعًا أدخلوها في الحجر.

ثم لما تقارب بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدَّث بذلك أحبار اليهود ورهبان النصارى، لما في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وكهان العرب، لأن شياطين الجن كانت لا تحجب عن خبر السماء فتسرق السمع وتخبر الكهنة به، فيعلمون بعض خبر السماء، لكن كانت العرب لا تلقي لذلك بالاً.

فلما دنا مبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُجبت الشياطين عن السمع، كما

قال البوصيري في "الهمزية":

بعث الله عند مبعثه الشهاب حراسًا وضاق عنها الفضاء

تطرد الجن عن مقاعد للسمع كما يطرد الذئاب الرعاء

فمحت آية الكهانة آيات من الوحي ما لهن انمحاء

ولما بلغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين سنة كما قاله جمهور العلماء، وهو الصحيح عند أهل السير والعلم بالأثر، وهو الصواب، وهو في "الصحيحين" عن ابن عباس وأنس. وقيل: أربعين سنة وأربعين يومًا. وقيل: وعشرة أيام. وقيل: وشهرين.

بعثه الله يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. وقيل: لسبع منه. وقيل: لأربع وعشرين ليلة من رمضان. وقال ابن عبد البر: بُعِث يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. كما في خبر مسلم عن أبي قتادة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل عن صوم يوم الاثنين؟، فقال: فيه وُلدت وفيه أُنزل علَيَّ. وقيل: وهو ابن خمس وأربعين سنة، لسبع وعشرين من رجب.

بعثه الله رحمة للعالمين، ورسولًا إلى كافة الثقلين أجمعين. كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأُرسلت إلى الخلق كافة.

وجمع بين الأقوال بأن أول ما بدى به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الرؤيا الصادقة. وفي روايةٍ: الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أَيْ: مثل ضياء الصبح في الوضوح.

فابتدأه نزول جبريل عليه السلام في المنام كان في ربيع الأول، وكانت

مدة الرؤيا ستة أشهر، وابتدى بها لأن المَلَك لو فاجأه بغتة لم تحتمله قواه البشرية.

ثُمَّ أَخَذَ يَتحَنَّثُ فِي جبَلِ حِرَاءَ فِى المَغَارَةِ الَّتِي هِيَ بِالخَيْرَاتِ حَرِيَّة ۞ وَيَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِم فِي بَعْضِ الأَحْيَان ۞ فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَالَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغطَّهُ غَطَّةً حِلْمِيَّة ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَالَ مَا أَنَا بقَارِئٍ فَغطَّهُ أُخْرَى بِنُصْحَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَه اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ وَذلِك بَدْءُ الوَحْيِ لِلحَضْرَةِ المَحْمُودِيَّة ۞ وَمِنْ ثَمَّ تَوَاتَرَ الأَمْرُ أَحْيَاناً حَتَّى تَمَّ نُزُولُ القُرْآن ۞ وَقَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ بِسَنَةٍ عَلَى الصَّحِيحِ لِلدِّيَارِ اليَثْرِبِيَّة ۞ جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَأَسْرَى بِه إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ كَماَ حَرَّرَهُ الشَّيْخَان ۞ وَأَتَاهُ بِالبُرَاقِ مُلْجَماً فَاسْتَصْعَبَ بِعُنُوفَةٍ بَهِيمِيَّة ۞ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ مَا رَكِبَكَ عَبْدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنِ عَدْنَان ۞ ثُمَّ بَعْدَ بيْتِ المَقْدِسِ رَقَى بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى بِالنَبِيِّينَ وَأُسْقِيَ الشَّرْبَةَ اللَّبَنِيَّة ۞ فَلَقِيَ آدَمَ فِي الأُولَى وَفِى الثَّانِيَةِ ابْنَي الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى ذَوِي الإِحْصَان ۞ وَفِي الثَّالِثَةِ وَجَدَ يُوسُفَ ذَا المَحَاسِنِ الَّذِي افْتَتَنَتْ بِهِ زَلِيخَا الأَوَّلِيَّة ۞ وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً فِي التِّبْيَان ۞ وَفِي الخَامِسَةِ هَارُونَ ۞ وَفِي السَّادِسَةِ مُوسَى الَّذِي رَدَّهُ لِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ الفَرْضِيَّة ۞ فَرَجَعَتْ بَعْدَ خَمْسِينَ خَمْسًا فِي النَّهَارِ ثَلَاثَةٌ وَفِي اللَّيْلِ فَرْضَان ۞ وَفِي السَّابِعَةِ إِبْرَاهِيمَ مُتَّكِئاً عَلَى البَيْتِ المَعْمُورِ بِالضِّيَاءَاتِ الوُسْعِيَّة ۞ الَّذِي يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِحُسْبَان ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَعُودُونَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ البَغْتِيَّة ۞ فَماَ أَعْلَى هَذَا المَقَامَ كَيْفَ وَهُوَ مَقَامُ خَلِيلِ الرَّحْمَن ۞ وَلَمْ يَزَلْ يَرْقَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهى إِلَى الحَضْرَةِ العَرْشِيَّة ۞ وَعَلَا الحُجُبَ وَخَاطَبَ مَوْلَاهُ وَرَآهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عِيَان ۞ وَرَجَعَ

وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ فَمَا أَعْظَمَ هِذِهِ المُعْجِزَاتِ الشَّهِيرِيَّة ❁ وَأَخْبَرَ قُرَيْشاً فَكَذَّبَهُ أَهْلُ البَغْيِ وَالخُذْلَان ❁ فَجَآءَ بِالعَلَامَاتِ وَأَخْبَرَ بِالعِيرِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ مَرْئِيَّة ❁ وَصَدَّقَهُ الصِدِّيقُ لِسَبْقِ العِنَايَةِ لَهُ فَتَيَقَّظْ يَا نَوْمَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ❁ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

(ثم) اعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أخذ) أَيْ: شرعَ في العبادة، وحُبّبَ إليه الاختلاء والانقطاع عن الناس، فكان (يتحنث) بحاء مهملة مفتوحة، ثم نون مشدّدة مفتوحة آخره ثاء مثلثة، أَيْ: يتعبّد الليالي ذوات العدد. وهي كما قال ابن إسحاق: أيام شهر رمضان.

وكان تعبده أنه يخرج شهرًا في كل عام يستنسك، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وفي تعبده قبل البعثة بشريعة أم لا؟، قولان: الجمهور على الثاني، واختار ابن الحاجب والبيضاوي الأول.

ففي أنه بشريعة، فهل هو بشريعته هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بشريعة إبراهيم أو موسى أو عيسى أو نوح أو آدم، أو بشريعة من قبله دون تعيين، أو بجميع الشرائع. ونُسِب للمالكية أو الوقف أقوال.

ولم يأت تصريح بصفة تعبده بحراء، فيحتمل أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبد، فإن الانعزال عن الناس، ولا سيما من كان على باطل عبادة، وعن ابن المرابط وغيره كان يتعبد بالفكر.

(حراء) بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى. وحراء بكسر الحاء المهملة وتخفيف الراء والمد والتذكير والصرف على

الصحيح، وحُكِي الفتح والقصر، مصروف على إرادة المكان ممنوع على إرادة البقعة، فيذكر ويؤنث.

وزعم الخطابي خطأ المحدثين في قصره وفتح حائه، والأربعة في قباء أيضًا، وجمعهما القائل:

حــرا وقبــا ذكــر وأنثهمــا معــا   ومد أو اقصر واصرفن وامنع الصرفا

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخلو (في) داخل (المغارة)، والغار: النقب في الجبل فإذا اتسع قيل: كهف. (التي هي) أَيْ: المغارة (بالخيرات حرية) بفتح الهاء المهملة وكسر الراء وشد المثناة تحت، أَيْ: حقيقة.

فإن قيل: لِمَ اختص صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغار حراء، أَيْ: لم قصر نفسه على الخلوة به؟، "فكان يخلو فيه ويتحنث دون غيره من الواضح. وأجاب ابن أبي جمرة: بأن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصّه لأن هذا الغار له فضل زائد على غيره من جهة أنه منزوٍ مجموع لتحنثه، وهو يبصر فيه بيت ربه، والنظر إلى البيت عبادة. كما في الخبر: إن اللَّه ينزل عليه مائة وعشرين رحمة.

فكان له فيه اجتماع ثلاث عبادات: الخلوة وهي أن يخلو عن غيره بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يكون خليقًا بأن يكون قالبه ممر الواردات من علوم الغيب وقلبه مقرًا لها. والتحنث والنظر إلى البيت وغيره، ليس فيه هذه الثلاث.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتزود أَيْ: يتخذ الزاد لذلك التعبد. (ويعود) أَيْ: يرجع إذا نفد أَيْ: فرغ زاده. (إلى أهله) أَيْ: خديجة، فتزوده لمثلها.

(ويرجع إليها) أَيْ: المغارة في كل حول في رمضان، كما في رواية ابن إسحاق، وكان ذلك الفعل (في بعض الأحيان) أَيْ: الأوقات، لأن مدة الخلوة كانت شهرًا، فكان يتزود لبعض ليالي الشهر، فإذا نفد رجع إلى أهله فيتزود قدر ذلك، ولم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب أدمهم اللبن واللحم ولا يدخر منه كفاية شهر لسرعة فساده، لا سيما وقد وصف بأنه كان يطعم من يرد عليه، وفيه أن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينقطع بالغار بالكلية، بل كان يرجع إلى أهله لضروراتهم، ثم يرجع لتحنثه.

حتى فجأه الحق وهو في غار حراء في رمضان (فجاءه المَلَك) بفتح اللام: هو جبريل اتفاقًا، واللام لتعريف الماهية لا العهد، إلا أن يكون المراد: ما عاهده عليه السلام لما كلَّمه في صباه، أو اللفظ لعائشة وقصدت به ما يعهده من تخاطبه به. أو لأنها حكت ما سمعته.

قال الإسماعيلي: هي عبارة عما يعرف بعد أنه ملك، وإنما الأصل فجاءه جاء وكان الجائي ملكًا، فأخبر عنه المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أخبر بحقيقة جنسه، والحامل عليه أنه لم يتقدم له معرفة به.

وفاء فجاءه تفسيرية؛ كقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، لا تعقيبية، قال الحافظ: لأن مجيء الملك ليس بعد مجيء الوحي حتى يعقب به بل هو نفسه، ولا يلزم منه تفسير الشيء بنفسه بل التفسير عين المفسر به من جهة الإجمال وغيره من جهة التفصيل، ولا سببية، لأن المسبب غير المسبب.

(فقال له: اقرأ) أمر لمجرد التنبيه والتيقظ لما سيلقى إليه، أو على بابه من الطلب، فهو دليل على جواز التكليف بما لا يطاق في الحال وإن قدر عليه بعد.

قال الحافظ: وهل سلَّم عليه جبريل قبل قوله: اقرأ، أم لا؟، وهو الظاهر، لأن المقصود حينئذ تفخيم الأمر وتهويله، وطلب الابتداء بالسلام متعلق بالبشر لا الملائكة، وتسليمهم على إبراهيم لأنهم كانوا في صورة البشر، فلا يرد هنا ولا سلامهم على أهل الجنة، لأن أمور الآخرة مغايرة لأمور الدنيا غالبًا نعم.

في رواية الطيالسي: أن جبريل سلَّم أوَّلًا، لكن لم يرد أنه سلَّم عند الأمر بالقراءة.

(فقال) له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما أنا بقارئ) ما نافية، أَيْ: لم اعتد القراءة ولم أعرف كيفيتها. وقيل: استفهامية، وضعَّفه عياض وغيره بدخول الباء في خبرها، وهي لا تدخل على ما الاستفهامية، وأجيب: بأن رواية أبي الأسود عن عروة: كيف أقرأ؟. ورواية ابن إسحاق عن عبيد بن عمير: ماذا أقرأ؟. دلتا على أنها استفهامية، وقد جوّز الأخفش دخول الباء على الخبر المثبت، وجزم به ابن مالك في: بحسبك زيد، فجعل الخبر حسبك، والباء زائدة. وقيل: يحتمل أن تكون ما في الأول نافية، وفي الثاني للامتناع، وفي الثالث للاستفهام.

(فغطَّهُ) بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة مشددة، أَيْ: ضمَّ وعصرَ وحضن جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي روايةٍ: فغتني بالتاء الفوقية

من الغت: وهو حبس النفس، أَيْ: حبس نفسي. وفي روايةٍ: فأخذ بحلقي.

فغطَّني (غطَّة حِلمية) فمعناه على الأول ضمَّهُ وعصرَهُ، يعني: بأن وضع يده على كتفه ونزل به إلى أسفل. ومعناه على الثاني: أَيْ: فعل به أمرًا شديدًا حتى بلغ الجهد.

قال الحافظ: رُوِي بالفتح والنصب، أَيْ: بلغ الغط مني غاية وسعي، ورُوِيَ بالضم والرفع، أَيْ: بلغ مني الجهد مبلغه.

(ثم) أرسله، وأعاد القول ثانيًا، و(قال له): يا محمد (اقرأ، فقال) النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (له) أَيْ: لجبريل: (ما أنا بقارئ) أَيْ: حكمي كسائر الناس من أن حصول القراءة إنما هو بالتعلُّم وعدمه بعدمه، فلذا كرَّر غطَّه ليخرجه عن حكم سائر الناس، ويستفرغ منه الصفات البشرية، ويفرغ فيه من صفات المَلَكية.

فأخذه (فغطَّه) مرَّة (أخرى) ثانية (بنُصْحان) بضم النون وسكون الصاد: مصدر نصح أَيْ: برفق. (ثم) أرسله جبريل وأعاد عليه القول ثالثًا، و(قال له) اقرأ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما أنا بقارئ. وفي روايةٍ: كيف أقرأ؟، وفي أخرى: ماذا أقرأ؟.

فأخذه فغطَّه الثالثة حتى بلغ منه الجهد، كذا أثبته البخاري، في التعبير والتفسير، وسقطت الثالثة في بدء الوحي. قال الحافظ: ولعل الحكمة في تكرير اقرأ، الإشارة إلى انحصار الإيمان الذي ينشأ عنه الوحي بسببه في ثلاث: القول والعمل والنية، وأن الوحي يشتمل على ثلاث: التوحيد والأحكام والقصص.

فإن قيل: فلم كرَّر قوله: ما أنا بقارئ ثلاثًا؟. أجاب أبو شامة كما في "فتح الباري": بأن ذلك لحكمة بأن يحمل قوله أولًا: ما أنا بقارئ، على الامتناع، وثانيًا: على الإخبار بالنفي المحض، وثالثًا: على الاستفهام. بدليل روايتي: كيف أقرأ؟، وماذا أقرأ؟، كما مَرَّ.

والحكمة من الغط ثلاثًا، شغله عن الالتفات لشيء آخر، وإظهاره الشدة والجد في الأمر، وأن يأخذ بقوة، تنبيهًا على ثقل القول، أَيْ: القرآن الذي سيلقى إليه، فإنه لما فيه من التكاليف ثقيل على المكلفين، سيما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه كان يتحملها ويحملها أمته. قاله البيضاوي.

وقيل: إبعادًا لظن التخيُّل والوسوسة اللذين ظنهما عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما في رواية يونس عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لخديجة: إني إذا خلوتُ وحدي سمعت نداء، وقد خشيتُ واللَّه أن يكون لهذا أمر، قالت: معاذ اللَّه، ما كان اللَّه ليفعل بك ذلك، إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.

لأن التخيُّل والوسوسة ليسا من صفات الأجسام، فلما وقع ذلك الغط ثلاثًا بجسمه علم أنه من أمر اللَّه فاطمأن. وقيل: الغطة الأولى للتخلي عن الدنيا، والثانية: لما يوحى إليه، والثالثة: للمؤانسة.

وقيل: إشارة إلى الشدائد الثلاث التي وقعت له، وهي: الحصر في الشعب وخروجه إلى الهجرة، وما وقع يوم أُحُد، وفي الإرسالات الثلاث إشارة إلى حصول الفرج والتيسير له عقب الثلاث، أو في الدنيا والبرزخ والآخرة.

وقيل: للمبالغة في التنبيه، ففيه أنه ينبغي للمعلم الاحتياط في تنبيه المتعلم وأمره بإحضار قلبه. وأن لا يضرب الصبي إلا ثلاثًا على القرآن، كما غَطَّ جبريل مُحمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا.

ثم أرسله فقال: (﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾) استدل به القائل بأن البسملة ليست آية من كل سورة، فهذه أول سورة نزلت وليست فيها. وقال السهيلي: نزلت بعد ذلك مع كل سورة لا منها، وقد ثبتت في المصحف بإجماع الصحابة وما ذكره البخاري عن مصحف الحسن البصري شذوذ ولا يلتزم قول الشافعي: أنها آية من كل سورة، ولا أنها آية من الفاتحة، بل آية من القرآن مقترنة مع السورة، أنزلت للفصل، وهو قول داود وأبي حنيفة، وهو قول بَيِّن لمن أنصف. وهو اختيار له مخالف للمعتمد من مذهب مالك. ذكره الزرقاني.

لكن قال الشافعي: هي آية من الفاتحة، مستدلاً بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّ الفاتحة سبع آيات، وعَدَّ البسملة آية منها، وليست للفصل بين السور، بل هي آية من كل سورة. وأدلة ذلك مذكورة في الفقه واضحة مقواة بأسانيدها.

وقوله: اقرأ، أَيْ: مفتتحًا أو مستعينًا ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ (﴿الَّذِي خَلَقَ﴾) وصف مناسب مشعر بعلية الحكم بالقراءة، إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فرجع يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي؟. وأخبرها الخبر.

ثم قال: لقد خشيت على نفسي. أَيْ: قبل أن يحصل له العلم

الضروري بأن الجائي جبريل. أو خشيت أن لا أقدر على حمل أعباء الرسالة، أو أن يقتلني قومي. ولا بدع في أنه بشر.

فقالت: كلا أبشر، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقريء الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، وهو ممن تنصَّر من العرب، وعرف الإنجيل، فقالت له خديجة: أي ابن عمي، اسمع من ابن أخيك، فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيها أَيْ: ملتك، جذعًا أَيْ: شابًا لأُبالغ في نصرك، إذ يخرجك قومك، قال: أَوَ مخرجي هم؟، قال: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. رواه البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وروى أبو نعيم: أن جبريل وميكائيل شقا صدره الشريف وغسلاه، ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، الحديث.

وكذا روَى شق صدره هنا أيضًا الطيالسي والحارث في "مسنديهما"، والحكمة فيه ليتلقى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير.

(وذلك) المذكور من قوله: اقرأ، هو (بدء) أَيْ: ابتداء (الوحي) البدء بفتح الباء الموحدة وسكون الدال آخره همزة، من بدأت الشيء: بدأ ابتدأت به. قال القاضي عياض: روى بالهمز مع سكون الدال من الابتداء

به، وبغير همز مع ضم الدال وتشديد الواو: من الظهور، والمراد هنا الأول.

والوحي بفتح الواو وسكون الحاء: الإعلام في خفاء. وفي اصطلاح الشرع: إعلام اللَّه تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة مالك أو منام أو إلهام أو كلام خفي. وهذا في مطلق الوحي.

وأما الوحي له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأقسام: الرؤيا الصادقة، وما يلقيه المَلَك في روعه -بضم الراء- أَيْ: في قلبه من غير أن يراه. ومنها: تمثُّل المَلَك له رجلاً فيخاطبه. ومنها: رؤيته على صورته الأصلية، ومنها: سماع صوته مثل صلصلة الجرس، إلى غير ذلك.

وتصوُّره المذكور على صورة رجل مع أن صورته الأصلية كبيرة جدًّا غير بعيد، لأن الأجسام النورانية تقبل الانضمام، كما أن القطن يقبل الانكباس، وهذا أولى من قول بعضهم، أن صورة المَلَك الأصلية باقية بحالها، وصورة الرجل صورة أخرى له وروحه متعلقة بهما، كما في الأبدال الذين تتعد صورهم وروحهم واحدة، والتكليف حينئذ مناط بأي صورة أراد الإنسان.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلًا، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل اللَّه مكانه رجلاً. اه.

وورَدَ: أنهم بالشام. وورَدَ: أنهم أربعون رجلاً وأربعون رجلاً. وجمعَ بأن الحديث الذي فيه أنهم ثلاثون، أَيْ: ممن كانت قلوبهم على قلب

إبراهيم الخليل، كما ذكر فيه، فالعشرة الزائدة مع الأربعين امرأة، قلوبهم على قلب غيره من الأنبياء.

ومعنى كونهم على قلب إبراهيم: أنهم يتقلَّبون في المعارف الإلهية التي بقلبه، إذ واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب، فكل علم يرد على قلب كبير من مَلَك أو رسول يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه، وربما يقولون: فلان على قدم فلان، ومعناه: ما ذكر، وإنما سموا أبدالًا، لأن كل من مات منهم أبدل الله مكانه غيره.

روى الحكيم الترمذي: أن الأرض شكت إلى ربها انقطاع النبوة، فقال تعالى: سوف اجعل على ظهرك أربعين صِدِّيقًا، كل ما مات منهم رجل أبدلت مكانه رجلاً، ومن علامة البدل أنه لا يولد له، وإذا رحل البدل من موضعه جعل موضعه حقيقة روحانية، فإذا جاء موضعه أحد تجسَّمت له تلك الحقيقة التي تركها بدله، تكلّمه ويكلّمها، وهو غائب عنهم. اه.

وما ذكر من ابتداء الوحي ثابتٌ (للحضرة المحمودية) أَيْ: المسماة بهذا الاسم، ثم بعد ذلك فتَرَ الوحي حتى شقَّ عليه وأحزنه.

وفترة الوحي عبارة عن تأخُّره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب عنه م كان يجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الروع -بفتح الراء-: الخوف، وليحصل له التشوُّق إلى العود.

وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين، كما جزم به ابن إسحاق، ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلخ.

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

جاورتُ بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا فلم أثبت له، فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا عليَّ ماء باردًا، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ الآية، وذلك قبل أن تفرض الصلاة. رواه البخاري في التفسير والأدب وبدء الوحي، ومسلم في التفسير، والترمذي.

ولم يكن جواره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطلب النبوة، لأنها أجل من أن تنال بالطلب أو الاكتساب، وإنما هي موهبة -بكسر الهاء- من اللَّه، وخصوصية يخص بها من يشاء من عباده، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالاته.

ولم تكن الرجفة المذكورة في قوله: لم أثبت له خوفًا من جبريل عليه السلام، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجَلَّ من ذلك وأثبت جنانًا- بفتح الجيم أَيْ: قلبًا، وإنما رجف غِبطة -بكسر الغين- أَيْ: فرحًا بحاله وإقباله على اللَّه عز وجل، فخشي أن يشغل بغير اللَّه عن اللَّه. وقيل: خاف من ثقل أعباء النبوة.

وفي "تاريخ الإمام أحمد" ويعقوب بن سفيان عن الشعبي: أنزل عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، وكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، وكذا رواه ابن سعد والبيهقي.

فقد تبيَّن أن نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت متقدمة على رسالته، كما

قال أبو عمر وغيره، كما حكاه أبو أسامة بن النقاش.

فكان في نزول سورة ﴿اقْرَأْ باسم ربك﴾ نبوته، وفي نزول سورة المدثر إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعًا متأخر عن الأول، لأنه لما كانت سورة ﴿اقْرَأْ﴾ متضمنة لذكر أطوار الآدمي من الخلق والتعليم والإفهام، ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العلم والفهم والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي والنطقي والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى أن يقوم فينذر عباده.

وإنما اقتصر الإنذار في قوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، مع أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِث مبشرًا أيضًا، لأن ذلك كان في أول الإسلام، فمتعلق الإنذار محقق. فلما أطاع من أطاع أنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وكان أول من آمن باللَّه وصدَّق صِدِّيقة النساء خديجة، فقامت بأعباء الصديقية. قال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خشيت على نفسي، فقالت له: أبشر فواللَّه لا يخزيك اللَّه أبدًا. ثم استدلت بما فيه من الصفات الحميدة كقرى الضيف وحمل الكل، والأخلاق الزكية المرضية، والشيم على أن من كان كذلك لا يخزى أبدًا، وهو من بديع علمها وقوة عارضتها.

ولهذا السبق وحسن المعروف جزاها اللَّه سبحانه فبعث جبريل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بغار حراء، كما في رواية الطبراني، وقال له: اقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا

صخب فيه ولا نصب. كما في الصحيح.

وأبدى السهيلي لنفي الصخب، والنصب لطيفة هي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دعا إلى الإيمان أجابت طوعًا ولم تحوّجه لرفع صوت ولا منازعة ولا نصب، بل أزالت عنه كل تعب وآنسته من كل وحشة وهوّنت عليه كل عسير، فناسب أن تكون منزلتها التي بشّرها بها وبها بالصفة المقابلة لفعلها وصورة حالها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واقرأ السلام من ربها خصوصية لم تكن لسواها ولم تسؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قط، ولم تعارضه، وجازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته.

وكان أول ذكر آمن بعدها صِدِّيق الأُمَّة، وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر الصِّدِّيق عبد اللَّه بن عثمان أبي قحافة، على المشهور، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسمّي صِدِّيقًا لسبقه لتصديق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروى الطبراني برجال ثقاة: أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يحلف باللَّه أن اللَّه أنزل اسم أبي بكر من السماء الصِّدِّيق، وحكمه الرفع فلا مدخل فيه للرأي. وقيل: كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسرا. قاله الفتح.

قال في "الفتح": وكان يسمى أيضًا عتيقًا، واختلف في أنه اسم أصلي له، أو لأنه ليس في نسبة ما يعاب به أو لقدمه في الخبر أو لسبقه إلى الإسلام، أو لحسنه، أو لأن أمه استقبلت به البيت، وقالت: اللهم هذا عتيقك من الموت، لأنه كان لا يعيش لها ولد، أو لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشّره بأن اللَّه أعتقه من النار، كما في حديث عائشة عند الترمذي،

وصحَّحهُ ابن حبان، اه. قال الزمخشري: ولعله كني بأبي بكر لابتكاره الخصال الحميدة، اه. ولم أقف على من كَنَّاه به هل المُصطفى أو غيره.

ومن الصبيان علِيّ بن أبي طالب أسلم وهو صبي لم يبلغ، وكان مستخفيًا بإسلامه من أبيه، وكان سنه إذ ذاك عشر سنين أو ثمان سنين، وهو الراجح. وصح الإسلام لأن الأحكام كانت منوطة في صدر الإسلام بالتمييز، لكن هذا على مذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأما عند مالك وأبي حنيفة فإسلام الصبي المميز صحيح.

ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال المؤذن. قال ابن الصلاح: هذا التفضيل هو الأورع.

لكن قال السراج البلقيني: أول من آمن من الرجال ورقة بن نوفل لنزول الوحي في حياته على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيمانه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتصديقه برسالته صريحًا، أَيْ: بعد خديجة، بناء على أنهما متقارنا وهو الصحيح، أو قبلها لعلمه من الكتب القديمة. ومشى على ذلك جماعة وعدُّوه من الصحابة، وهو المعتمد.

ثم أسلم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة، بدعاء أبي بكر لهؤلاء الخمسة للإسلام، فجاء بهم إلى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استجابوا له فأسلموا.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخفيًا أمره، إلى أن أمره الله تعالى بأن يصدع بما جاءه منه، أَيْ: يواجه ويخاطب المشركين على وجه العموم، فلا يخص بعضًا دون بعض، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ ما أمر به لمن

ظن إجابته دون مبالغة في التعميم فآمن به من مر مع كثيرين.

ثم أمره بالمبالغة في إظهار الدعوة، بقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال مجاهد: هو أَيْ: الصدع المفهوم من ﴿فَاصْدَعْ﴾ الجهر بالقرآن في الصلاة، ومن لازمه المواجهة بما جاءه، وخصّ الصلاة، لأنها كانت أعظم ما يخفيه لكنه على طريق الدلالة والأول شفاهًا.

وقال أبو عبيدة بن عبد اللَّه بن مسعود: ما زال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستخفيًا هو والمسلمون في دار الأرقم، حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فجهر به من صدع بالحجة، إذا تكلم بها جهارًا أو أفرق به بين الحق والباطل، وأصله لغة: الإبانة والتمييز. وما مصدرية أَيْ: بأمرنا لك، أو موصولة والعائد محذوف، أَيْ: بما تؤمر به من الشرائع اه.

قالوا: وكان ذلك بعد ثلاث سنين من النبوة، وهي المدة التي أخفى فيها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره إلى أن أمره اللَّه تعالى بإظهاره.

فجاهر قومه بالإسلام وصدع به، كما أمره اللَّه تعالى، ومع ذلك لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها، لما دخل المسجد يومًا فوجدهم يسجدون للأصنام فنهاهم، وقال: أبطلتم دين أبيكم إبراهيم؟، فقالوا: إنما نسجد لها لتقربنا إلى اللَّه، فلم يرض بذلك منهم وعاب صنيعهم.

وكان ذلك في سنة أربع من النبوة، كما قاله العتقي فأجمعوا على خلافه وعداوته، إلا من عصم اللَّه منهم بالإسلام، أو صدق المحبة كأبي

طالب، فإنه حدب عليه ومنعه وقام دونه، فاشتد الأمر، وتضارب القوم، وأظهر بعضهم لبعض العداوة، وتذامرت أَيْ: تشاورت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.

ومنع اللَّه رسوله منهم بعمه أبي طالب وبني هاشم غير أبي لهب، فإن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف على الناس في منازلهم يقول: اعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا، وأبو لهب وراءه يحذر منه.

ورموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون. وكان بعضهم يحشوه بالتراب، ويجعل الدم على بابه، ووطيء عقبة بن أبي معيط على عنقه وهو ساجد عند باب الكعبة، حتى كادت عيناه تبرزان، وخنقوه خنقًا شديدًا، وجذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره. فقام أبو بكر دونه قائلاً: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه؟.

وروى أحمد في "مسنده": أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد.

فأما رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمنعه اللَّه عن القتل بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه اللَّه بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون ليعذبونهم فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، وإن بلالاً هانت عليه نفسه في اللَّه عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَد، ليمزج مارة العذاب بحلاوة الإيمان.

ومرَّ اللعين أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب فطعنها بحربة في فرجها فقتلها.

وروى أن أبا بكر أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة، وسألوه أن يملكوه عليهم ويبذلوا له من الأموال ما شاء، ويترك ما فيه فأبى، وقال: اصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وفي سنة خمس أذن الله لأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة إلى الحبشة، فكان أولهم عثمان مع زوجته رقية بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعد حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بثلاثة أيام بدعوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اللَّهُمَّ أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطَّاب، فعزّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا.

وكان المسلمون إذ ذاك بضعة عشر رجلاً، ولما رأت قريش عزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفشو الإسلام في القبائل، وبأمره بضعة عشر من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة واستقرارهم فيها، منهم عثمان وزوجته رقية بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك في سنة خمس من النبوة.

وبإسلام حمزة ثم عمر بعده بثلاثة أيام، أجمعوا على أن يقتلوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبلغ ذلك أبا طالب، فأتوا إليه بعمارة بن الوليد، وكان أعزّ فتى فيهم، وطلبوا منه أن يأخذه بدل ابن أخيه، فأبى حمية وغيرة على عادة الأقارب.

وجمع بني هاشم وبني عبد المطلب، فأدخلوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ شعبهم، وهو المكان الضيق بين الجبلين، ونسب إليهم، لأنه كان مسكنهم، ومنعوه ممن أراد قتله.

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وتشاوروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون ويتعاهدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لا يناكحوهم، ولا يبايعونهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا حتى يسلموا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقتل.

وكتبوا في صحيفة بخط بعضهم وهو منصور بن عكرمة، فَشُلَّت يده، وعلَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة، تأكيدًا في حفظها وبقائها، وكان ذلك في هلال المحرم سنة سبع من النبوة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه، إلا أبا لهب فكان مع قريش، فأقاموا على ذلك سنتن أو ثلاثًا، حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًّا.

حتى أن حكيم ابن أخت خديجة عاش مائة وعشرين سنة، نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام، حمل غلامه حبًا يريد به خديجة، فلقيه أبو جهل فمنعه.

فلما مضت تلك المدة قام خمسة في نقض تلك الصحيفة، وكان رئيسهم هشام بن الحارث أول من مشى في نقضتها لعزّته بعمه لأمه، الذي هو أخو عبد المطلب، ومن ثم كان يواصل بني هاشم، فيأتيهم ليلاً بالبعير وعليه الطعام.

فمشى إلى زهير ابن عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: أرضيت أن تأكل

الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟، فشدّد عليه حتى قال: لو وجدت معي رجلاً لنقضتها، فقال: أنا معك، فقال: أبغ أَيْ: اطلب لنا ثالثًا، فذهب إلى المطعم واستنخاه أَيْ: عظَّمه بالمدح، حتى قال: لو وجدت معي رجلاً، فقال: أنا معك وزهير بن عاتكة، قَالَ: أبغ لنا رَابعًا، فَذهب إِلَى أبي البخْترِي فاستنخاه أَيْضًا، فَقَالَ: وَهل من معِين، فَذكر لَهُ أُولَئِكَ، فَقَالَ أبغ لنا خَامِسًا، فَذهب إِلَى زَمعَة واستنخاه، فَقَالَ: هَل من أحد؟، فَذكر لَهُ الْقَوْم فَاجْتمعُوا بالحجون، وَأَجْمعُوا على نقضهَا، فَقَالَ لَهُم زُهَيْر: وَأَنا أول من يتَكَلَّم.

فَلَمَّا أَصْبحُوا غدوا إِلَى أَنْدِيَتهمْ، وَغدا زُهَيْر فِي حُلة جميلة فَطَافَ سبعًا، ثمَّ أقبل على النَّاس فَقَالَ: يَا أهل مَكَّة إِنَّا نَأْكُل الطَّعَام ونلبس الثِّيَاب وَبَنُو هَاشم كمَا ترون، وَاللَّه لَا أقعد حَتَّى تشق هَذِه الصَّحِيفَة الظالمة القاطعة، فَقَالَ أَبُو جهل: كذبت وَاللَّه مَا تشق، فَقَالَ زَمعَة: أَنْت وَاللَّه أكذب أَيْ: من كل كاذب، مَا رَضِينَا كتَابَتهَا حِين كتبت، وَقَالَ أَبُو البخْترِي: صدق زَمعَة مَا نرضى مَا كتب فِيهَا وَلَا نقره، فَقَالَ الْمطعم: صدقتما وَكذب من قَالَ غير ذَلِك، نبرأ إِلَى اللَّه مِنْهَا وَمِمَّا كتب فِيهَا، فَقَالَ أَبُو جهل: هَذَا أَمر قد قضي بلَيْل اشتورتم فِيهِ بِغَيْر هَذَا الْمَكَان، وَأَبُو طَالب جَالس، فَقَامَ الْمطعم إِلَى الصَّحِيفَة ليشقها فَوجدَ الأَرضة قد أكلتها، إِلَّا ما كان من اسم اللَّه.

ولايعارض ذَلِك إِن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ذَلِك، قال لأَبِي طَالب: يَا عَم إِن رَبِّي قد سلَّط الأَرضة على صحيفة قُرَيْش، فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها، ومحت منها الظلم والقطيعة والبهتان،

فقال: أربك أخبرك بهذا؟، قال: نعم، فأخبرهم أبو طالب بذلك، وَقَالَ: أنزلوها، فَإِن صدق فَانْتَهوا عَن قطيعتنا وإلا دَفعته إليكم، فنظروها فَإِذا هِيَ كَمَا قَالَ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وذلك أَنه لَا مَانع من أنهم لما نظرُوا ذَلِك وازدادوا شرًّا، قَامَ أولئك الْخَمْسَة فِي إذهابها عن أَصْلهَا، فسعوا فِي نقضهَا وبذلوا جهدهمْ فِيهِ.

واعلَمْ أنه يجب على كل أحد أن يعتقد أن اللَّه تعالى هو المُختص بعلم الغيب، وأن ما يحصل لأنبيائه وأوليائه منه، فهو إما بوحي من اللَّه أو إلهام. والكلام في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾، مذكور في التفاسير.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ومن ثَمَّ) بفتح المثلثة وشدّ الميم وقد تلحقها تاء التأنيث ساكنة ومفتوحة، وهي ملازمة للظرفية، أَيْ: من وقت ما نُبِّئ على رأس الأربعين بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ الآيات الخمس.

وفتَرَ الوحي ثلاث سنين، أنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، بادر إلى امتثال ذلك وقام يدعو الخلق لعبادة اللَّه والإيمان به وبرسله، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام.

ودخَلَ الناس في دين اللَّه أفواجًا، فكثر المسلمون وظهر الإيمان و(تواتر) أَيْ: كثر وتتابع (الأمر) أَيْ: الوحي (أحيانًا) أَيْ: أوقاتًا، بنحو ما بحسب الوقائع، خمس آيات وعشر آيات وعشرون أو أكثر أو أقل.

واستمر ذلك (حتى تَمَّ) أَيْ: كمل (نزول القرآن) في ثلاث وعشرين سنة على قول الجمهور، أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعِث لأربعين، وعاش ثلاثًا

وستين، قال القطب الرازي: المراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها المَلَك من الله تلقُّفًا روحانيًا، أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها، فيلقيها عليهم. والتلفق بالفاء بعد القاف أَيْ: يتناولها بسرعة، كما في "القاموس".

وقال غيره: في المنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أقوال: أحدها: اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ كل حرف منها بقدر جبل قاف، وتحت كل حرف منها معان لا يحيط بها إلا اللَّه تعالى.

الثاني: أن جبريل نزل بالمعاني خاصة وعلَّم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك المعاني، وعبَّر عنها بلغة العرب، لظاهر قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

الثالث: أن جبريل ألقى عليه المعنى وعبَّر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرءونه بالعربية، ثم نزل به كذلك بعد. ويؤيد الأول ما رواه الطبراني عن النواس بن سمعان مرفوعًا: إذا تكلَّم اللَّه بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف اللَّه، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخرّوا سجدًا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه اللَّه من وحيه بما أراد فينتهي به على الملائكة كلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟، قال: الحق، فينتهي به حيث أمر.

وقال البيهقي: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، يريد واللَّه أعلم إنا أسمعنا المَلَك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع فيكون الملك مُتنقلًا من علو إلى

سفل. قال أبو شامة: هذا المعنى مطرد في جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن أو إلى شيء منه يحتاج إليه أهل السنة المعتقدون قدم القرآن وأنه صفة قائمة بذاته تعالى.

وقال العلَّامة الخُوي -بضم الخاء المعجمة-: كلام اللَّه المنزل قسمان: قسم قال اللَّه لجبريل: قل للنبي الذي أنت مرسل إليه إن اللَّه يقول لك كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهم جبريل ما قاله ربه، ثم نزل على ذلك النبي، وقال له ما قال ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول المَلَك لمن يثق به: قُلْ لفلان يقول لك المَلَك: اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال، فإن قال الرسول: يقول لك المَلَك لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند يتفرق، وحثّهم على المقاتلة لا ينسب إلى كذب وتقصير في أداء الرسالة.

وقسم آخر: قال اللَّه لجبريل: اقرأ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الكتاب، فنزل بكلام اللَّه من غير تغيير كما يكتب الملك كتابًا ويسلمه إلى أمين، ويقول: اقرأه على فلان، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفًا اه.

والقرآن هو القسم الثاني، والأول هو السنة، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن. وقد رأيت ما يعضد كلامه، فروى ابن أبي حاتم عن الزهري أنه سئل عن الوحي، فقال: الوحي ما يوحي اللَّه إلى نبي من أنبيائه فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه، وهو كلام اللَّه، ومنه ما لا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ولا يأمر بكتابته، ولكنه يحدث به الناس حديثًا، ويبيّن لهم أن اللَّه أمره أن يبيّنه للناس ويبلغهم إياه، قاله في "الإتقان" ببعض

اختصار.

وذكر في "فتاويه" عن شيخه الكافيجي: أن التلقف الروحاني لا يكيّف.

قاله الزرقاني.

هذا وقد أشار المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" إلى ما تقدَّم من بدء الوحي إلى هنا، بقوله:

بَدَأَ الوَحْيَ بِالنَّامُوسِ جِبْرِيلُ فِي حِرَا   بِسُورَةِ اِقْرَأْ قَالَ اِقْرَأْ فَمَا قَرَا
فَضَمَّهُ كَيْ يَقْرَأْ ثَلَاثًا فَأَنْبَرَا   لِيُتْلِي كِتَابًا نِعْمَ يَا سَيِّدَ الوَرَى
تِلَاءً وَتَلَّاءً وَمَتْلُوَّ مُنْبِيُو
أَتَى الحِبُّ زَوْجَتَهُ بِقِصَّتِهِ مَضَتْ   إِلَى وَرْقَةٍ تُنْبِيهِ أَلْفَتْهُ أَخْبَرَتْ
فَقَالَ هُوَ النَّامُوسُ مِنْ بَعْدِ مَا رَوَتْ   فَلَيْتِي أَرَاهُ حِينَ يُخْرِجُهُ مَنْ مَقَتْ
لَهُمْ رَبُّنَا مِنْ أَوَّلِ ذَا المُنَبِّيُو
وَمَا زَالَ يَأْتِيهِ مِنَ اللهِ وَحْيُهُ   يُبَاشِرُ بِالإِحْسَانِ قَوْمًا وَرَأْيُهُ
سَدِيدًا إِلَى أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ   فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ فَشَدَّدَ عَزْمَهُ
بِدَعْوَاهُ لِلدِّينِ الحَنِيفِي يُرَقِّيُو
فَخَاضَتْ عِدَاءُ اللَّهِ قَالَتْ بِهِ جِنٌّ   وَإِلَّا فَسِحْرٌ وَافْتِرَاءٌ مُعَيَّنُ
حَمَى اللَّهُ طَهَ مِنْ مَقَالٍ مُخَرْقَنُ   هُوَ الوَحْيُ وَالمُوحَى إِلَيْهِ مُبَيَّنُ
وَمُوحِيهِ فَأْتُوا آيَةً مِثْلَهُ عَيُوا
وَمِنْ بَعْدِ ذَا عَرَفُوهُ عُرْفًا بِلَا نُكْرِ   كَمَا أَنْبَأَ مَوْلَانَا كَأَبْنَائِهِمْ تَدْرِي

وَلَكِنَّمَا طُغْيَانُهُمْ جَاءَهُمْ يَجْرِي   وَسَبْقُ شَقَاوَاتٍ مِنَ الوَاحِدِ البَرِّ

عَلَيْهِمْ فَصِلِّ عَلَيْهِ يَا رَبِّ عَلِيُّو

(و) الثانية عشر من النبوة (قبل أن يهاجر) أَيْ: قبل أن ينتقل من مكة، إذ الهجرة هي الانتقال من بلد إلى آخر. والهجرة هنا انتقاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى المدينة. وكانت قبل الانتقال (بسنة) واحدة (على القول (الصحيح).

وكان عمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثنان وخمسون سنة. قاله ابن سعد وغيره، وبه جزمَ النووي، وقاله ابن حزم، وادعّى فيه الإجماع. وقيل: كان ذلك بعد المبعث بخمس سنين، حكاه القاضي عياض عن الزهري، ورجَّحه القرطبي والنووي.

واحتج بأنه لا خلاف أن خديجة صلَّت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة إما بثلاث أو بخمس، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء.

وتعقّب بأن موت خديجة بعد المبعث بعشر سنين على الصحيح في رمضان، وذلك قبل أن تفرض الصلاة. ويؤيده إطلاق حديث عائشة أن خديجة ماتت قبل أن تفرض الصلوات الخمس. ويلزم منه أن يكون موتها قبل الإسراء وهو المعتمد، وأما تردد القاضي عياض في سنة وفاتها بقوله: إما بثلاث أو بخمس، فيرده جزم عائشة عند البخاري بأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين قاله الحافظ ابن حجر.

وقيل: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، قاله السدي،

وأخرجه من طريق الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال. وقيل: كان في رجب. وقيل: كان قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، فعلى هذا يكون في ذي الحجة. وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين، ذكر ابن الأثير. وقال الحربي: إنه كان في سابع عشري ربيع الآخر. وقال النووي في "فتاويه": في ربيع الأول.

وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من رجب، وعليه عمل الناس، قال بعضهم: وهو الأقوى. فإن المسألة إذا كان فيها خلاف للسلف ولم يقم دليل على الترجيح واقترن العمل بأحد القولين أو الاقوال، وتلقى بالقبول فإن ذلك مما يغلب على الظن كونه راجحًا. ولذا اختاره الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي.

وأما اليوم الذي يسفر عن ليلتها، فقيل: الجمعة، وقيل: السبت. وعن ابن دحية: يكون إن شاء اللَّه يوم الاثنين، ليوافق المولد والمبعث والهجرة والوفاة، فإن هذه أطوار الانتقالات: وجودًا ونبوة ومعراجًا وهجرة ووفاة.

ويكون الاثنين في حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالجمعة لآدم.

وقوله: (للديار) متعلّق ب يهاجر، جمع دار، (اليثربية) أَيْ: المنسوبة ليثرب -بفتح الياء التحتية وسكون الثاء المثلثة-: اسم للأرض التي بالمدينة في ناحية منها، وسميت بيثرب بن قانية بن آدم بن سام بن نوح، لأنه أول من نزلها، وقد غيَّرهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى طيبة، وسمَّاها اللَّه طابة. رواه مسلم.

قال عيسى بن دينار: من سمَّاها يثرب كتبت عليه خطيئة، وفي "مسند

أحمد" عن البراء بن عازب، قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من سمَّى المدينة بيثرب فليستغفر الله عز وجل، وهي طابة وإنما سميت في القرآن حكاية. ذكره الزرقاني.

وقيل: يثرب اسم لنفس المدينة، وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تسمى بهذا الاسم لما فيه من التثريب، وهو التقريع والتوبيخ.

(جاءه جبريل) أَيْ: وهو مضطجع بين رجلين، أَيْ: واضع جنبه أَيْ: الأيمن، كما قيل بالأرض بين النوم واليقظة عند البيت في الحكيم، أو الحِجْر -بكسر فسكون- والمراد بالحكيم كما قاله ابن حجر، وفي روايةٍ: فرج سقف بيتي. وفي أخرى: أنه من بيت أم هانئ بنت عمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وجمع بين الروايات بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في بيت أم هانئ وهو عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته وأضافه إليه، لأنه كان يسكنه فنزل منه الملك، وكان نائمًا فيه أَيْ: مضطجعًا أو مستغرقًا في عجائب الملكوت، لا نائمًا حقيقة، بدليل رؤيته لانفراج السقف ونزول الملائكة منه، فاحتملوه حتى جاءوا به إلى المسجد وتركوه فيه، فجاء حتى اضطجع بين الرجلين، فعادوا إليه واحتملوه إلى زمزم وشقوا صدره الشريف، وغسلوه بماء زمزم.

ثم أركبه جبريل البراق (فأسرى به) أَيْ: بروحه وجسده يقظة لا منامًا، مرة واحدة في ليلة واحدة عند جمهور المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عنه.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، والأحاديث الصحيحة تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها.

وقيل: وقعَ الإسراء والمعراج في مرتين منامًا ويقظة. وقيل: الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة. وقيل: الإسراء يقظة والمعراج منامًا. وقيل: الخلاف، في أنه يقظة أو منامًا خاص بالمعراج لا بالإسراء. وقيل: أسرى به مرتين يقظة الأولى بلا معراج والثانية به.

وقوله: أسرى أَيْ: سار ليلاً، يقال: أسرى وسرى: سار في الليل، وهما لازمان، لكن مصدر الأول الإسرار ومصدر الثاني السُّرَى -بضم السين- كهُدى، فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء في قوله: به. ذكره الشيخ سليمان الجمل.

ومعنى أسرى به: صيَّرهُ ساريًا في الليل من المسجد الحرام (إلى بيت المقدس) من إضافة الموصوف إلى صفة، أَيْ: البيت المُقدّس أَيْ: المُطهّر عن عبادة غير اللَّه تعالى، أَيْ: لم يعبد فيه صنم قط، والمَقدِس -بفتح الميم وكسر الدال المخففة-: مصدر ميمي، ويجوز ضمها وفتح الدال المشددة من التقديس وهو التطهير، وقد تحذف ميمه فيقال بيت القدس -بضم أوله وثانيه ويسكن-.

وأوَّل من بناه إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة، كما في "المواهب"، فهو أول مسجد بني في الأرض بعد الكعبة. وفي "الصحيح": عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ عن أول مسجد وضع في الأرض؟، قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟، قال: المسجد الأقصى، قلت: وكم بينهما؟، قال: أربعون عامًا. الحديث.

والمسافة بين الكعبة وبين بيت المقدس قدر شهر أو أكثر. واختلف في مسافة الإسراء فقيل: قدر أربع ساعات. وقيل: ثلاث. وقيل: أقل من ذلك.

والحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس دون العروج به من مكة لأنه محشر الخلائق، فيطأؤه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه، أو لأنه مجمع أرواح الأنبياء، فأراد اللَّه تعالى أن يشرّفهم بزيارته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليخبر الناس بصفاته فيصدق في الباقي.

وهو الذي عمَّره نبي اللَّه سليمان بأمر اللَّه عزَّ وجلَّ، وما زال مكرمًا محترمًا وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال شرعًا إلا إليها، أَيْ: لا يقصد بالزيارة بالتعظم من جهة أمر الشارع إلا في هذه الثلاثة، كما ورد في الحديث: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلخ.

وقد روى النسائي وابن ماجه وغيرهما: أن سليمان عليه السلام لما جدر بيتَ المقدس، سأل اللَّه ثلاثًا: سأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله حكمًا يوافق حكمه، فأعطاه إياه، وسأله من أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه، أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة.

وروى أبو داود وابن ماجه عن ميمونة، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتِنَا فِي

بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أصلي فيه؟، قَالَ: فَتُهْدِي لَهُ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَمَنْ أَتَاهُ.

وصرَّحت السنة الصحيحة بما اقتضته القرينة من دخوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيت المقدس، وهو معدن الأنبياء من لدن الخليل، ولذا اجتمعوا له هناك كلهم، وأمَّهم في محلتهم ودارهم، ليدل ذلك على أنه الرئيس المقدّم والإمام الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(كما حرَّرهُ) أَيْ: حديث الإسراء به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، (الشيخان) أَيْ: البخاري ومسلم، لأنه متى أطلق الشيخان في مصطلح الحديثيين، فهما المراد.

تنبيه: قال ابن المنير: وإنما كان الإسراء ليلاً لأنه وقت الخلوة، والاختصاص عرفًا، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وليكون أبلغ للمؤمن في الإيمان بالغيب وفتنة للكافر.

وقد قال بعض أهل الإشارات: أنه لما محى الله آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، وانكسر خاطر الليل فحير بأن أسرى فيه بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال ابن دحية: أكرم نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلًا بأمور، منها: انشقاق القمر، وإيمان الجنّ به، وَرَأى الصَّحَابَة نيرانهم كَمَا فِي "صَحِيح مُسلم"، وَخرج إِلَى الْغَار لَيْلًا. والليل أصل أَيْ: سابق في الخلق. ولهذا

كان أول الشهر وسواده يجمع ضوء البصر، ويحد كليل النظر، ويستلذ به بالسمر.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر أسفاره ليلاً، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوى بالليل. والليل وقت الاجتهاد للعبادة. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقومه حتى تورمت قدماه، وكان قيام الليل في حقه واجبًا.

فلما كانت عبادته ليلاً أكرمه الله بالإسراء فيه، وليكون أجر المصدق به أكثر ليدخل في ضمن من آمن بالغيب دون من عاينه نهارًا.

وقدَّم الحق تعالى الليل في كتابه على ذكر النهار، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

وصحَّ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرَ لَهُ. الحديث.

وهذه الخاصية لم تجعل للنهار، نبَّه بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما في ذلك الوقت من الليل من سعة الرحمة ومضاعفة الأجر وتعجيل الإجابة، ولإبطال الفلاسفة أن الظلمة من شأنها الإهانة والشر.

ولأن اللَّه تعالى أكرم أقوامًا في الليل بأنواع الكرامات، كقوله في قصة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾، وفي لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، وفي موسى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾،

وناجاه ليلاً، وأمره بإخراج قومه ليلاً اه.

ومن هنا اختُلف في التفضيل بين الليل والنهار، وصنَّف بعضهم فيه كتابًا، فرجَّح الليل بوجوه منها ما تقدَّم، ومنها سبقه النهار أَيْ: تقدّمه في الخلق، وفيه ساعة الإجابة كما تقدَّم، وهي في كل الليالي بخلاف الأيام، فهي منها في يوم الجمعة فقط.

ورجَّح النهار بوجوه منها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة ويوم الجمعة. لكن ردّ بأن هذا بالنسبة للأيام لا الليالي، فقوله: يوم عرفة، أَيْ: بالنسبة لأيام العام، ويوم الجمعة أَيْ: بالنسبة لأيام الأسبوع، فلا تعارض.

وورد أيضًا بأن ليلة القدر خير من ألف شهر، وقد دخل في هذه الليلة أربعة آلاف جمعة ونيف وثمانون جمعة.

قلتُ: ومن أعظم الأدلة القاطعة للنزاع الدالة على تفضيل وقوع رؤية اللَّه تعالى فيه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء، ونزول القرآن فيه، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الآية، واللَّه أعلم.

قال أبو أمامة بن النّقّاش: ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خير من عمل أكثر من ثمانين سنة وثلث سنة ممن كان قبلهم. وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يعيّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقول الإمام البلقيني رحمه الله في قصيدته التي مدح فيها النبي صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أولاك رؤيته في ليلة فضلت ليالي القدر فيها الرّبّ أرضاكا

يؤخذ منه إن ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر، ولعل الحكمة في ذلك، كما قاله في "الاصطفاء": اشتمالها على رؤيته التي هي أفضل كل شيء، ولهذا لم يجعلها ثوابًا عن عمل من الأعمال مطلقًا، بل من بها على عباده يوم القيامة تفضلًا منه تعالى اه.

وهذا يؤيد ما قدّمناه آنفًا في تفضيل الليل، لكن يبقى النظر في تحرير محل الخلاف، وقد حرّره بعضهم كما وُجد بخط الحافظ ابن حجر، نقلاً عن الهروي، فقال: إن كان المراد أن ليلة الإسراء ونظائرها من كل عام، أفضل من ليلة القدر بحيث يكون قيامها والدعاء فيها أفضل من ليلة القدر، فهذا باطل، لم يقل به أحد من المسلمين، وهو معلوم الفساد بالاضطرار.

وإن أراد المعينة التي أسري فيها بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحصل له فيها ما لم يحصل له في غيرها من غير أن يشرع حصر تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، إن قام دليل على إنعام اللَّه على نبيه ليلة الإسراء كان أعظم من إنعامه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر، وهذا لا يعلم إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيه بلا علم، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه خص ليلة الإسراء بأمر من الأمور.

وهذا لا يعرف أَي ليلة كانت، وإن كان الإسراء في نفسه من أعظم فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفضل غراء حراء الذي أنزل فيه الوحي، ولا خص اليوم الذي ابتدأ فيه بالوحي بشيء

اه.

وظاهر هذا الكلام أن الخلاف بين الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن، كما يدل عليه قوله: إن قام دليل على إنعام اللَّه عليه بإنزال القرآن ليلة القدر.

وأما الليلة المعينة التي أسري به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، وليلة القدر في كل عام، فينبغي أن يكون فيها قول أبي أمامة بن النقاش المتقدّم. وأما تطاير الليلة المعينة من كل عام، فلا شك أن ليلة القدر من كل عام أفضل منها كما لا يخفى. قاله النجم الغيطي.

(و) بعد حمل الملائكة له ومجيئهم به إلى المسجد، وشقّ صدره الشريف وطهارة باطنه وظاهره بالوضوء المناسب لشهود الحضرة القدسية، وللصلاة التي بيانها، وإن لم يذكر طهارة الظاهر في القصة.

(أتاه) أَيْ: جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (بالبراق) -بضم الموحدة وتخفيف الراء-: زنة غلام، مشتق من البريق واللمعان، فقد جاء في لونه أنه أبيض، أو من البرق لأنه وُصِف بسرعة السير كالبرق الخاطف.

أو من قولهم: شاة برقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، ولا ينافيه وصفه في الحديث بالبياض، لأن البرقاء من الغنم معدودة في البيض، ويجوز أن يجمع بين المعنيين فيسمى براقًا للونه وسرعة سيره، ويحتمل أن لا يكون مشتقًا.

وهو من دواب الجنة أرسله اللَّه تعالى تعظيمًا وتكريمًا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من عالم الغيب، لا يوصف بذكورة ولا بأنوثة كالملائكة.

وأما ضميره فتارة يذكّر وتارة يؤنّث.

وقد وردَ في صفته أقوال، أقربها وأصحّها ما ذكر في القصة، عن ابن عباس: بأنه دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين، إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه، له جناحان في فخذيه، يحفّز أَيْ: يعين ويقوي بهما رجليه في سرعة السير. وقيل: أنه بادي البشرة، خده كخد الإنسان، وعرفه كعرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل، وأظلافه كأظلاف البقر، وصدره ياقوتة حمراء، لا يشبه الدواب.

قال ابن المنير: إنما أتى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبراق باعثًا له بجريه على العادة، واللَّه تعالى قادر أن يرفعه بغير شيء، وإظهارًا لكرامته، فإن عادة الملوك إذا دعوا من يحبونه بعثوا إليه بمركوب سني، أَيْ: مُهيأ، يحمله عليه في وفادته إليه، ولم يكن على شكل الفرس تنبيهًا على أنه حال سلم لا حال حرب، أو إظهاره للمعجزة في الإسراع العجيب من دابة لا يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادة.

وكذا ركب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البغلة في حنين، إظهارًا لثباته وشجاعته، وتساوي الحرب والسلم عنده، وبغلته بيضاء كالبراق أَيْ: شهباء، والأشهب المائل على البياض اه.

قال النجم الغيطي: فإن قيل هل لكان الإسراء على أجنحة الملائكة أو الريح، كما كانت تحمل سليمان، أو الخطوة كطي الزمان؟.

قلتُ: اطلاعه على الآيات الخارقة لعلادة، وما يتضمن من أمر

عجيب، ولا عجب في حمل الملائكة أو الريح بالنسبة إلى قطع هذه المسافة، بخلاف قطعها على دابة في هذا الحجم المحكي عن صفتها، ووقع من تعظيمه بالملائكة ما هو أعظم من حمله على أجنحتها، فقد أخذ جبريل بركابه وميكائيل بزمام البراق، وهما من أكبر الملائكة، فاجتمع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمل البراق، وما هو كحمل البراق من خدمة الملائكة، وهو أتم في الشرف. قاله في "الفتح" الصفا اه.

وقوله (ملجمًا) حال أَيْ: حال كونه ملجمًا، أَيْ: ومسرجًا كما في القصة، وهو بهذه الهيئة من خصوصياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال العلماء، بخلاف ركوب غيره من الأنبياء له. قيل: وكان سرجه من لؤلؤة بيضاء ولجامه من ياقوتة حمراء، قيل: ومكتوب بين عينيه سطران أحدهما: لا إله إلا اللَّه، والثاني: محمد رسول اللَّه.

ويؤخذ من كونه مسرجًا ملجمًا أنه من ذوات الأربع، وكذا من قوله طويل. وقوله: فوق الحمار، بيان لطوله بهذه الصفة، قال الأجهوري: ثم إن من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركوبه له وهو مسرج ملجم، وكذا وضع حافره عند منتهى طرفه، أَيْ: يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره.

(فاستصعب) السين والتاء للتوكيد، أَيْ: أعسر وامتنع على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (بعنوفة بهيمية) أَيْ: امتنع ونفر نفورًا كنفور البهيم، وذلك للإشارة إلى قوته، وأنه متمكن من قطع المسافة الطويلة في أسرع زمن وليس بالضعيف، فلذا خاطبه مخاطبة العقلاء لما فيه من الإدراك عند أهل البصائر.

(فقال له) أَيْ: للبراق (جبريل) ما حملك على هذا؟، أَيْ: ما منعك من الانقياد له، مع أنه أعظم من يستحق غاية التعظيم، لأنه (ما ركبك عبد أعظم (وأكرم على اللَّه من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عدنان)، بل هو أكرم من ركبك، فإن إمام المخلوقين مما لا ينبغي بحضرته إلا مزيد الأدب لا إظهار القوة. وقيل: إنما استصعب عجبًا وتيهًا بركوب هذا الجناب العظيم، ولذا قال في القصة: فأرفض -بسكون الراء وفتح الفاء وتشديد المعجمة- أَيْ: سال وجرى عرقًا، فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئًا من الاستصعاب، وعرق من حجل العتاب.

ومثل هذا رجفة أَيْ: تحرّك الجبل به، كما في "الصحيحين" عن أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد أحدًا وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.

فإنها هزة الطرب أَيْ: الفرح لا هزة الغضب، فلذا قرّ الجبل وسكن، وكذا البراق لما قال له جبريل: اسكن، فما ركبك أحد أكرم على اللَّه منه، أقرَّ فاستقر وخجل من ظاهر الاستصعاب، وتوجه الخطاب إليه بالعتاب، فعرق حتى غرق، وما قيل من أن نفرته لبعد عهده بركوب الأنبياء فمما تستبعده النفس. وإن ذكر النجم الغيطي ما يؤيده.

وقال الشيخ قاسم الحنفي: ولا يبعد أن يقال إنما كان استصعابه فرقًا أَيْ: خوفًا من هيبة سيدنا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: إنما استصعب ليعده الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالركوب عليه يوم القيامة،

لما ورد أن الله أعدَّ له يوم القيامة أربعين ألف براق ترعى من مروج الجنة، فلما وعده بذلك قرّ وسكن.

وفيه أن القصة لم تشر لذلك، وإن كان قريبًا في نفسه، فقد ورد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: تبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها من عند قبره حتى يوافي بها المحشر، وأنا على البراق، اختصصت به من دون الأنبياء يومئذ، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة، ينادي على ظهرها بالأذان حقًّا، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قالوا: ونحن نشهد على ذلك.

ولم يسمّ الله سبحانه وتعالى سير البراق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طيرانًا، وإنما سمّاه بما يسمّى به السير المعتاد، وسير الليل عند العرب يسمى إسراء.

فيؤخذ من هذا أن الوليّ إذا طويت له الأرض البعيدة في الساعة الواحدة ويتناوله اسم المسافر، ويشمله أحكام السّفر باعتبار القصر والفطر، إذا كان صائمًا. وإنما لم يذكر البراق في الرجوع، لأن ذلك معلوم بذكره في الصعود.

فائدة: قالوا: الدواب التي تدخل الجنة من دواب الدنيا عشرة: البراق، وناقة صالح، وحمار العزير، وعجل الخليل، وكبش إسماعيل، وهدهد سليمان، ونملته، وكلب أهل الكهف، وحوت يونس، وبقرة بني إسرائيل. ونظمها بعضهم بقوله:

براق شفيع الخلق ناقة صالح وعجل لإبراهيم كبش لنجله

وهدهـد بلقـيس ونملـة بعلهـا حمـار عزيـر كلـب كهـف كمثلـه
وحوت ابن متَّى ثم باقورة لمن يبــر لام فــي رخــاء ومحلــه
فهاتيك عشر في الجنان وغيرها يصـير ترابًـا يـوم حشـر لكلـه

لكن في عد البراق من دواب الدنيا مسامحة، وكذا كبش إسماعيل. ذكره الأستاذ الدردير على "قصة المعراج".

(ثم بعد بيت المقدس رقى) بفتح الراء والقاف بوزن رمى، أَيْ: صعد جبريل (به) أَيْ: بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (السماوات).

قال الحافظ ابن كثير: لما فرغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج، وهو السلم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق، كما قد توهمه بعض الناس، بل كان البراق مربوطًا على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة. وقال الحافظ السيوطي: أنه الصحيح الذي تقرر من الأحاديث الصحيحة اه.

قال القليوبي في "معراجه": وذلك بعد أن نصب له جبريل معراجًا، أتى به من جنة الفردوس، وهو سلم له عشر مرقاة، وهي بفتح الميم: موضع الرقي، ويجوز كسرها باعتبار أنه آلة الرقي، كما قاله الأستاذ الدردير: واحدة من المرقاة من فضة وأخرى من ذهب، وجانباه أحدهما من ياقوتة حمراء والأخرى من ياقوتة بيضاء، وهو مكلل باللؤلؤ وغيره من معادن الجنة.

فنصبه جبريل فجعل أسفله على صخرة بيت المقدس، وأعلاه إلى العرش، بين كل مرقاة والأخرى بين السماء والأرض، والمرقاة السفلى

منه كان محلها عند السماء الدنيا والثانية عند الثانية، وهكذا فللسماوات سبع مرقاة، والثامنة للسدرة، والتاسعة للكرسي، والعاشرة إلى العرش.

فلما هَمَّ بالصعود نزلت التي عند السماء الدنيا فركبها، وصعدت به إلى السماء الدنيا، فلما وصلها نزلت التي عند السماء الثانية فركبها، وصعدت به إلى السماء الثالثة، وهكذا اه.

وقال الحلبي: وكان جملتها عشرة، سبعة إلى السماوات السبع، والثامنة إلى سدرة المنتهى، والتاسعة إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، والعاشرة إلى العرش والرفرف، فكل مرقاة تسقط من محلها حتى يضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدميه عليها، فترتفع به إلى محلها فتسقط الأخرى، وهكذا اه.

قال النجم الغيطي: اعلم أنه قد ورد أن بين الدرجة والدرجة في الجنة خمسمائة عام، وأن الدرجة تهبط ليصعد عليها ولي اللَّه، ثم ترتفع به إلى مكانها. والظاهر كما قال بعضهم: أن درجة المعراج كذلك، واللَّه أعلم اه.

واعلم أن المعاريج العشرة بعد أن خرج من مكة إلى بيت المقدس تشير إلى أن سني الهجرة بعد خروجه من مكة إلى المدينة عشرة، ولكل معراج منها حكمة ومناسبة للسنة التي تشير إليه، فالمعراج الأول إلى سماء الدنيا، ووجود آدم فيها يشير إلى حكم ومناسبة تقع في السنة الأولى من الهجرة، وهكذا كما سيأتي.

فائدة: السماء الدنيا من موج مكفوف أَيْ: ممنوع من التفرق والتقطع، والثانية من مرمرة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس،

والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من ياقوتة حمراء، والكرسي من ياقوتة بيضاء، والعرش من ياقوتى حمراء، وأبواب السماوات كلها من ذهب، وأقفالها من نور، ومفاتيحها اسم اللَّه الأعظم. ذكره القليوبي في "معراجه".

وكان صعوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السماوات (بعد أن) نزل عن البراق وربطه بباب المسجد بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء، ودخل المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر.

ثم (صَلَّى) هو وجبريل كل واحد ركعتين تحية المسجد، فلم يلبث إلا يسيرًا، حتى اجتمع ناس كثير فعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أذّن مؤذن وأقيمت الصلاة، فقاموا صفوفًا ينتظرون من يؤمهم.

فأخذ جبريل بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقدَّمه فصلَّى ركعتين (بالنبيين) والمرسلين والملائكة وأرواح المؤمنين إمامًا، وفيه إشارة إلى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلهم، وأنه إمامهم في الدنيا والآخرة.

قال النجم الغيطي: تظافرت الروايات أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى بالأنبياء في بيت المقدس قبل عروجه، وهو أحد احتمالين للقاضي عياض. وقال الحافظ ابن حجر: أنه الأظهر.

والاحتمال الثاني أنه صلَّى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضًا، وصحّحه الحافظ ابن كثير، وقال بعضهم: وما المانع من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى بهم مرتين، فإن في بعض الأحاديث ذكر الأحاديث بهم بعد

المعراج.

وهذه الصلاة التي صلَّاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الصواب أنها المعروفة ذات الركوع والسجود، لأن النص يحمل على حقيقته الشرعية قبل اللغوية، إلا إذا تعذر حمله على الشرعية ولم يتعذر هنا، فوجب حمله على الشرعية.

ويؤيده ما في القصة، فأخذ جبريل بيده فقدَّمه فصلَّى بهم ركعتين، والظاهر أنها كانت فريضة، وأيده بعضهم بقوله في بعض طرق القصة، ثم أقيمت الصلاة فأمَّهُم. وفي روايةٍ: فأذن جبريل، والأذان والإقامة يؤذنان بأنها فريضة، ولا يشكل على هذا بدء الأذان إنما كان بعد الهجرة، لأنه لا مانع من وقوعه ليلة الإسراء قبل مشروعية الصلوات الخمس.

وعلى كونها فريضة قال بعضهم: كانت الصلاة التي صلَّاها العشاء. وقال بعضهم: أنها الصبح. قال بعض المتأخرين: وليس بشيء سوى قلنا صلَّى بهم قبل العروج أو بعده، لأن أول صلاة صلَّاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخمس مطلقًا الظهر بمكة بالاتفاق، ومن حمل الأولية على مكة، فعليه الدليل.

والذي يظهر واللَّه أعلم أنها كانت من النفل المطلق، أو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء.

وفي "فتاوى النووي": ما يؤيد الثاني وهل قرأ فيها بأم القرآن، أو كان ذلك قبل مشروعية هذا الحكم، محل نظر. وقال بعضهم: لم يرد في تعيين القراءة في تلك الصلاة، فيما وقفت عليه خبر صحيح أو حسن يعتمد

عليه، وفوق كل ذي علم عليم اه.

قال بعضهم: ورؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنبياء، وصلاته بهم ببيت المقدس يحتمل أنها كانت للأرواح خاصة، وأنها تشكلت بصور أجسادها في علم اللَّه تعالى.

ويؤيده ما في حديث أبي هريرة عند الحاكم والبيهقي: فلقي أرواح الأنبياء، ويحتمل الأجساد بالأرواح وهو الأقرب. ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عن أنس عند البيهقي: وبعث اللَّه آدم فمن دونه من الأنبياء. وعند البزار والطبراني: فنشر لي الأنبياء من سمى اللَّه تعالى، ومن لم يسم، فصليت بهم.

فإن قيل: كيف يصلي الأنبياء وهم أموات، وليسوا في دار عمل؟.
أجيب: بأنهم كالشهداء بل أفضل، منهم أحياء في قبورهم، فيصلون ويحجون، كما ورد في الحديث. فلا يستبعد أن يتقربوا إلى اللَّه بما استطاعوا، لأن البرزخ ينسحب عليهم حكم الدنيا في استكثارهم فيه من الأعمال وزيادة الأجور، وأن المنقطع عنهم بالموت هو التكليف.

وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع للَّه تعالى، كما جاء في الحديث: أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس. وهو معنى قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

وكما وردَ أنه يقال للقارئ: اقرأ وارقَ، وانظر إلى سجود النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقت الشفاعة، أليس ذلك عبادة وعملاً، وعلى كل حال لا

يمنع حصول هذه الأعمال في مدة البرزخ، لأن الأنبياء لم يقبضوا حتى يخيّروا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة، فاختاروا الآخرة، ولا شك أنهم لو أبقوا في الدنيا لازدادوا من الأعمال الصالحة، فلو كان انتقالهم من هذه الدار يفوت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه، والله أعلم.

(و) بعد صلاته بالأنبياء خرج من المسجد، (وأُسقي) بالبناء للمفعول، (الشربة اللبنية) المنسوبة للبن، أَيْ: جاءه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، وخُيّر في شرب أيهما؟، أراد فأختار اللبن بأخذه وشربه، فقال له جبريل: اخترت الفطرة.

وروي: أخذت الفطرة -بكسر الفاء-، تطلق على الإسلام كخبر: كل مولود يولد على الفطرة. وتطلق على أصل الخلقة كقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ﴾، و: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أَيْ: مبديء خلقهما.

وقول جبريل: اخترت الفطرة، أَيْ: اخترت اللبن الذي عليه بنية الخلقة، وبه بنية اللحم ونشز العظم، وهو بفتح النون والشين والزاي المنقوطة، أَيْ: ارتفع. أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف الخمر، فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا الإسلام والاستقامة. قال: وجعل اللبن علامة على الإسلام لكونه سهلاً طيبًا لذيذًا طاهرًا، أَيْ: لا يشوبه شيء من الفرث والدم من لون، أو طعم أو ريح، وهو بينهما سائغًا للشاربين، أَيْ: سهل المرور في الحلق، لا يغص به، سليم العاقبة في

الحالة والمآل.

وأما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل.

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الخمر أمّ الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته. رواه الطبراني.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكونه أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاءه، والسر في ميل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه دون غيره لكونه مألوفًا له أولًا، ولكونه لا ينشأ عند جسده مفسدة.

وإذا كانت الخمرة مباحة، لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة، فما وجد تعيينه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأحد المباحين باختياره، وما وجه عد ذلك صوابًا وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟.

فيحتمل أن يكون توقّاها تورعًا وتعريضًا بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله، قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله بك، كما رويا الأول في الصحيح، والثاني في غيره.

قال ابن المنير: فدل قول جبريل ذلك على أن اختيار الخمر خطأ عصم منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن المسألة اجتهادية، لأن الخمر لم تكن حرمت، قال: وفيه دليل على المذهب المشهور لمالك والشافعي وغيرهما، أن المسائل الاجتهادية لله فيها حكم معين، من أصابه فقد أصاب الحق، ومن أخطأه أخطأ الحق، خلافًا للقول بأن حكم الله على كل مجتهد ما غلب على ظنه اه.

وفيه إفادة وجه كون اختيار الخمر خطأ، وهو أن حكم اللَّه فيها تحريمها بعد أبدًا، وإن كانت مباحة حينئذ لأمور خفيت علينا، ثم الخمر المحضرة يحتمل أنها من خمر الدنيا، وأنها من خمر الآخرة التي لا يصدعون عنهان ولا ينزفون، فإذا قلنا: من خمر الدنيا، فوجه تجنبها ما تقدّم.

وإن قلنا: إنها كانت من خمر الجنة، فيكون سبب تجنبها صورتها، ومضاهاتها الخمر المحرمة، أَيْ: في علم اللَّه تعالى، وذلك أبلغ في الورع.

ويستفاد منه أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره شيئًا يستعمله على الصفة المعتادة بين شربة الخمر، ولو ماء قراحًا، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه في بالهيئة التي يتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات، فقد أتى منكرًا، وإن كان لا يحد عليه. قاله ابن المنير. قال: وقد نص العلماء على هذا، فينبغي أن يؤخذ من حديث الإسراء.

وينظر فيما يعلمه فقراء اليمن ومكة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن، ثم صاروا بعد ذلك يعملونه من البن أيضًا ويسمونه بالقهوة، وهو اسم من أشهر أسماء الخمر.

هل يحرم تناوله لتسميتهم بالخمر، فكأنهم شبهوه بها؟. قال الزرقاني في جوابه: لا حرمة لأنه لا يشرب على الهيئة التي يشرب عليها الخمر، ومجرد تسميته قهوة لا يقتضي أن يعطى حكم الخمر اه.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد: فلما أتى المسجد الأقصى قام يصلي، فلما انصرف من صلاته بالأنبياء جيء بقدحين في أحدها لبن،

وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن.

وفي رواية البزار من حديث أبي هريرة: أنه جيء له بثلاث أواني، وأن الثالث كان خمرًا، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل.

وفي حديث شداد بن أوس: فصليت في جانب من المسجد حيث شاء اللَّه، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبن، والآخر عسل، ثم هداني اللَّه تعالى فأخذت اللبن، فقال شيخ بين يديه، متكئ على منبر له، يعني لجبريل: أخذ صاحبك الفطرة، وإنه لمهدي.

وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس، وسببه ما وقع له من العطش، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى، ورؤية الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى، وفي هذا إعمال لجميع الروايات لصحتها كلها، وهو أولى من جمع الحافظ أيضًا بحمل.

ثم في رواية مالك بن صعصعة: أنه أتي بالأواني بعد سدرة المنتهى. ورفع البيت المعمور له على غير بابها من الترتيب، وإنما هي بمعنى الواو هنا.

قال السهيلي وابن دحية وغيرهما: لعله قدم له مرتين، أَيْ: جمعًا بين الروايات، وعلى هذا فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب، حيث اختار اللبن تأكيدًا للتحذير مما سواه. ذكره في "المواهب" و"شرحها" للزرقاني.

(فلقي آدم في) السماء (الأولى) أَيْ: بروحه وجسده معًا، كبقية الأنبياء الآتي ذكرهم في السماوات السبع، فاجتمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم بأجسادهم وأرواحهم، بعد أن اجتمع بهم كذلك في جملة الأنبياء في بيت المقدس، فسبقه هؤلاء المذكورون إلى السماوات، ثم صعد فوجدهم فيها، وسلَّم على كل واحد منهم لقيه في سماء، فردّوا عليه السلام ورحبّوا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وصيغة الترحيب من آدم وإبراهيم عليهما السلام: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح. أما آدم فلأنه أبو البشر، وأما إبراهيم فلانحصار الأنبياء من بعده في نسله. وأما صيغة الترحيب من بقية الأنبياء المذكورين هنا فهي بالنبي الصالح والأخ الصالح.

قال النجم الغيطي: وفي سلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على آدم دليلٌ على أن السنة أن القادم يبدأ بالسلام على المقيم، والمار على القاعد، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مارًا على آدم عليه السلام.

وفي رد آدم السلام عليه وقوله له: مرحبًا، دليلٌ على أنه لا يشرع في رد السلام غير الصيغة المعروفة، لأنه لم يقل له: مرحبًا، إلا بعد رد السلام عليه.

وفي قول آدم: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، إشارةٌ إلى افتخاره بأبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي قوله: بالابن الصالح والنبي الصالح، ثناءٌ جميل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووصفه بالصالح مكرّرًا مع البنوة والنبوة، أَيْ: صالح في المعنيين جميعًا. وفيه تنويهٌ بفضيلة الصلاح، ولهذا

وصف به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واقتصر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم الذين اجتمع به ورآهم في السماوات تلك الليلة، على وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاح، وتواردوا عليه وكرّره كل منهم عند وصفه بالبنوة أو الأخوة والنبوة، لأن الصلاح يشمل خصال الخير.

والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فمن ثمّة كانت كلمة جامعة مانعة شاملة لسائر الخصال المحمودة، ولذا لم يقل له أحد: مرحبًا بالنبي الصادق ولا بالنبي الأمين.

قال بعضهم: وصلاح الأنبياء صلاح خاصّ لا يتناول عموم الصالحين. واحتج على ذلك بأنه قد تمنّى بعض الأنبياء أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنّى الأعلى الإلحاق بالأدنى، ولا خلاف في أن النبوة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم.

فهذا يحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، وصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنهم يزول بهم كل فساد، فلهم كمال الصلاح ومن دونهم الأمثل فالأمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد اه.

فائدة: قال ابن المنير: ذكر ابن حبيب: أن بين السماء والأرض بحرًا يسمى المكفوف أَيْ: المحبوس عن الجري، لأنه كفَّ أن يسقط على الأرض، تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة في البحر المحيط، فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة، حتى

جاوزه، فهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه السلام اه.

وأما مسافة ما بين السماء والأرض: فروى الإمام أحمد وابن خزيمة في "صحيحه" وغيرهما عن العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أتدرون كم بين السماء والأرض؟، قلنا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: بينهما خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر من أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك العرش من أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم اللَّه تعالى فوق ذلك. أَيْ: سلطانه وملكه وعظمته.

وروى الطبراني في "الأوسط" وابن راهويه وغيرهما عن الربيع بن أنس قال: السماء الدنيا موج مكفوف، والثانية زمردة بيضاء، والثالثة حديد، والرابعة نحاس، والخامسة فضة، والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة حمراء.

زاد ابن أبي حاتم: وما فوق ذلك صحارى من نور، وما يعلم ما فوق ذلك إلا اللَّه تعالى، وملك موكل بالحجب يقال له ميطاطروش.

وروى أبو الشيخ وابن أبي حاتم عن كعب قال: السماء أشدّ بياضًا من اللبن، فاخضرّت من خضرة جبل قاف. وروي: أن في السماء الدنيا، وهي من ماء ودخان، ملائكة خلقوا من ماء وريح، عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت. ذكره النجم الغيطي.

(و) صعد هو وجبريل على مرقاة المعراج الثانية، فارتفعت بهما إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟، قال: جبريل: قال: ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، ففُتِح لهما.

فدخلا (في) السماء (الثانية) فلما خلصا فإذا هو بـ(ابني الخالة يحيى) ابن زكريا (وعيسى) ابن مريم، جالسين على سرير من ياقوت، فسلَّم عليهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردًا عليه السلام، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ودعوا له بخير.

وكونهما ابنا خالة هو الصحيح، لأن مريم بنت عمران أختها إيشاع أم يحيى، على ما قاله السهيلي وهو الموافق للحديث. وقيل: أن أم مريم وهي حَنَّة بنت فاقود امرأة عمران أخت أم يحيى، فمرين بنت خالة يحيى، وأم يحيى اسمها إيشاع بنت فاقود زوجة زكريا. وقال القيسي: امرأة زكريا إيشاع بنت عمران أخت مريم بنت عمران، وهو القول الأول.

ونسبوا عيسى عليه السلام لأمه، لأنه لا أب له، وأما يونس بن مَتَّى فالصحيح أن مَتَّى اسم أبيه لا اسم أمه.

قال العلامة الأجهوري: لعل وجه عدم سؤاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل عن عيسى ويحيى حين مرَّ بهما بخلاف غيرهما، أنه رأى عيسى في بيت المقدس حيًا، ورآه في السماء كما رآه في الأرض، لأن ذاته لم يحصل فيها تغيُّر.

ويعلم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن عيسى قرينه يحيى عليهما السلام في محل واحد، فلم يحتج للسؤال عنهما حين مرَّ بهما بخلاف غيرهما، فإن

الذي رآه في الأرض تغيّرت حالته في السماء، فلذا سأل عنه، أَيْ: لأنهم لما لم يكونوا أحياء بالحياة المعهودة وارتفعوا إلى الملكوت العلوي، لم يجدهم على الحالة التي رآها في الأرض، وإنما هم على صفات روحانية يشكلهم الله تعالى بها تشكيلاً لايقًا بالملكوت الأعلى.

وأما إدريس عليه السلام فإنه وإن كان حيًّا، لأنه ردّت له الروح بعد ما قبض في السماء الرابعة، إلا أنه التحق بأهل الجنة، فكان حكمه حكم غيره من الأنبياء اه "دردير".

واعلم أن عيسى عليه السلام مقيم في السماء الثانية مع الملائكة، لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، لاتصافه بصفات الملائكة، وإنما كانا في السماء الثانية، لأنه رفع إلى السماء وسينزل منها، فجعل في مكان قريب إلى الدنيا مع يحيى قرينه، ولأن بينهما من القرابة والمحبة ما لا يوصف، ولذا جعلا في سماء واحدة، ولم يكن في سماء اثنان من الأنبياء غيرهما.

وقال ابن المنير: لما كان عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سينزل، كان يحيى في المعنى كأنه وحده. ذكره الشهاب في "شرح الشفا".

واعلم أن يحيى فيه قولان: أحدهما وهو المشهور عند أهل التفسير: أنه منقول من الفعل المضارع، وقد سموا بالأفعال كثيرًا نحو: يعيش ويعمر. قال قتادة: وسمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان. وقال الزجاج: حيي بالعلم، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل نحو: يزيد ويشكر وتقلب. والثاني: أنه أعجمي لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر، فامتناعه للعلمية والعجمة الشخصية.

وعيسى قيل: أنه مأخوذ من العيس وهو بياض تعلوه حمرة مع بريق ولمعان. وقيل: اسم أعجمي غير منصرف. قال ابن عباس: كان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر. وقيل: بثلاث سنين. وقيل: وُلد قبل رفع عيسى بمدة يسيرة.

(ذوي) بفتح الذال المعجمة والواو أَيْ: صاحبَيْ (الإحصان) بكسر الهمزة، أَيْ: المنعة والقوة أو العفة، والمنع عن الشهوات والمعاصي. فقد روي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا بَعْدَ لُوطٍ إِلَّا فِي ذَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ. أَيْ: في رفعة أو في عزّة. ويروى: في ثروة بفتح المثلثة أَيْ: كثرة ومنعة بفتحتين أَيْ: قوة تمنع المذلة. وقيل: المنعة جمع مانع أَيْ: جماعة يحمونه ويمنعونه من أعدائه.

وروي: أن يحيى لم يعمل خطيئة، ولم يهم بها، وكذلك عيسى عليهما الصلاة والسلام. قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، أنه كان معصومًا من الذنوب، أَيْ: لا يأتيها كأنه حُصر عنها أَيْ: حُبس ومُنع وحُفظ وعُصم منها. وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء.

وعيسى قد تبتل عن النساء أَيْ: انقطع عنهن ولم يمل إليهن. وقد ذكر التلمساني: أن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتزوج في آخر الزمان بعد نزوله وقتل الدجال، امرأة من جهينة، ويولد له ولد ذكر، ويتوفى عيسى ويدفن مع رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بينه وبين أبي بكر.

وأما يحيى فإنه لم يمت حتى ملك بضع امرأة، لكنه لم يبن بها، ففعله

هذا إنما كان لنيل الفضيلة وإقامة السنة. وقيل: لغض البصر ودفع الفتنة.

فائدة: روي أن السماء الثانية من مرمرة بيضاء، كما عند ابن راهويه وأبي الشيخ والطبراني وغيرهم، عن الربيع بن أنس: وأن فيها ملائكة على ألوان وصفات شتى، محافظين فيما أمروا به من العبادات المختلفة، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت.

ورُوِي: أن فيها ملكًا نصف جسده الأسفل من نار، ونصف جسده الأعلى من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وهو يقول: يا مَنْ أَلَّف بين الثلج والنار أَلِّفْ بين قلوب عبادك المؤمنين. أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعًا. كذا في "المواهب".

(و) حين ارتفعت بهما مرقاة المعراج الثالثة، واستفتح جبريل ففتح لهما دخلا (في) السماء (الثالثة) قيل: هي من حديد، أَيْ: صافي الحديد. ورُوي: أن فيها ملائكة ذوي أجنحة ووجوه شتى، وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك أنت الحي الذي لا تموت، وهم صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله. لأنه ما نظر واحد منهم إلى وجه صاحبه، ولا ينظر إليه إلى يوم القيامة. كما في "العظمة" عن خالد بن معدان.

فلما خلصا (وجد يوسف) هو اسم عبراني، ولذلك مُنع من الصرف. وقيل: عربي. سُئِلَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَقْطَعُ عَنْ يُوسُفَ؟، فَقَالَ: الْأَسَفُ الْحُزْنُ، وَالْأَسِيفُ: الْعَبْدُ، وَاجْتَمَعَا فِي يُوسُفَ فَسُمّي به.

وعاش من العمر مائة وعشرين سنة، ولما مرَّ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

سلَّم عليه، ردَّ عليه السلام، وقال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. ودعى له بخير.

وقوله (ذا المحاسن) نعت ليوسف، والمحاسن -بفتح الميم والحاء المهملة بعدها الألف ثم سين مكسورة-: المواضع الحسنة من البدن، أو الأمر الحسن مطلقًا، أو الحسن الخفي، وهي جمع حُسن بالضم على غير قياس. وقيل: جمع محسن بزنة مقعد على القياس. والحسن هو الجمال. كما في "القاموس".

قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ فَضْلُ يُوسُفَ عَلَى النَّاسِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَيْتُ لَيْلَةَ أسري بي يُوسُفَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. ذكره البغوي. قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ أَبِي فَرْوَةَ: كَانَ يُوسُفُ إِذَا سَارَ فِي أَزِقَّةِ مصر يرى تلألأ وَجْهِهِ عَلَى الْجُدْرَانِ.

ويقال: إنه ورث حسن آدم يوم خلقه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، قبل أن يخرج من الجنة. وروي: أنه أُعطي شطر الحسن، أَيْ: نصف حقيقة الحسن من حيث هي، لا نصف الحسن الذي أُعطِي لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ هو غير منقسم، ولم يعط منه شيء لغيره.

فشخص الحسن الذي قام بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعطه منه شيء لغيره قط. وقد قال العلماء: أن من تمام الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإيمان بأن اللَّه تعالى جعل خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما

تحقق له من سر قلبه المقدس.

وقد حكى القرطبي في "كتاب الصلاة" عن بعضهم: أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام به الجلال صغيرًا وكبيرًا، لم يتمكن أحد من إتمام النظر إليه، وإنما كان يسارق النظر إليه بعض صغار الصحابة. قال سيدي عمر ابن الفارضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بجمال حجبته بجلال طاب واستعذب العذاب هناكا

فلذا لم يفتتن به أحد، بخلاف سيدنا يوسف عليه السلام فإنه قام به الجمال. وهو (الذي افتتنت) بالبناء للمعلوم، (به زليخا) بفتح الزاي المعجمة وكسر اللام على المشهور. وقيل: أنه بضم أوله على هيئة المصغر. ذكره الشهاب. وقيل: اسمها راعيل امرأة العزير في زمن (الأولية) حيث راودته عن نفسها، وقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

(و) لما ارتفعت بهما مرقاة المعراج الرابعة، وذكر مثل الأول، وفتح لهما دخلا (في) السماء (الرابعة) وهي من نحاس. ورُوي: أن فيها ملائكة يزيدون على ملائكة السماء الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عددًا من التي تليها.

وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود، على ألوان شتى من العبادة، يبعث اللَّه المَلَك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق المَلَك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي جنبه من شدة العبادة، وهم يقولون:

سُبُّوح قُدُّوس، ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو.

فلما خلصا وجدا (إدريس) فرحَّب به ودعا له بخير. وإدريس اسمه خنوخ بالعبرية، وهو جد أبي نوح، فإن نوحًا هو ابن لَمْك -بفتح اللام وسكون الميم- ابن متوشلخ بوزن متدحرج، ابن اخنوخ وهو نبي اللَّه إدريس، ابن شيث ابن آدم لصلبه. قاله السيوطي في "التحبير".

وسُمّي إدريس لكثرة درسه للكتب، وذلك لأن اللَّه شرَّفه بالنبوة، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وكان خيَّاطًا، وهو أول من خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب، وأول من لبس المخيط، وكان من قبل يلبسون الجلود، وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار، وهم بنو قابيل، وأول من نظر في علم النجوم والحساب. ذكره الخازن.

وترحيبه به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله له في الرواية المشهورة: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح. وفي أخرى شاذة: بالابن الصالح، وهو الظاهر، وقد استشكل كونه أخًا له، مع أنه جدًا علا، حتى قال بعضهم: إن إدريس الذي لقيه غير إدريس هذا، وهو الياس. وروى هذا عن ابن عباس، وعلى هذا لا إشكال. وقيل: المراد أخوة النبوة والإسلام.

وهو (الذي قال اللَّه فيه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾) أيْ: في مدحه والثناء عليه، والمكان العلي قيل هو الرفعة بعلة الرتبة في الدنيا. وقيل: أنه رفع إلى السماء وهو الأصح، يدل عليه ما روى أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ رَأَى إِدْرِيسَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ. متفق عليه.

وَكَانَ سَبَبُ رَفْعِ إدريس إلى السماء الرابعة عَلَى مَا قَالَهُ كَعْبٌ وَغَيْرُهُ: أَنَّهُ سَارَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي حَاجَةٍ فَأَصَابَهُ وَهَجُ الشَّمْسِ وحرها، فَقَالَ: يا رب إني مشيت يومًا، فَكَيْفَ بِمَنْ يَحْمِلُهَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، اللَّهُمَّ خَفِّفْ عَنْهُ مِنْ ثِقَلِهَا وَحَرِّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْمَلَكُ وَجَدَ مِنْ خِفَّةِ الشَّمْسِ وَحَرِّهَا مَا لَمْ يَعْرِفْه. فَقَالَ: خففت عني حر الشمس، فمَا الذي قضيت فيه؟، قال: إِنْ عَبْدِي إِدْرِيسَ سَأَلَنِي أَنْ أُخَفِّفَ عَنْكَ حِمْلَهَا وَحَرَّهَا فَأَجَبْتُهُ، قال: يا رَبِّ فاجمع بَيْنِي وَبَيْنَهُ، واجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خُلَّةً، فَأَذِنَ لَهُ حَتَّى أَتَى إِدْرِيسَ، فَكَانَ إِدْرِيسُ يَسْأَلُهُ، فكان ممن سأله أن قال له: إِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّكَ أَكْرَمُ الْمَلَائِكَةِ وَأَمْكَنُهُمْ عِنْدَ مَلَكِ الْمَوْتِ، فَاشْفَعْ لِي إِلَيْهِ لِيُؤَخِّرَ أَجْلِي، فَأَزْدَادَ شُكْرًا وَعِبَادَةً، فَقَالَ الْمَلَكُ: لَا يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أجلها، وأنا مكلمه، فَرَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَوَضَعَهُ عِنْدَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ أَتَى مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَالَ: له لِي حَاجَةٌ إِلَيْكَ، صَدِيقٌ لِي مِنْ بَنِي آدَمَ تَشَفَّعَ بِي إِلَيْكَ لِتُؤَخِّرَ أَجَلَهُ، فقَالَ ملك الموت: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ، وَلَكِنْ إن أحببت أعلمته متى يموت، فيقدم لنفسه، قال: نَعَمْ، فَنَظَرَ فِي دِيوَانِهِ فقَالَ: إِنَّكَ كَلَّمْتَنِي فِي إِنْسَانٍ مَا أراه يموت أبدًا، قال: وكيف ذلك؟، قَالَ: لَا أَجِدُهُ يَمُوتُ إِلَّا عِنْدَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ، قَالَ: إِنِّي أَتَيْتُكَ وَتَرَكْتُهُ هُنَاكَ، قَالَ: انْطَلِقْ فَلَا أَرَاكَ تَجِدُهُ إِلَّا وَقَدْ مات، فو اللَّه مَا بَقِيَ مِنْ أَجَلِ إِدْرِيسَ شَيْءٌ، فَرَجَعَ الْمَلَكُ فَوَجَدَهُ مَيِّتًا.

وَقَالَ وَهْبٌ: كَانَ يُرْفَعُ لِإِدْرِيسَ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْعِبَادَةِ مِثْلَ مَا يُرْفَعُ لِجَمِيعِ أهل الأرض في زمانه، فَعَجِبَ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ وَاشْتَاقَ إِلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ،

فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي زِيَارَتِهِ، فَأَذِنَ لَهُ فَأَتَاهُ فِي صُورَةِ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ إِدْرِيسُ يَصُومُ الدَّهْرَ، فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ إِفْطَارِهِ دَعَاهُ إِلَى طَعَامِهِ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَأَنْكَرَهُ إدريس، وقال له في اللَّيْلَةَ الثَّالِثَةَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: إني مَلَكُ الْمَوْتِ اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَصْحَبَكَ، فقَالَ: لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ، قال: وما وهي؟، قَالَ: تَقْبِضُ رُوحِي، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِ اقْبِضْ رَوْحَهُ، فَقَبَضَ روحه وردّها الله إليه في ساعة، فقَالَ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: مَا الفائدة في سؤالك قَبْضِ الرُّوحِ؟، قَالَ: لِأَذُوقَ الموت وغمته، فأكون أَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لَهُ.

ثُمَّ قَالَ إِدْرِيسُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا هِيَ؟، قَالَ: تَرْفَعُنِي إِلَى السَّمَاءِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهَا وَإِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَأَذِنَ اللَّهُ له فرفعه، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ النار قال: لِي حَاجَةً، قَالَ: وَمَا تُرِيدُ؟، قَالَ: تَسْأَلُ مَالِكًا أن يَفْتَحَ لِي أَبْوَابَهَا، فَفَعَلَ ثم قال: فكما أَرَيْتَنِي النَّارَ فَأَرِنِي الْجَنَّةَ، فَذَهَبَ به إلى الجنة فاستفتح فَفتحَ أَبْوَابُهَا، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قال له مَلَكُ الْمَوْتِ: اخْرُجْ لِتَعُودَ إِلَى مَقَرِّكَ، فَتَعَلَّقَ بِشَجَرَةٍ، وَقَالَ: مَا أَخْرُجُ مِنْهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا حكمًا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ الْمَلَكُ: مَا لَكَ لَا تَخْرُجُ؟، قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وَقَدْ ذُقْتُهُ، وَقَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وَقَدْ وَرَدْتُهَا، وَقَالَ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، ولست أخرج، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ: بِإِذْنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَبِأَمْرِي لَا يخرج منها، فهو حي هناك، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ أَمْ مَيِّتٌ؟. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ مَيِّتٌ، وَقَالَ

قَوْمٌ: هُوَ حَيٌّ، وَقَالُوا: أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْأَحْيَاءِ اثْنَانِ فِي الْأَرْضِ وهما: الْخَضِرُ وَإِلْيَاسُ، وَاثْنَانِ فِي السَّمَاءِ وهما: إِدْرِيسُ وَعِيسَى. اه "خازن".

وفي "القرطبي": وَقَالَ السُّدِّيُّ: إِنَّهُ نَامَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَاشْتَدَّت عَلَيْهِ الشَّمْس وحرّها، وَهُوَ مِنْهَا فِي كَرْبٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ خَفِّفْ عَنْ مَلَكِ الشَّمْسِ، وَأَعِنْهُ، فَإِنَّهُ يُمَارِسُ نَارًا حَامِيَةً. فَأَصْبَحَ مَلَكُ الشَّمْسِ وَقَدْ نُصِبَ لَهُ كُرْسِيٌّ مِنْ نُورٍ عِنْدَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ عَنْ يَمِينِهِ، وَمِثْلُهَا عَنْ يَسَارِهِ يَخْدُمُونَهُ، وَيَتَوَلَّوْنَ أَمْرَهُ وَعَمَلَهُ مِنْ تَحْتِ حُكْمِهِ، فَقَالَ مَلَكُ الشَّمْسِ: يَا رَبِّ مِنْ أَيْنَ لِي هَذَا؟، قَالَ: دَعَا لَكَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يُقَالُ لَهُ إِدْرِيسُ. ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ كَعْبٍ.

ثم قال: قَالَ النَّحَّاسُ: قَوْلُ إِدْرِيسَ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَعْلَمَ بِهَذَا إِدْرِيسَ، ثم نزل القرآن به. قال وهب بن مُنَبِّهٍ: فَإِدْرِيسُ تَارَةً يرفع فِي الْجَنَّةِ، وَتَارَةً يَعْبُدُ اللَّهَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ الرابعة.

وقوله: (في التبيان): متعلّق بقال أَيْ: قال في التبيان، وهو بكسر التاء المثناة فوق: معناه البيان، وهو من أسماء القرآن الشريف، سمي به لكونه مبينًا لكل شيء من علوم الدنيا والآخرة، وكل أحد يفهم منه ما أعطاه اللَّه منه، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، أَيْ: يحتاج إليه من الأمور المهمة الشرعية، تفصيلًا في بعض، وإجمالًا في بعض، وأحاله على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في أمره باتباعه بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقوله وعلى الإجماع بقوله، ويتبع غير سبيل المؤمنين وهو شامل للقياس على الإجماع والاجتهاد، كما في

"الكشاف" وغيره.

(و) بعد أن ارتفعت بهما مرقاة المعراج الخامسة، واستفتح جبريل كما مرَّ، وفتح لهما صعدا (في) السماء (الخامسة) قيل: أنها من فضة. وروي: أن فيها ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سماوات، وهم سجود ركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك. أَيْ: اعتزارًا واعترافًا بالتقصير، وإظهارًا لكمال عظمته وإنعامه، بحيث لا يقدر أحد على القيام بشكر ما يقابل نعمة من نعمه.

ولما دخلا فيها وجد (هارون) ابن عمران وهو أخو موسى ووزيره في الرسالة عليهما الصلاة والسلام، فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، ثم رحَّب به ودعا له.

وروي: أن نصف لحيته كانت بيضاء ونصفها كانت سوداء، تكاد تضربه إلى سرته من طولها، وأن حوله قومٌ من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم أخبار الأمم الماضية، ويعظهم ويذكّرهم، إشارة إلى أن شأنه كان ذلك.

قيل: سبب بياض لحيته قبض موسى لها حين غضب عليه وألقى الألواح. قال القليوبي: ولعل الأبيض هو الأعلى، أَيْ: مكان وضع موسى يده، ولعل الأسود هو الأسفل اه. وجعل في الخامسة لأنه كالوزير لموسى لا يفارقه، فلذا كان جواره.

(و) حين ارتفعت بهما مرقاة المعراج السادسة، واستفتح جبريل كما مرَّ وفتح لهما، دخلا (في) السماء (السادسة). قيل: أنها من ذهب، وأن فيها

جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، عليهم مَلَك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم الله فى أموره إلى أهل الدنيا، رافعوا أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمرو يرفعه: الملائكة عشرة أجزاء: فتسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وجزء واحد قد وكلوا بخزائن كل شيء، وما في السماء موضع إهاب إلا عليه ملك ساجد أو راكع.

قال الحليمي: ملائكة العذاب من الكروبيين. وفي "القاموس": الكروبيون سادة الملائكة، منهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل وهم المقربون. من كرب إذا قرب.

وفي "تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم": سئل ابن دحية هل يعرفون لغة أم لا؟، فقال: الكروبيون بتخفيف الراء: سادة الملائكة وهم المقربون، من كرب إذا قرب. وأنشد أبو علي البغدادي:

كروبية منهم ركوع وسجد

وقال الطيبي عن بعضهم: في هذه اللفظة ثلاث مبالغات إحداها: إن كرب أبلغ من قرب حين وضع موضع كاد، تقول: كربت الشمس أن تغرب كما يقول كادت، والثانية: أنه على وزن فعول وهو للمبالغة، والثالثة زيادة الياء فيه وهي تزداد للمبالغة كأحمري. كذا في "الحبائك" ذكره الزرقاني.

ولما خلصا لقي (موسى) ابن عمران عليه السلام، فسلَّم عليه فردَ عليه السلام، ثم رحَّب به ودعا له بخير.

وموسى اسم أعجمي غير منصرف، وهو في الأصل مركب، والأصل موشى بالشين، لأن الماء بالعبرانية يقال له مو، والشجر يقال له شا، فعرّبته العرب وقالوا: موسى. قالوا: وقد أخذه فرعون من الماء بين الأشجار، لما وضعته أمه في الصندوق.

واختلافهم في موسى، هل هو مشتق أو غير مشتق؟، إنما هو في موسى الحديد التي هي آلة الحلق، وليس لموسى اسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اشتقاق لأنه أعجمي. كما في "الفتوحات الإلهية".

ولما كان موسى عليه السلام أجلّ الأنبياء بعد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكتابه أعظم الكتب قبل القرآن، جاهد في اللَّه وظفر بما لم يظفر به غيره، رفعت مرتبته على غيره، وترقى في حظائر القدس تحت منزلة الخليل، فكان في السادسة، وهو الذي قال اللَّه فيه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

وهو (الذي ردّه) أَيْ: أن موسى عليه السلام ردّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما هبط ونزل، حتى انتهى إليه وسأله عما فرض اللَّه عليه، فقال له: فرض اللَّه عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة.

فأرجعه (لتخفيف) تلك (الصلاة الفرضية) المفروضة أَيْ: التي فُرضت، (فرجعت) أَيْ: الصلاة المفروضة (بعد) أن كانت (خمسين) صلاة أَيْ: بالحط خمسًا خمسًا حتى صارت (خمسًا) من الصلوات، وجملة مرات الإسقاط تسع.

وكلها رأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها ربه عز وجل بعيني بصره، كما رآه في المرة الأولى التي فرض الله فيها الخمسين، فرأى ربه عز وجل عشر مرات.

وفرض الصلاة (في النهار) منها (ثلاثة) من الفرائض وهي: الفجر وهي صلاة جهرية، والظهر والعصر وهما صلاة سرية. (وفي الليل) منها (فرضان) هما: المغرب والعشاء، وهما صلاة جهرية. وثواب الخمسين لم ينقص.

قال العارف ابن أبى جمرة: والحكمة فى تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عرج به ورأى فى تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها فى ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة فى أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبى هريرة عند الطبرانى والبزّار، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان موسى أشدهم عليَّ حين مررت، وخيرهم لي حين رجعت. وفى حديث أبى سعيد: فأقبلت راجعًا فمررت بموسى، ونعم الصاحب كان لكم، فسألني كم فرض عليك ربك؟. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها، فكقوله والله أعلم حين قضى إليه

الأمر بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد فى الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور في التفاسير. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتنى بالقوم من هو منهم لقوله: اللهم اجعلني منهم اه.

وقال القرطبي: الحكمة فى أمر موسى عليه السلام يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى عليه السلام على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إنى جربت الناس قبلك.

وفي قول موسى عليه السلام: فإن أمتك لا تطيق ذلك إلخ، دليلٌ على جواز الحكم بما أجرى اللَّه تعالى بحكمته من ارتباط العوائد لأن موسى عليه السلام حكم على هذه الأمة بأنها لا تطيق، بسبب ما أخبر به وهو أنه عالج بني إسرائيل، ومن تقدّم أقوى وأجلد ممّن يأتي.

فرأى موسى أن ما لم يحمله القويّ فمن باب أولى ألا يحمله الضعيف، فهو بعد محكم بأثر الحكمة في ارتباط العادة، مع أن القدرة صالحة لأن يحمل الضعيف ما لا يحمل القويّ.

وقد ورد: أن الصلاة التي كلّف بها بنو إسرائيل ركعتان بالغداة وركعتان بالعشيّ. وقيل: وركعتان عند الزول، ومع هذا لم يقوموا بذلك.

فمن ثم استكثر الخمس لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشفق عليهم من التخلف عن القيام بواجبها، فطلب السؤال في تقليلها، وقد وقع

في هذه الأمة أن كثيرًا منهم يغلب عليه التفريط في الصلوات الخمس، وأن كثيرًا من المصلين مفرط في الشروط غير موف بالحقوق.

وكان ذلك من آثار فراسة موسى عليه السلام فيهم، لأنه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وقد رجع الفرض إلى الخمس، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فراسة موسى، ولكن قال: قد استحييت.

وفي بعض الطرق أنه قال: أرضى وأُسلّم. قال بعضهم: دلت مراجعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلب التخفيف تلك المرات كلها، أنه علم أن الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام، بخلاف المرة الأخيرة، ففيها ما يشعر بذلك كقوله تعالى: ﴿ما يبدل القول لدي﴾.

وفي رواية: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فعرفت أنها عزمة من اللَّه، فرجعت إلى موسى، فقال: ارجع، فلم أرجع.

وقيل: إنما امتنع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طلب التخفيف في المرة العاشرة، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفرّس أن هذا العدد لا يحطّ عنه، فاستحى أن يسأل في مظنّة الرّدّ، ووجه التّفرّس أن اللَّه أدرج التخفيف خمسًا خمسًا.

فلو سأل التخفيف بعد أن صارت خمسًا لكان سائلاً في رفعها، وفي رفعها ارتفاع الصلاة بجملتها، وقد علم أنه لا بد من وظيفة، فلهذا ترك السؤال. وكشف الغيب أن العلم القديم تعلّق ببقاء هذه الخمس، ولهذا بقيت، فصدقت الفراسة، وأصابت الفكرة.

وفي ذلك دليل على أن الله تعالى إذا أراد إسعاد عبد جعل اختياره في مرضاة ربه، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل الله اختياره وإيثاره فيما أراد الحق تبارك وتعالى إنفاذه وإمضائه، وهو فرض الصلوات الخمس، وذلك تكريم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترفيع، لأنه لو رجع وطلب التخفيف فلم يخفف كما خفف أولاً، لكان اختياره مخالفًا للمقدور.

فلما أن اختار وأسعف في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه، وهو علو منزلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: إن الحال حامل لا محمول، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم ولم ينظر لغير ذلك، ثم لما ورد عليه الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأمته إذا ذاك ولا طلب شيئًا.

وقد استدل أيضًا على أن الله تبارك وتعالى كلّم نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء بغير واسطة.

قال ابن دحية: خص رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرؤية والمكالمة، لأنه صاحب الشفاعة يوم القيامة، فتوسّط قبلها لئلا يقع له حشمة البديهة، كما يقع لغيره من الأنبياء، فأراد اسبحانه وتعالى أن يزيل عنه قبل ذلك المقام الانقباض، ليتمكن من المقام المحمود، وأهّله سبحانه قبل المشهد الأعلى للمشاهدة والكلام.

ثم رفعه إلى مكان الإمكان بعد مكانه، ولا مقام وراء مقامه، ليكون مشاهدًا للكل، فيتفرغ في المشهد الأعلى ويتمكّن في المقام المحمود.

وقال بعضهم في هذه المراجعة التي وقعت بين موسى وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوائد، منها تكرار الشفاعة في القضية الواحدة إلى أن يتم مقصود الشافع. ومنها الرجوع إلى المشير الناصح. ومنها أنه لا يمتنع من الشفاعة وإن كان داخلاً فيها. إلى غير ذلك من الفوائد.

وقول موسى له: ارجع إلى ربك، معناه: ارجع إلى موضع مناجاة ربك، فكان رجوعه من المكان الذي لقي فيه موسى، إلى الموضع الذي وقعت فيه المناجاة والسؤال لربه، ولا يلزم من موضع السؤال أن يكون المسؤول فيه، أو يكون جائزًا له، لتعالى اللَّه جلَّ وعلا وتنزه عن الجهة والمكان.

فرجوع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجوع إلى السؤال فيه، لشرف ذلك الموضع على غيره، كما كان الطور موضع سؤال موسى في الأرض، ومع انتهائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة التي عرج به فيها إلى أن ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، كان هو ونبي اللَّه يونس، إذ التقمه الحوت وذهب به في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، سواء في القرب من الله تعالى، لتعاليه تعالى وتنزيهه عن الجهة والمكان، والتحذير والحد والإحاطة.

وقد نقل القرطبي في "التذكرة": أن القاضي أبا بكر ابن العربي المالكي قال: أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سُئل: هل الباري في جهة؟، فقال: لا، هو متعال عن ذلك، قيل له: وما الدليل على ذلك؟، قال: الدليل

عليه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تفضّلوني على يونس بن مَتَّى، فقيل له: ما وجه الدليل من هذا الخبر؟، فقال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها دينًا عليه، فقام رجلان فقالا: هي علينا، فقال: لا يتبع بها اثنين، لأنه يشق عليه، فقال واحد: هي عليّ.

فقال: إن يونس بن مَتَّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث ونادى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، كما أخبر اللَّه عنه، ولم يكن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدًا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به، فأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى اللَّه من يونس في ظلمة البحر.

فاللَّه سبحانه قريب من عباده يسمع دعاءهم، ولا يخفى عليه حالهم، كيف ما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم، فيسمع ويرى دبيب النملة السوداء في الصخرة الصماء في الليلة الظلماء تحت الأرض السفلى، كما يسمع ويرى تسبيح حملة العرش من فوق السبع السماوات العلى، لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا اه.

ووقع لبعض أهل الإشارات كلام في هذا المقام بديع النظام، سلك فيه أهل المحبة ولحظ مذهبهم فقال: الحكمة في ذلك أنه لما تمكّنت نار المحبة من قلب موسى أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس، فلما نودي من النادي: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، اشتاق إلى المنادي، فكان

يطوف فى بنى إسرائيل قائلاً: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب أَيْ: اللَّه. فلما مَرَّ عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج، ردده فى أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

وقال آخر من الصوفية: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية بكسر الباء الموحدة وضمها لغة أَيْ: الحاجة التي طلبها اه "زرقاني". بقى الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحبيب منح الرؤية لله سبحانه، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم   لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لاقيت عنكم عساكم   تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت   فيا حبذا إن مت عبد هواكم

وقال آخر:

وإنما السر فى موسى يردده   ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا   لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما حبس الحبيب فى مقام القرب، ودارت عليه كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه، وبشّر فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه.

فلما اجتاز بموسى عليه السلام، قال لسان حاله لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يا واردًا من أهيل الحي يخبرني   عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر

ناشـــدتك اللَّه يـــا راوي حـــديثهم   حدّث فقد ناب سمعي اليوم عن بصري

فأجاب لسان حال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله:

ولقـد خلـوت مـع الحبيـب وبيننـا   سـر أرقّ مــن النســيم إذا ســرى

وأبـــاح طرفـــي نظـــرة أملتهـــا   فغـدوت معروفًـا وكنـت منكـرا

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم.

قال ابن أبي جمرة: والحكمة في أن إبراهيم عليه السلام لم يتكلم في طلب التخفيف أن مقام الخلّة إنما هو الرضى والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام، وموسى هو الكليم، والكليم أعطي الإدلال والانبساط.

ومن ثم استبدّ موسى بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطلب التخفيف دون إبراهيم، مع أن للمصطفى من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى، لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة له.

وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه.

قال القرطبي: وأما قول من قال: إن موسى أول من لاقاه بعد الهبوط فلا يصح، لأن حديث مالك بن صعصعة أنه رآه في السادسة وإبراهيم في السابعة، أقوى إسنادًا من حديث شريك أنه رأى موسى في السابعة.

قال الحافظ ابن حجر: إذا جمعنا بينهما بأنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد معه إلى السابعة، فلقيه فيها بعد الهبوط ارتفع الإشكال وبطل الرد.

وقد استدل العلماء بقوله فى الحديث: فهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون. على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس كالوتر، وعلى دخول النسخ في الإنشاءات، ولو كانت مؤكدة، خلافا لقوم فيما أكد، وعلى جواز النسخ قبل الفعل.

قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عَزَّ وَجَلَّ نسخ الخمسين بالخمس قبل أن تُصلَّى، ثم تفضَّل عليهم بأن أكمل لهم الثواب. وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشُّرَّاح، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالأشاعرة أو منعه كالمعتزلة، لكونهم اتفقوا جميعًا على أن النسخ لا يتصوّر قبل البلاغ، وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعًا اه

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، لأن ذلك بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن أراد قبل البلاغ إلى الأمة فمسلم.

والجواب: أنه عام في حقه وحقهم، والتخفيف عام، وإنما صح النسخ في حق الأمة لأن الإسلام يوجب على كل مسلم الدخول في فروعه وشرائعه، فكل من آمن في حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمن على ثمة تكاليف، منها ما نزل مبينًا بكل وجه، وما لم ينزل، وسينزل.

والتزام الإسلام شامل للجميع، فكما يجوز النسخ بعد البلاغ، وفيه نوع إجمال، كذلك يجوز قبل البلاغ، لأنه دخل عليه بالالتزام العام، ولا فرق بين إجمال وإجمال، وأكثر الفرائض إنما وجب مجملاً، ثم بيّن وقت الحاجة، كالصلاة، والزكاة لم يقترن بأول وجوبها ذكر أعدادها ولا أوقاتها

ولا شرائطها. ذكره في "المواهب" و"شرحها" و"النجم الغيطي".

(و) بعد ما ارتقت بهما مرقاة المعراج السابعة، واستفتح جبريل كما مرَّ وفتح لهما صعدا (في) السماء (السابعة)، قيل: هي من ياقوتة حمراء. وروي: أن فيها ملائكة يزيدون على ما تقدَّم، وعليهم ملك على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق فى السماوات والأرض، ويخلق اللَّه تعالى فى كل يوم ما يشاء، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

ولما دخلا فيها وجدا (إبراهيم) عليه السلام، فسلَّم عليه فردَّ عليه السلام، فقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح. زاد في حديث أبي أيوب عند أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأحمد، وقال: مُرْ أُمَّتَكَ فَلْيُكْثِرُوا مِنْ غِرَاسِ الْجَنَّةِ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا طَيِّبَةٌ، وَأَرْضَهَا وَاسِعَةٌ. فقَالَ: وَمَا غِرَاسُ الْجَنَّةِ؟، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العَلِيّ العَظِيم.

وأخرج الترمذي وقال: حسن. والطبراني عن ابن مسعود رفعه قال إبراهيم: أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد اللَّه بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا بني إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك فى أمتك فافعل. قال النووي: وقد مَنَّ اللَّه الكريم، فجعل لنا سندًا متصلًا بخليله إبراهيم.

وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة وهو، أَيْ: المصطفى، أشبه ولد إبراهيم به. وإبراهيم: اسم أعجمي، ومعناه: أب رحيم.

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الأنبياء قبل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو خليل الرحمن، كان أرفعهم منزلة، وكان مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، كما في حديث أبي سعيد.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط، أَيْ: أبيض الرأس يخالط سواده، عند باب الجنة على كرسي. وعنده قلوم جلوس بيض الوجوه، أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهرًا فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهرًا آخر، فاغتسلوا فيه وخرجوا، وقد خلصت ألوانهم، وصارت مثل ألوان البيض الوجوه.

فقال: مَنْ هَذَا ومَنْ هَؤُلاء الَّذِينَ في أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ؟، ومَا هَذِهِ الأنهَارُ الَّتي دَخَلُوا فيها وَقَدْ صَفَتْ أَلْوَانُهُم؟، قال: هذا أبوك إبراهيم أوّل من شَمِط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار فأولها: رحمة، والثانية: نعمة الله، والثالث: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

ولفظ رواية أبي سعيد الخدري، كما عند البيهقي في "دلائله": ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا بإبراهيم الخليل الرحمنساندًا ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلّمت عليه وسلّم

عليّ، وإذا وإذا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال: فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن معي فى البيت المعمور.

وفي روايةٍ: (متكئًا) أَيْ: معتمدًا بظهره. وهذه الرواية كالتي قبلها إلا أن الإتكاء أعم من أن يكون بالظهر أو بغيره، وهي حال.

وقوله: (على البيت) متعلق بمكتئًا، و(المعمور) نعت للبيت، وقوله: (بالضياءات) متعلق بمعمور بالمد جمع، أَيْ: الأنوار والإشراقات. و(الوسعية) نعت للضياءات، وهي بضم الواو وسكون السين، أَيْ: الكثيرة القوية.

قال أبو عبيدة: معنى المعمور الكثير الغاشية، ويسمى الضُّراح -بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وآخره حاء مهملة-. هذا هو المشهور، وما قيل: أنه بالصاد المهملة فغلطٌ بيِّنٌ، كما في "ربيع الأنوار".

وبالضراح تسمّيه الملائكة، وسمي به لأنه ضرح عن الأرض أَيْ: بعد. وقال مجاهد: البيت المعمور هو الضريح يعني بالمعجمة وهو في اللغة: البعيد.

قال الحافظ ابن حجر: فيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وبغيره، لأن البيت المعمور كالكعبة في أنه قبلة من كلة جهة، وقد أسند إبراهيم عليه السلام ظهره إليه اهـ.

وقال التلمساني: فيه دلالة على أن الأفضل في غيره الصلاة إسناد

الظهر للقبلة، وقيل: الأفضل استقبالها، ولعل إبراهيم عليه السلام أسند ظهره ليتوجه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويخاطبه بما مرَّ، وإنما أسند ظهره للبيت لأنه أول من بنى الكعبة من الناس اه.

قال الزرقاني في "شرحه على المواهب": وقد يقال: إنما دل على الجواز لا على أنه أفضل، كيف وفي الحديث: أشرف المجالس ما استقبل به القبلة. رواه الطبراني.

وسُمِّي معمورًا لكثرة الملائكة فيه. قال منلا علي قارئ "على مناسك السندي" الحنفي، مخلص الآثار والأخبار على ما ذكره أخيار الأخيار في تحقيق سبب تعظيم هذه البقعة الكريمة من الكعبة العظيمة، بعد اصطفاء اللَّه ما شاء اللَّه من الأفراد الإنسانية والحيوانية والأصناف النباتية والجمادية، والأمكنة العلوية والسفلية، والأزمنة النهارية والليلية.

هو أن اللَّه سبحانه لما خلق عرشه على الماء قبل خلق الأرض والسماء بألفَيْ عام، على ما نقله مجاهد من الأنباء. فنظر اللَّه إلى الماء وتجلَّى على الهواء، فتموَّج واضطرب الماء، وخرج منه دخان مرتفع، خلق منه السماء، وتزبد فوق الماء قطعة بل لمعة مقدار البقعة، فجعلت الأرض منها، ودحيت من جوانبها وأطرافها، ولذا سميت أم القرى.

ثم لما كانت تلك القطعة كاللوحة تميد وتميل مرارًا، ولم تستقر قرارًا، خلق اللَّه الجبال أوتادًا ومدادًا، وأولها جبل أبي قبيس، ولذا سمي بأم جبال اشتهارًا.

ثم وقع البناء على تلك البقعة للإشارة إلى الوقعة كما يؤمئ إليه قوله

تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: لعبادتهم، وجعل متعبدًا لطاعتهم، والواضع هو الله تعالى كما يدل عليه أنه قرئ بصيغة الفاعل. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أَيْ: للبيت الذي بمكة، فإنها لغة فيها، وسميت بها لأنها تبك وتدق أعمار الجبابرة، أو لأنها يزدحم عليها الكرام البررة.

وقد روي أنه كان في موضعه قبل آدم بناء عليه ثم رفع، يقال له الضراح لأنه ضرح من الأرض وأبعد، وهو المشهور بالبيت المعمور المحاذي للبيت المذكور، يطوف به الملائكة.

فلما أُهبِط آدم أُمِر بأن يحجه ويطوف حوله، ثم رفع في الطوفان إلى السماء الرابعة، يطوف به الملائكة كل يوم سبعون ألفًا، لا تحصل لهم توبة الإعادة، وهو لا ينافي ظاهر الآية، فإن موضع التشريف هو تلك البقعة الشريفة والقطعة المنيفة، وهو لا يمكن رفعها، وإنما رفع البناء الموضوع في محلها المشرف بعضه في مكانها العلي شيئًا منها مما بنى بدله إبراهيم عليه السلام.

ثم هُدِم فبناه قوم من جرهم، وهم حي من اليمن، أصهار إسماعيل عليه السلام، ثم العمالقة من ملوك مصر والشام، ثم قريش قبل بعثته عليه السلام.

وحصل تنازع عظيم بين القبائل الأربعة، المتعلق بكل منهم جدار من بناء ذلك المقام في موضع الحجر الأسود والركن الأسعد، حيث أراد كل رئيس قبيلة أن يضعه هو استقلالاً، ومنعه بقية الرؤساء، لادعاء كل منهم إجلالاً إلى أن اتفقوا في دفع المنازعة، ورفع المناقشة المؤدية إلى

المقاتلة، أن كل من دخل من باب السلام في صباح تلك الأيام، يكون صاحب الوضع من غير جدار.

فدخل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتوفيق رب العالمين، فقالوا فرحًا بقدومه: هذا محمد الأمين. فذكروا له القضية وما جرى لهم من القصة، فبسط رداءه المكرم ووضع عليه الحجر المعظم، وأشار لكل رئيس أن يأخذ طرفًا من ردائه، وأخذ هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكان الأوسط من ردائه، ووضعوه جملة في محله.

ثم بناه عبد اللَّه بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تولى الخلافة بمكة، وقد بلغه حديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا: أنه لولا حدث أَيْ: عهد قومك بالإسلام لبنيت البيت على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وأدخلت الحجر المسمى بالحطيم في الكعبة، وفتحت الباب الغربي من البقعة، وألصقت العتبة العلية بالأرض السنية تسييرًا للداخلين وتسهيلاً للخارجين.

فبناه عبد اللَّه على طبق ما بناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتعقبه الحجّاج سد الباب الثاني، وأخرج الحطيم من المباني، وردّ الجدار الذي يليه إلى ما كان عليه.

ولعل الحكمة الإلهية أن كل أحد يتمكن من دخول البيت هنالك، ولو بالدليل الظني كما أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة بذلك، وأن يتميز ما ثبت من البيت بالدليل القطعي عن غيره، مراعاة للاحتياط اليقيني في استقبال الصلاة التي هي الركن الديني. والحاصل أنه بُنِي سبع مرات على

طبق سبع سماوات، ووفق سبع شوطات.

ثم أن اللَّه سبحانه جعل هذا البيت مباركًا كثير الخير الدنيوي والأخروي لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، خصوصًا وهدى أَيْ: مرشدًا للعالمين عمومًا، لأنه قبلة لحيهم وميتهم، وسبب هداية إلى جهة عبادتهم وأدب جلستهم في طاعتهم.

وقد قال الإمام القشيري قدّس اللَّه سره الجلي: البيت حجرة والعبد مدرة، فربط المدرة بالحجرة، فالمدر مع الحجر، وتقدّس وتعزز من لم يزل عن الغير، فالبيت مطاف النفوس، والحق سبحانه وتعالى مقصود القلوب.

البيت أطلال وآثار ورسوم وأحجار، ولكن:

تلك آثارنا تدلّ علينا   فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه فى الجهر، والقلب بيت الحق سبحانه فى السّر، قال قائلهم:

لست من جملة المحبين إن لم   أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافي إجالة السّر فيه   وهو ركني إذا أردت استلاما

وذكر في "الإحياء" عن مجنون بني عامر من الأحياء:

أمر على الديار ديار ليلى   أُقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

فهو بيت ظاهره الأحجار والأستار، وباطنه الأنوار والأسرار، أحجاره مغناطيس القلوب القدسية والنفوس الأنسية، وأستاره أسباب الكشوف

للتجليات الرحمانية والتنزلات الصمدانية، ومن أحجاره المتضمنة لأنوار أسراره ما سمي بيمين الله المنور بلاده، يصالح بها عباده.

والبيت المعمور هو (الذي يدخله) أيْ: للطواف به وللعبادة فيه والزيارة، (كل يوم سبعون) بتقديم السين على الموحدة، (ألف مَلَك بحسبان) بضم الحاء المهملة وسكون السين: مصدر حسبت المال حسبًا، من باب قتل: أحصيتُهُ عددًا وحِسبة -بالكسر-. كما في "المصباح".

(ثم إنهم) أيْ: السبعين ألف مَلَك الذي يدخلونه كل يوم، (لا يعودونه) أيْ: لا يرونه، من عاد المريض عيادة إذا زاره، فهو متعد، والموافق للحديث: لا يعودون إليه، من العَوْد بمعنى الرجوع، فهو لازم يتعدّى بإلى أو اللام، تقول: عاد إلى كذا، أو: عاد له، كما في "المصباح".

أيْ: لا يرجعون إليه مرة أخرى، لأن حجه أيْ: قصده مرة، كفرض الحج علينا، أو الإشغال غير دخوله.

(إلى يوم القيامة) وله أسماء غير ذلك: يوم الأزفة، والقارعة، والطامة، والحاقة، إلى غير ذلك. وقوله: (البغتية) أيْ: المنسوبة للبغتة، أيْ: الفجاة.

وأكثر الروايات تدل على أن البيت المعمور في السماء السابعة، فقد روى الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قال: ذكر لنا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة، لو خر لخر عليها، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا.

وروى ابن جرير وغيره والحاكم وصححه عن أنس عن النبي صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة.

وروى إسحاق بن راهويه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سئل عن البيت المعمور؟، قال: بيت في السماء السابعة بحذاء البيت، وحرمته كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودن إليه.

وحكمه الرفع إذ لا يقال رأيًا، وفي هذا دليل عظيم على قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلى فيه كل يوم هذا العدد العظيم، منذ خلق اللَّه تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفه هذا اليوم لا يرجع إليه أبدًا.

ومع أنه قد روي أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر، إلا ومَلَك واضع جبهته هناك ساجدًا، ثم البحار ما من قطرة إلا وبها ملك موكل، فإذا كانت السماوات والأرض والبحار كذا، فهؤلاء الملائكة الذي يدخلون أين يذهبون؟!، هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء.

وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم من يتحدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفًا، غير ما ثبت من الملائكة في هذا الخبر.

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهرًا يقال له الحيوان، يدخله جبريل كل يوم، فينغمس ثم يخرج فينتفض فيخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق اللَّه من كل قطرة ملكًا، فهو الذين يصلون فيه أَيْ: في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف.

وذكر الإمام فخر الدين الرازي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أنه روي عن عطا ومقاتل والضحاك، عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهرًا من نور، مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نورًا إلى نوره وجمالًا إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق اللَّه من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفًا، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

وقد روي: أنه ثمة ملائكة يسبحون اللَّه تعالى، فيخلق اللَّه تعالى بكل تسبيحة ملكًا. هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، الذين خلقوا وأمروا به دائمًا على صفة خاصة كركوع أو سجود أو قيام، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا. الحديث رواه مسلم.

والملائكة الذين ينزلون فى السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة رضوان وأتباعه، وكذا خزنة النار مالك وجنوده، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلى، والذين يقولون: ربنا ولك الحمد.

والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ

زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ. رواه أحمد والشيخان.

والملائكة الموكلين بالشمس والقمر والريح والمطر.

وقبر المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمبلغين له السلام من أمته.

وغير ذلك من كثرة الملائكة مما يحتمل مؤلفًا حافلاً. ذكره في "المواهب".

(فما أعلى) أَيْ: أرفع (هذا المقام) بالفتح: مكان القيام، من قام يقوم قومًا وقيامًا: انتصب، وهو يصح للزمان والمصدر أيضًا، وأصلُه: مَقْوَم فأُعِلَّ بنَقْلِ حركةِ الواوِ إلى الساكنِ قبلَها وقَلْبِها ألفًا، ويُعَبَّرُ به عن الجماعةِ مجازًا، كما يُعَبَّر عنهم بالمجلِسِ، وبالضم مكان الإقامة، من أقام بالموضع إقامة: اتخذه وطنًا. كما في "المصباح" وغيره.

(كيف) لا يتعجب من علوه ورفعته، (وهو مقام) بالفتح والضم، أَيْ: مكان قيام أو محل إقامة (خليل الرحمن) فإن منزلته أرفع المنازل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، فإن منزلة الحبيب أرفع من منزلته، فلذلك ارتفع عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى.

تتمة: اختلف المتكلمون على حديث الإسراء في الحكمة في اختصاص كل واحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالسماء التي رآه فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقيل: لا حكمة، وإنما الأنبياء المذكورون لما علموا بقدومه ابتدروا إلى لقائه، ابتدار أهل الغائب للغائب القادم، فمنهم من أسرع وسبق، ومنهم من أبطأ ولحق، ومنهم من فاته. وهذا قاله ابن بطال وزيّفه السهيلي فأصاب.

وقال: بل لذلك حكمة أَيْ: حكمة، وهو التنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وتمثيل بما سيقع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع قومه من نظير ما وقع لهم.

واتفق لهم مما قصَّه اللَّه عنهم في كتابه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب الفأل الحسن، ويستدل به على حسن العاقبة، والفأل في اليقظة نظير الرؤيا في المنام، فيكون تعبير الفأل بيان ما يدل عليه يقظة كتعبير الرؤيا، وأهل التعبير يقولون: من رأى نبيًا من الأنبياء بعينه في المنام، فإن رؤياه تؤذن بما يشبه من حال ذلك النبي من شدة أو رخاء، أو غير ذلك من الأمور التي أخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث. قاله السهيلي وتبعه غيره عليه.

فحكمة رؤيته لآدم عليه السلام في السماء الدنيا، لأنه أول الأنبياء وأول الآباء، وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة، في أول انتقاله إلى العالم العلوي.

ووقع له التنبيه بما سيقع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وِسَلَّمَ من نظير ما وقع لآدم، لأنه كان في أمن اللَّه وجواره في الجنة، فأخرجه عدوه إبليس منها، وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهي هجرته إلى المدينة وخروجه من حرم اللَّه وجوار بيته، وكان أعداؤه سببًا لخروجه لتماليهم أَيْ: تعاونهم، واجتماعهم على إيذائه، وتواطئهم على ذلك، وهمهم بقتله، فكربه ذلك وغمّه وشق عليه لفراق مألفه ووطنه، كما وقع لآدم عند خروجه من الجنة من الكرب والغم

والبكاء على فراقها.

فقد حُكي عن بعض السادة: أنه رأى آدم في المنام، فقال له: أنت أبو البشر، وتبكي على مفارقة دار، وهي الجنة، فأنشد يقول:

شغفت بجار لا بدارٍ ألفتها على الجار أبكي لا على فرقة الدار

والحاصل أن الجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه. فآدم رجع إلى السماء بعد أن هبط منها، والمُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجع إلى مكة لما فتحها وصارت في يده، قاله السهيلي.

وزاد ابن دحية وتبعه ابن المنير: أن فيه تنبيهًا على أنه يقوم مقامه في مبدأ الهجرة، لأن مقام آدم التهيئة والنشأة وعمارة الدنيا بأولاده، وكذا كان مقام المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول سنة من الهجرة مقام نشأة الإسلام، وتربية أهله، واتخاذ الأنصار لعمارة الأرض كلها بهذا الدين الذي أظهره اللَّه على الدين كله، وزوى الأرض لنبيه حتى أراه مشارقها ومغاربها.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليبلغن ملك أمتي ما زُوِي لي منها. واتفق ذلك في زمن هشام بن عبد الملك، جيء إليه خراج الأرض شرقًا وغربًا، وكان إذا نشأت سحابة يقول: أمطري حيث شئت، فسيصل إليَّ خراجك.

وحكمة رؤيته ولقيه لعيسى ويحيى عليهما السلام في السماء الثانية، لأنهما الممتحنان باليهود، أما عيسى فكذبته اليهود وأذته وهموا بقتله، فرفعه اللَّه. وأما يحيى فقتلوه.

ففيه الإشارة إلى نظير ما وقع له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد انتقاله إلى المدينة، فصار إلى حالة ثانية من الامتحان، وكانت محنته فيها باليهود فآذوه وعادوه، وهموا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه، فنجَّاه اللَّه، كما نجَّى عيسى، ثم سموه في الشاة، فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره، كما قال عند الموت.

وأيضًا فعيسى كانت حالته ومقامته معالجة بني إسرائيل والصبر على معالجة اليهود وحيلهم ومكرهم، وطلب الانتصار عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: مع اللَّه، قال الحواريون: نحن أنصار اللَّه. وكانت حالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة الثانية من الهجرة، نظير ذلك طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى، فأجابوه ونصروه.

وقال ابن أبي جمرة: الحكمة في ذلك أن عيسى عليه السلام إنما كان في الثانية، لأنه أقرب الأنبياء من حيث الزمن إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنه لم تمح شريعة عيسى عليه السلام، إلا بشريعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شريعته ويحكم بها.

ووجه ذلك أن عيسى لما شابه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثاني أحواله، وهي حكمةُ بشريعته، وكونه واحدًا من أمته، ناسب أن يكون في السماء الثانية، وأول أحوال عيسى كونه رسولاً إلى بني إسرائيل.

ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم. كما في "الصحيحين" وغيرهما. أَيْ: أخصهم وأقربهم إليه، لأنه بُشّر ﴿بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، فالأولوية هنا من جهة قرب العهد، فكان عيسى في الثانية لهذا المعنى.

وفي "فتح الصفا": لأنه خلق ثان كخلق آدم ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾.

وأن يحيى عليه السلام إنما كان معه هناك، لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر هناك معًا اه.

وقال ابن المنير: السر في ذلك أن عيسى لم يلقه بعد موته لرفعه حيًا صيانة له، وذخيرة إلى وقت عوده إلى الأرض قائمًا بشرع المُصطفى، غير مجدد شرعًا، فهو في حكم الأحياء، ومقامه في السماء ليس على معنى السكنى الدائمة، بخلاف غيره من الأنبياء، ويحيى هو المقيم في السماء أسوة غيره من الأنبياء، واختص مقامه عند عيسى لأنهما ابنا الخالة، وكانت أم يحيى تقول لأم عيسى وهما حاملتان: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، أَيْ: سجود تحية، فكان بينهما اتحاد منذ كانا، فلما عرض لعيسى الصعود إلى السماء جعل عند يحيى.

وحكمة رؤيته ليوسف عليه السلام في السماء الثالثة، للإشارة إلى حالة ثالثة تشبه حال يوسف بما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظفر بهم فصفح عنهم، وقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وكذلك نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جرى له مع قريش، فنصبوا له الحرب وأرادوا هلاكه، وكانوا سببًا في إخراجه من بين أظهرهم، وكانت العاقبة له، وقد أشار عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى ذلك يوم الفتح، بقوله: يا

معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم؟، قالوا: خيرًا، أخ كريم. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء أَيْ العتقاء.

وقال ابن دحية: مناسبة لقائه له في الثالثة، أن السنة الثالثة من الهجرة وقعت فيها غزوة أحد، وكانت على المسلمين، لم يصابوا بنازلة قبلها ولا بعدها مثلها، فإنها كانت وقعة أسف وحزن. وأهل التعبير يقولون: من رأى أحدًا اسمه يوسف، آذن ذلك من حيث الاشتقاق، ومن حيث قصة يوسف بأسف يناله.

قال ابن دحية: فإن كان يوسف النبي، فالعاقبة حميدة والآخرة خير من الأولى، ومما اتفق في غزوة أُحُد من المناسبة شيوع قتل المُصطفى، فناسب ما حصل للمسلمين من الأسف على فقد نبيهم، ما حصل ليعقوب من الأسف على يوسف، لاعتقاده أنه فقد إلى أن وجد ريحه بعد تطاول الأمد.

ومن المناسبة أيضًا بين القصتين أن يوسف عليه السلام كِيدَ وأُلقي في غيابة الجب حتى أنقذه الله على يد من شاء.

وأكبت الحجارة على جبهته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قريش حتى سقط لجنبه في حفرة، كان أبو عامر الفاسق حفرها مكيدة للمسلمين، فأخذ علِيّ كَرَّم اللَّهُ وجههُ بيد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتضنه طلحة حتى قام.

وحكمة رؤيته لإدريس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السماء الرابعة، وهو

المكان الذي سمَّاه الله مكانًا عليًا، للإئذان بحالة رابعة، وهو علو شأنه ومنزلته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وللإشارة إلى إحرازه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخصائصه، فإن المنقول أن إدريس عليه السلام أول من كتب بالقلم، وانتشر منه بعده في أهل الدنيا، وقاتل بني قابيل، فكذلك نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتخذ الكتاب والخاتم.

وكتب عنه بالقلم على ملوك الآفاق عند استفحال الإسلام، يدعوهم إلى طاعته، وخافته الملوك حتى قال أبو سفيان بن حرب، وهو عند ملك الروم هرقل، حين جاءه كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورأى ما رأى من خوف هرقل، لقد أمر أَيْ اشتد أمر ابن أبي كبشة، حتى يخافه بني الأصفر.

فمن الملوك المكتوب لهم من اتبعه على دينه، كالنجاشي وملك عمان، ومنهم من هدنه وأهدى إليه كهرقل والمقوقس، ومنهم من تعصى عليه فأظفره الله به، فهذا مقام علِيّ، وخط بالقلم كنحو ما أوتي إدريس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واختُلف هل رفع إدريس بعد الوفاة، أو رفع حيًّا كعيسى؟، وفي المكان العلي هل هو السماء الرابعة، أو الجنة؟، فإن كان إدريس اختص بأنه أدخل الجنة، فقد شاركه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وزاد عليه: بأنه دخلها حيًّا، وإدريس إنما دخلها بعد الموت، بل زاد عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الارتفاع إلى أعلى الجنان، وأرع الدرجات اه.

وهذا غاية البيان فيما نحن بصدده من المناسبة.

وحكمة رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهارون عليه السلام في السماء الخامسة، للإيذان بإحراز خصائصه والزيادة عليه، فمن خصائص هارون عليه السلام فصاحة اللسان، وقد وصفه موسى عليه السلام بذلك، فقال: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ الآية.

وقد حاز نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المرتبة العليا من الفصاحة، ولا خفاء بأن أفصح اللغات لغات العرب، وغاية لسان هارون وفصاحته بالعبرانية، والعربية أفصح منها، ثم هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح من نطق بالضاد من بين أهل اللغة العربية.

ولأن هارون عليه السلام إلى مناسبة أخص تتعلق برؤيته له في السماء السادسة، وذلك أن موسى عليه السلام أراد أن يقيم الشريعة في الأرض المقدسة، وحمل قومه على ذلك، فتقاعدوا عنه، وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾.

وفي الآخر سجلوا بالقنوط: ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، فغضب اللَّه عليهم، وحال بينهم وبينها، وأوقعهم في التيه، وآلَ الأمر إلى قهر الجبابرة وإخراج من أرضهم.

وكذلك أراد نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة أن يدخل بمن معه مكة، يقيم بها شريعة اللَّه وسنة إبراهيم، فصدوه فلم يدخلها في هذا العام، ثم دخلها في العام القادم، وآلَ أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن فتح مكة وقهر المتجبرين والمستهزئين من قريش. فكان لقاؤه لموسى تنبيهًا على التأسي به، وحصول حالة له تشبه حالة موسى عليه السلام.

وحكمة رؤيته ولقائه لإبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السماء السابعة، لأنه الأب الأخير، فناسب أن يتجدد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلقائه أنس لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وأيضا فمنزلة الخليل تقتضي أرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أرفع من منزلته فلذلك ارتفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أو أدنى.

ولقائه لإبراهيم عليه السلام في السابعة مناسبة أخرى أخص من ذلك، وهي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة هو وأصحابه ملبّيين مُعتمرين مُحييًا لسُنّة إبراهيم عليه السلام، ومقيمًا لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره وبدّلت أمره.

وفي إسناده ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، إشارة والله أعلم، إلى أنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة، وهي أول دخلة دخلها مكة بعد الهجرة، والكعبة في الأرض قبالة البيت المعمور.

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر. إشارة إلى أنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه، لأنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح ولم يعاوده في حجة الوداع.

وفي "الروض": ثم لقاؤه في السابعة لإبراهيم لحكمتين إحداهما: أن البيت المعمور بحيال الكعبة، وإليه تحج الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، وأذّن في الناس بالحج إليها.

والثانية أن آخر أحواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حجه إلى البيت الحرام، وحج معه ذلك العام نحو من تسعين ألفًا، ورؤية إبراهيم عند أهل التأويل

تؤذن بالحج لأنه الداعي إليه، والرافع لقواعد الكعبة المحجوجة اه.

وقد اختلف في رؤية نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم، إلا عيسى لما ثبت أنه رفع بجسده. وقد قيل في إدريس أيضًا ذلك، وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل الأرواح خاصة، ويحتمل الأجساد بأرواحها.

وقيل: يحتمل أن يكون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عاين كل واحد منهم في قبر في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون اللَّه عَزَّ وجَلَّ قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الجنة والنار في عرض الحائط، وهو محتمل لأن يكون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رآهما من ذلك الموضع، أو مثّل له صورتهما في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون اللَّه سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكرامًا لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمًا له، حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأنس والبشارة وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن.

وكل هذه الوجوه محتملة، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك، واللَّه أعلم. ذكره في "المواهب" و"النجم الغيطي".

(ولم يزل يرقى) بفتح القاف أَيْ: يصعد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد أن جاوز السماء السابعة حتى رفع بالمرقاة الثامنة، (إلى سدرة المنتهى) أَيْ:

إلى مقابل فروعها، فإن فروعها في جوف الكرسي، وهو فوق السماوات، وأما أصلها ففي السماء السادسة، والقول بأن أصلها في الأرض لا يلتفت إليه. وهل أصلها معلق في الهواء أو مغروس في تراب، أو في جرم السماء؟، احتمالات، أظهرها آخرها، بل هو لا ينافي ما قبله.

قال النجم الغيطي: السدر شجرة النبق واحده سدرة، وقيل: المنتهى، لأنها ينتهي إليها ما يهبط من فوقها، أَيْ: من التقادير فيفيض منها وإليها، ينتهي ما يخرج من الأرض، أَيْ: من أعمال العباد وما يقع فيها، وقيل: غير ذلك.

قال ابن دحية: اختيرت السدرة دون غيرها، لأن فيها ثلاث أوصاف: ظلّ ممدود، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقد وقع في حديث ابن مسعود عند مسلم: أن السدرة في السماء السادسة، وظاهر حديث أنس: أنها في السابعة. قال القرطبي: وهذا تعارض لا شك فيه. وحديث أنس قول الأكثر وهو الذي يقتضيه وصفها بكونها التي ينتهي إليها علم كل نبي مرسل أو ملك مقرّب، ويترجح أيضًا بأنه مرفوع وحديث ابن مسعود موقوف.

قال الحافظ ابن حجر: ولم يعرج القرطبي على الجمع، بل جزم بالتعارض ولا تعارض، لأنه يحتمل على أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السماء السابعة اه.

وفي الحديث: وإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصفّى، يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها، وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة، تكاد الورقة تغطّي هذه الأمة. وفي رواية: الورقة منها تظل الخلائق، على كل ورقة ملك، تغشاها ألوان لا يدري ما هي، فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشيها تغيّرت. وفي رواية: تحوّلت ياقوتًا وزبرجدًا، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها، فيها فراش من ذهب.

وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟، قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات اه.

وحاصله أنه يخرج من أصلها أَيْ: من جدرها، ويحتمل من قرب أصلها، وقيل: من قبة خضراء، ويمر من أصلها أَيْ: من جوانب أصلها، والأول هو ظاهر ما في القصة أنها أنهار أربعة هي الأصول: الماء واللبن والخمر والعسل، وكل منهما يتفرع منه أنهار، فلذا قال: أنهار من ماء، وأنهار من لبن، وأنهار من خمر، وأنهار من عسل.

أما نهر الماء فيظهر منه في الأرض سيحان بأرض مصيصة، وهو غير سيحون، ويظهر من اللبن جيحان بأرض أدنة، وهو غير جيحون، ويظهر من العسل نيل مصر، ومن الخمر الفرات بالكوفة، والنيل والفرات يزيدان ويزرع عليهما بزيادتهما، والنيل أعظم في الزيادة من الفرات، ويبطن من

كل في الجنة ما يعلمه الله تعالى. وأما سيحون وجيحون فنهرا الهند وبلخ.

وقال القرطبي في "التذكرة": أن الله تعالى أنزل في الأرض خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة في أسفل درجة من درجاتها، على جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله جبريل فيرفع جميع الأنهار الخمسة اه. وهو بخلاف ما تقدَّم.

والذي رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ. وفي البيهقي في "الشعب" عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل في الجنة، ونهر دجلة نهر اللبن في الجنة، ونهر الفرات نهر الخمر في الجنة، ونهر سيحان نهر الماء في الجنة.

قال النجم الغيطي: وقد استدل على فضيلة النيل والفرات بكون منبعهما من الجنة، وأنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، بخلاف غيرهما وإن كان من أنهار الجنة كسيحان وجيحان فلا ينبعان من أصل السدرة، فامتاز النيل والفرات عليهما بذلك.

فإن قيل: قد ورد أن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يفنى، وأنه ليس له فضلة تخرج على المعهود في الدنيا، بل خروجه رشحات مسك على البدن، والنيل وما ذكر من المياه التي ورد أنها من الجنة ليس فيها ما

ذكر.

أجيب: بأن هذه الخاصية لماء الجنة ما دام فيها، فلما نزل إلى الأرض نزعت منه تلك الخصوصية، وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى، إن شاء اللَّه عز وجل أبقاها، وإن شاء سلبها، مع بقاء جوهرها ليس لذات الخواص تأثير، بل الخاصية خلقه والجوهر خلقه، وإنما القدرة المؤثرة في كلها. قاله ابن أبي جمرة.

وأما النهران الباطنان في الجنة، فقال مقاتل: هما السلسبيل والكوثر. قال بعضهم: وليس في الدنيا نهرًا أطول من نهر مصر، إذ مسيره في الإسلام شهان، وفي النوبة شهران، وأربعة أشهر في الخراب. ذكره الأستاذ الدردير.

تتمة: عدَّد بعضهم رفعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سدرة المنتهى معراجًا ثامنًا بالنسبة إلى السماوات السبع.

وسئل عن حكمة المعراج الثامن إلى سدرة المنتهى للسنة الثامنة من الهجرة؟.

وأجاب: بأن وجه ذلك واللَّه أعلم، أن السنة الثامنة لما اشتملت على فتح مكة وهي أم القرى، وإليها المنتهى ومنها المبتدأ على ورد: أن الأرض كلها دحيت من مكة، فلذلك سميت أم القرى أو هي أم القرى، لأن أهل القرى يرجعون إليها في الدين والدنيا حجًّا واعتمارًا وجوارًا، وكسبًا واتجارًا.

فبين سدرة المنتهى وأم القرى ينتهي من المناسبة ما لا يخفى، إذ

سدرة المنتهى ينتهي إليها علم الخلائق، ومكة ينتهي إليها أهل الآفاق شرقًا وغربًا، وفيها يكون الاجتماع.

فكان بلوغه إلى سدرة المنتهى تنبيهًا على بلوغه إلى فتح مكة في العام الثامن، وقد غشيها الجراد والفراش الذي هو جند من جند الله، كما غشي مكة في الفتح جند الله وحزبه، وغشيها أيضًا أجناس من الخلق، وألوان من الأسود والأحمر، كما غشي سدرة المنتهى ألوان لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولما غشيت الألوان السدرة حسنت إلى أن يحسن أحد أن ينعتها لفرط الحسن، كما أن ألوان الخلق لما غشيت مكة يوم الفتح حسنت حينئذ بالإيمان وبأهل القرآن، حتى لا يحسن أحد أن يصف حالها حينئذ من عظم الشأن. ذكره النجم الغيطي.

ثم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاوز سدرة المنتهى إلى مستوًى -بفتح الواو- وهو المكان العالي المتسع، ثم زجَّ به في النور فخرق سبعين ألف حجاب من نور، مسيرة كل حجاب خمسائة عام.

ثم زجَّ به في النور فخرق حجاب خمسائة عام، ثم تدلى له رفرف أخضر فارتقى به حتى وصل (إلى الحضرة العرشية) أَيْ: إلى العرش، ولم يجاوزه، فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى. وهذا هو المعراج العاشر.

وأما المعراج التاسع فهو المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، والمناسبة بين هذا المعراج التاسع وبين العام التاسع من سني الهجرة، أنه كان في العام التاسع غزوة تبوك، وفيها خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يتم قبله مثله كان العدد فيها ثلاثين ألفًا، وكانت الشقة بعيدة ولهذا لم يور فيها.

بل أعلم الناس بتوجههم ليكون تأهبهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها حربًا، ولا افتتح بلدًا، وذلك لأن فتوح الشام لم يكن حل بعد فانفسخ العزم بالقدر وبجفاف القلم، ورجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عن انصراف العزيمة.

وفي المعراج العاشر تأخَّر جبريل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل يترك الخليل خليله؟، فقال له جبريل: هذا مقامي لو جاوزته لاحترقت من الأنوار. وهذا العاشر هو الذي رأى فيه الرجل المغيَّب في نور العرش المذكور في القصة.

قال النجم الغيطي: أن الإمام ابن المنير قال في كتابه "المقتفى في شرف المصطفى": أن سني الهجرة العشرة بجملتها مطابقة للمعاريج التي كانت ليلة الإسراء عشرة على عدد سني الهجرة، منها سبعة معاريج إلى السماوات، والتامن إلى سدرة المنتهى، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار. والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب، وهو حقيقة اللقاء.

وبهذا اختتمت سني الهجرة العشرة بالوفاة، وهي لقاء الحق جل جلاله، كما اختتمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحضرة القدس على ما تقدَّم الكلام عليه في الحديث التام.

ثم أن ذكر مناسبة لقيه لكل نبي في السماء التي هو فيها، إلى انتهاء السماوات، ثم ذكر مناسبة المعراج الثامن وهو سدرة المنتهى إلى السنة الثامنة، ثم ذكر مناسبة المعراج وهو المستوى إلى السنة التاسعة. وقد أشرنا إلى شيء من ذلك من كلامه وكلام غيره.

ثم قال: المعراج العاشر إلى الرفرف، وحينئذ لقي الله عز وجل بحضرة القدس ومقام الأنس، ورفع الحجاب وسمع الخطاب، وكان قاب قوسين أو أدنى، لا بالصورة ولكن بالمعنى.

وقد أشار الأستاذ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البَرَّق" إلى هذا في حرف السين بقوله:

تَرَقَّى صَفِيُّ اللهِ فِي حَضْرَةِ القُدْسِي   وَقَامَ بِهَا مِنْ سِرِّ أَنْوَارِهِ مَكْسِي
عَلَى مِنْبَرٍ مِنْ نُورِ حَقٍّ كَأَطْلَسِ   يُنَاجِي لِمَوْلَاهُ أَيَا نِعْمَ مَجْلِسِ
حَبِيبٌ وَمَحْبُوبٌ وَسَاعَةُ أُنْسِ
يُسَامِرُهُ الأَعْلَى يَقُولُ مَحَبَّتِي   لِذَاتِكَ مَحْبُوبٌ لِأَسْمَاءِ وَصْفَةِ
لِذَاتِيَ مَعْشُوقٌ تَقَدَّمْ لِحَضْرَتِي   وَقَدِّمْ بِهَا مَنْ شِئْتَ مَنْ كُلِّ مُثْبَتِ
أَنَلْتُكَ تَصْرِيفِي بِنَادِي أَقِمْ أَرْسِي
فَقُمْتَ مَقَامًا لَمْ يَقُمْ فِيهِ مُرْسَلٌ   وَحُزْتَ كَمَالاً لَمْ يَنَلْهُ مُكَمَّلٌ
وَأُولِيتَ فَضْلاً لَمْ يَحُزْهُ مُبَجَّلٌ   عُطِي المُصْطَفَى مَا لَمْ يَذُقْهُ مُفَضَّلٌ
مَقَاماً كَمَالاً فَضْلُهُ سِرُّهُ قُدْسِي
فَمِنْ سِرِّكَ الأَنْبَاءُ نَالَتْ لِسِرِّهَا   وَمِنْ فَضْلِكَ الأَخْيَارُ فَازَتْ بِبِرِّهَا
وَمِنْ نُورِ تَكْمِيلٍ حَوَى الرُّسْلَ عُلُوُهَا   وَمِنْ ذَا المَقَامِ العَالِي أَمْلَاكُ رَبِّهَا

تَرَقَّتْ إِلَى أَعْلَى مَقَامًا بِلَا عَكْسٍ

فَمُـدَّ لَنَـا مِـنْ كُـلِّ مَـا اللهُ أَمْنَحَـا   لِسِـرِّكَ يَـا نُـورَ الْإِلَـهِ وَأَفْتَحَـا

سُـوَيْدَا قُلُـوبٍ بِالكَمَـالِ الْمُنَفَّحَـا   أَدِمْ ذَلِـكَ المَـذْكُورَ دَوْمًـا مُسَـبَّحَا

عَلَيْكَ صَلَاةُ الْحَقِّ مَا سُطِّرَتْ طُرْسِي

والمناسبة بين هذا المعراج وبين العام العاشر من سني الهجرة، أمر بيِّنٌ واضح، إذ اجتمع في هذا العام اللقاء أن اللذان أحدهما لقاء البيت وحج الكعبة ووقوف عرفة، وإكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين.

واللقاء الثاني لقاء رب البيت، وكانت فيه الوفاة واللقاء والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة، التي لا تنبغي إلا لعبد واحد اختاره الله تعالى على خلقه، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إلى أن قال: وقوله: إن المعراج العاشر العرش والرفرف إلخ، في ذكر عروجه إلى العرش نظرٌ، لأنه لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرج به إلى العرش تلك الليلة، بل لم يرد فيه حديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاوز سدرة المنتهى، بل انتهى إليها. وفي بعض الأحاديث لم يذكر السدرة، بل ذكر فيها أنه انتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فقط.

وأما الرفرف فيحتمل أن المراد به السحابة التي غشيته، وفيها من كل لون، رواها ابن أبي حاتم عن أنس. وعندما غشيته تأخّر عنه جبريل عليه السلام، لكن ظاهر السياق والقصة يقتضي أنها قبل عروجه إلى المستوى

الذي سمع فيه صريف الأقلام.

وصنيع تعداد ابن المنير للمعاريج يخالف ذلك، فلو جعل المعراج العاشر هو حضرة القدس التي حصل فيها اللقاء والمناجاة والرؤية، وحذف العرش والرفرف لكان أولى لما ذكرنا اه.

ويجاب عن ابن المنير بأن مراده بالرفرف هي السحابة، ولا شك أنها التي سمع فيها الخطاب، فيكون آخر المعاريج، وأما حضرة القدس فظاهر أنها ليست بمعراج.

وقوله: إلى العرش، معناه: إلى نور العرش الذي رأى فيه الرجل المغيّب، ولا يلزم منه الانتهاء إلى العرش، وإن كان ظاهر سياق القصة أنه رفع إلى سدرة المنتهى، فغشيته السحابة فرفعته حتى ظهر لمستوى إلخ. فتأمّلْ، فإن المقام من مزال الأقدام.

فائدة: اتفق المحققون على أن ما يذكره بعض الناس من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطئ العرش بنعله، وما قيل: أنه أتى البساط فهَمَّ بخلع نعله، فنودي: لا تخلع نعلك، لا أصل له، وإنما ذلك شيء وقع في نظم بعض القصَّاص الجهلة. قاله الأستاذ الدردير في "حاشيته على القصة".

(وعلا) أَيْ: ارتفع ورقى (الحجب) بضم الحاء المهملة والجيم: جمع حجاب، وهو الساتر والحاجز لغة، والحاجب المانع، ومنه حاجب العين وحاجب الأمير.

قال في "المواهب": واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوقات، لا في حق الخالق عَزَّ وجَلَّ، والله

سبحانه وتعالى مُنزَّه عما يحجب، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، له طول وعرض في جهة يحس بتوجه الناظر فيقتضي الجهة، وهو مُنزَّه عن ذلك، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى الملائكة الحافون بعرشه والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية، حجب الذات بالصفات. وهم عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة فالمخلوقات كلها مدة وجدانها حجاب عن الخالق، فقوم حجبوا برؤية النعم التي أسبقت عليهم عن المُنعم جلَّ وعلَا، وبرؤية الأحوال المشاهدة لهم من نحو صحة وغنى وضديهما عن ذي الحول والقوة، الذي خلق ذلك وقدَّره، وبرؤية الأسباب كالشيع والرأي وضديهما عن المسبب الخالق لذلك، وقوم حُجبوا بالعلم عن المُعلِّم، فتراهم أبدًا إنما يبحثون ويتكلمون في العلم وما يتفرّع عنه، وتراهم غافلين في الأمن علمهم، وبالفهم عن المُفهِّم وبالعقل عن المُعقِّل، وكل ذلك من معنى حجاب النعم عن المُنعم، والمواهب عن الواهب.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم بالشهوات المحرمات والمعاصي والسيئات وإن لم تكن فيها شهوات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا اه.

وما أحسن قول صاحب "الحكم": الْحَقُّ لَيْسَ بِمَحْجُوبٍ، إِنَّمَا الْمَحْجُوبُ أَنْتَ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، إِذْ لَوْ حَجَبَهُ شَيْءٌ لَيستَرَهُ مَا حَجَبَهُ، وَلَوْ كَانَ لَهُ سَاتِرٌ لَكَانَ لِوُجُودِهِ حَاصِرًا، وَكُلُّ حَاصِرٍ لِشَيْءٍ فَهُوَ لَهُ سَاتِرٌ، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء، وهو الذي أظهر من كل شيء، اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في الآخرة يا كريم، واجعل وجوهنا ناضرة إلى ربها ناظرة، آمين.

(وخاطب) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مولاه) عَزَّ وجَلَّ أَيْ: بغير واسطة، وأوحى إليه ما أوحى من الأسرار العجيبة التي لم توحَ لغيره من الأنبياء، وأذن له بإظهار ما أُمِر به، وأمره بكتمانه ما لم يؤذن به في إظهاره، فيسمع كلام ربه عَزَّ وجَلَّ الذي ليس بحرف ولا صوت، ويتعلق بما يتعلق به العلم من الواجبات والمستحيلات والجائزات.

وإنما اختص موسى بالكليم، لأنه سمعه وهو في الأرض، بخلاف سماع نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام ربه، فإنه في جهة السماء.

(ورآه) أَيْ: رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه، أَيْ: أزال له الحجاب حتى رآه من غير جهة مخصوصة ولا مكان مخصوص بدون حصر ولا كيف، وإنما قامت به صفة توجب كونه مرئيًا، ولم يحط بكنه حقيقته إلا هو سبحانه، منزهًا عن صفات الحوادث، لا بقلبه فقط بل وبعينيه أيضًا، على الصحيح المشهور.

وذلك (كما قال) ترجمان القرآن عبد الله (ابن عباس) فيما رواه الحاكم في "المستدرك" عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاأنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رأيتُ ربي عز وجل أيْ: ليلة الإسراء، بعيني رأسي. فرآه عشر مرات، الأولى في مرة فرض الصلوات، والتسع بعدها في مرات الحط والإسقاط. قاله الشيخ سليمان الجمل.

ولم تقع رؤية الرب عز وجل يقظة إلا لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما موسى فقد علّق رؤيته على استقرار الجبل، وهو لم يستقر، فلذا لم تقع له رؤية.

وقوله: (عيان): مفعول رأى، وهو بكسر العين مصدر عاينه أَيْ: مشاهدة. وقد اختلف العلماء في أن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه في هذا المقام بعيني رأسه أو بعيني قلبه فقط. والذي صحَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَافي رواية الأول، كما تقدّم في أخرى الثاني.

وقال بعضهم: أنه رأى مرتين، واحدة بالعين وأخرى بالقلب، وهذا مبني على تعدد المعراج. ومعنى رؤية القلب على القول بها أن الله تعالى خلق في قلبه عينين كعيني الرأس، فرأى بهما ولم يحجبهما قفص البدن ولا الثياب.

وليس المراد برؤية القلب على هذا القول الحضور والشهود مع ربه واشتغال البال به دون غيره، لأن هذا الحال والمقام لا ينفك عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل قد يصل إليه بعض الأولياء.

(ورجع) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سفر الإسراء، فوصل إلى مكة قبل

الصبح، (وكل ذلك) المذكور (كان) أَيْ: حصل (في بعض ليلة) قيل: نحو ثلاث ساعات. وقيل: أقل. وقيل: أكثر.

(فما أعظم هذه المعجزات) جمع معجزة وهي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي، وهو دعوى النبوة أو الرسالة، وهي مأخوذة من الإعجاز، لأنها تعجز الخصوم عن أن يأتوا بمثلها. وقد نظم بعضم أقسام الخارق للعادة، فقال:

إذا ما رأيْتَ الأمرَ يخْرِقُ عادةً ... فمعجزةٌ إنْ مْن نبيٍّ لنا ظَهَرْ
وإن بان من قبل وصف نبوة ... فالإرهاصَ سِمة تتبع القومَ في الأثرْ
وإن جاء يومًا من ولي فإنه ال ... كرامة في التحقيق عند ذوي النظرْ
وإن كان من بعض العوام صدوره ... فكنوه حقًّا بالمعونة واشتهرْ
ومن فاسق إن كان وفق مراده ... يسمى بالاستدراج فيما قد استقرْ
وإلا فالإهانة عندهم وقد ... تمت الأقسام عند الذي اختبرْ

وزاد بعضهم: السحر. وقيل: أنه غير خارق، لأنه معتاد تعاطي أسبابه.

وقوله (الشهيرية): نعت المعجزات أَيْ: المنسوبة للشهرة، كيف لا تكون مشهورة وقد جاوز فيها جميع السماوات في أسرع وقت في نحو ثلاث ساعات، قطع فيها نحو ثمانية آلاف سنة، إذ بين الأرض والسماء خمسمائة عام، وكذا سُمك كل سماء وما بين كل سماءين. وأما ما بعد السماء السابعة فلا يعلمه إلا الله تعالى.

فيا لهما من مسيرين، مسير في الأرض وصل به إلى بيت المقدس، ومسير في السماء، أظهر الله بهما عظيم قدره وتقدُّمه على جميع خلقه من

أنبياء ورسل في أرضه وسمائه.

أو يقال: معنى شهرتها للأخبار والأحاديث والآيات الدالة على شهرتها المجمع عليها، إذ إنكار الإسراء كفر، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ إلخ، وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إلخ.

(و) لما رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سفر الإسراء، مَرَّ بعير لقريش -وهو بعين مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة-. ثم رأى قافلة جمال تحمل طعامًا، فيها جمل عليه غرارتان سوداء وبيضاء. فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير. فسلّم عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ورأى بعير أضل، وجمعه واحد منهم.

وأتى إلى أصحابه قبيل الفجر بمكة، فلما أصبح (أخبر قريشًا) بما رأى من تلك العجائب والكرامات، لكن لم يحدّث الناس، ولم يخبر صبيحة الإسراء بالعروج إلى السماء، بل اقتصر على الأخبار بالذهاب إلى بيت المقدس.

(فكذّبه) أَيْ: كذّب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركون (أهل البغي) أَيْ: الظلم والسعي بالفساد -وهو بفتح الباء- مصدر بغي على الناس بغيًا، بمعنى ظلمَ واعتدى وسعَى بالفساد.

(والخذلان) أَيْ: الإهانة -وهو بكسر الخاء والذال المعجمة- اسم من خذلته وخذلت عنه، من باب قتل: إذا تركت نصرته. والخذلان ضد التوفيق، وهو أن يخلق الله تعالى فيه داعية المعاصي في الدنيا.

ولمَّا تحدّث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإسراء، سأله المشركون عن

صفات بيت المقدس، (فجاء) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم (بالعلامات) جمع علامة أَيْ: بعلامات بيت المقدس، وأظهره الله له، وأخبرهم بما سألوه عنه.

فذهبوا إلى أبي بكر وذكروا له: أنه يخبر أنه ذهب إلى بيت المقدس، وجاء في ليلة، قال: نعم، فأنكروا عليه، فقال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك في غدوة وروحة.

ورُوي: أن أبا بكر جاءه يقول: أنك الليلة أتيت بيت المقدس؟، قال: نعم، قال: صفه لي فإني جئته، ولم يكن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تثبّت أوصافه بالليل، فرفعه الله إليه ونقله إلى مكة عند دار عقيل، فجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إليه وغيره لا يراه، ويخبر بجميع صفاته تفصيلاً. وهذا كما حمل عرش بلقيس وجئ به إلى سليمان في طرفة عين.

وقول أبي بكر له صفه لي ليس امتحانًا، وإنما هو ليظهر صدقه لهم ويرد عليهم في تكذيبهم. وروي: أنهم سألوه عن أشياء فيه لم يثبتها فكرب كربًا ما كرب مثله قط، فرفعه الله إليه، فما سألوه عن شيء إلا أنبأهم به. وقيل: إن المسجد لم ينقل، وإنما أزيلت الحجب بينه وبينه، وخلق الله الله فيه قوة رؤيته وهو في محله.

وبهذا ظهرت الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج منه إلى السماء، لما تقرر أن فيهم من رأى بيت المقدس وعرفه، فوصفه مع علمهم بأنه لم يذهب إليه قط أوضح آية على صدقه في جميع ما أخبر به من أمر السماء.

(و) لما سألوه آية (أخبرهم) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بالعير) -بكسر العين المهملة تذكّر وتؤنّث، وأصلها الإبل بأحمالها، ثم غلب إطلاقها على القافلة.

ومما أخبرهم به أنه قال لهم: أن من آية ما أقول لكم أني أتيت على عير بني فلان بالروحاء، موضع على أربعين ميلاً من المدينة، وقد أضلوا ناقة لهم فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، وليس بها منهم أحد، وإذا بقدح ماء فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بني فلان بمكان كذا وكذا، وفيها جمل أحمر عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء.

فلما حازيت العير نفرت، وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، وها هي ذه تطلع عليكم من الثّنيّة، قالوا: فمتى تجيء؟، قال: يوم الأربعاء.

فلما كان ذلك اليوم، أشرفت قريش ينتظرون العير وقد ولّى النهار، ولم تجيء، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه، فزيد له في النهار ساعة، وحبست له الشمس، حتى طلعت العير، فاستقبلوا الليل. فقالوا: هل ضلّت لكم ناقة؟، قالوا: نعم، قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟، فقال رجل: أنا واللَّه وضعتها فما شربها أحد منا ولا أهريقت في الأرض، فسألوا العير الآخر فقالوا: هل انكسر لكم جمل؟، قالوا: نعم. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

وفي قوله: وإذا بقدح ماء فشربتُ منه، إشكالٌ، بأنه كيف ساغ له شربه بلا إذن أهله. وأجيب: بأنه اعتمد على عادتهم من أنهم لا يمنعون اللبن ممن يمر عليهم، فضلاً عن الماء، وكانوا الرعاة بأنهم لا يمنعون المارة اللبن، فالماء أولى، وبأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأموالهم، فالكافرون أولى، فكل ما في الكون ملكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله (التي كانت له مرئية) أَيْ: التي رآها ليلاً على حقيقتها كما أخبرهم بها، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى بالليل كما يرى بالنهار، إذ الرؤية مستمدة من الضوء وهو النور، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نور في نفسه، بل جميع الأنوار مقتبسة من نوره، فهو الأصل لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فصدَّقه) أَيْ: صدَّق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر (الصِّدِّيق) أَيْ: حين سألوه عن بيت المقدس وما رأى، وهو يخبرهم ويعلمهم به بابًا بابًا، ثم قالوا لأبي بكر: تصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟، قال: نعم، أصدّقهُ بخير السماء في غدوة وروحة.

فلذلك سُمِّي الصِّدِّيق وذلك (لسبق العناية له) أَيْ: للصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أزلًا، فكان أول من آمن من الرجال حين أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغ الناس، وأول من صدّق حين أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحديث الإسراء.

والصِّدِّيق لقبه استمر عليه حتى صار كالاسم، ويلقّب أيضًا بالعتيق، لأنه القديم في الإسلام، أو لأنه أُعتق من النار، واسمه عبد اللَّه، وكنيته أبو

بكر، وكان يصاحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل سفر.

وكان قد ذهب إلى الشام فرأى منامًا وقصَّهُ على الرهبان، فقالوا: إن صدقت رؤيتك يكون من قومك نبي وأنت وزيره، فكتم أبو بكر ذلك إلى أن بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين سنة، فلما دعى النبوة وكذّبه الناس، ذهب أبو بكر له وقال: ما علامة النبوة؟، فقال له: الرؤيا التي رأيتها.

وروي: أنه توفي سيدنا أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببيته المعروف بباب النساء، ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء، فلما أن غسّل وكفّن وصُلّي عليه، حملوه على قبر المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: يا رسول اللَّه هذا صاحبك بالباب منطرح، فإذا الأنوار ساطعة والباب قد فُتح، وهتف هاتف المحبة والاشتياق: ادخلوا الحبيب لحبيبه، فإنه إليه مشتاق، فأدخلوه إليه من بعد ذلك النداء، ودفنوه بجواره، رضوان اللَّه تعالى عليه.

(فتيَقّظْ) بفتح المثناة الفوقية والمثناة التحتية وتشديد القاف: فعل أمر أَيْ: انتبه من نومك وغفتك. (يا نومان) بفتح النون وسكون الواو، أَيْ: يا كثير النوم والغفلة، ويختص هذا اللفظ بالنداء، كما في "القاموس".

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ صَابِرًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الخَبَائِثِ الصَّادِرَةِ لَهُ مِنَ الفِئَةِ الكُفْرِيَّةِ ❁ وَيَدْعُو لَهُمْ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ بِالهُدَى وَالهَدَيَان ❁ فَهَدَى اللَّهُ مَنْ هَدَى بِعِنَايَتِهِ وَأَمَرَهُ لِيُتِمَّ لَهُ بِالهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ❁ فَخَرَجَ هُوَ وَالصِّدِّيقُ وَتَخَبَّيَا فِي غَارِ ثَوْرٍ وَطَلَبَ الكُفَّارُ لَهُمَا يُقْتَلَان ❁ فَأَتَوا إِلَى الغَارِ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الحَمَامَ وَالعَنْكَبُوتَ تَنْسِجُ عَلَى فَمِ تِلْكَ المَغَارَةِ المَحْصُونِيَّة ❁ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ هَؤُلَاءِ هُمْ فَقَالَ مَنْ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ بِالسَّكِينَةِ وَالاِطْمِئْنَان ❁ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَالُكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا سَكِينَتَهُ النَّصْرِيَّة ❁ وَمَضَوْا إِلَى المَدِينَةِ فَأَدْرَكَهُمْ فِي الطَّرِيقِ سُرَاقَةُ فَسَاخَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ فَنَادَى الأَمَان ❁ فَحَلَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجَعَ وَرَدَّ الكُفَّارَ عَنْهُ وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الدِّيَارِ الحَرَمِيَّة ❁ وَنَزَلَ عِنْدَ أَخْوَالِهِ فِي دَارِ بَنِي النَّجَّارِ أَهْلِ الرُّسْخَان ❁ وَبَنَى المَسْجِدَ وَجَهَّزَ الجَيْشَ هُوَ وَالدَّائِرَةُ الأَصْحَابِيَّة ❁ وَأَقَامَ الدِّينَ حَتَّى أَتَاهُ اليَقِينُ فَوَافَى مَوْلَاهُ بِإِحْسَان ❁ وَاسْتَأْذَنَهُ مَلَكُ المَوْتِ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ أَحَداً قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَآءِ القَبْلِيَّة ❁ فَأَذِنَ لَهُ وَأَعْظَمُ المَصَائِبِ عَلَيْنَا وَفَاتُهُ فَالحُكْمُ لِلمَنَّان ❁ وَدُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ زَوْجَتِهِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا ٱلآيَاتُ التَّبْرِيئِيَّة ❁ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ الفَارُوقُ مَدْفُونَان ❁ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ وَعَزَّتْ أَهْلَهُ مَعَ الخَضْرِ ذِي العُلُومِ اللَّدُنِّيَّة ❁ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ الرِّجَالُ بِوِصَايَتِه وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَان ❁ وَعَمَّتْ مِلَّتُهُ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ القُرْبِيَّة وَالبُعْدِيَّة ❁ وَلَمْ يُحْرَمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ولما فرغ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذكر بدء الوحي والمعراج، أخذ يتكلم على الهجرة من مكة إلى المدينة فقال: (ثم) أَيْ: بعد ما ذكرت لك ما يتعلّق بما تقدّم من بدء الوحي، أذكرُ لك ما يتعلّق بانتقاله من مكة إلى المدينة، إلخ ما يأتي فيها.

ثم اعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حيث أرسل مكث ثلاث سنين مستخفيًا، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناسس إلى الإسلام عشر سنين، يوافي المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، فلا يجد أحدًا ينصره ولا يجيبه، حتى أنه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة، فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه أشد الإيذاء، ويقولون: قومك أعلم بك. وقبل أن يؤمر بالقتال حصل له ما حصل.

و(لم يزل) بفتح الزاي أَيْ: يستمر، ولم ينفك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كونه (صابرًا على الخبائث) جمع خبيثة (الصادرة) أَيْ: الحاصلة (له) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من الفئة) بفاء مكسورة بعدها همزة مفتوحة، أَيْ: الجماعة (الكفرية) أَيْ: المنسوبة للكفر أَيْ: الجحد والإنكار. وأصل الكفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافرًا، لأنه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر:

فــي ليلــةٍ كَفَــرَ النُّجــومَ غَمَامُهَــا

أَيْ: سترها.

والكفر على أربعة أضرب: كفار إنكار وهو أن لا يعرف الله أصلاً، ككفر فرعون وهو قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. وكفر جحود وهو أن يعرف الله بقلبه وهو يعرفه بلسانه، ككفر إبليس. وكفر عناد وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين، ككفر أمية بن أبي الصلت، وأبي طالب حيث يقول في شعره:

ولقد علمت بأنّ دين محمد   من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبّة   لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

وكفر نفاق وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه. فجميع هذه الأنواع كفر.

وحاصله أن من جحد الله وأنكر وحدانيته، أو أنكر شيئًا مما أنزله على رسوله، أو أنكر نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أحد من الرسل، فهو كافر، فإن مات على ذلك فهو في النار خالدًا فيها لا يغفر له اه.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مأمورًا بالصبر على تحمُّلِ ذلك منهم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية. وقد صبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل صبرهم وزاد عليهم.

(و) الحال أنه مع صبره وتحمله الإيذاء الحاصل منهم (يدعو لهم من حسن خلقه) أَيْ: من خلقه الحسن، فالإضافة من إضافة الصفة للموصوف. والخُلُق -بضمتين-: الطبيعة والسجية.

وقوله (بالهدى) -بضم الهاء وفتح الدال- أَيْ: الرشاد والدلالة على الإيمان. (والهديان) بزيادة الألف والنون أَيْ: الهَدْي -بفتح الهاء وسكون

الدال وتكسر-: الطريقة والسيرة. كما في "القاموس".

رُوِي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كسرت رباعيته وشج وجهه الشريف يوم أحد شقّ ذلك على أصحابه شديدًا، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لم أبعث لعَّانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وفي البخاري ومسلم من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ غزوة أُحُدٍ؟، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ مما أنا فيه إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا به عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ -يعني أبا قبيس وقيقعان-، فَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا أشاء ذلك، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا شريك له.

وفي روايةٍ عكرمة: جَاءَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبّك يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَهَذَا مَلَكُ الْجِبَالِ قَدْ أَرْسَلَهُ إِلَيْكَ وَأَمَرَهُ أَلا يَفْعَلَ شَيْئًا إِلا بِأَمْرِكَ، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ دَمْدَمْتُ عَلَيْهِمُ الْجِبَالَ، وَإِنْ شِئْتَ خَسَفْتُ بِهِمُ الأَرْضَ، قَالَ: يَا مَلَك

الْجِبَالِ، فَإِنِّي آتِي بِهِمْ بِهِمْ، لَعَلَّهُ أَنْ تَخْرُجَ ذُرِّيَّةً يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَقَالَ مَلَكُ الْجِبَالِ: أَنْتَ كَمَا سمَّاك ربك رؤوف رحيم.

(ف) بسبب دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم (هدى اللّه) أَيْ: أرشد (من هدى) أَيْ: أرشده إلى الإسلام (بعنايته) للإيمان كأبي بكر وغيره من الصحابة، وضلّ من أضلَّ اللَّه كأبي جهل وغيره من المشركين.

وذكر أهل السير أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يطوف على الناس في منازلهم ويقول لهم: يا أيها الناس إن اللَّه يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، وأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وقد أقحمهم بالبراهين القاطعة والحجج الواضحة، فما بقي منهم إلا الجحود والعناد، ثم مشوا في إيذائه، بعضهم من وضع التراب على رأسه، وجعل الدم على بابه، ومع ذلك يدعوهم إلى الإيمان، لأنه حريص على إيمانهم.

فلما اشتد الأذى بمن كان مؤمنًا مع رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة، وكان من غير إنكار، وإحسانه من غير إنكار ولا قتال، كالأنصار الأوس والخزرج.

وذلك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الهجرة لما كان يعرض نفسه في الموسم على قبائل العرب، لقي في منى عند العقبة الأولى -أَيْ: عقبة الجمرة- رهطًا من الخزرج، أراد اللَّه بهم خيرًا، فقال لهم: من أنتم، فقالوا: نفر من الخزرج، قال: أفلا تجلسون أكلمكم، قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى اللَّه، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله تعالى أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم خصومة ومحاربة قالوا: إن نبيًا سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلَّمهم النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفوا النعت الذي كانوا سمعوه من اليهود، فقال بعضهم لبعض: بادورا لاتباعه لا تسبقنا اليهود إليه. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وصدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، فأسلم منهم ستة نفر وكلهم من الخزرج وهم: أبو أمامة، أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب.

فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي، فقالوا: يا رسول الله، إنما كانت بعاث عام أول، يوم من أيامنا، اقتتلنا به، فإن تقدم ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا، لعل الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك موسم العام المقبل. وأمرهم بالكتمان عن أهل مكة.

وانصرفوا إلى المدينة، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما كان العام المقبل لقيه اثنى عشر رجلًا، وفي كتاب "الإكليل"

للحاكم: أحد عشر، وهي العقبة الثانية، فأسلموا فيهم خمسة من الستة المذكورين، وهم: أبو أمامة، وعوف، ورافع، وقطبة، وعقبة، ولم يكن فيهم جابر. والسبعة تتمة الاثنى عشر هم: معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور، وذكوان بن عبد قيس الزرقي، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس رجلان: أبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن ساعدة.

فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء، أَيْ: وفق بيعتهن التي أنزلت عند فتح مكة وهي: ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان أَيْ: بكذب يبهت سامعه أَيْ: يدهشه لفظاعته كالرمي بالزنا والقبيحة والعار، نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، ونطيعه، والسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والكره، وأثره علينا بأن نرضى بفعله، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أَيْ: نعترف بالحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه المبايعة: فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشي من ذلك شيئًا كان أمره مفوضًا إلى الله، إن شاء عذبه بعدله، وإن شاء عفا عنه بفضله. ولم يفرض يومئذ القتال.

ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم، وكتبت الأوس والخزرج إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابعث إلينا من يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير،

وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلّمهم الإسلام ويفقّههم في الدين.

وعن ابن عباس: أذن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجمعة قبل الهجرة، فلم يستطع أن يجمع بمكة، ولا يبدي ذلك لهم، فكتب إلى مصعب بن عمير: أما بعد، فانظر اليوم الذي يجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا زال النهار عن شطره فتقرّبوا إلى الله بركعتين. فهو أول من جمع حتى قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجمع عند الزوال وأظهر ذلك.

فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار، وأسلم في جماعتهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وأسلم بإسلامهم جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد، الرجال والنساء، ولم يبق منهم أحد إلا أسلم، حاشا الأصيرم فإنه أسلم يوم أحد، واستشهد ولم يسجد لله سجدة، وأخبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه من أهل الجنة. ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا كلهم حنفاء مخلصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

ثم قدم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العقبة الثالثة في العام المقبل في ذي الحجة، أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلًا. وقال ابن سعد: يزيدون رجلا أو رجلين وامرأتان. وقال ابن إسحاق: ثلاث وسبعون وامرأتان. وقال الحاكم: خمسة وسبعون رجلاً.

فبايعهم على أنهم يمنعون مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وعلى حرب الأحمر والأسود، يعني العرب والعجم.

وكان أول من ضرب على يده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البراء بن معرور

وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر وعبادة بن الصامت. وثلاثة من الأوس: أسيد بن حضير، وسعيد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر. وقال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان بدل رفاعة.

وروى البيهقي عن الإمام مالك: حدثني شيخ من الأنصار: أن جبريل كان يشير له إلى من يجعله نقيبًا. وقال ابن إسحاق: حدثني عبد اللَّه بن أبي بكر بن حزم: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، قالوا: نعم.

وصحَّ عن جابر: مكث رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم في المواسم بمنى وغيرها، يقول: من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي وله الجنة؟، حتى بعث اللَّه له من يثرب. وذكر الحديث. وفيه: وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة.

وحضر العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه المبايعة فأكَّد عليهم لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

قال ابن إسحاق: ولما تمَّت بيعة هؤلاء لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة العقبة، وكانت سرًّا عن كفار قومهم وعن قريش، أمر رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان معه من المسلمين في مكة بالهجرة بعد الأذى والرؤيا والشكوى والإخبار بالوحي أنها المدينة.

ففي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأبي أسامة بن سهل: لما صدر السبعون من عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طابت نفسه، وقد جعل اللَّه تعالى

له منعة أهل حرب ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلنون من الخروج فضيّقوا على أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتعبوهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى.

فشكوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: قد أريت دار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها، فجعلوا يتجهّزون ويترافقون ويتواسون ويخفون ذلك ويخرجون أفواجًا وفرقًا متقطعة وفرادى.

وأقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة ينتظر الإذن له في الخروج، وكان الصِّدِّيق كثيرًا ما يستأذن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة فيقول له: لا تعجل لعل اللَّه يجعل لك صاحبًا، فيطمع أبو بكر أن يكون هو.

وعند البخاري: على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك؟، بأبي أنت وأمي، قال: نعم، فحبس أبو بكر نفسه على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصحبه، وعلف راحلتين أَيْ: ناقتين، كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر.

قال ابن إسحاق: لما رأوا هجرة الصحابة وعرفوا أنه صار له أصحاب من غيرهم، فحذروا لخروجه وعرفوا أنه أجمع لحربهم، فاجتمعوا ومعهم إبليس في صورة شيخ نجدي، وذلك أنه وقف على باب الدار في هيئة شيخ جليل عليه بت من خز، فقالوا: من الشيخ؟، قال: من نجد، سمع بالذي أقعدتم له فحضر ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم رأيًا ونصحًا، قالوا: ادخل، فدخل في دار الندوة دار قصي بن كلاب، سميت به

لاجتماع الندى فيها يتشاورون، ثم صارت كلها بالمسجد الحرام في جانبه الشمالي.

وكان قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها، وكان اجتماعهم يوم سبت، ولذا ورد يوم السبت يوم مكر وخديعة، يتشاورون فيما يصنعون في أمره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكانوا مائة رجل. فقال أبو البختري ابن هشام المقتول كافرا ببدر: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله، فقال النجدي: ما هذا برأي، والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا تفعلوا، وأوشكوا وشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم تكاثروكم به حتى يغلبوا على أمركم، فانظروا في غيره.

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامري: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فلا نبالي أين ذهب، فقال النجدي: والله ما هذا برأي، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأيًا غير هذا.

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه، أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا جلدا نسيبًا وسيطًا، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمد إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه ويتفرّق دمه في القبائل، فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا

فنعقله لهم، فقال النجدي: القول ما قال، لا أرى غيره. فأجمع رأيهم على قتله وتفرّقوا على ذلك.

ثم أتى جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه، فأمر عليه السلام عليًّا فنام مكانه، وغطى ببرد أخضر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أول من شرى نفسه في اللَّه ووفى بها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال وفي ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول إله خاف أن يمكروا به فنجَّاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول اللَّه في الغار آمنًا موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يتهمونني وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر

ثم خرج رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أخذ اللَّه على أبصارهم، فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم ترابًا كان في يده، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يس﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. ثم انصرف حيث شاء.

فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ههنا؟، قالوا: محمدًا، قال: قد خيَّبكم اللَّه، قد واللَّه خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه ترابًا وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟، فوضع كل رجل يده على رأسه، فإذا عليه تراب.

ثم جعلوا يطلعون فيرون عليًّا على الفراش متسجيًّا برد رسول اللَّه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولون: واللَّه إن هذا لمحمد نائم عليه برده، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا. فقام علي عن الفراش، فقالوا: لقد صدقنا الذي كان حدَّثنا.

وفي هذا نزل بعد ذلك بالمدينة، يذكره اللَّه نعمته عليه، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية. قال البرهان: وحكمة وضع التراب دون غيره الإشارة لهم بأنهم الأرذلون الأصغرون الذين أرغموا وألصقوا بالرغام وهو التراب، أو أنه سيلصقهم بالتراب بعد هذا.

(و) بعد ذلك (أمره) أَيْ: اللَّه عَزَّ وجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ليتم) ليكمل (له) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعمه بإظهار شرفه (بالهجرة) بالكسر هي: ترك الوطن من الهجر -بكسر الهاء وفتحها وقد تضم- ذكره الشهاب، أَيْ: انتقاله وخروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى المدينة المنورة.

وقوله (النبوية) نعت للهجرة أَيْ: المنسوبة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ: دار الهجرة المدينة المنورة.

وحقيقة الهجرة الخروج من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وكان ذلك بعد العقبة الثالثة بنحو ثلاثة أشهر يوم الاثنين هلال ربيع الأول، أو الخميس الذي يليه.

ووصل المدينة يوم الاثنين ثاني عشر الشهر، وجمع بأن خروجه من مكة يوم الخميس، ومن الغار يوم الاثنين، لأنه أقام فيه ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الاثنين. وكانت مدة مقامه بمكة من حين النبوة

إلى ذلك الوقت ثلاث عشر سنة.

وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. روى الحاكم عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لجبريل: مَنْ يهاجر معي؟، قال: أبو بكر الصديق.

وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًا بمخرجه، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

قال ابن شهاب الزهري فيما رواه عنه البخاري قال عروة بن الزبير قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فبينما نحن جلوس يومًا في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متقنعًا -أَيْ: مغطيًا رأسه-- في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، واللَّه ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذن فأذن له فدخل، وتنحى أبو بكر عن سريره وجلس عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي -يعني عائشة وأسماء- بأبي أنت وأمي. قال السهيلي: وذلك إن عائشة قد كان أبوها أنكحها منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأسماء صارت بمنزلة أهله لنكاحه أختها، فلا يخشى عليه منهما.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإني قد أذن لي في الخروج من مكة إلى المدينة. فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم. فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا أخذها مجانًا بل بالثمن. أَيْ: لتمحض هجرته لله ولا يكون لأحد فيها منها. فأخذها منه بأربعمائة درهم، كما اشتراها أبو بكر. وقيل: أنها أبره منها فيما بعد، وهي التي تسمى القصواء، وكانت من نعم بني قشير، وبقيت هذه الناقة عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدة حياته، حتى ماتت في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت مرسلة ترعى بالبقيع، وذكر ابن إسحاق: إنها الجدعاء وكانت من إبل بني الحريش -بفتخ الحاء وكسر الراء-.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة -أَيْ: زاد- فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فم الجراب، فبذلك سميت بذات النطاقين.

(فخرج) أَيْ: أسرع (هو) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (و) أبو بكر (الصِّدِّيق) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يعلم بخروجهما إلا علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وآل أبي بكر. ورُوِي: أنهما خرجا من خوخةٍ لأبي بكر في ظهر بيته ليلاً.

(و) مضيا يمشيان حتى (تخبيا) بفتح المثناة الفوقية والخاء المعجمة وشد الباء الموحدة أَيْ: استترا (في غار) بالغين المعجمة. قال في "الأنوار": الغار نقب في أعلى جبل ثور، في يمين مكة على مسيرة ساعة. وقيل: أنه من مكة على ثلاثة أميال، وارتفاعه نحو ميل.

(ثور) بفتح المثلثة: جبل بمكة فيه الغار المذكور، ويقال: ثور أطحل،

واسم الجبل أطحل، نزله ثور بن عبد مناف فنُسِب له، وفيه من كل نبات الحجاز وشجره، وفيه شجر البان.

وكان خروجهما من بيت أبي بكر ليلة الجمعة، فوصلا إلى غار ثور ليلاً، فأقاما فيه بقية ليلهما وليلة السبت وليلة الأحد، وخرجا منه ليلة الاثنين. ودخلا المدينة يوم الاثنين، فكانت مدة سفرهما ثمانية أيام.

رُوِي: أن أبا بكر ليلة انطلق معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الغار كان يمشي بين يديه ساعة ومن خلفه ساعة، فسأله فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كان شيء أحببت أن تقتل دوني، قال: أي والذي بعثك بالحق، فلما انتهيا إلى الغار، قال: مكانك يا رسول اللَّه حتى استبرئ لك الغار، فاستبرأه. ثم قال: أنزل يا رسول الله، فنزل، وقال: إن أُقتل فأنا رجل واحد من المسلمين، وإن قتلت هلكت الأمة.

ورُوي: أنه نظر إلى قدميه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار يقطران دمًا، لأنه لم يتعود الحفا، فبكى. ورُوي: أنه رأى في الغار أحجارًا متعددة فصار يقطع ثوبه ويسد به الأحجار، فبقي حجر لم يبق له شيء من الثوب، فجلس قريبًا منه، ووضع عقبه عليه وسده به. ثم قال لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادخل، فدخل ووضع رأسه في حجره ونام، فجعلت الحيات والأفاعي تضربه وتلسعه في رجله، فصار يتجلَّد ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فصارت دموعه تنحدر، فسقطت دموعه على وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فتنبّه فقال: ما لك؟، قال: لُدغت،

فتفل عليه فذهب ما يجده.

فلما أصبح سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ثوبه، فأخبره الخبر، فتوجّه ودعا له، وقال: اللَّهُمَّ اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة، فنُودي: أنه قد اُستجيب لك.

وقد جُوزي أبو بكر بأن جُعِلت البركة في عقبه -أَيْ: نسله- إلى يوم القيامة، وأن ذريته يموتون بتحرك السم في أعقابهم لينالوا مرتبة الشهادة كما مات جدهم أبو بكر بتحرك السم عليه شهيدًا.

وكان يبيت عندهما عبد اللَّه بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف -أَيْ: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، لقن- أَيْ: سريع الفهم-، فيدلج من عندهما بسحر إلى مكة، فيصبح مع قريش كبائت معهم، فلا يسمع بأمر يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل، وهو لبن منحتهما، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. وفي روايةٍ: كانت أسماء تأتيهما من مكة إذا أمست بما يصلحهما من الطعام.

(و) كان (طلب الكفار) أَيْ: كفار قريش (لهما) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر (يُقتلان) بضم التحتية مبنيًا للمجهول أَيْ: قتلهما بحسب ظنهم العاطل واعتقادهم الباطل جاهلين بحفظ اللَّه لهما وصيانتهما منهم.

(فأتوا) بفتح المثناة الفوقية وسكون الواو أَيْ: الكفار (إلى الغار) المذكور، وقد أنبت اللَّه بابه الراءة وهي أم غيلان، قيل: أنها مثل قامة

الإنسان لها خيطان وزهر أبيض يحشى به الوسائد فيكون كالريش لخفته ولينه، فحجبت الكفار عن الغار.

(وقد أمر اللّه الحمام) أَيْ: ذكر أو أنثى، فوقفتا على وجه الغار وعششتا عليه. (و) أمر (العنبكوت) يطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى. وقيل: جمعه عناكب. (تنسج) بفتح التاء وكسر السين وضمها، والنسج في الأصل: الحياكة، استعمل في فعل العنكبوت مجازًا لما بينهما من المشابهة،

وفي "حياة الحيوان": العنكبوت دويبة تنسج في الهواء، ومنه نوع من حكمته أنه يمد السدى ثم يعمل اللحمة ويبتدئ من الوسط ونسجها ليس من جوفها، وهي قصيرة الأرجل كثيرة الأعين، لها ثمانية أرجل وست عيون، إذا أرادت صيد الذباب لطبت بالأرض وجمعت نفسها ثم وثبت عليه، وهي أقنع الأشياء، فجعل رزقها أحرص الأشياء، والذي تنسجه ليس من جوفها بل من خارج جلدها، وفمها مشقوق بالطول، وهذا النوع ينسج بيته دائمًا مثلث الشكل، وسعته بحيث يغيب فيه شخصها اه.

وعن علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: طهِّرُوا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر. وتركه في الإصطبل يضعف الدواب، وأصله امرأة ساحرة مسخها اللَّه تعالى.

ويستحب قتله. رُوِي عن ابن عمر رفعه: العنبكوت شيطان مسخه اللَّه فاقتلوه. ومع ذلك نسجه طاهر وهو من جملة الأشياء الممسوخة. قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: العنبكوت شيطان كان امرأة سحرت

زوجها. كما في حديث الديلمي. فلأجل ذلك مسخه الله تعالى حيوانًا على هذا الشكل.

قال العلقمي: وأخرج الزبير بن بكار في "الموقفيات" والديلمي في "مسند الفردوس" عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُئِلَ عَنِ الْممسوخِ؟، فَقَالَ: ثَلاثَةَ عَشَرَ: الْفِيلُ وَالدُّبُّ وَالْخِنْزِيرُ وَالْقِرْدُ وَالْجُرَيْثُ وَالضَّبُّ وَالْوَطْوَاطُ وَالْعَقْرَبُ وَالدَّعْمُوصُ وَالْعَنْكَبُوتُ والأرنب وسهيل والزهرة. فقيل: يا رسول اللَّه ما سبب مسخهنّ؟، قال: أما الفيل فكان رجلًا جبّارًا لوطيًا لا يدع رطبًا ولا يابسًا، وأما الدب فكان مؤنثًا يدعو الرجال إلى نفسه، وأما الخنزير فكان من النصارى الذين سألوا المائدة فلما نزلت كفروا، وأما القرد فيهود اعتدوا في السبت، وأما الجريث فكان ديوثًا يدعو الرجال إلى حليلته، وأما الضب فكان أعرابيًا يسرق الحاج بمحجنه، وأما الوطواط فكان رجلًا يسرق الثمار من رؤوس النخل، وأما العقرب فكان لا يسلم أحد من لسانه، وأما الدعموص فكان نمَّامًا يفرّق بين الأحبة، وأما العنكبوت فامرأة سحرت زوجها، وأما الأرنب فكانت امرأة لا تطهر من الحيض، وأما سهيل فكان عشَّارًا باليمن، وأما الزهرة فكانت بنتًا لبعض ملوك من بني إسرائيل افتتن بها هاروت وماروت.

وقال محمد بن يوسف الشيرازي المعروف بالحكيم ناظمًا ذلك، مع زيادات أُخر:

يا سائلي عن نبإ الممسوخ ... من قول ذي البيان والرسوخ

أُنبيك عن أحوالها فاستمع ومنتهى أعدادها تنتفع
قد مسخ الله من ابن آدما عشرين صنفًا ركبوا المآثما
الكلب والعقرب والخنزير والدب والقنذف والزنبور
والفيل والسهيل والقمري والليث والخفافش البري
والزهرة الزهراء ثم العقعق والعنكبوت الفاخت المطوّق
والقرد والضب مع ابن عرس وفارة مع ابن آوى النحس
رماهم الحرمان بالخذلان لما جروا في طاعة الشيطان
فالفيل كان عاصيًا لربه بأكله الرباء ثم حبه
ثم سهيل كان عشَّار اليمن تراه في أفق السماء كالوثن
والليث كان واعظًا شريرا والقرد قوم خالفوا الزبورا
ومؤذي الجار ترى الزنبورا ثم ابن عرس نبش القبورا
إن ابن آوى قد عدا في النفخ وكان قصابًا رمي بالمسخ
وفي الخفافيش أخي فاعتبر كن نساء لم توار في النظر
والضب كان يقتل الحجاجا والدب كان يفسد الفجاجا
والعنكبوت عصت الأزواجا وخالفت سادتها لجاجا
وفي الخنازير اعتبر فإنها خالفت المسيح ما كان نهى
وكانت الفأرة قدمًا نايحة تفسد بالنوح القلوب الصالحة
يا أيها الانسان لا تحتكر وانظر إلى القمري كيف تبصر
والكلب كان مفسدًا للبين والفاخت الخائن أي للدين
وكان فيمن قد حكى حناطا ولم يكن في دينه محتاطا

وعقق في دينه كابن الأشر ويدخل الحمام من غير أزر
والعقرب النمامة الخبيثة والقنفذ الدلالة الحثيثة
والزهرة الزهراء بالجمال والحسن وهي فتنة الرجال
فخادعت في دينه هاروتا واستمردت في هديه ماروتا

انتهى "عزيزي على الجامع الصغير".

وفيه: العنكبوت شيطانٌ فاقتلوه أَيْ: ندبًا. رواه ابن عدي عن ابن عمر.

وكما نسج على المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسج على عبد الله بن أنيس لما أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقتل كافر، فقتله ثم حمل رأسه ودخل في غار، فنسجت عليه العنكبوت، فجاء الطالب فلم يجدوا شيئًا فانصرفوا راجعين، ثم سار بالرأس فلما رآه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أفلح الوجه، قال: وجهك يا رسول اللَّه، ووضع الرأس بين يديه وأخبره الخبر، فدفع إليه عصا كانت بيده، وقال: تحضر بهذه في الجنة، فلما حضره الموت أوصى أهله أن يجعلوها في كفنه، ففعلوا.

ونسج أيضًا على زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما صلبوه مجردًا من ثيابه. ونسج أيضًا على داود عليه السلام لما طلبه جالوت. قاله القرطبي اه جمل على الهمزية.

وقوله (على فم) متعلق بتنسج أَيْ: مدخل (تلك المغارة المحصونية) أَيْ: المنسوبة للحصن أَيْ: الحفظ والمتانة. رُوِيَ: أنه لما نبتت الشجرة على وجه الغار انتشرت أغصانها، ونسج العنكبوت عليه فصار نسجها بين أغصانها وفتحة الغار.

قال في "المواهب": ولما فقدت قريش النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلبوه بمكة، أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافلة أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قبل ثور أثره هنالك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور، فقعد وبال في أصل الشجرة، ثم قال: ههنا انقطع الأثر، ولا أدري أخذ يمينًا أم شمالاً أم صعد الجبل.

وفي روايةٍ: فقال لهم القائف: هذا القدم قدم ابن أبي قحافة، وهذا الآخر لا أعرفه إلا أنه يشبه القدم الذي في المقام -يعني مقام إبراهيم- فقالت قريش: ما وراء هذا شيء. وشقَّ على قريش خروجه وجزعوا لذلك، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده.

ولما دخل الغار وأبو بكر معه، أنبت اللَّه على بابه الراءة، وهي شجرة أم غيلان فحجبت عن الغار أعين الكفار، وأمر اللَّه العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وكان ذلك مما صدَّ المشركون عنه. وحمام الحرم من نسل تينك الحمامتين.

ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار، فرأى حمامتين وحشيتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه فقالوا له: ما لك؟، فقال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد. وقال آخر: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار، إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد. ثم حبا فبال.

فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه إن هذا الرجل ليرانا، وكان مواجهه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كلا إن ثلاثة من الملائكة تسترنا بأجنحتها، ولو كان

يرانا ما فعل هذا.

وقد رُوِي: أن الحمامتين باضتا في أصل النقب ونسج العنكبوت، فقالوا: لو دخلا لتكسر البيض وتفسخ العنكبوت. وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة الجنود.

فتأمل كيف أظلَّت الشجرة المطلوب وأضلَّت الطالب، وجاءت العنكبوت فسدَّت باب الطلب، وحاكت وجه المكان أَيْ: نزلت فيه، وثبتت فحاكت ثوب نسجها أَيْ: أوجدت الثوب الذي نسجته، وهو في فم الغار من نسجها، فحاكت أَيْ: أثرت سترًا بما نسجته، حتى عمي على القائف الطلب. ولله در القائل:

والعنكبوت أجادت حوك حلتها   فما تخال خلال النسج من خلل

ولقد حصل للعنكبوت الشرف بذلك، وما أحسن قول ابن النقيب:

ودود القز إن نسجت حريرا   يجمل لبسه في كل شيء
فإن العنكبوت أجل منها   بما نسجت على رأس النبي

ورُوِي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: اللَّهُمَّ أعم أبصارهم، فعميت عن دخوله، وجعلوا يضربون يمينًا وشمالاً حول الغار. وهذا يشير إليه قول صاحب "البردة":

أقسمت بالقمر المنشق إن له   من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم   وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصِّدِّيق لم يرما   وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على   خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقايــة اللَّه أغنــت عــن مضــاعفة   من الـدروع وعن عال من الأطم

أَيْ: عموا عما في الغار مع خلق اللَّه ذلك فيهم، والمراد إن اللَّه خلق في أعينهم هيئة منعتهم الرؤية مع سلامة أبصارهم، لأنهم ظنوا أن الحمام لا يحوم حوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن عادة الحمام النفرة من الآدمي، وأن العنكبوت لا تنسج عليه لما جرت به العادة أن هذين الحيوانين، أعني الحمام والعنكبوت متوحشان لا يألفان معمورًا، فهما أحسا بالإنسان فرًّا منه.

وما علم الكفار أن اللَّه تعالى سخَّر ما شاء من خلقه لمن شاء من عباده، وأن وقاية اللَّه عبده بما شاء تغني عبده عن التحصن بمضاعفة من الـدروع وعـن التحصـن بالعـالي مـن الأطـم وهـي الحصـون، فللَّـه در الأبوصيري شاعرًا، وما أحسن قوله أَيْ: البوصيري في قصيدته "اللامية" التي أولها: إلى متى أنت باللذات مشغول إلخ، حيث قال:

واغيرتا حين أضحى الغار وهو به   كمثـل قلبـي معمـور ومـأهول

كأنمـا المصـطفى فيـه وصـاحبه ال   صِّـدِّيق ليثـان قـد آواهمـا غيـل

وجلل الغار نسج العنكبوت على   وهـن فيـا حبـذا نسـج وتجليـل

عنايـة ضـل كيـد المشـركين بهـا   ومـا مكائـدهم إلا الأضـاليل

إذ ينظـرون وهـم لا يبصـرونهما   فـإن أبصـارهم مـن زيغهـا حـول

(فقال أبو بكر) لما رأى القافة، واشتد حزنه على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن قُتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلت أنت يا رسول اللَّه هلكت الأمة. مشيرًا للكفار (هؤلاء) أَيْ: الكفار (هم) أَيْ:

واقفون على الغار قريبون منه، ولو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا، من شدة قربه.

(فقال مَن) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي (ملأ اللَّه قلبه بالسكينة) وهي سكون القلب مع اللَّه دائمًا، (والاطمئنان) هو النشاط عند المهمات، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متصفًا بكل منهما.

(يا أبا بكر) ليطمنه ويسكن قلبه: (ما بالك) أَيْ: شأنك أَيْ حال يخطر بقلبك. وفي رواية أنس: قال أبو بكر: فرفعت رأسي فرأيت أقدام القوم، فقلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ظنك، استفهام تعظيم، أَيْ: أي ظن تظن، فهو استفهام إنكار ونفي، أَيْ: لا تظن إلا أعظم الظن.

(باثنين) أَيْ: أنا وأنت و(اللَّه ثالثهما) أَيْ: بحفظه لهما ورعايته، أَيْ: جاعلهما ثلاثة بضم ذاته تعالى إليهما أَيْ: بالستر عليهما من أعين الكفار وإنقاذهما من أعدائهما، بعنايته في المعية المعنوية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهو من قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أَيْ: النبي وأبو بكر، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ومن لازم ذلك الظن أنه لا يصل إليهما سوء.

(فأنزل اللَّه) تعالى (عليهما) أَيْ: على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر (سكينته) أَيْ: طمأنينته وسكون قلبهما وحضوره مع اللَّه ورفض ما سواه. (النصرية) بفتح النون أَيْ: المنسوبة للنصر.

قال في "المواهب": أن أبا بكر لما رأى القافة أتوا على ثور وطلعوا

فوقه، اشتد حزنه وبكى، وأقبل عليه الهم والحزن والخوف على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، لا تهلك الأمة بقتلي، فلا يفوتهم نفع ولا يلحقهم ضرر، وإن قتلت أنت هلكت الأمة.

فعندها قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

وروى عن الحسن البصري: جاءت قريش يطلبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قائم يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال: هؤلاء قومك يطلبونك، أما واللَّه ما على نفسي أبكي، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره. وبعد فراغه من الصلاة قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يعني بالمعونة والنصر، فالمراد المعنوية لاستحالة الحسية في حقه تعالى لا بالعلم فقط، إذ لا يختص بهما وهو معكم أينما كنتم.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهي أَيْ: السكينة أَمَنة بفتحتين، أَيْ: حالة للنفس تسكن عندها القلوب لأمنها مما تكرهه. عليه أَيْ: على أبي بكر فالضمير في الآية عائد على صاحبه في قول الأكثر. قال البيضاوي: وهو الأظهر لأنه كان منزعجًا لا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه لم تزل السكينة معه. قاله ابن عباس.

ثم قال: وأيّده يعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجنود لم تروها، يعني أمته أو الملائكة، يصرفون أبصار ووجوه الكفار عنه وعن رؤيته.

والمشهور أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في الغار ثلاث ليال.

وانظر لما رأى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزن الصِّدِّيق قد اشتد

لكن لا على نفسه، قوّى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلبه ببشارة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، كان اتحاف المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ مدخرة له دون الجميع، فهو الثاني من الرجال في الإسلام، والثاني في بذل النفس والعمر وسبب الموت لما وقى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماله ونفسه، جوزي بمواراته معه في رمسه ودفنه معه، وقام مؤذن التشريف ينادي على منابر الأمصار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾. ولقد أحسن حسَّان رضي اللَّه تعالى عنه حيث قال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول اللَّه قد علموا ... من الخلائق لم يعدل به بدلا

ومما نُسب لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ يجْزَعْ يُوَقِّرُنِي ... وَنَحْنُ فِي سُدْنَةٍ فِي ظُلْمَةِ الْغَارِ
لَا تَخْشَ شَيْئًا فَإِنَّ اللَّهَ ثَالِثُنَا ... وَقَدْ تَكَفَّلَ لِي مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تَخْشَى بَوَادِرَهُ ... كَيْدُ الشَّيَاطِينِ قَدْ كَادَتْ لِكُفَّارِ
وَاللَّهُ مُهْلِكُهُمْ طُرًّا بِمَا صَنَعُوا ... وَجَاعِلُ الْمُنْتَهَى مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ

وتأمل قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، وقول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصِّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿إن اللَّه معنا﴾، فموسى عليه السلام خُصّ من ربه بشهود المعية له وحده، ولم يتعد ذلك الشهود إلى أتباعه، ونبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعدَّى منه شهوده إلى الصِّدِّيق، ولهذا لم يقل: معي، لأنه أمد أبا بكر بنوره فشهد سر المعية، ومن ثم سرى سر السكينة على أبي بكر، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا

التجلي والشهود. وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام حيث قال: إن معي ربي، والرب من التربية وهي التنمية والإصلاح، من معية الإلهية في قصة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث عبَّر بالاسم الجامع لصفات الكمال. قاله العارف شمس الدين بن اللبَّان.

واستأجر رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر قبل خروجهما من مكة عبد اللَّه بن أريقط، دليلاً وهو على دين كفار قريش، ولم يعرف له إسلام، فدفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.

فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث. وفي روايةٍ: حتى إذا هدأت عنهما الأصوات جاء صاحبهما ببعيريهما، وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه ليس معهما غيره.

فخرجا من الغار في أثناء ليلة الاثنين، وركب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقته الجدعاء -بالدال المهملة- التي اشتراها من أبي بكر.

(ومضوا) -بفتح الضاد المعجمة- أَيْ: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر والدليل وعامر بن فهيرة، أَيْ: ساروا متوجهين (إلى) جهة (المدينة) المُنوَّرة المسماة طيبة.

ولما ساروا أخذ بهم الدليل طريق السواحل، فأجازهما أسفل مكة، ثم مضى بهما حتى جاء بهما أسفل الساحل أسفل من عسفان، ثم أجازهما حتى عارض الطريق.

فصار يسيرهم منزلة منزلة، وقد مروا بصخرة، فنام المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظلها، ورأى أبو بكر راعيًا معه غنم فاستحلبه فحلب له

منها، فبرده أبو بكر حتى قام المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسقاه.

ثـم ارتحلـوا فمـروا بقديـد علـي أم معبـد عاتكـة بنـت خالـد الخزاعيـة، وكانـت برزة جلدة، تجلس بفناء القبة أَيْ: الخيمة، ثـم تسقي وتطعم من يمر بها، وكانت في سنة قحط، فطلبوا منها لبنًا ولحمًا يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئًا، فنظر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى شاة في كسر الخيمة، خلفها الجهد أَيْ: الهزال عن الغنم.

فسألها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل بها لبن؟، فقال: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟، فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها ومسح ضرعها، وسمى اللَّه، فتفاجت ودرّت، ودعا بإناء يربض الرهط أَيْ: يشبع الجماعة حتى يربضوا، فحلب فيه ثجًا أَيْ: حلبًا قويًا، وسقى القوم حتى رووا، ثـم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى، فشربوا علاً بعد نهل أَيْ: شربًا ثانيًا بعد الأول، ثم حلب فيه آخر وغادره أَيْ: تركه وأبقاه عندها وذهبوا.

فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزًا عجافًا، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل. فلما رأى اللبن عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟، أنّى لك هذا والشاة عازب حيال، ولا حلوب بالبيت؟. والحيال بكسر الحاء: التي ليس فيها حمل إلخ.

وقد أشار الأُستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بعض معجزاته في "البرَّاق"، التي من جملتها قصة أم معبد، فقال في حرف الهاء:

شَـفَى المُصْـطَفَى بِاليَـدِّ مِنْـهُ وَلَمْسِـهَا لِأَمْـرَاضِ أَقْـوَامٍ لَقَـدْ أَعْيَـى طِبُّهَـا

أَطْبَاءَنَــــا للهِ يُمْـــنٌ بِيُمْنِهَـــا   أَزَالَــتْ لِرَمْــدٍ رَدَّتِ العَــيْنَ إِنَّهَــا

يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ رَعَى اللَّهُ يُسْرَاهَا

لَقَـدْ أَثْمَـرَ النَّخْـلُ المُفَـدِّي لِسَـلْمَانٍ   بِغَـرْسٍ لَهَـا وَالشَّـاةُ دَرَّتْ بِأَلْبَـانٍ

وَكَانَــتْ عِجَافًــا لِأُمِّ مَعْبَــد يُبْسَــانٍ   أَحَالَـتْ نِفَاقًا فِـي الصُّـدُورِ بِإِيمَـانٍ

بِضَرْبٍ لَهَا وَالرَّمْلُ سَبَّحَ حَصْبَاهَا

وَكَــمْ مُعْجِـزَاتٍ فِــي الأَنَــامِ لِسَـيِّدِي   كَإِخْبَـارِهِ عَـنْ مَـوْتِ جَعْفَـرِ مُسْـعَدِ

وَابْــنِ رَوَاحَــةَ مَــعْ أَخِيــهِ بِمَشْــهَدِ   وَمَـوْتِ النَّجَاشِـي ثُـمَّ كِسْـرَى مُبَعَّـدِ

وَأَخْذِ اللِّوَاءِ السَّيْفُ خَالِدُ فَخْرَاهَا

أَتَتْــهُ مِــنَ الأَمْــلَاكِ فِــي يَــوْمِ بَــدْرِنَا   لِتَنْصُــرَ حِــزْبَ اللهِ تُعْلِــي لِحِبِّنَــا

كَتَائِــبُ فِــيهِنَّ الأَمِــينُ وَقَــدْ دَنَــا   إِلَــى عَرْشِــهِ يَــدْعُو إِلَهِــي رَبَّنَــا

لَئِنْ تُخْذِلِ البَيْضَا فَلَا نَصْرَ يَلْقَاهَا

أَجَــابَ دُعَــاهُ بِــأَنَّ دَعْوَتْــهُ قَبْــلَ ذَا   بِقُـرْبِ فِنَـاءِ البَيْـتِ فِـي كُـلِّ مُنْبَـذَا

أَبَــــادَهُمْ قَــــتْلاً وَسَــــبْيًا مُنَفِّــــذَا   وَأَمْـرُ صَـحِيفَتِهِمْ وَأَكْـلاً لَهَـا خُـذَا

عَلَيْهِ صَلَاةُ الذَّاتِ مِنْ سِرِّ أَسْمَاهَا

ثم قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَئِنْ تُخْذَلِ البَيْضَا في دعائه يوم بدر. اللام في قوله لئن للقسم والهمزة مفتوحة. وتخذل أَيْ: تكسر. والبيضاء: هي جماعة الإسلام.

ثم قالت أم معبد لزوجها بعد أن سألها عن منّ بها: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. فقال: صفيه يا أم معبد. فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة، مليح الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به

صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذ أمر تبادروا لأمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتبعته.

وفي "الوفا": فهاجرت هي وزوجها وأسلما. وفي "خلاصة الوفا": فخرج أبو معبد في أثرهم ليسلم عليهم، فيقال: أدركهم بطن ريم فبايعه وانصرف. وفي "شرح السُّنَّة" للبغوي: هاجرت هي وزوجها وأسلم أخوها حبيش واستشهد يوم الفتح، وكان أهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المُبارك.

قال الحافظ أبو الفتح بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما خفي علينا أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم، فقال: أين أبوك؟، فقلت: والله لا أدري، فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدي لطمة خرج منها قرطي، ثم انصرفوا.

ولما لم ندر أين توجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أتى رجل بعد

ثلاث ليال من أسفل مكة، يسمعون صوته ولا يرونه، وهو ينشد هذه الأبيات:

جزى الله رب الناس خير جزائه   رفيقين حلَّا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا   فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيما لقصي ما زوى الله عنكم   به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم   ومقعدهما للمؤمنين بمرصد
سلو أختكم عن شاتها وإنائها   فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت   له بصريح ضرة الشاة مزبد

وقوله مُزْبِد: بضم الميم وإسكان الزاي وكسر الموحدة فدال مهملة: أَيْ: علاه الزبد. فغادرها: تركها. رَهْنًا لديها لحالب يرددها الحالب في مصدر، ثم مورد.

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبقيت تلك الشاة عندهم يحلبونها ليلاً ونهارًا إلى أن ماتت في خلافة عمر. ذكره في "المواهب".

(فأدركهم) أَيْ: لحقهم أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر وعامر بن فهيرة والدليل. (في الطريق) أَيْ: بعد رواحهم من عند أم معبد، يريد منعهم وردّهم إلى قومهم.

وذكر ابن سعد: أن سراقة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد، ولا يخالفه قول مغلطاي: فلما راحوا من قديد، لأن معناه: لما ساروا وإن لم ينفصلوا عنه تعرَّض لهم (سُرَاقة) بضم السين المهملة وتخفيف الراء المفتوحة وقاف:

ابن مالك بن جُعْشُم المدلجي.

أسلم عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجعرانة منصرفة من حنين والطائف. وروى عنه ابن عباس وجابر وغيرهما، ومات سنة أربع وعشرين في أول خلافة عثمان.

وسبب تعرُّضه له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رواه البخاري عنه، قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إن قد رأيت آنفًا أسودة بالسواحل، أراها محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: أنهم ليسوا هم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي من وراء أكمة فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فحططت بزجة الأَرْض حَتَّى أتيت فرسي فركبتها ودفعتها تقرب بِي حَتَّى دَنَوْت مِنْهُم، فعثرت بِي فرسي فَخَرَرْت عَنْهَا فَقُمْت وأَهْوَيْت يَدي إِلَى كِنَانَتِي، فاستخرجت مِنْهَا الأزلام فاستقسمت بهَا أضرهم أم لَا، فَخرج الَّذِي أكره، فعصيت الأزلام وركبت فرسي، تقرب بِي حَتَّى إِذا سَمِعت قِرَاءَة رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ لَا يلْتَفت، وَأَبُو بكر يكثر الِالْتِفَات، ساخت يدا فرسي فِي الأَرْض حَتَّى بلغتا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْت عَنْهَا ثمَّ زجرتها فَنَهَضت فَلم تكن تخرج يَديهَا فَلَمَّا اسْتَوَت قَائِمَة إِذا غُبَار سَاطِع فِي السَّمَاء مثل الدُّخان، فاستقسمت بالأزلام

فَخرج الَّذِي أكره، فناديتهم بالأمان.

وفي رواية ابن عقبة: وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة. وفي رواية عن أبي بكر: تبعنا سراقة ونحن في جلد من الأرض، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا وبكيت، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما يبكيك؟، قلت: أما واللَّه ما على نفسي أبكي ولكن عليك أتينا يا رسول اللَّه، قال: كلا، ودعا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوات. فقال: اللهم اكفناه بما شئت.

(فساخت) بسين مهملة أو صاد كذلك أَيْ: غاصت في الأرض ودخلت فيها حتى كادت تبتلعها وتنخسف من تحتها. (قوائم) أَيْ: يدا أو رجلا (فرسه) فخرَّ عنها، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره فلم ينته، ثم ركب فرسه ثانيًا، ودنا حتى إذا سمع قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وهو لا يلتفت، وكان أبو بكر يلتفت، فقال أبو بكر: أتينا، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: لا تحزن إن اللَّه معنا، فساخت قوائم فرسه ثانية حتى بلغت الركبتين فنزل عنها وزجرها، فقامت ولقوائمها مثل الدخان، فركبها فساخت مرة ثالثة.

(فنادى) أَيْ: سراقةُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما وصل إليه، وقال (الأمان) أَيْ: رفع صوته به قائلاً: الأمان الأمان يا محمد. والمُراد تأمينه منه، وأنه لا يلحقه منه ضرر وخوف بإخباره الأعداء، وطلب من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعطيه أمانًا فلا يلحقه ضرر لخوفه منه، ومن دعائه عليه.

وإلى هذا أشار المُصنِّف بقوله: (فحلَّهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيْ:

فكَّهُ من ورطته التي هو فيها، وهي غوص قوائم فرسه المنزل منزلة الوثاق، يقال: فك الأسير من وثاقه أَيْ: حل من قيده الذي منعه من اللحوق بالنبي أَيْ: بدعائه له أو صفح عنه، أَيْ: جعله في حِل.

وأما لما طلب الأمان قال: أعلم أنكما قد دعوتما علَيَّ، فادعوا لي ولكما أن أردّ الناس عنكما ولا أضركما. فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّه عزَّ وجلَّ أن ينجيه، فخصلت فرسه ثم قال: قفا لي، فوقفا له، فركب حتى أتاهما، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبرتهما أخبار ما يريد بهما الناس، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا مني شيئًا. وهذه كنانتي خذا منها سهمًا، فإنكما ستمران على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال: لا حاجة لنا في إبلك، ودعا له. وقال: أخف عنا الخبر، أَيْ: لا تخبر قريشًا بنا.

فسألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا آمن به منه، إذا ظفر بي مرة آخرى، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم. وفي روايةٍ: فقلتُ: يا نبي اللَّه مرني بما شئت، قال: تقف مكانك لا تترك أحد يلحق بنا، فكان أول النهار جاهدًا على نبي اللَّه، وكان آخر النهار مسلحة له أَيْ: حارسًا له. وأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يترك أحدًا من قريش يلحق بهم.

(فرجع) سراقة (ورَدَّ الكفار عنه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يقول: ارجعوا كفيتم الطلب، فإني لم أجدهم. وذكر ابن سعد: أن سراقة لما رجع قال لقريش: قد عرفتم نظري بالطريق وبالأثر، وقد استبرأ لكم، لم أر شيئًا،

فرجعوا. قال سراقة: وأخذت الكتاب فجعلته في كنانتي.

ثم لما فرغ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين لقيته ومعي الكتاب بالجعرانة، فدنوت منه ورفعت يدي به، وقلت: يا رسول الله هذا كتابك، قال: يوم وفاء وبردان، فدنوت منه وأسلمت. فبلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومه فأتيته، فقلت: أحب أن توادع قومي، فان أسلموا، وإلا آمنت منهم، فأخذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيد خالد، فقال: اذهب معه، فافعل ما يريد، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل اللَّه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، فكل من وصل إليهم كان معهم على عهدهم.

ولما سمع المسلمين بالمدينة خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة، صاروا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه إلى الظهيرة، فانتظروه يومًا وعادوا إلى بيوتهم، وإذا يهودي ارتقى مكانًا عاليًا لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فنادى بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدكم -أَيْ: حظكم ومطلوبكم- قد أقبل، أَيْ: الأوس والخزرج، وقيلة بفتح القاف وسكون المثناة التحتية: جدتهم القديمة -.

فخرجوا إليه سراعًا بسلاحهم، فتلقوه فنزل بقباء على بني عمرو بن عوف، وجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صامتًا فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحيي أبا بكر ويسلم

عليه، ويظنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أصابت الشمس رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك.

وكان قدومه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم الاثنين. قيل: أول ربيع الأول. وقيل: ثاني عشرة. وقيل: ذلك. وأقام علِيّ بمكة بعد مخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أيام، ثم أدركه بقباء يوم الاثنين سابع. وقيل: عشر ربيع الأول. وكانت مدة مقامه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة أو ليلتين.

وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتاريخ، فكتب من حين الهجرة. وقيل: أن عمر أول من أرَّخ وجعله من المحرم.

وأقام بقباء أربع عشرة ليلة كما في "مسلم". وأسس مسجد قباء الذي أُسس على التقوى على الصحيح، وهو أول مسجد صلَّى فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأصحابه جماعة ظاهرة. وأول مسجد بُنِي لجماعة المسلمين عامة، وإن كان قد تقدَّم بناء غيره من المساجد، لكن لخصوص الذي بناه.

ثم خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قباء يوم الجمعة، حين ارتفع النهار فأدركته الجمعة ببني سالم بن عوف، فصلاهما بهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة، واسم المسجد غُبيْب تصغير غب، ولذا سمي مسجد الجمعة، وهو مسجد صغير مبني بحجارة قدر نصف الثامنة على يمين السالك إلى مسجد قباء.

(ودخل النَّبِي) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: بعد صلاة الجمعة راكبًا على ناقته الجدعاء متوجهًا (إلى الديار) جمع دار، (الحرمية) المنسوبة إلى

الحرم، وهي المدينة المنورة المسماة طيبة وطابة، وحرمها ما بين لابتيها تثنية لابة وهي الحرة أَيْ: الحجارة السود.

روى البخاري بسنده عَنْ أَنَسٍ بن مالك عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا، لَا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، وَلَا يُحْدَثُ فِيهَا حَدَثٌ، مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. وروى أيضًا عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا، مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَقَالَ: ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا -بالخاء المعجمة والفاء أَيْ: نقض عهده-، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.

وعن أبي هريرة قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ. وعن أبي هريرة أيضًا: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: لَوْ رَأَيْتُ الظِّبَاءَ بِالْمَدِينَةِ تَرْتَعُ مَا ذَعَرْتُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا حَرَامٌ.

(ونزل) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عند أخواله) بفتح الهمزة: جمع خال وهو أخو الأم. والمُراد هنا أخواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكمًا، لأنهم أخوال

جده عبد المطلب.

وقوله (في دار) أَيْ: بيت متعلق بنزل أَيْ: نزل في دار أبي أيوب الأنصاري، رئيس (بني النجَّار) بفتح النون والجيم المشددة: قبيلة من الأنصار. (أهل الرسخان) أَيْ: الثبات، وهو بضم الراء المشددة وسكون السين المهملة بعدها خاء معجمة مفتوحة ثم ألف فنون: اسم من رسخ، يقال: رسخ الشيء يرسخ بفتحتين رسوخًا: ثبت، وكل ثابت راسخ، وله قدم راسخة في العلم: بمعنى البراعة والاستكثار منه، كما في "المصباح: أَيْ: والإيمان الكامل.

قال في "المواهب": ركب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على راحلته بعد صلاة الجمعة متوجهًا إلى المدينة، وهو مردف أبا بكر خلفه على الراحلة التي هو عليها إكرامًا له، وأبو بكر شيخ يعرف، لأنه كان يمر على أهل المدينة في سفر التجارة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الذي بين يديك؟، فيقول: هذا الذي يهديني السبيل، فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

وتلقاه الأنصار ووكبوا به إلى أن وصل دار أبي أيوب، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلما مرَّ على دار من الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم يقولون: يا رسول اللَّه هلم إلى الفتوة والمنعة، فيقول: خلوا سبيلها فإنها مأمورة -يعني الناقة أَيْ: إنها مأمورة من قبل اللَّه تعالى بأن تبرك بمحل سخَّرها اللَّه، لأن تبرك فيه-، فخلوا سبيلها، وقد أرخي زمامها وما يحركها، فسارت تنظر يمينًا وشمالاً، حتى إذا أتت دار ابن مالك بن النجار، بركت

على باب المسجد، وهو يومئذ مربد -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الموحدة أَيْ: محل ينشف فيه التمر-.

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راكب عليها لم ينزل، ثم وثبت به ثم سارت ومشت غير بعيد ورسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضع لها زمامها لا يحركها به، إلى أن بركت بباب أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصاري، من بني مالك بن النجار، شهد بدرًا والمشاهد، ومات غازيًا بالروم سنة خمسين. وقيل: سنة إحدى. وقيل: اثنتين وخمسين، وهو الأكثر. ودُفن بمدينة القسطنطينية، وله بها مقام شهير.

ثم قامت ومشت والتفتت خلفها، ثم رجعت إلى مبركها الأول بمحل باب المسجد، وبركت ثم تجلجلت -بجيمين أَيْ: تحرَّكت- والتفت عنقها بالأرض، وصوَّتت من غير أن تفتح فاها.

فنزل عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: هذا المنزل إن شاء اللَّه، اللهم أنزلنا منزلاً مباركًا. واحتمل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري رحله بإذنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدخله في بيته، ومعه زيد بن حارثة، وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد المطلب كما تقدَّم. وأراده قوم في النزول عليهم، فقال: المرء مع رحله.

وفرح أهل المدينة بقدومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحًا شديدًا، لم يتقدّم لهم مثله، وأشرقت المدينة بحلوله فيها، وسرى السرور إلى القلوب. قال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذي دخل فيها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم

منها كل شيء، وما نفضنا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا قال: شهدت يوم دخول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوأ. وعن البراء بن عازب قال: ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء كفرحهم برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة عند قدومه يقلن تهنئة له حال قدومه:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ولما بركت الناقة على باب أبي أيوب خرج جوار من بني النجار في الطريق، يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النجار ... يا حبذا محمد من جار

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّه يعلم أن قلبي يحبكن. وتفرّق الغلمان والخدم في الطرق ينادون فرحًا: جاء محمد جاء رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أبي أيوب سبعة أشهر، وكان يصلي حيث أدركته الصلاة.

(و) لما أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء مسجد جامع للمصلين (بنى المسجد) الشريف، وقبل شروعه فيه أرسل إلى بني النجار، فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم، قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى اللَّه، فأبى ذلك صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاشترى محله، وهو يومئذ مربد -أَيْ: محل يجفف فيه التمر- بعشرة دنانير، أداها عنه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ماله الذي خرج به من مكة، وهو أربعة آلاف أو خمسة. فأمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدفع ثمنه عشرة دنانير. ذكره ابن سعد.

وكان في موضع المسجد نخل وخرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ، وبناه به وسقفه بالجريد، وجعلت عمده خشب النخل، وعمل فيه المسلمون.

ورُوي: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بنى المسجد وضع حجرًا، ثم قال: ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجري، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر، ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر، ثم ليضع علي، فسُئِل عن ذلك، فقال: هؤلاء الخلفاء من بعدي.

وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن -فكان كذلك-، وتقتلك الفئة الباغية. فقُتِل مع علِيّ بصفين، والباغية هم أهل الشام أصحاب معاوية.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينقل معهم اللبن في بُنْيَانِهِ -وفي ورايةٍ: في ردائه- حتى أغبر صدره الشريف وصار يقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

أَيْ: هذا المحمول من الطيب أبر وأطهر يا ربنا مما يحمل من خيبر

من نحو التمر والزبيب.

وجعل قبلة المسجد إلى جهة صخرة بيت المقدس، وصار يصلي إلى جهة الصخرة ستة عشر شهرًا إلى أن حوّلت إلى جهة الكعبة في السنة الثانية. وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخرة وهو المعروف بباب أبي بكر، وباب يقال له باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه وهو المعروف بباب آل عثمان.

ولما تحولت القبلة سَدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباب الذي كان في مؤخره وفتح بابًا حذاءه، ولم يبق من الأبواب إلا باب عثمان المعروف بباب جبريل، ذكره ابن النجار.

وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وعرضه مثل ذلك، فهو مربع أو دونه أو أقل من مائة ذراع فهو غير مربع. وجعل أساسه أَيْ: طرفه الثابت عن الأرض قريبًا من ثلاثة أذرع بالحجارة، ولم يسطح، فشكوا الحر فجعل خشبه وسواريه جذوعًا وظللوه بالجريد ثم بالجص، فلما وكف عليهم طيَّنوه بالطين وجعلوا وسطه رحبة، وكان جداره قبل أن يسقف قامة وشيئًا.

وبنى بيوتًا إلى جنبه وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء بنى لعائشة في البيت الذي يليه شارعًا إلى المسجد، وكان بابه مواجه الشام بمصراع واد من عرعر أو ساج. وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي باب آل عثمان. ثم بنى بقية الحجرات عند الحاجة إليها.

ثم تحوَّل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها. وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأسامة بن زيد وأم أيمن وولدها أيمن، وخرج عبد اللَّه بن أبي بكر معهم بعيال أبيه، ومنهم عائشة لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما بنى بها بعد.

واصطحبوه حتى قدموا المدينة، فنزل عيال أبي بكر عنده، ونزل آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده، وأدخل سودة أحد تلك البيوت التي بناها لها، وكان يكون عندها.

وكانت أول كلمة سُمِعت منه لما قدموا المدينة: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام.

ثم أذن اللَّه عزَّ وجلَّ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقتال، لاثنتى عشرة ليلة مضت من صفر في السنة الثانية من الهجرة، بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال في "التفسير الكبير" لابن حيان: والمأذون فيه أَيْ: في الآية محذوف، أَيْ: في القتال لدلالة الذي يقاتلون عليه، وعُلِّل الإذن بأنهم ظلموا، كانوا يأتون رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأذن له بالقتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية.

وقال غيره: إنما شرع اللَّه تعالى الجهاد في الوقت اللائق به، لأنهم لما

كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمر اللَّه المسلمين وهم قليلون بقتال الباغين لشقَّ عليهم، فلما بغى المشركون وأخرجوه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من بين أظهرهم وهَمُّوا بقتله، واستقر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالمدينة واجتمع عليه أصحابه، وقاموا بنصره، وصارت المدينة دار إسلام، وملجأً يلجئون إليه، شرع اللَّه تعالى جهاد الأعداء، فبعث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البعوث والسرايا.

(وجهَّزَ) بشد الهاء: من التجهيز وهو تهيئة ما يحتاج إليه في قطع المسافة، أَيْ: هيأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الجيش) أَيْ: الجند السائرين للحرب، وهو بفتح الجيم وسكون المثناة التحتية، من ألف إلى أربعة آلاف.

وغزا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه وقاتلَ (هو والدائرة) أَيْ: الجماعة (الأصحابية) المنسوبة للأصحاب، نسبة المسمى باسمه. وكان عدد مغازيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التي خرج فيها بنفسه الكريمة سبعًا وعشرين، قاتل في تسع منها بنفسه الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بدر وأُحُد والموسيع والخندق وقريظة وخيبر وفتح مكة وحُنَيْن والطائف. وكانت سراياه التي بعث فيها سبعة وأربعين سرية.

(وأقام) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الدين) واستمر على مجاهدة الأعداء وتبليغ الأحكام والإخبار عن اللَّه تعالى بالمدينة المنورة عشر سنين، (حتى) دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا أفواجًا، وأكمل اللَّه تعالى له ولأمته دينهم، وأتمَّ عليه وعليهم نعمته، وعاش صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا وستين سنة

على الصحيح.

ثم (أتاه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اليقين) أَيْ: الموت، سُمِّي يقينًا لأنه متيقن الوقوع لكل أحد، ولأنه يقين لا شك فيه، وبنزوله يزول كل شك. (فوافى) من الموافاة أَيْ: تمم وأعطى حق (مولاه) أَيْ: سيده وناصره. (بإحسان) أَيْ: بمعرفة وإتقان: وهو بكسر الهمزة من مصدر أحسن، إذا فَعَلْ الْحَسَنَ كأَجَادَ إذَا فَعَلَ الْجَيِّدَ، ويقال: أَحْسَنْتُ الشَّيْءَ عَرَفْتُهُ وَأَتْقَنْتُهُ. كما في "المصباح".

ثم اعلم وصلني اللَّه وإياك بحبل تأييده، وأوصلنا بلطفه إلى مقام توفيقه وتسديده، أنَّه لما كان الموت مكروهًا بالطبع، لما فيه من الشدة والمشقَّة العظيمة، لم يمت نبي من الأنبياء حتى يُخيَّر.

وأوَّل ما أعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فإن المراد من هذه السورة: إنك يا محمد إذا فتح اللَّه عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجًا، فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به، من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعدّ للنقلة إلينا.

وقد قيل: إن هذه السورة آخر سورة نزلت يوم النحر، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنى في حجة الوداع. وقيل: عاش بعدها إحدى وثمانين يومًا. ولأبي يعلى من حديث ابن عمر: نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق في حجَّة الوداع، فعرف رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه

الوداع.

وفي حديث ابن عباس عند الدارمي: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة، وقال: نُعِيَتْ إِلَيَّ نفسي، فبكت، قال: لا تبكي، فإنك أول أهلي لحوقًا بي، فضحكت. الحديث.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة، فعرضه ذلك العام مرتين، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام، فاعتكف في ذلك العام عشرين، وأكثر من الذكر والاستغفار.

وقالت أم سلمة: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم، فقال: إن ربي أخبرني أني سأرى علمًا أَيْ: دليلاً في أمتي، وأني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره"، ثم تلا هذه السورة.

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس على المنبر فقال: إن عبدًا خيَّرهُ الله بين أن يأتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: يا رسول الله، فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد خيّره اللَّه بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند اللَّه، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فكان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ هو المُخَيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أَمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، لا تبقى في المسجد خوخة إلّا سدت إلّا خوخة أبي بكر.

وما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنَّه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: خذوا عني مناسككم، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، فطفق يودع الناس، فقالوا: هذا حجة الوداع.

فلمَّا رجع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من حجة الوداع إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خُمًا في طريقه بين مكة والمدينة، فخطبهم وقال: أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب. ثم حضَّ على التمسك بكتاب اللَّه، ووصَّى بأهل بيته.

وكان ابتداء مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يومًا في المشهور. وكان من صداع عرض له في بيت عائشة في ثاني ربيع أو ثامنه أو عاشره على الخلاف، ثم اشتد به في بيت ميمونة، فصار يقول: أين أنا غدًا؟، ففهم نساؤه أنه يريد يوم عائشة، فأذن له أن يمرض في بيتها لمحبّته لها، مع علمه بأنّ بيتها مدفنه، فأراد سرعة الانتقال إليه. وفي رواية ابن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أين أنا غدًا؟، حرصًا على بيت عائشة، فلمَّا كان يومي أذن له نساؤه أن يمرَّض في بيتي.

وفي "البخاري": قالت عائشة: لما ثقل برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

واشتدَّ به وجعه، استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي فأذِن له، فخرج وهو بين رجلين تخطّ رجلاه في الأرض بين العباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيد الله: فأخبرت عبد الله بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله ابن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟، قال: قلت: لا، قال ابن عباس: هو علِيّ بن أبي طالب.

وفي رواية ابن أبي مليكة عن عائشة: أن دخوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بيتها كان يوم الاثنين، وموته يوم الاثنين الذي يليه.

وعن عائشة: أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، فقال: بل أنا وا رأساه، ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفّنتك وصلّيت عليك، ودفنتك، فقالت: لكأنِّي بك والله لو فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه. رواه أحمد والنسائي.

وقد تبيّن كما نبّه عليه في اللطائف: أن أوَّل مرضه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان صداع الرأس، والظاهر أنه كان مع حمى، فإن الحمى اشتدت به في مرضه، فكان يجلس في مخضب الماء ويصب عليه الماء من سبع قرب، لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس فأخلصناه في مخضب لحفصة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم طفقنا نَصُبّ عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. وقيل: في الحكمة في هذا العدد أنه له خاصية في دفع ضرر السم والسحر.

وكانت عليه صلوات الله وسلامه عليه قطيفة، فكانت الحمى تصيب من يضع يده عليه من فوقها، فقيل له في ذلك، فقال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الآجر. رواه ابن ماجه وغيره.

وفي "البخاري" عن عائشة: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستنّ به، فأبّده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم -بتشديد الدال المهملة أَيْ: أمدَّ نظره إليه- بصره، فأخذت السواك فقضمته ونقضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستنَّ به، فما رأيته استنَّ استنانًا قط أحسن منه. وقولها: فقضمته بفتح القاف وكسر الضاد المعجمة أَيْ: مضغته، والقضم: الأخذ بطرف الأسنان.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة وجعه يغمى عليه في مرضه ثم يفيق، وأغمي عليه مرة فظنّوا أن وجعه ذات الجنب فلدوه، فجعل يشير إليهم أن لا يلدوه، فقالوا: كراهية المريض للدواء، فلمَّا أفاق قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟، فقالوا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لد وأنا أنظر إلا العباس فإنه لم يشهدكم. رواه البخاري. واللدود: هو ما يجعل في جانب الفم من الدواء، فأمَّا ما يصب في الحلق فيقال له: الوجور.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري: لما حضر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي البيت رجال، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب اللَّه، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلمَّا أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قوموا عني. قال عبيد اللَّه: فكان ابن عباس يقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين أن يكتب ذلك لاختلافهم ولغطهم.

قال المازري: إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب، مع صريح أمره لهم بذلك؛ لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكأنَّه ظهرت منه قرينة دلّت على أنَّ الأمر ليس على التحتم، بل على الاختيار، فاختُلِفَ اجتهادهم، وصمَّم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك عن غير قصد جازم.

وقال النووي: اتفق العلماء على أن قول عمر: حسبنا كتاب اللَّه، من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أمورًا ربما عجزوا عنها، فيستحقوا العقوبة لكونها منصوصة، وأراد أن لا يسد باب الاجتهاد على العلماء، وفي تركه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإنكار على عمر إشارةً إلى تصويبه، وأشار بقوله: حسبنا كتاب اللَّه، إلى قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ولا يعارض ذلك قول ابن عباس: إن الرزية إلخ، لأن عمر كان أفقه منه قطعًا، ولا يقال: إن ابن عباس لم يكتف بالقرآن مع أنه حبر القرآن، وأعلم الناس بتفسيره وتأويله، ولكنه قال أسفًا على فاته من

البيان بالتنصيص عليه، لكونه أَوْلَى من الاستنباط، والله أعلم.

ولما اشتدَّ مرضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مروا أبا بكر فليصلّ بالناس، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فعاودته مثل مقالتها، فقال: إنكن صواحبات يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس. رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له. وفي روايةٍ: أنها قالت: إن أبا بكر رجل أَسِيف.

وفي حديث عروة عن عائشة عند البخاري: فمر عمر فليصلّ بالناس، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قالت: قلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصلّ بالناس، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا. والأسيف: بوزن فعيل، وهو بمعنى فاعل: من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد به هنا: رقيق القلب.

ولابن حبان من رواية عاصم عن شقيق عن مسروق عن عاشة في هذا الحديث: قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم، وصواحب: جمع صاحبة، والمراد: إنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ثم إنَّ هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحدة وهي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أنَّ زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهنّ الإكرام بالضيافة، ومرادها الزيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف عليه السلام ويعذرنها في محبته، وإن عائشة أظهرت أنّ

سبب إرادتها صرف الإمامية عن أبيها، لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه. ومرادها زيادة على ذلك: وهو أن لا يتشاءم الناس به، وقد صرَّحت هي بذلك، كما عند البخاري في باب وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلّا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبدًا. وألا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلّا تشاءم الناس به. ونقل الدمياطي: إن الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صلّى بالناس سبع عشرة صلاة.

وقد ذكر الفاكهي في "الفجر المنير" مما عزاه لسيف ابن عمر في كتاب "الفتوح": أنَّ الأنصار لما رأوا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزداد وجعًا، أطافوا بالمسجد، فدخل العباس، فأعلمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه علي بن أبي طالب كذلك.

فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوكئًا على عليّ والفضل، والعباس أمامه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوب الرأس يخطّ برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثار الناس إليه، فحمد اللَّه وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خُلِّدَ نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟، ألَا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأوَّلين خيرًا، وأوصى المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى آخرها، وإنَّ الأمور تجري بإذن الله، ولا يحمّلنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإنَّ اللَّه عَزَّ

وجَلَّ لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، وأوصيكم بالأنصار خيرًا، فإنهم الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟، ألم يوسّعوا لكم في الديار؟، ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟، ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا مَنْ أحب أن يرده عليَّ غدًا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغي، يا أيها الناس، إن الذنوب تغيّر النعم، وتبدّل القِسَم، فإذا بَرَّ الناس برَّهم أئتمتهم، وإذا فجر الناس عقوهم.

وفي البخاري من حديث عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو صحيح يقول: لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخيّر، فلمَّا اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلمَّا أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى.

ونَبَّه السهيلي على أن نكتة الإتيان بهذه الكلمة بالإفراد، الإشارة إلى أنَّ أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد. وقال أيضًا: الحكمة في اختتام كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الكلمة، كونها تتضمّن التوحيد والذكر بالقلب، حتى يستفاد منها الرخصة لغيره أنّه لا يشترط أن يكون الذكر باللسان، لأن بعض الناس قد يمنعه من النطق مانع، فلا يضره ذلك

إذا كان قلبه عامرًا بالذكر.

ولما احتضر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشتدَّ به الأمر، قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، قالت: وكان عنده قدح من ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: اللهم أعنِّى على سكرات الموت. وفي روايةٍ: فجعل يقول: لا إله إلا اللَّه، إن للموت لسكرات.

قال بعض العلماء: فيه أنَّ ذلك من شدة الآلام والأوجاع لرفعة منزلته. وقال الشيخ أبو محمد المرجاني: تلك السكرات سكرات الطرب، ألا ترى إلى قول بلال حين قال له أهله وهو في النزع: وا خرباه، ففتح عينيه وقال: وا طرباه، غدًا ألقى الأحبَّة محمدًا وصحبه، فإذا كان هذا طربه، وهو في هذا الحال بلقاء محبوبه وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه، فما بالك بلقاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه تعالى، ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وهذا موضع تقصر العبارة عن وصف بعضه.

وفي حديث مرسل ذكره الحافظ ابن رجب: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والأنامل والقصب، فأعنِّي عليه وهوِّنه عليّ.

ولما تغشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكرب، قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وا كرب أبتاه، فقال لها: لا كرب على أبيك بعد اليوم. رواه البخاري.

قال الخطابي: زعم من لا يُعَدّ من أهل العلم أن المراد بقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لا كرب على أبيك بعد اليوم، أنَّ كربه كان شفقة على

أمته، لما علم من وقوع الاختلاف والفتن بعده، وهذا ليس بشيء، لأنه كان يلزم أن تنقطع شفقته على أمته بعد موته، والواقع أنها باقية إلى يوم القيامة لأنه مبعوث إلى مَن جاء بعده، وأعمالهم تعرض عليه، وإنما الكلام على ظاهره، وأنَّ المراد بالكرب ما كان يجده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من شدة الموت، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر.

وفي "البخاري" من حديث أنس بن مالك: إنَّ المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بهم، لم يفجأهم إلّا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يخرج إلى الصلاة، قال أنس: وهَمَّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحًا برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأشار إليهم بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.

وعن جعفر الصادق بن محمد الباقر عن أبيه قال: لما بقي من أجل رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثًا، نزل عليه جبريل فقال: يا محمد، إن اللَّه قد أرسلني إليك إكرامًا لك، وتفضيلًا لك، وخاصَّة لك، يسألك عمَّا هو أعلم به منك يقول: كيف تجدك؟، فقال: أجدني يا جبريل مغمومًا، وأجدني يا جبريل مكروبًا، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك، ثم جاءه في اليوم الثالث هبط جبريب ومعه ملك الموت ومعهما ملك آخر

يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قط، ولم يهبط إلى الأرض قط، يقال له: إسماعيل، موكَّل على سبعين ألف ملك، كل ملك على سبعين ألف ملك، فسبقهم جبريل. فقال مثل ذلك القول.

(و) بعد ذلك (استأذنه) أَيْ: ملك الموت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: طلب منه الإذن في دخول عزرائيل عليه السلام (ملك الموت) القابض لجميع أرواح الإنس والجن والبهائم والمخلوقات، خلافًا لقول المبتدعة إنما يقبض أرواح الجن والإنس. صرَّح به الجزولي في "شرح الرسالة"، وكأنهم تمسكوا بما أخرجه أبو الشيخ والعقيلي في "الضعفاء"، والديلمي عن أنس مرفوعًا: آجال البهائم وخشاش الأرض والقمل والبراغيث والجراد والخيل والبغال والدواب كلها والبقر وغير ذلك في التسبيح، فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت منها شيء، وهو حديث ضعيف جدًا. بل قال العقيلي: لا أصل له، وابن الجوزي: موضوع ولا حجة فيه إذ لا حجة بضعيف، ولا سيما مع معارضته لعموم القاطع وهو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، ولذا لم يلتفت الإمام مالك إلى هذا الحديث، بل احتج بالآية لما سأله رجل عن البراغيت: أملك الموت يقبض روحها؟، فأطرق طويلاً، ثم قال: ألها نفس؟، قال: نعم، قال: فإن ملك الموت يقبض أرواحها، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، أخرجه الخطيب وأيد بما أخرجه الطبراني وابن منده وأبو نعيم: أن عزرائيل قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت حتى يأذن الله بقبضها. اه زرقاني.

(و) الحال أنه (لم يستأذن) ملك الموت (أحدًا قبله) أَيْ: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (من الأنبياء) أَيْ: والمرسلين الذين كانوا في الأزمان (القبلية) بفتح القاف، أَيْ: لا يطلب الإذن بالدخول على نبي قبله ولا يستأذن على أحد بعده. ولما استأذن قال جبريل: يا محمد، هذا ملك الموت يستأذن في الدخول عليك.

قال سيدي عبد الله الميرغني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "المشكاة": فلما استأذنه ملك الموت فاستمهله -أَيْ: طلب منه المهلة- حتى أتاه جبريل الأمين عليه السلام بالبشارة له ولأمته من الحضرة الإلهية: الآن قرَّت عيني ألحقني بربي.

(فأذن) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (له) أَيْ: لملك الموت بالدخول. ولما دخل قال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، إن ربك يقرئك السلام، ووقف بين يديه فقال: إن الله عزَّ وجلَّ أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كلِّ ما تأمرني، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها. فقال جبريل: يا أحمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك -أَيْ: أراد لقاءَك بأن يردك من دنياك إلى معادك زيادة في قربك وكرامتك-
.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: فامض يا ملك الموت لما أمرت به، فقال جبريل: يا رسول الله هذا آخر موطئي من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا، فقبض روحه الزكية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وأعظم) أَيْ: أشد (المصائب) بفتح الميم والصاد المهملة بعد ألف ثم

همزة: جمع مصيبة أصله مصاوب، والمصيبة: الشدة النازلة أَيْ: أعظم الشدة والبلايا النازلة (علينا) معشر المسلمين، (وفاته) بفتح الواو أَيْ: موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من وفا بالتخفيف من باب وعى: تمَّ أجله. (فالحكم للمنَّان) بفتح الميم وشد النون: اسم من أسماء اللَّه تعالى أَيْ: المعطي ابتداءً. كما في "القاموس".

قال ابن المنير: لما مات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضنى، وكان عمر ممن خبل، وكان عثمان ممن أخرس، يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلامًا، وكان علي ممن أقعد فلم يستطع حركة، وأضنى عبد اللَّه بن أنيس فمات كمدًا. وكان أثبتهم أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جاء وعيناه تهملان، وزفراته -بزاي ففاء فراء أَيْ: أنفاسه- تتردد، وغصصه تتصاعد وترتفع، فدخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأكبَّ عليه، وكشف الثوب عن وجهه الشريف، وقال: طبت حيًّا وميتًا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبلك، ولو أنَّ موتك كان اختيارًا لجدنا لموتك بالنفوس. اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك.

ووقع في حديث ابن عباس وعائشة عند البخاري: إنَّ أبا بكر قَبَّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما مات.

ولما توفي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالت فاطمة: يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه مَنْ إلى جبريل ننعاه. رواه

البخاري.

وقد عاشت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة أشهر فما ضحكت تلك المدة، وحق لها ذلك.

وأخرج أبو نعيم عن علِيّ قال: لما قُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد ملك الموت باكيًا إلى السماء، والذي بعثه بالحق نبيًّا لقد سمعت صوتًا من السماء ينادي: وامحمداه. الحديث.

كل المصائب تهون عند هذه المصيبة.

وفي "سنن ابن ماجه": إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه: أيها الناس أيما أحدًا من الناس أو من المؤمنين، أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي.

وقال أبو الجوزاء: كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول: يا عبد اللَّه، اتق اللَّه، فإن في رسول اللَّه أسوة حسنة.

وللَّه در القائل:

اصبر لكل مصيبة وتجلّد ... واعلم بأن المرء غير مخلّد

واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوب تنوب اليوم تكشف في غد

وإذا أتتك مصيبة تشجَّى بها ... فاذكر مصابك بالنبي محمد

ويرحم اللَّه القائل:

تذكرت لما فرّق الدهر بيننا ... فعزَّيت نفسي بالنبي محمد

وقلت لها إن المنايا سبيلنا ... فمن لم يمت في يومه مات في غد

وكانت وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وكان يوم الاثنين بلا خلاف وقت دخوله المدينة، في حجرته حين اشتد الضحى.

قال الحنفي: وها هنا سؤال مشهور وهو جمهور أرباب السير على أن وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقعت في الثاني عشر، واتفق أئمة التفسير والحديث والسير على أن عرفة في تلك السنة كانت يوم الجمعة، فتكون غرة ذي الحجة يوم الخميس، فلا يمكن أن يكون الثاني عشر من شهر ربيع هو يوم الاثنين، سواء كانت الشهور الثلاثة الماضية، يعني ذي الحجة والمحرم وصفر ثلاثين يومًا أو تسعًا وعشرين أو بعض منها ثلاثين، وبعض آخر منها تسعًا وعشرين.

وجوابه: أن يقال اختلاف أهل مكة والمدينة في رؤية الهلال في ذي الحجة بواسطة مانع مثل السحاب وغيره، أو بسبب اختلاف المطالع، فيكون غرة ذي الحجة عند أهل مكة يوم الخميس، وعند أهل المدينة يوم الجمعة، وكان وقوف عرفة واقعًا برؤية أهل مكة، ولما رجع المدينة اعتبروا التاريخ برؤية أهل المدينة، وكانت الشهور الثلاثة الماضية كوامل، فيكون أول ربيع الأول يوم الخميس ويم الاثنين هو الثاني عشر منه.

هذا وقال بعضهم: ولم يختلف أهل السير في أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ توفي في شهر ربيع الأول ولا في أنه يوم الاثنين، وإنما اختلفوا في أي يوم كان من الشهر، فجزم ابن إسحاق في جماعة بأنه كان لاثنتى عشرة ليلة خلت منه، وبه جزم ابن الصلاح والنووي في "شرح مسلم". وقال

موسى بن عقبة في جماعة في مستهل الشهر. وقال سليمان في جماعة: لليلتين خلتا منه.

فقد روى البيهقي في "دلائل النبوة" بإسناد صحيح إلى سليمان التيمي أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرض لاثنين وعشرين ليلة من صفر، وكان أول يوم مرض فيه يوم السبت، وكانت وفاته اليوم العاشر يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول.

(ودُفِن) بالبناء للمجهول أَيْ: سُتِر وغُطِي بالتراب، (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليلة الأربعاء وسط الليل. وقيل: ليلة الثلاثاء. وقيل: يوم الثلاثاء. والأول هو قول الأكثر.

وأما غسله وتكفينه والصلاة عليه، ففعلت الثلاثة يوم الثلاثاء كما يأتي. أخرج الترمذي عن جعفر الصادق بن محمد الباقر عن أبيه قال: قُبِض رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين، فمكث ذلك اليوم وليلة الثلاثاء، ودُفن من الليل أَيْ: في ليلة الأربعاء.

وإنما أُخّر دفنه مع أنه يسن تعجيله، بل ربما يجب التعجيل بالدفن كما أمر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لعدم اتّفاقهم على دفنه، أو محلّ دفنه، أو لدهشتهم من ذلك الأمر الهائل، الّذي لم يقع قبله ولا بعده مثله. فقد صار بعضهم كجسد بلا روح، والبعض عاجزًا عن النّطق، والبعض عاجزًا عن المشي، أو لخوف فتنة في شأن البيعة، أو خوف هجوم العدو، أو لغير ذلك.

ولما يعلم الناس أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدفن أم لا، وأين

يدفن، فسألوا الصِّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: يا صاحب رسول الله أيدفن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يترك على وجه الأرض؟، لسلامته من العفونة والتغير، فإن الأنبياء أحياء، أو لانتظار رفعه إلى السماء، فقال لهم الصِّدِّيق: يدفن في الأرض لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾. وهذا الدفن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ثم قالوا: بعد الصلاة عليه أين تدفنونه؟، فقال ناس: عند المنبر، وقال آخرون: بالبقيع. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما هلك -أَيْ: ما مات- نبي قط إلا يدفن حيث تقبض روحه. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا أيضًا سمعته.

ولما اختلفوا في الشق أو اللحد، بعثوا إلى أبي عبيدة وأبي طلحة، فجاء أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري، وحفر لحد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موضع فراشه حيث قُبِض.

ودفنوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (في حجرة) بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وبالتاء بعد الراء، أَيْ: منزل وبيت. وفَسَّرَ الحجرة بالبيت ابن حجر والسيوطي في "التوشُّح". وفي "القاموس": الحجرة هي الغرفة، والغرفة بالضم. العلة والأحاديث والآثار تدل على أن الحجرة غير البيت، إلا أن أكثرها يدل على أن الحجرة غير البيت، وكذا قول الجوهري في حجرة القوم: ناحية دارهم، ثم قال: والحجرة حظيرة للإبل، ومنه حجرة الدار.

وبعض الآثار يدل على أن الحجرة داخل البيت، وأما تفسير الحجرة بالغرفة فلا يناسب هنا إلا أن يغمر ذلك بارتفاع المحل، والمقصود الذي

يحام عليه ويبحث عنه.

بهذا هل هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدفون داخل بيته أو خارجه، وهل هي البيت أو موضع داخله أو موضع خارجه، وهي ساحته وفناؤه بدار وبحجر حائط أو جريد، ويطيّن بالطين للستر. ويحتمل أن يقال بإزاء كل من الثلاثة، وهل البيت لا يطلق إلا على ما هو البيت حقيقة؟، أو يطلق عليه وعلى ساحته.

والحاصل أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفِن في الموضع الذي دُفِن فيه، وهل كان في نفس البيت أو في ساحته لحدًا ونحوه، الأمر محتمل، وعلى الأول يكون قد دُفن إلى حائط صدر البيت، وعلى الثاني يكون مدفونًا إلى الحائط المقابل له الذي بينه وبين الساحة، والحائط بينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين البيت. وفي "طبقات ابن سعد" ما يدل على أنه دُفن في ساحة البيت إلى حائط بيت.

(عائشة) بهمزة بعد الألف، وعامة المحدثين يبدلونها ياء، ويقال عيشة في لغة ضعيفة. وهي أم المؤمنين الصِّدِّيقة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبويها. (زوجة) بغير تاء على الأفصح، قال اللَّه تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، ولا تستعمل بالتاء إلا في الإرث، للفرق بين الأنثى والذكر. والشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عباراته يقول: المرأة عقد المصطفى عليها وهي بنت ست سنين، وبنى عليها أَيْ: دخل بها في السنة الثانية من الهجرة على الصحيح، وهي بنت تسع سنين. ولم يتزوج بكرًا غيرها.

ورُوِيَ: أنها لما بلغت تسع سنين أخذتها أمها من يدها ووضعتها في

حجره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالت: هذه أهلك يا رسول الله، بارك الله لك فيها، ومكثت عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع سنين، وتوفي عنها ولها ثماني عشرة سنة. وروَتْ ألفا ومائتي حديث.

ومن فضلها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقيل له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أحبّ الناس إليك، فقال: عائشة. وقيل أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لما أتاه الوحي في لحاف واحدة من نسائه غير عائشة.

وتوفيت على ما قاله الواقدي ليلة الثلاثاء لتسع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين من الهجرة، وهذا هو الأصح في وفاتها، وتوفيت وهي ابنة ست وستين سنة، وأوصت أن تدفن في البقيع، وصلَّى عليها أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يومئذ خليفة مروان على المدينة في أيام معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حبيبة حبيب اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المأمور بحبها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الطيبة الطاهرة النازل في حقها، والطيبات للطيبين.

(التي أنزلت) بالبناء للمجهول أَيْ: أنزل اللَّه (فيها) أَيْ: في شأنها (الآيات) أَيْ: العشر من سورة النور من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

(التبريئية) أَيْ: المنسوبة للبراءة أَيْ: الدالة على براءتها أَيْ: سلامتها مما رماها به المنافقون من الإفك أَيْ: أشد الكذب، الذي تولَّى كبره أَيْ: معظمه، حيث ابتدأ الخوض فيه، وأشاعه عبد الله بن أبي سلول لعنه الله،

وأُبي اسم أبيه، وسلول اسم أمه.

وانعقد عليها إجماع الأُمة، ووردت بها الأحاديث الصحيحة، فمن جحد براءتها أَيْ: شكَّ فيها كفَرَ. وحاصل حديث الإفك في حقها كما في "البخاري" عن عائشة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ مَعَهُ، بَعْدَمَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ،

حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْش بَعْدَمَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، وهُم يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، مُتَبَرَّزُنَا، وَكنا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ، أَوْ فِي التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا مَع رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا، فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ، فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ. فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّتِي، هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ، عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟، قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ، لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، حِينَ

اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ، يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: يَا بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قط أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ: إِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ: الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي،

إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ

لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللَّهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ، مَا رَأَيْتِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي من أزواجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ.

فلما نزلت الآيات ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الْعشر آيَات إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فقال أبو بكر لعائشة: قومي فاشكري لرَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: واللَّه لا أشكر إلا اللَّه الذي برأني. لكن لم يكن ذلك لشيء في نفسها من رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن مقامها يجل عن ذلك، وإنما استغرقت في مقام الشهود فلم تشهد إلا اللَّه عزَّ وجلَّ.

هذا وقد اختُلف فيمن أدخله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبره الشريف. وأصح ما روي أنه نزل في قبره عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلِيّ رضي الله وكرَّم الله وجهه، وقثم بن العباس والفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان آخر الناس عهدًا برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قثم بن العباس.

ورُوِي: أنه بنى في قبره الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع لبنات، وفرشَ تحته قطيفة نجرانية كان يتغطى بها، فرشها شقران في القبر، وقال: واللَّه لا يلبسها أحد بعدك. قال النووي: وقد نصَّ الشافعي وجميع أصحابه وغيرهم من العلماء كراهة وضع قطيفة أو مضربة أو مخدة أو نحو ذلك في القبر. وأجاباو عن هذا الحديث: بأن شقران انفرد بفعل ذلك، ولم يوافقه أحد من الصحابة، ولا علموا بذلك، وإنما فعله شقران كراهية أن يلبسها أحد بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي كتاب "تحقيق النصرة" قال ابن عبد البر: أنها أخرجت -يعني القطيفة- من القبر، لما فرغوا من وضع اللبنات التسع.

ولما دُفِن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءت سيدة نساء العالمين سيدتنا وبنت سيدنا فاطمة الزهراء، خزانة مددنا دنيا وأخرى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا، وجعلنا في الدارين في حمى أبيها وحماها، فقالت للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمْ: كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراب؟، وأخذت رضي اللَّه تعالى عنها وأنشأت تقول متحزنة على فراق أبيها سيد الكائنات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ماذا على من شمّ تربة أحمد   ألا يشمّ مدى الزمان غواليا

صُـبَّتْ علـيَّ مصـائب لـو أنهـا صُـبَّت علـى الأيـام عـدن لياليـا

قال رزين: ورشَّ قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رشَّه بلال بن رباح بقربة، بدأ من قِبَل رأسه، وجعل عليه من حصباء العرصة حمراء وبيضاء. ورفع قبره عن الأرض قدر شبر. وفي "البخاري" من حديث أبي بكر بن عياش عن سفيان التمار: إنه حدثه أنه رأى قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسنمًا -أَيْ: مرتفعًا-. زاد أبو نعيم: وقبر أبي بكر وعمر كذلك. واستدلَّ به على أن المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية.

(وعند رِجلَيْه) الشريفتَيْن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أبو بكر) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر، يلتقي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرة.

ولُقِّب بالعتيق أيضًا، إما لجماله وعتاقة وجهه، أو لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من سَرَّهُ أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر على هذا. وسُمِّي الصِّدِّيق لمبادرته إلى تصديق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أول من آمن به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صاحبه في الغار، وملازمه في هذه الدار وفي تلك الدار.

والإجماع على على أفضليته على سائر الصحابة، ولا يعتد بخلاف الروافض ومن قال بقولهم، وهذا مذهب الأكثر. وقد سُئِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أحب الناس إليه؟، فقال: عائشة، قيل: من الرجال؟، قال: أبوها. رواه البخاري. وقال: فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي. إلى غير

ذلك.

وتوفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الجمعة. وقيل: عشي يوم الاثنين. وقيل: ليلة الثلاثاء. وقيل: ليلة الأربعاء. لثلاث ليال أو سبع أو لثمان بقين من جمادى الآخر، سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. وغسلته زوجته أسماء بنت عميس، وصلَّى عليه عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودُفِن ليلاً. وقيل: مات مسمومًا. وقيل: أنه كان به طرق من سل. وقيل: أنه اغتسل بماء بارد فاعتلَّ علة اتصلت بها وفاته.

(وعمر الفاروق) هو أبو حفص عمر بن الخطَّاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. يلتقي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كعب. أسلم رابع أربعين رجلاً. وقيل: بعد بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة.

وهو أول من سُمِّي بأمير المؤمنين، ولُقِّب فاروقًا لكثرة فرقه -أَيْ: فصله- بني الحق والباطل، ولأنه أول من فرّق جمع المشركين ومقدم من أقام عماد الدين بسيفه بعد سيد المرسلين. وقيل: أن المُلقّب له جبريل أو المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أهل الكتاب روايات.

ولا خلاف أن رتبته بعد أبي بكر عند الموافق والمخالف. وسُئل مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خير الناس بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فقال: أبو بكر ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ثم قال: أو في ذلك شك!.

واستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين من

الهجرة، وعمره ثلاثة وستون سنة على خلاف فيه. قتله غلام المغيرة بن شعبة.

وقوله (مدفونان) أَيْ: كل منهما في قبر على حدة.

ثم اعلم أنه قد اختلف أهل السير وغيرهم في صفة القبور المقدسة على سبع روايات أو نحوها، وأصحها روايتان أو ثلاث. الأولى: ما عليه الأكثر وجزم به رزين ويحيى العلوي: أن قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدم إلى جدار القبلة، ثم قبر أبي بكر حذاء منكبي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقبر عمر حذاء منكبي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وعلى هذا اقتصر الغزالي في "الإحياء" والنووي في "الأذكار".

والثانية: ما رواه أبو داود والحاكم وصحَّ إسناده عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّدِّيق: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدم وأبو بكر رأسه بين كتفي رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمر رأسه عند رجلَيْ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثالثة: قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدم وقبر أبي بكر مؤخر قليلاً وإن كان خلفه، وعمر خلف رجلَيْ أبي بكر. وما عدا هذه الثلاثة ضعيفة.

ونقل أهل السير عن سعيد بن المسيب قال: بقي في البيت موضع قبر في السهوة الشريفة يدفن فيه عيسى بن مريم عليهما السلام، ويكون قبره الرابع.

وفي "المنتظم" لابن الجوزي عن ابن عمر أنَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض، فيتزوج ويولد له، ويمكث

خمسًا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر. كذا ذكره في "في تحقيق النصرة" والله أعلم. والمنكر منه قوله: خمسًا وأربعين سنة. فقد روى أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رفعه: أنه يمكث أربعين سنة. قال: وهذا أصح.

وصفة الروضة المُطهَّرة على ما هي عليه الآن بعد إنشائها عام ستة وثمانين وثمانمائة، على ما ذكره بعض المتأخرين عما أخبر به الشيخ أبو عبد الله محمد بن بركات الحطاب عن والده وقد حضر إنشاءها: أن القبور الشريفة ليس عليها علامة سوى ارتفاع الأرض، ثم بُنيت عليها قبة صغيرة كقباب صلحائنا في هذا الزمان، ليست بمثلثة ولا مربعة ولا مخمسة، مطموسة بالبنيان من أسفل ومن فوق، ولم يبق لها خلاف طاقة في أعلاها يخرج منها النور.

ثم على القبة المذكورة قبة أخرى أعظم منها، لكنها إلى التخميس أقرب، وهي ثلاث طبقات، الطبقة الأولى التي تلي الأساس، والأساس منشأ بحجارة سود ملبس بالرخام الأبيض، غير الرخامة التي فيها المسمار الفضي، فإنها حمراء جدًا، والطبقة الثالثة من العود وفيها تربة الكسوة، وليست بمطموسة كالأولى.

ثم على القبتين قبة شامخة تعلو الصومعة أو تقرب منها، وهي مربعة على أركان أربعة وسوار عشر غير الروضة الصغيرة، وأرضها مفروش بالرخام غير الموضع الذي يذكر أنه يدفن فيه عيسى عليه السلام في السهوة وهو مشهور عند الخدام، ومن شاهد ذلك.

ولها أربعة أبواب: باب التوبة وهو في قبلة المسجد في شباك نحاس، يفتح عند نزول الشدائد، ليس كأبواب الوفود يفتح كل ليلة لوقود المصابيح.

وباب فاطمة كذلك، يدخل منه بالشمع وبالمباخر كل ليلة، وفي ليلة الجمعة لكشف الصندوق المواجه لرأسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ورشه بماء الورد وغيره من الطيب، وفي صبحيتها لكنس الحجرة. وباب التهجد تارة بتارة.

وفي يوم الجمعة أيضًا تحلل الأبواب كلها بحلل الحرير. اللهم ارزقنا مشاهدتها بحرمته عندك يا رب العالمين آمين.

هذا ولما قُبِض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزيّنت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك أَيْ: السلطان، إذا كان عرش الرحمن قد اهتزَّ لموت بعض أتباعه فرحًا واستبشارًا لقدوم روحه، فكيف بقدوم روح الأرواح.

ومن آياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ذكر من بعد موته، من حزن حماره عليه حتى تردَّى في بئر، وكذا ناقته فإنها لم تأكل ولم تشرب حتى ماتت.

ومن عجيب ما اتفق ما روي عن عائشة: أنهم لما أرادوا غسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: لا ندري، أنجَرِّد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ثيابه كما نجرِّد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه، فلمَّا اختلفوا ألقى اللَّه عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلّا وذقنه في صدره، ثم كلَّمهم مُكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: اغسلوا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وعليه ثيابه، فقاموا وغسَّلوه عليه قميصه، يضعون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص. رواه البيهقي في "دلائل النبوة".

وقد روى ابن النجار: إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: رأيت الليلة أنِّي على بئر من الجنة، فأصبح على بئر غَرس -بفتح الغين- فتوضأ منها وبزق فيها.

وغسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث غسلات، الأولى: بالماء القراح، والثانية: بالماء والسدر، والثالثة: بالماء والكافور، وغسَّله علِيّ والعباس وابنه الفضل يعينانه، وقثم وأسامة وشقران مولاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصبون الماء وأعينهم معصوبة من وراء الستر، لحديث علي: لا يغسلني إلّا أنت فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طُمِسَت عيناه. رواه البزار والبيهقي.

وأخرج البيهقي عن الشعبي قال: غسل عليّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يقول وهو يغسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميتًا.

وكفّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة. وحنط ومسك وجمر بمسك.

والسحولية -بالفتح على الأشهر الأكثر في الروايات- منسوبة إلى السحول، وهو القصار لأنه يسحلها أَيْ: يغسلها، أو إلى سحول وهي قرية باليمن، وأما الضم فهو جمع سحل وهو الثوب الأبيض النقي، ولا يكون إلّا من قطن، وفيه شذوذ لأنه نسب إلى الجمع. وقيل: إن اسم القرية بالضم أيضًا. والكرسف: بضم الكاف وإسكان الراء، وضم السين

المهملتين والفاء: القطن.

(و) بعد ما غُسِّل وكُفِّن ووُضِع على سريره، صلَّى عليه جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت، ثم (صلَّت عليه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الملائكة) أجمعون. وجملة من صلَّى عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم ستون ألفًا، ومن غيرهم ثلاثون ألفًا. ذكره الشيخ سليمان الجمل.

(وعزَّت) بتشديد الزاي: من التعزية أَيْ: التسلية، يقال: عزَّيتهُ تعزية، قلت: أحسن اللَّه عزاءك، أَيْ: رزقك الصبر الحسن. أَيْ: سلت الملائكة (أهله مع الخضر) بفتح الخاء وكسر الضاد المعجمتين، ويجوز سكون ثانية مع ثانيه مع فتح أوله وكسره، ففيه ثلاث لغات. وهذا لقبه. وفي "الخازن": ولُقِّب بهذا لأنه كان إذا صلَّى اخضر ما حوله. وقيل: لأنه جلس على الأرض فاخضرت تحته اه. وكنيته أبو العباس، واسمه بلياء -بباء موحدة مفتوحة ولام ساكنة وباء تحتية وآخره ألف مقصور. ابن ملكان.

وهو من نسل نوح، وكان أبوه من الملوك. وقيل: كان من بني إسرائيل. وقيل: كان من أبناء الملوك الذين تزهَّدوا وتركوا الدنيا. قال الأستاذ الصاوي: سمعت من بعض العارفين: أن من عرف اسمه وكنيته ولقبه واسم أبيه دخل الجنة اه.

وقال شيخ الإسلام في "شرحه على البخاري" في كتاب العلم: واختُلِف في الخضر أهو نبي أو رسول أو ملك أو ولي؟، والصحيح أنه نبي. واختُلِف في حياته، والجمهور على أنه حي إلى يوم القيامة لشربه من ماء الحياة. (ذي العلوم اللدنية) بفتح اللام المشددة وضم الدال وتشديد

النون، أَيْ: المنسوبة للدن، وهو علم الغيوب وعلم الباطن.

قال في "المواهب": فلما توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاءت التعزية سمعوا صوتًا من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللَّه وبركاته، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، إن في اللَّه عزاء من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فباللَّه فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. فقال عليّ: أتدرون من هذا؟، هو الخضر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. رواه البيهقي في "دلائل النبوة".

وروى ابن أبي الدنيا عن أنس قال: لما قُبِض رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع أصحابه حوله يبكون، فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء، يتخطَّى أصحاب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أخذ بعضادتي باب البيت، فبكى على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في اللَّه عزاء من كل مصيبة، وعوضًا من كل فانٍ. الحديث.

وفيه: ثم ذهب الرجل، فقال أبو بكر: عليَّ بالرجل -أَيْ: ائتوني به- فنظروا يمينًا وشمالًا فلم يروا أحدًا، فقال أبو بكر لعلي: هذا الخضر جاء يعزينا.

(ثم) بعد صلاة الملائكة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صلَّى عليه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الرجال) أَيْ: فرادى (بوصايته) بكسر الواو والفتح لغة: اسم من وصيت إلى فلان توصية، وأوصيت إليه أيضًا. كما في

"المصباح". أَيْ: بأمره. (و) بعد صلاة الرجال عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى عليه (النساء) (و) بعدهم (الصبيان) بكسر الصاد: جمع صبي.

قال في "المواهب": وذكر الواحدي بسندٍ وصله بعبد الله بن مسعود: نعى لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه قبل موته بشهر، فلمَّا دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فقال: حياكم الله بالسلام، رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تلك الدار الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، قلنا: يا رسول الله متى أجلك؟، قال: دنا الفراق، والمنقلب إلى الله، وإلى جنة المأوى، قلنا: يا رسول الله مَن يغسّلك؟، قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى، قلنا: يا رسول الله فيم نكفنك؟، قال: في ثيابي هذه، وإن شئتم في بياض ثياب مصر، أو حلة يمنية، قلنا: يا رسول الله مَنْ يصلّي عليك؟، قال: إذا أنتم غسّلتموني وكفّنتموني، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أوّل من يصلي عليّ جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت ومعه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا، فصلوا علي وسلموا تسليمًا، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي، ثم نسائهم، ثم أنتم، وأقرءوا السلام على من غاب من أصحابي ومن تبعني على ديني، من يومي هذا إلى يوم القيامة، قلنا: يا رسول الله مَنْ يدخلك قبرك؟، قال:

أهلي مع ملائكة ربي.

وفي حديث ابن عباس عند ابن ماجة: لما فرغوا من جهازه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الثلاثاء، وضع على سريره في بيته، ثم دخل الناس عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسالًا يصلون عليه، حتى إذا فرغوا دخل النساء، حتى إذا فرغن دخل الصبيان، ولم يؤمّ الناس على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد. وفي روايةٍ: إنَّ أول من صلَّى عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الملائكة أفواجًا، ثم أهل بيته، ثم الناس فوجًا فوجًا، ثم نساؤه آخرًا.

وروي أنه لما صلَّى أهل بيته لم يدر الناس ما يقولون، فسألوا ابن مسعود، فأمرهم أن يسألوا عليًّا، فقال لهم: قولوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ الآية، لبيك اللهم ربنا وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبَّح لك من شيء يا رب العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الشاهد البشير، الداعي إليك بإذنك، السراج المنير، وعليه السلام. ذكره الشيخ زين الدين بن الحسين المراغي في كتابه "تحقيق النصرة" في تاريخ دار الهجرة. وظاهر هذا أن المراد ما ذهب إليه جماعة أنه لم يصل عليه الصلاة المعتادة، وإنما كان الناس يأتون فيدعون.

قال الباجي: ووجهه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من كل شهيد، والشهيد يغنيه فضله عن الصلاة عليه، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى، قال: وإنما فارق الشهيد في الغسل، لأن الشهيد حذر من غسله إزالة الدم

عنه، وهو مطلوب بقاؤه لطيبه، ولأنه عنوان لشهادته في الآخرة، وليس على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تكره إزالته، فافترقا اه.

لكن قال عياض: الصحيح الذي عليه الجمهور، أنَّ الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت صلاة حقيقية لا مجرّد الدعاء فقط اه.

وأجيب عمَّا اعتلّ به الأولون بأن المقصود من الصلاة عليه عود التشريف على المسلمين، مع أن الكامل يقبل زيادة التكميل، نعم لا خلاف أنه لم يؤمّهم أحد عليه كما مَرَّ لقول علِيّ: هو إمامكم حيًّا وميتًا، فلا يقوم عليه أحد. الحديث. رواه ابن سعد وأخرج الترمذي، أن الناس قالوا لأبي بكر: أنصلي على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، قال: نعم، قالوا: وكيف نصلي؟، قال: يدخل قوم فيكبِّرون ويصلون ويدعون، ثم يدخل قوم فيصلون فيكبِّرون ويدعون فرادى. واللَّه أعلم.

(وعمَّت) بتشديد الميم أيْ: شملت (ملته) وشريعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (في جميع) أقطار الأرض (القربية) بضم القاف وسكون الراء: المنسوبة للقريبة أَيْ: القريبة. (والبعدية) بضم الموحدة وسكون العين المنسوبة للبُعد أَيْ: البعيدة.

(ولم يُحْرَم) بضم المثناة التحتية وسكون الحاء وفتح الراء، مبنيًا للمفعول أَيْ: لم يُمْنَع (من رحمته وبركته شيءٌ من الأكوان) أَيْ: المخلوقات، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المرحوم به العالم بنصِّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وإن كل خير ونور وبركة شاعت وظهرت في الوجود أو تظهر، من أول الإيجاد إلى آخره، إنما ذلك بسببه صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال أبو بكر بن طاهر: زيّن اللَّه مُحمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينة الرحمة، فكان كونه -أَيْ: وجوده- رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب اه.

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فَكَانَتْ حَيَاتُهُ رَحْمَةً وَممَاتُهُ رَحْمَةً، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ. رواه ابن مسعود بسند صحيح. أَيْ: كل من حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموته نفعٌ لمن دخل تحت الخطاب. أو أن حياته أنفع من موته في وقتها، وموته أنفع في وقته من وجه لنفعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بنحو شفاعته عند عرض أعمالهم عليه يوم الاثنين، وفتح باب الاجتهاد وترك الاتّكال والمشي على على الاحتياط، وكالإثابة بالحزن لموته، وتسهيل كل مصيبة بمصيبته، والاعتبار به، والرحمة الناشئة من اختلاف أمته وارتفاع الشدائد بتوقيره.

وفي الحديث زيادة في بعض التعاليق، وهي: أما حياتي فأبين لكم السن وأشرع لكم الشرائع، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علَيَّ، فما رأيت منها حسنًا حمدت اللَّه، وما رأيت منها سيئًا استغفرت اللَّه لكم.

وأيضًا فإن الملائكة تعرض عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة من صلّى عليه وتبلّغها له في وقت واحد، وإن لم يحص عددها كما قال القائل:

كالشمس في وسط السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقًا ومغاربا

وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أُمَّة أحيا نبيها فأهلكها وهو ينظر، فأقرَّ عينيه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره. رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري. وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم، ولا تأكل الأرض أبدانهم، فموتهم ليس كموت غيرهم، فهم كمن أرسله الملك لأمر فأتم وعاد إليه.

وقال السمرقندي: رحمة للعالمين يعني: للجن والإنس. وقيل: لجميع الخلق للمؤمنين رحمة بالهداية، ورحمة للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، إِذْ عُوفُوا مِمَّا أَصَابَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ. وقال أبو عبد الله الترمذي في "نوادر الأصول": جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ بَابًا زَائِدًا وَهُوَ بَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ بَابُ الرَّحْمَةِ وَبَابُ التَّوْبَةِ، فَهُوَ مُنْذُ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَفْتُوحٌ لَا يُغْلَقُ، فَإِذَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا أُغْلِقَ فَلَمْ يُفْتَحْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَائِرُ أَبْوَابِ الْأَعْمَالِ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ، ثُمَّ قَالَ: فَأَمَّا بَابُ التَّوْبَةِ مِنْ الْجَنَّةِ الزَّائِدُ عَلَى الْأَبْوَابِ، فَلَيْسَ هُوَ بَابُ عَمَلٍ، إِنَّمَا هُوَ بَابُ الرَّحْمَةِ الْعُظْمَى، إليه تدخل توبة العباد إلى الله تعالى.

ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا نَبِيُّ التَّوْبَةِ وَأَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ. فنفسُ مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للعالمين وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبعثهم رحمة. فلذلك سعد من أجاب ما بُعثوا به من الهدى،

وعوجل بالعذاب من أعرض عنهم.

ومُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مولده ونفسه رحمة وأمان، وكذا مدفنه إلى نفخ الصور، فحرمة تلك الرحمة وأمانه قائم إلى يوم الدين.

وَأَمَّا وَصْفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيْثُ جِهَتِهِ الخَلْقِيَّة ❁ فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَقِيقَةِ كَان ❁ فَخماً مُفَخَّماً وَجْهُهُ كَالدَّائِرة القَمرِيَّة ❁ أَطْوَلَ مِنَ المَرْبُوعِ وَأَقْصَرَ مِنَ المُشَذَّبِ الَّذِي طُولُهُ قَدْ بَان ❁ عَظِيمَ الهَامَةِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ وَاسِعَ الجَبِينِ أَزَجَّ الحَوَاجِبِ غَيْرَ مَقْرُونِيَّة ❁ لَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ رَجِلَ الشَّعْرَان ❁ بَيْنَ حَاجِبَيْهِ عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبُ أَقْنَى العِرْنِينِ ذَا الحِلْيَةِ الحَلِيَّة ❁ لَهُ نُورٌ يَعلُوهُ يَحسِبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلهُ أَشَمَّ وَهُوَ خَطْآن ❁ كَثَّ اللِّحْيَةِ سَهْلَ الخَدَّيْنِ الوَرْدِيَّة ❁ كَامِلَ الجَمَالِ فِطْرَةً أَدْعَجَ العَيْنَان ❁ وَاسِعَ الفَمِ يَفْتَتِحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِشِدْقَيْهِ العَسَلِيَّة ❁ أَشْنَبَ وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ مُفَلَّجُ الأَسْنَان ❁ لَهُ شَعَرٌ دَقِيقٌ مِنْ صَدْرِهِ إِلَى سُرَّتِهِ يُسَمَّى المَسْرُبَةَ الشَّعْرِيَّة ❁ وَعُنُقُهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ بَيضَان ❁ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ بَادِناً مُتَمَاسِكاً ذَا رَوَائِحَ مِسْكِيَّةٍ طِيبِيَّة ❁ سَوَآءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ مَسِيحَهُ بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَان ❁ ضَخْمَ الكَرَادِيسِ أَيْ رُءُوسِ العِظَامِ المَجْلِيَّة ❁ أَشْعَرَ المَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ وَالذِّرَاعَان ❁ عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ بِتَصْحِيحِ الشَّمَائِلِ التِّرْمِذِيَّة ❁ طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ رَحْبَ الرَّاحَةِ شَثْنَ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَان ❁ سَبْطَ العَصَبِ سَابِلَ الطَّرْفِ ذَا النَّظَرَاتِ الجَمَالِيَّة ❁ يَنْبُو المَاءُ عَنْ كَفَّيْ رِجْلَيْهِ إِذَا ضَحِكَ يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ مُبْدٍ لِذَلِكَ الحُبَّان❁ أَيِ الحُبُوبِ المَحْظِيَّة ❁ نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ جُلُّ نَظَرِهِ المُلَاحَظَةُ يَسُوقُ أَصْحَابَهُ رُكْبَاناً وَمِشْيَان ❁ دَائِمَ البِشْرِ يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ مِشْيَةً رُوحَانِيَّة ❁ دَائِمَ الفِكْرِ طَوِيلَ السُّكُوتِ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَان ❁

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

ثم لما فرغَ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الكلام على ابتداء وجوده إلى انتهائه بمفارقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدنيا، أخَذَ يتكلم على أوصافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظاهرة والباطنة، وقدَّم الكلام على الأوصاف الظاهرة لأنها عنوان الباطنة، وإن كانت الباطنة أشرف، إذ الظاهرة عليها التكاليف والباطنة يتولى اللَّه أمرها، كما في الحديث: أُمرت أن أحكم بالظاهر واللَّه يتولى السرائر.

ولأن الأوصاف الظاهرة كالدليل على الباطنة، وحُسن الخَلْق -بالفتح- علامة حسن الخُلق -بالضم- غالبًا، مراعيًا الترقي في أوصافه وللترتيب الوجودي، إذ الظاهر مقدّم خلقًا على الباطن.

فاصلاً بين ما تقدَّم على عادته بالصلاة والسلام على خير الأنام فقال: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

شرَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشمائل والأوصاف الشريفة والأحوال المنيفة فقال: (وأما وصفه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بفتح الواو وسكون الصاد المهملة- أَيْ: نعته وهو مفرد مضاف يعم.

والمُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يذكر إلا بعض البعض، وسيأتي في الباب الآتي بعد هذا، يقول: ولنذكر بعض نزر أَيْ: قليل، إذ لا يقدر على إحاطة كمالاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ من المخلوقين، ولا يحيط بها إلا خالقه سبحانه وتعالى.

ولذلك قال: (من حيث جهته) بضم التاء أَيْ: حالته وصفاته من كمال

وجمال وجلال ووقار وحلم إلى غير ذلك من أحواله (الخَلْقية) بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام، نسبة إلى الخَلْق بفتح الخاء وسكون اللام أصله: التقدير المستقيم الموافق، ويستعمل في الإيجاد ومنه: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وفي المخلوق ومنه: والصلاة على خير خلقه.

والمراد به هنا: الصورة الظاهرة، وأما الخُلُق بضمتين: فهو الصورة الباطنة وهي النفس وأوصافها ومعانيها التي تخصها. كذا ذكره بعضهم. وقال الراغب: الخلق بضمتين يقال في القوى المدركة بالبصيرة كالحلم والعلم والسخاء. والخَلْق بفتح فسكون يقال في الهيئات المدركة بالبصر كالبياض والقدين أَيْ: الطول والقصر.

واعلم أن تمام الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاعتقاد بأنه لم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسر ذلك أن المحاسن الظاهرة آيات على المحاسن الباطنة والأخلاق الزكية، ويشير إليه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطلبوا الخير من حسان الوجوه، ولا أكمل منه بل لا مساوي له في هذا المدلول فكذلك في الدال.

ومن ثم نقل القرطبي عن بعضهم: أنه لم يظهر تمام حسنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا لما طاقت الصحابة النظر إليه، وهذه التشبيهات الواردة في حقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فذاته أعلى ومجده أغلى.

(فهو) أَيْ: النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحقيقة) الأزلية (كان) لا

يستطيع أحد أن ينعته، بل كان على غاية الحسن كما قال المحدثون، أَيْ: من ابتداء طفولته إلى آخر عمره، كما تفيده كان التي للاستمرار عند قوم.

(فخمًا) بفتح الفاء وإسكان الخاء المعجمة على الأشهر، واقتصر عليه السيوطي وكأنه الرواية، وإلا فيجوز كسرها، أَيْ: عظيمًا في نفسه، وامتلاء جسده بالمهابة والجمال، بحيث يملأ عين رائيه. (مفخمًا) بضم الميم وفتح الفاء والخاء المعجمة المشددة: اسم مفعول أَيْ: معظمًا في صدور الصدور وعيون العيون، لا يستطيع مكابر أن لا يعظمه وإن حرص على ترط تعظيمه كان مخالفًا لما في باطنه.

أو مفخمًا عظيم القدر عند صحبه، مفخمًا معظمًا عند من لم يره قط، فهو عظيم أبدًا، وفخمًا عند الله مفخمًا عند الخلق، فعليه ليست الفخامة والضخامة في جسمه. وقيل: المراد فخامة الوجه امتلاؤه بالجمال والمهابة، أو كثرة لحم الوجنتين مع كمال الجمال.

وبدأ بالوجه دون الهامة، لأنه أول ما يتوجه إليه النظر، وأشرف ما في الإنسان وغيره، فقال: (وجهه) الشريف (كالدائرة القمرية) أَيْ: المنسوبة للقمر، سُمّي قمرًا لبياضه، ودائرة القمر: ما حوله، وهي الهالة أَيْ: كأنه في شدة نور هالة القمر يضيء.

قال علِيّ كرَّم اللَّه وجهه في وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان فى وجهه تدوير. أَيْ: شيء قليل منه. قال أبو عبيد: يريد أنه ما كان فى غاية التدوير، بل كان فيه سهولة وهى أحلى عند العرب وغيرهم من كل ذي ذوق سليم وطبع قويم. بل قال الترمذي الحكيم: استدارته المفرطة دالة على الجهل.

وفي حديث أبي هريرة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أسيل الخدَّيْن غير مرتفع الوجنتين. قال ابن الأثير: الأسالة في الخد الاستطالة، بأن لا يكون مرتفع الوجنة أَيْ: عاليها.

وقال ابن أبي هالة فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر. أَيْ: يستنير ويشرق ويضيء، وأصل تلألأ أبيض، فأشبه بياض اللؤلؤ وسمي لؤلؤ لضوئه وإشراقه. وليلة البدر: ليلة أربعة عشر، سُمِّي بدرًا لأنه يسبق طلوعه مغيب الشمس، والقمر ليلة البدر أحسن ما يكون وأتم، وشبَّه الوصَّاف تلألؤ الوجه بتلألؤ القمر دون الشمس، لأنه ظهر في عالم مظلم بظلام الكفر، والقمر يظهر في الظلمة، ونور القمر أنفع من نور الشمس، فنور وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنفع من نور الشمس.

وهذا أحسن من الجواب بأن القمر يتمكن من النظر إليه ويأنس به من شاهده من غير أذى يتولّد عنه، بخلاف الشمس فإنها تغشى البصر وتؤذي، على أنه ورد تشبيهه بالشمس أيضًا.

وفي "النهاية" لابن الأثير: كان وجهه المرآة. وكان الجدر يرى شخصها في وجهه لشدة بياضه وصفائه. ثم تشبيه بعض صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنيرين إنما هو جرى على التمثيل العادي، وإلا فلا شيء يماثل شيئًا من أوصافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(أطول) بالنصب على أنه خبر آخر لكان (من المربوع) بفتح الميم وسكون الراء وضم الموحدة آخره عين مهملة: وهو الذي بين الطول والقصر، كالربعة أَيْ: معتدل القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، لكنه

إلى الطول أقرب، كما يفيده وصف الطول بالبائن، وجاء مصرحًا به في رواية البيهقي.

ويؤيده خبر البراء: كان ربعة وهو إلى الطول أقرب. فوصفه بالربعة تقريبي لا تحديدي، ولا ريب أن القرب إلى الطول في القامة أحسن وألطف. ومن معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان إذا ماشى الطوال كان أطول منهم، وذلك كي لا يتطاول عليه أحد صورة، كما لا يتطاول عليه معنى.

(وأقصر) بالنصب عطف على أطول. (من المشذب) بضم الميم وفتح الشين المعجمة وتشديد الذال المعجمة المفتوحة آخره باء موحدة: اسم مفعول، وهو المفرط في الطول. ولذا قال: (الذي طوله قد بان) أَيْ: ظهر مع نحافة. وقيل: الطول مطلقًا. وفي "القاموس": المشذب بمعجمات آخرها موحدة: الطويل الحسن الخلق، كالشوذب، فهو أبلغ من قولهم: لم يكن بالطويل البائن لأنه ينفي الطول، ويفيد حسن الخلق. وأصله من النخلة الطويلة التي شذب منها جريدها أَيْ: قطع. كما في "القارئ".

(عظيم) بالنصب. (الهامة) بالهاء وتخفيف الميم: الرأس لكل ذي روح، وليس المراد أنها مفرطة في الكبر، بل كبيرة كبرًا نسبيًا، لأنه ممدوح، وأعون على الإدراكات، ولأن صغرها وإفراط كبرها غير ممدوح، ولدلالة الكبير جدا على البلادة، كما أن الصغير جدًا على قلة العقل.

وقيل: الهامة وسط الرأس. وقيل: مخه. ولها معان أخر، يعني مناسبة هنا. وعظم الرأس ممدوح لدلالته على كمال القوى الدماغية، وبها يتميز

الإنسان عن غيره، وكمالها قوة تصرفها فيما هي له.

ومن كمال صفاته أنه كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (أزهر اللون) أَيْ: حسنه مشرقه: وهو المتوسط بين الحمرة والبياض. أَيْ: مشرب بحمرة.

وقد اختلف الرواة في لونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقيل: أبيض، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأبيض مشرب بحمرة عن عليّ كرَّم اللَّه وجهه، وفي رواية أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أزهر اللون كما هنا، وعنه أيضًا كان أسمر.

وفي الصحيح عن أنس: لم يكن بالأبيض الأمهق -أَيْ: الخالص البياض كلون الجير- فإنه غير محمود. وما وقع في رواية أنه أمهق ليس بأبيض مقلوبة أو وهم كما قاله القاضي عياض. أو المهق بمعنى الخضرة، كما قاله ابن حجر الهيتمي. وليس بالآدم -بالمد- أَيْ: الأسمر.

ورد الطبراني في الأحكام رواية أسمر، ورواه غيره كالترمذي في "الشمائل"، وعامة المحدثين فسّروا الأزهر بالأبيض المنير المشرق، وقد وفقوا بين الروايات بأن المراد بالبياض البياض المعتدل المعتاد. ويؤيده: ليس بالأمهق، ولا ينافيه أنه: مشرب بحمرة، وأنه كان أسمر في بعض الأوقات لمقابلته للشمس، فتعتريه حمرة أحيانًا وهو المراد بكونه آدم، وليس المراد أنه شديد السمرة، سمي به الأسمر لشبهه بأديم الأرض، كما أن الأبيض الأمهق الشديد البياض الذي لا يخالطه حمرة كالبرص.

والأحاديث دالة عن أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن شديد البياض ولا شديد السمرة. وعن الخطابي: الجمع بين حديثي السمرة والبياض أن

السمرة فيما برز للشمس من بدنه الشريف، والبياض فيما تواريه الثياب، ويؤيده ما جاء في رواية ابن أبي هالة: أنور المتجرد.

وأيضًا ففي الحديث أنه مشرب بحمرة. والحمرة إذا أشبعت حكت السمرة. وقيل: أن ما في "الشمائل" عن أنس: أبيض كأنما صيغ من فضة. لا يعارج وصف علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحمرة، لأنه عنى وجهه الشريف، وأنس جسده.

أقول: ما ذُكر من أنه عارض من تأثير الشمس يأباه السياق، لأن الظاهر من لونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أمر خلقي لا عارض، لأن مثله لا يقال أنه لونه، والراوي له أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قريبًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملازمًا له، لا يخفى عليه أمره حتى يصفه بغير صفته الملازمة له.

قال ابن حجر الهيتمي: الأولى حمل السمرة على الحمرة التي تخالط البياض، وهو المراد، والعرب تطلق على من كان كذلك أسمر. ويؤيده رواية البيهقي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان أبيض بياضه إلى السمرة. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أحمر إلى البياض.

فثبت من مجموع الروايات وصفه ببياض فيه حمرة. ورواية: أنه شديد البياض، محمولة على الأمر النسبي، فإنكار رواية أسمر لا وجه له اهـ.

فالحق أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أبيض مشرب بحمرة، وهو أحسن الألوان لدلالته على قوة المزاج واعتداله، وهذا معنى أزهر، ويقال له أسمر، نظرًا لميله للحمرة، ومن أطلق عليه آدم على هذا. وأما قوله: كأنما صيغ من فضة، فلم يرد به شدة بياضه، بل حسن منظره ورونقه.

فإن قلت: كيف قالوا: إن سمرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تأثير الشمس، وقد كان الغمام يظله؟. أجيب: بأن ذلك كان في أول أمره إرهاصًا لنبوته، وأما بعدها فلم يحفظ ذلك، كيف وأبو بكر ظلل عليه بثوبه لما وصل المدينة، وصح أنه ظلل بثوبه وهو يرمي الجمرات في حجة الوداع. ذكره الشهاب في "شرح الشفا".

تنبيه: قال ابن حجر: قال أئمتنا: مَنْ قال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أسود أو غير قرشي أو توفي أمردًا كفَرَ، لأن وصفه بغير صفته الأصلية الملازمة له نفي له وتكذيب، ومنه يؤخذ أن كل صفة ثبتت له بالتواتر نفيها كفر، فهذا القائل قد كذب وافترى، ووصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما فيه إشعار بالتحقير، وهذا مما صرح به الفقهاء وعللوه بأنه قصد الكذب استخفافًا.

واعلم أن أشرف الألوان البياض المشرب بحمرة أو صفرة، أما الأول فلأنه يدل على غلبة الدم المورث لقوة المزاج واعتداله الناشيء عن الغذاء في الدنيا، وأما غذاء الآخرة فله شأن آخر.

وأما الثاني فلأنه لون أهل الجنة فيها، ولأن الصفرة فيها بريق ولمعان يناسب النساء دون الرجال، ولذا مدحن به في أشعار العرب، مع أنه ناشيء عن ترك الحركة وكثرة النوم والترفه، ولذا قالوا: الأولى لهن أن لا يلبسن البياض لما فيه من التشبه بالرجال.

فجمع اللَّه للمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الأشرفين، ولم يكن لونه في الدنيا كلونه في الآخرة، لئلا يفوته إحدى الحسنين.

(واسع الجبين) بالنصب: والجبين كما في "الصحاح": فوق الصدغ، وهو ما اكتنف الجبهة من يمين وشمال فهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها. والمراد بسعتها امتدادهما طولاً وعرضًا، وهو بمعنى صلت الجبين في رواية، وعظيمة في أخرى.

وسعة الجبين محمودة عند كل ذي ذوق سليم. وفي "المصباح": وَالْجَبِينُ نَاحِيَةُ الْجَبْهَةِ مِنْ مُحَاذَاةِ النَّزَعَةِ إلَى الصُّدْغِ، وَهُمَا جَبِينَانِ عَنْ يَمِينِ الْجَبْهَةِ وَشِمَالِهَا، قَالَهُ الْأَزْهَرِيُّ وَابْنُ فَارِسٍ وَغَيْرُهُمَا. فَتَكُونُ الْجَبْهَةُ بَيْنَ جَبِينَيْنِ، وَجَمْعُهُ جُبُنٌ مِثْلُ: بَرِيدٍ وَبُرُدٍ اه.

ومحصله أن الجبين هو المحاذي للحاجب إلى منبت شعر الرأس. وفيه أيضًا: الجبهة مستوى ما بين الحاجبين إلى الناصية.

(أزج) بفتح الهمزة والزاي المعجمة وتشديد الجيم. وهذا وكل ما ورد في حديث الحلية صفات مشبهة، لأنها تجري كذلك في الصفات والحلي ويوصف به الرجل. والحاجب في المدح أَيْ: مقوس.

(الحواجب) أَيْ: الحاجبين مع وفور الشعر ومع طوله في طرفه وامتداده، أو دقيقهما مع طول. والزجج بفتح الزاي وجيمين مفتوح أولهما: استقواس الحاجبين مع طول. كذا في "القاموس". وفي "الفائق": دقة الحاجبين وسبوغهما إِلَى مُؤخر الْعين. غير عريض ولا كثيف. وقيل فيه: أزج دون مزجّج، لأن الزجج خلقة والتزجيج صنعة، وهو ما تسميه العامة تحفيفًا -بالحاء المهملة-، والخلقة أشرف. وعليه قوله: ومقلة وحاجبًا مزجّجًا. وقوله: وزجّجن الحواجب والعيونا أَيْ: صنعن ذلك

بدليل عطف العيون عليه.

والحواجب: جمع حاجب، والحجب: المنع، ومنه حاجب العين وهو ما فوق العين بلحمه وشعره، وهو صفة غالبة. أو هو الشعر الذي على العظم وحده، سُمّي به لمنعه الشمس عن العين. وصفة غير العاقل، تجمع جمع المؤنث على ما في "الصحاح"، وعدل عن التثنية إلى الجمع مبالغة في امتدادهما حتى صارا كعدة حواجب، كأنه جعل كل قطعة اسمها حاجب، فوقع الجمع على القطع المختلفة مبالغة، وهذا أدق من قول جمع وضع الحواجب موضع الحاجبين، لأن التثنية جمع.

(غير) بالجمع نعت الحواجب، (مقرونية) بفتح الميم وسكون القاف أَيْ: المنسوبة للقَرَن بفتحتين: وهو الاجتماع والاتصال، والاقتران بين الحاجبين، بحيث يلتقي طرفاهما، وضده البَلَج بفتحتين: وهو نقاوة ما بين الحاجبين من الشعر.

يعني: أن طرفي حاجبَيْه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سبغا أَيْ: طالا حتى كادا يلتقيان ولم يلتقيا، فهو مكمل للوصف المذكور.

قال في "المواهب" و"شرحها": وأما صفة جبينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضح الجبين، بهذا وصفه علي، مقرون الحاجبين، صلت الجبين -بفتح الصاد المهملة وإسكان اللام وفوقية- أَيْ: واضحه.

وذكر ابن أبي خيثمة: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجلى الجبين إذا طلع جبينه من بين الشعر، أو طلع من فلق الشعر، أو عند الليل، أو طلع بوجهه

على الناس تراءى، أي: جبينه، كأنَّه هو السراج المتوقّد يتلألأ، وكانوا يقولون: هو -كما قال شاعره حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

متى يبدو في الليل البهيم جبينه   بلج مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد   نظام لحق أو نكال لملحد

وعند البيهقي عن رجل من الصحابة قال: رأيت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا رجل حسن الجسم، عظيم الجبهة، دقيق الحاجبين، بالدال من الدقة خلاف الغلظ أَيْ: دقيقهما. ولله در القائل:

جبينه مشرق من فوق طرته   يتلو الضحى ليلة والليل كافره
بالمسك خطت على كافور جبهته   من فوق نوناتها سينًا ضفائره
مكمل الخلق ما تحصى خصائصه   منضر الحسن قد قلت نظائره

وقال ابن أبي هالة: أزجّ الحواجب، وفُسِّرَ بالمقوس الطويل الوافر الشعر. ثم قال: سوابغ من غير قَرَنٍ، بينهما عرق يدره الغضب، أي: يمتلئ دمًا إذا غضب، كما يمتلئ الضرع لبنًا إذا در. قاله في "النهاية".

وعن مقاتل بن حيان قال: أوحى اللَّه تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول، إني خلقتك من غير فحل، فجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد، وعليَّ فتوكّل، فَسر لأهل سوران: أني أنا اللَّه الحي القيوم، الذي لا أزول، صدقوا النبي الأمي، صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والهراوة، الجعد الرأس، الصلت الجبين، المقرون الحاجبين، الأهدب الأشفار، الأدعج العينين، الأقنى الأنف، الواضح الخدين، الكث اللحية، عرقه في وجهه كاللؤلؤ،

وريحه كالمسك ينفح منه، كأن عنقه إبريق فضة. الحديث.

وما وصفه به ابن أبي هالة مخالفًا لما في حديث مقاتل بن حيان من قوله: مقرون الحاجبين، ومخالف لما في حديث أم معبد، فإنها قالت: أحور أكحل أزج أقرن أَيْ: مقرون الحاجبين، قال ابن الأثير: والأوّل هو الصحيح في صفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: سوابغ في غير قرن.

وقال غيره: إنه المشهور، وإن قول الحسن: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافًا، رد لما جاء بخلافه، وجمع بأن المراد في خبر أم معبد على فرض صحته، أنه كان بحسب ما يبدو للناظر من بعد، أو بغير تأمّل، وأما القريب المتأمل فيرى بين حاجبيه فاصلًا لطيفًا مستبينًا، فهو أبلج في الواقع، أقرن بحسب الظاهر للناظر من بعد، أو بلا تأمل، كما في وصف أنفه، يحسبه من لم يتأمّله أشمّ، ولم يكن أشمّ، وبأنَّ بينهما شعرًا خفيفًا جدًّا، يظهر إذا وقع عليه الغبار، في نحو سفر، وحديثها سفري، والقول بأنّ القرن حدث بعد فيه.

قال الأنطاكي وغيره: والقرن معدود من معايب الحواجب، والعرب تكرهه، وأهل القيافة تذمّه، ويستحبون البلج، خلاف ما عليه العجم، وإذا دقَّقت النظر علمت أن نظر العرب أدق، وطبعهم أرقّ.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا يجاوز) بضم المثناة التحتية أَيْ: لا يتعدّى (شعره) بسكون العين: جمعه شعور كفلس وفلوس، وبفتحها جمعه أشعار كسبب أسباب، وجمع تشبيهًا لاسم الجنس بالمفرد، وهو مذكر واحدته شعرة، وهو نِبتة الجسم مما ليس بصوف ولا وبر للإنسان وغيره.

(شحمة أذنيه) بالنصب مفعول يجاوز. والأذنين: تثنية أُذُن -بضمتين وتسكّن تخفيفًا- وهي مؤنثة وجمعها آذان. وشحمتها -بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة-: ما لانَ في أسفلها وهو معلق القرط -بضم القاف- كما في "المصباح".

(رجل الشعران) بفتح الراء وكسر الجيم وفتحها وسكونها كما في "المفهم"، وزاد غيره وضمها، والشعران بزيادة الألف والنون أَيْ: كان في شعره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعودة وشثن متوسط، فكان بين الجعودة والسبوطة.

والمُراد أن شعره ليس لها نهاية في الجعودة وهي تكسره الشديد ولا في السبوطة وهي عدم تكسره وتثنيه بالكلية، بل كان وسطًا بينهما وخير الأمور أوساطها. قال الزمخشري: الغالب على العرب جعودة الشعر، وعلى العجم سبوطته، فقد أحسن الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشمائل، وجمع فيه ما تفرّق في الطوائف من الفضائل اه.

واعلم أن شعر رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أسود وكذا شعر لحيته. فروى الطبراني: ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره.

وأن الروايات اختلفت في مقدار شعر رأسه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طولاً وقصرًا وقلة وكثرة وغير ذلك. فرُوِي عن قتادة قال: سألت أنسًا عن شعر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: شعر بين شعرين، لا رَجِل ولا سبط ولا جعد قطط، كان بين أذنيه وعاتقه. وفي رواية: كان رَجِلًا ليس بالسبط ولا الجعد بين أذنيه وعاتقه. وفي أخرى: إلى أنصاف

أذنيه. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إناء واحد، وكان له شعر فوق الجمة ودون الوفرة. رواه الترمذي وأبو داود. والوفرة بفتح الواو وبالفاء: الشعر الواصل إلى شحمة الأذن.

وقال ابن أبي هالة: كان رَجِل الشعر إن انفرقت عقيقته فرقها وإلّا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره.

والعقيقة -بالقافين: شعر رأسه الشريف، ويروى: إن انفرقت عقيصته -بالصاد المهملة- وهي الشعر المعقوص. والمشهور عقيقته بالقافين. وعن ابن عباس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رءوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رءوسهم، وكان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه أَيْ: ألقى شعره إلى جانبَيْ رأسه، فلم ينزل منه شيئًا على جبهته، وإنما أحبَّ موافقتهم لتمسّكهم في زمانه ببقايا شرائع الرسل، والمشركون وثنيون لا مستند لهم إلّا ما وجدوا عليه آباءهم. قال الحافظ: فكانت موافقتهم أحبّ إليه من موافقة عباد الوثن، فلما أسلم غالبهم، أحبَّ حينئذ مخالفة أهل الكتاب اه. قال النووي وغيره: أو كان لاستئلافهم كما تألَّفهم باستقبال قبلتهم اه.

وسدل الشعر إرساله على الجبين واتخاذه كالقصة -بضم القاف وصاد مهملة- وهي شعر الناصية يقص حول الجبهة، والمراد أنه كان يتركه على حاله يشبه الشعر المقصوص.

وأمَّا الفرق: فهو فرق الشعر بعضه من بعض. قال العلماء: والفرق سُنَّة لأنه الذي رجع إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحيح جواز الفرق والسدل معًا، لكن الفرق أفضل لأنه الذي رجع إليه، فكأنه ظهر الشرع به، لكن لا وجوبًا؛ لأن من الصحب من سدل بعد ذلك، فلو كان الفرق واجبًا ما سدلوا.

وفي حديث أنس كان شعره إلى أنصاف أذنيه، وفي حديث البراء: يضرب إلى منكبيه. وفي حديث أبي رمثة: يبلغ إلى كتفيه أو منكبيه. وفي رواية: ما رأيت من ذي لمة أحسن منه. والجمة بضم الجيم وشد الميم: هي الشعر الذي نزل إلى المنكبين. واللمة بكسر اللام وشد الميم: الشعر المتجاوز شحمة الأذن مع الوصول إلى المنكب.

قال القاضي عياض: والجمع بين هذه الروايات: إن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه. وقال: قيل: بل ذلك لاختلاف الأوقات، فإذا غفل عن تقصيرها بلغت المنكب، وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك اه.

ورد الجمع الأوّل بأن من وصف شعره إنما أراد مجموعه أو معظمه، لا كل قطعة منه، لكن لا ضير فيه لحصول الجمع به، وقد مشى على نحوه الداودي، وتبعه غيره فقال: المراد أنَّ معظم شعره كان عند شحمة أذنه، وما استرسل منه متصل إلى المنكب، قال الحافظ: قول هند بن أبي هالة: إذا هو وفَّره، أَيْ: جعله وفرة، فهذا القيد يؤيد هذا الجمع.

وَالْأَوْلَى الجواب بأَنَّهُ حَلَقَ رَأَسَهُ فِي حَجِّهِ وَعُمْرَتِهِ، فَإِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ

الْحَلْقِ كَانَ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ ثُمَّ يَطُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَيَصِيرُ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ وَمَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ، وَغَايَةُ طُولِهِ أَنَّهُ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ إِذَا طَالَ زَمَانُ إِرْسَالِهِ بَعْدَ الْحَلْقِ فَأَخْبَرَ كُلُّ من الرواة عن حين من الأحيان بوصف من أوصافه. قاله القارئ.

خاتمة ظاهر هذه الأحاديث أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يَحْلِق رَأْسَهُ بغير نسك، وعلى مقتضاه جرى الحافظ الزين العراقي في "ألفيته". قال بعض شُرَّاح "المصابيح": لم يحلق رأسه فِي سِنِي الْهِجْرَةِ إِلَّا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ ثُمَّ عَامَ عمرة الْقَضَاءِ ثُمَّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ. فليعتبر الطول والقصر منه بالمسافات الواقعة منه في تلك الأزمنة، وأقصرها ما كان في حجة الوداع، فإنه توفي بعدها بثلاثة أشهر.

وروى الترمذي في "الشمائل" عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: قدم رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مكة قدمة وله أربع غدائر ذوائب. يخرج الأذن اليمنى من بين غديرتين يكتنفانها، وكذا الأذن اليسرى من بين غديرتين يكتنفانها، تخرج الأذنان ببياضهما من بين تلك الغدائر، كأنَّها توقد الكواكب الدرية بين سواد شعره، قاله ابن أبي خيثمة.

وفيه: حل ضفر الشعر حتى للرجال وليس مما يختص بالنساء، إلا بالنظر لما اعتيد فى أكثر البلاد فى هذه الأزمنة المتأخرة، ولا اعتبار به. قاله المناوي.

(بين حاجبيه) بلفظ التثنية: إشارة إلى أن الحواجب فيما تقدَّم في معنى الحاجبين، وهذا حال من الحواجب وترك الواو في الجملة الإسمية جائز.

(عرق) بكسر فسكون: أجوف يكون فيه الدم، (يدره) بضم أوله وكسر ثانيه وشد ثالثه أَيْ: يحركه ويظهره (الغضب) فيمتلئ ذلك العرق دمًا فيظهر ويرتفع. وأصله من الإدرار: وهو إخراج الريح المطر من السحابة.

والمعنى أن الغضب يحركه ويظهره وليس المعنى أنه لم يكن وأن الغضب يوجده بل هو موجود، والغضب يظهره بإثره ما فيه من الدم، وفيه دليل على كمال قوته الغضبية التي عليها حماية الديار وقمع الأشرار وكمال الوقار، وتمكنه من الغيظ. وبالجملة صفة عرق.

(أقنى) بألف مفتوحة وقاف ساكنة فنون مخففة مفتوحة: من القنى وهو ارتفاع أعلى الأنف مع دقة أرنبته مع خدب في وسطه، وهو معنى قول ابن الأثير: وهو السائل الأنف المرتفع وسطه، وقيل: هو نتوء في وسط القصبة، والأول أولى بالمدح.

(العرنين) بكسر العين المهملة وسكون الراء وكسر النون الأولى. قيل: هو ما صلب من عظم الأنف فهو قصبة. وقيل: هو مجموع الأنف. وقيل: هو أوله الذي هو تحت مجتمع الحاجبين، والمناسب هنا الثاني.

والمعنى أن أنفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان فيه طول مع حدب في وسطه، فلم يكن طوله مع استواء بل كان في وسطه بعض ارتفاع. وهو وصف مدح يقال: رجل أقنى وامرأة قنواء. وعرانين الناس أشرافهم ووجوهم، وعرانين السحاب أوائل مطره، وعرنين كل شيء: أوله، ويُكنَّى به عن العزيز المحسود في قومه لأجل ما فيه من العز ومنه:

إن العرانين تلقاها محسدة ... وما ترى للئام الناس حسادا

(ذا) أَيْ: صاحب (الحلية) بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وفتح المثناة التحتية أَيْ: الخلقة والهيئة والصورة والصفة والشكل، وكل منها يمكن أن يراد هنا، والمقام يقتضي الحمل على الصفة لأنه أنسب، أَيْ: كأنه إبريق فضة صافية خالصة أَيْ: صاحب الصفة (الحلية) بفتح المهملة وكسر اللام وشد المثناة التحتية أَيْ: الموصوفة المنعوتة المزينة.

(له) أَيْ: لذلك العرنين (نور) أَيْ: يكسوه ويغلبه من حسنه وبهاء رونقه، (يحسبه) أَيْ: يظن ذلك العرنين (من) فاعل يحسب (لم يتأمله) بمعنى يمعن النظر فيه أَيْ: يتأمله قبل إمعان النظر فيه، والتأمل: إعادة النظر في الشيء مرة بعد أخرى حتى يعرفه ويتحققه.

وقوله: (أشم) قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "شرح المشكاة" لجده سيدي عبد الله الميرغني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشمم: ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها، يعني له نور يعلوه مستويًا حيث يرى أعلاه مستويًا قبل التأمُّل، وهو مفعول ثاني ليحسبه، والشمم بفتحتين أَيْ: يظن أنه أشم.

(و) الحال أنه (هو) أَيْ: الرائي غير المتأمل (خطآن) بفتح الخاء المعجمة وسكون الطاء بعدها همزة مفتوحة وزن عطشان أَيْ: غير مصيب في نظره. والمعنى أن الرائي له قبل التأمل يظن أعلاه مستويًا، وهذا إنما لحسن قناه ولنور علاه، بحيث يمنع الناظر من التفكُّر فيه، ولو أمعن النظر حكم بأنه ليس بأشم.

(كث) بالنصب وهو بفتح الكاف وتشديد المثلثة، وفي رواية: كثيف، وفي أخرى: عظيم، (اللحية) بكسر اللام وسكون المهملة: الشعر النابت

على الذقن وهو مجتمع اللحيين، يعني أن لحيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت عظيمة معتدلة طولاً وعرضًا كثيرة الشعر غير خفيفة.

قال الزين العراقي: هكذا وصف عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابن مسعود وأم معبد وهند رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وفي رواية حميد عن أنس: كانت لحيته قد ملأت من هنا إلى هنا، ومد بعض الرواة يده على عارضيه. وفي رواية سماك عن جابر: كان كث شعر الرأس واللحية. وفي رواية: كث اللحية قد ملأت صدره. وفي رواية البيهقي: كان أسود اللحية حسن الشعر ليس بجعد ولا سبط.

وفي مسلم عن أنس: كان في لحيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شعرات بيض. وفي رواية له عنده: لم ير من الشيب إلّا قليلًا، وفي أخرى له أيضًا: لو شئت أن أعد شمطات كنّ في رأسه ولم يخضب. وعنده أيضًا: لم يخضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إنما كان البياض في عنفقته وفي الصدغين وفي الرأس نبذ -بضم النون وفتح الباء الموحدة وبفتح النون وإسكان الموحدة، أي: شعرات متفرقة. وفى حديث أنس عند البيهقي: ما شانه الله بالشيب، ما كان فى رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة يعني شعرة بيضاء.

قال الشيخ عبد الجليل في "شعب الإيمان" فيما حكاه عنه الفاكهاني: إنما كان كذلك لأنَّ النساء يكرهن الشيب غالبًا، ومن كره من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا كفر.

واختلف العلماء: هل خضب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بنحو الحناء أم لا؟.

قال القاضي عياض: منعه الأكثرون وهو مذهب مالك. وقال النووي: المختار أنَّه صبغ في وقت، وترك في معظم الأوقات، فأخبر كلٌّ بما رأى وهو صادق، قال: وهذا التأويل كالمتعين لحديث ابن عمر في الصحيحين: أنه رأى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصبغ بالصفرة، ولا يمكن تركه لصحته، ولا تأويل له اه. أقول: فيه نظر إذ هو في نفسه محتمل للثياب والشعر، ثم قد ورد ما يعين الأول، وهو ما في "سنن أبي داود": كان يصبغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالورس والزعفران حتى عمامته.

فيحمل حديث من أثبت الخضاب على أنه فعله لإرادة بيان الجواز ولم يواظب عليه، ويحمل نفي أنس على غلبة الشيب حتى يحتاج إلى خضابه، ولم يتَّفق أنه رآه وهو يخضب كما في "الفتح". وما رواه الترمذي عن أنس: رأيت شعر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخضوبًا، فقد حكم الحُفَّاظ بأنه شاذّ وبيّنوا أوجه الشذوذ، فلا يقاوم ما في الصحيحين عنه من طرق كثيرة أنه لم يخضّب، وعلى تقدير الصحة جمع بأن الشعر لما تغيّر بكثرة الطيب سمَّاه مخضوبًا، وبأنه أراد بالنفي أكثر أحواله، وبالإثبات إن صحَّ عنه أقلّها.

وأما اختلاف الرواية في قدر شيبه فالجمع بينهما أنه رأى شيبًا يسيرًا، فمن أثبت شيبه أخبر عن ذلك اليسير، ومن نفاه أراد أنه لم يكثر فيه، كما قال في الرواية الأخرى: لم ير الشيب إلّا قليلًا. وعن أنس: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. رواه البغوي في "شرح السنة".

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان

يأخذ من لحيته من عرضها وطولها. رواه الترمذي وقال: حديث غريب. وأخرج الترمذي عن ابن عباس وحسّنه قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقصّ شاربه. وعنده من حديث زيد بن أرقم قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من لم يأخذ من شاربه فليس منا. وفي الصحيحين: حديث: خالفوا المشركين، وفِّروا اللحى وأحفوا الشوارب. كذا في "المواهب".

(سهل) بالنصب: وهو بفتح السين المهملة وسكون الهاء آخره لام ككتف بمعنى: لين. (الخدين) غير مرتفع الوجنتين وهو بمعنى خبر البزَّار والبيهقي: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسيل الخدين. وهو أعلى وأحلى عند العرب. والخدان ما جاوزا مؤخر العينين إلى منتهى الشدق أو اللذان يكتنفان الأنف عن يمين وشمال، أو من لدُن المَحجِرِ إلى اللحي، جمعه خدود كما في "القاموس". (الوردية) صفة الخدين، والورد بالفتح: مشموم معروف الواحدة وردة، ويقال وردت الشجرة توردًا: إذا أخرجت وردها، كما في "المصباح".

(كامل) بالنصب: أَيْ: تام (الجمال) بفتح الجيم: مصدر جمُل الرجل -بالضم والكسر- جمالاً فهو جميل: وهو رقة الحسن، كما في "المصباح".

(فطرة) بالنصب: أَيْ: خلقة، قال في "المواهب": حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه لأنه الذي تَمَّ معناه دون غيره، وهي غير منقسمة بينه وبين غيره، وإلّا لما كان حسنه تامًّا، لأنه إذا انقسم لم ينله إلّا بعضه فلا يكون تامًّا اه.

وفي شفا ابن سبع: أنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضيء البيت المظلم

من نوره، ولكن لم يظهر لنا حقيقة حسنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما طاقت أعيننا رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكذلك لم يظهر لنا تمام عقله لأنه لا تحتمل قلوبنا ذلك. وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لأتكلم على قدر عقولكم اه.

قال الشيخ ابن عبد الجليل في "شعب الإيمان": وحُسْن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره جزء من حُسْنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه على صورة اسمه خُلِق، ولولا أن اللَّه تعالى ستر جماله صورة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهيبة والوقار وأعمى عنه آخرين، لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة. وقد وقعت لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إبرة في ظلمة الليل في بيتها فرأتها وأبصرتها بنور ضياء وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الصحيح: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان وجهه الشريف مثل الشمس ومثل البدر، على قدر ما يستطيع كل أحد أن ينظر إليه، ومنهم من لم يكن يملأ عينيه منه اه. وتمام الجمال يرجع إلى الصورة الظاهرة والأخلاق والأحوال الباطنة ومعاملة الخلق والخالق.

(أدعج) بمهملتين فجيم (العينان) مجرور بالألف على لغة كما تقدَّم، أَيْ: شديد سواد الحدقة مع سعة العين. ففي "الصحاح": الدعج محركة: شدة سواد العين مع سعتها. وفي "النهاية": الدعجة: السواد في العين وغيرها. وقيل: شدة بياض البياض وسواد السواد، وهو الأنسب بمقام المدح.

(واسع الفم) بالنصب: عظيمه، والعرب تمدح بسعة الفم وتذم ضيقه،

لدلالة سعة الفم على الفصاحة والضيق على ضدها. وفي مسلم من حديث جابر بن سمرة: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ضليع الفم. بفتح الضاد المعجمة أَيْ: طويل أشداق الفم واسعه، ولسعة فمه الدالة على فصاحته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان (يفتتح) من الافتتاح أَيْ: يبدو (الكلام ويختتمه) بمثناتين فوقيتين أولاهما مفتوحة والثانية مكسورة: من الاختتام.

وفي روايةٍ: ويختمه بمثناة واحدة فوقية مكسورة: من الختم أَيْ: ويتمه (بشدقَيْه) مثنى شدق بكسر الشين المعجمة وفتحها وسكون الدال: طرف الفم أَيْ: أنه يتسعمل جميع فمه للتكلُّم، ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين، أو هو كناية عن سعة فمه. والوصف بسعته مدح عند العرب.

أما التشدُّق المذموم المنهي عنه على ما ورد في بعض الأخبار كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمُتَشَدِّقُونَ. فالمُراد منه أن يفتح فاه ويتسع في الكلام ويتكلف في العبارة من غير قصد المرام.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ كَلَامَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ وَسَطًا عَدْلًا خَارِجًا عَنْ طَرَفَي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، مِنْ فَتْحِ كُلِّ الْفَمِ، وَالِاقْتِصَارِ عَلَى طَرَفِهِ الْقَلِيلِ الْقَاصِرِ عَنْ تَأْدِيَةِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَيَكُونُ بَيَانًا لِفَصَاحَةِ كَلَامِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله: (العسلية) بفتح المهملتين أَيْ: المنسوبة للعسل المنبثة من ريقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو شفاء للداء الحسي والمعنوي. فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن عباد اللَّه شفتين وألطفهم ختم فم. كما قال

الشاعر:

بحر من الشهد في فيه مراشفه　　ياقوته صدف فيه جواهره

رُوِيَ عن أبي قرصافة قال: بايعنا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا وأمي وخالتي، فلمَّا رجعنا قالت لي أمي وخالتي: يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن وجهًا، ولا أنقى ثوبًا، ولا ألين كلامًا، ورأينا كالنور يخرج من فيه.

وقد صحَّ أنه يوم خيبر تفل في عين علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان به رمد فبرئ منه لوقته، وأعطاه الراية ففتح اللَّه على يديه. وجاء: أنه مجَّ في بئر ففاح منها رائحة المسك، وأنه بزق في أخرى فلم يكن في المدينة أطيب وأحلى ماء منها

وَأَنَّهُ كَانَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ يبزق فِي أَفْوَاهِ رُضَعَائِهِ رُضَعَاءِ بِنْتِهِ فَاطِمَةَ، وينهى عن إرضاعهم فيجْزِيهِمْ رِيقُهُ إِلَى اللَّيْلِ. ودخلت عليه عميرة بنت مسعود الأنصارية هي وأخواتها يبايعنه وهنَّ خمس، فوجدنه يأكل قديدًا - أَيْ: لحمًا مُجَّففًا في الشمس- فمضغ لهنَّ قديدة فمضغنها، كل واحدة منهن قطعة قطعة، فلقين اللَّه وما وجد لأفواههنّ خلوفٌ.

ومسح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الشريفة بعد أن نفث فيها من ريقه على ظهر عتبة وبطنه، وكان به شرى، فما كان يشم أطيب رائحة منه. والشَّرى بفتح الشين المعجمة: خراج صغار لها لذع شديد كما في "المختار".

وأعطى الحسن لسانه وكان قد اشتد ظَمَؤُهُ فمصَّه حتى روي. وللَّه در

إمام العارفين سَيِّدي محمد وفا الشاذلي المالكي حيث قال:

جنى النحل في فيه وفيه حياتنا ... ولكنه من لي بلثم لثامه
رحيق الثنايا والمثاني تنفست ... إذا قال في فيح بطيب ختامه

والفيح بفتح الفاء وسكون الياء أَيْ: رائحة. وقوله: بطيب متعلّق بتنفست.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح خلق الله وأعذبهم كلامًا وأسرعهم أداءً وأحلاهم منطقًا، حتى كان كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح. قال سيدي محمد وفا:

ينظم در الثغر نثر مقوله ... فيا حسنه ونثره ونظامه
يناجي فينجي من يناجي من الجوى ... فكل كليم برؤه في كلامه

ففصاحة لسانه وبديع بيانه وحكمة وجوامع كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غاية لا يُدرك مداها، ومنزلة لا يُدانى منتهاها، كيف وقد ارتقى في كل ذلك الغاية التي لم يدركها مخلوق. حتى قال بعض العلماء: أن كلامه معجز كالقرآن. كما في "المواهب" وغيرها.

(أشنب) بالنصب وبفتح الهمزة وإسكان المعجمة وفتح النون وموحدة أَيْ: ذا شنب بفتحتين وهي كما في "النهاية" بياض وبريق وصفاء وتحديدًا في الأسنان. وقيل: هو رونقها أَيْ: حسنها وماؤها. وقيل: هو برد وعذوبة فيها. وقيل: نُقَط بِيض وتحديد فيها. كما في "الشهاب".

(وقد) للتحقيق (صحَّ) أيْ: في حديث ابن أبي هالة كما في "الشمائل الترمذية" (أنه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مفلّج) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد

اللام آخره جيم. في "القاموس": رَجُلٌ مُفَلَّجُ الثَّنَايَا: مُنْفَرِجُهَا. وظاهره اختصاص الفلج بالثنايا من (الأسنان) ويؤيده إضافته إلى الثنيتين في خبر ابن عباس: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفلج الثنيتين. من الفلج محركًا أَيْ: بعيد ما بين الثنايا والرباعيات.

وقول العصام يحتمل أنّ المراد الانفراج مطلقًا، يردّه أن المقام مقام مدح، وقد صرح جمعٌ من شرَّاح "الشفا" وغيرهم بأن تباعد ما بين الأسنان كلها عيب عند العرب.

وقد حمل بعضهم قوله: مفلج الأسنان على استعمال الفلج في جزء معناه، وحمل الأسنان على الثنايا والرباعيات. قال ابن دريد وغيره: لا بد من الإضافة إلى الأسنان. قيل: وكأنه لاشتهار أفلج فيمن بعد ما بين يديه وقدميه، وأكثر الفلج يكون في العليا وهي صفة جميلة، لكن مع قلة لأنها ممدوحة والكثرة عيب. والفلج أنقى للفم وأطيب وأبلغ في الفصاحة، لأن اللسان يتَّسع فيها بخلاف الأَلَصّ أَيْ: المتقارب الأضراس.

قال في "المواهب": وقال علِيّ: مبلج -بالباء الموحدة الساكنة بعد الميم المضمومة- أَيْ: مشرق ومضيء الثنايا. أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة. وعند ابن عساكر عن علِيّ: براق الثنايا. وفي حديث ابن عباس أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفلج الثنتين، كان إذا تكلم ريء كالنور أَيْ: شعاع مثل النور، يخرج من بين ثناياه أَيْ: من الثنايا نفسها أو من داخل الفم، وطريقه من بينها.

والمراد يُرى شيء أبيض له صفا يلمع كالنور معجزة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، وهو نور حسِيّ ووَهم مَنْ قال معنوِيّ. وزعم أن المراد ألفاظه على طريق التشبيه، وأنه أشار بذلك إلى أنه لا يقول إلا حقًّا، أو إلى القرآن والسنة لأنه خلاف الظاهر المتبادر من قوله: رئ اه.

والثنايا جمع تثنية بفتح المثلثة وكسر النون وشد التحتية، وهي أربع في مقدم الفم: ثنتان من فوق وثنتان من تحت. والأسنان: بفتح الهمزة بوزن أحمال: جمع سن، والسن من الفم مؤنثة. ويقال للإنسان اثنتان وثلاثون سنًا، أربع ثنايا وأربع رباعيات وأربعة أنياب وأربعة نواجد، وستة عشر ضرسًا. وبعضهم يقول: أربعة ثنايا وأربع رباعيات وأربعة أنياب وأربعة نواجد وأربع ضواحك واثنتا عشرة رحى.

(له) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خبر مقدّم لقوله: (شعر) وهو مبتدأ مؤخّر: بسكون العين وقد تفتح، وقوله: (دقيق) صفة شعر: وهو بالدال المهملة من الدقة خلاف الغلظ، والمراد أنه ليس بعريض ولا متكاثف بل رقيق ممتد. (من صدره) الشريف (إلى سُرَّته) بضم السين المهملة: ما بقي بعد القطع، والمقطوع سُرّ بلا تاء وبضم السين، كما في "الصحاح".

(يُسَمَّى) ذلك الشعر (المسربة) بفتح الميم وسكون السين المهملة وضم الراء وقد تفتح وبالموحدة: وهي الشعر الدقيق النابت من وسط الصدر سائلاً ومتواصلاً إلى السُّرة كالقضيب.

وفسَّرها الترمذي في "الشمائل" بقوله: والمسربة الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، وأصله من السربة بضم فسكون: وهي الطريقة من كرم وغيره، ووصفها بالدقة للمبالغة إذ هي الشعر الدقيق. وفي

"المصباح": والمسربة بضم الراء: الصدر يأخذ إلى العانة، والفتح لغة. حكاها في المحرر. وأما المسربة بفتح الراء واحد المسارب وهي مجرى الغائط ومخرجه، سميت بذلك لانسراب الخارج منها. وتطلق أيضًا على الشعر النابت على حلقة الدبر. وعلى المرعى كما في "القاموس".

وفي رواية البيهقي: له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب، ليس على صدره ولا بطنه غيره. وعليه يفيد وصفها بالطول كما يفيد وصفها بالدقة.

وروى الطيالسي والطبراني عن أم هانئ فقالت: ما رأيت بطن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا ذكرت القراطيس المثْنَى بعضها على بعض.

وقوله: (الشعرية) بفتحتين أَيْ: المنسوبة للشعر.

(و) كان (عنقه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بضم العين المهملة والنون وسكونها، يذكّر ويؤنّث باعتبار رجوع الضمير فيقال باعتبار التذكير العنق مستقيمًا مثلاً، وباعتبار التأنيث مستقيمة كذلك.

كأنه (جيد) بكسر الجيم وإسكان الياء التحتية: هو العنق، وإنما عبَّر بقوله جيد كراهة للتكرار اللفظي ولأجل التفنُّن. قال السهيلي في "الروض": أن العنق والجيد بمعنى واحد، إلا أن الجيد يستعمل في المدح والعنق بخلافه، فتقول: ضعفت عنقه لا جيده، وأن قوله تعالى في امرأة أبي لهب: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾، بجعل الحبل كالعقد لها، فيكون تهكُّمًا بها وتلميحًا بما ذكر اه بتصرُّف. قال الشهاب: وما هنا على أصل اللغة لا على نهج الاستعمال فلا اعتراض عليه اه.

وقوله (دمية) بضم الدال المهملة وسكون الميم بعدها مثناة تحتية مفتوحة: وهي الصورة المتخذة من نحو رخام أو عاج أو غيرهما، من كامل الحسن.

والمعنى كان عنقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنه عنق صورة مصورة مستوية معتدلة ظريفة الشكل حسنة الهيئة والكمال.

(في صفاء) بفتح الصاد أَيْ: نقاوة وإشراق وجمال أَيْ: لون عنقه ك(الفضة) في البياض والإشراق. ولذلك قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بَيَضان) بفتحتان أَيْ: بياضًا خالصًا وهو منصوب على التمييز حُذفت ألفه في اللفظ والخط لمراعاة السجع، ويقاس عليه نظائره فيما تقدّم وفيما سيأتي من شُرَّاح الشمائل.

المُراد هنا مطلق الصورة التي بولغ في تحسينها، ويؤيده قول الزمخشري: الدمية الصورة، فشبَّه عنقه بالدمية في الاستواء والاعتدال وظرف الشكل وحسن الهيئة. والكمال بالفضة في اللون والإشراق.

واعلم أن العرب تصف العنق بالبياض لأنه إذا كان أبيض مع بروزه للشمس فغيره أولى، وهو مخالف لقول من زعم أن ما استتر من بدنه كان أبيض وما برز للشمس كان أسمر كما مرَّ توضيحه في حديث أم معبد في قولها لزوجها وهي تصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عنقه سطع أَيْ: ارتفاع وطول لكنه غير مفرط الطول كما يرشد إليه قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(معتدل الخلق) بفتح الخاء المعجمة وسكون اللام أَيْ: متوسط الخلقة أَيْ: الصورة الظاهرة بين الطول والقصر والسمن والهزال والضخامة

والصغر، فهو متناسب الأعضاء غير متنافرها، مستقيم في أحسن تقويم، فكل متناسب معتدل وكل متوسط في كم وكيف معتدل، وكل مستقيم قويم معتدل، وهذا الكلام إجمال بعد تفصيل بالنسبة لما قبله وتفصيل بعد إجمال بالنسبة لما قبله. ويجوز في معتدل النصب على الخبرية لكان السابقة على أنه خبر مبتدأ محذوب أَيْ: هو معتدل. والجملة مستقلة والنصب أظهر.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بادنًا) في "المصباح": بَدَنَ بُدُونًا مِنْ بَابِ قَعَدَ أَيْ: عَظُمَ بَدَنُهُ بِكَثْرَةِ لَحْمِهِ، وَبَدُنَ بَدَانَةً مِثْلُ: ضَخُمَ ضَخَامَةً، وَبَدَّنَ تَبْدِينًا: كَبِرَ وَأَسَنَّ اه.

والمُراد هنا أنه ضخم البدن لا مطلقًا بل بالنسبة لما سيأتي من كونه شثن الكفين والقدمين، أو المراد بأنه بادن في جميع بدنه أَيْ: سمين سمنًا معتدلاً بدليل رواية: لَمْ يَكُنْ بالمُكَلْثَم. ولذا قال بعضهم أنه لم يكن سمينًا جدًّا ولا نحيفًا جدًّا، غيره أنه في الآخر كان أكثر لحمًا، فغايته أن يراد بالبدانة قدر من السمن كان في آخر عمره أزيد، لكن لم يخرج به عن حد الاعتدال، ولم يكن منافيًا للجمال، ولما كانت البدانة قد تكون من الأعضاء وقد تكون من كثرة اللحم والسمن المفرط المستوجب لرخاوة البدن وهو مذموم.

أردفه بما ينفي ذلك فقال: (متماسكًا) بمسك بعض أجزائه بعضًا من غير ترجرج. وقيل معناه: ليس بمسترخي البدن. قال الغزالي: لحمه متماسك يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السن، أَرَادَ أنه فِي السن

الَّذِي شَأْنه استرخاء اللَّحْم كَانَ كالشباب.

ثم أن قوله: بادنًا فيه وجهين في الإعراب: إما أن يكون بالنصب على أنه خبر لكان كما قدرنا، أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف. وقوله: متماسكًا بالوجهين صفة بادنًا. وروي بنصب بادن ورفع متماسك فيكون خبر لمبتدأ مقدّر كما في "الشهاب".

(ذا) أَيْ: صاحب (روائح) بفتح الراء: جمع رائحة (مسكية) بكسر الميم وسكون السين المهملة: وهو طيب معروف، والعرب تسميه المشموم وهو عندهم أفضل من الطيب.

وقوله: (طيبية) بكسر الطاء المهملة وسكون التحتية أَيْ: منسوبة للطيب، وقد جعل اللَّه في رائحة العطر نفعًا لمالكه وغيره لا يختص به مالكه إلا بكونه حامله، والمقصود منه وهو الرائحة مشترك بينه وبين غيره.

والمشهور في المسك أنه دم يتجمد في خارج سرة ظباء معينة في أماكن مخصوصة، وينقل بحكمة الحكيم أطيب الطيب، وفي الحديث: أطيب الطيب المسك رواه مسلم وغيره.

وذكر في "القاموس" من فوائده: أنه مُقَوٍّ للقَلْبِ، مُشَجِّعٌ للسَوْداوِيِّينَ، نافِعٌ للخَفَقَانِ والرِياحِ الغَليظَةِ في الأمْعاءِ والسُّمومِ والسُّدَدِ اه. وهو طاهر لأنه وإن كان دمًا فقد تغير، والتغير هو الاستحالة إلى الطيبية وهي من المطهرات عندنا، فيحل أكله ووضعه في الأطعمة والأدوية لضرورة أولاً.

واعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان طيب الرائحة دائمًا من حين وُلِد كما رُوِي عن أمه آمنة: لما ولدته قالت: ثم نظرت إليه فإذا هو كالقمر ليلة

البدر يسطع ورائحته كالمسك الأزفر. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الغاية العليا ومع هذا يستعمل الطيب في أكثر أوقاته مبالغة في طيب ريحه، لملاقاة الملائكة وأخذ الوحي ومجالسة المسلمين.

ولأنّه حُبِّبَ إليه كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ. الحديث.

وقد كانت تلك الرائحة الطيبة الزكية هي صفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتية غير مكتسبة وإن لم يمس طيبًا كما في رواية أحمد عن أنس: ما شممت ريحًا قط ولا مسكًا ولا عنبرًا أطيب من ريح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي رواية البخاري: ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي رواية الترمذي: ولا شممت مسكًا قط ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي روايةٍ: من عرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والعرف بفتح العين وسكون الراء وبالفاء: الريح. والعرق بفتحتين: شمع. وكلا الروايتين صحيح.

وروى أبو يعلى والطبراني: أَنَّ رَجُلاً اسْتَعَانَ بِهِ فِي تَجْهِيزِ بِنْتِهِ فاستدعى بِقَارُورَةٍ وسلت فيها مِنْ عَرَقِهِ، وَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَطَيَّبْ بِهِ فَكَانَتْ إِذَا تَطَيَّبَتْ بِهِ شَمَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الطِّيبَ، فَسُمُّوا بَيْتَ الْمُطَيَّبِينَ.

وروى الدرامي والبيهقي عن جابر بن عبد الله: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن في طريق فيتبعه أحد إلّا عرف أنه سلكه من طيب

عرقه وعرفه، ولم يكن يمر بحجر إلّا سجد له.

وروى أبو يعلى والبزَّار عن أنس قال: كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مَرَّ في طريق من طُرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب وقالوا: مَرَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذا الطريق. ولله در القائل:

فلو أن ركبًا يمَّموك لقادهم نسيمك حتى يستدل به الركب

وحديث خلق الورد من عرقه أو من عرق جبريل أو من عرق البراق موضوع. قال الجلال السيوطي: ما ورد في الورد رويت فيه أحاديث كلها موضوعة، منها حديث علِيّ مرفوعًا: لما أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ مِنْ عَرَقِي فَنَبَتَ مِنْهُ الْوَرْدُ فَمَنْ أَحبَّ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَتِي فَلْيَشُمَّ الْوَرْدَ. أخرجه ابن عدي في "كامله".

وحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: الْوَرْدُ الأَبْيَضُ خُلِقَ مِنْ عَرَقِي لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَخُلِقَ الْوَرْدُ الأَحْمَرُ مِنْ عَرَقِ جِبْرِيلَ، وَخُلِقَ الْوَرْدُ الأَصْفَرُ مِنْ عَرَقِ الْبُرَاقِ. أخرجه ابن فارس في كتاب "الريحان". والحديثان أوردهما ابن الجوزي في "الموضوعات"، ونصّ على وضع الثاني أيضًا الحافظ الكبير ابن عساكر اه.

وجاء من وجه غريب: أن ما كان يخرج منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبتلعه الأرض ويشم منه رائحة المسك، وكذلك الأنبياء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ذكره في "الخصائص الصغرى".

وأيّدهُ الحافظ عبد الغني بأن أحدًا من الصحابة لم يذكر أنه رآه البول، فإنهم كانوا يشربون بوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستشفون به كدمه.

وفيه دلالة على طهارة بوله ودمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه لم يأمر أحدًا منهم بغسل فمه ولا نهاه عن عودة. قال النووي في "شرح المهذّب": واستدلَّ من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين: أنَّ أبا طيبة الحجام حجمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرب دمه ولم ينكر عليه، وأنَّ امرأة شربت بوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم ينكر عليها.

قال القاضي عياض: وَشَاهِدُ دليل القول بالطهارة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن منه شئ يُكْرَهُ وَلَا غَيْرُ طَيِّبٍ. فإن النجاسة للاستقزار وكراهة التلوث، ولم يكن مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء مكروه عند الطباع السليمة، وذلك كافٍ في الاحتجاج لكل الفضلات قياسًا.

ثم قال النووي: أن القاضي حسينًا قال: الأصح القطع بطهارة جميع فضلاته، وبه جزم البغوي وغيره، واختاره كثير من متأخري الشافعية، وصححه السبكي وابن الرفعة والبلقيني وغيرهم. قال الرملي: وهو المعتمد.

وبهذا قال أبو حنيفة كما قاله العيني في "الشفا" قال قوم بطهارة الحدثين وهو قول أصحاب الشافعي، وقد حكي القولين عن علماء الحنفية وغيرهم أبو بكر بن سابق المالكي. والكلام على ذلك مُفصّل في كتب الفقه.

(سواء) بفتح السين والواو والألف الممدودة وبالنصب والتنوين: صفة بادنًا، أو بالرفع والتنوين: خبر مبتدأ محذوف، و(البطن) بالجر: مضاف إليه، (والصدر) معطوف على البطن أو بالرفع: مبتدأ. وسواء خبر مُقدَّم، ولا

حاجة لتقدير منه ولا لجعل ال عوضًا عن الضمير.

وهو إشارة إلى اعتدال خلقهما وعدم خروجهما أو أحدهما عن الاعتدال، فإن البطن إذا كان بارزًا أو مضمرًا لم يكن من الصفات الحسنة، وكذلك الصدر إذا برز أو تطامن، وَسَوَاءُ الشَّيْءِ: وَسَطُهُ لِاسْتِوَاءِ الْمَسَافَةِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْرَافِ.

والبطن: الجارحة المعروفة وجمعه بطون، وقد بطنته: أصبت بطنه، والبطن خلاف الظهر من كل شيء. والصدر: من الإنسان وغيره معروف، والجمع صدور كفلس وفلوس. وفي رواية برفع سواء غير منون. وخفضهن لبطن والصدر على الإضافة، وعلى هذا ففي سواء ضمير عائد على الموصوف.

والمعنى أن صدره وبطنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متسويان، بطنه لا يزيد على صدره وصدره لا يزيد على بطنه، وفي "الفائق": المراد بتساويهما أن بطنه معتدل من غير اعوجاج فهو غير مستفيض فهو مساو لظهره ولصدره عرضًا فهو مساو لبطنه اه.

فعليه قوله: (مسيحه) أَيْ: الصدر كالمؤكد لما قبله وهو بفتح الميم وكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية وحاء مهملة، بمعنى: أنه عريض متسع مع مساواته لبطنه من غير تقاعس وانخفاض فيه. ذكره الشهاب. وكون الصدر عريضًا مما يمدح به الرجال.

(بعيد) بفتح فكسر: صفة بعد صفة ويبعد جعله خبرًا بعد خبر لكان، مضاف إلى (ما بين المنكبان) وما موصولة أَيْ: بعيد المكان الذي بين

المنكبين، وهما تثنية منكب بفتح الميم وسكون الميم وكسر الكاف آخره باء موحدة: وهو ما بين الكتف والعنق، وأراد ببعد ما بينهما أنه عريض أعلى الظهر.

ومن ثم جاء في رواية ابن سعد: رحب الصدر أَيْ: واسعه، وذلك آية النجابة، وجعل ما بين المنكبين كناية عن سعة الصدر، فينتقل منه إلى الجود هذا الجعل وهو الكناية المذكورة حسن، لكن يرد عليه أنه يصيره حينئذ من باب الأخلاق ونحن في باب الخُلق.

وجاء في روايةٍ: بُعَيْد بضم الموحدة مصغّرًا وهو تصغير ترخيم للبعيد كلام وغليم، والأصل في تصغيرهما بُعَيّد وغليّم بتشديد الياء فيهما، وصغّره تقليلاً للبعد المذكور، إيماءً إلى أن بعد ما بين المنكبين لم يكن منافيًا للاعتدال وفيه تكلُّف. قاله المناوي في "شرح الشمائل".

والمنكبان في العالمان ونظائره.

(ضخم) أَيْ: غليظ بالنصب وهو بفتح الضاد المعجمة وسكون الخاء المعجمة أيضًا وآخره ميم: اسم فاعل ضخُم بضم الخاء أَيْ: غليظ.

والضخم: الغليظ من كل شيء كما ذكره في "الصحاح" عن أهل اللغة.

والضخم بالفتح والتحريك: العظيم من كل شيء، أو العظيم الجرم الكثير اللحم اه "قاموس". يعني أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غليظ وعظيم (الكراديس) بفتح الكاف والراء في الجمع لكُرْدُوس بالضم وفي المفرد.

وقد فسَّر المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكراديس وإن لم يكن من وظائف المتون بل وظائف الشُّرَّاح بقوله: (أَيْ: رؤوس العظام) فهو تفسير للكراديس.

وقيل: هي كل عظمين التقيا في مفصل نحو الركبتين والمنكبين والوركين، وكيف ما كان يدل على وفور المادة وكثرة الحرارة وكمال القوى الدماغية.

قال القاضي عياض: والكراديس رؤوس الْعِظَامِ، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الآخَرِ: جَلِيلُ أَيْ: عظيم الْمُشَاشِ بضم الميم وشينين معجمتين: جمع مُشاشة بالضم وهي رؤوس العظام كالركبتين والمرفقين والمنكبين.

وفي "الصحاح": المُشَاش: رؤوس الأصابع والعظام اللينة التي يمكن مضغها. وَالْكَتَد بفتحتين ويجوز كسر التاء: مُجْتَمَعُ الكنفين اه. وقال أبو نعيم: الكراديس: هي العظام أَيْ: عظام الألواح. وقال البغوي: هي الأعضاء. والمراد عِظام يحسن عظمها كالأطراف والجوارح.

وقد ثبتَ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان عظيم الأطراف والجوارح. والعظام أساس الإنسان بعظمها يقوى ويحسن وتتم الحواس.

وقوله: (المجلية) بفتح الميم أَيْ: الظاهرة الواضحة المنكشفة من إفراط ولا تفريط، وهي نعت العظام.

وقوله: (أشعر) ضد أجرد وهو بالنصب أَيْ: كثير الشعر وهو أفعل تفضيل، يعني أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان كثير شعر (المنكبين) مجتمع رأس الكتف والعضد: تثنية منكب بفتح الميم وكسر الكاف. (و) كما أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كثير شعر المنكبين كان كثير شعر (أعالي الصدر) وهو بفتح الهمزة جمع أعلى. (والذراعان) كذلك، والذراع بكسر الذال المعجمة: ما بين مفصل الكتف والمرفق أو من المرفق إلى أطراف

الأصابع.

يعني أنه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ كان له على هذه الثلاثة شعرٌ غزيرٌ كثيرٌ، بخلاف الثديين فكان لم يكن عليهما شعر، ولذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (عاري) بعين مهملة وراء كذلك وياء أَيْ: خالي (الثديين) تثنية ثدي بفتح المثلثة وعلى قلة قد تضم ويُذكّر ويُؤنّث، ويقال للأنثى والذكر فيقال هو الثدي وهي الثدي.

وقوله: (مما سوى) معناه من المكان أَيْ: محل الشعر الذي يجري كالخط بين السرة واللبة، فاسم الإشارة في قوله: (ذلك) عائد عليه أَيْ: على الشعر الذي هو المسربة الشعرية كما نبّه عليه آنفًا.

وفي روايةٍ: عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أَيْ: ليس فيهما شعر غيره، فهو قيد للثديين والبطن إلا أنه بالنسبة لها للاحتراز وللثديين ليس للتحرُّز عن الخط، بل لأنه لو كان لكان سواه. ورواية: مما -بميمين- أقرب وأنسب، وما موصولة، وفي رواية: ما سوى ذين، وهي أيضًا أظهر. ذكره الزرقاني.

وفي رواية للبيهقي: له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب، ليس على بطنه ولا صدره شعر غيره. وهي مبنية للمراد.

وقول القرطبي: ولا شعر تحت إبطيه أيضًا، ردَّهُ المُحقِّق أبو ذرعة بأنه لم يثبت، والخصوصية لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره ببياض إبطيه فقد الشعر، فإنه إذا نتف بقي المحل أبيض. وقد ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينتفه، كما في "القارئ".

وهذه الأوصاف المذكورة واردة (بتصحيح) الشيخ الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة -بفتح السين وسكون الواو وفتح الراء وتاء تأنيث- ابن موسى بن الضحَّاك، صاحب (الشمايل) جمع شِمال بكسر الشين المعجمة: بمعنى السجية والطبع، ذكره المناوي، وهي بالياء التحتية لا بالهمزة كما ذكره "الجمل على الشمايل".

(الترمذية) نسبة إلى ترمذ، وفيه ثلاثة أوجه: كسر التاء والميم وهو الأشهر، وضمها وفتح التاء وكسر الميم وثانيه وهو الراء ساكن في الأوجه الثلاثة. وهي بلدة قديمة على طرف نهر بلخ وهو جيحون على شاطئه الشرقي، ويقال لها مدينة الرجال.

وهو الأعلام والحُفَّاظ الكبار، لقي الصدر الأول وأخذ عن المشاهير الكبار كالبخاري وشاركه في شيوحه، وله مناقب كثيرة منها: أن الإمام البخاري روى عنه حديثًا واحدًا خارج الصحيح، وحسبه بذلك فخرًا، وأعلى ما وقع له في جامعه حديث ثلاثي الإسناد وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يأتي على الناس زمانٌ القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر اه. ولم يقع له في كتبه شيء سواه.

وله تصانيف بديعة كثيرة، وناهيك بجامعه الجامع للقواعد الحديثية والفقهية والمذاهب السلفية والخلفية، فهو كاف للمجتهد مغن للمقلّد. وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع شدة حذقه مكفوف البصر بل قيل: أنه ولد أكمه، وكان يضرب به المثل في الحفظ.

وُلِد سنة تسع ومائتين ومات رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ببلده المذكورة، ودُفِن بها

ثالث عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين، فعاش وعُمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبعين سنة.

(طويل) يصح ضبطه بالنصب والرفع كما مرَّ في غيره، (الزندين) بفتح الزاي تثنية زند على وزن فلس، وهو طرف الذراع المتصل بالكف وطرفاه الكوع: وهو طرف رأس الذراع مما يلى الإبهام، والكرسوع: وهو رأسه مما يلي الخنصر، وهما العظمان اللذان في ظاهر الساعد.

والمراد عظم الذراع فسمَّاه المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باسم بعضه تسمية الكل بالبعض، ولذا وصفه بالطول حيث قال: طويل إلخ.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (رحب) بالنصب أَيْ: واسع (الراحة) أَيْ: الكف حسًّا ومعنًى. قال الزمخشري: ورحب الراحة دليل الجود وصغرها دليل البخل. وقيل: معنى رحب الراحة هنا واسع القوة لحديث ابن عوف: قلّدُوا أمركم رحب الذراع أَيْ: واسع القوة عند الشدائد. ذكر ذلك الشيخ "الجمل على الشمائل".

والرواية بفتح الراء وسكون الحاء، ويجوز ضم الراء لغة. وفي "المختار": بِالضَّمِّ السَّعَةُ يُقَالُ مِنْهُ: فُلَانٌ رَحْبُ الصَّدْرِ. وَالرَّحَبُ بِالْفَتْحِ: الْوَاسِعُ وَبَابُهُ ظَرُفَ وَرُحْبًا أَيْضًا بِالضَّمِّ.

والراحة: بطن الكف مع بطون الأصابع، وهذا كله والحديث أيضًا وإن كان حسنًا لكنه لا يناسب المقام، لأن الكلام مسوق لبيان صفاته الصورية إلا أن يجاب بأن الكناية لا تنافي إرادة المعنى الحقيقي، كما ذكره بعض الأفاضل.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (شثن) بشين معجمة مفتوحة وثاء مثلثة ساكنة ونون، وضبطه الجلال السيوطي بمثناة فوقية، ويصح أن يكون بالنصب خبرًا لكان المحذوفة، لكن قال القسطلاني: أن الرواية بالرفع فيكون خبرًا لمبتدإ محذوف مأخوذ من شثن بالضم والكسر بمعنى غلظ. وفي "القاموس": شَثِنَتْ كَفُّه، كفرِحَ وكرُمَ، شَثَنًا بالتحريك وشُثُونَةً: خَشُنَتْ، وغَلُظَتْ اه. وقيل: هو الضخم الممتلئ لحمًا، ويؤيده ما ورد في رواية أنه ضخم.

(الكفين) ثتنية كف: وهي الراحة مع الأصابع، وإنما سميت كفًّا لأنها تكف الأذى عن البدن، وهي مؤنثة، وَأما قَوْلُهُمْ: كَفٌّ مُخَضَّبٌ فَعَلَى مَعْنَى سَاعِدٍ مُخَضَّبٍ.

وفسَّر الأصمعي الشثن بالغليظ الأصابع من الكفين والقدمين، وهذا الوصف ممدوح في الرجال لأنه أشد للقبض والبطش، مذموم في النساء. وما في "النهاية" لابن الأثير في تفسيره من أنهما أَيْ: الكفين يميلان إلى الغلظ والقصر غير مناسب لقوله: رحب الراحة. وقيل: هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر.

قال ابن بطال: كان كفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممتلئة لحمًا، غير أنها مع غاية ضخامتها وغلظها كانت لينة، كما ثبت في حديث أنس المرفوع المروي في الصحيح: مَا مَسَسْتُ حَرِيرًا قَطُّ ولا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمَمْتُ رِيحًا قَطُّ -أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أ وعَرْف النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال في "المواهب": والتحقيق في الشثن أنه غلظ الأصابع من غير قصر ولا خشونة. وقد نقل ابن خالويه: إن الأصمعي لما فسر الشثن بالغلظ مع الخشونة قيل له: وردَ في صفة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لَيِّن الكفّ، فلا يصح تفسيرك بالخشوف، فحلف على نفسه أن لا يفسر شيئًا في الحديث، خوفًا من أن يفسره بخلاف معناه، وهذا من قوة دينه رَحِمَهُ اللَّهُ اه.

قال الشهاب: ولا حاجة لتأويله بأنه لأمر عارض في أسفاره وجهاده، واستعمال يديه في مهنة بيته فإنه مناف لعده من الحلية وهي الصفات الخلقية، فإن الذي ارتضاه أهل اللغة أن الضخم لا ينافيه قوله: سائل الأطراف، وسبط الكفين كما قيل لأن المراد بالأطراف الأصابع والكف والقدم مغرسهما فليست داخلة في معناهما.

(و) مثل الكفين فيما ذُكر (القدمان) ثثنية قدم بفتحتين: وهي من الإنسان معرفة وهي مؤنثة وتُصغّر فيقال فيهما: قُدَيْمة بالهاء، وتجمع على أقدام. وجمع بين الكفين والقدمين في مضاف لشدة تناسبهما.

وقد جاء عن غير واحد أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان شثن القدمين أَيْ: غليظ أصابعهما، وكانت سبابة قدميه أطول من بقية أصابعهما، ومن روى ذلك في اليد فقد غلط كما بيّنهُ غير واحد، وكانت خنصرهما متظاهرة وكان لا أخمص لهما أَيْ: ليس في بطنهما كبير انخفاض، بحيث يطأ بقدمه كله، فهو معتدل الخمص. ومعنى رواية: مسيح القدمين أَيْ: أن فيهما مع ذلك لينًا وملاسة دون تكسر وتشقق. ذكره ابن حجر في "شرح

الهمزية".

(سبط) بسين مهملة مفتوحة وباء موحدة ساكنة تكسر أَيْ: ممتد (العصَب) وهو بالعين والصاد المهملة أَيْ: ليس به تعقد كما في "النهاية"، وقال: والعصب بعين وصاد مهملتين مفتوحتين كما ضبطه الأنباري، والذي اتفق عليه ابن الأثير والهروي: أنه القصب بالقاف لا بالعين.

والمراد بالقصب ساعداه أو ساقاه. وقال بعضهم: كل عظم عريض لوح وكل أجوف فيه قصبة، وجمعها قصب. ويشهد له أن العرب تتمدح به كما قال:

فجاءتْ به سَبْطَ العظامِ كأنَّما عمامتُه بين الرِّجالِ لواءُ

لأنه يدل على قوة البدن والشجاعة.

والعصب بالعين: ما يمتد في البدن لربط الأعضاء وتحريكها، كما هو مبين في علم التشريح، وهو إطناب المفاصل. وقيل: المراد به هاهنا عظام الساقين والساعدين مجازًا لما بينهما من المجاورة.

وقوله: (سابل) هو بسين مهملة بعدها ألف ثم باء موحدة أَيْ: خافض (الطرف) بسكون الراء أَيْ: العين، يعني أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان إذا نظر إلى شيءٍ خفضَ بصره كما ورد في حديث ابن أبي هالة: وإذا التفت التفت جميعًا خافض الطرف اه.

وقال الشيخ "الجمل على الشمائل": سابل الطرف أَيْ: مرتفع الأصابع بلا احديداب ولا انقباض اه. فقوله: سائل بالياء التحتية المثناة أو سائل أو سائن أو سائر، ومقصود الكل أنها ليست معقدة كما قاله الزمخشري اه.

وعلى الأول لم يزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوجهًا إلى عالم الغيب مشغولاً بحالة مُتفكّرًا في أمور الآخرة، خافضًا طرفه (ذا النظرات) أَيْ: صاحب التدبُّرات وهي بفتحات من نظرتُ الشيء: تدبّرته. (الجمالية) بجيم مفتوحة بمعنى الحسنة، وهذا شأن المتواضع. وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواضعًا طبعًا وسليقةً، وشأن المُتأمّل المُتفكّر المُشتغِل بربه كذلك.

وجاء أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مسيح القدمين يعني أملسهما مستويهما لينهما بلا تكسر ولا تشقق جلد.

فمن ثَمَّ كان (ينبو) بياء تحتية مفتوحة ونون ساكنة وباء موحدة مضمومة: مأخوذ من قولهم: نبأ الشيء بمعنى تجافى وتباعد وعلا وارتفع، والأخير هنا أنسب، أَيْ: يرتفع (الماء عن كفَيْ رجلَيْه) أَيْ: لا يستقر إذا صبّ عليهما فينحدر سريعًا ولا يقف لملاستهما ولينهما.

قال في "المواهب": ومعنى حديث أبي هريرة: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا وطئ بقدمه وطئ بكلِّها ليس له أخمص. رواه البيهقي. وأخمص على وزن أحمر أَيْ: انخفاض باطن قدم، بل كانت قدمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستوية. فالأخمص من باطن القدم ما لم يصب الأرض عند المشي، لأن المراد من وطئه بكلها استواء أجزائها بلا ارتفاع ولا انخفاض.

تنبيه: قد اشتهر في المدائح قديمًا وحديثًا أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه وأثرت، وأنكره السيوطي وقال: لم أقف له على أصل ولا سند، ولا رأيتُ من خرَّجه في شيء من كتب الحديث، وكذا أنكره غيره.

لكن ذكر القسطلاني في "الخصائص" في بعض نسخه تقويته بما حاصله: أنه ما خُصَّ نبي بمعجزة أو كرامة إلا ولنبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلها، وأثر قدمَيْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمقام بمكة متواتر، وفيه يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافيًا غير ناعل

وفي "البخاري" حديث ضرب موسى في الحجر ستًّا أو سبعًا إذ فر بثوبه لما اغتسل اه. أَيْ: حين اتهموه ورموه بالأدرة وأخذوا ثوبه وهو يقول: ثوبي يا حجر ويكررها إلخ قصته. لكن مثل هذا لا يدفع إنكار وروده، والمثلية التي لنبينا إما من جنسها أو بغيرها أعلى أو مساوٍ كما نصوا عليه. ذكره الزرقاني.

[وأما ضحكه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ففي البخاري عن عائشة: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ].

أَيْ: ما رأيتُه مستجمعًا من جهة الضحك بحيث يضحك ضحكًا تامًّا مُقبلًا بكليته على الضحك. واللهوات -بفتح اللام- جمع لهاة على الأصل، وهي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم.

وهذا لا ينافي ما في حديث أبي هريرة في قصة المجامِع أهلَه في رمضان الذي رواه البخاري عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْتُ، قَالَ: مَا لَكَ، قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا، قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ

شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، قَالَ: لَا، فَقَالَ: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا، قَالَ: لَا، فَأُتِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ بِتَمْرٍ، فَقَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ، فَقَالَ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ اه. والنواجذ بالجيم والذال المعجمة: الأضراس.

ولا تكاد تظهر إلّا عند المبالغة في الضحك، ولا منافاة لأنَّ عائشة إنما نفت رؤيتها، وأبو هريرة أخبر عمَّا شاهد، والمثبت مُقدَّم على النافي.

وقد قال أهل اللغة: التبسُّم مبادي الضحك أَيْ: مقدماته، والضحك: انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوت وكان بحيث يسمع من بعيد فهو القهقهة، وإلّا يسمع من بعد وهو بصوت فالضحك، فالفارق بين الثلاثة: أنَّ التبسم انفتاح الفم بلا صوت، والضحك انفتاحه مع صوت قليل، والقهقهة انفتاحه بصوت قوي.

وقال أبو هريرة في حديث رواه البزّار والبيهقي و(إذا ضَحِكَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَلَأْلَأُ فِي الْجُدُرِ. أَيْ: يضيء في الجدر -بضمتين- وهو من باب علم كما في "القاموس". وأناس يقولون بكسر الضاد والحاء ضحكًا بالفتح والكسر وبكسرتين وككتف اه.

وفي حديث ابن أبي هالة: جلّ أَيْ: أكثر ضحكه التبسم، وقد يزيد عليه أحيانًا و(يفتـر) بفتح الياء وسكون الفاء وفتح الفوقية وتشديد الراء كما ضبطه شُرَّاح "الشفا".

وفي "القاموس": وفي "القاموس": افترَّ: ضحك ضحكًا حسنًا، قال

الحريري:

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

قال في "النهاية": أي: يبتسم ويكشر حتى تبدو أسنانه من غير قهقهة، وهو مَنْ فررت الدابة أفرها فرًّا، إذا كشفت شفتها لتعرف سنها، وافتر يفتر افتعل منه اه. فقول الشامي -بضم الفوقية- سبق قلم أو من النساخ. أيْ: يكشف بريقه.

(عن) أسنان، (مثل) أَيْ: يماثل ويشابه (حب الغمام) أَيْ: قطر السحاب الراشح، وهو متعلّق بيفتر، والغمام: هو السحاب واحده غمامة، وحبه وهو البَرَد بفتحتين: الجامد المعروف لا قطر الماء كما توهم، لأنه مع عدم مناسبة لا يسمى حبًا إ الحب الجامد لا السائل.

شُبِّه به أسنانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفائه وبياضه ولمعانه ورطوبته دونه جريه، حتى يقال: إنه كنوع منه. ذكره "الزرقاني على المواهب".

وهو (مبد) أَيْ: مظهر: اسم فاعل بضم الميم وسكون الموحدة من أبدى الشيء: أظهره. (لذلك الحبان) بضم الحاء المهملة جمع حب كما في "القاموس". وفسَّرهُ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: (الحبوب) بضم الحاء: جمع حب أيضًا.

و(المحظية) بفتح الميم وسكون الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وتشديد التحتية: اسم مفعول من حظِي بالكسر يحظى بالفتح حظةً كعدة وحظوة بضم الحاء وكسرها يقال: حظي عند الناس يحظى: إذا أحبُّوه ورفعوا منزلته. وَالْمَرْأَةُ حَظِيَّةٌ إذَا كَانَتْ عِنْدَ زَوْجِهَا كَذَلِكَ. كما في

"المصباح".

يعني أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا ضحك يكشف شفتيه عن أسنانه الشريفة الشبيهة بالبَرَد في صفائها ولمعانها، ويظهرها فتُرى مثل حبوب الدار الرفيع القدر.

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث، أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، ربما زاد على ذلك فضحك، وأنه لم يقهقه البتة. قال: والمكروه من ذلك إنما هو إكثار منه أو الإفراط فيه، لأنه يذهب الوقار.

وقال ابن بطال: والذي ينبغي أن يقتدى به من أفعاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما واظب عليه من ذلك وهو التبسم فيقتصر عليه، وضحكه لبيان أنه ليس بحرام، وقد روى البخاري في كتاب "الأدب المفرد" الذي أفرده بالتأليف، وابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب، إذ هي تورّث قسوته وهي مقضية إلى الغفلة، وليس موته إلّا الغفلة، قاله الطيبي.

وقال الغزالي: كثرة الضحك والفرح بالدنيا سمٌّ قاتل يسري إلى العروق، فيُخْرِج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال القيامة، وهذا هو موت القلب. وزاد الطبراني من حديث أبي ذر: وتذهب بنور الوجه أَيْ: إشراقه وضيائه، وقال الماوردي: اعتياد الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة، مذهل عن الفكر في النوائب الملمّة، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار.

وقال أبو هريرة: وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كان حديث عهد بجبريل لم يبتسم ضاحكًا حتى يرتفع عنه، بل كان إذا خطب أو ذكر الساعة اشتدَّ غضبه وعلا صوته كأنَّه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم. رواه مسلم.

وكان بكاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن تدمع عيناه حتى يسيل دمعهما، ويسمع لصدره أزيز أَيْ: صوت، يبكي رحمة لميّت، وخوفًا على أُمَّته وشفقة عليهم، ومن خشية اللَّه، وعند سماع القرآن، وأحيانًا في صلاة الليل. قاله في الهدي النبوي.

وقد حفظه اللَّه تعالى من التثاؤب لأنه يكره، والتثاؤب فطرة تعتري الشخص فيفتح عندها فمه. ففي "تاريخ البخاري" و"مصنَّف ابن أبي شيبة" عن يزيد بن الأصم: ما تثاءب النبي قط. لأنه من الشيطان. وفي "البخاري" مرفوعًا حديث: إن اللَّه يحب العطاس ويكره التثاؤب. ثم أل في النبي عهدية، أي: نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيفيد اختصاصه، لكن في رواية عند ابن أبي شيبة: ما تثاءب نبي قط. وهذا يعمّ الجميع، فهو من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأمم لا على الأنبياء. وكذا في "المواهب".

فائدة لدفع التثاؤب عن الإنسان: رأيتُ في "تحفة الملوك" المُسمَّى بـ"هدية الصعلوك" ما نصه: قال الزاهدي: الطريق في دفع التثاؤب أن يخطر بباله أن الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما تثاءبوا قط. قال القدوري: جربّناه مرارًا فوجدناه كذلك اهـ. قلتُ: وقد جربته أيضًا فوجدته كذلك.

والتثاؤب: بالهمز، وأما الواو فغلط، كما في "المعرب" وغيره.

(نظره إلى الأرض) أَيْ: حال السكوت وعدم التحدُّث مع أحد، وهو مبتدأ، وقوله (أطول) أَيْ: أكثر وأزيد وهو الخبر. (من نظره إلى السماء) لأن النظر إلى الأرض أجمع للفكرة وأوسع للاعتبار لاشتغاله بالباطن وإعمال جنانه فيما بُعث لأجله، أو لكثرة حيائه وأدبه مع ربه، أو لأنه بُعِث لتربية أهل الأرض لا أهل السماء. والأول أحسن.

والنَّظَر: بفتحتين تأمُّل الشيء بالعين كما في "الصحاح". والأرض: الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ويعبّر بها عن أسفل الشيء كما يعبّر بالسماء عن أعلاه. كما قال الراغب. والطول هنا: الامتداد، يُقال: طال الشيء طُولاً بالضم: امتدّ، وأطال اللَّه بقاه: مدَّه ووسعه، وطال المجلس: إذا امتد.

وبالتقييد بعدم التحدُّث فيما تقدَّم بقولنا عند قوله: نظره إلى الأرض إلخ، لا ينافي رواية أبي داود: كان إذا جلس يتحدّث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء. أو يحمل الإكثار في خبره على الحقيقي لا الإضافي. وقيل: أكثر لا ينافي الكثرة. ذكره "المناوي على الشمائل".

وقوله (جُل) أَيْ: معظم وأكثر، وهو بضم الجيم وتشديد اللام. (نظره الملاحظة) بضم الميم وهي مفاعلة من اللحظ: وهو النظر باللَّحاظ بفتح اللام فيهما، يُقال: لَحظهُ ولحظ إليه، من باب نفع، أَيْ: نظَر إليه بمؤخر العين، واللحاظ بِالْفَتْحِ: شَقُّ الْعَيْنِ مِمَّا يَلِي الصُّدْغَ، وَأَمَّا الَّذِي يَلِي الْأَنْفَ فَالْمَوْقُ بالهمز وَالْمَاقُ بالألف، وَاللِّحَّاظُ بِكَسْرِ اللام: مَصْدَرُ لَاحَظْتُهُ إِذَا

رَاعَيْتَهُ. وَالْمُرَادُ أَنَّ أكثر نَظَرِهِ فِي غَيْرِ أَوَانِ الْخِطَابِ الْمُلَاحَظَةُ فَلَا يُنَافِي قَوْلَهُ في "الشمائل": إِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا. وَتُطْلَقُ الْمُلَاحَظَةُ أيضًا لغة عَلَى المراقبة والمراعاة، وتفسيره بهذا أنسب وأكمل بمقامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل: المراد أن نظره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأشياء لم يكن كنظر أهل الحرص إلى الدنيا وزخرفها، امتثالًا لأمر ربه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلخ الآية.

وأما مشيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم ويقول: خلوا ظهري للملائكة، لأنهم يحرسونه من أعدائه. قاله أبو نعيم. ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، لأنه إن كان قبل نزولها فظاهر، وإلّا فمن عصمة الله تعالى له أن يوكّل به جنده من الملأ الأعلى إظهار لشرفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي "المستدرك" عن جابر: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مشى مشى أصحابه أمامه، وتركوا ظهره للملائكة، وهو معنى قول الأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يسوق أصحابه) أَيْ: يقدّمهم بين يديه ويمشي خلفهم كأنه يسوقهم، لأن هذا شأن الراعي، أو لأنَّ من كمال التواضع أن لا يدع أحدًا يمشي خلفه أو ليختبر حالهم وينظر إليهم حال تصرفهم في معاشهم، وملاحظتهم لنظرائهم، فيربّي مَنْ يستحق التربية، ويكمّل مَنْ يحتاج إلى التكميل، ويعاتب مَنْ يستحق العتب، ويؤدِّب مَنْ يستحق الأدب، وهذا شأن الولي مع المولى عليه، أو ليخلي ظهره للملائكة، احتمالات لا مانع

من إرادة جميعها.

قال النووي: وإنما تقدمهم في قصة جابر لأنه دعاهم إليه، فجاءوا تبعًا له، كصاحب الطعام إذا دعا طائفة يمشي أمامهم. وفي رواية: ينس أصحابه -بنون مضمومة بعد الياء المفتوحة وسين مشددة- من النس بالفتح والتشديد.

أَيْ: يسوق أصحابه ويماشيهم فرادى وجماعة، إذا كانوا (مشاة) بضم الميم: جمع ماش كما في "المصباح". ويركب إذا كانوا (ركبانًا) بالنصب: حُذفت الألف للسجع كما مر غير مرة، وهو بضم الراء وسكون الكاف: جمع راكب، كما في "القاموس".

واعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا مشى في شمس أو قمر لم يظهر له ظل، لأنه كان نورًا، وحكمة ذلك صيانته عن أن يطأ كافر على ظله.

قال ابن سبع: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نورًا، فكان إذا مشى في الشمس أو القمر لا يظهر له ظل. لأن النور لا ظل له. قال غيره: ويشهد له قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه لما سأل الله تعالى أن يجعل جميع أعضائه وجهاته نورًا وختم بقوله: واجعلني نورًا. وبه يتمّ الاستشهاد. قال بعضهم:

ما لطه رأى البَرية ظلا ... هو نور وليس للنور ظل

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (دائم البشر) بكسر فسكون والبشر: هو طلاقة الوجه وبشاشته وإظهار السرور في مجالسه، وهذا لا ينافي ما يأتي

من قوله: متواصل الأحزان.

(يبدأ) بالهمز من البدء بمعنى الابتداء. وفي رواية: يبدر بضم الدال من باب نصر أَيْ: يسبق (من لقيه) حتى الصبيان كما صرَّح به جمع في الرواية عن أنس، (بالسلام) أَيْ: التسليم أَيْ: تسليم التحية، وهذا عام مخصوص بغير الكافرين.

ولعله لم يقيّدهُ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، كأنه نزلهم منزلة الحيوانات العجم فهم لا يعقلون فلا يخاطبون، والمعنى أنه يجعل سلامه أول ملاقاته وذلك لأنه من كمال شيم المتواضعين وهو سيدهم، ولأنه من السنة أن يسلّم الأكبر على الأصغر.

والسلام دعاء وتحية، وهو تحية أهل الجنة كما ورد في السنة، فهو دعاء بالسلامة واسم من أسمائه تعالى، وجواز إرادته هنا بمعنى: أن اللَّه معك ومطلع عليك.

وابتداؤه سنة لا واجب بالإجماع، وفيه قول به ضعف لا يعتد به. ورَدّهُ فرض كفاية لا على كل أحد، لأن السلام معناه الأمان، فإذا سلَّم أحد ولم يجب توهم الشر فيجب دفعه كما قاله الحليمي. وهذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تواضع ولطف مناسب لما نحن فيه من حسن الخلق.

واعلم أن الابتداء بالسلام سنة والرد فرض كفاية، والابتداء أفضل، وهو إحدى المسائل الثلاث المستثنيات من قاعدة الفرض أفضل من النفل، الثانية إبراء المعسر مندوب أفضل من إنظاره، الواجب الثالثة الوضوء قبل الوقت مندوب أفضل منه في الوقت. وقد نظم بعضهم ذلك

في قوله:

الْفَرْضُ أَفْضَلُ مِنْ تَطَوُّعٍ عَابِدٍ   حَتَّى وَلَوْ قَدْ جَاءَ مِنْهُ بِأَكْثَرِ
إِلَّا التَّطَهُّرَ قَبْلَ وَقْتٍ وَابْتِدَا   لِلسَّلَامِ كَذَاك إِبْرَا الْمُعْسِرِ

وأما مشيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد صحَّ عن علِيّ كرَّم الله وجهه أنه قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مشى تقلع. رواه الترمذي. أَيْ: رفع رجليه رفعًا بائنًا متداركًا إحداهما بالأخرى، مشية أهل الجلادة، يريد أن مشيه مثل مشي القلَعة -بفتح اللام- وهي القطعة العظيمة من السحاب.

[وقال ابن أبي هالة: إذا زال زال تقلعًا، يخطو تكفيًا، ويمشي هونًا، ذريع المشية إذا مشى].

وقال ابن أبي هالة: إذا زال أَيْ: ذهب وفارق زال تقلعًا -بقاف ومهملة- أَيْ: ينزع رجله عن الأرض أو يحولها عن محلها بقوة، يخطو أَيْ: يمشي تكفيًا بكسر الفاء المشددة بعدها ياء غير مهموز، وبعضهم يرويه تكفوا بضم الفاء وتشديدها مهموزًا، لأنه مصدر تفعُّل من الصحيح كتقدَّم تقدُّمًا وتكفَّأ تكفُّأ، والهمزة حرف صحيح فإذا اعتل انكسرت عين المستقبل منه نحو تخفَّى تخفُّيًا وتسمَّى تسمُّيًا، فإذا خُفّفت الهمزة التحقت بالمعتل فصار تكفيًا بالكسر.

ومعناه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسرع المشي كأنه يميل بين يديه من سرعة مشيه كما تتكفأ السفينة في جريها. ويمشي هونًا بفتح الفاء أَيْ: إذا مشى مشى برفق ولين ووقار. ذريع بفتح الذال المعجمة أَيْ: سريع

المشية بالكسر أَيْ: خلقة أَيْ: مع كون مشيه هونًا خطاه واسعة كأنما الأرض تطوى له.

(إذا مشى) ظرف لما قبله أو لما بعده وهو قوله: (كأنما ينحط) بياء ونون وحاء وطاء مهملتين وتشديد الطاء ومعناه: ينزل، وفي رواية: كأنما يهوى، (من صبب) أَيْ: في صبب بفتح الصاد المهملة المهملة والموحدة الأولة أَيْ: مرتفع منحدر، وأسرع ما يكون الماء جاريًا إذا كان منحدرًا، أَيْ: كأنما ينزل في موضع منحدر.

ولا تدافع بين الهون الذي هو عدم العجلة، وبين الانحدار والتقلّع الذي هو السرعة، لأن معنى الهون أنه لا يعجل في مشيه ولا يسعى عن قصد إلا في حادث أو مهم، والانحدار والتقلّع مشيه الخلقي.

فلذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي (مشية) بكسر الميم وسكون المعجمة أَيْ: هيئة وكيفية (روحانية) بضم الراء: نسبة إلى الروح بالضم: وهو ما به حياة الأنفس، ويؤنّث، والقرآن والوحي وجبريل وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، والرفع والخروج والظهور وأمر النبوة وحكم اللَّه وأمره. والروحاني بالضم: ما فيه الروح، وكذلك النسبة إلى الملك والجن، والجمع روحانيون كما في "القاموس".

قال ابن القيم في رواية: كأن إذا مشى تقلّع. والتقلّع: الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحَطّ في الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من الناس يمشي قطعة واحدة كأنَّه خشبة محمولة، فهي مشية مذمومة، وإمَّا أن يمشي

بانزعاج مشي الجمل الأهوش الطائش السريع في مشيه وهي مشية مذمومة، وهي علامة خِفّة عقل صاحبها، ولا سيما إن أكثر الالتفات حال مشيه يمينًا وشمالًا.

ولذا قال هند تلو قوله: كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، أي: لا يسارق النظر، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة. وروى الحاكم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا مشى لم يلتفت.

تنبيه: من فضائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر أسماء أعضائه عضوًا عضوًا في التنزيل وذكره بجملته، فذكر وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آية: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾، وعينيه في آية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، ولسانه في آية: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾، ويده وعنقه في آية: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾، وصدره وظهره في: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾، وقلبه في: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ﴾، وجملته في: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ذكره المناوي.

وفي "الشمائل" عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْن أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلْتُ خَالِي هِنْدَ بْنَ أَبِي هَالَةَ، وَكَانَ وَصَّافًا لِحِلْيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: صِفْ لِي مَنْطِقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَيْ: كيفية نطقه وهيئة سكوته.

قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (دائم الفكر) ورواية

"الشمائل": دائم الفكرة، وكيف لا يدوم فكره وقد جُعِل متكفّلًا بأمور خلائق لا يحصيها إلا الخالق.

والفِكر بالكسر: تردد القلب بالنظر والتدبُّر لطلب المعاني، تقول في الأمور: فكّر أَيْ: نظر وروية. وقيل: هو ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب علمي أو ظني. وَالْفِكْرَةُ اسْمٌ مِنْ الِافْتِكَارِ كالْعِبْرَةِ من الِاعْتِبَارِ وَالرِّحْلَةِ مِنْ الِارْتِحَالِ.

دوام فكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ليست له راحة، وكيف يستريح والراحة فرع فراغ الخاطر، وله الفكر المتواتر والصلاة والجهاد والتعليم والاعتبار والاهتمام بإظهار الإسلام والذب عن أهله وحماية بيضته.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (طويل السكوت) بالنصب خبر آخر لكان كما قدّرنا. قد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يتكلم في غير حاجة لنفسه أو للناس، كيف وهو القائل: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. وقد عصمه اللَّه تعالى أن ينطق بالهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.

وقوله: (متواصل) بالنصب: خبر آخر لكان، والتواصل: تفاعل يعطي معنى الديمومة أَيْ: دائم (الأحزان) جمع حُزن أَيْ: لا ينفك حزنه عن حزن يعقبه، لعلمه أن اللَّه سبحانه لا يحب الفرحين، أَيْ: فرح بطر، والحزن وصية الأنبياء قديمًا وصفتهم، إذ هو حالة خوف وهو على قدر المعرفة.

وتواصل أحزانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمزيد تفكره واستغراقه في شهود جلال الذات الأحدية، وذلك يستدعي دوام الصمت وعدم الراحة، لأن من لازم اشتغال القلب انتفى الراحة.

وقول ابن القيم: هذا الحديث غير ثابت وفي إسناده من لا يعرف، وكيف يكون متواصل الأحزان وقد صانه الله عن الحزن في الدنيا، ونهاه عن الحزن على الكفار، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فمن أين يأتيه الحزن، بل كان دائم البشر ضحوك السن، وقد استعاذ من الهم والحزن.

لحظه قبله شيخه ابن تيمية فأورده ثم ردَّه بأنه ليس المراد بالحزن في حقه التألُّم على فوت مطلوب أو حصول مكروه، فإنه قد نهى عن ذلك ولم يكن من حاله، بل المراد الاهتمام والتيقظ لما يستقبله من الأمور، إلى هنا كلامه.

وما قدرناه أولًا أوجه فهذا التواصل وصل إلى بلوغ ما أخبر عنه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَيْ: في الآخرة، ولهذا أمرنا بالضحك قليلاً والبكاء كثيرًا.

وكان كثرة تبسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجوه الناس تأليفًا واستعطافًا لا فرحًا وسرورًا، فلا ينافي في ذلك ما اشتهر بين أهل الطريق، أن العارف هَشٌّ بَشٌّ، كذا ذكره الشيخ سليمان الجمل.

خاتمة: قال الحافظ أبو نُعَيْم: قد اختلفت ألفاظ الصحابة في نعته وصفاته، وذلك لما ركّب في الصدور من جلالته وحلاوته وعظيم مهابته وطلاوته، ولما جعل في جسده الشريف من النّور الذي يتلألأ ويغلب على بشرته، فأعياهم ضبط صفته ونعت حليته، حتّى قال بعضهم: كان مثل الشمس طالعة. وقال بعضهم: كان يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر. وقال بعضهم: لم أرَ قبله ولا بعده مثله. فلذلك السبب كان اختلافهم في نعت

خلقته ولونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان هند بن أبي هالة ربيبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمعن النّظر في ذاته الشريفة في صغره، فمن ثَمّ خصّ مع علِيّ كرّم الله وجهه بالوصاف، وأما غيره من كبار الصحب فلم يسمع منهم أنه وصفه هيبة له، ونظرًا إلى أنه لا يقدر أحد على وصفه حقيقة، أو أن الحق سبحانه وتعالى جعل بحكمته لكل أمر قومًا على أن هندًا إنما وصفه على جهة التمثيل تقريبًا للطالب، كما قال العارف البوصيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "همزيته":

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّا ... سِ كَمَا مَثَّلَ النُّجُومَ الْمَاءُ

وإلا فكل وصف يعبّر به الواصف في حقِّهِ خارج عن صفته، ولا يعرف كمال حاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا خالقه.

وقد أشار الأستاذ المُؤلِّف في "البرَّاق" لبعض صفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حرف الباء:

أَيَا مَرْكَزَ الحُسْنِ العَظِيمِ المُحَبَّبِ ... أَيَا قَدَّهُ كَالغُصْنِ مَيْلًا وَأَرْطَبِ

عُيُونُ المَهَا تَرْمِي لِسَهْمٍ بِحَاجِبٍ ... كَقَوْسٍ لَهُ التَّدْوِيرُ يَا نِعْمَ مَذْهَبِ

مَحَبَّةَ مَحْبُوبِ العَلِيّ المُهَيَّبِ

رَشَاقَةَ قَدٍّ شَاقَتِ العَيْنَ نَظْرَةً ... سَمَاحَةَ عُنُقٍ فَاقَ ظَبْيًا وَبَهْجَةً

كَنَوْرِ الرُّبَا وَجِلَاءِ نُورٍ وَرَشْفَةً ... مِنَ الضَّربِ المَمْزُوجِ بِاللُّطْفِ حِكْمَةً

شِفَاءٌ دَوَاءٌ لِلمُحِبّينَ طَيِّب

فَلِلَّهِ ذَاكَ الثَّغْرُ نُضِّدَ يَا فَتَى ... بِدُرٍّ وَذَاكَ الدُّرُّ أَشْنَبُ أَنْعِتَا

حَبَابٌ لَهُ يُبْرِي الغَرَامَ مُفَتِّتَا ... حَلَا نُطْقُهُ لِلفَانِيينَ مُثَبِّتَا

جَنَانُ مُرِيدِيهِ بِلُطْفٍ مُهَذَّبِ

ضِيَاءُ جَبِينٍ مِثْلُ شَمْسٍ وَأَبْهَجَا   سَوَادٌ لِجَعْدٍ حُنْدُسَ اللَّيْلِ أَثْبَجَا

لَهُ فَرْقَةٌ فِيهَا النَّهَارُ مَعَ الدُّجَى   وَمِنْ تَحْتِهَا عَيْنٌ كَحِيلَةُ مُدْعَجَا

تَبَارَكَ مَنْ أَنْشَاهُ لِلحُسْنِ مَنْصِبِ

لَهُ أَنْفُ لُطْفٍ مِثْلَ سَيْفٍ وَأَصْقَلَا   لَهُ رِيقُ عَذْبٍ كَالبِحَارِ وَأَنْهَلَا

لَهُ وَجْنَةٌ كَالوَرْدِ بَلْ هِيَ أَجْمَلَا   لَهُ قَامَةٌ كَالرُّمْحِ بَلْ هِيَ أَعْدَلَا

عَلَيْهِ صَلَاةٌ وَالسَّلَامُ المُطَيَّبُ

(اللهم صل وسلّم على الذات المحمدية واغفر لنا ما يكون وما قد كان).

وَأَمَّا أَخْلَاقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ يَحْصُرُهَا ضَبْطُ الأَقْلَامِ البَشَرِيَّةِ ۞ فَلْنَتَبَرَّكْ بِذِكْرِ نَزْرٍ مِنْهَا كَمَا سَطَّرْنَا فِي خَلْقِهِ المُزَان ۞ فَنَقُولُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تخلَّقَ بِالأَخْلَاقِ القُدْسِيَّة ۞ وَأَمَرَ بِالتَّخَلُّقِ بِهَا لِيُنَالَ كَمَالُ الفَوْزَان ۞ وَنَقُولُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمِ رَؤُوفًا رَحِيمًا صَاحِبَ شَفَقِيَّة ۞ وَذلِكَ بِسَائِرِ الخَلْقِ وَلَا سِيَّما بِأُمَّتِهِ أَهْلِ عَالِي الجِنَان ۞ وَكَانَ على غَايَةِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالكَشْفِ وَالدِّينِ وَالحِلْمِيَّة ۞ وَنِهَايَةِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالحَيَاءِ فِي كِلَا الوَقْتَان ۞ وَتَحَقَّقَ بِالرَّجَاءِ وَالخَوْفِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ فِي الدَّارِ المَفْنِيَّة ۞ بَلْ مَقَامُهُ اقْتَضَى زُهْدَهُ فِي سِوَى الحَنَّان ۞ وَتَحَلَّى بِالتَّوَاضُعِ وَالعَفْوِ وَالجُودِ وَالشَّجَاعَةِ وَالمُرُوءَةِ وَالعِفِيَّة ۞ وَالرِّضَا وَالعَدْلُ فِيهِ وَفِي الغَضَبِ أَعْظَمُ شُهْدَان ۞ وَكَانَ عَلى ذِرْوَةِ الصَّمْتِ وَالتَّأَنِّي وَالوَقَارِ وَحُسْنِ الأَدَبِيَّة ۞ وَالنَّظَافَةِ وَالظَّرَافَةِ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ النَّفْعَان ۞ وَحُسْنِ المُعَاشَرَةِ والرَّأْفَةِ بِأَهْلِهِ وَالجَمَاعَةِ الصَّحْبِيَّة ۞ وَالكَمَالِ والجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالعِرْفَان ۞ وَالتَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ وَالأَوْبَةِ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ النَّفْلِيَّة ۞ وَالكَرَمِ وَالوُدِّ وَالبُغْضِ فِي اللهِ وَالحَنَان ۞ عَظِيمَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَسَاءَهُ وَهَا نَحنُ نَخْتِمُ بِالأَدْعِيَةِ المَرْجِيَّة ۞ لِأَنَّهُ لَا يُحْصَرْ مَا لَهُ فَلْنُمْسِكِ البَسْطَ وَنَقْبِضِ العِنَان ۞ وَنَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَائِرِ أَصْحَابِهِ خُصُوصاً أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيّاً وَبَاقِي الأَصْحَابِ وَالآلِيَّة ۞ وَلَا سِيَّمَا فَاطِمَةَ وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَسَائِرَ الأَهْلِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَان ۞

ولما أنهى الكلام على شيءٍ من محاسن ذاته الشريفة الظاهرة، التي لما يخلق اللَّه تعالى ذاتًا أشرف ولا أجمل ولا أكمل ولا أحلى ولا أحسن منها، شرَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذكر بعض صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباطنة التي لما يخلق اللَّه سبحانه وتعالى أجل ولا أشرف منها أيضًا، فقال:

(وأما أخلاقه) جمع خُلُق بضم الخاء المعجمة وضم اللام أيضًا، ويجوز إسكانها تخفيفًا، فالضم على الأصل، لكن سوى بينهما في "النهاية" يعني بين الضم والإسكان للام.

وجمعَ الأخلاق باعتبار الثمرات الناشئة من الخلق من الأوصاف الحميدة منه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كبشاشة وتحمُّل أذى وعدم المجازاة للسيئة بالسيئة، فإنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، فلا يرد أنه جبلة في الإنسان يقتضي اتحاده أو بناء على تعدده كما صار إليه كثير.

قال الراغب: الخَلق بالفتح والخُلق بالضم يعني للخاء، فيهما في الأصل بمعنى واحد كالشَّرب بالفتح والشُّرب بالضم، لكن خص في الاستعمال الخَلق الذي بالفتح بالهيئات والصور المدركة بالبصر، وخص الخلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة.

وفي "النهاية": الخلق بضم اللام وسكونها: الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنية وهي نفسه وأوصافه ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.

(ف) أوصافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها حميدة ولا يحيط بها إلا خالقه

و(ليس يحصرها) أَيْ: لا يحيط بتلك الأخلاق (ضبط) بفتح الضاد المعجمة وسكون الباء الموحدة: مصدر ضبطه أَيْ: حفظه، (الأقلام) والألسنة (البشرية) أَيْ: المنسوبة للبشر وهو الإنسان ذكرًا أو أنثى واحدًا أو جمعًا كما في "القاموس".

(فلنتبرك) أَيْ: نتيمّن (بذكر نزر) متعلّق بنتبرك ومضاف إليه. والنزر بفتح النون وسكون الزاي المعجمة: القليل (منها) أَيْ: من الأخلاق الشريفة الحميدة، (كما سطّرنا) بتشديد الطاء المهملة بمعنى: ألَّفنَا وكتبنا فيما تقدَّم، (في خَلْقه) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بفتح الخاء وسكون اللام: الشريف الكامل الظاهر، (المُزان) بضم الميم: اسم مفعول من أزان أصله مزين بضم الميم وسكون الزاي وفتح الياء، أَيْ: الذي ليس به شين وعيب بل هو مُكمّل.

(فنقول كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تخلّق) بتشديد اللام بمعنى: اتَّصفَ (بالأخلاق القدسية) بضم القاف والدال المهملة أو سكونها، أَيْ: المنسوبة للقدس بمعنى الطُّهر والتنزُّه عما لا يليق بحاله تعالى.

(وأمر) فعل ماض أَيْ: غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بالتخلُّق) بمعنى الاتصاف وهو بتشديد اللام المضمومة مصدر، أَيْ: أمر الناس بالاتِّصاف (بها) أَيْ: بالأخلاق القدسية في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تخلَّقوا بأخلاق اللَّه.

وقوله: (ليُنال) علة لقوله: وأمر، وهو بضم الياء التحتية مبنيًا للمجهول أَيْ: ليبلغ، وقوله: (كمال الفوزان) بفتح الفاء وسكون الواو: تثنية فوز وهو بضم اللام نائب فاعل ينال، ويصح أن يقرأ وأمر بضم الهمزة ونائب الفاعل يعود على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يذكره للعلم به، وهذا ما لم تعلم الرواية أَيْ: النجاة والظفر بخير الدنيا والآخرة، وهو مجرور بالألف على لغة كما تقدَّم.

ومعنى التخلُّق بأخلاق الله هو التحقُّق بحقائق صفاته وأسمائه تعالى، ومعنى تحقَّق العبد بذلك: شهود الله في أسمائه وصفاته، فإن كانت الصفات جمالية اتّسع صدره وارتفع قدره، فيصير رحيمًا بشهوده الرحمن منعمًا عليه بجلال النعم، ويصير كريمًا بشهوده الكريم، ويصير حليمًا بشهوده الحليم، ويصير لطيفًا بشهوده اللطيف، ويصير رؤوفًا بشهود الرؤوف.

وإذا شهد الصفات الجلالية والأسماء الجلالية، كجبار ومنتقم وقهَّار وشديد البطش، تصاغَر وتفانى ونسي نفسه حتى أن بعضهم يذوب جسمه من ذلك، ويشم من جوفه رائحة الكبد المشوي، كما وقع لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالعارف دائمًا بين المظهرين فتارة يشهد الأسماء والصفات الجلالية، فيذوب وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويقول كما أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا آمن من مكر الله، ولو كانت إحدى قدمَيّ داخل الجنة.

وتارة يشهد الصفات الجمالية والأسماء الجمالية، فربما قال: أنا أشفع

لأهل عصري، فالكاملون تجليهم جلالي وجمالي، والمتوسطون في السير إذا شهدوا الجمال يقال له هيبة، فتجليهم دائرٌ بين الأنس والهيبة، والمبتدئون قبض وبسط، فإذا شهد الجلال قبض، وإذا شهد الجمال بسط، ويقال للمبتدئ والمتوسط أصحاب أحوال، لأنهم لا يدوم لهم تجلي، ويقال للكامل صاحب مقام لرسوخه في المعنى، نفعنا اللَّه بهم أجمعين وأمدَّنا بإمداداتهم.

تنبيه: قال في "المواهب": وقد اختُلِف هل حسن الخلق غريزة أو مكتسب؟. وتمسك من قال بأنه غريزة بحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن اللَّه قسم بينكم أخلاقكم -أَيْ: فأعطى بعضًا خلقًا حسنًا وبعضًا خلقًا سيئًا وفاوت في مراتبهما- كما قسم أرزاقكم -أَيْ: فوسَّع على بعض وضيّقَ على بعض.

وقال القرطبي: الخلق جبلة في نوع الإنسان، وهم أَيْ: أفراد النوع في ذلك متفاوتون، فمن غلب عليه شيء حسن منها كان محمودًا، ولا يغلب عليه شيء، بأن غلبت عليه صفات الذم، واستوى الأمران، فهو المأمور بالأحاديث الدالة على طلب تحسين الخلق، وذلك المأمور بالمجاهدة فيه حتى يصير محمودًا، وكذلك إن كان ضعيفًا فيرتاض صاحبه حتى يقوى، يعني: أن الحسن مقول بالتشكيك، فمن غلب عليه الحسن الكامل لا يحتاج إلى علاج، ومن غلب عليه صفات الذم احتاج إلى علاج قوي، ومن كان فيه أصل الحسن احتاج إلى رياضة ليحصل له قوة في الصفة التي تلبس بها.

وقد وقع في حديث الأشجّ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله قديمًا كانا فيَّ أو حديثًا؟، قال: قديمًا، قال: الحمد لله الذي جبلني على خِلَّتين يحبهما اللَّه ورسوله. رواه أحمد والنسائي.

فترديد السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب. ثم قوله في الحديث: الحلم بحاء مسكورة فلام ساكنة فميم هو العقل والأناءة بهمزة ونون مفتوحتين فألف فتاء تأنيث، وبالقصر التنبت: عدم العجلة اه "زرقاني على المواهب".

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: اللهم كما حسَّنت خَلْقِي فحَسِّن خُلُقِي. بفتح الخاء في الأول وسكون اللام، وبضمها في الثاني. أخرجه الإمام أحمد. وعند مسلم في حديث دعاه الافتتاح: واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

ولمَّا اجتمع فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صفات الكمال ما لا يحيط به حد ولا يحصره عد، أثنى اللَّه تعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وكلمة على للاستعلال، فدلَّ اللفظ على أنه مستعلٍ على هذه الأخلاق ومستولٍ عليها. والخلق: ملكة نفسانية يسهل على المتَّصِف بها الإتيان بالأفعال الجميلة.

وصف اللَّه تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يرجع إلى قوته العلمية بأنه عظيم فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، ووصفه بما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴾. فدلَّ مجموع هاتين الآيتين على أن روحه فيما بين الأرواح البشرية عظيمة عالية الدرجة، كأنها لقوتها وشدة كمالها من جنس أرواح الملائكة، إذ أعطاهم اللَّه قوة في العمل لا تصل إليها البشر، وفي العلم ما يصلون به إلى معرفة حقائق الأمور في اللوح المحفوظ، أو الإلهام والعلم الضروري بمعرفة الأمور على ما هي به في الواقع، وكذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الحليمي: وإنما وصف خلقه بالعِظَم، مع أنَّ الغالب وصف الخلق بالكرم، لأن كرم الخلق يراد به السماحة والدماثة -بدال مهملة مفتوحة مثلثة: السهولة واللين- ولم يكن خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقصورًا على ذلك، بل كان رحيمًا بالمؤمنين رفيقًا بهم، شديدًا على الكفار غليظًا عليهم، مهيبًا في صدور الأعداء، منصورًا بالرعب منهم على مسيرة شهر، فكان وصفه بالعِظَم أولى ليشمل الإنعام والانتقام.

وقال الجنيد: وإنما كان خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظيمًا، لأنه لم يكن له همة سوى اللَّه تعالى. وقيل: لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاشر الخلق بخلقه وبقلبه. إذ هو مقبل على اللَّه مُنزّه عما يشغل سره عنه. وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه.

فقد روى الطبراني في "الأوسط" بسند فيه ضعف: إن اللَّه بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال. وفي رواية الموطأ أنه قال: بلغني أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق اه فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن ثم قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان خلقه القرآن. قال السهروردي رَحِمَهُ اللَّهُ في "عوارفه" في قولها: ذلك رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت أَيْ: استحت من الحضرة الإلهية أن تقول: كان مُتخلقًا بأخلاق اللَّه تعالى، فعبَّرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياءً من سبحات الجلال وسترًا للحال بلطيف المقال، وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها.

وقال بعض العارفين: لما كان خلقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم خلق بعثه اللَّه إلى جميع العالمين، وعلم من كلام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَن كمالات خلقه لَا تتناهى، وَأَن التَّعَرُّض لحصر جزئياتها غير مَقْدُور للبشر، ثمَّ مَا انطوى عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كريم الْأَخْلَاق لم يكن باكتساب ورياضة، وَإِنَّمَا كَانَ فِي أصل خلقته بالجود الإلهي والإمداد الرحماني الَّذِي لم تزل تشرق أنواره فِي قلبه إِلَى أَن وصل لأعظم غَايَة وَأتم نِهَايَة.

وَاعلم أن كَمَال الْخلق إِنَّمَا ينشأ عَن كَمَال الْعقل، لِأَنَّهُ الَّذِي به تقتبس الْفَضَائِل وتجتنب الرذائل، والعقل لسان الروح وترجمان البصيرة.

وفي "القاموس" بعد الإشارة إلى الخلاف في تعريفه: والحق أنه روحاني به تدرك النفوس العلومَ الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ اه.

وعقل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصل في الكمال إلى غاية لم يصل إليها ذو عقل. ومن ثَمَّ روى أبو نُعَيْم وابن عساكر عن وهب: أنه وجد في أحد وسبعين كتابًا: أنَّ اللَّه تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى

انقضائها من العقل في جنب عقله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا كحبَّة رملة بين رمال جميع الدنيا، وأن محمدًا صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرجح الناس عقلًا وأفضلهم رأيًا.

وعن بعضهم: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجزء في سائر المؤمنين من أُمَّتِهِ وغيرهم، ومن تأمَّل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة والطباع المُتنافرة المُتباعدة، وتأمل كيف ملكهم بحسن تصرفه فيهم، واستجلاب قلوبهم، وتحمّل جفاهم، وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم وأحباهم، من غير ممارسة سبقت له ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين.

(ونقول) لمَّا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تخلَّق بالأخلاق القدسية كما ذُكر آنفًا، وكان عقله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوسع العقول، كما جاء ذلك في المعقول والمنقول، واتّسعت أخلاق نفسه الكريمة اتِّساعًا لا يضيق عن شيءٍ، فقد (كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رءوفًا رحيمًا) قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ شديد وكثير الرحمة، فهما صيغتا مبالغة، والرءوف فعول من الرأفة وهي لغة أرق من الرحمة، إذ هي رقة القلب، والرأفة: شدة الرحمة وأبلغها.

قال أبو عبيدة: قال ابن دحية: وخاصتها أنها لدفع المكاره والشدائد، والرحمة لطلب المحاب، ولهذا قدّمت الرأفة عليها، وقال غيره: الفرق بينهما أن الرأفة إحسان مبدأه شفقة المحسن، والرحمة إحسان مبدأه فاقة

المحسن إليه.

والرحيم: فعيل من الرحمة وهي في كلام العرب: العطف والإشفاق، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرحم الخلق، وأعطفهم وأشفقهم وأرقهم قلبًا. وقيل في معنى الآية: رءوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين يستغفر لهم ويتجاوز عن سيئاتهم إلا في الحدود مع إقامتها عليهم يمنع من أذاهم.

ثم هو في قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعرض عليه أعمال أمته ويستغفر لهم، ثم هو يوم القيامة همّه كله أُمَّته فيشفع فيهم حتى لا يبقى منهم أحد في النار.

وهذان مما سمَّاهُ اللَّه به من أسمائه الحسنى، لكنها بهذا المعنى محال عليه فيؤول باللازم، وهو إرادة الخير لأهله وإعطاء ما لا يستحقه العبد من الثواب ودفع ما يستوجبه من العقاب.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صاحب شفقية) أَيْ: شفقة وهي رحمة ورقة القلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه، ولذا سُمِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيقًا، ومعناه: الخائف على أُمَّتِهِ شفقة عليهم مما يسوءهم في الدراين، وبعنتهم في كل ما يشق عليهم، وقد قال تعالى فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. ومَرَّ الكلام على ذلك مستوفى بالنسبة لهذا الكتاب.

(وذلك) أَيْ: ما ذُكِر من كونه رءوفًا رحيمًا صاحب شفقية (بسائر) أَيْ: جميع (الخلق) أَيْ: المخلوقات من بني آدم الموجودين في عصره ومن

بعدهم إلى يوم القيامة، حتى الكفار بعد الدعاء عليهم بالهلاك وإمهاله لهم مما حصل منهم من إيذائه وسبه ووضع الفرث عليه وهو يصلي، ومع ذلك يدعو لهم بقوله: رَبِّ اهْدِ قَوْمِي فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إلخ.

(ولا سيما) تقدَّم الكلام على سيما أَيْ: خصوصًا شفقته ورحمته ورأفته (بأمته أهل) بالجر: صفة لأُمّته، (عالي) وفي نسخة: أعلى وهي أبلغ، أَيْ: أرفع غرف وقصور، (الجنان) بكسر الجيم: جمع جنة بفتحها.

فمن شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهة أشياء مخافة أن تفرض عليهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته، مخافة أن يشق على أمه.

ولما كذّبه قومه أرسل إليه جبريل وملك الجبال، فيما رواه البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟، قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق مما أنا فيه إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن اللَّه قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بل أرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبد اللَّه وحده لا شريك له اه."بخاري".

أَيْ: وهو يدعو لهم مع صبره وتحمله أذاهم، كوقوعه منهم بالسحر والكهانة، وهذا من حسن خلقه.

ومن ذلك شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل الكبائر من أمته، وأمره إياهم بالستر، وأمر الصحابة أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه، لما اغتاظوا عليه فسبُّوه ولعنوه، فقال: قولوا: اللَّهُمَّ اغفر له اللَّهُمَّ ارحمه. وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يتخوّل أَيْ: يتعهد لأصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم.

ومن ذلك ما في حديث الشفاعة من اهتمامه بأمته، كل الناس يسألون أنفسهم وهو يقول: أمتي أمتي يا رب أمتي. إلى غير ذلك، ومن تتبع أخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسِيَره عَلِم ذلك.

(و) قد (كان) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (على غاية) أَيْ: نهاية (العلم) أَيْ: علم الأولين والآخرين. قال البوصيري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في "همزيته":

وسع العالمين علمًا وحِلمًا فهو البحر والأنام إضاءُ

أَيْ: وسع علمه علوم العالمين الإنس والملائكة والجن، لأن الله تعالى اطلعه على العالم فعَلِم علوم الأولين والآخرين وما كان وما يكون، وحسبك في ذلك القرآن الذي أوتيه ومثله معه كما صحَّ عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ويلزم من إحاطته علم الأسماء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلوم القرآن ومثلها الذي أوتيه أيضًا، أنه أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأن علومهم مندرجة ومنغمرة في علومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ نزلت علوم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمراد بها علم جميع الأسماء، فكان آدم لا ينظر شيئًا إلا عرف اسمه فأعجز بذلك الملائكة، حيث أمرهم اللَّه تعالى بقوله جَلَّ: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فعجزوا، فَ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فجميع العلوم التي نزلت على آدم نزلت على المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وزاد علم حقائق المسميات فأعجزت علومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع المخلوقات ملائكة وغيرهم حتى آدم، فعلم آدم لم يعجز إلا الملائكة، وعلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعجز الأولين والآخرين.

إن قلتَ: يلزم من علم الأسماء علم المسميات، فلا فرق بين علم آدم وعلم نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالجواب: أن آدم علم لأسماء المسميات إجمالاً، ونبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم المسميات والمسميات تفصيلاً، فلذلك ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: رُفِعت لي الدنيا، فأنا أنظر فيها كما أنظر إلى كفي هذه.

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غاية (المعرفة) أَيْ: العلم بالأشياء، وقد كانت معارفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظيمة وخصائصه جسيمة، حارت العقول في بعض فيض مما أفاضه اللَّه من غيبه لديه، وكَّلت الأفكار في معرفة بعض ما اطلعه اللَّه عليه، وكيف لا يعطى ذلك وقد امتلأ قلبه وباطنه إيمانًا وحكمة حين شُقّ صدره، فأُعطِي ما لم يعطَ غيره، وفاض على جسده المكرم ما وهبه من أسرار الهيبة ومعرفة ربوبيته وتحقق عبوديته.

واعلم أن المعرفة على قسمين: خاصة وعامة، فالعامة معرفة الله بالدليل، والخاصة على ثلاثة أقسام: شهود أفعال وهي للأبرار، وشهود أسماء وصفات وهي للأخيار، وشهود ذات وهي لخيار الخيار. والمُراد شهود الذات من غير وقوف على كنه، إذ الكنه لا يدرك حتى للمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن الحادث لا يحيط بالقديم.

واختُلِف هل تجلي الذات يكون لغير الأنبياء أو لا يكون إلا للأنبياء؟، والصحيح أنه يكون لغير الأنبياء أيضًا، لكن لا كتجلي الأنبياء، وكذلك شهود الأنبياء متفاوت، فشهود نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلى لا يساويه شهود أحد.

ثم اعلم أن اللَّه جَلَّ اسمه قادر على خلق المعرفة، وهي العلم بالجزئيات، والعلم بذاته علمًا يقينيًا، وإن لم يكن بالكنه والحقيقة، والعلم بأسمائه وصفاته الذاتية وغيرها، وجميع تكلفاته التي ألزم بها من الأمور الشرعية والعبادات، ابتداء دون واسطة لو شاء، كما حكى عن سنته بعض الأنبياء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذ عرَّفهم بعض الأمور بدون واسطة، بأن أوقع ذلك في قلوبهم وكشف لهم أو ألهمهم أو أراهم ذلك في مناماتهم الصادقة.

وكون كل علم منقسم إلى نظري وضروري، المراد به غير علوم الأنبياء كما صرَّحوا به، وجائز أن يوصل اللَّه إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سواء رأوهم متمثلين بصورة غير صورتهم أو على

صورتهم الأصلية كما وقع لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لم يروهم كما كان يأتيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي أحيانًا كصلصلة الجرس. وليست رؤية الملائكة مخصوصة بالأنبياء بل قد يراهم غيرهم من خُلَّص عباده.

وإما أن تكون تلك الواسطة من جنس البشر كالأنبياء مع الأمم الذين يبلغونهم عند اللَّه ما أمرهم بتبليغه، ولا مانع لهذا المذكور من دليل العقل.

وإذا جَازَ هذا ولم يستحل وجاءت الرسل بما دلّ على صدقهم من معجزاتهم المحققة، وجَبَ تصديقهم في جميع ما أتوا به عن اللَّه وبلغوه لأممهم، لأن المعجزة مع التحدي من النبي قائم مقام قول اللَّه: صدق عبدي ورسولي فيما دعى، لما معه من البرهان الذي لا يقدر عليه أحد، فأطيعوه واتبعوه في كل ما أمركم به، وشاهد على صدقه في كل ما قاله. وهذا كاف والتطويل فيه خارج عن الغرض والمقام، فمن أراد تتبعه وجده مستوفى في المصنفات غير هذا.

(و) قد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نهاية (الكشف) بفتح الكاف وسكون الشين المعجمة: وهو إظهار الشيء ورفعه عما يواريه ويغطيه، كما في "القاموس".

والمُراد الاطلاع على المغيّبات التي اطلعه اللَّه عليها من علم ما كان وما يكون، وما اطلعه عليه من العلوم الغيبية حتى أنه أخبر أصحابه بما يقع لمن بعده، كإخباره بقتل عثمان وعلِيّ والزبير وعمّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حتى قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما من فتنة بعد إلا وأخبر بها فوقعت كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما اطلعه عليه ليلة الإسراء من على الملائكة والسماوات وعجائب قدرته وعظيم ملكوته، وإقداره على ذلك في برهة من الزمن، وذلك من جملة معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخصائصه المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رواتها واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب. وقد خرَّج الأحاديث الواردة في ذلك أهل الصحيح والأئمة الحُفَّاظ.

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غاية (الدين) أَيْ: التديُّن والعبادة والانقياد لأوامر اللَّه والإيمان. (و) كان على نهاية (الحلمية) أَيْ: زيادة الحلم وهو قوة توجب الصبر على الأذى. وقال الراغب: الحلم: ضبط النفس عن هيجان الغضب. وقيل: الصبر على الأذى. وقيل: الحليم من عفا بعد ما ستر.

واعلم أن الحلم حالة توقير وثبات في الأمور، وتصبُّر على الأذى، لا يستفز صاحبه الغضب عند الأسباب المحركة ولا يحمله على الانتقام. وهو شعار العقلاء.

وقد وصل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحلم إلى غاية لم يصل إليها مخلوق، لأن اللَّه تعالى تولَّى تأديبه بنفسه، وأفاض عليه من حقائق حلمه، وكل من عرف له حلم عرفت له زلة تنافي الحلم أو هفوة، إلا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يزيد على كثرة الأذى إلا صبرًا، ولا على جهل الجاهلين إلا حلمًا.

ولما دخل في غزوة فتح مكة على قريش وقد جلسوا في المسجد

الحرام، وأصحابه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره، قال لهم: ما تظنون إني فاعل بكم، قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على (نهاية الصبر) هو حبس النفس إذا أصابتها مصيبة أو نالها ضرر أو قلّ رزقها، بأن تصور ما خلق له والرجوع إلى الله تعالى، وأن كل شيء بقضائه وقدره، فيتسلّى بذلك ويرضى.

وحسبك صبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الكافرين المقاتلين المحاربين له في أشد ما نالوه من الجراح والجهد، بحيث كُسرت رباعيته وشُجّ وجهه يوم أُحُد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، فصار ينشفه ويقول: لو وقع شيء منه على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء.

حتى شقَّ ذلك على أصحابه شديدًا وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: إني لم أبعث لعَّانًا، ولكني بعثتُ داعيًا ورحمة، اللَّهُمَّ اغفر لقومي أو اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون. قال ابن حبان: أَيْ: اللَّهُمَّ اغفر لهم ذنبهم في شج وجهي، لا أنه أراد الدعاء لهم بالمغفرة مطلقًا، إذ لو كان كذلك لأجيب، ولو أجيب لأسلموا كلهم. كذا قال.

وقد رُوِي عن عمر أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ الآية ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وُطِئَ ظهرك وأُدْمِيَ وجهك وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلّا خيرًا فقلت: اللَّهُمَّ اغفر لقومي

فإنهم لا يعلمون.

وههنا دقيقة وهي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما شجَّ وجهه الشريف عفا وقال: اللَّهُمَّ اهد قومي، وحين شغلوه عن الصلاة يوم الخندق قال: ملأ اللَّه بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى، فتَحَمَّل الشجَّة الحاصلة في وجهه الشريف وما تحمَّل الشجة الحاصلة في وجه دينه، فإن وجه الدين هو الصلاة، فرجَّح حق خالقه على حقِّهِ.

واعلم أن الصبر على الأذى جهاد النفس، وقد جبل اللَّه تعالى النفس على التألُّم بما يفعل بها، والتألُّم يُسبّب للانتقام من المؤلم، ومع ذلك فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكمال حلمه تحمَّله من فاعله فلم ينتقم منه.

ولهذا شقَّ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبته إلى الجور في القسمة، لكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حلم على القائل وصبر لِمَا علم من جزيل ثواب الصابر، وأن اللَّه يأجره بغير حساب.

وصبره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الأذى إنما هو فيما كان في حق نفسه، وأما إذا كان للَّه فإنه يمتثل فيه أمر اللَّه فيفعل ما أمر به وإن كان به تشديد على مستحقه، لكن بعد المبالغة في الرفق امتثالاً لقول اللَّه تعالى له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقد وقع له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه غضب لأسباب مختلفة مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر اللَّه تعالى، وأظهر الغضب فيها ليكون أوكد في الزجر، فصبره وعفوه إنما كان فيما يتعلّق بنفسه الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد صحَّ عن زيد بن سعنة -بمهملة ونون مفتوحتين بينهما عين مهملة ساكنة وهو من أجل أحبار اليهود الذي أسلموا- أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شيء إلّا وقد عرفته في وجه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نظرتُ إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا. فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمرًا إلى أجلٍ، فأعطيته الثمن، فلمَّا كان قبل مجيء الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته، فأخذتُ بمجامع قميصه وردائه على عنقه، ونظرتُ إليه بوجه غليظ ثم قلتُ: ألا تقضيني يا محمد حقي، فواللَّه إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو اللَّه، أتقول لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أسمع، فواللَّه لولا ما أحاذر فوته -من بقاء الصلح بين المسلمين وبين قومه- لضربت بسيفي رأسك، ورسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إلى عمر بسكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التباعة -بالكسر أَيْ: المطالبة-، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعًا مكان ما رعته -أَيْ: في مقابلة روعك له-، ففعل، فقلت يا عمر: كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نظرت إليه إلّا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرتهما -أَيْ: علمتهما منه-، فأشهدوا أني قد رضيتُ باللَّه ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا.

وفي روايةٍ: وما حملني على ما رأيتني صنعت إلّا أني كنت رأيتُ صفاته التي في التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم، فوجدته على ما وصف في التوراة، فأشهدك أنَّ هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين، وأسلم هو وأهل بيته كلهم إلّا شيخًا غلبت عليه الشقوة. كذا في "المواهب".

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نهاية (الشكر) بضم الشين المعجمة وسكون الكاف: هو الاعتراف بنعم اللَّه تعالى وحمده عليها وفعل ما يجب من فعل الطاعات وترك المعصية. ولهذا يكون بالقول والعمل.

وقد وصل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشكر إلى غاية لم يصل إليها مخلوق، ومن أسمائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاكر وشكور أَيْ: كثير الشكر، وهو من أسمائه تعالى ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أَيْ: المعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، أو المثني على المطيعين.

وقد وصف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه بذلك لما صلّى حتى تورمت قدماه، فقيل له أَيْ: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟، فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟. رواه الشيخان. أَيْ: أأترك تهجدي فلا أكون عبدًا شكورًا، فالاستفهام استفهام إنكاري وهو يدل على أنه وصف ثابت له. والمعنى أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرًا فكيف أتركه.

وقال القاضي عياض: شكورًا أَيْ: مُعترفًا مُقِرًّا بنعم ربي، عالمًا بقدر ذلك، مُثنيًا عليه، باذلاً جهدي وطاقتي ومتعبًا نفسي في الزيادة من ذلك

لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أَيْ: من النعم التي شكرتموها وعدًا ممن لا يخلف الميعاد اه.

ومن أسمائه أيضًا شكَّار: وهو بفتح الشين وشد الكاف المفتوحة، أبلغ من شاكر وشكور، لأنه ينبيء عن تكرار الشكر وكثرته وصيرورته كالطبيعة له. وشكور ينبئ عن وجود الشكر وكماله. وصرَّح أبو بكر بن طلحة النحوي بتفاوت صيغ المبالغة. وقيل: الشاكر الذي يشكر على العطاء أو على الموجود، والشكور الذي يشكر على البلاء أو على المفقود.

وحُكِي: أن شقيقًا البلخي سأل جعفر الصادق عن الفتوة؟ فقال: ما تقول أنت؟، فقال: إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا، فقال جعفر: هكذا تفعل كلاب المدينة، فقال شقيق: يا ابن رسول اللَّه فما الفتوة عندكم؟، فقال: إن أُعطِينا آثرنا وإن مُنِعنا شكرنا.

وفي حديث ابن ماجه عن ابن عباس: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من دعائه: رب اجعلني لك شكَّارًا.

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نهاية (الحياء) بالحاء المهملة والمثناة التحتية المفتوحتين وبالمد: مأخوذ من الحياة لأنه ينشأ عن تمييز الحسن من القبيح، ومنشأ ذلك وجود الحياة التي صفة تُصيّر ذا الروح حيًّا. ومن ذلك المعنى الحيا للمطر لكن هو مقصور على المشهور ويُمدّ كما في "القاموس".

وعلى حسب حياة القلب يقظته ومعرفته لما يضره وينفعه في الدارين، تكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح. وكلما

كان القلب حيًّا كان الحياء أتمّ.

ولذا كان تمام الحياء في المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ لا قلب أحيى من قلبه. والحياء في اللغة: تغيُّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب، والترك إنما هو من لوازمه. وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق وهو الله تعالى في حق عباده، والصديق في حق صديقه، والسيد في حق عبده، ولذا جاء في الحديث: الحياء من الإيمان. ورَوِي: الحياء خير كله. والحياء لا يأتي إلا بخير.

قال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القبيح، وهو من خصائص الإنسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي فلا يكون كالبهيمة، وهو مركَّب من خير وعفة، فلذا لا يكون المستحي فاسقًا، وقلَّما يكون الشجاع مستحيًا، وقد يكون لمطلق الانقباض كما في بعض الصبيان.

وقال غيره: هو انقباض النفس خشية ارتكاب ما يكره، أعم من أن يكون شرعيًا، أو عقليًّا، أو عرفيًّا، ومقابل الأول فاسق، والثاني مجنون، والثالث أبله.

وقال الحليمي: حقيقة الحياء خوف الذم بنسبة الشر إليه. وقال غيره: إن كان في محرم فهو واجب، وإن كان في مكروه فهو مندوب، وإن كان في مباح فهو العرفي، وهو المراد بقوله: الحياء لا يأتي إلا بخير. ويجمع كل ذلك أنَّ المباح إنما هو ما يقع على نهي الشرع إثباتًا ونفيًا. وجاء عن بعض السلف: رأيت المعاصي نذالة -بفتح النون أَيْ: حقيرة خسيسة كما

في "القاموس"- فتركتها مروءة فصارت ديانة.

وقد يتولَّد الحياء من اللَّه تعالى من التقلُّب في نعمة، فيستحي العاقل أن يستعين بها على معصيته. وقد قال بعض السلف: خف اللَّه على قدر قدرته عليك، واستحِ منه على قدر قربه منك.

وقال ذو النون المصري: الحياء وجود الهيبة في الخلق، مع وحشة أَيْ: خوف ما يسبق منك إلى ربك مما يخالف أمره أو نهيه، والحب يُنْطِق والحياء يُسْكِت والخوف يُقْلِق.

وقال يحيى بن معاذ أحد الأولياء الكبار المشهورين: مَنْ استحى من اللَّه مُطيعًا استحى اللَّه منه وهو مذنب. ومعناه: إن مَنْ غلبَ عليه خلق الحياء من اللَّه تعالى حتى في حال طاعته فقلبه مطرق ساكن في مقام الخوف بين يديه إطراق مستحي خجل، فإنه إذا وقع منه ذنب استحى اللَّه من نظره إليه أَيْ: ترك نظره إليه نظر انتقام في تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه رؤية غضب وعقاب ما يشينه عنده.

وفي الشاهد المرئي شاهد لذلك، فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه، من صاحب أو ولد أو مَنْ يحبه، وهو يخونه، فإنه يلحقه أَيْ: المطلع من ذلك الاطلاع عليه حياءً عجيب حتى كأنه هو الجاني، وهذا غاية النفاسة.

وللحياء أقسام ثمانية يطول استقصاؤها. منها: حياء الكرم: كحيائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب بنت جحش، لما تزوجها وكانت خبزًا ولحمًا أشبع المسلمين، وطولوا عنده المقام بعد

الأكل، واستحى أن يقول لهم: انصرفوا، فقام فقاموا إلّا ثلاثة أو اثنين، فمكثوا حتى انطلق إلى أزواجه فسلَّم عليهن، ثم قاموا فأخبره أنس فجاء فدخل عليها.

ومنها حياء المحبّ من محبوبه: حتى إذا خطر على قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه وأحسّ به في وجهه، فلا يدري ما سببه. ومنها: حياء العبودية وهو حياء يمتزج بين محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وإن قدره أعلى وأجلّ منها فعبوديته له توجب استحياء منه لا محالة.

ومنها حياء المرء من نفسه: وهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة، من رضاها لنفسها بالنقص، وقنعها بالدون في المطلوب دنيويًّا أو أخرويًّا، فيجد نفسه مستحييًا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء.

وهو الذي قال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحياء لا يأتي إلا بخير. لأن مَنْ استحى أن يراه الناس يأتي بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد، فلا يضيّع فريضة ولا يرتكب خطيئة. رواه الشيخان عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحياء من الإيمان. أخرجاه عن ابن عمر. قال قتيبة: معنى هذا الحديث أن الحياء يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي كما يمنع الإيمان، فسُمِّي إيمانًا كما يسمَّى الشيء باسم ما قام مقامه. ومِنْ للتبعيض، فهو كرواية: الحياء شعبة من الإيمان. ولا يرد إذا

كان بعضه ينتفي الإيمان بانتفائه لأن الحياء من مكملات الإيمان، ونفي الكمال لا يستلزم نفي الحقيقة، فأول الحياء وأولاه الحياء من اللَّه، وهو أن لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، وكماله إنما ينشأ عن المعرفة ودوام المراقبة.

قال القاضي عياض وغيره: وإنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة، لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصده إرادة واكتساب، وعلم فهو غريزي أصلًا واكتسابي كمالًا.

وقال القرطبي في "شرح مسلم": الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلّف به دون الغريزي، غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب حتى يكاد يكون المكتسب غريزة.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جُمِع له النوعان: فكان في الغريزي أشد حياءً من العذراء في خدرها.

وحسبك ما في "البخاري" وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد حياء من العذراء في خدرها. والعذراء بالذال المعجمة والمد: هي البكر، والخدر بكسر الخاء المعجمة وإسكان الدال المهملة: ستر يمد للبنت في ناحية البيت، وهو من باب التتميم، لأن العذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجها، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، فالظاهر تقييده قوة حيائها في خدرها بما إذا دُخِل عليها، فيه من التحشم لا حيث تكون منفردة فيه، فقد لا يحصل لها حياء أو لا يشتد لعدم مقتضيه.

زاد الحافظ: ومحل وجود الحياء منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غير حدود الله، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا: أَنِكْتَهَا لَا يَكْنِي. كما في الصحيح في كتاب الحدود.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بَلَغَهُ عَنْ أَحَدٍ ما يَكْرَهُهُ لَمْ يَقُلْ: مَا بَال فُلَانٍ يَقُولُ كَذَا، وَلَكِنْ يَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَصْنَعُونَ أَوْ يَقُولُونَ كَذَا.

وَرُوِيَ: أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَل عَلَيْهِ رَجُلٌ بِهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ شَيْئًا، وَكَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: لَوْ قُلْتُمْ لَهُ يَغْسِلُ هَذَا أو يَنْزِعُهَا.

وقال القاضي عياض: وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد. وَأَنَّهُ كَانَ يُكَنِّي عَمَّا اضْطَرَّهُ الْكَلَامُ إِلَيْهِ مِمَّا يَكْرَهُ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيت فَرْجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ.

والمعنى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشدة حيائه لم يكشف عورته عند أحد قط، كما ورد: من كرامتي على الله أنّه لم يطلع لي على عورة أحد قطّ. وعن ابن عبّاس كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغتسل من وراء الحجرات، وما رأى أحد عورته قطّ.

فما ذُكِر منطبق على ما سيق له الكلام، فإنّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقرب الناس وأحبّهم إليه، وكان يضاجعها وينام عندها، فإذا لم تر ذلك منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزم عدم كشفه

عندها، فإذا لم يكشف عندها فبالطريق الأولى عند غيرها. وإنما كَنَّتْ عن ذلك ولم تصفه تأدُّبًا منها فللّه درّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ذكره الشهاب.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتغيّر عن الكمال (في كلا) حالي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ اللذين هم (الوقتان). قال بعض الأفاضل: راجع للأوصاف المتقدّمة أَيْ: الصبر في السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ والشُّكْر وهو الرضا بالقضاء في الرخاء والشدة. وفي حديث الشيخين: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا اه. قال البوصيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "همزيته":

لاَتَحُلُّ الْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَى الصَّبْرِ ... وَلاَ تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ

أَيْ: لا تحل الشدة وإن أفرطت ولا سيما في الحروب وقد أسعرت نيرانها واصطلمت عقول شجعانها. وعرى الصبر: كناية واستعارة عن أسبابه كالحلم والعفو والشجاعة، ولا تخرجه عن ثباته ووقاره وتواضعه.

السَّرَّاء: وهي الرخاء والسعة، في الجيوش والفتوح التي فتحها إلى آخر حياته، بل هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معها كهو قبلها لم يزداد إلا تواضعًا وحلمًا وعفوًا وصبرًا.

ومن ثَمَّ لما دخل مكة يوم الفتح في تلك الجيوش الهائلة وهو على ناقته القصواء في كتيبته الخضراء، داخل وهو خافضٌ رأسه تواضعًا لما رأى من إكرام اللَّه له بهذا الفتح، فازداد شكره وخضوعه لعظمة اللَّه تعالى، حيث أحلَّ له بلده ولم يحلها لأحد قبله.

(وتحقَّق) أيْ: تيقَّنَ (بالرجاء) بفتح الراء المشددة والمد: هو تعلُّق القلب بمرغوب فيه مع الأخذ في الأسباب، فإن لم يأخذ في الأسباب فهو طمع مذموم. وأما الرجا بالقصر فهو الناحية، ومنه: والملك على أرجائها. اسم من رَجَوْتُهُ أَرْجُوهُ رُجُوًّا عَلَى فُعُولٍ أَيْ: أَمَّلْتُهُ أَوْ أَرَدْتُهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أَيْ: لا يريدونه.

وقال الراغب: هو ظنٌ يقتضي حصول ما فيه مسرة. وقد يطلق على الخوف كقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أيْ: لا يخافون. وقال ابن عطية: والرجاء أبدًا معه خوف كما أن الخوف معه رجاء. وفي "القاموس": الرجاء ضد اليأس.

(و) تحقَّق بـ(الخوف) من ربه جَلَّ وعلا، فكان على غاية لا يساويه أحد فيه. ثم اعلم أن الخوف والوجل والهيبة والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال الجنيد: الخوف توقُّع العقوبة على مجاري النفس. بأن يتصوَّر أن كل نفس يقوم به يخشى أن تحل به عقوبة. وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكُّر الأمر الذي يخاف وقوعه به. وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام.

فإن الذي يرى العدو والسيل ونحوهما له حالتان: إحداهما حركته للهرب منه وهي حالة الخوف، والثانية سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه وهي الخشية.

وأما الرهبة بالفتح اسم من باب رهب من باب تعب: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه. وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامَّة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية. رواه البخاري.

قال العز بن عبد السلام: فيه إشكال لأن الخوف والخشية حالة تنشأ عن ملاحظة شدة النقمة الممكن وقوعها بالخائف، وقد دلَّت القواطع على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير مُعذّب، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾، فكيف يتصور منه الخوف؟، فكيف أشد الخوف؟، قال: والجواب أن الذهول جائز عليه، فإذا ذهل عن موجبات نفي العقاب حدث له الخوف اه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا. رواه البخاري من حديث أبي هريرة. ومعناه: لو تعلمون ما أعلم مما أعدّ في الجنة من النعيم وما حفّت عليه من الحجب، لسهل عليكم ما كلفتم به، ثم إذا تأملتم ما وراء ذلك من الأمور الخطرة، وانكشاف الغطاء يوم العرض على الله، لا شتد خوفكم فلم تضحكوا ولبكيتم كثيرًا لغلبة الحزن واستيلاء الخوف واستحكام الوجل.

وفيه دلالة على اختصاصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعارف بصرية كرؤية الجنة والنار وأهوالها، ومعارف قلبية كالأحكام التي لم يطَّلع عليها غيره من المُخلصين من أُمّته لكن يطلعوا بطريق الإجمال، وأما تفاصيلها فاختص بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة في كرامته، ولأنه هو الذي يحتملها.

فقد جمع اللَّه له بين علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق وما غاب، ويجري فيه النقل والاستدلال. وعين اليقين وهو شهود الأشياء كما هي كشفًا عيانًا، مع الخشية القلبية واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، ولذا قال: إن أتقاكم وأعلمكم باللَّه أنا. رواه البخاري من حديث عائشة.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي ولجوفه أزيز أَيْ: صوت كأزيز المرجل من البكاء، رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في "صحيحه" بلفظ: كأنين الرحى أَيْ: خنين من الخوف من اللَّه تعالى، وهو بفتح الخاء وكسر النون: ضرب من البكاء دون الانتحاب. وقيل: هو أن يجيش -بجيم ومعجمة- ويغلي من البكاء. ذكره في "المواهب" و"شرحها".

(و) تحقَّق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الزهد) بضم الزاي: هو في اللغة خلاف الرغبة، يقال: زهد في الشيء وعن الشيء، فيتعدَّى بفي وعن. وأما حقيقته الشرعية ففيها خلاف كثير، والراجح عنده بعضهم: أنه استصغار الدنيا بجملتها واحتقار جميع شأنها، فمن كانت الدنيا عنده صغيرة حقيرة هانت عليه.

فالزاهد هو المستصغر للدنيا المحتقر لها الذي انصرف قلبه عنها لصغر قدرها عنده ولا يفرح بشيء منها ولا يحزن على فقده ولا يأخذ منها إلا ما أُمِر بأخذه مما يعينه على طاعة ربه، ويكون مع ذلك دائم الشغل بذكر اللَّه وذكر الآخرة، وهذا هو أرفع أحوال الزهد، فمَنْ بلغ هذه المرتبة فهو في الدنيا بشخصه وفي الآخرة بروحه وعقله.

قال الفضيل بن عياض: جعل اللَّه الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه في حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد فيها. وقال سفيان الثوري وغيره: الزهد قصر الأمل. وقال ابن المبارك: الزهد الثقة باللَّه. وقال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك ما يشغل عن اللَّه. وقيل: الزهد هو الإعراض بالقلب.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه الأوّل: ترك الحرام بالقلب وهو زهد العوام من المسلمين، والثاني: ترك الفضول من الحلال بالقلب وهو زهد الخواص منهم، والثالث: ترك ما يشغل العبد عن اللَّه بالقلب وهو زهد العارفين وهم خواص الخواص.

وفي الحديث: إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ، فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ. وقال سفيان بن عيينة: الزهد ثلاثة أحرف: زاي وهاء ودال، فالزاي: ترك الزينة، والهاء: ترك الهوى، والدال ترك الدنيا بجملتها.

(و) تحقَّق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الورع) بفتحتين: هو الكف عن المحارم والتقوى. وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أورع خلق اللَّه وأتقاهم،

كما ورد في الحديث: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا. رواه البخاري. وقوله: (في الدار المفنية) هي بفتح الميم: الفانية التي لا يقيم بها أحد.

ثم أعرب عن زهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا بقوله: (بل مقامه) تحقَّق بالعبودية و(اقتضى) مقامه (زهده في) كل ما (سوى الحنَّان) عَزَّ وجَلَّ من سائر الكونين وما فيهما من محسوسات ومعقولات، فلا قرار له مع غير مولاه، ولا التفات له لغيره ما به تولاه، ومقامه في ذلك لا يُدرك ولا يُكيّف ولا يعلمه إلا الذي خصَّهُ.

ومن أسمائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الكتب القديمة الزاهد. رُوِي عن أبي ذر: رفعه الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق بما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أُصِبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك.

وأما زهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا الذي هو أدنى الزهد، فيكفي دليلاً عليه ما كان يتعرض له من الأذى من الخلق قولاً وفعلاً في ذات الله وعدم مبالاته بنفسه في ذلك، واختياره الموت والنقلة إلى الدار الآخرة على الحياة والبقاء في الدنيا، وقد خُيِّر في ذلك، وعدم توسعه في العيش وعدم ادخاره واقتنائه لشيء من عرض الدنيا، مع كونها قد سيقت إليه بحذافيرها وترادفت عليه.

وقد توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وكان يدعو: اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتًا. وأرسل إليه إسرافيل

عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض وعرض عليه أن تصير معه جبال تهامة زمردًا وياقوتًا وذهبًا وفضة، وخَيَّرهُ بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، وأن يجوع يومًا ويشبع يومًا.

وأما تفسير الزهد في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزهد في الدنيا فقط فلا يصلح، لأن بعض العلماء أنكر وصفه وصفه بالزهد، فقال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها لأنها لا تساوي عند المتخلقين بأخلاق الله جناح بعوضة، فلم يرض وصف أولياء اللَّه بها فضلاً عن أنبيائه عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقد قال في "المواهب": قال الحليمي في "شعب الإيمان": من تعظيم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة، فلا يقال كان فقيرًا.

وذكر الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين أنه كان يقول: لم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقيرًا من المال، بل كان أغنى الناس باللَّه، قد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول فى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ أحيني مسكينًا. إن المراد استكانة القلب لا المسكنة المرادفة للفقر. وأما خبر: الفقر فخري وبه افتخر. فموضوع. وقد صَحَّ أنه استعاذ من فتنة الفقر كما استعاذ من فتنة الغناء.

وعن السبكي: أن فقهاء الأندلس أفتوا بإراقة دم من وصفه بالفقر.

وقد تعارضت الأحاديث في ذم المال ومدحه، ويجمع بينها بأن المال ليس خيرًا محضًا من كل وجه ولا شرًّا محضًا من كل وجه، وإنما هو

كالسيف في يد المقاتل يقتل به معصومًا تارة ومهدرًا أخرى، أو كحية في يد إنسان فيها سم وترياق، لكن سمها أكثر وأغلب. وفي هذا إيماء إلى ترجيح القول بتفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر، سيما ما ورد من إعراضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها كل الإعراض، مع أنه سيد الشاكرين، ولا يخشى عليه منها ضررًا أصلاً.

ودليل إعراضه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها أشد الإعراض خبر الترمذي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ.

وحكمة هذا التفضيل الاستلذاذ بخطابه تعالى، وإلا فهو عالمٌ بالأشياء جملة وتفصيلاً.

(وتحلَّى) بفتح المثناة الفوقية والمهملة واللام المشددة أَيْ: تزيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بالتواضع) بضم الضاد المعجمة: هو لغة التذلُّل والتخشُّع. وعُرفًا: إظهار التنزُّل من المرتبة لغيره فيما يراد تعظيمه. وعند الصوفية: تذلُّل لعلَّام الغيوب بالتسليم لأحكام الحق.

قال بعضهم: اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلّا عند لمعان النور الحاصل بسبب المشاهدة في قلبه، وإنما يحصل برياضة النفس ومجاهدتها في الإقبال على الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فعند ذلك تفنى النفس عن ميلها إلى الشهوات المائلة إليها بالطَّبع، فتنهم بها وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات، فإذا جاهدها بمنعها من

شهواتها وتذكيرها مآل ذلك من الذل والهوان أهلكها؛ بحيث تغيرت طباعها حتى كأنها ذابت فلم يبق لها أثر، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب.

فحينئذ تطمئن بذكر اللَّه لترقيها في معرفة الأسماء والمسببات وعملها بمقتضاها، وعرفت الحق وأقبلت عليه بجملتها، فلم يبق لها تعلق بشيء من مألوفها، فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها التي طبعت عليها من فخر وسرعة غضب وحرارة عند غليان دم القلب إذا أصابها ما تكرهه، وغير ذلك من كل ما يشين، وسكون وهجها وغبارها.

وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوطان القرب، فكلما زاد قربًا زاد تواضعًا، وحسبك من تواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن خَيَّرَه ربه بين أن يكون نبيًّا ملِكًا -بكسر الميم أَيْ: سلطانًا تكون شؤونه كالملوك في اتخاذ الجنود والخيول والخدم والقصور والحجّاب- أو نبيًّا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا تواضعًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزهدًا في الدنيا وخضوعًا لله، من أن النبوة معطاة له في الحالين، ولو كان نبيًا ملكًا ما ضره الملك.

فأعطاه اللَّه تعالى بتواضعه أن جعله سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مَن تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مُشفَّع.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجلس للأكل جلوس العبد، وكان يتخطى عن وجوه الترفُّعات كلها في ملبسه ومأكله ومبيته ومسكنه، إظهارًا لظاهر العبودية فيما يناله العيان صدقًا عما في باطنه من تحقُّق العبودية

لربه تحقيقًا لمعنى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾، فإن أكثر المُفسّرين على أنه الذي جاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال بعضهم: وهو الذي صدق به.

وقد قال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تطروني -بضم المثناة الفوقية أَيْ: تتجاوزوا الحد في مدحي بأن تقولوا ما لا يليق بي- كما أطرت النصارى ابن مريم، وفي رواية: عيسى ابن مريم، حيث كذبوا، وقالوا فيه: ابن الله، وأحد ثلاثة وغير ذلك من إفكهم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله. رواه الترمذي. أَيْ: ولا تقولوا ما قالته النصارى، فأثبت لنفسه ما هو ثابت له من العبودية والرسالة، وأسلم لله ما هو له لا لسواه، فالنهي إنما هو عن ذلك وإلا فمدحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مطلوب من كل أحد، وقد سمعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأجاز عليه، مع أن حده لا يبلغه كما قال:

لا يبلغ الواصف المطري مدائحه ... وإن يكن محسنًا في كل ما وصفا

ويرحم الله الشرف البوصيري حيث قال:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

ومنه أخذ الصفي الحلي قوله في بديعته:

دع ما تقول النصارى في نبيهم ... من التغالي وقل ما شئت واحتكم

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(العفو) بفتح العيم المهملة وسكون الفاء: مصدر عفا يقال: عفا عن الشيء: تركه، وعفا الذنب وعفا عنه: غفره وتجاوز عنه.

ومن أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العفو والصفح، ومعناهما واحد، فالعفو المبالغ في العفو عن السئيات وهو محوها وإزالتها، والصفوح

صيغة مبالغة من الصفح: وهو الإعراض عن الذنب يقال: صفح عن الشيء صفحًا: أعرض عنه، وصفح عن الذنب: عفا عنه.

وقد وصفه الله بهما في القرآن، إذ أمره بهما فيه فقال: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾، فامتثل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمر وتخلَّق به، فيقتضي الاتصاف به على أبلغ وجه وأتمه إذ كان جبلة له، لأنه لا يعصي له أمرًا فأفاد الوصف بهما.

وأمره تعالى بالعفو فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، بناءً على أن المراد به الصفح، لما رُوِي: أنه سأل جبريل عن تأويلها؟، قال: لا أدري حتى أسأل ربي فسأله ثم رجع، فقال: إن ربك أمرك أن تصل مَنْ قطعك، وتعطي مَنْ حرمك وتعفو عمَّن ظلمك، وتحسن إلى مَنْ أساء إليك. ذكره البغوي والقرطبي.

وقد وصفه الله بهما في التوراة والإنجيل، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن. الحديث وفيه: ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شأنه الترك للمؤاخذة بالجنايات والإعراض والتجاوز عن الزلات، فإن صدرت من أحد في جانبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زلة عفا عنها بترك المؤاخذة وصفح عن زلته.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينتقم لنفسه قط، وما لعن مسلمًا قط، وما

ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه أو يغضب لنفسه، إلا أن تنتهك شيء من محارم الله فينتقم لله ويغضب له حتى لا يقوم لغضبه شيء.

وقد أُوذِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد الإيذاء وسُحِر ووُضِع السم في الشاة، وتعرَّض من تعرَّض لقتله فعفا عن الفاعلين لذلك. ومواطن العفو والصفح منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تحصى.

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الجود) بضم الجيم: مصدر جاد وهو إعطاء ما ينبغي شرعًا لمن ينبغي أن يعُطى لاستحقاقه بالصفة القائمة به كالفقر. وقيل: الجود تجنُّب اكتساب ما لا يحمد وهو ضد التقتير، والجواد الذي يتفضَّل على مَنْ يستحق ويعطي مَنْ لا يسأل، ويعطي الكثير ولا يخاف الفقر، والسخي: الليِّن عند الحاجة.

وقد ذكر الجلال السيوطي في "الجامع الصغير" حديث: السَّخِيُّ قَرِيبٌ من اللَّهِ، قريبٌ من الجَنَّةِ، قَرِيبٌ من النَّاسِ، بَعِيدٌ من النَّارِ، والبَخِيلُ بَعِيدٌ من اللَّهِ، بَعِيدٌ من الجَنَّةِ، بَعِيدٌ من النَّاسِ، قَرِيبٌ من النَّارِ، والجاهِلُ السَّخِيُّ أَحَبُّ إلى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ اه.

قال الأستاذ القشيري: قال القوم: مَنْ أعطى البعض فهو سخي، ومن أعطى الأكثر وأبقى لنفسه شيئًا فهو جواد، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو مُؤثر.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس كما في البخاري ومسلم من حديث أنس، ومعناه: هو أسخى

الناس. لما كانت نفسه أشرف النفوس، ومزاجه أعدل الأمزجة، لا بُدَّ أن يكون فعله أحسن الأفعال، وشكله أملح الأشكال، وخلقه أحسن الأخلاق، فلا بُدّ أن يكون أجود الناس، وكيف لا يكون كذلك وهو مستغنٍ عن الفانيات من متاع الدنيا بالباقيات الصالحات.

واقتصار أنس على هذه الأوصاف الثلاثة من جوامع الكلم، فإنها أصول الأخلاق، فإن في كل إنسان ثلاث قوى: أحدها الغضبية، وكمالها الشجاعة، ثانيها: الشهوانية وكمالها الجود، وثالثها: العقلية وكمالها النطق بالحكمة.

وفي روايةٍ لمسلم عنه: ما سُئِلَ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا إلّا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

ويرحم اللَّه أبا عبد اللَّه محمد بن جابر حيث قال:

هذا الذي لا يتقي فقرًا إذا ... أعطى ولو كثر الأنام وداموا

وادٍ من الأنعام أعطى آملًا ... فتحيّرت لعطائه الأوهام

وكان عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كان أجود الناس كفًّا، وأصدق الناس لهجة. أَيْ: لسانًا يعني كلامًا.

وخرج ابن عدي من حديث أنس مرفوعًا: أنا أجود بني آدم.

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في

إظهار دينه وهدايته عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم وتحمّل أثقالهم، ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يروى حديث الندى والبشر عن يده وو‌جهه بين منهل ومنسجم
من وجه أحمد لي بدر ومن يده بحر ومن فمه در لمنتظم
يمم نبيًّا يباري الريح أنمله والمزن من كل هامي الودق مرتكم
لو عامت الفلك فيما فاض من يده لم تلق أعظم بحر منه إن تعم
تحيط كفاه بالبحر المحيط فلذ به ودع كل طامي الموج ملتطم
لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت كل الأنام وروت قلب كل ظمي

وقد كان جوده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة للفقراء وللمحتاجين، وتارة ينفقه في سبيل اللّه، وتارة يتألّف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه.

وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار كما ورد في الحديث، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع.

وقد أشار المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" في حرف الطاء حيث قال مشيرًا لبعض ما تقدَّم بقوله:

أَيَا مَنْ عَطَايَاهُ كَمُزْنٍ وَإِنَّهَا لَمِنْ بَعْضِ مَا تُعْطِيهِ مَعْ كُلِّ بَلِّهَا
بِوَابِلِهَا وَالغَيْثُ صَائِبُ طَلِّهَا مِنَ المَدَدِ المَعْهُودِ مَعْ كُلِّ مَنِّهَا

بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ بِالجَمِيعِ تُحَوِّطُ

أَفَادَ لِشَخْصٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ أَغْنُمَا وَأَعْطَى لِآخَرَ مِنْ ذُرَى النَّقْدِ عِنْدَما

أَتَى مَالُ بَحْرَيْنِ وَأَكْثَرَ حَتَّى مَا قِيَامَاً قِدْرُهُ قُولَ فِي الحِبِّ كُلَّ مَا

تَشَاءُ مِنَ الجُودِ العَظِيمِ المُغَبَّطُ

إِذَا جَاءَ مَالُ الغَزْوِ لَمْ يَقْنِ دِرْهَمَاً لِنَفْسٍ لَهُ بَلْ يُبْذِلُ المَالَ مُكْرِمَا

وَقَدْ قِيلَ لَمْ يُسْأَلْ لِشَيْءٍ مُحَكَّمَاً فَقَالَ جَوَابَاً لَا وَلَوْ جَادَتِ الدِّمَا

مِنَ العَيْنِ أَنْ تَبْكِي لِجُودِ المُنَوَّطُ

وَكَيْفَ وَإِمْدَادُ السَّمَوَاتِ عُلْوِهَا وَعَرْشٍ وَفَرْشٍ مِنْ عَطَايَاهُ إِنَّهَا

تَمُدُّ عَلَى عَدِّ الزَّمَانِ بِكُبْرِهَا وَيَلْتَمِسُوا مِنْهُ كَمَالاً لِفَخْرِهَا

فَمَنْ لَمْ يُطَالِبْهُ فَذَاكَ مُفَرِّطُ

سَيَكْفِيكَ إِنْدَاءُ الهَدَايَا مِنَ النَّبِيّ فَجُدْ لِي رَسُولَ البَرِّ وَاتْبَعْ مُصَاحِبِي

بِقَدَمِ اسْتِقَامَاتٍ عَلَى خَيْرِ مَذْهَبِ أَفِدْنَا جِوَارَكَ فِي مَقَابِرِ يَثْرِبِ

وَفِي جَنَّةٍ صَلَّى عَلَيْكَ المُحَوِّطُ

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الشجاعة) هي مثلثة الشين يعني أنها تضم وتفتح وتكسر: مصدر شجع بالضم شجاعة فهو شجيع. وشجاع بضم الشين وبنو عقيل تفتحها حملاً على نقيضه وهو جبان، وبعضهم كسرها للتخفيف فرارًا من توالي حركات متوالية من جنس واحد.

قال الشامي: الشجاعة: انقياد النفس مع قوة غضبية وملكة يصدر عنها انقيادها في إقدامها، متدربة على ما ينبغي في زمن ينبغي، وحال ينبغي.

والشجاع: الشديد القلب عند البأس المستهين بالحروب.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متصفًا بالشجاعة على أعظم وجه ومشتهرًا بذلك اشتهارًا لا يخفى على أحد، فقد حضر المواقف الصعبة وفَرَّ الشجعان والأبطال عنه. وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثابت لا يفارق مكانه ومقبل لا يدبر، ولا يزول عن مقره، وما شُجَاعٌ إِلَّا وَقَدْ أُحْصِيَتْ لَهُ فَرَّةٌ وَحُفِظَتْ عَنْهُ جَوْلَةٌ سِوَاهُ.

قال علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فعَنْ أَنس: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ. أَيْ: أقواهم قلبًا فِي حَال الْبَأْس.

فَكَانَ الشجاع مِنْهُم الَّذِي يلوذ بجانبه عِنْد التحام الْحَرْب وَمَا ولى قطّ، وَلما تحدث أحد عَنهُ بفراره، وَقد ثبتَتْ أشجعيته بالتواتر النقلي، بل أخذه بعضهم من النَّص القرآني كقَوْله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، فكلَّفه وَهُوَ فَرد جِهَاد الْكل، و﴿لَا يُكَلف الله نفسا إِلَّا وسعهَا﴾. وَلَا ضير فِي كَون المُرَاد هُوَ وَمن مَعَه إِذْ غَايَته أَنه قوبل بِالْجمعِ وَذَلِكَ مُفِيد للمقصود، وهذه الثلاث أمهات الأخلاق الفاضلة.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والنجدة بالفتح: الشجاعة والشدة. وفي البخاري من حديث البراء بن عازب وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفر. كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا

بالسهام ولقد رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وهذا يعد في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في أشد موضع في القتال، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست من مراكب الحرب بل شأنه الطمأنينة، إذ ليست بسريعة، ولا تصلح لكر ولا فر، ولا هرب، وهو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوّه باسمه ليرفعه من ليس يعرفه، مبالغة في الشجاعة وعدم المبالاة بالعدو.

وصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قال عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "البرَّاق" في حرف العين:

ظَهَرَتْ شَجَاعَةُ أَفْرَسِ القَوْمِ عِنْدَما   تَبَدَّى قِتَالٌ فِي حُنَيْنٍ وَأُهْزِمَا

صَحَابَتُهُ وَقَفَ الإِمَامُ وَكَيْفَمَا   يَفِرُّ هُوَ المَعْدُودُ لِلحَرْبِ حَيْثُمَا

تَخَافَنَّ فِرْسَانٌ يَقِيهِمْ وَيَدْفَعُ

وَقَدْ كَانَ مَعْهُ صَاحِبُ العَزْمِ عَمُّهُ   كَذَاكَ أَبُو بَكْرٍ إِمَامِي خِلُّهُ

فَقَالَ أَيَا العَبَّاسْ نَادَى أَجَلَّهُ   وَقَالَ أَيَا أَصْحَابَ السُّمَيْرَةِ إِنَّهُ

حَبِيبُكُمُو هَذَا إِلَى أَيْنَ فَارْجِعُوا

فَرَدُّوا عَلَى قَتْلِ العِدَا نِعْمَ رَدَّةً   أَبَادَهُمُ قَتْلاً عَظِيمَاً مُشَتِّتَا

فَطَعْنَاً وَضَرْبَاً بِالسُّيُوفِ مُفَتِّتَاً   فَهُزْمُوا وَفَازَ الصَّحْبُ بِالنَّصْرِ فَوْزَةً

بِهَا قَرَّ رَأْيُ المُصْطَفَى وَتَشَجَّعُوا

وَجَاءَ إِلَيْهِ قَاصِدُ الغَدْرِ يَقْتُلَا   ضَرَبْهُ عَلَى صَدْرٍ فَعَادَ مُجَلِّلَا

فَقَالَ فَمَا كَانَ أَبْغَضُ مِنْكَ عِنْدِي لَا   أَرَى الآنَ مَحْبُوبَاً لَدَيَّ مُكَمَّلَا
كَمِثْلِكَ فَالأَخْبَارُ مِنْ ثَمَّ تَطْلُعُ
وَكَمْ قَامَ فِي حِمَى الوَطِيسِ بِعَزْمِهِ   وَقَدْ شَتَّتِ الأَقْوَامَ يَا ذَا بِرَأْيِهِ
يَعُودُونَ بِالخُسْرَى بِإِعْطَاءِ رَبِّهِ   حَوَى العَزْمَ وَالتَّجْمِيلَ تَكْمِيلُ بِرِّهِ
فَصَلَّى عَلَيْهِ المُعْطِ مَا النُّورُ يَسْطَعُ

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(المروءة) بضم الميم على وزن فعولة بالضم وهي بالهمزة وتركه وبإدغام الواو والتسهيل: الإنسانية مأخوذة من المرء مثلث الميم: وهو الرجل الكامل الإنسانية. قاله الجوهري.

والمرء اسم من أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو اسم جامع لكل المحاسن. والمروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف على محاسن الأخلاق وجميل العادات كما في "المصباح".

وقيل: المروءة: صون النفس عن الأدناس وما يشينها عند الناس. وقيل: أن لا تعمل سرًّا ما تستحيي منه علانية. وقال جعفر الصادق: هي أن تطمع فتذل ولا تسأل فتثقل، ولا تبخل فتشتم، ولا تجهل فتخصم.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: المروءة مروءتان مروءة ظاهرة وهي الرياسة، ومروءة باطنة وهي العفاف. وهذا ليس بخلاف محقق بل كُلٌّ عبَّر بما سنح له.

سُمِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأنه منها بمكان. قال زهير بن صرد:

امنن علينا رسول اللَّه في كرم   فإنك المرء نرجوه وندخر

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(العفية) أيْ: العفة بكسر المهملة:

مصدر عفَّ عن شيء يعف من باب ضرب: امتنع عنه، كما في "المصباح". والعفة: قمع النفس عن تعاطي ما لا ينبغي.

ومن أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العفيف ومعناه: الكاف عن المكروه والشبهة، وهو أعف الناس وموصوف به في الكتب القديمة. وقيل: هي التجنُّب عن كل ما لا يليق.

(و) تحلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ(الرضا) بكسر الراء: مصدر يقال: رضي الشيء ورضيت به رضًا: اخترته. كما في "المصباح". والرضا: مطابقة إرادة المريد لما هو الواقع أو في حكم الواقع، مطابقة لمقتضى القبول وعدم الاعتراض، ويصاحبها سكون الدم وبرودته في الطبيعة، وتتبعها الرحمة وهي رقة عارضة للنفس تقتضي الإحسان والإنعام، وتستعمل تارة في عدد الرأفة وتارة في مجرد الإحسان.

ومن أسمائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الرضي أَيْ: ذو الرضا أو هو رضا اللَّه على عباده، ورضوان اللَّه بكسر الراء وضمها أَيْ: رضاه على عباده. وقيل في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ أَيْ: رسوله.

(و) قوله: (العدل) بالرفع: مبتدأ، هو إعطاء كل ذي حق حقه، وهو بفتح المهملة وسكون الدال المهملة أيضًا: مصدر عَدَل، ومعناه العدول عن الظلم والجور، ويكون بمعنى العادل فيستوي فيه المذكر والمؤنث، ويجمع على عدول. والعدل: لزوم طريق الحق من غير ميل ولا انحراف، ووضع الشيء في محله ومعاملته بما هو أهله، وضده الجور: وهو الميل والخروج عن ذلك.

(فيه) أَيْ: في الرضا (وفي الغضب) بفتح الغين المعجمة وفتح الضاد المعجمة أيضًا: مصدر غضب وهو: غلظة عارضة للنفس تقتضي الانتقام بالإيقاع أو الذم، وتستعمل تارة في مجرد هذه الغلظة، وتارة مجرد الانتقام، ويصاحبها غليان الدم وفورانه في الطبيعة، وهي تابعة للسخط وهو عدم مطابقة الواقع لإرادة المريد الموجب لاعتراضه وعدم قبوله.

وقوله: (أعظم) بالرفع: خبر لمبتدأ وهو قوله: والعدل إلخ أَيْ: أرفع وأعلا (شهدان) بضم الشين المعجمة وسكون الهاء. وفي نسخة: أعظم شاهدان.

قال القاضي عياض: كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جُمِعَ لَهُ الْحِلْمُ فِي الصَّبْرِ، فَكَّانِ لَا يُغْضِبُهُ شَيْءٌ مما يتعلّق به في نفسه، وإن كان قد يغضب للَّه، ولا يَسْتَفِزُّهُ الغضب -بفاء مكسورة وزاي مُشدّدة- أَيْ: ما يستخفّه بحيث تبدو منه خفة وقلة لأمور الدنيا والأعداء.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضًا أَيْ: غضبه بعيد لا يوجد منه إلا بعد أمور كثيرة، بخلاف رضاه لأنه متخلق بأخلاق اللَّه وهو رحمة من اللَّه ورحمته قد سبقت غضبه.

وفي الحديث: المؤمن بطيء الغضب سريع الرضا. وهذا في غير حقوق اللَّه، وفي غير ما يؤدي إلى الحمية والمروءة. وفي حديث ابن أبي هالة: ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها. فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء، يعني: لا يقاوم غضبه شيء.

لأنه إنما كان يغضب للحق حتى لا ينتصر إلا له، ولا يغضب لنفسه

ولا ينتصر لها بل يعفو عن المعتدي عليه، وذلك لأنه لم يبق فيه حظّ من حظوظها وشهواتها وإراداتها، وإنما تمحّضت حظوظه وأغراضه وإرادته لله سبحانه وتعالى، فهو قائم بأمر به معرض عن الجاهلين

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمن الناس وأعدل الناس وأعف الناس وأصدقهم كلامًا، اعترف له بذلك محادوه وأعدائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وكان) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (على ذروة) بذال معجمة مثلثة الحركة وراء ساكنة وواو وتاء أي: أعلا مراتب (الصمت) وهو السكوت بفتح الصاد المهملة وسكون الميم: مصدر صمت من باب قتل وقعد، صمتًا وصموتًا ومعناه: سكت كما في "المصباح".

وليس المراد أنه يسكت عن كل شيء بل المراد أن يترك الكلام فيما لا ينبغي ولا يعني، فإنه كما ورد في الأثر: الصَّمْتُ حِكَمٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ. وقد يحمد في محله ولذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قفل الفم. وهو كثير في النساء، ولذا يذم أحيانًا إذا كان عبثًا. وقيل: الصمت منام اللسان والتكلُّم يقظته. وقد تقدَّم الكلام على كيفية سكوت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وكان) عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ذروة (التأني) بفتح التاء المثناة فوق المشددة بعدها همزة مفتوحة ثم نون مشددة مكسورة آخره ياء تحتية: مصدر تَأَنَّى في الأمر: ثبت عليه ولم يعجل فيه. والتأني: ترك العجلة والمبادرة بالكلام وغيره، كما قيل:

قَدْ يُدرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ   وقَدْ يكونُ معَ المُستعجِلِ الزُلَلُ

(وكان) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حالة (والوقار) وهو الحلم والرزانة،

وهو بفتح الواو والقاف بعدها ألف: مصدر وقُر بضم القاف مثل جمُل جمالاً، ويقال أيضًا: وقر يقر من باب وعد. والوقار العظمة أيضًا، كما في "المصباح".

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كله وقارًا، لأن اللَّه ألقى عليه من المهابة ما غاية له. روي عن عمرو بن العاص قال: صحبت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما ملأت عيني منه قط، حياءً منه وتعظيمًا له، ولو قيل لي صفة لما قدرت.

وإذا كان هذا وهو من أجلاء الصحابة كذلك فما بالك بغيره، فعلم أنه لولا أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يباسطهم ويمزح معهم ويتواضع لهم، لما قدر أحد منهم أن يجالسه ولا يحادثه لما ألقى اللَّه عليه من المهابة والجلالة صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

(و) على (حسن الأدبية) أَيْ: الأخلاق المنسوبة للأدب وهو مصدر أَدَّبْته أَدَبًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ: عَلَّمْته رِيَاضَةَ النَّفْسِ وَمَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ قَالَ. كما في الحديث: أدّبني ربي فأحسن تأديبي. قال أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ: الْأَدَبُ يَقَعُ عَلَى كُلِّ رِيَاضَةٍ مَحْمُودَةٍ يَتَخَرَّجُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي فَضِيلَةٍ مِنْ الْفَضَائِلِ.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجبولًا على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة أَيْ: تذليل وتعويد نفس على ما فيه لين وسهولة، بل بجود إلهي فلا يحتاج إلى الاكتساب المتكلفة لتحسين الخلق، ولا ينافيه طلبه تحسين خلقه لأن القصد به إظهار العبودية

وتعليم الأمة وطلب الزيادة، لأن الكامل يقبل الكمال.

(و) كان على غاية وذروة من (النظافة) بفتح النون: مصدر نظف وهي ضد الدنس الظاهرة والباطنة. (والظرافة) بفتح الظاء المعجمة مصدر ظرُف بضم الراء. وقوله: (اللذين هما) صفة النظافة والظرافة.

ولما كانت لا تنحصر المنفعة فيهما أتى بمن التبعيضية حيث قال: (من أعظم) أَيْ: من أجل وأكثر وأكبر (النفعان) بزيادة الألف والنون. قَالَ ابْنُ الْقُوطِيَّةِ ظَرْفَ الْغُلَامُ وَالْجَارِيَةُ وَهُوَ وَصْفٌ لَهُمَا لَا لِلشُّيُوخِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: الْمُرَادُ الْوَصْفُ بِالْحُسْنِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: الْكَيْسُ لَيَعُمُّ الشَّبَابَ وَالشُّيُوخَ. كما في "المصباح".

واعلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في نظافة جِسْمِهِ وظرافته وَطِيب رِيحِهِ وَعَرَقِهِ وَنَزَاهَته عَنِ الْأَقْذَارِ وَعَوْرَاتِ الْجَسَدِ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ بِخَصَائِصٍ لَمْ تُوجَدْ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ تَمَّمَهَا سبحانه بِنَظَافَةِ الشَّرْعِ وَخِصَالِ الْفِطْرَةِ الْعَشْرِ، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ. وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: تنظّفوا بكل ما استطعتم فإن اللَّه بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا نظيف.

(و) على (حسن المعاشرة) وهي الاختلاط مع الناس وترك التحجُّب وهجر الإخوان بغير داعٍ. والمعاشرة: مفاعلة من الجانبين أَيْ: المخالطة كما تقدَّم وهي بضم الميم.

(و) حسن (الرأفة) أَيْ: الرحمة والشفقة والتعطُّف بجميع الخلق و (بأهله) أَيْ: زوجاته كما في أثر: أهل الرجل زوجته أَيْ: وأهل بيته وقرابته.

(والجماعة الصحبية) بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء المهملة أيضًا أَيْ: المنسوبة للصحبة أَيْ: أصحابه جمع صحابي وهو مَنْ اجتمع بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة وكان مؤمنًا، إلى آخر الشروط المذكورة فيه المعلومة.

قال في "المواهب": وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حسن المعاشرة مع أزواجه، وكان ينام مع احداهن ولو كانت حائضًا. قال النووي: وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه مع مواظبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قيام الليل، فينام مع إحداهن التي هي صاحبة النوبة، فإذا أراد القيام لوظيفته قام فتركها راقدة في الفراش، فيجمع بين وظيفته من قيام الليل وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف.

وقد علم من هذا أن اجتماع الزوج مع زوجته في فراش واحد أفضل من نوم كل في فراش، فتركه مكروه لا حرام، إذ القصد الأُنس لا الجماع ونحوه، لا سيما إن عرف من حالها حرصها على هذا فيتأكد الاستحباب، ولا يلزم من نومه معها الجماع، فلا يؤخذ منه ندبه كل ليلة، والله أعلم اه.

وسُئِلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خلا في بيته؟، قالت: كان ألين الناس بسّامًا ضحّاكًا، لم ير قط مادًّا رجليه بين أصحابه. رواه ابن سعد وغيره.

وعنها: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما دعاه أحد من أصحابه إلّا قال: لبيك. وعند أحمد وابن سعد عنها قالت:

كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخيط ثوبه ويخصف نعله، ويرفع دلوه ويغلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه، وكان يركب الحمار ويردف خلفه.

وعن أنس قال: خدمتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، فما قال لي أُفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعته: لِمَ صنعته؟، ولا لشيء تركته لِمَ تركته؟. وكذلك كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع عبيده وإمائه، ما ضرب منهم أحد قط.

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربَّانية، وما ذاك إلا لكمال معرفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه لا فاعل ولا مانع ولا معطي في الحقيقة إلا اللَّه سبحانه وتعالى، وأن الخلق آلات وسائط، وإذا كان كذلك فالغضب على المخلوق في شيء فعله أو تركه كالإشراك المنافي للتوحيد.

وقيل: سبب ذلك أنه كان يشهد تصريف محبوبه فيه، وتصريف المحبوب في المحب لا يعلل، بل يسلم ليستلذ فكل ما يفعله الحبيب محبوب.

وفي رواية مسلم عن أنس: ما رأيتُ أحدًا أرحم بالعيال من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقالت عائشة: ما ضرب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده شيئًا قط، ولا ضرب امرأة ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل اللَّه. وما نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلّا أن ينتهك شيء من محارم اللَّه فينتقم للَّه. لا لنفسه ممن ارتكب تلك الحرمة. رواه مسلم.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حسن العشرة مع أصحابه، وقد كان يباسطهم بالقول والفعل بما يدخل حبه في القلوب، تطمينًا لهم وتقوية لإيمانهم، وتعليمًا لهم أن يباسطوا بعضهم بعضًا، لأنهم إذا رأوا ذلك من أكمل الخلق وأفضلهم، وقد علموا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، اطمأنَّت قلوبهم على فعل ذلك مع بعضهم.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يمازح أصحابه ويخالهم ويحادثهم ويؤنسهم، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، وهو مع ذلك سره في الملكوت يجول حيث أراد الله به.

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قالوا: إنك تداعبنا، قال: إني لا أقول إلَّا حقًّا. وما ورد عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في النهي عن المداعبة كقوله: لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدًا فتخلفه. رواه الترمذي. محمولٌ على الإفراط لما فيه من الشغل عن ذكر الله وعن التفكُّر في مهمات الدين، وغير ذلك، كقسوة القلب وكثرة الضحك وذهاب ماء الوجه، بل كثيرًا ما يورث الإيذاء والحقد والعداوة وجراءة الصغير على الكبير. وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ كثر ضحكه قَلَّت هيبته، ومَنْ مزح استخف به. ولذا، قيل:

فإيـــاك إيـــاك المـــزاح فإنـــه   يجري عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه من كل سيد   ويورثـــه مـــن بعـــد عزتـــه ذلا

والذي يسلم من ذلك بأن لا يؤدي إلى حرام ولا مكروه، هو المباح المستوي الطرفين على الأصح، فإن صادف المباح "مصلحة مثل تطييب

نفس المخاطب، كما كان هو فعله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو مستحب.

وقضيته أنه لا يقترن به ما يصيره واجبًا، ولو قيل: إن تعيِّنَ طريقًا لدفع حرام لم يبعد وجوبه. وقال بعضهم: ما سلم من المحذور فهو بشرطه مندوب لا مباح، إذ الأصل في أفعاله وأقواله وجوب أو ندب الاقتداء به فيها إلا لمانع، ولا مانع هنا.

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ألقي عليه مع الدعابة المهابة، ولقد جاء إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل لحاجة فأخذته رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هوّن عليك فإني لست بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة، فنطق الرجل بحاجته، فقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا أيها الناس، إني أوحي إِلَيَّ أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخوانًا. أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث أبي مسعود البدري.

والحاكم أيضًا من حديث جرير، فسكن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خوفه وفزعه شفقة لأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، وسلب عن نفسه الوصف بكونه من الملوك بقوله: فإني لست بملك، لما يلزمها من التكبر والافتخار. وقال: أنا ابن امرأة ولم يقل رجل، زيادة في شدة التواضع وتسكين الروع، لما علم من ضعف النساء، ووصفها بأنها تأكل القديد تواضعًا، لأنَّ القديد مفضول وهو مأكول المتمسكنة، فكأنه قال: إنما أنا ابن امرأة مسكينة تأكل مفضول الأكل، فكيف تخاف مني؟. كذا في "المواهب" و"شرحها".

(و) وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أعلا (الكمال) هو تمام الجمال

فيما يرجع إلى معاملة الخالق والخلق، أو فيما يرجع إلى الصورة الظاهرة والأخلاق والأحوال الباطنة ومعاملة الخلق والخالق. وقد أفاض الله عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل كمال لا يتناهى للخلق، وإن كان يتناهى في علم الله، لأن كل حادث دخل الوجود متناه.

(والجلال) أَيْ: الهيبة والوقار، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي له نهاية الجلال وغايته، وعليه مداره، فلا جليل من الأنام إلا بجلالته وهو خاضع لهيبته وعلى منزلته ومتأدّب معه ومتعلّق به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(و) كما هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك هو متصف بـ(الجمال) وهو تمام الحسن -بفتح الجيم-: مصدر جمل جمالاً: تَمَّ حسنه. يعني أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد احتوى على صفات جمالية ظاهرية وباطنية لا تكاد تنحصر ولا تدخل تحت حصر، كما أن صفاته الجلالية كذلك.

وقد تبحّر في ذلك العارفون قديمًا وحديثًا كحسان وكعب من الصحابة والبوصيري والبرعي وغيرهم، فلم يقفوا له على حد، كيف وقد مدحه الله تعالى في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وتفصيل ذلك تعجز القوة عن إدراكه في الدنيا، وأما في الآخرة فتدرك حقيقته لكشف الحجاب عن الخلائق يومئذ. قال البوصيري في "بردة المديح":

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فغاية ما نعلم أن ما نقول كما قال هو أيضًا فيها:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

والكمال: كناية عن جميع الأخلاق ظاهرها وباطنها جليلها وجميلها.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ متصفًا بـ(العرفان) أَيْ: العِلم وهو بكسر العين مصدر عَرَفْتُهُ عِرْفَةً -بِالْكَسْرِ- وَعِرْفَانًا: عَلِمْتُهُ بِحَاسَّةٍ مِنْ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ. وَالْمَعْرِفَةُ: اسْمٌ مِنْهُ. كذا في "المصباح".

قال الله تعالى في كتابه المنزل عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾، وقد علّمه الله تعالى علم الأولين والآخرين، ومنحه من الحكمة ما لم يمنحه أحدًا من العالمين، وكيف وهو مدينة العلم وعنصر ينابيع الحكمة.

فقد كمَّل اللَّه عقله الذي ينبث منه علمه ومعرفته، وقوّى نظره وسدَّد رأيه وحدود فطنته، وبلغه في مكانة العلم مبلغًا لم يصل إليه أحد من خلقه، وذلك معلوم عند من تتبع مجاري أحواله وتفاصيل سيره، وطالعَ جوامع كلمه وحسن شمائله وعجائب أحاديثه، وما علمه مما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وما اطلعه عليه من سير الأمم السابقة وأيامها، وضرب الأمثال وسياسة الأنام وتقرير الشرائع وتأسيسها وتأصيل الآداب النفيسة وتحصيلها.

والاتصاف بالشيم الحميدة وتتميمها، مع جمعه لفنون العلوم ممن تقدّم أو تأخر، إلا وكان كلام المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له قدوة وإشارته له حجة من حسن عبارة وتنبيه وإشارة وحساب وفرائض ونسب وحقائق علوم وعرفان بالله، ومواهب ربانية وفتوحات غيبية دون تعلُّم منه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبق، ولا مدارسة ولا ممارسة ولا مطالعة كتب مَنْ تقدَّم، ولا جلوس مع علمائها.

بل هو نَبِيٌّ أُمِّيٌّ شرحَ اللَّهُ صدره ويسَّر أمره، وأظهر علمه وأعلا قدره، وأبانَ فضله في الدارين على العالمين، وختمَ به كمال الرسالة لمن تقدّم من المرسلين، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ متلبسًا بـ(التوبة) وحقيقة التوبة: الرجوع إلى الله تعالى ولا ريب أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان جُلّ أوقاته متلبسًا بذلك، وهي الرجوع من طريق البعد إلى طريق القرب.

ولكن لها ركن ومبدأ وكمال، أما مبدؤها فهو الإيمان ومعناه سطوع نور المعرفة على القلب حتى يتضح فيه أن الذنوب سموم مهلكة فيشعل منه نار الوحشة والخوف والندم، وينبعث من هذه النار صدق الرغبة في التلاقي والحذر، أما في الحال فبترك الذنوب، وأما في الاستقبال فبالعزم على الترك، وأما في الماضي فبالتلاقي على حسب الإمكان، وبذلك يحصل الكمال.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر اللَّه ويتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة، إظهارًا للعبودية وافتقارًا لكرم الربوبية وتعليمًا لأُمَّته، أو من ترك الأولى، أو تواضعًا، أو لأنه كان دائم الترقي في معارج القرب، فكلما ارتقى درجة ورأى ما قبلها دونها استغفر.

كما رواه عنه أبو هريرة قال: سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: واللَّه إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة. هذا

لفظه عند البخاري في الدعوات، وظاهره أنه يطلب المغفرة بعينه.

ويرجّح الثاني ما أخرجه النسائي بسند جيد من طريق مجاهد عن ابن عمر أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، في المجلس قبل أن يقوم مائة مرة.

وله أيضًا النسائي من رواية محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر بلفظ: إن كنّا لنعد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس: رب اغفر لي وتب عليّ إنك التواب الغفور مائة مرة.

ويحتمل أن يريد بقوله في حديث أبي هريرة: أكثر من سبعين، المبالغة والتكثير، فإن العرب تضع السبع والسبعين والسبعمائة موضع الكثرة. وقد قال أعرابي لمن أعطاه شيئًا: سبَّعَ اللَّه لك الأجر أَيْ: كثَّرهُ لك، ويدل عليه حديث البخاري مرفوعًا: "إن عبدًا أذنب ذنبًا، فقال: رب إني أذنبتُ ذنبًا فاغفر لي فغفر له. وفي آخره: فعلم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، اعمل ما شئت فقد غفرت لك.

ويحتمل أن يريد به العدد بعينه ولكن لفظ أكثر مبهم، فيمكن أن يفسّر بحديث ابن عمر المذكور، وأنه يبلغ المائة لأن الحديث يفسر بالحديث. وخير ما فسرته بالوارد، وقد وقع في طريق أخرى من رواية معمر عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة بلفظ: إني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة. وأخرج النسائي من طريق عطاء عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع الناس فقال: يا أيها الناس توبوا إلى اللَّه، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة. كما في "المواهب".

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ متحليًا بـ(الإنابة) بكسر الهمزة، يقال: ناب إلى الله وأناب أَيْ: تاب ورجع. والإنابة عند الصوفية: الرجوع إلى الله بالله والتجرُّد مما سواه، ومن أسمائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُنيب أَيْ: المقبل على الطاعة.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سريع (الأوبة) بفتح الهمزة وسكون الواو من آب إلى الله تعالى بمعنى: رجع، فهي بمعنى تاب وزنًا ومعنًى. أوَّاب: مبالغة وهو من أسمائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: الرجَّاع الكثير الرجوع إلى الله تعالى في جميع أحواله.

(و) كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع عبادته على نهاية الكمال في (الصوم) فرضه ونفله. ومعناه لغة: مطلق الإمساك ولو عن الكلام، ومنه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أَيْ: إمساكًا عن الكلام.

وشرعًا: الإمساك عن المفطرات من الفجر إلى الغروب بنية مخصوصة بشروط معلومة في كتب الفقه حقيقة أو حكمًا، ليدخل من أكل ناسيًا.

ثم اعلم أن المقصود من الصيام إمساك النفس عن خسيس عاداتها، وحبسها عن شهواتها، ومنعها عن مألوفاتها من مستلذاتها، فعلى الصائم المحافظة على مخالفتها بفعل المأمورات، واجتناب المنهيات والاشتغال بالذكر والقرآن وأنواع القربات.

فالصوم لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر أعمال العاملين، كما قال الله تعالى في الحديث الإلهي القدسي الذي رواه مسلم: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام

فهو لي وأنا أجزي به. فالإضافة فيه إضافة تشريف وتكريم.

قال سيدي علي الأجهوري في فضائل رمضان:

وقول ربي في الحديث: الصوم لي   ظـــاهره الشـــمول للتنفـــل

أَيْ: لأنه لا يطلع عليه أحدًا إلا اللَّه كما ورد بذلك الحديث المتقدّم: كـل عمـل ابـن آدم إلـخ، فأضـاف سـبحانه وتعـالى الصـوم لنفسـه مـع أن الأعمال كلها له، لوجوه منها:

أنه لا يدفع في مظالم فاعله كغيره من العبادات. ومنها: أنه عمل خفي لا يـراه أحـد ولا يشـاهده فهـو بعيـد عـن الريـا. ومنهـا: أنـه قهـر لعـدو اللَّه الشـيطان، فـإن وسـيلة الشـيطان لعنـه اللَّه الشـهوات، وإنمـا تتقـوى بالأكـل والشر، ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الشيطان يجـري مـن ابـن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع.

وأعظـم المهلكـات لابـن آدم شـهوة البطـن، فيهـا أُخرِج آدم وحـواء مـن الجنـة، إذ نُهِيـا عـن أكـل الشـجرة فغلبتهمـا حتـى أكـلا منهـا، ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

وعن رسـول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب كالزرع يموت إن كثر عليه الماء. وقد أشار بعضـهم لذلك فقال:

يميـت الطعـام القلـب إن زاد كثـرة   كــزرع إذا بالمــاء قــد زاد ســقيه
وإنّ لبيبًـا يرتضـي نقـص عقلـه   بأكـل لقيمـات لقـد ضـلّ سـعيه

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن اللَّه يباهي الملائكة بمن قَلَّ طعامه

في الدنيا، ويقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما، اشهدوا يا ملائكتي إن ما من أكلة يدعها إلا بدَّلتها له درجات في الجنة اه. "أجهوري على الفضائل".

وورد أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لطَعَامِه، وَثُلُثٌ لِشَرَابِه، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ اه.

قال بعض العلماء: من أكل كثيرًا وخاف على نفسه من التخمة، فليمس بيده على بطنه، وليقل: الليلة ليلة عيدي يا كرشي. ورضي اللَّه عن سيدي أبي عبد اللَّه القرشي يفعل ذلك ثلاثًا، فإنه لا يضره الأكل.

وقال كعب الأحبار: من خاف ضرر الطعام فليقرأ ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ الآية.

وفي "تحفة الحبيب فيما زاد على الترغيب والترهيب": أن رجلاً قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول اللَّه إني رجل مسقام لا يستقيم بدني على طعام ولا شراب فادع اللَّه لي بالصحة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أكلت أو شربت فقل: بسم اللَّه وباللَّه الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء يا حي يا قيوم، لم يصبك منه داء ولو كان فيه سم اه. "سحيمي".

وقوله: ظاهره الشمول إلخ أَيْ: أنه عام في قوله: الصوم لي، شاملٌ للفرض والتنفل به من الصوم، فالفرض كرمضان والكفارات بأنواعها، والنفل وهو كثير.

والمؤكد منه خمسة عشر: صوم الاثنين والخميس وعشر المحرم

والأشهر الحرم ويوم عرفة وهو يوم تاسع ذي الحجة وتاسوعاء وعاشوراء، وصوم يوم وفطر يوم، وصوم يوم وفطر يومين، وصوم يوم لا يجد ما يأكله، وصوم شعبان، وصوم ستة من شوال، وصوم ثلاثة أيام البيض، وصوم ثلاثة أيام الليالي السود.

ثم قال الأجهوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيان حكمة التخصيص بالصوم:

وفي بيان حكمة التخصيص قد	أبدوا وجوهًا بعضها قد ينتقد
من الوجوه أنه فعل خفي	وهو بالإخلاص جدير يا وفي
الثاني لا يدفع في المظالم	أَيْ: اللت تعلقت بعنق الظالم
ثالثها قهره للرجيم	عدونا وربنا العظيم
إذ الوسيلة وهي الشهوة	والأكل والشرب له مُنبت
أو أن غير اللَّه لم يعبد به	وغيره ليس كذا فانتبهِ

أَيْ: وفي بيان حكمة التخصيص بأن الصوم لله دون العبادات مع أنها كلها لله تعالى، فما الحكمة؟.

فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن العلماء أبدوا بالموحدة أَيْ: أظهروا وجوهًا في الحكمة بالتخصيص، ولكن بعضها أَيْ: الوجوه التي أظهروها ينتقد أَيْ: يعترض بأن الصوم وغيره من العبادات كله لله تعالى، فمن الوجوه أنه فعلي قلبي من أفعال الجوارح الباطنة خفي لا يطلع عليه إلا اللَّه تعالى، وإذا كان كذلك فهو خاصٌّ به سبحانه وتعالى.

وقوله: وهو أَيْ: الصوم بالإخلاص أَيْ: صاحبه في الطاعة، جدير بالجيم أَيْ: حقيق يا وفي بالعهد الثاني بإسقاط الياء لفظًا للوزن من

الوجوه أن الصوم لا يُدفع بضم أوله بالبناء للمفعول في المظالم أَيْ: التبعيات أَيْ: اللت تعلقت بعنق الظالم أَيْ: الذي فعل الظلم وهو وضع الشيء في غير محله.

ثالثها أَيْ: الوجوه قهره للرجيم أَيْ: الشيطان عدونا أَيْ: بشهادة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

والله ربنا العظيم، قالوا: وللقسم والعظيم الجليل الكبير، وعلّل ذلك بقوله: إذ الوسيلة له أَيْ: الشيطان، وهي بالتشديد، الشهوة بالمعجمة، والشهوة معروفة، والأكل والشرب لهذا منبت بالباء الموحدة أَيْ: مثير للشهوات.

أو أن غير الله لم يعبد أَيْ: لم يتقرب إليه بالصوم. وغيره أَيْ: غير الصوم من العبادات ليس كذا لوقوع العبادة بها لغير الله، فانتبه: تيقظ لذلك اه من كتابنا المسمى ب"الدر النفيس".

قال القرطبي: معناه أن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم، إلا الصيام فإنه مناسب لصفة من صفات الحق، كأنه تعالى يقول: إن الصائم يتقرّب إِليَّ بأمر هو متعلّق بصفة من صفاتي فلذا توليت جزاءه. وقيل: لكون ذلك صفة من صفات الملائكة لأنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يشتهون.

وقيل: لأنه تعالى هو المنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته بخلاف غيره من العبادات، فقد أظهر سبحانه لبعض مخلوقاته على مقدار ثوابها.

ولذا قال في بقية الحديث: وأنا أجزي به، وقد علم عادة أن الكريم إذا أخبر بأنه يتولّى بنفسه الجزاء اقتضى ذلك سعة العطاء والإكرام، وإنما جوزي الصائم هذا الجزاء لأنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده.

والمراد بالشهوة في الحديث شهوة الجماع.

وللصيام تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الأعضاء الظاهرة وقوى الجوارح الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب للمواد الفاسدة، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها، فهو من أكبر العون على التقوى، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في البخاري من حديث أبي هريرة: الصوم جُنَّة من النار. وهي بضم الجيم الوقاية والستر، أَيْ: ستر من النار. وفي "النهاية": أي يقي صاحبها مما يؤذيه من الشهوات. وقال القاضي عياض: جُنَّة من الآثام، أو من النار، أو من جميع ذلك.

وقد اتفق العلماء على أن المراد بالصيام في قوله في الحديث: إلا الصيام. صيام من سلم صاحبه من المعاصي قولاً وفعلاً.

ونقل ابن العربي عن بعض الزُّهَّاد تخصيصه بصوم خواص الخواص، فإنه أربعة أنواع: صيام العوام وهو الصوم عن المفطرات، وصيام خواص العوام وهو هذا مع اجتناب المحرمات قولاً وفعلاً، وصيام الخواص وهو الصوم عن غير ذكر الله وعبادته، وصيام خواص الخواص وهو الصوم من

غير الله فلا فطر له إلى يوم لقائه. قال الحافظ: وهذا مقام عال، لكن في حصر المراد من الحديث في هذا النوع نظر لا يخفى اه.

وقد اختلف السلف هل فرض صيام قبل صيام رمضان أم لا؟. فالجمهور عند الشافعية أنه لم يجب صوم قط قبل رمضان، وفيه قول لبعض الشافعية وهو قول الحنفية أول ما فرض عاشوراء، فلما فرض رمضان نُسِخ.

ولما كان شهر رمضان موسم الخيرات ومنبع الجود والبركات، لأن نعم الله تعالى فيه تزيد على غيره من الشهور، وتزداد فيه أرزاق المؤمنين وإن لم يصوموا إكرامًا لهذا الشهر. ولذا قال سيدي علي الأجهوري: ثم به يزداد رزق المؤمن، وأن به صيامه لم يكن أَيْ: لم يوجد منه صيام.

وكان سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر فيه من العبادات وأنواع القربات الجامعة لوجوه السعادات، من الصدقة والإحسان والصلاة والذكر والاعتكاف. وخصوصًا إفطار الصائمين. قال الأجهوري:

ومن يُفطِّر صائمًا ولو بماء   يُعطى نظير أجره متمما
وجامع ذا عتقه من الجحيم   وغفر ذنبه وذا فضل عظيم

وقوله: ولو بماء: أتى به غاية لسهولته. وقوله: نظير أجره. وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحث الناس على إطعام الصائم ويقول: مَنْ فطَّر صائمًا كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء. وكان يقول: مَنْ فطَّر صائمًا في رمضان كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار.

وقوله: ذا فضل عظيم أَيْ: لأنه أخبر به المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

في قوله: مَنْ فطَّر صائمًا إلخ. ثم قال الأجهوري:

ومَـنْ يفطّـر صـائمًا فيمـا سـواه   يُعطـى نظيـر أجـره بـلا اشـتباه
وجـاء فـي إطعامـه وسـقيه   فـي فطـره أن مـن حـلال سعيه
صـلاة المـلاك عليـه فـي جميـع   سـاعات الصـوم حتمًـا يـا سـميع

وقد كان فرض رمضان في السنة الثانية من الهجرة في شعبان لليلتين خلتا منه، وتحوّلت القبله في نصفه. وكان بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين قبل فرض الصيام، وصام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع سنين، منها ما هو كامل ومنها ما هو ناقص.

وقد اختلف العلماء في ذلك، وقد ذكر الخلاف العلّامة الأجهوري في "الفضائل" فقال:

وفـرض الصـيام ثـاني الهجـرة   فصـامه تسـعًا نبـي الرحمـة
أربعـة تسـعًا وعشـرين ومـا   زاد علـى ذا الكمـال انتمـى
كـذا لبعضـهم وقـال الهيثمـي   ما صـام كـاملاً سـوى شـهر اعلـم
وللـدميري أنـه شـهران   ونـاقص سـواهما خـذ بيـاني

أَيْ: صام تسع سنين لا زائد عليها أربعة ناقصات تسعًا وعشرين يومًا بالهلال وما نصف المضراع. وقوله زاد على ذا أَيْ: الأربعة من الخمسة الباقية صامه لكمال أَيْ: لصومه كاملاً، انتمى أَيْ: أسند وانتسب، يقال: نما الحديث إلى فلان: أُسنِد إليه، ونمي الرجل إلى أبيه: نُسِب إليه. كذا: هذا القول نسب لبعضم أَيْ: لابن عراق في "تذكرته".

وقال الهيثمي بالمثلثة أَيْ: المحدّث لا الفقيه كما توهم ذلك كذا قال

السملاوي، وليس كذلك بل هو الفقيه كما هو الظاهر. وهو الشيخ الإمام العلاَّمة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن علي حجر الهيثمي، نسبة إلى محلة أبي الهيثم من أقاليم مصر السعدي نسبة إلى بني سعد الموجودين الآن في مصر، الأنصاري باعتبار المشهور في بني سعد المذكورين أنهم من الأنصار.

وروى بخطه في سبب شهرته بابن حجر أن جده لما كان ملازمًا للصمت في جميع أحواله لا ينطق إلا لضرورة سمي حجرًا، وكان إمام زمانه ووحيد عصره وأوانه، يقصد بالفتاوى الدينية من كل فج عميق، وتأتيه المشكلات مقفلة فتعود بفتح مبين ووجه طليق. اه من ديباجة "التحفة" شارحه هو على "المنهاج".

قال أَيْ: ابن حجر: ما صام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا كاملاً سوى أَيْ: غير شهر واحد من غير تنوين. وقوله: اعلم بالدرج أَيْ: اعرف ذلك واستفده، فإن كثيرًا يستغفر به. ونصّه أَيْ: ابن حجر.

وكانت الحكمة في أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكمل رمضان إلا سنة واحدة والبقية ناقصة، زيادة تطمئن نفوسهم على مساواة الناقصة الكاملة اه "أجهوري".

وقال الشيخ السحيمي: والحكمة في كون الباقي تسعة وعشرين زيادة تطمين نفوس الأمة على مساواة الناقصة للكاملة في الفضل المرتب على رمضان من غير نظر إلى أيامه. أما ما يترتب على صوم يوم الثلاثين من ثواب واجبه ومندوبه، فهو زيادة يفوق بها على الناقص اه.

ثم قال: وللدميري شارح "المنهاج": نسبة لقرية بمصر من أعمال المحلة الكبرى، صغيرة ظاهرة عليها الكآبة. انتقل منها إلى القاهرة وصار رئيسها. قال: أنه أَيْ: الذي صامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهران. وناقص سواهما أَيْ: غيرهما. خذ بياني أَيْ: دلالتي على هذا المذكور. اه من "الدر النفيس".

ولما كان شهر رمضان موسم الخيرات ومنبع الجود والبركات، لأن نعم اللَّه تعالى فيه تزيد على غيره من الشهور، وكان سيدنا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر فيه من العبادات وأنواع القربات الجامعة لوجوه السعادات، من الصدقة والإحسان والصلاة والذكر والاعتكاف، ويخص به من العبادات ما لا يخص به غير من الشهور، وكان جوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه تعالى يتضاعف فيه أيضًا، فإن اللَّه تعالى جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة.

وفي حديث ابن عباس عند الشيخين قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود بالخير من الريح المرسلة.

فبمجموع ما ذكر في هذا الحديث من الوقت وهو شهر رمضان، والمنزل وهو القرآن، والنازل به وهو جبريل، والمذاكرة وهي مدارسة القرآن، حصل له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المزيد في الجود والمرسلة: المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبَّرَ بالمرسلة

إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، إلى عموم النفع بجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.

وأما صومه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ غير شهر رمضان، فروى النسائي عن أبي أمامة أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسرد أَيْ: يتابع الصوم فيقال: لا يفطر، ويفطر فيقال: لا يصوم.

وعن أنس قال: كان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ثم يصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئًا، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته. رواه البخاري.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال ما صام رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهرًا كاملاً غير رمضان، وكان يصوم حتى يقول القائل: لا واللَّه لا يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا واللَّه لا يصوم. رواه البخاري ومسلم والنسائي وزادا: ما صام شهرًا متتابعًا غير رمضان منذ قدم المدينة.

ففي هذا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يصم الدهر كله، ولا قام الليل كله، وكأنه ترك ذلك لئلا يقتدى به فيشق على الأُمَّة، وهو بهم رءوف رحيم، وإن كان قد أعطي من القوة ما لو التزم ذلك لاقتدر عليه، لكنه سلك من العبادة الطريقة الوسطى، فصام وأفطر، وقام ونام. فطوبى لمن اقتدى به في بعض ذلك.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أعلا الدرجات في (الصلاة) الفرضية والصلاة (النفلية) أَيْ: المنسوبة للنفل، وهو لغة: الزيادة.

ثم اعلم أن الصلاة تحصل تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة. وقد جمع اللّٰه للمصلين في ركعة ما فرق على أهل السماوات، فللّه ملائكة في الركوع منذ خلقهم اللّٰه تعالى لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة، وهكذا السجود، والقيام، والقعود. كما جاءت به الأخبار.

واجتمع فيها أيضًا من العبادات ما لو يجتمع في غيرها من الطهارة والصمت عن الكلام الأجنبي واستقبال القبلة والاستفتاح بالتكبير والقراءة والقيام والركوع والسجود، والتسبيح في الركوع والسجود إلى غير ذلك.

فهي مجموع عبادات عديدة، لأن الذكر بمجرده عبادة، والقراءة بمجردها عبادة، وكذا كل فرد فرد. وقد أمر نبيه بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ﴾، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أَيْ: بأن تكون سببًا للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث أنها تذكر اللّٰه وتورث النفس خشية منه.

وقد روى أحمد وغيره عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: إنه سينهاه ما تقول. ورُوِي: أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول اللّٰه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات، ولا يدع شيئًا من الفواحش إلا ارتكبه، فوصف له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: إن صلاته ستنهاه. فلم يلبث أن تاب.

وقد فُرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فعن أنس قال: فُرضت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة أسري به خمسون صلاة، ثم نقصت حتى جعلت خمسًا، ثم نادى اللَّه تعالى: يا محمد إنه لا يبدل القول لديّ، وإن لك بهذه الخمس خمسين. رواه الترمذي هكذا مختصرًا، ورواه البخاري ومسلم من جملة حديث طويل. وقد تقدّم في الإسراء.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: فرض اللَّه الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقوله: وفي الخوف ركعة. محمولٌ على أن المراد ركعة مع الإمام وينفرد بالأخرى بعد ما يفارقه فيصليها وحده، فليس المراد ظاهره وإن ذهب إليه قوم.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: فرض اللَّه الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين، ثم أتمها في الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. رواه البخاري. وقد أخذ بظاهر هذا الحديث الحنفية وبنوا عليه أن القصر في السفر عزيمة، لأنه أمر بها في السفر كذلك، ولم تغير لا رخصة لأنها الحكم المتغير إلى سهولة لعذر مع قيام السبب للحكم الأول.

وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا أتم المسافر فعند الحنفية يكون الشفع الثاني نفلاً وعند الشافعية فرضًا. وهو مبسوط في كتب الفقه.

وهل كان قبل الإسراء صلاة مفروضة؟. ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل بلا تحديد،

وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ورده جماعة من أهل العلم.

وقد ورد في تعيين الأوقات التي صلَّى فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات الخمس أحاديث منها: ما رواه الترمذي عن ابن عباس قال: أمَّني جبريل عند البيت مرتين، فصلَّى الظهر بي في الأولى حين كان الفيء مثل الشراك -أَيْ: وقت الزوال في ذلك اليوم- ثم صَلَّى العصر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم صلَّى المغرب حين وجبت -أَيْ: غابت- الشمس وأفطر الصائم، ثم صلَّى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلَّى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم. وصلَّى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله كوقت العصر بالأمس، ثم صلَّى العصر حين كان ظل كل شيء مثلَيْه، ثم صلَّى المغرب لوقت الأولى، ثم صلَّى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلَّى الصبح حين أسفر، ثم التفت إليّ جبريل فقال: يا محمد، هذا وقتك ووقت الأنبياء من قبلك - أَيْ: مثل وقت من فرض عليه منهم صلاة مخصوصة بوقت، لا أنه وقت لكل الأنبياء، فلا ينافي أن الخمس من خصائص هذه الأمة، ولم تجتمع لأحد غيرهم- والوقت فيما بين هذين الوقتين. موسع ففي أي جزء أوقعها فيه لا يأثم.

وقد بَين محمد بن إسحاق في "المغازي": أن صلاة جبريل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت صبيحة الليلة التي فرضت فيها الصلاة، وهي ليلة الإسراء. ولفظه: قال نافع بن جبير وغيره: لما أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الليلة التي أسري به لم يرعه إلا جبريل نزل حين زاغت -أَيْ: مالت- الشمس، ولذلك سميت الأولى -أَيْ: صلاة الظهر- فأمر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فصيح بأصحابه: الصلاة جامعة. فاجتمعوا وصلّى به جبريل وصلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه. فذكر الحديث.

واستدل بهذا الحديث على جواز الائتمام بمن يأتم بغيره، ويجاب عنه بما يجاب عن قصة أبي بكر في صلاته خلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلاة الناس خلفه. فإنه محمولٌ على أن أبا بكر كان مبلغًا فقط والإمام هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد صلَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوتر والجمعة والعيدين والسنن الرواتب كما هو مذكور في كتب الحديث.

وبالجملة فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الخلق طاعة لربه. روى الترمذي عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الليل حَتَّى انْتَفَخَتْ -أَيْ: تورمت- قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا. قالت -أَيْ: عائشة-: كما في رواية: فلما بدن -أَيْ: كبر وأسن- وكثر لحمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع اه.

والفاء في قوله: أفلا أكون: للسببية وهي ناشئة عن محذوف تقديره أأترك تهجدي لأجل تلك المغفرة أفلا أكون عبدًا شكورًا. يعني: أن غفران اللَّه إياي سببٌ لكون كثرة التهجُّد شكرًا له فكيف أتركه؟. وكيف لا أشكره وقد أنعم علَيَّ وخصَّني بخير الدارين؟. فإن شكورًا من أبنية المبالغة

يستدعي نعمة عظيمة.

وَذكر العَبْد أدعى إِلَى الشُّكْر لِأَنَّهُ إِذا لاحظ كَونه عبدًا شكورًا أنعم اللَّه عَلَيْهِ مَالِكه بِمثل هَذِه النِّعْمَة ظهور وجوب الشُّكْر كَمَال الظُّهُور.

والتقدير: غفرَ لي ما تقدَّم وما تأخّر لعلمه بأن أكون مبالغًا في عبادته فأكون عبدًا شكورًا، أفلا أكون كذلك، كأن من سأله ظنَّ أن تحمل تلك الكلفة خوف الذنب أو رجاء المغفرة، فبيَّن أن لَهُ سَبَبًا آخَرَ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ وَهُوَ الشُّكْرُ عَلَى التَّأَهُّلِ لَهَا مَعَ الْمَغْفِرَةِ وَإِجْزَالِ النِّعْمَةِ.

والشكر: الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن أدام بذلك الجهد فذلك كان من الشاكرين وقليل ما هم، ولم يوف أحد بعلي هذا المنصب إلا الأنبياء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأعلاهم في ذلك هذا العبد العميم النظر وهو المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإنما ألزموا أنفسهم الجهد في ذلك لكمال علمهم بعظيم نعمة ربهم من غير سابقة استحقاق.

قال ابن بطال في هذا الحديث: أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أضر ذلك ببدنه، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فعل مع علمه بما سبق له من اللَّه، فكيف بمن لم يعلم بذلك فضلاً عمن لم يأمن أنه استحق النار اه.

ومحل ذلك كما قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري": ما لم يفض ذلك إلى السآمة، لأن حال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت أكمل الأحوال، فكان لا يمل من عبادة ربه، وإن أضر ذلك ببدنه الشريف، بل صحَّ أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب

وجعلت قرة عيني. كما أخرجه النسائي من حديث أنس، فأما غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خشي الملل ينبغي له أن لا يتعب نفسه، وعليه يحمل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن اللَّه لا يمل حتى تملوا. أَيْ: لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل اه.

لكن ربما دست النفس أَيْ: أتت بأمر خفي أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذكر، خصوصًا إذا كبر، فتقول له: قد ضعفت وكبرت فأبق على نفسك لئلا ينقطع عملك بالكلية، وهذا وإن كان ظاهره جميلاً لكن فيه دسائس، فإنه إن أطاعه فقد يكون استدراجًا يؤول به إلى ترك العمل شيئًا فشيئًا، إلى أن ينقطع العمل بالكلية، وما ترك سيد المرسلين المغفور له شيئًا، الممنوع المستور عن الوقوع في ذنب شيئًا من عمله بعد كبره.

نعم كان يصلِّي بعض ورده جالسًا بعد أن كان يقوم حتى تفطّرت قدماه. وفي مسلم عن عائشة: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلَّى صلاة أحبّ أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلَّى بالنهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي اللَّه قرأ القرآن كله في ليلة ولا صلَّى ليلة إلى الصبح ولا صام شهرًا كاملاً غير رمضان.

فكيف بمن أثقلت ظهره الأوزار ولا يأمن من عذاب النار أن يغفل حال صباه، ويتوانى عند ظهور شيبته، فينبغي للإنسان أن يستعد قبل حلول شيبه المؤدي إلى العجز عن الطاعة، فيندم على ما فرط في جنب اللَّه أَيْ: طاعته، وقد أرشد إلى ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: اغْتَنِمْ خَمْسًا

قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ. أخرجه البيهقي عن ابن عبَّاس.

أَيْ: اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك، فإن مَنْ شابَ فقد لاح صبح سواد ليل شعره، وقد قال اللَّه تعالى منذرًا لمن يدخل في الصباح الذي أُوعدوا بحلول العذاب فيه عليهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، فكيف بقرب من دخل في الصباح بالفعل كناية، وظهر كوكب نهاره في أفق رأسه ولاح؟!. واللَّه أعلم.

(و) كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غاية (الكرم) بفتحتين: مصدر كَرُمَ الشَّيْءُ كَرْمًا -بضم الراء- بمعنى: نَفُسَ وَعَزَّ فَهُوَ كَرِيمٌ، وَيُطْلَقُ الْكَرَمُ عَلَى الصَّفْحِ. كما في "المصباح".

وفي "الشامي": الكَرَم بفتحتين: الإنفاق بطيب نفس فيما يعظم قدره. وفي "القاموس": الكَرَمُ محرَّكةً: ضِدُّ اللُّؤْم، كَرُمَ -بضم الراءِ- كرامةً وكرَمًا، فهو كريمٌ اه.

ومن أسمائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الكريم والأكرم. فأما الكريم فمعناه الجواد المعطي، أو الجامع لأنواع الخير والشرف، أو الذي أكرم نفسه أَيْ طهَّرها عن التدنس بشيء من المخالفة.

وهو من أسمائه تعالى أَيْ الكثير الخير أو المتفضل أو العفو أو العلي، وهي صحيحة في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمَّاه اللَّه بالكريم في قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أنه أَيْ

القرآن لقول رسول كريم، أي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أضيف إليه لنزوله عليه وتلقي الأمة له عنه، وليس المراد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ذكر بعده: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾. والمشركون لم يكونوا يصفوا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالشعر والكهانة، فتعيّن أن يكون المراد بالرسول الكريم هنا مُحمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الأكرم فهو من الأسماء الحسنى، كما في رواية ابن ماجه، وفي التنزيل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أَيْ: الزائد في صفة الكرم على غيره، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر. رواه الدرامي. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا أكرم ولد آدم. أَيْ: أشرف ولد آدم من الأنبياء وغيرهم.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في مبغوض (البغض) بضم الموحدة وسكون الغين المعجمة: مصدر بغُضَ بالضم. (و) كثير (الود) أَيْ: الحب (في اللَّه) أَيْ: لأجل الله تعالى (والحنان) بفتح الحاء المهملة والنون وبالتخفيف أَيْ: الرحمة والشفقة والعطف.

(و) كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (عظيم) كثير (الصفح) بفتح الصاد المهملة وسكون الفاء أَيْ: التجاوز (عمن أساءه) بالإعراض وترك التثريب والمؤاخذة، وكان يجزئ السيئة بالحسنة كما هو دأبه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن أسمائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوح عن الزلات والتجاوز. وقيل:

هو أبلغ من العفو، لأن الإنسان قد يعفو ولا يصفح، وقيل: العفو أبلغ، لأنه إعراض عن المؤاخذة، والعفو محو الذنب ومن لازمه الإعراض، ولا عكس.

قال حسَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مدحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عفو عن الزلات يقبل عذرهم   فإن أحسنوا فاللَّه بالخير أجود

(وها) حرف تنبيه، (نحن نختم) إنما جمع تحدُّثًا بالنعمة، حيث أنعم اللَّه عليه بجمع هذا المولد الشريف الذي تفرَّق في غيره من الموالد الموضوعة في ذكر الولادة وزاد عليه على غيره ما تقدّم من ذكر الإسراء والمعراج وبعض المعجزات الخارقة للعادة.

ولما وعد أولاً أن يختمه (بالأدعية) جمع دعاء، يقال: دعوتُ اللَّه: سألته بالأسئلة (المرجية) بفتح الميم: اسم مفعول من رَجَوْتُهُ أَرْجُوهُ رُجُوًّا عَلَى فُعُولٍ أَيْ: أَمَّلْتُهُ أَوْ أَرَدْتُهُ.

تنبيه: ذكر العلّامة الفاضل الشافعي ابن العماد في آخر "لاميته" الموضوعة في آداب الأكل جملة من آداب الدعاء، فينبغي للداعي أن يتكلفها رجاء القبول، فقال:

وَاجلِس إِلى قِبلَةٍ بِالحَمدِ مُبتَدِئًا   وَبِالصَّلَاةِ عَلى المُختارِ وَالرُسُلِ
وَامدُد يَديكَ وَسَل فَاللَّهُ ذو كَرمٍ   وَاطلُب كَثيرًا وَقُلْ يا مُنجِحَ الأَمَلِ
بِبَسطِ كَفٍ خُذ الأَقوالَ ثالِثُها   عِندَ البَلاءِ بِظَهرِ الكَفِ مبتَهِلِ
بِرَفعِ كَفٍ أو الأَطرافُ قَد ذَكَروا   قَولينِ أَقواهُما رَفعٌ فَلا تَحِلِ
إِنَّ السَماءَ قِبلَةُ الداعينَ فادعُ لَها   كَما دَعى سادَةً فاختَرهُ وَانتَحِلِ

أَيْ: يستحب للداعي أن يكون متطهرًا جالسًا إلى القبلة، وأن يصلّي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأنبياء والمرسلين، ويختم دعاه بالصلاة عليهم، فإن الله يقبل منه الصلاتين، ومن كرمه أن يقبل ما بينهما من الدعاء.

ويستحب أن يمد يديه لأن اللَّه تعالى ذمَّ أقوامًا يقبضون أيديهم فقال سبحانه: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، قيل: لا يمدونها في الدعاء، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ادعوا اللَّه بِبُطونِ أَكُفُكُم فإذا فَرغتم فامسَحوا بِها وُجوهَكُم.

وإذا دعى اللَّه استحب له أن يعظم الرغبة بأن يطلب كثيرًا، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإنه لا يتعاظم على الله شيء.

واختلفوا في كيفية مد اليدين عند السؤال، فقيل: يدعُو اللَّه ببطون كفيه، وقيل: بظهورهما، وقيل: إن كان في سؤاله دفع البلاء دعا بظهورهما، وإن كان في طلب حاجة سأل ببطنهما.

واختلفوا في استحباب رفع بصره إلى السماء، هل هو أفضل من جعل وجهه إلى الارض كما يفعل المصلي أم لا؟. قولين: الراجح الأول لأن السماء قبلة الداعين، ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا دعا يوم بدر.

قوله: وانتحل أَيْ: اختر هذا المذهب. قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في كتاب "الإحياء": يستحب أن يقول قبل الدعاء: سبحان ربي العلي الأعلى الوهَّاب ثلاثًا ثم يدعو. وروى سلمة بن الأكوع: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ كان يستفتح دعاءه بقوله: سبحان ربي العلي الأعلى الوهَّاب ثلاثًا ثم يدعو.

ثم قال أَيْ: ابن العماد:

وَابدأ بِنَفسِكَ ثُمَّ الآلَ فادعُ لَهُم وَخُصّ صَحبَ رَسولِ اللَّهِ وَامتَثِلِ

سَب الروافض وَاذكُر فَضلَ سابِقِنا وَاطلُب لَهُم رَحمَةً تَسلَم مِن الدَغَلِ

وَاخصُص أباكَ وَبَر الأم وادعُ كَما قَد رَبياكَ صَغيراً بارِحَ العُلَلِ

يستحب للداعي إذا دعا أن يبدأ بنفسه لقوله تعالى: ﴿فَاستَغفِر لِذَنبِكَ وَلِلمُؤمِنينَ وَالمُؤمِناتِ﴾، ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفضل الدعاء دعاء المرء لنفسه. ولقول الأعرابي في الصحيح: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تشرك معنا أحدًا، فبدأ بنفسه.

ويستحب الدعاء والترضي عن الصحابة رَضِيَ بالرحمة والرضوان لقوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ جاءوا مِن بَعدِهِم يَقولونَ رَبَنا اِغفِر لَنا وَلِإِخوانَنا الَّذينَ سَبَقونا بِالإِيمانِ﴾.

ويستحب الدعاء للأبوين لقوله تعالى: ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾. وترك الدعاء للأبوين ذكروا أنه يورث الفقر، ويستحب برهما برهما بالصدقة عنهما. قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يستحب لمن يتصدّق بصدقة أن يجعلها عن أبويه، فإن الله تعالى يكتب أجرها لأبويه ويكتب له مثل ذلك.

ثم قال أَيْ: ابن العماد:

وَعَم كُلَّ أخٍ وَالمُسلِمينَ تَجِب فالبرُ ذو سَعَةٍ يُعطي بِلا مَلَلٍ

أَيْ: يستحب للإنسان بعد ما يدعو لنفسه أن يدعو لجميع المسلمين لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: واللَّه في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه. ولما روي أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلاً يدعو لنفسه فقال له: اعمم، فإن بين العموم والخصوص كما بين السماء والأرض.

والبر بفتح الباء الموحدة من أسماء اللَّه تعالى ومعناه الكثير العطاء، مأخوذ من البر وهو العطاء لسعته. وقوله: يعطي بلا ملل أَيْ: بلا سآمة، لأنه إنما يسأم من العطاء مَنْ يخشى الفقر، وذلك منتف محال على اللَّه تعالى. وفي الحديث: لا يمل اللَّه حتى تملوا.

ثم قال رحمه اللَّه تعالى:

وَلا تَكُن ذا اِعتِداءٍ في الدُعاءِ تَنَل ... بُغضَ الآلهِ وَراعي العَدلِ إذ تَسِلِ
المُعتدي في الدُعاءِ شَخصٌ يَصِح بِهِ ... وَطالَبَ مِنزِلاً كالمُرسَلينَ عَلى
أَو طالِبٍ فَوقَ حَقٍ في ظَلامَتِهِ ... الجَورُ ظُلمٌ فَلا تَطلُب سِوى المَثَلِ

قال اللَّه تعالى: ﴿أُدعوا رَبكُم تَضَرُعًا وَخُفيَةً إِنّهُ لا يُحِبُ المُعتَدين﴾، فسَّر بعضهم الاعتداء برفع الصوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلا تَجهَر بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِت بِها وَابتغِ بَينَ ذلِكَ سَبيلاً﴾، قيل: نزلت في الدعاء. وقال تعالى: ﴿إِذ نادَى رَبهُ نِداءً خَفِيا﴾.

وفُسِّر الاعتداء أيضًا بأن يطلب في دعائه ما لا يتأتى الوصول إليه، كمن يطلب منازلا كمنازل الأنبياء، وفُسِّر أيضًا بالمظلوم إذا دعا على مَنْ ظلمه، لا يجوز أن يطلب زيادة على قدر الظلامة، فليس لمن شتم أو ضرب أو غصب منه مال أن يدعو على ظالمه بأخذ روحه ولا بهلاك

جميع أمواله، بل طريقة أن يقول: اللهم كافه أو قابله، أو اللهم عليك به، وهذا التفسير الأخير ذكره القرافي في "القواعد"، وهو موافق لظاهر قوله تعالى: ﴿فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

وفي "مسند الإمام أحمد" عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنًا له يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها عن يميني، فقال: يا بني سل اللّٰه الجنة وتعوّذه من النار، وقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور اه.

ثم قال العلّامة:

وَلا وَما سَأَلتَ تَمَهَل في طُلابِكَ هو   وَلا تَعجَل وَكُن في النَجحِ ذا مَهلِ

ينبغي للداعي أن لا يستبطىء الاجابة فيترك الدعاء لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوتُ فلم يستجب لي. ويستحب له تكرير دعائه وهو معنى قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كَرِّر دُعاكَ لا تَترُكهُ مِن ضَجرِ   قَد يفتَحُ القَرعُ بابًا سُدَّ بِالقُفلِ

قالت رابعة العدوية لصالح المزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكان يقول كثيرًا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، فقالت رابعة: إلى متى تقول متى أغلق هذا الباب حتى يستفتح، فقال صالح شيخ جهل وامرأة علمت. وقد أشار إلى قول رابعة في هذا البيت فقال:

هذا وَبابُ الذي تَدعوه مُنفَتِحُ   عَلى الدَوامِ فَطِبْ يا واسِعَ الأَمَلِ

الاسمُ الأَعظَمُ قيلَ اللّٰه قَد نَسَبوا   لِقُطبٍ جيلانهم فاطلُب بِهِ تَنَلِ

أو اِسمُهُ الحَيُّ وَالقَيُّومُ سَلهُ تُجَب   بِـالـلَّهِ وَالحَـيّ والقَيُّـوم وَامتَثِـلِ
وَقيـلَ أَخفـاهُ رَبُّ العَـرشِ خالِقُنـا   بِكُـلِّ أَسـمائِهِ فاطلُـب بِهـا وَسَـل

اختلفـوا فـي الاسـم الأعظـم علـى أقـوال، فقـال الشـيخ عبـد القـادر الجيلانـي رَحِمَـهُ اللَّهُ قطب زمانـه: أنـه الله. قـال: وإنمـا يستجاب لمـن أكل الحلال وطهَّر قلبه من الغش والأدناس. وقيل: إنه الحي القيوم لأنه قد ذكره الله في آية الكرسي وفي سورة آل عمران وفي طه، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الوُجوهُ لِلحيِ القَيوم﴾.

وقيل: أخفاه اللَّه تعالى في أسمائه كما أخفى ليلة القدر في رمضان، حتى تجتهد الناس في العبادة والطلب، وكما أخفى الرجل الصالح في الخلق حتى يظن الناس ببعضهم خيرًا، وكما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة حتى يكثر الطلب، وكما أخفى رضاه في الطاعة حتى لا يستقل بطاعة وإنْ قَلَّتْ، وكما أخفى سخطه في المعصية حتى لا يُستهان بمعصية.

وينبغـي للإنسـان أن يقـول فـي دعائـه: اللهـم إنـي أسـألك بأسـمائك الحسنى وصفاتك العليا. فإنها تشمل الاسم الأعظم وغيره.

وروَى الإمام أحمد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلاً يدعو في دعائه: اللهم إني أسألك فإني أعلمُ أنك أنت اللَّه الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولـم يكـن لـه كفوًا أحد، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هـذا سـأل اللَّه باسـمه الأعظـم الـذي إذا سُئِل بـه أعطى وإذا دُعِي به أجاب.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رجل على عهد رسول اللَّه

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى بلاد الشام، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى، قال: فبينما هو آتٍ من الشام يريد المدينة إذ عرض له لص على فرس فصاح بالتاجر: قف، فوقف التاجر وقال له: شأنك بمالي وخل سبيلي، فقال له اللص: المال مالي وإنما أريد نفسك، فقال له التاجر: انظرني حتى أتوضأ وأُصلّي وأدعو ربي عَزَّ وَجَلَّ، قال: افعل ما بدا لك، فتوضأ التاجر وصلَّى أربع ركعات، ثم رفع يديه إلى السماء وكان من دعائه أن قال: يا ودود يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا فعَّال لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، لا إله إلا أنت يا مغيث اغثني، ثلاث مرات، فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر بيده حربة من نور، فلما نظر اللص إلى الفارس ترك التاجر ومَرَّ نحو الفارس، فلما دنا منه شدّ الفارس على اللص فطعنه طعنة أرداه عن فرسه، ثم جاء إلى التاجر فقال له: قُم فاقتله، فقال له التاجر: مَنْ أنت؟ فما قتلت أحدًا قط، ولا تطيب نفسي بقتله، قال: فرجع الفارس إلى اللص فقتله، ثم رجع إلى التاجر وقال له: اعلم إني ملك من السماء الثالثة حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة، فقلنا: أمر حدث، ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار، ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل علينا من قبل السماء وهو ينادي: مَنْ لهذا المكروب فدعوتُ ربي أن يوليني قتله، واعلم يا عبد الله إنه مَنْ دعا بدعائك هذا في كل كربة وكل

شدة وكل نازلة فرَّج اللَّه عنه وأغاثه، قال: وجاء التاجر سالمًا غانمًا حتى دخل المدينة وجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بالقصة وأخبره بالدعاء، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقد لقَّنك اللَّه أسماءهُ الحُسْنى التي إذا دُعِي بها أجاب وإذا سُئِل بها أعطى.

وعن محمد بن خزيمة قال: لما مات أحمد بن حنبل كنت بالإسكندرية فأغممت، فرأيت في المنام أحمد بن حنبل وهو يتبختر، فقلت له: يا أبا عبد اللَّه أيّ مشية هذه؟، قال: مشية الخدام في دار السلام، فقلتُ: ما فعل اللَّه بك؟، قال: غفر لي وتوّجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي، ثم قال: يا أحمد أدعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري، وكنت تدعو بها في دار الدنيا، فقلت: يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء، فقال: يا أحمد قد غفرت لك كل شيء ولا اسألك عن شيء، هذه الجنة فادخلها فدخلتها اه. ثم قال:

كل الدعاء به قد نال فاعله إحدى ثلاث أتت عن سيد الرسل

في الحديث: ما من مسلم يدعو اللَّه تعالى إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يعجل ما سأل، أو يدخر له الثواب في الآخرة، أو يدفع عنه من البلاء بقدره. وإليه أشار بقوله:

وَدَعوةٌ عُجِلَت ما رامَ طالِبُها وَدَعوةٌ أُخرَت دُخرٍ إِلى أَجلِ
وَدَعوةٌ حُرِزَت دَفعُ البَلاءِ فَكُنْ بِبِسطِ كَفٍ وَراء الأَزمانِ في شُغُلِ

في الحديث: إن اللَّه حيي كريم يستحي إذا مد العبد إليه يديه أن يردها من غير أن يجعل فيهما شيئًا. ثم قال:

في رَأيِ جَمهورِهِم أَكلُ الحَلالِ أَتَى   شَرطُ القُبولِ فَطِب في الشُّربِ وَالأَكلِ
وَعِنـدَ بَعـضٍ بِـلا شَـرطٍ ويُعضِـدُهُ   إجابَـةُ اللَّهِ سـرّ الخَلـقُ فـي الأَزَلِ
لَمـا دُعِـيَ رَبَـهُ إِبلـيسُ أُنظُـرهُ   بِـئسَ القَـرينِ مِنـهُ مِـن عَلـى وَجَـلِ

ذهب الجمهور إلى أن شرط قبول الدعاء أكل الحلال لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد: أطب كسبك تستجب دعوتك. وذُكِر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الرجل يقول يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وقد غُذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب له.

قال القشيري: وقد قيل: الدعاء مخ العبادة، وسنامها لقم الحلال.

وذهب بعضهم على أن هذا لا يدل منع القبول، وإنما يدل على استبعاد القبول قالوا: ذلك أن اللَّه تعالى أعطى إبليس مسألته حين قال: ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾، فإذا استجيب لإبليس وهو شر الخلق فغيره أولى.

وما أحسن ما قال بعضهم في دعائه: إلهي إن كنت غير مستاهل لمعروفك فأنت أهل الفضل عليَّ، والكريم ليس يقع كرمه كله على مستحقه. وقال بعضهم: إلهي كيف أفرح وقد عصيتك، وكيف أحزن وقد عرفتك، وكيف أدعوك وأنا عاصٍ، وكيف لا أدعوك وأنت كريم.

ثم قال:

دُعـاءُ مُضَـطَرُنا تَرجـي إجابَتُـهُ   بِلا شُروطٍ كَذا المَظلومِ في الدُولِ

كَـذا اليَتـيمُ وَقَـد قـالوا وَدعوَتُـهُ   تَسري إلى اللهِ في ليلٍ عَلى عَجلِ

دعاء المضطر ترجى إجابته ويسمّى دعاء الحال أيضًا، وهو أن يكون صاحبه مضطرًا لا بد له أن يدعو مما يدعو لأجله، وذلك كمن أشرف على الغرق.

ومن ابتلى بضر ونحوه قال اللَّه تعالى: ﴿أَمَن يُجيبُ المُضطَرَ إذا دَعاهُ وَيَكشِفُ السُوء﴾. وكذا دعوة المظلوم مستجابة لأنه ينتصر بها ممن ظلمه، وقد ورد: أن دعوة المظلوم تحمل على الغمام ويقول الله تعالى: لأَنصُرَنّكَ وَلو بَعدَ حين. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. قال بعضهم: في هذا الحديث إشارة إلى أن دعوة المظلوم تصعد إلى الله تعالى بنفسها، لا تحتاج إلى ملائكة ترفعها. وهذا كما ذكروا في أن العبد إذا قال: لا إله إلا اللَّه، تصعد بنفسها إلى السماء وغيرها من الأعمال ترفعه الملائكة، قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَيب﴾ يعني: لا إله إلا اللَّه، ﴿وَالعَملُ الصالِحُ يَرفَعُهُ﴾.

وحكى في "مختصر الحلية" عن بعضهم: أن دعوة اليتيم مستجابة وأنها تسري إلى اللَّه تعالى والناس نيام.

وللدعاء أوقات يستجاب فيها الدعاء، يتكرر بتكرر السنة وأوقات تتكرر بتكرر اليوم والليلة، وأوقات مختصة ببعض الأحوال:

فأما الأوقات التي تتكرر كل سنة فخمس ليال، قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يستجاب الدعاء ليلة الجمعة وليلتي العيدين وليلة النصف من شعبان. روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إن

الله ينزل ليلة النصف من شعبان فيعتق من النار، عدد معزى أو قال عدد الشعر معزى كلب، وينزل أزراق السنة، ويكتب الحاج ولا يترك أحدًا إلا غفر له إلا قاطع رحم أو مشرك أو مشاحن. ذكره الاسماعيلي في "معجمه". وأول ليلة من رجب.

والذي يتكرر كل يوم وليلة: الدعاء بعد الآذان مستجاب، وعند قيام الناس إلى الصلاة واستواء الصفوف، وبعد نصف الليل في كل ليلة، وعند فطر الصائم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: للصائم عند فطره دعوة مستجابة. والذي يختص ببعض الأحوال الدعاء عند التقاء صفوف الحرب، وعند نزول المطر، وقد جمعها الفاضل ابن العماد في هذه الأبيات فقال:

بَعدَ الآذان وَنِصف الليلِ فادعُ تَجب ... وَعِندَ غَيثٍ وَصف الحَربِ وَالعَملِ
وَليلُ خَمسٌ مِنَ الأَيامِ فادعُ بِهِ ... تَرى القُبولَ وَعَنهُ قَط لا تَحِل
فِي نِصف شَعبان وَالعيدَينِ رابعها ... يَومَ العُروبَةِ لا تَترُك مِنَ المَلَلِ
وَلَيل أولٌ يَومَ هَلَّ مِن رَجَبِ ... وَفيهِ نَصٌ أَتَى لِلشافعي جَلِي

يوم العروبة: يوم الجمعة كانت العرب تسميه بذلك لأنهم كانوا يجتمعون فيه، وفي يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل اللَّه تعالى شيء ألا أعطاه كما جاء في الحديث.

واختلفوا فيها على أقوال فقيل: أخفاها اللَّه تعالى في اليوم، وقيل: هي أول النهار، وقيل: آخر النهار، لأن اللَّه تعالى خلق آدم بعد العصر، ولأن اليمين يغلظ بعد عصر الجمعة. قال ابن الحاج في "المدخل": وهذا قول الأكثرين قال: وهو الذي كانت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترويه عن أبيها سيدنا

مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال النووي: والصواب ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: هي ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى أن يسلّم من الصلاة. قال شيخنا الإمام جمال الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: قال القاضي عياض: ساعة الإجابة ساعة مختطفة أَيْ: لحظة يسيرة منحصرة فيما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى سلامه من الصلاة، وكلام النووي يقتضي أنها تمتد من حين الجلوس إلى السلام، وليس كذلك قال النووي في "الروضة"، جرت عادة الخطباء الجهال الوقوف على المنبر والدعاء قبل الجلوس ظنًّا منهم أن ساعة الإجابة دخلت، وهو خطأ إنما تدخل بالجلوس.

ثم قال:

وَقت الإِجابَةِ في صُبحِ العُروبَةِ أو ... قبل الغُروبِ وَذا عَن أكَثَرِ نَقلِ

قالَ النَواوي وَالتَصويب قَد حصِرَت ... مِنَ الجُلوسِ إلى التَسليمِ فابتَهِل

وَعَن عِياضٍ فَقُل في لَحظَةٍ خَطِفَت ... فنقلها قَد أَتَى عَن سَيدِ الرُسُلِ

فِطر الصِيامِ لداه دَعوَةٌ سَمِعَت ... فاطلُب بِها جَنَة الفِردوسِ لا تَحِلِ

في الحديث: للصائم عند فطره دعوة مستجابة. وقد تقدّم شرح هذه الأبيات. ثم قال:

وَقالَ قَومٌ وَهَت في العِلمِ رُتبَتُهُم ... تَركُ الدُعاءِ لَهُ التَرجيحُ في العَمَلِ

قالوا وَفي تَركِهِ التَسليمُ ثُمَّ لَهُ ... فَضل الرِضا بِالتَركِ لا تَقُل

وَفي الَّذي ذَكَروا حِرمانَ تابِعِهِم ... وَما رَشادُ الوَرَى في رَأي مُعتَزِلي

فِطـر الصِيـامِ لـداه دَعـوَةٌ سَـمِعَت   فاطلُب بِها جَنَةَ الفِردوسِ لا تَحِلِ

الـدعاء مطلـوب محبـوب وهـو سـلاح المـؤمن قـال اللَّه تعـالى: ﴿فَمـا استَكانوا لِرَبِهِم وَما يَتَضَرَعون﴾، وقـال تعـالى: ﴿أَمَـن يُجيـبُ المُضـطَرَ إِذا دَعـاهُ﴾، وقـال تعـالى: ﴿إِنّهُـم كـانوا يُسـارِعونَ في الخَيـرات وَيَـدعونَنا رَغبـاً وَرَهباً﴾، وقـال تعـالى: ﴿وَإِذا سَـأَلَكَ عِبادي عَني فإِني قريـب أُجيبُ دَعـوَةِ الـدَاعي إِذا دَعـان﴾. وقـال صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: مـن لـم يـدعُ اللَّه يغضـب عليه. وأنشدوا في هذا المعنى:

اللَّهُ يَغضَـــبُ إِن تَركـــتَ سُـــؤالَهُ   وَبَنـي آدَمَ حـينَ يُسـئَلُ يَغضَـبِ

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الدعاء مخ العبادة. فالإتيان به عبادة أولى من تركها، لأن في الدعاء إظهار الفاقة وذل العبودية. وقد قال أبو حازم الأعرج: لأن أحرم الدعاء أشد علَيَّ من أن أحرم الإجابة.

وقال قوم: السكوت والخمود تحت جريان الحكم والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى. قال الواسطي: اختيار ما جرى لك في الأزل أولى وخير من معارضة الوقت.

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرًا عن اللَّه سبحانه وتعالى: مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وقال قوم: يختلف الدعاء بحسب الأوقات والأحوال. وقال قوم: لدعوة في الضراء أو من أن يدعوه في السراء. وقال قوم: لا يدعوه أصلاً. والمشهور الأول.

ولذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى طلبًا للدعاء:

أرغَبُ إِلى اللَّه وَاطلُب فَضلَ رَحمَتِهِ   لِمَـن أَسـاءَكَ وَمَـن راعـاكَ بِالنَحـلِ

بفتح الحاء وتسكينها. والرواية بالفتح للتندب وهي العطايا.

يستحب الدعاء لكل أحد، والدعاء مستحب للإنسان لنفسه وإخوانه، والدعاء لمن أساء إليك أفضل من الدعاء لمن أحسن، لأن فيه مقابلة السيئة بالحسنة.

وهذه أدعية جمعتها من "كتاب النسائي" من جملة أحاديث رواها النسائي مفرّقة: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوّذ بها، رواها في جملة أحاديث فجمعتها وأسقطت المكرر منها رجاء الاختصار والنفع بها، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إني أعوذ بِكَ أَن أزل و أضل أو أَظلِم أو أُظلِم أو أَجهَل أو يُجهَل عَليّ. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع. اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال.

وأعوذ بك من المغرم والمأثم ومن الجبن والهرم، وأن أرد إِلى أرذل العمر. وأعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء وجهد البلاء وشماتة الأعداء. اللهم إني أعوذ بك من سوء الكبر وعذاب جهنم وعذاب القبر وضيقة الصدر وفتنة الفقر وفتنة الغناء وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال.

اللهم إني أعوذ بك من غلبة العدو، وأعوذ بك من البرص والجذام وسيء الأسقام، ومن عين الجان وعين الإنس. اللهم إني أعوذ بك من التردي والهم والفرق والحرق. وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان عند

الموت. وأعوذ بك أن أقتل في سبيلك مدبرًا. وأعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقابك. وأعوذ بك من ضيق المقام يوم القيامة. وأعوذ بك منك.

اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني. اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي وشر منيتي.

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علَيَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلى أنت. وهذا سيد الاستغفار كما ورد في حديث سيد الاستغفار: اللَّهم أنت ربي إلخ. وورد أن من قرأه مساء ومات في ليلته دخل الجنة، ومن قرأه صباحًا ومات في يومه دخل الجنة أَيْ: مع السابقين أو من غير من سابقة عذاب اه بالمعنى.

ثم قوله فيه: وأنا على عهدك أَيْ: الذي أخذته علَيَّ وأنا في صلب آدم وهو: ﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾، وإنما استعاذ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم من ذلك وإن كان معصومًا من كل شيء يثبته ليشرع لأمته ويعلّمهم الدعاء.

وأبوء بذنبي أَيْ: اعترف به. وأبوء لك بنعمتك أَيْ: اعترف بها، فأنعم علَيّ بالعفو والمغفرة. وقوله في الحديث المتقدّم: أعوذ بك منك قيل: معناه: أعوذ بك من شر ما قضيت. وقيل: إشارة إلى التوحيد، وذلك أنه صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم استعاذ أولاً بالضد عن الضد، واستعاذ بالرضا عن السخط، وبالمعافاة من العقوبة.

ولما كان البارئ تعالى لا ضد له فلم يصح أن يقول: أعوذ بك من غيرك لانتفاء المثل والشريك فيرجع إليه، فقال: أعوذ بك منك.

وفي هذا القدر كفاية لأنه خروج عن المقام، ومن أرد الزيادة فعليه ب"الجامع الصغير" للسيوطي، فإننا اختصرنا منه جملة أحاديث أدعية في كتابنا المسمى ب"الدر النفيس". ولولا الملل ما ذكرناها.

فائدة: قال العلامة ابن العماد: كل الأدعية الواردة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الصالحين إنما دوَّنها العلماء ليستعملها العبد في الدعاء ولا يخترع دعاء من قبل نفسه مع إمكان الدعاء بها، لأنها دعوات قد شهد لها بالقبول للداعي بها، ومما شهد له بالقبول يبعد رده وترجى إجابته، ولهذا المعنى قالوا: يكره للحاج أن يلتقط الأحجار التي يرمي بها من الرمي، لأنه يقال إنما تقبل منها رفع وما لم يتقبل ترك من الرمي فهو مشهود له بالرد وعدم القبول فلا ينبغي الرمي به.

وفي قوله تعالى: ﴿وَذا النونِ إِذ ذَهَبَ مُغاضِبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾، إشارة إلى أن المؤمن إذا سأل اللَّه تعالى بهذا الدعاء عند الكرب نجَّاه اللَّه تعالى كما نجَّى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال ذلك.

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: قولوا: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، قولوا: ﴿رَبُنا ظَلَمنا أنفُسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، قولوا: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر

لي»، وأشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن الأولى دعوة يونس وإلى أن الثانية دعوة آدم وحواء، وإلى أن الثالثة دعوة موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى نَبِيِّنا وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِين وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

انتهى كلام ابن العماد، وفي هذا القدر كفاية لمن وفَّقه اللَّه تعالى، وإلا فالسنة واسعة لا يحتملها هذا الكتاب.

وقد ذكر العلامة الفاسي في "شرحه على دلائل الخيرات" ما نصه: أخرج أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعاءٍ كثير لم نحفظ منه شيئًا، فقلتُ: يا رسول اللَّه دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئًا، فقال: أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ؟، تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وفي روايةٍ: العلي العظيم. قال أبو عيسى -أَيْ: الترمذي-: حديث صحيح.

وأخرج ابن ماجه مِنْ حديث عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا اه. وهذا كله من جوامع الكلم والدعاء.

وقد أخرج أبو داود والحاكم عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَان يَسْتَحِبُّ الجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سوى ذلك.

مع ما فيه من الاستمساك بواسطته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاقتداء بإماميته، والكون خلفه وسلب الإرادة إليه بواسطته، ولأنه أعلم بآداب الدعاء ومما ينبغي أن يدعى به. واللَّه أعلم، انتهى كلامه بالحرف.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُعلّلاً لما تقدّم بقوله: (لأنه لا يُحصر) بضم الياء التحتية مبنيًا للمجهول أَيْ: لا يُضبط ولا يُحاط (ما له) كيف وقد أُفرغت عليه الكمالات السنية والأخلاق الزكية والأوصاف الحميدة المرضية، وهذا بالنسبة للخلائق.

قال ابن الفارض:

وَعَلَى تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بِحُسْنِهِ   يَفْنَى الزَّمَانُ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

وأما بالنسبة لله عزَّ وجلَّ فكمال المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محصور ومُتناهٍ.

وإذا كان كذلك وقد عرفت أن كمالاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير محصورة بالنسبة للخلائق (فلنمسك) أَيْ: نترك وهو من الإمساك بضم النون في نمسك لأنه من إمساك الرباعي. (البسط) بفتح الموحدة وسكون السين المهملة: وهو الاتساع.

ثم عطفَ على البسط عطف تفسير قوله: (ونقبض العنان) بكسر العين بوزن كتاب: وهو لجام الدابة من عَنَّ يعِنُّ: اعترض، سمي به لأنه يعنّ أَيْ:

يعترض الفم فلا يدخل إلا بمحاولة الإدخاء. ويقال: جاء فلان ثانيًا عنانه: إذا قضى وطره وهو ذليل العنان منقاد، وفلان طويل العنان: إذا لم يرد عما يرومه لشرفه.

(و) بعد ما ذكرنا بعض ما يتعلّق بالمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسبَ أن نذكر أصحابه بالترضِّي عنهم كما هو شعارهم. (نقول رضي اللَّه عن أصحابه) أَيْ: عمومًا.

وقوله: (خصوصًا) مفعول مطلق أَيْ: أخص خصوصًا (أبا بكر) مفعول به أَيْ: أخصّ أبا بكر بالترضِّي خصوصًا. واسمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عبد اللَّه بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي القرشي. يلتقي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مُرَّة.

قال سالم بن أبي الجعد: قلت لمحمد ابن الحنفية: لأي شيء قدم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره؟ قال: لأنه كان أفضلهم إسلامًا حين أسلم فلم يزل كذلك إلى أن قبضه اللَّه تعالى. أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة.

قال في "الفتح": ومن المعدود في مناقبه إسلام أبويه وجميع أولاده، لأنه انتظم له ذلك ولم ينتظم لأحد غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وروى الطبراني عن علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان يحلف أن اللَّه أنزل اسم أبي بكر من السماء صِدِّيقًا. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر. رواه

أبو نعيم. وقال بعض الشُّرَّاح بعد قوله: ولا غربت، قوله: على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر. ولعلها رواية.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تأتي الملائكة بأبي بكر مع النبيين والصِّدِّيقين تزفه إلى الجنة زفًا. رواه الديلمي. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن إخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد بابًا إلا سدّ إلا باب أبي بكر. رواه البخاري وغيره.

وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، وفي الإسلام عبد اللَّه، وسمي من اللَّه تعالى بالصِّدِّيق لتصديقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول الناس ولازمَ الصدق، فلم تقع منه هفوة ما، ولا وقفة في حال من الأحوال. وقيل: كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء.

نسبه للصدق قولاً وفعلاً في نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، الآيات الدالة على الثناء عليه، فإنها نزلت فيه لما اشترى سبعة من المعذبين في اللَّه وأعتقهم.

ويلقّب عتيقًا لأنه القديم في الإسلام، او لأنه أُعتق من النار، أو لأنه ليس في نسبه ما يعاب به، أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام. وقيل: لأنه عتيق من النار، كما روى الترمذي والحاكم: عن عائشة: أن أبا بكر دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أنت عتيق اللَّه من النار، فسُمّي يومئذ عتيقًا.

وهي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيخ الصحابة ومسكن الفتن ومجلي كربها، وهو

الثابت على الحق، والمُثبّت للصحابة بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويلجأون إليه في أكثر أمورهم.

منها: لما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاشت عقولهم، حتى تكلموا بكلمات غير منتظمة، ومنهم من أُقعد إلى غير ذلك مما تقدَّم في الوفاة، إلا أبا بكر فإنه كان غائبًا.

فلما حضر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: طبت حيًّا وميتًا، ثم خرج عليهم وتلى عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. فلما سمعوا ذلك منه ردّت عليهم عقولهم وعرفوا أن موتهم حق.

وعن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنهم لما دفنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخلفا عليّ والزبير ومن معهما في بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتخلّفت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر. وقال عمر: انطلق إلى الأنصار، فذهبوا إليهم.

فلما جلسوا قام خطيبهم خطب وأثنى على الله، ثم مدح الأنصار وأطنب في مدحهم، بحيث لم يترك آية أو خبرًا جاء فيهم إلا ذكره. ثم قال: إن قومًا يريدون أن يستبدلوا بالأمر، فسكت ثم همّ عمر أن يخطب بما رأوه فأشار إليه أبو بكر بالسكوت.

ثم خطب أبو بكر فأثنى على الله بما هو أهله، ومدح الأنصار، وبيَّنَ أن

الخلافة في قريش، واحتجّ عليهم بالحديث الصحيح ثم قال: رضيت لكم، أما أبو عبيدة وأخذ بأيديهما، وقال: بايعوا من شئتم منهما، فقام حباب بن المنذر وترفع وقال: منا أمير ومنكم أمير، وكثر اللغط.

فبادر عمر مخافة الفتنة وقال لأبي بكر: ابسط يدك فبسطها فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار، ولما بايعوه صعد المنبر بالغداة فقام عمر فتكلم قبله، فحمد اللَّه وأثنى على أبي بكر، ثم قال: قوموا بايعوه فبايعه الناس العامة.

ثم خطب أبو بكر فقال: وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، وأطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله، وإن عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

ثم نظر ولم يرى الزبير فدعا به فتكلّم عليه فقال: لا تثريب يا خليفة رسول اللَّه، والتفت ولم يرى عليًّا، فدعا به فتكلَّم عليه فقال: لا تثريب يا خليفة رسول اللَّه.

واستدل كل منهما حينئذ على حقيته بالخلافة سنتين ونصفًا، فشيَّد اللَّه به دعائم الدين، وخفض ما ارتفع من رؤوس المنافقين، وجاهد المرتدين، كما أشار إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: أنا سيف الإسلام وأبو بكر سيف الردة. ولقَّبهُ المسلمون خليفة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل له: يا خليفة اللَّه، فقال: أنا خليفة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. رواه أحمد.

توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مسمومًا وسنه سن المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ودُفِن مع المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحجرة الشريفة.

(و) خصوصًا (عمر) بن الخطَّاب ابن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد اللَّه بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، أبو حفص القرشي العدوي. لقبه الفاروق باتفاق. قيل: أول من لقّبه به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل: جبريل. وقيل: أهل الكتاب.

وُلِد بعد الفيل بثلاثة عشرة سنة، وكان عند البعث شديدًا على المسلمين، ثم أسلم بدعائه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكان إسلامه فتحًا على المؤمنين، وفرجًا لهم من الضيق. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتقوا غضب عمر فإن اللَّه يغضب إذا غضب. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إن اللَّه جعل الحق على لسان عمر وقلبه.

وفي "الجامع الصغير": الحق بعدي مع عمر حيث كان. رواه الحكيم عن الفضل بن العباس. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قط إلا سلك فجًّا غير فجّك. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم الآخر على وجهه.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ما في السماء ملك إلا وهو يوقّر عمر، ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر. وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَنْ أبغض عمر فقد أبغضني، ومَن أحبّ عمر فقد أحبني، وإن اللَّه باهى عشية عرفة بالناس عامة، وباهى بعمر خاصة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلتُ: لمن هذا القصر؟، فقالوا: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك، فوليت مدبرًا، فبكى عمر وقال: أعليك

أغار يا رسول الله؟!، رواه الشيخان.

وكما يسمى الفاروق يسمى الباب، رُوِي عن العبَّاس أنه سأله عن تسميته الباب، فَاسْتَجْمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ: مَا لَكُمْ؟، قَالُوا: عُمَرُ، قَالَ: افْتَحُوا لَهُ الْبَابَ فَإِنْ قَبِلَ قَبِلْنَا مِنْهُ، وَإِنْ أَدْبَرَ قَتَلْنَاهُ، فَسَمِعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ إليه، وتشهد عمر فكَبَّرَ أَهْلُ الدَّارِ تَكْبِيرَةً واحدة سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ، ثم قال: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟، قَالَ: بَلَى، فَقُلْتُ: فَفِيمَ الِاخْتِفَاءُ؟، فَخرجْنَا صَفَّيْن حَمْزَةُ أنا فِي أَحَدِهِمَا وحمزة فِي الْآخَرِ، حَتَّى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ، فَنَظَرَتْ إِلَيَّ قُرَيْشٌ وَإِلَى حَمْزَةَ فَأَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ شديدة، فَسَمَّانِي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَارُوق يومئذ.

وفي الحديث: لو كان بعدي نبي لكان عمر. وهو أول من قيل له أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وُلّي الخلافة بعد أبي بكر، فأقام بها عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال، وفتح الله على يديه الأمصار العظيمة. وحجَّ بالناس عشر حجج متواليات.

واستجاب الله قوله: اللَّهُمَّ ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك، فساق له الشهادة بالمدينة المنورة، بعد أن أحرم بالصبح قتله أبو لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة الصحابي.

وكان ذلك لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، فعاش حتى انسلخ الشهر. فمات وغسّله ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحُمِل على سرير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصلَّى عليه صهيب، ودُفِن بالحجرة الشريفة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر، هلال المحرم وهو ابن

ثلاث وستين سنة على الصحيح المشهور وهو قول الجمهور.

(و) خصوصًا (عثمان) بن أَبِي الْعَاصِ بْن أُميَّة بْن عَبْد شمس بْن عَبْد منَاف القرشي، أمير المؤمنين، ذا النور النورين لتزوُّجه بنتَيْ المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال المهلب بن أبي صفرة: لم يعلم أحد تزوّج ابنتَيْ نبي غيره. وقيل: لأنه كان يختم القرآن في الوتر، فالقرآن نور وقيام الليل نور. وقيل: لأنه إذا دخل الجنة برقت له برقتين. ورُوِي أن عليًّا ذُكِر له عثمان فقال: ذاك امرؤ يدعى في الملإ الأعلى ذا النورين.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان. رواه الترمذي. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي نفس رسول الله بيده إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من اللَّه ورسوله. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: واللَّه ليشفعن عثمان بن عفان في سبعين ألفًا من أمتي قد استوجبوا النار حتى يدخلهم الجنة. رواه ابن عساكر.

أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قديمًا وهاجر الهجرتين، وهو الذي جهَّز جيش العسرة في غزوة تبوك. ورُوِي الترمذي: حمل عثمان في جيش العسرة ألف بعير وسبعين فرسًا. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم. وفي رواية: أنه بعث بعشرة آلاف دينار فصُبّت بين يديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل يقلّبها ويقول: غفر اللَّه لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة.

وفتح اللَّه في خلافته أمصارًا كثيرة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة

وإحدى عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا. ثم قُتِل في اليوم الذي حاصروه فيه في داره شهيدًا ظلمًا، وكان يوم الجمعة بعد العصر لثمان عشرة. وقيل: لسبع عشرة خلت من ذي الحجة، ودُفِن ليلة السبت بالبقيع بين المغرب والعشاء وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وأشهر على الصحيح المشهور.

فعظم ذلك على الصحابة وغيرهم من أهل الخير، وفتح باب الفتنة، فكان ما كان والله المستعان، والقصة طويلة جدًّا منها:

أنه اجتمع على قتله أوباش من مصر وغيرها أربعة آلاف، توهُّمًا منهم أنه أراد قتل محمد بن أبي بكر، وحصروه حتى قتلوه والمصحف بين يديه، وكان الصحابة يمكنهم الدفع عنه، لكن منعهم أن يقاتلوا محاصريه لما قال له زيد بن ثابت: أن الأنصار بالباب، فقال: لا حاجة لي في ذلك. كيف وأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد علَيَّ عهد وأنا صابر عليه، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنك ستؤتى الخلافة بعدي، وسيريدك المنافقون على خلعها فلا تخلعها في ذلك اليوم.

وقال لعلِيّ وهو محاصر: يا أبا الحسن ما هذا الذي ركب مني؟، فقال له: اصبر يا أبا عبد الله، فوالله ما غبت عن قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين كنا على أُحُد فتحرّك الجبل ونحن عليه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وأيم الله لتقتلن ويقتل بعدك وليقتلن طلحة والزبير. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. اه باختصار بالمعنى من بعض الشُّرَّاح.

(و) خصوصًا (علي) بن أَبِي طالب، ابن عم المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصهره، أبا الحسن، غزير العلم وافر الزهد، أمير المؤمنين، خاتم

خلافة النبوة. قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، يا علِيّ إن الله أمرني أن أُدنيك ولا أُقصيك، وأن يعلمك، وأن تعي وحق لك أن تعي، سألت ربي أن يجعلها أذنك. رواه سعيد بن منصور وغيره.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي وأبو ذر والمقداد وسلمان. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّه ورسوله وجبريل عنك راضون. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَن أحبّ عليًا فقد أحبني، ومَن أحبني أحبه اللَّه، ومَن أبغض عليًا فقد أبغضني ومَن أبغضني فقد أبغض اللَّه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَن كنت مولاه فعلِيٌّ مولاه، اللَّهُمَّ والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه، وأحبّ مَن أحبه وأبغض من أبغضه. رواه الترمذي وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علي مني وأنا منه، وعلي ولي كل مؤمن من بعدي. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علي أخي في الدنيا والآخرة. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علَيّ الحوض.

وأخرج الترمذي وحسَّنهُ عن علِيّ: قال لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما ترى دينار، قلت: لا يطيقونه، قال: فنصف دينار، قلت: لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾ فبي خفّف اللَّه عن هذه الأمة.

وفضائله كثيرة جدًّا حتى قال الإمام أحمد وغيره: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في حق علِيّ.

قال العلماء: وكان سبب ذلك تنقيص بني أمية له، فكان كل من كان عنده شيء من مناقبه من الصحابة، يبثه، وكلما أرادوا إخماده وهددوا من حديث من حدث بمناقبه لا تزاد إلا انتشارًا.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا سيد ولد آدم وعلِيٌّ سيد العرب.

ولما بايعه المهاجرون والأنصار وكل من حضر، وكتب ببيعته إلى الآفاق، فأذعنوا كلهم، فأقام في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام، وقاتل فيها البغاة والخوارج كما عهد إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهو حقيقٌ بالخلافة بعد الأئمة الثلاثة بالإجماع، ولا التفات إلى من زعم أنه لا إجماع على خلافته. وقد حفظ القرآن وعرضه على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلى بعد موته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكتب كتابًا فيه العلوم، حتى قال ابن سيرين: لو ظفرت بذلك الكتاب لظفرت بالعلم كله.

وُلِّي الخلافة بعد عثمان، يقيم الحق حتى انقضت مدة خلافته بموته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ وَجْهَهُ، وعمره إذ ذاك ثلاث وستون سنة، وكان موته بضربة من أشقى الآخرين اللعين عبد الرحمن بن ملجم -بفتح الجيم وكسرها- بسيف مسموم في جبهته وأوصله إلى دماغه، وذلك ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين، وهو خارج إلى صلاة الصبح.

ومات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليلة الأحد، واختُلف في موضع قبره، لأنه أُخفِي

خوفًا من أن تنبشه الخوارج. وفي رواية: أنهم حملوه ليدفنوه مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فندّ الجمل الذي حمله، فلم يُدرَ أين ذهب. فلذا قال أهل العراق: أنه في السحاب.

وعن سيدي علِيّ وفا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا عليًّا بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِع إلى السماء كما رُفِع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال الشعراني: قلتُ: وبذلك قال سيدي علي الخوّاص سمعته يقول: أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أبقى من السفينة لوحًا على اسم علِيّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِع عليه إلى السماء، فلم يزل محفوظًا من الغرق حتى رُفِع عليه. ذكره الشيخ سليمان الجمل في "حواشي الهمزية".

(و) أخصُّ بالترضِّي أيضًا (باقي الأصحاب) أَيْ: جميع أصحابه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خصوصًا العشرة المبشرين بالجنة في الأحاديث، منها حديث: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أبي وقاص فِي الْجَنَّةِ، وَتَاسِعُ الْمُؤْمِنِينَ وهو سعيد بن زيد، وَالْعَاشِرُ رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وذكرهم شرف الدين البوصيري في "الهمزية".

ستة بعد الخلفاء الأربعة وتفصيلهم على حسب مراتبهم التي بيَّنها مشرفهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو طلحة بن عبيد الله القرشي، وسمَّاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلحة الخير، والزبير بن العوام القرشي ابن عمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية الذي قال فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

إن لكل نبي حواري وحواريي الزبير. وسعد بن أبي وقاص بن مالك القرشي الزهري، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، وهو ابن عم عمر وزوج أخته والسبب في إسلامه. وعبد الرحمن بن عوف بن الحارث القرشي الزهري، صحَّ أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اقتدى به في غزوة تبوك، وصلَّى وراءه ركعة من صلاة الصبح، وهذه منقبة عظيمة. وأبو عبيدة عامر بن الجرّاح القرشي الفهري أمين هذه الأمة. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة.

(و) أخصُّ بالترضِّي أيضًا (الآلية) أَيْ: باقي أهله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته وأولاده على العموم. (ولا سيّما) مشدّد ويجوز تخفيفه، وفتح السين مع التثقيل، وقد انفردت هذه اللفظة بالتأليف فيجوز فيما بعدها الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. وما: اسم موصول بمعنى الذي، والتقدير: فيما لا سيما زيد لا سيما الذي هو زيد، فيكون ما بعدها خبرًا عن ما المبتدأ الذي هو لفظ هو أو مجرورًا، ولفظ: ما زيدًا كما قالوا في قوله تعالى: ﴿أيما الأجلين﴾، أَيْ: أَيُّ الأجلين، وأما النصب فلا وجه له. وهذا إذا كان معرفًا كالحسن والحسين.

وأما (فاطمة) فبالجر بالفتحة نيابة عن الكسرة لكونه غير منصرف، أو مرفوع خبر مبتدأ محذوف، أَيْ: ولا سيما التي هي فاطمة الزهراء البتول من التبتل وهو الانقطاع، وسُميّت البتول لأنها تبتلت وانقطعت للعبادة، كما تسمّى الزهراء لأنها لم تخل ساعة من العبادة والطهر، وكان لا يطرأها الحيض أصلاً فلذلك سميت الزهراء، حتى على أبي بكر وعمر. وقال

العزيزي على "الجامع الصغير": هي أفضل حتى من الخلفاء الأربع بنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولما كانت بضعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقطعة منه قيل: بأنها أفضل النساء على الإطلاق حتى مريم، واعتمد هذا القول بعض أئمة الشافعية، ولذلك كان الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام الأئمة يقول: أنا لا أُقدّم بضعة رسول اللَّه على أحد، كما في حديث رواه النسائي. والقول بتفضيل مريم مبني على القول بنبوتها والصحيح خلافه.

وهي أصغر بناته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله أبو عمر ورُوِي عن ابن مسعود رفعه. وإنما سميت فاطمة بإلهام من اللَّه لرسوله، إن كانت ولادتها قبل النبوة وإن كانت بعدها فيحتمل بالوحي، لأن اللَّه فطمها أَيْ: منعها وذريتها ومحبيها عن النار يوم القيامة أَيْ: منعهم منها، فأما هي وأبناؤها فالمنع مطلق، وأما من عاداهم فالممنوع عنهم نار الخلود فلا يمتنع دخول بعضهم للتطهير، ففيه بشرى لآله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالموت على الإسلام، وأنه لا يختم لأحد منهم بالكفر.

نظيره ما قاله الشريف السمهودي في خبر الشفاعة لمن مات بالمدينة، مع أنه يشفع لكل من مات مسلمًا، أو أن اللَّه يشاء المغفرة لمن واقع الذنوب منهم، إكرامًا لفاطمة وأبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يوفقهم للتوبة النصوح ولو عند الموت ويقبلها منهم. وأما محبيها ففيه بشرى عميمة لكل مسلم أحبّها، وفيه التأويلات الكثيرة. وورى الخطابي: ابْنَتِي فَاطِمَةُ

حَوْرَاءُ آدَمِيَّةٌ لَمْ تَحِضْ وَلَمْ تَطْمُثْ.

وتزوّجت بعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في السنة الثانية من الهجرة. واختُلف في أي شهر على أقوال، فقيل: في أول المحرم أو في صفر أو رجب أو رمضان أقوال. وبنى عليها علِيّ بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف، وكان سنها حينئذ خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف شهر، وكان سن علِيّ إذ ذاك إحدى وعشرين سنة وأشهرًا.

وكانت فاطمة أحبّ أهله إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان إذا أراد سفرًا يكون آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها بعد صلاة ركعتين بالمسجد.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني. رواه الشيخان.

ورُوِي عن عائشة: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيها مشية رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: مرحبًا بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه، ثم أَسَرَّ إليها حديثًا فبكت، ثم أَسَرَّ إليها حديثًا فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم أقرب فرحًا من حزن، فسألتها عما قال؟، فقالت: ما كنت لأفشي على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سر، فلما قُبِض سألتها فأخبرتني: إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحوقًا بي. ونعم السلف أنا لك، فبكيت، فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء العالمين؟. فضحكت.

وتوفيت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بستة أشهر لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، وسنها تسع وعشرون سنة. ورُوِي: أنها قالت لأسماء بنت عميس: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء يطرح على المرأة الثوب على نعشها، فيصف جسدها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئا رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة، فحنتها أَيْ: أمالتها، ثم طرحت عليها ثوبًا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلِيّ، ولا يدخل علَيَّ أحد. الحديث.

وروى أحمد في "المناقب" والدولابي عن أم رافع: مرضت فاطمة فلما كان اليوم الذي توفيت فيه، قالت لي: يا أمه أسكبي لي غسلاً، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ولبست ثيابًا جددًا، ثم قالت: اجعلي فراشي وسط البيت فجعلته واضطجعت عليه في وسط البيت ووضعت يدها اليمنى تحت خدها، ثم استقبلت القبلة، وقالت: إني مقبوضة الآن، فلا يكشفني أحد ولا يغسلني، ثم قبضت مكانها، ودخل علي فأخبرته بالذي قالت، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك، ولم يكشفها ولا غسلها أحد اه.

وهذا مخالف لخبر أسماء بنت عميس المتقدّم، ولا يمكن الجمع بينهما لكن هذه الرواية مقدّمة، لأن الأصل عدم الخصوصية.

قال أبو عمر: وفاطمة أول مَن غطي نعشها على الصفة المذكورة في خبر أسماء المتقدّم، ثم بعدها زينب بنت جحش أم المؤمنين صنع بها ذلك أيضًا.

وفي "البخاري" عن عائشة: أن عليًا صلَّى عليها. وروى ابن سعد عن عمرة قالت: صلَّى العباس على فاطمة، ونزل هو وابنه الفضل وعلِيّ في حفرتها ولا خلف فكل صلَّى عليها، والإمام العباس لأنه عمه فقدّمه. وروى البخاري عن عائشة: لما توفيت فاطمة دفنها زوجها علِيّ ليلاً، ولم يؤذن بها أبا بكر.

واختُلِف في محل دفنها، فقيل: أنها في المسجد الشريف بقرب والدها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأشهر أنها في قبة ولدها الحسن قرب محرابه. وكان القطب أبو العبَّاس المرسي يجزم بهذا، ولعله كُوشِف به.

وولدت لعلِيّ الحسن والحسين ومُحَسِّنًا -بضم الميم وفتح الحاء المهملة وكسر السين المشددة- هكذا ضبطه الزرقاني، وضبطه الشيخ الجمل عن "سيرة الشامي" بفتح الميم، وهذا مات صغيرًا. وأم كلثوم وزينب.

ولم يكن له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عقب إلا منها، فانتشر نسله من جهة السبطين فقط، وتزوّج عمر بن الخطّاب أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فولدت ذكرًا وأنثى وماتا صغيرين، ثم بعد عمر تزوّجت بعون بن جعفر، ثم بعد موته تزوَّجت بأخيه محمد ثم بأخيه عبد اللَّه، ولم تعقب منهم شيئًا، ثم تزوّج الأخير وهو عبد اللَّه بن جعفر بأختها زينب فولدت له عدة منهم: علي وأم كلثوم، وانتشر نسلها، ولهم شرف أعلى من شرف عبد اللَّه من غير زينب، وأدنى من شرف أولاد الحسين لمزيتهما بما ورد فيهما.

ولجعفر الصادق ولد اسمه إسحاق تزوَّج بالسيدة نفيسة بنت الحسن

الأنور بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، ولد منها القاسم وأم كلثوم، ولم يعقبا.

قال السيوطي في "الخصائص الكبرى": ويطلق على أهله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأشراف والواحد شريف، وهم أولاد علِيّ وعقيل وجعفر والعباس، هذا ما اصطلح عليه السلف، وإنما حدّث تخصيص الشريف بولد الحسن والحسين في مصر خاصَّة في عهد الخلفاء الفاطميين. ومذهب الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن الشرف مختص بكونه من علِيّ وفاطمة فقط، وبكونه من الآباء من جهة الأمهات.

(والحسن والحسين) بالجر والرفع فيهما. أَيْ: ولا مثل الذي هو الحسن والذي هو الحسين، سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا جدهما وسيدا الشهداء.

رُوِي: أن فاطمة أتت بهما إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شكواه الذي قُبِض فيه، فقالت: يا رسول اللَّه هذان ابناك، فورّثهما، فقال: أما حسن فإن له هيبتي وسؤددي، وأما حسين فإن له جودي وجرأتي.

وروى البغوي وغيره: سَمَّى هارُون ابنَيهِ شَبَرًا وشُبَيرًا، وإِنّي سَمَّيتُ ابنَيَّ الحَسَن والحُسَين. وأخرج الترمذي وفي نسخة: اللهم هذان ابناي وأبناء ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما. وأخرج أيضًا: أحب أهل بيتي إلَيَّ الحسن والحسين.

وأخرج أحمد وابن ماجه: من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني. وجاء من طرق: أبناي الحسن والحسين سيدا

شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما.

وفي هذا حجة لما عليه أهل السنة أن الأئمة الأربعة الخلفاء أفضل من أهل البيت، نعم ما فيهم من البضعة الكريمة لا يعادله عمل. وبهذا يوجه قول بعض المتأخرين بتفضيل الحسنين على غيرهما أَيْ: من حيث تلك البضعة، وإن كان غيرهما ممن ذكر أفضل منهما علمًا وعملاً ومعرفة.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سيدا شباب الجنة. مشكل لأنهما ماتا غير شابين بل بعد مجاوزة الأربعين، ولأن الجنة ليس فيها شباب، لأن الوارد أن جميع الناس من أهل الجنة يكون على خلقة أبناء ثلاث وثلاثين وهو سن الكهولة وأعدل الأسنان، وحينئذ فليس في الجنة شباب ولا شيوخ.

ويُجاب: بأن المراد بالشباب الذين ماتوا شبابًا فهما سيدا هؤلاء من غير استثناء، بخلاف من مات كهلاً أو شيخًا، فإنه قد يسودهما كالخلفاء الأربعة.

فالحاصل أنهما سادة شباب الناس على الإطلاق وغير الشباب، فيه تفصيل، فلذا ذكر الشباب فقط، وما تقدّم من أن الناس في الجنة يكونون في سن ثلاث وثلاثين سنة مشكل، إذ مقتضاه أن من مات صغيرًا يدخل ابن ثلاث وثلاثين، وأن الشيخ عمره مائة سنة يدخلها وهو ابن ثلاث وثلاثين.

ويُجاب: بأن المراد أن أهل الجنة كلهم مستوون في الصفة ومستوون في القوة التي قوة أبناء ثلاث وثلاثين، فالشيخ والصغير والشاب كلهم مستوون في هذه الصفة وهي القوة، وبهذا يجاب عن كثير مما يستشكل

في هذا المقام.

وفي "الجامع الصغير" للسيوطي: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. رواه الإمام أحمد والترمذي عن أبي سعيد، والطبراني عن عمرو وعن جابر وعن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط عن أسامة بن زيد، وعن البراء، وابن عدي عن ابن مسعود.

وفيه أيضًا: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما. رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمرو، والطبرني في "الكبير" عن ابن مسعود. وفيه أيضًا: الْحسن وَالْحُسَيْن سيدا شباب أهل الْجنَّة إِلَّا ابْني الْخَالَة عِيسَى بن مَرْيَم وَيحيى بن زَكَرِيَّا.

وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران. رواه الإمام أحمد والبيهقي في "شعب الإيمان"، والطبراني في "الكبير"، والحاكم عن أبي سعيد.

وفيه أيضًا: الحسن مني والحسين من علِيّ. رواه الإمام أحمد وابن عساكر عن المقدام بن معدي كرب. وفيه: الحسن والحسين سيفا العرش وليسا بمعلقين. رواه الطبراني في "الأوسط" عن عقبة بن عامر الجهني.

وكانت ولادة سيدنا الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة في نصف شعبان سنة ثلاث من الهجرة، ومات شهيدًا وسبب موته: أن يزيد بن معاوية - عامله الله بما يستحق- أرسل إلى زوجته جعدة الكندية أنها تسمه ويتزوّجها، وبذل لها مائة ألف درهم ففعلت، ومرض أربعين يومًا.

ودخل عليه أخوه الحسين وألَحَّ عليه أن يخبره بمن سمَّهُ فأبى. وقال:

الله أشد نقمة، وأجد كبدي يتقطّع، وإني لعارف من أين دهيت، فبحقي عليك لا تكلمت بذلك بشيء، وأن لا تريق في أمري محجمة دم.

ومن كلامه لأخيه لما احتضر: يا أخي إن أباك استشرف لهذا الأمر المرة بعد المرة، فصرفه الله عنه إلى ثلاثة قبله، ثم وُلِّي فنوزع حتى جرد السيف، وإني والله ما أرى أن يجتمع فينا بيت النبوة والخلافة، وقد كنت طلبت من عائشة أن أُدفن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا أنا مت فاطلب منها وإلا سيمنعوك فإن فعلوا فلا تراجعهم.

فلما مات سأل الحسين عائشة فقالت: نعم وكرامة. فمنعهم مروان لأنه كان واليًا بالمدينة ودُفِن بالبقيع إلى جنب أمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فبعثت ليزيد بما وعدها فأبى. وفي سنة موته أقوال والأكثرون على أنها سنة خمسين.

وُلِّي الخلافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أبيه وتركها زهدًا وصيانة لدماء المسلمين، وتصديقًا لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به طائفتين -فئتين- من المسلمين. وقد حقق ذلك.

فإن أباه كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُمَا لما توفي تولَّى الخلافة بمبايعة أهل الكوفة، فكان آخر الخلفاء الراشدين بنص جده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله في الحديث الصحيح: الخلافة بعدي ثلاثون سنة. فمدة خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي الستة أشهر الباقية منها، وعند مضيها سار إلى معاوية في أربعين ألفًا.

فلما تراءى الجمعان علم الحسن أنه لم تغلب الطائفتين حتى يذهب أكثر الأخرى فرضي بالنزول لمعاوية عن الخلافة شفقة على الأمة بشروط قبلها معاوية، فنزل له وحينئذ صار هو الإمام الحق، وقبل ذلك كان متغلبًا،

لكن لاجتهاده لم يكن آثمًا بل مأجورًا.

وكانت ولادة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخمس خلون من شعبان سنة أربع ومات مقتولاً شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاء من طرق: أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء إلى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره أن الحسين مقتول، وأراه من تراب الأرض التي يُقتل فيها، فأعطاه لأم سلمة، وأخبرها أن يوم قتله يتحوّل دمًا، فكان كذلك، وشمَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك التراب وقال: ريح كربلاء.

وسببها: أن يزيد لما استخلف سنة ستين أرسل لعامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة على الحسين، ففرّ إلى مكة خوفًا على نفسه، فأرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم ليبايعوه ويزيل ما هم فيه من الجور، فنهاه ابن عباس وبيَّن له غدرهم وقتلهم لأبيه وخذلانهم لأخيه، وأمره أن لا يذهب بأهله إن ذهب فأبى.

وقدَّم أمامه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفًا، فأرسل إليه يزيد ابن زياد فقتله، وسار الحسين غير عالم بذلك، فلقيه أوائل خيل ابن زياد فعدل إلى كربلاء، فجمع إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل.

فلما وصلوا إليه قاتلوه فحارب ذلك العدد الكثير، ومعه من أهله نيف وثمانون، وقُتِل من أهله خمسون، فثبت في ذلك الموقف ثباتًا باهرًا حتى فنيت أصحابه وبقي بمفرده، فحمل عليهم وقتل منهم كثيرًا من شجعانهم، فكثروا عليه حتى أثخنوه بالجراح، لأنه طُعِن إحدى وثلاثين طعنة،

وضُرِب أربعًا وثلاثين ضرب.

وغلب عليه العطش فأحالوا بينه وبين الماء، فسقط إلى الأرض، فحزُّوا رأسه الشريف يوم الجمعة عاشر المحرم عام إحدى وستين. وقيل: أن يزيد أرسل الرأس الشريف ومن بقي من أهل الحسين إلى المدينة، فكُفّن الرأس ودُفِن في قبر أمه في قبة أخيه الحسن. وقيل: أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يومًا من قتله.

وفي بعض الشُّرَّاح على هذا المولد: أنه لما نهاه ابن عبَّاس فأبى الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكى ابن عباس قال: وا حسيناه، وكذلك نهاه عبد اللَّه بن الزبير، بل لم يبق أحد بمكة إلا وحزن لمسيره. ولما بلغ أخاه محمد ابن الحنفية بكى حتى ملأ طستًا بين يديه.

فبايع من أهل الكوفة اثني عشر ألفًا فبعث إليه يزيد عبد الله بن زياد بجيوش كثيرة، وسار الحسين غير عالم بذلك، فلقيه الفرزدق فسأله فأخبره فقال له: قلوب الناس معك وقلوبهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء.

ثم سار فلقيه أوائل خيل ابن زياد فعد على كربلاء، فلما وصلوا إليه التمسوا منه النزول على حكم ابن زياد وبيعته ليزيد، فأبى فقاتلوه، وكان أكثر مقاتليه الكاتبين المبايعين له، فلما جاءهم فرُّوا عنه إلى عدوه.

فحارب ذلك العدد الكثير، ومعه نيف وثمانون من أهل بيته، فثبت في ذلك الموقف ثباتًا باهرًا وقاتل قتالاً شديدًا، ولو أنهم أحالوا بينه وبين الماء لما قدروا عليه.

ولما استمر القتل في أهله حتى بلغوا خمسين صاحَ: أما ذابٌّ عن حريم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج يزيد بن الحارث راجيًا لشفاعة جده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقاتل بين يديه حتى قُتِل جميع أصحابه.

ولم يزل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقاتل حتى بقي بمفرده، فحمل عليهم وقتل عددًا كثيرًا من شجعان بني أمية، فكثروا عليه حتى حالوا بينه وبين حريمه، وصاحَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كفوا سفهاءكم عن النساء والأطفال، فكفوا.

ولما يزل يقاتلهم حتى طُعِن إحدى وثلاثين طعنة، وضُرِب أربعًا وثلاثين ضربة، ومع ذلك غلب عليه العطش فسقط على الأرض.

وذلك يوم الجمعة عاشر المحرم، وحزَّ رأسه قاتله ووضعه بين يدي ابن زياد مفتخرًا أنه قتل خير الناس، فأمر ابن زياد بضرب عنقه، وقال: إن علمت كذلك فلِمَ تقتله!؟.

وفي قصته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يشين الأسماع والأبصار، فلذلك اقتصرنا فيها خوفًا من الملل والسآمة، فإن ذكر هذه القصة مما لا يسع المؤمن سماعها ولا النظر فيها.

ولما قُتِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من جملة أهل البيت أخته سيدتنا السيدة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شقيقة الحسنين وزوجة ابن عمها عبد اللَّه الجواد بن جعفر الطيَّار ذي الجناحين ابن أبي طالب. ذكر ابن الأنباري: أنها لما قُتِل أخوها الحسين أخرجت رأسها من الحنا وأنشدت رافعة صوتها رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا تقول:

مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ... مَاذَا فَعَلْتُمْ وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ

بِعِتْرَتِـي وَبِـأَهْلِي بَعْـد فـرقتِكُمْ   مُـنْهُمْ أُسَـارَى وَمِـنْهُم خُضِّـبُوا بِـدَمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي إِذْ نَصَحْتُ لَكُمْ   أَنْ تَخْلُفُونِي بِسُوءٍ فِي ذَوِي رَحِمِي

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام نصف النهار أشعث أغبر، بيده قارورة فيها دَم، قلتُ: يا رسول الله ما هذا؟، قال: دم الحسين أرفعه إلى الله عزَّ وجلَّ. فجاء الخبر بعد أيام أنه قُتِل ذلك اليوم وفي تلك الساعة. رواه البيهقي.

وسُمِعت الجن تنوح عليه، كما أخرجه أبو نعيم غيره. وكسفت الشمس وقت قتله كسفة أبدت الكواكب نصف النهار، واحمرت آفاق السماء ستة أشهر يُرى فيها كالدم. وقد قيل: أن الحمرة التي في الشفق من آثار ذلك، وأنها لم تكن قبل قتل الحسين، وحكمة ذلك أن الغضب يورث حمرة الوجه، والحقُّ منزّهٌ عن الجسمية، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق.

ومكثت الشمس سبعة أيام ترى الحيطان كالملاحف المعصفرة، والكواكب يضرب بعضها بعضًا. وقيل: أنه لم يقلب حجر ببيت يومئذ إلا وُجِد تحته دم عبيط. وكان في عسكرهم ورس فصار رمادًا، ونحروا ناقة في عسكرهم فصاروا يرون في لحمها مثل الفيران، وطبخوها فصارت كالعلقم.

وعن الزهري: ولم يبق أحد ممن حضر قتل الحسين إلا عوقبِ في الدنيا قبل الآخرة، إما بالقتل أو سواد الوجه أو تغير الخلقة، أو زوال الملك في مدة يسيرة.

وروى سبط ابن الجوزي: أن شيخًا حضر قتله فقط فعمى، فسئل عن سببه فقال: رأيتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاسرًا عن ذراعيه وبيده سيف، وبين يديه نطع وعليه عشرة ممن قتلوا الحسين مذبوحين، ثم لعنني وسبّني ثم أكحلني بمِرْوَد من دم الحسين فأصبحت أعمى.

وأخرج أيضًا: أن شخصًا علّق رأسه الكريم في لبب فرس، فرؤي بعد أيام ووجهه أشد سوادًا من القار -أَيْ: الزفت- فقيل له: إنك كنت أنضر العرب وجهًا، فقال: ما مرت علَيَّ ليلة من حين حملت ذلك الرأس إلا واثنان يأخذان بضَبُعي ثم ينتهيان بي إلى نار تتأجَّج فيدفعاني وأنا أنكص فتسعفني كما ترى، ثم مات على أقبح حالة.

وأخرج أيضًا عن السُّدِّي: أنه ضاف رجلاً بكربلاء فتذكروا أنه ما شرك أحد في دم الحسين إلا مات أقبح موتة، فكذب المضيف وقال: أنا ممن حضر موته ولم يحصل لي شيء، فقام آخر الليل يصلح السراج فوثبت النار في جسده فأحرقته وهو يتكلم. قال السُّدِّي: وأنا والله رأيته كأنه حُمَمة.

ولما ساروا بالرأس الشريف يريدون به -أَيْ: بالرأس الشريف- يزيد ونزلوا أول مرحلة جعلوا يشربون الخمر، فبينما هم كذلك إذ خرجت عليهم من الحائط يد معها قلم حديد فكتبت سطرًا بدم بيت شعر:

أَتَرْجُو أُمَّةٌ قَتَلَتْ حُسَيْنًا   شَفَاعَةَ جَدِّهِ يَوْمَ الْحِسَابِ

وروى ابن خالوَيْه عن الأعمش عن منهال بن عمرو الأسدي قال: والله رأيتُ رأس الحسين حين حُمِل وأنا بدمشق وبين يديه رجل يقرأ سورة

الكهف حتى بلغ: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبًا﴾، فنطق الرأس الشريف بلسان عربي فصيح فقال جهارًا: أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي اه.

ويُروى: أن قاتل الحسين لما قتله وأُتِي به إلى ابن زياد قال:

أَوْقِرْ رِكَابِي فِضَّةً وَذَهَبَا   أَنَا قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا
قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمًّا وَأَبَا   وخَيْرُهُم إِذْ يُنْسَبونَ نَسَبَا

فغضب ابن زياد وقال: إذا علمت ذلك فلمَ قتلته؟!، والله لا نلت مني خيرًا ولألحقنك به، ثم ضرب عنقه.

وأخرج الحاكم في "المستدرك" وصحَّحهُ وقال الذهبي في "التلخيص": على شرط مسلم، عن ابن عباس قال: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنِّي قَتَلْتُ بِيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا سَبْعِينَ أَلْفًا، وَإِنِّي قَاتِلٌ بِابْنِ ابْنَتِكَ سَبْعِينَ أَلْفًا وَسَبْعِينَ أَلْفًا. وقال الحافظ ابن حجر: ورد من طريق واهٍ.

عن عليٍّ عن المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ قَاتِلَ الْحُسَيْنِ فِي تَابُوتٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ. وأخرج أبو يعلى عن أبي عبيدة مرفوعًا: لَا يَزَالُ أَمْرُ أُمَّتِي قَائِمًا بِالْقِسْطِ حَتَّى يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَثْلَمُهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ. وأخرج الروياني مرفوعًا: أَوَّل مَنْ يُبَدِّلُ سُنَّتِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ.

وقد الإمام أحمد بكفره، وناهيك به ورعًا وعلمًا يقتضيان أنه لم يقل ذلك إلا لما ثبت عنده من أمور صريحة وقعت منه توجب ذلك، ووافقه

على ذلك جماعة كابن الجوزي وغيره.

وأما فسقه فقد أجمعوا عليه، وأجاز قوم من العلماء لعنه بخصوص اسمه. ووُرِى ذلك عن الإمام قال ابن الجوزي: صنّف القاضي أبو يعلى كتابًا فيمن يستحق اللعنة وذكر منهم يزيد.

واختلفوا في رأس الحسين بعد مسيره إلى الشام إلى أين صار وفي أيِّ موضع استقر؟، فذهبت طائفة على أن يزيد أمر بأن يطاف برأسه الشريف في البلاد، فطيف به حتى انتهى إلى عسقلان، فدفنه بها أميرها بها.

فلما غلب الأفرنج على عسقلان افتداه منهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمال جزيل، ومشى إلى لقائه من عدة مراحل، ووضعه في كيس حرير أخضر على كرسي من خشب الأبنوس، وفرش تحته المسك والطيب.

وبنى عليه المشهد الحسيني المعروف بالقاهرة قريبًا من خان الخليلي، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل في قصيدة مدح بها الصالح.

وهذا هو الذي عليه طائفة من الصوفية الذين جزموا بأنه بالمشهد الحسيني القاهري بقرب الجامع الأزهر، الذي ذكر أولاً، وأن القطب يزوره كل يوم.

وذكر بعذ الأفاضل: أن حضور الرأس الشريف على يد طلائع المذكور، وأنه تلقاه من الصالحية فارشًا الأبسطة إلى هناك في موكب عظيم ماشين فيه حفاة، وكان ذلك سنة خمسمائة وخمسة وأربعين.

ودفنه في المشهد الحسيني القاهري المذكور آنفًا، وعليه من الوقار

والجمال ما يليق بهذا الجناب العظيم.

وقال الشيخ الصبان في رسالته عن أهل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وقد جدَّد ذلك المشهد الحسيني القاهري سنة خمس وسبعين ومائة وألف الأمير الكبير والكتخذي الشهير حضرة الأمير عبد الرحمن كتخذا حَفِظَهُ اللَّهُ من مكائد العداء، فزاده نورًا على نوره وجدد للمسلمين، تقبّل الله منه عمله وبلّغه في الدارين عمله آمين.

وقد وقع لشيخ العارفين وأستاذ أهل زمانه الشيخ كريم الدين الخلوتي نَفَعَنَا اللَّهُ بِهِ واقعة في المنام تدل على وجودها فيها وفيها الأمر من الحضرة الإلهية بزيادة ذلك المشهد الشريف، فواظبَ على زيارته يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وصار يومًا مشهورًا تجتمع فيه خلق كثير من الزُّوَّار يرجون بركته، ثم لم تزل كذلك إن شاء الله تعالى إلى يوم القيام اه.

قلتُ: وقد وقع في زماننا هذا أن رجلاً من أهل الجذب يقال له الشيخ عثمان، وكان قاطنًا وملازمًا لمسجد سيدنا الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أستاذنا الشيخ إبراهيم الباجوري يقرأ درس الفقه فيه والشيخ عثمان المذكور يحضر عليه، فقال الشيخ عثمان للشيخ: إني دعوت سيدنا الحسين في هذا اليوم فلم يرد عليَّ مثل العادة كل يوم، وقال -أَيْ: الشيخ عثمان- للأستاذ: إني متوسل بك عند الحسين، فقال الأستاذ للشيخ عثمان: هذا ليس بمقامي، ولكن نقرأ الفاتحة لسيدنا الحسين، فقرأها مع الحاضرين، فذهب الشيخ عثمان لجهة القبة الشريفة ورجع وقال للأستاذ: الحمد لله تقبّل الله شفاعتك وقراءتك وردَّ عليَّ الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اه.

قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (و) لا سيما (سائر) بالرفع والجر أيضًا كما تقدَّم أَيْ: باقي (الأهل) أَيْ: أهل بيته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تقدَّم في أول الكتاب الكلام عليهم، وأنه ربما يكون أقوالاً، ففي مقام الزكاة مؤمنو بني هاشم والمطلب، وفي مقام الدعاء كل مؤمن ولو عاصيًا، إذ هو أحوج للدعاء من غيره، وفي مقام المدح كل تقي اه شيخنا "الباجوري على الغزي".

(ومن تبعهم) أَيْ: وكل من تبع الأهل (بإحسان) الباء بمعنى مع أَيْ: مع إحسان أَيْ: مطلق الإحسان ولو بمجرد الإيمان إذ يصدق عليه أنه إحسان.

(اللهم صل وسلم على الذات المحمدية واغفر لنا ما يكون وما قد كان)

ثُـمَّ ارْفَعُـوا أَيْـدِيَكُـمْ يَـا مَعْشَـرَ الحَاضِـرِينَ وَالسَّـامِعِينَ إِلَـى الَّتِـي هِـيَ قِبْلَـةُ الدَّعَوَاتِ العَلِيَّة ۞ فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابٌ عِنْدَ هذَا المَكَان ۞ اللَّهُـمَّ لَـكَ الحَمْـدُ كَمَا يَلِيقُ بِكَ وَكَذَا الشُّكْرُ يَا مَنْ لَكَ الصِّفَاتُ السَّنِيَّة ۞ نَسْـأَلُكَ اللَّهُـمَّ بِـذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ الحِسَـان ۞ أَنْ تُصَـلِّي وتُسَـلِّمَ عَلـى سَـيِّدِنَا وَمَوْلَانَـا مُحَمَّـدٍ بِقَدْرِ عَظَمَتِكَ الذَّاتِيَّة ۞ وَآلِهِ وَصَحْبِه وَسَائِرِ الخِلَّان ۞ وَنَسْأَلُكَ اللَّهُـمَّ بِاسْـمِكَ العِظَـيِمِ الأَعْظَـمِ وَرِضْـوَانِكَ الأَكْبَـرِ ذِي الأَنْـوَارِ السَّـطْوَانِيَّة ۞ وَنَسْـأَلُكَ اللَّهُـمَّ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ يَا حَنَّان ۞ الَّذِي إِذَا دُعِيت بِهِ أَجَبْت وَإِذَا سُئِلْت بِهِ أَعْطَيْت أَوْفَرَ عَطِيَّة ۞ وَإِذَا اسْتُرْحِمْت بِهِ رَحِمْت وَأَنْت أَهْلُ الرَّحْمَةِ يَا رَحْمَن ۞ وَإِذَا اسْتُفْرِجْت بِهِ فَرَّجْت أَنْ تُفَرِّجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِـنَ الأَضْـيَاقِ الكَـدَرِيَّة ۞ وَأَنْ تَأْخُذَ بِيَدِ كُلٍّ مِنَّا إِلَى مَقْصِدِه يَا وَاسِعَ الوُهْبَان ۞ وَأَنْ تُهَيِّئَ لَنَا مِنَ الأَسْـبَابِ مَا تُخرِجُنَا بِهِ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ الرَّدِيَّة ۞ وَأَنْ تَنْقُلَنَا إِلَى حَضْرَةِ الجُودِ وَالوُسْـعَان ۞ وَأَنْ تُدْخِلَنَا فِي شَـفَاعَةِ نَبِيِّـكَ سَـيِّدِنَا وَمَوْلاَنَـا مُحَمَّـدٍ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ العُمُومِيَّةِ وَالخُصُوصِـيَّة ۞ وَأَنْ تَرْزُقَنَـا جِـوَارَهُ فِـي أَعْلَـى الجِنَـان ۞ وَأَنْ تُمَتِّعَنَـا بِأَسْـمَاعِنَا وَأَبْصَـارِنَا وَالقُـوَّةِ البَدِيعِيَّـة ۞ وَأَنْ تَكْفِيَنَـا شَـرَّ البَـرَصِ وَالجُـذَامِ وَالأَمْرَاضِ وَالجُنَان ۞ وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَمِحْنَةٍ وَعَاهَـةٍ وَزَلْزَلَـةٍ وَشِـدَّةٍ وَعَصَـبِيَّة ۞ وَذِلَّـةٍ وَغَلَبَـةٍ وَقِلَّـةٍ وَجُـوعٍ وَعَطَـشٍ وَمَكْـرٍ وَأَنْ نُهَـان ۞ وَفَقْـرٍ وَفَاقَـةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى مَخْلُوقٍ وَضِيقٍ وَوَبَاءٍ وَبَلَاءٍ وَغَـرَقٍ وَحَـرَقٍ وَفِتْنَـةٍ فِـي الـدِّينِ وَالـدُّنْيَا الحَقِيرِيَّة ۞ وَحَرٍّ وَبَرْدٍ وَسَرْقٍ وَنَهْبٍ وَغَيٍّ وَضَلَالَةٍ وَتُهْمَةٍ وَزَلَلٍ وَطُغْيَان ۞ وَهَمٍّ وَغَمٍّ وَخَطَأٍ وَمَسْخٍ وَقَذْفٍ وَخَسْفٍ وَعِلَّةٍ وَهَامَّةٍ وَفَضِيحَةٍ صَوْلِيَّة ۞ وَهَلَكَةٍ وَخَلَّةٍ

وَعِقَابٍ وَعَذَابٍ وَمَعْصِيَةٍ وَقَبِيحَةٍ فِي الدَّارَان ۞ وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنَ الِاسْتِدْرَاجِ وَالأَخْذِ وَالجوْرِ وَالظُّلْمِ وَالسِّحْرِ وَالحَسَدِ والغَدْرِ وَالكَيْدِيَّة ۞ وَالعَدَاوَةِ وَالقَدْحِ وَالحِيَلِ وَالشَّمَاتَةِ وَالكَشْحِ وَالإِطْعَان ۞ وَنَسأَلُكَ اللَّهُمَّ المَغْفِرَة وَالهِدَايَةَ وَالخَشْيَةَ وَالعِنَايَةَ وَالرِّعَايَةَ وَاللُّطْفِيَّة ۞ وَالوَرَعَ وَالزُّهْدَ وَالتَّوَكُّلَ وَالإِقْبَالَ وَاللُّطْفَان ۞ وَالكَمَالَ وَالجَلَالَ وَالجَمَالَ وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الطَّاهِرَةِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاقْضِ اللَّهُمَّ لِكُلٍّ مِنَّا مَا فِي نَفْسِه مِنَ الحَاجَاتِ يَا وَاهِبَ المَقْصُودِ يَا خَيْرَ مَنْ أَعْطَى السُّؤْلَان ۞ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ وَنَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّة ۞ يَا سَيِّدَنَا مُحَمَّدُ يا أَحْمَدُ يَا أَبَا القَاسِمِ يَا رَسُولَ اللهِ -ثَلَاثًا- إِنَّا تَوَجَّهْنَا بِكَ إِلَى رَبِّنَا فِي حَوَائِجِنَا جَمِيعِهَا لِتُقْضَى ۞ اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِينَا بِجَاهِهِ عِنْدَكَ يَا سُلْطَان -ثَلَاثًا- ۞ وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ السِّترَ وَالصِّيَانَةَ وَالسِّرَّ وَالصَّلَاحَ وَالمُكَاشَفَةَ وَالبَرَكَةَ وَالبِرَّ وَالمَغْفِرَةَ فِي الأُولَى وَالأُخْرَوِيَّة ۞ وَلا تَفْضَحْنَا اللَّهُمَّ بَيْنَ عِبَادِكَ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ يَا مَعْرُوفًا بِالسِّتْران ۞

ولما وعدَ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فيما تقدَّم في الخطبة في قوله هناك: وبشَّرني أنه يحضر في قراءته وأنه يستجاب الدعاء عند ذكر الولادة وعند الفراغ منه أَيْ: من هذا المولد الشريف.

ذكرَ نبذة من الدعاء لورود السنة به في مواضع كثيرة، ولورود رفع اليدين في الدعاء فقال: (ثم ارفعوا أيديكم) لطلب الدعاء، إذ السُّنَّة كما تقدَّم عن ابن العماد في كيفية الرفع حيث قال:

وَامدُد يَديكَ وَسَل فَاللَّهُ ذو كَرمٍ وَاطلُب كَثيرًا وَقُل يا مُنَجِحَ الأَمَلِ
بِبَسطِ كَفٍ خُذ الأَقوالَ ثالِثُها عِندَ البَلاءِ بِظَهرِ الكَفِ مبتَهِلِ

إلخ ما تقدَّم.

وقوله: (يا معشر) المعشر معناه الجماعة أَيْ: يا جماعة. وقوله: (الحاضرين) صفة لموصوف محذوف مذكر أَيْ: الرجال الحاضرين (و) الرجال (السامعين) أَيْ: ارفعوها (إلى) السماء (التي) متعلق بارفعوا. وقوله: (هي قبلة) إلخ نعت للسماء، و (الدعوات) بفتح الدال والعين المهملة: جمع دعوة بفتح الدال أيضًا: مصدر يراد به الدعاء.

وقوله: (العلية) أَيْ: المرتفعة وهو بفتح العين المهملة فهي كالقبلة للصلاة، فلا يتوهم أن المدعو جل جلاله وتقدّس شأنه وعظم سلطانه، لا يخطر بالبال أنه في جهة العلو.

ورفع اليدين في الدعاء وارد في السنة، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه، والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة كاد أن لا يمكن حصرها ويطول سردها، وفيها رد على القائل

بعدم الرفع إلا في الاستسقاء لحديث أنس الصحيح: لم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء.

وأجيب: بأن المنفي صفة خاصة لا أصل الرفع، فالرفع في الاستسقاء يخالف غيره إما بالمبالغة إلى أن تصير اليدان في حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى المنكبين، أو رؤية بياض إبطيه في الاستسقاء أبلغ منها في غيره، وأن الكفين في الاستسقاء يليان الأرض وفي الدعاء يليان السماء. ذكره في "إرشاد الساري على البخاري".

وعلَّل ذلك أَيْ: قوله: ارفعوا أيديكم بقوله: (فإن الدعاء) أَيْ: الموعود به (مستجاب) أَيْ: مجاب فالسين والتاء زائدتان أَيْ: تفضُّلاً من اللَّه لا وجوبًا عليه، (عند هذا المكان) أَيْ: عند آخر باب في هذا المولد، وهو الفراغ من قراءته لما تقدَّم من الوعد به المذكور هناك.

ولما كان كل إنسان لا يخلو من أكدار الدنيا وبلاياها كما قال القائل:

لم يدر طعم الفقر من هو في غنى ... ومصحح الأعضاء ليس كمبتلي
كم فاقةٍ مستورة بمروءةٍ ... وضرورةٍ قد غطيت بتجمل
وكم ابتسام تحته قلبٌ شجي ... لو خالطته شدّةٌ لا تنجلي
لو سوَّد الهم الملابس لم تجد ... بيض الثياب على امرئ في محفل
والناس طُرًّا عند كل كفوؤه ... والهم مفترق وما أحدٌ خلي
وإذا أراد المرء تجلى همه ... عن نفسه من نفسه لا ينجلي

وكل إنسان يحكم بطبعه على غيره كما حُكِي عن سيدنا يوسف عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه كان لا يشبع نفسه قط مع ملكه وغناه، فقيل

لك في ذلك، فقال ما معناه: لئلا أنسى الفقير الجائع اه. وطلب الدعاء لكل إنسان بما يليق به.

تنبيه: اختُلِف هل الدعاء أفضل أم تركه والاستسلام للقضاء أفضل؟. فقال الجمهور: الدعاء أفضل وهو من أعظم العبادة، ويؤيده ما أخرجه الترمذي في الدعوات من حديث أنس رفعه: الدعاء مخ العبادة. أَيْ: خالصها لأن الداعي يدعو اللَّه عند انقطاع أمله عما سواه، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقها، فكان مخها بهذا الاعتبار.

وأيضًا لما فيه من إظهار الافتقار والتبرىء من الحول والقوة وهو سمة العبودية، واستشعار ذلة البشرية، ومتضمن للثناء على اللَّه، وإضافة الكرم والجود إليه سبحانه وتعالى.

وقد تواترت الأخبار عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالترغيب في الدعاء والحث عليه كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: الدعاء هو العبادة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وقوله: الدعاء مفتاح الرحمة. رواه الديلمي. وعند أبي يعلى والحاكم عن علِيّ مرفوعًا: أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يُنْجيكُمْ مِنْ عَدُوِّكمْ وَيَدِرُّ لَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ؟ تَدْعُونَ اللَّهَ فِي لَيْلِكُمْ وَنَهَارِكَمْ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ سِلاحُ المؤْمِنِ. وعماد الدين ونور السماوات والأرض. ولأبي الشيخ والديلمي من حديث أبي موسى: الدعاء جند من أجناد اللَّه يرد القضاء بعد أن يبرم.

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد والبخاري في "الأدب المفرد" والبزَّار عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من لم يسأل اللَّه يغضب عليه. أَيْ: لأنه

إما قانط أو مستكبر وكُلٌّ موجب للغضب. قال الطيبي: معناه من لم يسأله يبغضه والمبغض مغضوب عليه، واللَّه يحب أن يسأل. وقال ابن القيم: هذا يدل على أن رضاه في مسألته وطاعته، وإذا رضى تعالى جازى داعيه بقبول دعائه، وهذا عين الرضا للداعي، فكل خير في رضاه كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه.

والدعاء عبادة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فهو تعالى يغضب على من لم يسأله، كما أن ابن آدم يغضب على من يسأله كما قال القائل:

واللَّه يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسْأَل يغضب

قال الحليمي: لا ينبغي أن يُخَلَّى يوم وليلة عن الدعاء، لأن الزمن يوم وليلة عن الدعاء وما وراءهما تكرار، فإذا كان ترك الدعاء أصلًا يوجب الغضب فأدنى ما في تركه يومًا وليلة أن يكون مكروهًا.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لا أحمل هَمَّ الإجابة ولكن هَمَّ الدعاء. لاحتياجه إلى الإخلاص والخضوع والذلة، وذلك لا يتيسر في كل وقت، فإذا أتممت الدعاء علمت أن الإجابة معه" بوعد من لا يخلف الميعاد، وفي هذا يقول القائل:

لو لم ترد نيل ما أرجو وآمله من جود كفِّك ما عودتني الطلبا

يعني: إنه اعتاد منه العطاء والإحسان متى قصده، فعلم أنه لا يريد منعه متى أتاه، إذ لو أراده ما أعطاه كلما أتاه، فاللَّه سبحانه يحب تذلل

عبيده بين يديه وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم منه إليه وعياذتهم به منه، وفرارهم منه إليه، كما قيل:

قالوا أتشكوا إليه   ما ليس يخفى عليه
فقلت ربي يرضى   ذل العبيد لديه

وقالت طائفة: الأفضل ترك الدعاء والاستسلام للقضاء، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بأنَّ آخرها أفهم أنَّ المراد بالدعاء هو العبادة، فكأنه قال: اعبدوني أثبكم. وأجاب الأولون بأن هذا ترك للظاهر.

ولذا قال الشيخ تقي الدين السبكي: الأَوْلَى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط أنَّ الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيد فيه بقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، إنما هو في حق من ترك الدعاء استكبارًا، ومن فعل ذلك كفر.

وأمَّا من تركه لمقصد من المقاصد كالتسليم للقضاء، فلا يتوجّه إليه الوعيد المذكور وإن كنَّا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك لكثرة الأدلة الواردة فيه. ودلَّ قوله تعالى بعد ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أنَّ الإجابة منوطة بالإخلاص اه.

وقال القشيري في "الرسالة": اختلف أَيّ الأمرين أَوْلَى الدعاء أو السكوت والرضا، وثالثها: إن وجد في نفسه باعثًا استحبَّ الدعاء وإن خص نفسه فلا. فقيل: الدعاء وهو الذي ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلة، ولما

فيه من إظهار الخضوع والافتقار. وقيل: السكوت والرضا أَوْلَى لما في التسليم من الفضل.

وشبهتهم إن الداعي لا يعرف ما قُدِّرَ له، فدعاؤه إن كان على وفق القدرة التي قدَّرها اللَّه فهو تحصيل الحاصل، وإن كان على خلافه فهو معاند، وكلاهما لا يجوز. وأجيب: بأنه إن اعتقد أنه لا يقع إلّا ما قدره اللَّه تعالى كان اعتقاده إذعانًا لا معاندة، وفائدة الدعاء حينئذ تحصيل الثواب بامتثال الأمر بالدعاء في الكتاب والسنة، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفًا على الدعاء، لأن اللَّه تعالى خلق الأسباب ومسبباتها اه.

ولقد أرشد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّته لكيفية الدعاء فقال: إذا صلَّى أَيْ: دعا أحدكم فليبدأ بحمد اللَّه تعالى والثناء عليه وليصَلِّ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ليدع بما شاء، رواه الترمذي.

ولما كان يسن للداعي أن يأتي بالحمد للَّه وبالصلاة على رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً، ثم يذكر حاجته، ثم يختم بالحمد والصلاة أيضًا، فإن اللَّه يقبل الصلاتين ولا يرد ما بينهما.

أتى المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك فقال: (اللَّهُمَّ) الميم بدل عن ياء النداء أَيْ: يا اللَّه، ولذا لا يجتمعان، فلا يقال: يا اللهم، إذ لا يجمع بين العوض والمعوض إلا شذوذ، قيل: وهذه الميم كالواو في الدلالة على الجمع، كأنه قال: يا من اجتمعت له الأسماء الحسنى. قال الحسن البصري: اللَّهُمَّ مجتمع الدعاء. وقال النضر بن شميل: من قال اللَّهُمَّ فقد سأل اللَّه بجميع أسمائه.

(لـك الحمـد) قـدَّم المعمـول لإفـادة الحصـر أَيْ: لـيس لغيـرك علـى الحقيقة، لأنه الثناء بالجميل على الجميل الحقيقي الأصلي. (كما) أَيْ: مثل وما معناه الحمد مثل الحمد الذي (يليق بـك و) قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كـذا) أَيْ: مثل ذا أَيْ: مثل الحمد. (الشكر) لك -بضم الشين المعجمة وسكون الكـاف- وهـو مـرادف للحمـد فـي بعـض نسبه أَيْ: الاعتـراف بنعمتك.

(يا مـن لـك الصـفات السـنية) بفتح السين المهملة وكسر النون مخففة أَيْ: المنسـوبة للسـناء بالقصـر بمعنـى النـور نسـبة الموصـوف لصـفته أَيْ: المنيرة أو الشريفة أو الرفيعة. (نسألك) نطلب منك (اللهم بذاتك وأسمائك الحسـان) بكسـر الحـاء المهملـة وفـتح السـين: جمـع حسـنة أَيْ: العظيمـة الجميلة الجليلة. وقوله: نسأل يتعدَّى لمفعولين الأول الكاف والثاني قوله: (أن تصلي) في تأويل مصدر التقدير نسألك الصلاة، فالجملة هي المفعول الثاني، والمعنى نطلب رحمتك المقرونة بالتعظيم والتكريم.

(وتسـلم علـى سـيدنا) الإضـافة لتعريـف العهـد الخـارجي أَيْ: السـيد المعـين المعلـوم عنـد أهـل الملـة أَيْ: سـيد خيـر الأمـم أو البشـر أو المخلوقات، وعلى كل تقدير يفيد سيادته لجميع المخلوقات أَيْ: أشرفنا معاشر المخلوقات.

(ومولانا) أَيْ: ناصرنا والمولى له معان والأولى منها ما ذُكر، وقوله: (محمـد) بـدل أو عطـف بيـان مـن مولانـا، وتقـدَّم أنـه أشـرف أسـمائه عَلَيْهِ

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وقوله: (بقدر عظمتك) أَيْ: صلاة لا انحصار لها ولا تقدّر بقدر، إذ عظمة الله لا تتناهى، وهي بفتح العين المهملة والميم: الكبرياء والسلطان.

وقوله: (الذاتية) أَيْ: المنسوبة لذاتك العظيمة القدر الذي لا يتناهى، وهو نعت للعظمة. (وعلى آله وصحبه) أَيْ: وصَلِّ على آله، في إتيانه بعلى ردٌّ على الشيعة الزاعمين ورود حديث بالكذب، وهو: لا تفصلوا بيني وبين آلي بعلى، وجُمع لكراهة الإفراد. والصحب: جمع صاحب -بفتح الصاد المهملة وسكون الحاء-: هو من اجتمع بنبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة وهو مؤمن، وكان في الأرض أو إلى الأرض أقرب.

(وسائر) أَيْ: جميع أو باقي (الخلان) جمع خليل: وهو من يفرح لفرحك ويحزن لحزنك، وتخللت محبته في أعضائك، ويزيد عليه الحبيب ويفديك بماله، فهو أعلى من الخليل كما تقدَّم، وهو بضم الخاء وتشديد اللام، وفي عبارة الخليل الصادق أو من صفى المودة وأصحها، ويجمع أيضًا على أخلاء بكسر الخاء وتشديد اللام والمد. كما في "القاموس".

(ونسألك اللهم) أَيْ: نطلب منك يا الله متوسلين وراجين ونقسم عليك (باسمك العظيم) المطلق البالغ أقصى مراتب العظمة والكبرياء الذي لا يتصوره عقل ولا يحيط به وهم ولا بصيرة ولا يعظم عليه شيء، إذ هو الخالق لكل شيء، وهو ذو الاسم (الأعظم) من كل شيء.

(و) نسألك بـ(رضوانك) بكسر الراء وضمها لغة قيس وتميم وقرئ بهما في التنزيل: بمعنى الرضا وهو ضد السخط أَيْ: رضاك (الأكبر) الأعظم

الأفخم الذي يغلب سخطك، كما أن الرحمة تغلب الغضب. (ذي) أَيْ: صاحب (الأنوار) جمع نور بضم النون: ضد الظلمة وبفتح النون: زهر الشجر، والمراد الأول. (السطوانية) المنسوبة للسطوة بفتح السين المهملة وسكون الطاء المهملة أيضًا: مصدر من سطا عليه أَيْ: قهره وأذّله، وهو البطش بشدة، ويقال: سطا الماء: كثر. أَيْ: الأنوار الكثيرة.

(ونسألك اللَّهُمَّ) أَيْ: نطلب منك يا اللّٰه ونتوسل (باسمك الطاهر) الأنفس الأقدس المُنزّه عن كل عيب ونقص وما لا يليق به، (الطيب) النفيس. قال الزمخشري: تقول صائد مستطيب بطلب الطيب النفيس من الصيد ولا يرضى بالدون. وفي "الصحاح": الطيب ضد الخبيث. (المبارك) الزائد خيره العميم فضله الأحب إليك من سائر الأسماء يا رب. (يا حنَّان) بفتح الحاء المهملة وشدّ النون أَيْ: يا من يقبل على من أعرض عنه.

(الذي إذا دعيت) بضم الدال وكسر العين مبنيًا للمفعول أَيْ: إذا دعاك أحد من خلقك (به) أَيْ: الاسم الأعظم المذكور، (أجبت) جواب إذا والمفعول الداعي إلى ما سأله، (وإذا سُئلت) بالبناء للمجهول أَيْ: إذا سألك وطلب منك أحد من خلقك (به) أَيْ: باسمك الأعظم، (أعطيت) السائل سؤله، (أوفر) بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الفاء والراء أَيْ: أتم وأكمل. (عطية) تعطيها وهي بفتح العين المهملة وكسر الطاء المهملة أيضًا وشد المثناة التحتية: ما يُعطى.

(وإذا استرحمت) السين والتاء للطلب فيه وفيما بعده أَيْ: طلب منك

أحد أن ترحمه وأقسم عليك ﴿بـه﴾ أَيْ: بالاسم الأعظم ﴿رحمـت﴾ أَيْ: رحمتهُ، ﴿وأنت أهل الرحمـة﴾ الإنعام والإحسان، ﴿يـا رحمـن﴾ أَيْ: يا محسن ومنعم بجلائل النعم كمًّا وكيفًا دنيا وأخرى. ﴿وإذا استفرجت﴾ بضم المثناة الفوقية وكسر الراء أَيْ: طلب أحد منك الفرج ﴿بـه﴾ أَيْ: باسمك الأعظم، ﴿فرّجت﴾ بتشديد الراء أَيْ: كشفت عمن طلب منك الفرج ولم ترده خائبًا صفر اليدين.

وجملة قوله: ﴿أن تفـرّج عنـا﴾ في محل نصب مفعول ثان لنسألك، والمفعول الأول الكاف فيه، وتفرّج بضم التاء المثناة الفوقية وفتح الفاء وكسر الراء المشددة: مضارع فرَّج بالتشديد أَيْ: نطلب منك تفريج وكشف ﴿ما﴾ أَيْ: الذي ﴿نحن فيـه﴾ لما قاله المُصنِّف وللوارد أيضًا في حديث: إذا دعوتم فعمّمُوا.

﴿من﴾ وقوله ﴿الأضياق﴾ بيان لما نحن فيه وهو بفتح الهمزة: جمع ضيق بفتح المعجمة وتكسر: وهو ضد السعة أو الشك في القلب، أو ما ضاق عنه الصدر كما في "القاموس". ﴿الكدريـة﴾ أَيْ: المنسوبة للكدر بفتحتين: وهو ضد الصفا بفتح الصاد، يقال: كدر الماء كدرًا من باب تعب أَيْ: زال صفاؤه كما في "المصباح".

﴿وأن تأخـذ بيـد كـل منـا﴾ معشر الحاضرين لسماع قراءة هذا المولد الشريف، ويجمع وإن كان منفردًا كما تقدَّم آنفًا. ﴿إلى مقصده﴾ بكسر الصاد أَيْ: مطلوبه، ﴿يـا واسـع﴾ يا باسط ﴿الوهبـان﴾ أَيْ: العطا وهو بزيادة الألف

والنون: مصدر وهب يهب هبةً ووهبًا -بفتح الهاء وسكونها- يقال: وهبتُ لزيد مالاً: أعطيته بلا مقابل ولا عوض. كما في "المصباح".

(و) نسألك (أن تهيئ) بضم المثناة الفوقية وفتح الهاء وتشديد الياء التحتية آخره همزة: مضارع هيَّأ بالتشديد أَيْ: تسخّر (لنا من الأسباب ما تخرجنا من هذه الأحوال) العوارض التي تعرض للإنسان في هذه الدنيا، (الرديئة) الخسيسة أو المهلكة الموقعة في الهلكات.

الوارد في ذمها: احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت. ووَرَدَ: اجتنبوا الدنيا إلخ. ووَرَدَ: الدنيا معلونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللَّه وما والاه -أَيْ: من التسبيح وغيره من أنواع الخير- أو عالمًا أو متعلمًا. وهذا في الدنيا الشاغلة عن اللَّه.

وأما الدنيا التي يستعين بها على الطاعة والعبادة فهي ممدوحة، ووردت الآثار بمدحها منها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعمت الدنيا مطية المؤمن. الحديث. فهي لا تمدح على الإطلاق ولا تذم على الإطلاق.

(و) نسألك (أن تنقلنا) بفتح النون واللام عطفًا على المنصوب قبله وبضم القاف أَيْ: تحوّلنا (إلى حضرة الجود) ولم يقل حضرتك بالخطاب تأدُّبًا ولإيهام الحلول مع القاصرين أَيْ: جودك (والوُسعان) أَيْ: سعتك المحيطة بكل شيء، وهو بضم الواو وسكون السين المهملة بوزن شُكران أحد مصادر وسع.

(وأن تدخلنا في شفاعة نبيك سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ولمَّا كانَ للنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعات متعددة منها ما هو عامٌّ كالشفاعة

في فصل القضاء، ومنها ما هو خاصٌّ كإخراج بعض الموحّدين من النار، ورفع الدرجات لبعض الناس وغير ذلك، قالَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ: (العمومية) أَيْ: العامة وهي الشفاعة العظمى في فصل القضاء، (والخصوصية) أَيْ: الخاصة، والياء هنا مصدرية.

(و) نسألك (أن ترزقنا) معشر الحاضرين أو المسلمين لما تقدَّم، (جواره) أَيْ: مجاورته (في أعلى الجنان) بكسر الجيم بوزن كتاب: جمع جنة بفتحها: وهي الحديقة ذات النخل والشجر. كما في "القاموس". وتصغّرها العامة فتقول: جُنَيْنَة.

(وأن تمتّعنا) تبقينا (بأسماعنا) جمع سمع والسمع: حس الأُذُن. كما في "القاموس". (وأبصارنا) جمع بصر محركة: حس العين ومن القلب نظره وخاطره. كما في "القاموس". (وبالقوة) بضم القاف: ضد الضعف، (البديعية) أَيْ: العجيبة المنفردة.

(وأن تكفينا شر البرص) بفتحتين: وهو على تُحدِث في الأعضاء بياضًا رديئًا. ثم من عند قوله: نسألك اللَّهُمَّ إلى هنا يكون رافعًا يديه جاعلاً بطن كفيهما إلى السماء وظهرهما إلى الأرض. وعند قوله: وأن تكفينا بالعكس بأن تجعل ظهرهما إلى السماء وبطنهما إلى جهة الأرض، كما تقدّم في قول ابن العماد، إلى قوله: ونسألك اللَّهُمَّ المغفرة إلخ يجعل بطنهما إلى السماء.

(و) أن تكفينا شر (الجذام) بضم الجيم وفتح الذال المعجمة بوزن غراب: عِلَّةٌ تحدث من انتشار السوداء في البدن كله، فَتفْسد مزاج الأعضاء

وهيئتها، وربما انتهى إلى تَقَطُّع الأعضاء وسقوطها عن تَقَرُّح. وسقوط الشعر وتفتُّت اللحم وتجري الصديد منه. (و) شر (الأمراض) أَيْ: الأسقام الرديئة المؤدية إلى قرار الحميم وقلة الأنيس أو فقده كالاستسقاء والسل والمرض المزمن.

(و) شر (الجنان) بكسر الجيم لعله جنة بكسرها أيضًا بمعنى الجنون: وهو زوال العقل مع بقاء الحركة في الأعضاء، ومعلوم أن الجنون يتنوّع، فبهذا صحَّ جمعه وإطلاق الجنّة بمعنى الجنون وورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أَيْ: جنون وهو أولى مما يُقال أن الذي دعاه إلى ذلك موافقة السجع الجاري مجرى الامثال التي يجوز فيها الخروج عن القواعد النحوية والصرفية حسبما نقله بعض علماء اللغة المقتدى بهم كالجلال السيوطي في "المزهر": ولا يصح قراءة الجنان هنا بضم الجيم لأن ذلك جمع جنة بضمها أيضًا وهي الوقاية، فحينئذ لا يصح حمل كلام الأستاذ على ذلك، لأن كل أحد يطلبها ولا يستعيذ منها العاقل. أفاده بعض الأفاضل وكتبتها على هامش نسختنا.

(ونعوذ) أصله نَعْوُذُ بسكون العين وضم الواو، استقلت الضمة على الواو فنقلت إلى العين فبقيت الواو ساكنة، أَيْ: نستجيرُ ونعتصم (بك) أَيْ: لا بغيرك إذ بك المستعاذ لأنك القادر على دفع المضار، (اللَّهُمَّ) أَيْ: يا الله نتلجأُ ونتحصّنُ (من) جميع المضار والبلايا.

و (كل آفة) بالمد: وهي العاهة وهي عرض يصيب الإنسان مما ينقص به دينه أو بدنه أو دنياه، وهي مفرد والجمع آفات. (و) من كل (محنة) أَيْ:

نعوذ بك من كل محنة -بكسر الميم-: وهي ما يختبر به، ويغلب استعمالها في الشدة والأمر المؤلم، وقد تكون في غيرهما لحكمة يعلمها اللَّه تعالى.

(وعاهة) هي الآفة وهي في تقدير فعله بفتح العين، والجمع عاهات، يقال: عيه الزرع من باب تعب: إذا أصابته العاهة. كما في "المصباح".

(وزلزلة) بفتح الزاي وتشديد اللام: وهي التحرُّك الشديد العنيف، ويكون في الأرض وفي الأشخاص وفي الأحوال، وهذا عبارة عن شدة الأهوال، يقال: زلزل اللَّه الأرض زلزلة بالفتح وزلزالاً بالكسر: حرَّكَها فتزلزلت هي أَيْ: تحرَّكَتْ. (وشدة) بكسر الشين المعجمة: اسم من الاشتداد أَيْ: الاشتداد في الأمور.

(وعصبية) بضم العين وسكون الصاد وكسر الموحدة ثم مثناة تحتية مشددة مفتوحة. وفي "القاموس": والعُصْبَةُ بالضم من الرِّجال والخَيْلِ: ما بَيْنَ العَشَرةِ إلى الأَرْبعين. ويقال: اعتصبوا: صاروا عُصبة. وفي "نهاية ابن الأثير": العَصَبِيَّة والتَّعَصُّب: المُحامَاةُ والمُدَافَعَة. والعَصَبِيّ: مَنْ يُعينُ قومَه عَلَى الظُّلم.

كما في الحديث: الْعَصَبِيَّةُ أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ، وَالْوَرِعُ الَّذِي يَقِفُ عَلَى الشُّبُهَاتِ، وَالْحَرِيصُ عَلَى الدُّنْيَا الَّذِي يَطْلُبُهَا مِنْ غَيْرِ حَلٍّ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ. رواه الطبراني عن واثلة. وفي الحديث أيضًا: لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ. رواه أبو داود عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ. وفي الحديث: سِتَّةٌ يَدخُلُونَ النَّارَ بغير حِسَاب:

الأُمَرَاءُ بِالجَورِ، والعَرَبُ بالعَصَبِيَّةِ، والدَّهَاقِينُ أَيْ: رُؤسَاء القُرَى- بِالكِبْرِ، والتُجَّارُ بالكَذبِ، والعلّماءُ بالحَسَدِ، والأَغْنِيَاءُ بِالْبُخْلِ. رواه أبو نعيم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي "النَّوَازِلِ": وَجَعَلَ مَشَايِخُنَا الْمَقْتُولِينَ فِي الْعَصَبِيَّةِ فِي حُكْمِ أَهْلِ الْبَغْيِ. لا يغسلون ولا يصلى عليهم إهانةً لهم وزجرًا لغيرهم عن فعلهم. وَكَذَا الْوَاقِفُونَ النَّاظِرُون إلَيْهِم إنْ أَصَابَهُمْ حَجَرٌ أَوْ غَيْرُهُ وَمَاتُوا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَلَوْ مَاتُوا بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ يُصَلَّى عَلَيْهِمْ. كذا في "الدُّرِّ" وحواشيه.

(وذلة) بفتح الذال المعجمة وتشديد اللام المفتوحة: هي الهوان على الناس ونظرهم إلى الإنسان بعين الاحتقار والاستخفاف. (وغلبة) بفتحات أَيْ: شدة تسلُّط الخلق بغير حق تغلُّبًا وجدلاً.

(وقلة) بكسر القاف وفتح اللام المشددة أَيْ: قلة المال بحيث لا يجد كفافًا من القوت فيعجز عن وظائف العبادات فيخاف منها قلة الصبر وتسلُّط الشيطان بتذكُّر تنعُّم الأغنياء. أو المراد القلة في أبواب البر ونقصان الخير، أو قلة الصبر، أو الكل.

(وجوع) أَيْ: من ألمه وشدة مصابرته لأنه يمْنَع رَاحَة الْبدن ويحلل الموادّ المحمودة بِلَا بدل ويشوّش الدِّمَاغ ويثير الأفكار الفاسدة والخيالات الباطلة. (وعطش) كذلك.

(ومكر) بفتح الميم وسكون الكاف أَيْ: احتيال ومخادعة بفعل ما لا يليق شرعًا وعرفًا. (وأن نهان) أن نُذلّ ونحتقر وهو بضم النون وفتح الهاء: مضارع هان يهون هونًا: ذلّ وحقر.

(و) نعوذ بك اللَّهُمَّ من كل (فقر) بفتح الفاء وسكون القاف: فقد المال أو فقر النفس، وأصله فقار الظهر. (وفاقة) أَيْ: حاجة. (وحاجة) أَيْ: احتياج، فالعطف للتفسير أو مرادف. (إلى مخلوق) متعلق بحاجة أَيْ: وأما إليه تعالى فدائم أبدًا في كل لحظة، إذ لا استغناء عنه في دقيقة ولا طرفة عين. (وضيق) بكسر الضاد المعجمة: هو عدم اتساع أو ذهاب المال أو ضيق الصدر وحرجه.

(ووباء) بفتح الواء والمد والقصر: مرض عام ينشأ عن فساد الهواء ولا يختص بطائفة، ويقال: هو كثرة الموت من غير سبب، بخلاف الطاعون فإنه الموت بسبب طعن كفار الجن لمسلمي الإنس كما في الحديث: الطَّاعُونُ وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ.

(وبلاء) بفتح الباء الموحدة وبالمد والقصر له معنيان: العذاب والاختيار. (وغرق) بالغين المعجمة وفتح الراء على الصواب وكسرها التباس، أَيْ: الموت في الماء غريقًا. (وحرق) بفتحتين: الالتهاب بالنار.

والاستعاذة من هذه الأمور مع أنها شهادة لأنها مجهدة مقلقة لا يثبت المرء عندها، فربما استزلَّه الشيطان فَأخلَّ بدينه؛ ولأنه يعد فجأة وأخذة أسف، أو لأنها في الظاهر مصائب وبلايا ومحن، وأما ترتُّب الشهادة عليها فللبناء على أنه تعالى يثيب عبده المؤمن على المصائب كلها حتى الشوكة، ولأن الفرق بين الشهادة الحقيقية وبين هذه أنها متمنَّى كل مؤمن، وقد يجيب عليه توخي بهجة الشهادة والتحري فيها، بخلاف هذه فيجب التحرُّز عنها، ولو سعى فيها عصى.

(و) نعوذ بك اللَّهُمَّ من كل (فتنة) أَيْ: امتحان واختبار (في الدين) من زيغ وشك وضلالة وشرك. (و) فتنة في (الدنيا) من المصائب (الحقيرية) المنسوبة للحقارة. فقد ورد في ذمها وخسة قدرها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها جرعة ماء.

(وحر) بفتح الحاء المهملة، (و) من مقابله (برد) بفتح الباء الموحدة وسكون الراء أَيْ: من شدتهما، والاستعاذة منهما واردة في الحديث.

(وسرق) بفتحتين: مصدر سرق يسرق من باب ضرب: وهو أخذ المال خفية من حرز مثله، وهو نصاب السرقة الذي يترتب على أخذه قطع يد السارق بالشروط التي في كتب الفقه، بخلاف أخذه جهارًا اعتمادًا على القوة فهو نهب الآتي أو اعتمادًا على الهرب فهو اختلاس.

(ونهب) بفتح النون وسكون الهاء: مصدر نهب من باب نفع: وهو الغلبة على المال والقهر. (وغي) بفتح الغين المعجمة: مصدر غوى من باب ضرب يقال: غوى غيًّا: انهمك في الجهل وهو خلاف الرشد. كما في "المصباح".

(وضلالة) بفتح الضاد المعجمة: مصدر ضلَّ من باب ضرب: وهي عدم الاهتداء للطريق المستقيم. (وتهمة) بضم المثناة الفوقية وسكون الهاء وفتحها أَيْ: شك وريبة أو ظن سوء. (وزلل) بفتح الزاي أَيْ: تنحي عن الحق في القول والفعل.

(وطغيان) بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة: هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ وَكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ الْمِقْدَارَ وَالْحَدَّ فِي الْعِصْيَانِ فَهُوَ طَاغٍ، وَهْوَ اسْمٌ مِنْ طَغَا يَطْغُو مِنْ بَابِ قَالَ، وَطَغِيَ طَغًى مِنْ بَابِ تَعِبَ، وَمِنْ بَابِ نَفَعَ لُغَةٌ أَيْضًا فَيُقَالُ طَغَيْتُ طَغْيًا. كما في "المصباح".

(وهَمّ) بفتح الهاء وشدة الميم: هو توقُّع المكروه. (وغَمّ) بفتح الغين المعجمة: مصدر غمَّهُ الشيء غمًّا من باب قتل: بمعنى غطاه، ومنه قيل للحزن غم لأنه يغطي السرور والحلم. (وخطإ) بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة وبالهمز: ضد العمد. (ومسخ) بفتح الميم وسكون السين المهملة وبالخاء المعجمة: مصدر مسخ يقال: مسخه الله مسخًا حوَّلَ صورته التي كان عليها إلى غيرها.

(وقذف) بفتح القاف وسكون الذال المعجمة، يقال: قذف بالحجارة قذفًا من باب ضرب: رمى بها، وقذف المحصنة: رماها بالفاحشة. وقد ورد في قذفها في الآيات والأحاديث اللعن والوعيد الشديد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. وفي الحديث: أن قذف المحصنة ليهدم عمل مائة سنة. إلى غير ذلك. ويقال أيضًا: قذفهُ: شتمهُ، وَقَذَفَ بِقَوْلِهِ: تَكَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَأَمُّلٍ. كما في "المصباح".

(وخسف) بفتح الخاء المعجمة وسكون السين المهملة: وهو غور في

الأرض. (وعلة) بكسر العين المهملة: هي مرض ديني أو بدني. (وهامَّة) بشد الميم: واحده الهوام ذوات السموم. وقيل: كل ما له سم يقتل، فأما ما لا يقتل بسمه فيقال له السوم، وقيل: كل نسمة تهم بسوء.

(و) نعوذ بك اللَّهُمَّ من (فضيحة) أَيْ: عيب، و(صولية) نعت فضيحة بفتح الصاد المهملة وسكون الواو وكسر اللام وتشديد الياء المفتوحة أَيْ: منسوبة للصولة وهي الحملة والوثبة.

(و) من (خلة) بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام المفتوحة أَيْ: فقر وحاجة. (و) من (هلكة) بوزن قصبة أَيْ: هلاك. (و) من (عقاب) بكسر المهلمة في الأصل بدل عن الشيء كما في "المشارق". وقال الجوهري والبيهقي: هو العقوبة فلم يكن مما كان بين اثنين. وفي "التكملة": أنه اسم من المعاقبة وهو الجزاء بالشر.

(و) من (عذاب) اسم من عذّبتهُ تعذيبًا: عاقبته، وأصله في كلام العرب الضرب ثم استعمل في كل عقوبة مؤلمة، واستعير للأمور الشاقة فقيل: السفر قطعة من العذاب. كما في "المصباح".

(و) من (معصية) مصدر عصى، ومنه عصى العبد مولاه أَيْ: خالف أوامره ونواهيه، وهو من باب رمى. (و) من (قبيحة) أَيْ: إبعاد عن الخير والفوز. (في) الدنيا والآخرة اللذين هما (الداران) مثنى دار والجمع ديار، والأصل دوار لأنها من دار يدور وإنما قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها واعتلالها في الواحد.

(ونعوذ) نستجير ونعتصم ونلتجئ (بك) لا بغيرك لأنك القادر، (اللَّهُمَّ)

أَيْ: يا اللَّه (من الاستدراج) وهو أن العبد كلما جدّد خطيئة جدّد الله له نعمة وأنساه الاستغفار وأن يأخذه قليلاً قليلاً، (و) نعوذ بك اللَّهُمَّ من (الأخذ) بغتة، (و) من (الجور) بفتح الجيم وسكون الواو: نقيض العدد وضد القصد أَيْ: التوسُّط في الأمور كلها. (و) من (الظلم) بضم الظاء المشالة: هو وضع الشيء في غير موضعه.

(و) من (السحر) بكسر السين المهملة وسكون الحاء المهملة أيضًا: هُوَ فِي اللُّغَةِ: صَرْفُ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ يُقَالُ مَا سَحَرَك عَنْ كَذَا أَيْ: مَا صَرَفَك عَنْهُ. وَفِي الاِصْطِلَاحِ: هُوَ عِلْمٌ يُسْتَفَادُ مِنْهُ حُصُولُ مَلَكَةٍ نَفْسَانِيَّةٍ يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى أَفْعَالٍ غَرِيبَةٍ لِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ اه "حلبي". وقال ابن فارس: هو إخراج الباطل في صورة الحق. ويقال: هو الخديعة.

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ حَقٌّ وَلَهُ حَقِيقَةٌ وَيَكُونُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَيُؤْلِمُ وَيُمْرِضُ وَيَقْتُلُ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَقَالَ الْمُعْتَزِلَةُ وَأَبُو جَعْفَرٍ مِن الشَّافِعِيَّة وَأَبُو بَكْرٍ الرَّازِيّ مِن الحَنَفِيَّة: أَنَّ السِّحْرَ لَا حَقِيقَةَ لَهُ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ، وَبِهِ قَالَ الْبَغَوِيّ، واسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ السَّاحِرَ قَدْ يَقْلِبُ بِسِحْرِهِ الْأَعْيَانَ، وَيَجْعَلُ الْإِنْسَانَ حِمَارًا بِحَسَبِ قُوَّةِ السِّحْرِ، وَهَذَا وَاضِحُ الْبُطْلَانِ، لِأَنَّهُ لَوْ قَدَرَ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ لَرَدَّ نَفْسَهُ إِلَى الشَّبَابِ بَعْدَ الْهَرَمِ، وَأَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ الْمَوْتِ. وَمِنْ جُمْلَةِ أَنْوَاعِهِ السِّيمْيَاءُ.

وَلَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ فِي السِّحْرِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الْقِبْطُ أَيَّام دَلُوكَا

مَلِكَةِ مِصْرَ بَعْدَ فِرْعَوْنَ فَإِنَّهُمْ وَضَعُوا السِّحْرَ عَلَى الْبَرَانِيِّ وَصَوَّرُوا فِيهَا صُوَرَ عَسَاكِرِ الدُّنْيَا، فَأَيُّ عَسْكَرٍ قَصَدَهُمْ أَتَوْا إِلَى ذَلِكَ الْعَسْكَرِ الْمُصَوَّرِ فَمَا فَعَلُوهُ بِهِ مِنْ قَلْعِ الْأَعْيُنِ وَقَطْعِ الْأَعْضَاءِ اتَّفَقَ نَظِيرُهُ لِلْعَسْكَرِ الْقَاصِدِ لَهُمْ فَتَخَافُ مِنْهُمْ الْعَسَاكِرُ، وَأَقَامُوا سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ، وَالنِّسَاءُ هُنَّ الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ بِمِصْرَ بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ. حَكَاهُ الْعِرَاقِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ: لَا يَظْهَرُ أَثَرُ السِّحْرِ إِلَّا عَلَى يَدِ فَاسِقٍ.

وقال في "المواهب" ما نصه: قال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاتها، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، مع أن حبالهم وعصيهم لم يخرجوها عن كونها حبالاً وعصيًا.

إلى أن قال -أَيْ: القرطبي-: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا فى القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفى الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكر أن ينقلب الجماد حيوانًا أو عكسه بسحر الساحر.

وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ مُقَيَّدًا فِيمَا يُمْدَحُ وَيُحْمَدُ نَحْوُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا. أَيْ: إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرٌ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُوَضِّحُ الشَّيْءَ الْمُشْكِلَ، وَيَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَتِهِ بِحُسْنِ بَيَانِهِ، فَيَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ كَمَا تُسْتَمَالُ بِالسِّحْرِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَمَّا كَانَ فِي الْبَيَانِ مِنْ إِبْدَاعِ التَّرْكِيبِ وَغَرَابَةِ التَّأْلِيفِ مَا يَجْذِبُ السَّامِعَ وَيُخْرِجُهُ إِلَى حَدٍّ يَكَادُ يَشْغَلُهُ عَنْ غَيْرِهِ شُبِّهَ

بِالسِّحْرِ الْحَقِيقِيِّ. وَقِيلَ: هُوَ السِّحْرُ الْحَلَالُ اه.

وهو ثلاثةٌ: فرض وحرام وجائز. فإذا تعلّم السحر لرد ساحر أهل الحرب فهو فرض. وإذا تعلّمهُ ليفرّق بين المرأة وزوجها فهو حرام. وإذا تعلّمهُ ليؤلّف بين المرأة وزوجها فهو جائز. كذا بخط بعض الفضلاء.

وقوله: فإذا تعلّم السحر لرده إلخ: المراد ما تعلّمه غير مكفر، وفيه أنه وَرَدَ في الحديث النهي عن التولة وزنة عنبة: وهي ما يفعل يحبب المرأة إلى زوجها.

(و) نعوذ بك من (الحسد) بفتح الحاء والسين المهملتين: وهو تمني زوال نعمة الغير وإيصالها لنفسه أو لغيره، أو الزوال مطلقًا، وهو داءٌ عظيم يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وربما أدّى صاحبه إلى الكفر، لأنه يؤول به إلى الاعتراض على اللّٰه تعالى.

(و) من (الغدر) بفتح الغين المعجمة وسكون الدال: مصدر غدر من باب ضرب، يقال: غدر به غدرًا: نقض عهده. (و) من (الكيدية) أَيْ: الكيد بفتح فسكون: مصدر كاده بمعنى: خدعه ومكر به وقهره.

(و) من (العداوة) خلاف الصداقة، والعدو ضد الحبيب وهو الساعي في جلب الضرر الدنيوي أو الأخروي، فيشمل النفس والزوج والولد. ففي الحديث الشريف: أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيْك. وقال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾، فالمراد عداوة أَيْ: عداوة أي عدو.

(القدح) بفتح القاف وسكون الدال أَيْ: الذم. (و) من (الحيل) بكسر

الحاء المهملة وفتح الياء المثناة تحت: جمع حيلة وهي الحذق في تدبير الأمور، وهي تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود، وأصلها الواو. كما في "المصباح".

(و) من (الشماتة) بفتح المعجمة: اسم من شمت به يشمت: إذا فرح بمصيبة نزلت به. (و) من (الكشح) بفتح الكاف وفتح الشين المعجمة: داء يصيب الإنسان في كشحه بفتح فسكون: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. كما في "المصباح". فالأَوْلَى قراءته بالفتح لأنه المناسب للمقام إذ المقام مقام استعاذة.

(و) من (الإطعان) بتشديد الطاء: مصدر أطعن من باب الافتعال، يقال: اطعنوا طعانًا إذا طعن بعضهم بعضًا أَيْ: قدحَ وعابَ بعضهم بعضًا.

(و) يرفع يديه بقلب ظهريهما إلى جهة الأرض عند قوله: (نسألك) أَيْ: نطلب منك (اللَّهُمَّ) أَيْ: يا اللَّه (المغفرة) أَيْ: الصفح عن ذنوبنا أو محوها من صحف الملائكة، وهي اسم من غفر اللَّه له غفرانًا: صفح عنه.

(و) أسألك (الهداية) أَيْ: الدلالة إلى الصراط المستقيم وهو دين الإسلام. (والخشية) بفتح الخاء المعجمة وسكون الشين المعجمة أيضًا أَيْ: الخوف منك. (والعناية) بكسر العين المهملة أَيْ: الحفظ من عنى اللَّه به بمعنى: حفظه. (والرعاية) أَيْ: الملاحظة والإحسان إلينا. (واللطفية) أَيْ: الرفق والدنو وهو القرب المعنوي.

(والورع) بفتحتان أَيْ: الكف عن المحارم. (والزهد) بضم الزاي: هو ترك الدنيا ولذاتها وشهواتها رغبة فيما عند اللَّه، وينقسم ثلاثة أقسام: ترك

الحرام وهو زهد العوام، وترك فضول الحلال وهو زهد الخواص، وترك كل ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين وهم خواص الخواص.

(و) نسألك اللَّهُمَّ (التوكل) أَيْ: الاعتماد عليك والوثوق بك في كل الأمور. (والإقبال) بكسر الهمزة: وهو ضد الإدبار والإعراض عنك وعنا أَيْ: نطلب منك إقبالك علينا بأن لا تعاملنا بما نحن أهله وبذنوبنا، بل تعاملنا بما أنت أهله والإحسان والصفح عنَّا والامتنان إلينا، فإنك أهل العفو والمغفرة (واللطفان) أَيْ: البر والإحسان، وأعاده مع اللطفية لأن الدعاء محل إطناب.

(والكمال) بفتح الكاف: اسم من كمل الشيء كمولاً، من باب قعد، ويستعمل في الذوات وفي الصفات، يقال: كمل: إذا تمَّت أجزاؤه وكملت محاسنه. (والجلال) أَيْ: المهابة والعظمة في أعين الناس. (والجمال) أَيْ: الحسن والبهاء والنضارة وحسن المنظر اللازم له الإكرام والخشية.

(والاستقامة) السين والتاء زائدتان: وهي غريزة، ومنها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شيبَّتنِي هود. أَيْ: لقوله تعالى فيها: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾، فلذلك قال: شيَّبتنِي هود وأخواتها. أَيْ: الإقامة (على الطريقة) الشريعة والملة والسُّنَّة (الطاهرية) أَيْ: الطاهرة المطهرة التي لا انحراف ولا انعواج ولا تدنُّس فيها.

(واقضِ اللَّهُمَّ) أَيْ: أعطِ يا اللَّه وهو بهمزة وصل من قضى يقضي: بمعنى يعطي. (لكُلٍّ منَّا) أَيْ: لكل أحد من الحاضرين أو لكل المسلمين (ما) هو خاطرٌ له (في نفسه) أَيْ: ضميره وهو بفتح النون وسكون الفاء،

(من الحاجات) جمع حاجة: بمعنى المقاصد.

(يا واهب) يا معطي (المقصود) أَيْ: المقصود، (يا خير) أصله أخير حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال أَيْ: أفضل (من أعطى السؤلان) بضم السين وإسكان الهمزة: مصدر بوزن شكران ويجوز أبدال الهمزة واوًا أَيْ: المسؤول والمطلوب.

ثم طلبَ الدعاء بالتوسُّل ممن يرجى الإجابة به، وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوله في الحديث: توسّلُوا بِجَاهِي فإن جاهي عند الله عظيم. فقَالَ: (اللَّهُمَّ إنا نسألك ونتوجَّه إليك) هذا الدعاء نحوه أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي وابن ماجه والطبراني، وذكر في أوله قصة، وابن خزيمة في "صحيحه"، والحاكم وقال: صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم، وصحَّحهُ أيضًا البيهقي عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولفظ النسائي: أَنَّ رَجُلًا أَعْمَى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي، قَالَ: أَوْ أَدَعُكَ؟، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَقَّ عَلَيَّ ذَهَابُ بَصَرِي، قَالَ: فَانْطَلِقْ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْك بِنَبِيِّك مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّي بِكَ أَنْ تَكْشِفَ لِي عَنْ بَصَرِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِي نَفْسِي، فَرَجَعَ وَقَدْ كَشَفَ لَهُ عَنْ بَصَرِهِ اهـ.

ولفظ الترمذي وابن ماجه كما في "الجامع الصغير" عن عثمان بن

حُنَيْف: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ.

قال العزيزي شارحه: وسببه أن رجلاً ضرير البصر أتى أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أدع اللَّه أن يعافيني، فقال: إن شئت دعوت لك وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء. قال عثمان: فو اللَّه مَا تَفَرَّقْنَا حَتَّى دَخَلَ الرَّجُلُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ اه.

والمعنى: إِنَّا نسألك: نطلبُ منك ونتوجَّه أَيْ: نقصدك ونقبل إليك (بنبيك) سيدنا (محمد) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (نبي الرحمة) أَيْ: المبعوث رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنما أنا رحمة مهداة. (الرحمانية) المنسوبة للرحمن عزَّ وجلَّ.

(يا سيدنا) يا: حرف نداء، وسيد: منصوب بفتحة ظاهرة منادى، ونا: مضاف إليه مبني على السكون في محل جر. (محمد) بدل من سيدنا مبني على الضم في محل نصب. وفي نسخة بغير سيدنا. وعلى كل حال فمحمد: مبني على الضم بغير تنويب لأنه منادى مستقل، وهو مفرد علم أو بدل من المنادى، لأن البدل على نية تكرار العامل إذ التقدير يا محمد.

(يا رسول اللَّه) ويقول: يا سيدنا إلخ ثلاثًا، أَيْ: من المرات. ويحتمل رجوعه للدعاء بجملته أو للأخير فقط كما ذكرنا، وهو ما تلقيناه وقرأناه مع مشائخنا المرار العديدة. وفي الحديث عن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أنه كان يعجبه أن يدعو ثلاثًا ويستغفر ثلاثًا.

ثم يقول: (إِنَّا توجَّهنا) أَيْ: استشفعنا وأقبلنا بذاتنا وقاصدين ربنا (بك) لأنك الوسيلة العظمى (إلى ربنا). قال الطيبي: الباء في بك للاستعانة. وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّا توجَّهنا بك، بعد قوله: ونتوجَّه إليك، في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

(في حوائجنا) أَيْ: حال كونها (جميعًا) أَيْ: كلنا، وهي في الأصل فعيل بمعنى الجمع وكأنه اسم جمع، فلذلك يتبع تارة بالمفرد كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾، وتارة بالجمع كما قال تعالى: ﴿جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وينتصب حالاً ويؤكد به بمعنى كل، ويدل على الشمول كدلالة كل، ولا دلالة له على الاجتماع في الزمان، تقول: جاء القوم جميعهم، لا يلزم أن يكون مجيئهم في زمن واحد. كذا في "الفتوحات الإلهية". وفي نسخةٍ: جميعها أَيْ: الحوائج المعلومة من حوائجنا. (لتقضى) بضم المثناة الفوقية مبنيًا للمجهول أَيْ: ليقضيها ربنا لنا.

(اللَّهُمَّ فشفِّعهُ) أَيْ: تقبَّل شفاعته (فينا) أَيْ: نقسم عليك (بـ)حق (جاهه) أَيْ: نتوسَّل إليك في ذلك بجاهه، والمعنى تقبَّل شفاعته فينا فيناسب ما له من الجاه. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: توسَّلُوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم. إذ لا جاه أعظم من جاهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الله تعالى.

(عندك) يتعلَّق بجاهه.

(يا سلطان) يا قادر يا غالب، إذا السلطنة: القدرة والغلبة، يُقال: فلان ذو سلطنة أو قدرة وغلبة. وفي "المُختار": والسلاطة: القهر، يُقال: سلُط

بضم اللام ككرُم بضم الراء، وسمع سلاطة وسلوطة بالضم. والسلطان: الوالي، والسلطان: الحجة والبرهان، ولا يثنَّى ولا يجمع، لأن مجراه مجرى المصدر.

وقد ورد أنه لا يجوز القسم على اللَّه إلا بأسمائه العلية، أو بسيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث الشريف. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كانت له حاجة عند اللَّه فليقل: اللَّهُمَّ إني أسألك وأتوَّجه إليك بحبيبك المُصطفى عندك، يا سيدنا محمد توسَّلتُ بك إلى ربي في قضاء حاجتي هذه لتقضى لي، اللَّهُمَّ شفِّعه فيها بجاهه عندك. ومن معنى ذلك رواية "الدلائل" المشهورة.

فائدة: رُوِي عن أنس أن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مَنْ صَلَّى ليلة الاثنين أربع ركعات، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرَّة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الركعة الأولى إحدى عشرة مرَّة، وفي الثانية إحدى وعشرين مرَّة، وفي الثالثة إحدى وثلاثين مرَّة، وفي الرابعة إحدى وأربعين مرَّة، ثم سلَّم وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسًا وسبعين، واستغفر اللَّه لنفسه ولوالديه وللمؤمنين خمسًا وسبعين، وصلَّى على سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسًا وسبعين، ثم سأل اللَّه حاجته كان حقًّا على اللَّه أن يعطيه ما سأل. وهذه تُسمَّى صلاة الحاجة اهـ من "شرح قصيدة الإمام الوعيظي".

فائدة ثانية: قال العارف باللَّه سيدي عبد اللَّه اليافعي ممَّا نقله بعض العارفين لقضاء الحوائج: مَنْ كانت له حاجة مهمة فليكتب في ورقة: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من العبد الذليل إلى ربه الجليل، رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ

الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ثم يرمي بالرقعة في ماء جاري ويقول: إلهي بمحمد وآله الطيبين اقضِ حاجتي، ويذكرها، فإنها تقضى بإذن الله اهـ.

(وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ) أَيْ: نطلب منك يا الله (السِّترَ) بفتح السين: الفعل الذي هو المصدر، وبكسرها: ما يستر به من ثوب ونحوها، ومنه ستر التابوت بالكسر. أَيْ: ستر قبائحنا أَيْ: بحجبها في الدنيا عن الآدميين، وفي الآخرة عن الملائكة، ولو كانت موجودة في الصحف.

(وَالصِّيَانَةَ) أَيْ: الحفظ من كل سوء. (وَالسِّرَّ) بكسر السين المهملة أَيْ: الإخلاص الكامل. (وَالصَّلَاحَ) أَيْ: الخير والصواب والإقامة على أداء الحق للخالق وللخلق، إذ الصالح مَنْ أدَّى حقوق الله وحقوق العباد. (وَالمُكَاشَفَةَ) أَيْ: الكشف وهو زوال الحجب عن عين القلب، فيشاهد علوم الأنوار ومخبآت الأسرار. (وَالبَرَكَةَ) بفتح الباء الموحدة والراء أَيْ: النمو والزيادة في كل شيء.

(وَالبِرَّ) بكسر الباء الموحدة: هو كلمة جامعة لكل نوع من أنواع الخير، كالصدق والتقوى أو الخير والفضل. (وَالمَغْفِرَةَ) أَيْ: محو الذنوب أو سترها. والقبائح الصادرة منا (فِي الأُولَى) بضم الهمزة المراد بها الدنيا بدليل مقابلتها بقوله: (وَالأُخْرَوِيَّة) أَيْ: وكذا سترها في الآخرة عن الملائكة وسائر الخلق.

(وَلا تَفْضَحْنَا) بفتح الضاد المعجمة: بكشف عيوبنا بأن تسترها، (اللَّهُمَّ) يا الله. (بَيْنَ عِبَادِكَ) جمع عبد أَيْ: جميع خلقك من إنس وجن ومَلَك،

ويجوز أن يكون المعنى: اعصمنا حتى لا نعصي فنستحق الكشف تفضلاً، أَيْ: اعصمنا العصمة الجائزة بمعنى الحفظ من الوقوع في المعاصي مع جوازها علينا. ومن ذلك ما حُكِي عن سيدي إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: اللَّهُمَّ إني أسألك العصمة لأمة سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنُودِي: تأدَّبْ يا إبراهيم، وعلى من أتكرَّم. أو ما معناه. وأما العصمة الواجبة فلا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ) يا اللَّه (يَا مَعْرُوفًا) يا معلومًا (بِالسِّتْران) بزيادة الألف والنون للسجع، وهو في الأصل: مصدر ستر أَيْ: حجب، وبالكسر: ما يستر به كما تقدَّم آنفًا. والمعنى يا معروفًا بالعفو وعدم المؤاخذة فلا تؤاخذنا بما صدر منا من الذنوب.

وهذا فيه براعة مقطع، وهي أن يأتي المُصنِّف في آخر كلامه بما يشعر بختم الكتاب. كأن المُصنِّف الأستاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ولا تفضحنا بالمؤاخذة بأن تستر علينا في تأليف هذا المولد في ذكر السير وألفاظها ومعانيها الصادرة منا. واللَّه أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

وقد انتهى كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والشرح عليه. ونستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ونتوب إليه.

خاتمة

في نبذة من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخصائصه وأعمامه وأولاده وأزواجه، ونبذة من مزايا أهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على العموم والخصوص.

فمن معجزاته القرآن وهو أعظمها، إذ هو باقٍ مستمر تؤخذ منه الأحكام والشريعة إلى يوم القيامة. قال القاضي عياض في "الشفا": اعلم وفقَّنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه: أولها حسن تأليفه والتيام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان -بفتح الذال المعجمة أَيْ: بساطته وحدته- ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب -أَيْ: يمنع أرباب العقول الخالصة أن يأتوا بمثله- فجعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به كلّ سبب، فيخطبون بديهة في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسّلون، ويتوصّلون ويرفعون ويضعون، فيأتون بالسّحر الحلال وهو ما لطف مبناه وشرف معناه، ويستعار للكلام البليغ، وقد ورد: إن من البيان لسحرًا، ويطوِّقون من أوصافهم -بكسر الواو المشددة- أَيْ: يحملون أجمل من سمط اللّآلئ، فيخدعون الألباب ويذلّلون الصّعاب أَيْ:

يهونونها، ويُذهبون أَيْ: يزيلون الإحن بكسر الهمزة وفتح الحاء جمع إحنة بكسر فسكون: وهي الحقد والضغينة، ويهيّجون الدّمن أَيْ: يحركون، ويلينون الحقد فى الباطن، وَيُجَرِّئُونَ الْجَبَانَ -بتشديد الراء المكسورة بعدها واو مهموزة مع ضم أوله وفتح المعجمة- والجبان: بفتح الجيم والموحدة المخففة: ضد الشجاع. وَيَبْسُطُونَ يَدَ الْجَعْدِ الْبَنَانِ -بضم السين أَيْ: يفتحون. ويصيّرون الناقص كاملاً، وَيَتْرُكُونَ النَّبِيهَ خَامِلًا أَيْ: المشهور بالنباهة أَيْ: متروكًا شأنه ومجهولًا بيانه. مِنْهُمُ الْبَدَوِيُّ ذُو اللَّفْظِ الْجَزْلِ أَيْ: صاحب الألفاظ التي فيها الجزالة والسلامة، وَالْقَوْلِ الْفَصلِ أَيْ: البيّن أمره. والكلام الفخم والطّبع الجوهري والمنزع القويّ -بفتح الميم والزاي- أَيْ: والمشرب الصافي. ومنهم الحضريّ ذو البلاغة البارعة -أَيْ: الفائقة اللائقة- والألفاظ النّاصعة أَيْ: الخالصة من شوائب الركاكة. والكلمات الجامعة والطّبع السّهل، وَالتَّصَرُّفِ فِي الْقَوْلِ الْقَلِيلِ الْكُلْفَةِ الْكَثِيرِ أَيْ: اليسير المؤنة، الرَّوْنَقِ الرَّقِيقِ الْحَاشِيَةِ أَيْ: الجزيل الحسن في المبنى واللطيف الطرف في المعنى، وَكِلَا الْبَابَيْنِ فَلَهُمَا فِي الْبَلَاغَةِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ أَيْ: الواصلة إلى مقام النهاية، وَالْقُوَّةُ الدَّامِغَةُ أَيْ الماحقة للأمور الزاهقة، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾، وَالْقِدْحُ الْفَالِجُ -بكسر القاف أَيْ: السهم الفالج أَيْ: الفائز الغالب-، وَالْمَهْيَعُ أَيْ: الطريق الواسع وَالنَّاهِجُ أَيْ: السبيل السالك، لَا يَشُكُّونَ أَنَّ الْكَلَامَ طَوْعُ مُرَادِهِمْ وَالْبَلَاغَةَ ملك قيادهم -بكسر الميم والقياد: ما تربط به الدابة-، قَدْ حَوَوْا فُنُونَهَا أَيْ: حازوا وجمعوا، واستنبطوا عيوبها أَيْ: واستخرجوا من

معانيها لبابها، وَدَخَلُوا من كُلِّ بَابٍ من أَبْوَابِهَا، وَعَلَوْا صَرْحًا لِبُلُوغِ أَسْبَابِهَا، فَقَالُوا فِي الْخَطِيرِ وَالْمَهِينِ أَيْ: في العظيم والحقير، وَتَفَنَّنُوا فِي الْغَثِّ وَالسَّمِينِ -بفتح الغين المعجمة وتشديد المثلثة أَيْ: المهزول-، وَتَقَاوَلُوا فِي الْقُلِّ وَالْكُثْرِ -بضم القاف والكاف أَيْ: في القليل والكثير، وَتَسَاجَلُوا فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ -بالسين المهملة والجيم أَيْ: تراسلوا، فَمَا رَاعَهُم أَيْ: ما أفزعهم، إِلَّا رَسُولٌ كَرِيمٌ بِكِتَابٍ عَزِيزٍ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ وَفُصِّلَتْ كَلِمَاتُهُ، وَبَهَرَتْ بَلَاغَتُهُ الْعُقُولَ أَيْ: غلبتها، وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ، وَتَظَافَرَ إِيجَازُهُ وَإِعْجَازُهُ، وَتَظَاهَرَتْ حَقِيقَتُهُ وَمَجَازُهُ، وَتَبَارَتْ فِي الْحُسْنِ مَطَالِعُهُ وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوْت كُلَّ الْبَيَانِ جَوَامِعُهُ وَبَدَائِعُهُ، وَاعْتَدَل مَعَ إِيجَازِهِ حُسْنُ نَظْمِهِ، وَانْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِه مُخْتَارُ لَفْظِهِ أَيْ: من إيجاز مبانيه، وهُمْ أَفْسَحُ مَن كَان فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالًا، وَأَشْهَرُ فِي الْخَطَابَةِ أَيْ: في باب المخاطبة والمحاورة، رِجَالًا، وَأَكْثَرُ فِي الشِّعْرِ وَالسَّجْعِ أَيْ: الكلام المقفى في النثر، وَأَوسعُ فِي الْغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالًا بِلُغَتِهِم التي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ وَمَنَازِعِهِمُ التى عنها يتناضلون أَيْ: يتغالبون، صَارِخًا بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ أَيْ: حال كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعيًا لهم ومناديًا، وَمُقَرِّعًا لَهُمْ -بتشديد الراء المكسورة بعد القاف أَيْ: موبّخًا، بضعًا وَعِشْرِينَ عَامًا، والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، والمراد به هنا ثلاثة، عَلَى رؤوس الْمَلأَ أَجْمَعِينَ أَيْ: الرؤساء الأشراف.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ هذا اقتباس أورده شاهدًا على ثبوت دعواه، بل يقولون اختلقه محمد، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيْ: استعينوا بمن يمكن استعانتكم به، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أَيْ: معينًا، أَيْ: في كمال مبناه وبلاغة معناه.

وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أَيْ: مختلقات من عند أنفسكم، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُفْتَرَى أَسْهَلُ وَوَضْعُ الْبَاطِلِ وَالمُخْتَلقِ عَلَى الاخْتِيَارِ أَقْرَبُ، وَاللَّفْظُ إِذَا تَبِعَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ كَانَ أَصْعَبَ، وَلِهَذَا قِيلَ فُلانٌ يَكْتُبُ كما يُقَالُ لَهُ وفُلانٌ يَكْتُبُ كَمَا يُرِيدُ، وَلِلأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي فَضْلٌ، أَيْ: الأول من الكاتبين، وَبَيْنَهُمَا شَأْوٌ بَعِيدٌ -بالهمزة بعد المعجمة أَيْ: فرقٌ بعيد، فَلَمْ يَزَلْ يُقرّعُهُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ التَّقْرِيعِ وَيُوَبّخُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ وَيُسَفِّهُ أَحْلامَهُمْ -أَيْ: ينسب عقولهم إلى السفه-، وَيَحُطُّ أَعْلَامَهُمْ وَيُشَتّتُ نِظَامَهُمْ، وَيَذُمُّ آلِهَتَهُمْ أَيْ: يعيبها في حد ذاتها بقوله لَهُمْ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾، وَإِيَّاهُمْ بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِصُونَ أَيْ: راجعون القهقرى، مُحْجِمُونَ أَيْ: متأخرون عَنْ مُمَاثَلَتِهِ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ بِالتَّكْذِيبِ وَالْإِغْرَاءِ بِالافْتِرَاءِ، وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ

الْبَشَرِ﴾ ، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أَيْ: يروى عن أهل بابل وغيرهم، و﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أَيْ: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾، و﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ أَيْ: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾، و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والمباهتة وَالرِّضَى بِالدَّنِيئَةِ كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، و﴿فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ أَيْ: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾. و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أَيْ: بالخرافات من الكلام وَالادّعَاءُ مَعَ الْعَجْزِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وقد قال لهم الله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا، وَمَنْ تَعَاطَى ذَلِكَ من سُخَفَائِهِمْ أَيْ: سفهائهم كَمُسَيْلِمة الكَذَّاب كَشَفَ عُوَارَهُ لِجَمِيعِهِمْ، وَسَلَبَهُمُ اللهُ مَا أَلِفُوهُ من فَصِيحِ كَلامِهِمْ، وَإِلَّا فَلَمْ يَخْفَ عَلَى أَهْلِ المَيْزِ -أَيْ: أصحاب التمييز- مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ من من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عند مدهرين وأتوا إليه مذعنين من بين مهتد وبين مفتون أَيْ: مستخبر، ولهذا لما سمع المغيرة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، قال: واللَّه إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة -بفتح الطاء أي: رونقًا وحسنًا، وإن أسفله لمغدق، هو إشارة إلى جريان معانيه فى قالب مبانيه، وإن أعلاه لمثمر، إشارة إلى غزارة فهمه، ما يقول هذا بشر.

وذكر أبو عبيد: أن إعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فسجد، وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر يقرأ ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ

خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أَيْ: يأسوا يأسًا كبيرًا -فالسين والتاء للمبالغة- وقوله: خلصوا نجيًّا أَيْ: انعزلوا. فقال -أَيْ الإعرابي- أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وحكي: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يومًا نائمًا في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد بشهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلًا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأمّلتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك!، فقالت: أوَ بعد هذا فصاحة بعد قول اللَّه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، فجمع اللَّه فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته غير مضاف إلى غيره على التحقيق. وكلام الجارية هو قولها:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَنبي كُلِّهْ   قتلْتُ إِنْسانًا بِغَيْرِ حِلِّهْ
مِثْلَ غَزالٍ كانِسٍ فِي ظِلِّهْ   وانْتَصَفَ اللَّيْلُ ولَمْ أُصَلِّهْ

فقال لها: وأوحينا إلى أم موسى أَيْ: أشرنا إليها إلهامًا أو منامًا، والأمران هما أرضعيه وألقيه، والنهيان هما لا تخافي ولا تحزني، والصحيح من القولين، وكون القرآن من قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: من جهته، وأنه أتى به معلوم ضرورة، وكونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ متحديًّا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الاتيان به معلوم ضرورة،

وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة وسبيل من ليس من أهلها، علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأمَّلتَ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ، وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، وقوله: خذنا ﴿أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وأشباهها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم أَيْ: توافق كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة وفصولاً جمَّة وعلومًا زواخر مُلئت الدواوين من بعد ما استُفيد منها وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آية لمتأمّله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها.

ثم إذا تردد قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسى في البيان صاحبتها وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معادة لمُعادها -بضم الميم-.

فصلٌ: الوجه الثاني من إعجاز القرآن صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله

ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد على مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم وتدلهت -بالدال المهملة أو تولهت أَيْ: اندهشت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.

ولمَّا سمع كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوليد ابن المغيرة وقرأ عليه القرآن رقَّ له، فجاءه أبو جهل منكرًا عليه فقال: واللَّه ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، واللَّه ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا. وفي خبره الآخر حين جمع قريشًا عند حضور الموسم، وقال: إن وفود العرب -جمع وفد أَيْ: أقوامها- فاجتمعوا فيه رأيًا لا يكذب بعضكم بعضًا. فقالوا: نقول كاهن، قال: واللَّه ما هو بكاهن، أَيْ: يُخبر عن الكائنات في الأزمنة الآتية يدعي معرفة أسرار المغيبات، ما هو بزمرته أَيْ: الكاهن أَيْ: إحضاره الجن لأخبار بخبره ولا بسجعه، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه -بفتح الخاء وكسر النون وتسكن وفتح القاف- أَيْ: ليس مما أصابه الجن ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه أَيْ: نفخه، يشير لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، ولا عقده، وقالوا: فما نقول؟، قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا، ألا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقرب القول أنه ساحر، وإنه سحر يفرّق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه أَيْ: زوجته، والمرء وعشيرته، فتفرّقوا وجلسوا على السبل يحذّرون الناس،

فأنزل اللَّه تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآيات، وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته، ولقد سمعت قولاً واللَّه ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. وقال النضر بن الحارث مثله. وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخاه أنيسًا فقال: واللَّه ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد نافض أَيْ: عارض اثنى عشر رجلاً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: فما يقول الناس؟، قلت: يقول شاعر كاهن ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت إقراء الشعر -بفتح أوله ومد ثالثه- أَيْ: طرقه، وأنواع بحوره فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق أَيْ: في دعوى الرسالة، وإنهم لكاذبون أَيْ: فيما يقولونه. والأخبار في هذا صحيحة كثيرة، والإعجاز بكل واحد من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتهم مباين لفصاحتها وكلامها. وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين، وذهب بعض المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقول تمجه الأسماع وتنفر القلوب، والصحيح ما قدمناه، والعلم بهذا كله ضرورة وقطعًا، ومَن تفنّن في علوم البلاغة وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول أنه مما جمع في قوة جزالته أَيْ: لطائف مقاليه وفصاحة ألفاظه أَيْ: خلوص معانيه وشرائف مبانيه، وعلى الطريقين أَيْ: كونه معجزًا بذاته ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله، أو بتعجيز اللَّه سبحانه لهم عن معارضته وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه، لا يصح أن يكون في مقدار البشر وأنه من باب الخوارق الممتنعة على أقدار الخلق عليها، كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا. وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم اللَّه تعالى عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم اللَّه هذا وعجزهم عنه، وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين أَيْ: وهما المتقدمان في كونه معجزًا بذاته إلخ، فعجز العرب عنه ثابت وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع وهو أبلغ في التعجيز وأحرى أَيْ: أليق وأولى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم، وهو أبهر آية وأقمع دلالة.

وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال بل صبروا على الجلا -بفتحتين ومد- أَيْ: الخروج من أوطانهم والقتل، وتجرعوا آيات الصَّغار -بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة- أَيْ: الحقارة والذل، وكانوا من شموخ الأنف أَيْ: رفعته كبرًا وعتوًا وإباءة الضيم -بكسر أوله وموحدة وياء وهمزة بعد ألف- بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارًا ولا يرضونه إلا اضطرارًا، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم والشغل بها أهون عليهم

وأسرع بالنجح أَيْ: الظفر وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم، أَيْ: إلزام جَهَد جُهده -الأول فعل والثاني مصدر وجيم الأول مفتوحة وكذا الثاني ويضم-، والمعنى بذل جهده وبالغ. وهم مَن هم قدرةً وقُدوة في المعرفة به لجميع الأنام، وما منهم إلا من جَهَد جُهده وَاسْتَنْفَذَ ما عنده -بالمهملة آخره- أَيْ: استفزع ما عنده في إخفاء ظهوره وإطفاء نوره، فما جعلوا في ذلك خبيئة من بنات شفاههم ولا أتوا بنطفة من معين مياههم، أَيْ: ظواهر أنوار بلاغتهم وأسرار فصاحتهم من طول الأمد وكثرة العدد وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسوا فما نبسوا ومنعوا فانقطعوا، فهذان النوعان أَيْ: اجتماعًا وانفرادًا من إعجازه.

فصلٌ: الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ أَيْ: الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أَيْ: للفرس ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أَيْ: سيغلبونهم. وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَيْ: يغلبه. وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها أَيْ: فتح مكة زادها الله شرفًا، فكان جميع هذا كما قال: فغلبت الروم فارس ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، ودخل الناس الإسلام بعد فتح مكة أفواجًا فوجًا بعد فوج أَيْ: جماعة بعد جماعة من أهل مكة والطائف واليمن وغيرهما. فما مات عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام،

واستخلف المؤمنين في الأرض ومكَّن فيها دينهم وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما رواه مسلم: زويت لي الأرض فأُريت مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها. وزُوِي -بضم الزاي- أَيْ: جُمعت وطُويت لي الأرض إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيْ: من التحريف من الزيادة وغيرها أَيْ: حافظون أهله، فكان كذلك ولا يكاد يعد من يسعى في تغييره وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة لا سيما القرامطة، فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم أَيْ: اتفقوا على الكيد والجهد اليوم نيفًا على خمسمائة عام فما قدروا على إطفاء شيء من نوره ولا من تغيير كلمة من كلمه، ولا تشكيك في حرف من حروفه، والحمد للَّه.

ومن إعجاز القرآن قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ " الآية، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ أَيْ: ضررًا يسيرًا بطعن وتهديد في الدين، وما فيه من إيضاح أقوالهم وإفصاح أفعالهم فكان كل ذلك، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ أَيْ: هل يعذبنا أَيْ: يعابنا بقولنا بما نقول في محمد طعنًا منا فيه وفي الإسلام ودفعًا عنا بالسأم بدل السلام. وقوله تعالى﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيْ: بعض

اليهود، قال تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾، وقد قال مبديًا ما قدره الله وما اعتقده المؤمنون يوم بدر أَيْ: على وفق رضاهم من الظفر بإحدى الطائفتين أَيْ: القافلة الراجعة من الشام والآتية من بيت الله الحرام: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾. ومنه قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، ولما نزلت بشّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان المستهزؤن نفرًا بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة صحيحة، والمستهزؤون هم: الوليد، وعدي، والحارث بن قيس، والأسود ابن عبد يغوث، وابن المطلب، وأبو لهب، والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن أبي العاص إلا أنه أسلم يوم الفتح، والباقون أهلكوا بأنواع من العقوبة.

فصلٌ: الوجه الرابع: ما أنبأ به من الأخبار السالفة والأمم البائدة أَيْ: الفانية الهالكة والشرائع الداثرة أَيْ: الدارسة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ أَيْ: المنفرد عن أقرانه من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك فيورده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجهه ويأتي به على نصه فيعترف العالِم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمّي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة -بالثاء المثلثة والفاء والنون- أَيْ: مجالسة مع الشعراء

والفضلاء، لم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم، وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب أهل الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء والقصص، وبدء الخلق، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، مما صدقه فيه العلماء من أهل الكتاب ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك فمن موفَّق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد وحاسد.

ومع هذا فلم يحك عن أحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وَتَقْرِيعِهِمْ بما انطوت عليه مصاحفهم أَيْ: كتبهم وكثرة سؤالهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكنون شرائعهم ومضمنات كتبهم مثل سؤالهم عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف وعيسى وحكم الرجم وما حرَّم إسرائيل على نفسه وما حرَّم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أُحلّت لهم فحُرّمت عليهم ببغيهم، وقوله تعالى ذلك: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾، وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم وعرَّفهم بما أُوحِي إليه من ذلك، فما سمع عن أحد منهم أنه انكر ذلك وكذَّبه، بل أكثرهم صرَّح بصحة نبوته وصدق مقاله، واعترف بعناده وحسدهم إياه كأهل نجران وابن صوريا -بضم الصاد وكسر الراء- وابن

أخطب -بالخاء المعجمة- وابناه يهوديان هلكا على كفرهما وغيرهم، ومن باهت أَيْ: باحث في ذلك بعض المباهتة، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دُعِي إلى إقامة حجته وكشف دعوته، فقيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالِمُونَ﴾، فقرع ووبَّخ ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحده ومتواقح - بالقاف والحاء- أَيْ: قليل حياء يلقى على فضيحته من كتابه يده، ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفه، قال اللّٰه تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

فصلٌ: هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيّنة لا نزاع فيها ولا مرية، ومن الوجوه الأربعة البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه آيٌ وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾، قال أبو إسحاق الزجَّاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال لهم: فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم. وعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا غُصّ بريقه، يعني بموته مكانه فصرفهم اللّٰه عن تمنيه وجزَّعهم ليظهر صدق رسوله وصحة ما أوحي إليه، إذ لم يتمنه أحد منهم، وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا، ولكن اللّٰه يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزاته وبانت حجته. قال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم

أنه لا يوجد منهم جماعة ولا واحد من يوم أمر الله تعالى بذلك نبيه يُقدِم إليه عليه ولا يجيب إليه، وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم.

وكذلك آية المباهلة أَيْ: الملاعنة من هذا المعنى حيث وفد عليه أساقفة أَيْ: رؤساء نجران، وأبوا الإسلام، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، فامتنعوا منها ورضوا بأداء الجزية، وذلك أن العاقب عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي وأنه مالا عن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم. ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، فأخبرهم أنهم لا يفعلون ذلك كما كان، وهذه الآية تدخل في باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

ومن المعجزات أيضًا انشقاق القمر: طلب كفار قريش منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية، فسأل الله تعالى فانشق القمر فرقتين، فرقة فوق أبي قبيس وفرقة دونه، شاهد ذلك الداني والقاصي، واستمر ذلك حتى غرَب، وكان أربعة عشر، فزاد الله الذين آمنوا إيمانًا، وقال الكفار: هذا سحر مستمر. وفي روايةٍ: فرقة بالمشرق وفرقة بالمغرب. قال الحلبي: ولعل الفرقة التي كانت فوق أبي قبيس كانت جهة المشرق، والتي دونها جهة المغرب، فلا تنافي.

وكان انشقاقه في السنة التاسعة من النبوة. قيل: وهو الذي يلي من المعجزات القرآن في الرتبة وشق الصدر، وإخباره عن بيت المقدس صبيح ليلة الإسراء، حين سأله المشركون عن صفته، ولم يكن رآه قبله،

فرفعه له جبريل حتى وصفه لهم، وحبس الشمس له عند الغروب حتى قدمت العير، التي لقيته في منصرفه من المعراج، وأخبرهم بأنها تقدم في يوم كذا، فلما كان ذلك اليوم دنت الشمس للغروب ولم تجئ العير، وردها بعد غروبها على علي بن أبي طالب بدعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدرك علِيّ صلاة العصر أداءً. وخروجه على المجتمعين على بابه لقتله ووضعه التراب على رؤوسهم من غير أن يروه. ورميه يوم حنين بقبضة من تراب في وجوه القوم فهزمهم اللَّه تعالى. ونسج العنكبوت بفم الغار، ووقوف الحمامتين الوحشيتين على بابه، ونبات الشجرة في وجهه، وما جرى لسراقة بن مالك. وشاة أم معبد في قصة الهجرة. ودعوته لعمر أن يعز اللَّه به الإسلام، فكان ذلك. ولعلي أن يذهب عنه الحر والبرد، فلم يشتك واحدًا منهما بعد ذلك، وكان يلبس ثياب الشتاء في الصيف وثياب الصيف في الشتاء، ولا يتأثر. ولعبد اللَّه بن عباس بأن يعلّمه اللَّه التأويل ويفقهه في الدين، فكان ذلك. ولجمل جابر وصار سابقًا بعد أن كان مسبوقًا. ولأنس بن مالك بطول العمر وكثرة المال والولد، فعاش فوق المائة، وكان من أكثر الأنصار مالاً، ولم يمت حتى رأى مائة ذكر من صلبه، كما في "نور النبراس". ولجابر بالبركة في تمر حائطه فأوفى غرماءه، وفضل ثلاثة عشر وسقًا.

وعلى عتيبة بن أبي لهب بأن يسلّط اللَّه عليه كلبًا، فافترسه كالاسد من بين قومه. وعلى عامر بن أبي الطفيل بأن يشغله اللَّه عنه بداء يقتله، فأصابه طاعون في عنقه ومات. وقوله لرجل يأكل بشماله: كُل بيمينك، فقال: لا

استطيع، فقال له: لا استطعت، فلم يطق أن يرفعها إلى فيه بعد ذلك. وقوله في امرأة خطبها، فقال أبوها: إن بها برصًا، امتناعًا من الإجابة ولم يكن بها برص: فلتكن كذلك، فبرصت حالًا. وقوله للحكم بن أبي العاص حين جاء يرتعش مستهزئًا كذلك: فكن، فلم يزل يرتعش حتى مات.

وشهادة الضب والذئب له بالرسالة. وشهادة الشجرة له بالرسالة، وإتيانه إليه فستره حتى قضى حاجته، وإتيانه إليه فاظله من الحر. وتسليم الشجر والحجر عليه. وسكون جبل أُحُد لمّا ضربه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ برجله وقال له حين صعد عليه هو وأبو بكر وعمر وعثمان فاضطرب بهم: اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ. وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه لما فارقه للمنبر. وتأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه كما سيأتي. وشكوى بعير إعرابي له قلة العلف وكثرة العمل. وشكوى بعض الطيور له أخذ بيضة فأمر من أخذه برده. وتسبيح الحصى في كفه. وتسبيح الطعام بين أصابعه. ونبع الماء من بينها حتى روى الجيش العظيم، وسقوا إبلهم وخيلهم وملأوا أوعيتهم، وقد وقع ذلك منه مرارًا. وإطعام ألفًا من صاع شعير بالخندق. وإطعام الجيش العظيم من فضل زواد يسير حتى شبعوا وملأوا أوعيتهم، وقد وقع منه تكثير الطعام القليل مرارًا.

ورَدّ عين قتادة بن النعمان بعد أن سالت على خده، فكانت أحسن عينيه. وتفله في عين علِيّ وهو أرمد يوم خيبر، فعُوفِي من ساعته ولم ترمد بعد ذلك، وعلى إثر سهم أصاب وجه أبي قتادة، فما ضرب عليه ولا قاح.

وعلى شجة عبد اللَّه بن أنيس فلم تؤلمه. وعلى ضربة بساق سلمة بن الأكوع فبرئت. وعلى رجل ورأس زيد بن معاذ حين أصيبا بسيف فبرئا. وعلى يد معاذ بن عفراء وقد قطعت فالتصقت. وعلى ضربة بعاتق خبيب أمالت شقه فبرئت وارتد شقه مكانه. وعلى عينَيْ رجل ابيضتا حتى لم يبصر بهما شيئًا فأبصر، وكان وهو ابن ثمانين سنة يدخل الخيط في الإبرة.

وتفجَّر ماء البئر وانقلابه عذبًا بتفله فيها. ومسحه على رأس الأقرع فذهب داؤه. وعلى رجل عبد اللَّه بن عتيك وقد انكسرت، فكأنها لم تنكسر قط. وعلى جسد عتبة بن فرقد السلمي، فكان يشم منه رائحة الطيب دايمًا ولا يمس طيبًا. وتساقط الأصنام المعلّقة حول الكعبة يوم فتح مكة، حين أشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾. وإعطاؤه عكاشة بن محصن يوم بدر جذلًا من حطب، فصار في يده سيفًا، ولم يزل عنده. وكذلك وقع لعبد اللَّه بن جحش يوم أُحُد. وأحيى بنت دعا أباها إلى الإسلام، فقال: لا أؤمن بك حتى تحيي لي بنتي، فذهب معه إلى قبرها فناداها، فقالت: لبيك وسعديك. فقال: أتحبين أن ترجعي إلى الدنيا، فقالت: لا واللَّه إني وجدت اللَّه خيرًا لي من أبوَيّ، ووجدت الآخرة خيرًا من الدنيا.

وأحيى أبواه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى آمنا به. وأبرأ الأمراض كما بيّن في السير. واستسقاؤه فأمطرت السماء أسبوعًا، فشكوا له من المطر فاستصحى لهم فانجاب السحاب، قيل: وتأثير قدمه في بعض الأحجار، وعدم تأثير قدمه في الرمل. قال بعضهم: لعل هذا كان ليلة الغار لإخفاء

أثره سيره عن المشركين.

وإخباره عن المُغيّبات: كإخبار عن مصارع المشركين يوم بدر، فلم يعد أحد منهم مصرعه. وبأن طائفة من أمته يغزون البحر، منهم أم حرام بنت ملحان، فكان ذلك. وبموت النجاشي يوم مؤتة وصلى عليه مع أصحابه. وبقتل الأسود العنسي الذي ادعى النبوة وهو بصنعاء ليلة قتله وبمن قتله. وبمقتل كسرى وهو بفارس يوم قتله. وقوله لثابت بن قيس: تعش حميدًا وتقتل شهيدًا، فقُتل يوم اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب في خلافة الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله في الحسن بن علي: إن ابني هذا سيد، ولعل اللَّه يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فصالح معاوية وحقن دماء الفئتين، كما سيأتي بسطه اهـ.

وإخباره بأن عثمان بن عفان تصيبه بلوى شديدة فأصابته، حُوصِر في داره وقُتل. وبأن عمر يموت شهيدًا، فطعنه الشقي أبو لؤلؤة عبد المغيرة فمات. وقوله للزبير بن العوام في حق علِيّ: تقاتله وأنت ظالم له، فكان ذلك في وقعة الجمل، حين خرج هو وطلحة وعائشة وجيشهم على علِيّ، مطالبين بدم عثمان بن عفان. وقوله لزوجاته: أيتكن تنبحها كلاب الحوأب أيتكن صاحبة الجمل الأدب -بدال مهملة ثم بموحدتين أَيْ: كثير الشعر-، يقتل حولها كثير، وتنجو بعد ما كادت، فكانت تلك عائشة جرى لها ذلك في وقعة الجمل. وقوله لعمار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، فقتله جيش معاوية بصفين، وكان عمار مع علِيّ.

وقوله لعلي بن أبي طالب: أشقى الناس رجلان، الذي عقر الناقة، والذي يضربك على هذه، وأشار إلى يافوخه، حتى تبتل منه هذه، وأشار إلى لحيته، فوقع له ذلك، وقُتِل كما سيأتي بسطه. وقوله لقيس القيسي وقد قال له: يا رسول اللَّه أبايعك على ما جاء من اللَّه، وعلى أن أقول الحق: يا قيس عسى إن مر بك الدهر أن يليك ولاة لا تستطيع أن تقول معهم الحق، فقال قيس: لا واللَّه لا أبايعك على شيء إلا وفيت به، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذن لا يضرك بشر، فكان قيس يعيب زيادًا وابنه عبيد اللَّه وأمثالهما، فبلغ ذلك عبيد اللَّه ابن زياد، فأرسل إليه فقال له: أنت الذي تفتري على اللَّه وعلى رسوله، فقال: لا واللَّه، ولكن إن شئت أخبرتك بمن يفتري على اللَّه وعلى رسوله، قال له: ومن هو؟، قال: من ترك العمل بكتاب اللَّه وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ومَنْ ذاك؟، قال: أنت وأبوك ومَن أمَّركما، قال: وأنت الذي تزعم أنك لا يضرك بشر، قال: نعم، قال: لتعلمن به اليوم إنك كاذب، ائتوني بصاحب العذاب، فمال قيس عند ذلك فمات.

ومعجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من أن تحصى.

ذكر نبذة من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هي أربعة أنواع: ما اختص بوجوبه عليه لعلم اللَّه تعالى أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أقوم به وأصبر عليه من غيره، ولزيادة ثواب الفرض على ثواب النفل غالبًا، ومن غير الغالب إبراء المعسر فإنه سنة وإنظاره واجب، والأول أفضل، وابتداء السلام فإنه سنة ورده واجب، والأول أفضل، والتطهير قبل الوقت فإنه سنة

وبعده واجب، والأول أفضل.

وما اختص بتحريمه لعلم الله أنه أصبر على تركه، ولزيادة ثواب ترك الحرام على ترك المكروه والمباح، وما اختص بإباحته تسهيلاً عليه، وما اختص باتصافه به لمزيد فضله وشرفه، فمن النوع الأول ركعتا الضحى وركعتا الفجر وصلاة الوتر والتضحية، ونظر في وجوب الأربعة عليه بما هو مُبين في "السيرة الحلبيَّة"، والتهجد، وقيل: نُسِخ وجوبه في حقه، والعقيقة والسواك وغسل الجمعة، ومشاورة العقلاء في الأمور الاجتهادية، ومصابرة العدو في الحرب وإن كثر، وقضاء دين من مات معسرًا من المسلمين، وأداء الجنايات والكفارات عمن لزمته من معسري المسلمين، وتخيير نسائه بين الدنيا والآخرة، وطلاق من اختارت الدنيا، وإمساك من اختارت الآخرة، وقيل: لا يجب عليه إمساكها. قال شيخ الإسلام وغيره وهو الأصح.

ومن النوع الثاني: أكل الصدقة ولو منذورة أو نفلًا، والكفارة، والموقوف إلا على جهة عامة كالآبار الموقوفة على المسلمين، ويشاركه في الصدقة الواجبة فقط آله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهل بقية الأنبياء يشاركون في ذلك نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لا؟، ذهب الحسن البصري إلى الأول، وسفيان بن عيينة إلى الثاني، وأن يعطى شيئًا لأجل أن يأخذ أكثر منه، وتعلُّم الكتابة، وإنشاد الشعر وروايته لا التمثل به، والفرق بين روايته والتمثل به اشتمال الرواية على قوله: قال فلان ففيه رفعة للقائل بسبب قوله، وهذا يتضمن رفع شأن الشعر المطلوب منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ ترك رفع شأنه بخلاف التمثل، ونزع لامته إذا لبسها لقتال قبل أن يحكم الله بينه وبين عدوه، ويشاركه في هذا بقية الأنبياء وخائنة الأعين وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب مع إظهار خلافه، ونكاح الكتابية قيل: والتسري بها والمرجح خلافه، ونكاح الأَمة المسلمة.

ومن النوع الثالث: القُبلة في الصوم مع الشهوة، والخلوة بالأجنبية، والدخول بامرأة خلية رغب فيها من غير لفظ نكاح أو تزوج منه وهبة منها، وقيل: يشترط لفظ نكاح أو تزوج منه في غير التي زوّجه الله إياها واعتمدوه، ومن غير ولي وشهود ومن غير رضاها ورضا وليها، وطلب امرأة متزوجة رغب فيها مع وجوب الطلاق على الزوج والهبة على السيد وتزوجه حال إحرامه، وقيل: يحرم عليه كغيره واعتمدوه وبلا مهر، قال الحلبي: قال المُحقِّقون: معنى ما في "البخاري" وغيره من أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل عتق صفية صداقها أنه أعتقها بلا عوض وتزّوجها بلا مهر، فقول أنس: أمهرها نفسها معناه أنه لم يصادقها شيئًا فكان العتق كأنه المهر، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك اهـ

وتزوَّجه أكثر من أربع، ومثله في هذا بقية الأنبياء، وتزويجه المرأة لمن شاء بغير رضاها ورضا وليها وبغير ولي وشهود وبغير مهر وبغير حضور الزوج، فيتولى الطرفين، واصطفاؤه من الغنيمة قبل القسمة ما شاء، ودخول مكة بلا إحرام، وقضاؤه بعلمه ولنفسه ولولده، والشهادة لنفسه ولوالده، والشهادة له بما دعا مع عدم علم الشاهد وقيامه مقام شاهدين، وقضاؤه حال غضبه، وإقطاعه الأرض قبل أن يفتتحها، وأخذ طعام أو

شراب احتاج له من مالكه المحتاج إليه، والصلاة بعد النوم، قيل: واللمس بلا تجديد طهر، وعدم إخراج زكاة المال، وشاركه في هذين بقية الأنبياء.

ومن النوع الرابع وهو أكثر الأنواع: أنه أول الانبياء خلقًا وآخرهم بعثًا، ومعنى كونه أولهم خلقًا أن اللَّه تعالى خلق روحه قبل سائر الأرواح، وشرَّفها بالنبوة إعلامًا للملإ الأعلى برتبته، فالنبوة صفة روحه فهي باقية بعد موته، ولا يضر انقطاع الوحي بعد كمال دينه، وعلى ما ذُكر حُمِل ما ورَد: أن اللَّه خلق نوره قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام. كذا في "شرح الشهاب على الشفا". والأوفق بقوله فهي باقية بعد موته، أن مراده بالنبوة قوة الاستعداد للإيجاد بشرع لا نفس الإيجاد، ولدينا في ما مَرَّ حديث: كنتُ نبيًّا وآدم بين الروح والجسد. وفي روايةٍ: وإن آدم لمنجدل في طينته أَيْ: مُلقى على الجدلة أَيْ الأرض، لأن الإخبار بحصول النبوة في وقت متأخر لا ينافي حصولها في وقت سابق عليه أيضًا.

وأنه أول من أخذ عليه الميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وأول مَنْ قال: ﴿بَلَى﴾. وأول مَن ينشق عنه القبر. وأول شافع وأول مشفَّع. وأول مَنْ يُكسى في الموقف من حُلل الجنة أَيْ: بعد كسوة إبراهيم الخليل، كما في حديث في "مُسند أحمد"، وإنما قُدِّم جزاءً لما فعله نمرود حين عرَّاه ليلقيه في النار. قاله الشهاب.

وأول مَنْ يُؤذن له في السجود. وأول من ينظر إلى الرب. وأول مَنْ يمر على الصراط. وأول مَنْ يدخل الجنة ومعه فقراء المسلمين. وأنه أكرم الخلق على اللَّه. وأن دار هجرته التي هي المدينة آخر الدنيا خرابًا، وأن

جميع ما في الكون خُلِق لأجله، وأن اسمه مكتوب على العرش، وعلى كل سماء وما فيها، وعلى الجنان وما فيها، وعلى بعض الأحجار وبعض أوراق الشجر وبعض الحيوانات. وأنه أُعطِي من كنز تحت العرش أم الكتاب وآية الكرسي وخواتيم سورة البقرة وسورة الكوثر، ولم يعط مثله غيره، والأصح أن المراد بالكوثر في السورة نهر في الجنة أُعطِيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أحلى من العسل وأبيض من الثلج، طينه مسك وحصاؤه دُرّ وياقوت، يسيح على وجه الأرض بلا أخدود كبقية أنهار الجنة، يصب منه ميزابان في حوضه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي هو خارج الجنة.

وأنه يحرم نكاح أزواجه وإن لم يدخل بهن على المعتمد، وسراريه على غيره، ومثله في ذلك بقية الأنبياء، كما قاله جماعة. ورؤية أشخاصهن في الأزر، وسؤالهن من غير حجاب.

وأن اللَّه تعالى أخذ الميثاق على سائر النبيين أن يؤمنوا به وينصروه إن أدركوه، وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك. وأنه يحشر على البُراق، وأما بقية الأنبياء فعلى الدواب. وأنه شقّ صدره المرات العديدة، وأما غيره من الأنبياء فلم يقع له ذلك رأسًا على قول وقع بلا تكرار على قول آخر. وأن خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه، حيث يدخل الشيطان لغيره، وأما بقية الأنبياء فخواتمهم في أيمانهم. ولا رُؤِي له ظل. وأن الذباب لا يقع على ثيابه فضلاً عن جسده. ولا يمتص نحو البعوض والقمل دمه، وإن كان يوجد في ثيابه، ومن ثَمَّ كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يفلي ثوبه. وأنه إذا ركب دابة لا تبول ولا تروث وهو راكبها.

وأنه إذا ماشاه الطويل طاله، وإذا فارقه كان ربعة. وأنه اذا جلس يكون كتفه أعلى من أكتاف الجالسين. وأن الشيطان لا يتمثل به في المنام، لكن اختلفوا فقيل: محله إذا رآه النائم بصورته المعروفة التي كان عليها قبل موته، وقيل: لا يتمثل به سواء رآه النائم بصورته المعروفة أو بغيرها.

وأن مسجده لو وسع جدًا لم تختلف أحكامه الثابتة له، كمضاعفة الأجر على الأصح، ومثله مسجد مكة. وأنه أُرسل للناس كافة إنسها وجنها إجماعًا، وكذا الملائكة على الأصح عند جماعة.

وأن اللَّه تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء حيث قال: ﴿يَا آدَمُ﴾ ﴿يَا نُوحُ﴾ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿يَا دَاوُودُ﴾ ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ ﴿يَا يَحْيَى﴾ ﴿يَا عِيسَى﴾، بل خاطبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِـ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾. وأنه تعالى أقسم بحياته حيث قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وأنه رأى جبريل فى صورته التي خلقه اللَّه تعالى عليها مرتين، مرة حين سأله أن يريه نفسه، وذلك في أول البعثة، وهذه المرة هي المعينة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، وقوله: ﴿فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾، ومرة ليلة الإسراء وهي المعينة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، ولم يره نبي غيره على صورته. وأن إسرافيل هبط عليه ولم يهبط على نبي قبله.

وأنه يحرم التزوُّج على بناته، وقيل: على فاطمة خاصة. قال الحلبي: وأما التسري إلا عليهنّ فلم أقف على حكمه، وما علل به منع التزويج

عليهنّ حاصل في التسري إلا أن يفرق. وأن فضلاته طاهرة قال بعضهم: وكذا بقية الأنبياء. وأنه يخص من يشاء بما شاء من الأحكام، كجعله شهادة خزيمة بشهادة اثنين. وترخيصه لأم عطية فى النياحة على جماعة مخصوصة.

وأنه خاتم الأنبياء، وأنه الشفيع فى فصل القضاء، وأنه صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وأنه خطيب الأمم وإمامهم فى ذلك اليوم. وأن له الوسيلة وهي أعلى درجة فى الجنة، والمقام المحمود وهو قيامه على يمين العرش على أحد الأقوال أَيْ: إقامته ومكثه على يمين العرش، فلا ينافي ما رُوِي أنه يجلس على منبر على يمين العرش، كما فى "شرح الشفا" للشهاب.

وأن أمته خير الأمم، وكتابه خير الكتب، ولسانه خير الألسنة، وأنه لا يقرأ فى الجنة إلا كتابه، ولا يتكلم فيها إلا بلسانه، وأنه لم يُرَ أثر لقضاء حاجته، بل كانت الأرض تبتلعه، ويشم من مكانه رائحة المسك. وأنه كان ينظر من خلفه كما ينظر من أمامه، قيل: وكان ينظر فى الظلمة كما ينظر فى النور. وأن تنفله قاعدًا كتنفله قايمًا.

وأنه يحرم رفع الصوت عنده، ونداؤه باسمه، ومن وراء الحجرات، والتكنِّي بكنيته المشهورة أبي القاسم مطلقًا على الأصح من مذهب الشافعي، وقيل: فى حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن النهي عنه لئلا يجد المنافقون فرصة لأذاه بإجابته من دعا بها غيره، وهذا يزول بوفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجَّحهُ النووي.

وقيل: لمن اسمه محمد فقط، لحديث: من تسمَّى باسمي فلا يتكنَّى بكنيتي. وأن من دعاه في الصلاة يجب عليه إجابته قولاً وفعلاً وإن كثر، وكذل بقية الأنبياء، ولا تبطل صلاته بالنسبة لنبينا فقط. وأنه لا يقع منه ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا عمدًا أو سهوًا، لا قبل النبوة ولا بعدها، على نزاع في بعض ذلك. ولا يُورث. ولا يتثاءب. ولا يحتلم. وكذا بقية الأنبياء في الأربعة.

ذِكرُ نبذة مِن جَوامِعِ عباراتِه ورقائقِ بَرَاعَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

اعْلَم أَنَّ كَلامَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُحصيهِ إِلَّا اللَّهُ تَعالى، وقَدِ اشْتَمَلَ هَذا الكِتابُ فِيما مَرَّ وما سَيَأتِي عَلى جُملَةٍ مِنهُ، ونَذكُرُ هُنا زِيادَةً عَلى ذلِكَ مِائَةَ حَديثٍ مِن جَوامِعِ عِباراتِهِ، ورَقائِقِ بَراعاتِهِ؛ لِيَنكَشِفَ لِلنَّاظِرِ وَجهُ قَولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِمَ، واختُصِرَ لِيَ الكَلامُ اختِصارًا».

فَنَقُولُ: قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّما الأَعمالُ بِالنِّيَّاتِ، وإِنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى». «اتَّقِ اللَّهَ حَيثُما كُنتَ، وأَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنةَ تَمحُها، وخالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». «اتَّقُوا الدُّنيا، فَوالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّها لَأَسحَرُ مِن هارُوتَ ومارُوتَ». «أَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الدُّنيا؛ فَإِنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِما كُتِبَ لَهُ». «أَحَبُّ الأَعمالِ إِلى اللَّهِ تَعالى أَدوَمُها وإِن قَلَّ».

«أَحبِب حَبِيبَكَ هَونًا ما عَسى أَن يَكُونَ بَغِيضَكَ يَومًا ما، وأَبغِض بَغِيضَكَ هَونًا ما عَسى أَن يَكُونَ حَبِيبَكَ يَومًا ما». «احفَظِ اللَّهَ يَحفَظْكَ». «أَخلِص دِينَكَ يَكفِيكَ القَلِيلُ مِنَ العَمَلِ». «أَدِّ الأَمانَةَ إِلى مَنِ ائْتَمَنَكَ، ولا

تَخُن مَن خانَكَ». «إذا أَحبَّ اللَّهُ قومًا ابتَلاهُم». «إذا أرادَ اللَّهُ بِعَبدٍ خيرًا فقَّهَهُ فِي الدِّينِ وأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ». «إذا رَأيتَ أُمَّتِي تَهابُ الظَّالِمَ أن تَقُولَ لَهُ: إنَّكَ ظالِمٌ؛ فقَد تُوُدِّعَ مِنهُم». «إذا سَرَّتكَ حَسَنتُكَ وساءَتكَ سَيِّئتُكَ فأَنتَ مُؤمِنٌ».

«إذا غَضِبَ أَحَدُكُم فلْيَسكُت». «إذا قُمتَ فِي صَلاتِكَ فَصَلِّ صَلاةَ مُودِّعٍ، ولا تَكلَّم بِكَلامٍ تَعْتَذِرُ مِنهُ، واجمَعِ الإِياسَ مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ». «إذا لَم تَستَحِ فَاصنَع ما شِئتَ». «ازهَد فِي الدُّنيا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وازهَد فِيما فِي أَيدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ». «استَعِدَّ لِلمَوتِ قَبلَ نُزُولِ المَوتِ». «استَعِينُوا عَلَى إنجاحِ الحَوائجِ بِالكِتمانِ؛ فَإنَّ كُلَّ ذِي نِعمَةٍ مَحسُودٌ». «استَنزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ». «أَشكَرُ النَّاسِ لِلَّهِ أَشكَرُهُم لِلنَّاسِ». «أَفضَلُ الجِهادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِندَ سُلطانٍ جائِرٍ».

«أَكثِرُوا ذِكرَ هادِمِ اللَّذَّاتِ المَوتِ، فَإنَّهُ لَم يَذكُرهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ مِنَ العَيشِ إلَّا وَسَّعَهُ عَلَيهِ، ولا ذَكَرَهُ فِي سَعَةٍ إلَّا ضَيَّقَها عَلَيهِ». «إنَّ اللَّهَ تَعالى كَرِيمٌ يُحِبُّ الكَرِيمَ، ويُحِبُّ مَعالِيَ الأَخلاقِ، ويَكْرَهُ سَفسافَها». «إنَّ اللَّهَ تَعالى لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم وأَموالِكُم، ولكِن إنَّما يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأَعمالِكُم». «إنَّ الصَّبرَ عِندَ الصَّدمَةِ الأُولى». «إنَّ المُؤمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسنِ الخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القائِمِ».

«إنَّ أَشَدَّ النَّاسِ نَدامَةً يَومَ القِيامَةِ رَجُلٌ باعَ دِينَهُ بِدُنيا غَيرِهِ». «إنَّ المَعُونَةَ تَأتِي مِنَ اللَّهِ لِلعَبدِ عَلى قَدرِ المُؤنَةِ، وَإنَّ الصَّبرَ يَأتِي مِنَ اللَّهِ عَلى قَدْرِ المُصِيبَةِ». «أَنزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهُم». «إنَّ مِن كُنُوزِ البِرِّ كِتمانَ

المَصائِبِ». «الاقتِصادُ فِي النَّفَقةِ نِصفُ المَعِيشَةِ، والتَّودُّدُ إِلى النَّاسِ نِصفُ العَقلِ، وحُسنُ السُّؤالِ نِصفُ العِلمِ». «بِرُّوا آباءَكُم تبَرَّكُم أَبناؤُكُم، وعِفُّوا عَنِ النِّساءِ تَعِفَّ نِساؤُكُم، وَمَن تُنُصِّلَ إِلَيهِ فَلَم يَقبَل فَلَن يَرِدَ عَلَيَّ الحَوضَ».

«تَركُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ». «تَعَرَّفْ إِلى اللهِ فِي الرَّخاءِ يَعرِفكَ فِي الشِّدَّةِ». «تَعَلَّمُوا ما شِئتُم أَن تعلَّمُوا، فَلَن يَنفَعَكُمُ اللَّهُ حَتَّى تَعْمَلُوا بِما تعلَمُونَ». «التَّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيءٍ خَيرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ». «جَفَّ القَلَمُ بِمَا أَنتَ لاقٍ». «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويُصِمُّ». «حَصِّنُوا أَموالَكُم بِالزَّكاةِ، وداوُوا مَرضاكُم بِالصَّدَقَةِ، وأَعِدُّوا لِلبَلاءِ الدُّعاءَ». «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ». «الحَربُ خدعَةٌ». «الحَياءُ خَيرٌ كُلُّهُ». «خَيرُ الأُمُورِ أَوسطُها». «خَيرُ النَّاسِ مَن طالَ عُمُرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ، وشَرُّ النَّاسِ مَن طالَ عُمُرُهُ وساءَ عَمَلُهُ». «الخُلُقُ السَّيِّئُ يُفسِدُ العَمَلَ كَما يُفسِدُ الخَلُّ العَسَلَ».

«الدَّالُّ عَلى الخَيرِ كَفاعِلِهِ، واللَّهُ يُحِبُّ إِغاثَةَ اللَّهفانِ». «الدُّنيا سِجنُ المُؤمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ». «الدِّينُ يُسْرٌ، ولَن يُشادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ». «الدِّينُ النَّصيحَةُ». «رُبَّ صائِمٍ حَظُّهُ مِن صِيامِهِ الجُوعُ والعَطَشُ، ورُبَّ قائِمٍ حَظُّهُ مِن قِيامِهِ السَّهَرُ». «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَو سَكَتَ فَسَلِمَ». «الرَّجُلُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَليَنظُر أَحَدُكُم مَن يُخالِلُ». «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا». «السَّعِيدُ مَن وُعِظَ بِغَيرِهِ».

«السَّكِينَةُ مَغنَمٌ، وتَركُها مَغرَمٌ». «الشِّتاءُ رَبِيعُ المُؤمِنِ؛ قَصُرَ نَهارُهُ فَصامَهُ، وطالَ لَيلُهُ فَقامَهُ». «صَنائِعُ المَعرُوفِ تَقِي مَصارِعَ السُّوءِ، وصَدَقَةُ

السِّرِّ تُطفِئُ غضَبَ الرَّبِّ، وصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ». «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ». «الظُّلمُ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ». «عِندَ اللهِ خَزائِنُ الخَيرِ، مَفاتِيحُها الرِّجالُ؛ فَطُوبى لِمَن جَعَلَهُ اللهُ مِفتاحًا لِلخَيرِ مِغلاقًا لِلشَّرِّ، ووَيْلٌ لِمَن جَعَلَهُ اللهُ مِغلاقًا لِلخَيرِ مفتاحًا لِلشَّرِّ». «العَبدُ عِندَ ظَنِّهِ باللهِ، وهُوَ مَعَهُ إِذا ذَكَرَهُ». «فَضلُ العالِمِ عَلى العابِدِ كَفَضلِي عَلى أَدناكُم». «القُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ».

«القَناعَةُ مالٌ لا يَنفَدُ، وكَنزٌ لا يَفنى». «كَفى بِالمَرءِ إِثمًا أَن يُحَدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ». «كَفى بِالمَرءِ إِثمًا أَن يُضَيِّعَ مَن يَقُوتُ». «كَفى بِالمَرءِ عِلمًا أَن يَخشى اللهَ، وكَفى بِالمَرءِ جَهلًا أَن يُعجَبَ بِنَفسِهِ». «كَما تَدِينُ تُدانُ». «كُن فِي الدُّنيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَو عابِرُ سَبِيلٍ». «الكَيِّسُ مَن دانَ نَفسَهُ، وعَمِلَ لِما بَعدَ المَوتِ، والعاجِزُ مَن أَتبَعَ نَفسَهُ هَواها، وتَمَنَّى عَلى اللهِ الأَمانِيَّ». «لَو تَعلَمُونَ ما أَعلَمُ لَضَحِكتُم قَلِيلًا، ولَبَكَيتُم كَثِيرًا». «لَيسَ الخَبَرُ كَالمُعايَنَةِ». «لَيْسَ الشَّدِيدُ مَنْ غَلَبَ النَّاسَ إِنَّما الشَّدِيدُ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ». «لَيسَ مِنَّا مَن غَشَّنا».

«لَيسَ مِنَّا مَن لَم يَرحَم صَغِيرَنا، ويُوَقِّر كَبِيرَنا، ويَأمُر بِالمَعرُوفِ، ويَنهَ عَنِ المُنكَرِ». «ما أَسَرَّ عَبدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلبَسَهُ اللهُ رِداءَها؛ إِن خَيرًا فَخَيرٌ، وإِن شَرًّا فَشَرٌّ». «ما خابَ مَنِ استَخارَ، ولا نَدِمَ مَنِ استَشارَ، ولا عالَ مَنِ اقتَصَدَ». «ما مَلأَ ابنُ آدَمَ وِعاءً شَرًّا مِن بَطنِهِ». «ما نَقَصَت صَدَقَةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللهُ عَبدًا بِعَفوٍ إِلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ». «مُداراةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ». «مِلاكُ الدِّينِ الوَرَعُ». «مِن حُسنِ إِسلامِ المَرءِ تَركُهُ ما لا

يَعنِيهِ». «مَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، ومَن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنياهُ؛ فَآثِرُوا ما يَبقى عَلى ما يَفنى». «مَن أَرضى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلى النَّاسِ، ومَن أَرضى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفاهُ اللَّهُ مُؤنَةَ النَّاسِ». «مَن أَبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ».

«مَنهُومانِ لا يَشبَعانِ: طالِبُ عِلمٍ، وطالِبُ دُنيا». «المُجاهِدُ مَن جاهَدَ نَفسَهُ». «المُستَشارُ مُؤتَمَنٌ؛ فَإِذا استُشِيرَ فَليُشِر بِما هُوَ صانِعٌ لِنَفسِهِ». «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ، والمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللَّهُ عَنهُ».

«المُؤمِنُ مَن أَمِنَهُ النَّاسُ». «لا إِيمانَ لِمَن لا أَمانَةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَن لا عَهدَ لَهُ». «لا تُظهِرِ الشَّماتَةَ لأَخِيكَ؛ فَيَرحَمَهُ اللَّهُ ويَبتَلِيَكَ». «لا تُنزَعُ الرَّحمَةُ إِلَّا مِن شَقِيٍّ». «لا خَيرَ فِي صُحبَةِ مَن لا يَرى لَكَ مِنَ الحَقِّ ما تَرى لَهُ». «لا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسِهِ». «لا يَبلُغُ العَبدُ أَن يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ ما لا بَأسَ بِهِ؛ حَذَرًا لِما بِهِ بَأسٌ». «لا يَجنِي جانٍ إِلَّا عَلى نَفسِهِ». «لا يُغنِي حَذَرٌ مِن قَدَرٍ». «لا يُلدَغُ المُؤمِنُ مِن جُحرٍ مَرَّتَينِ».

ذِكرُ أَولادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ:

الأَصَحُّ عِندَ العُلَماءِ أَنَّ أَولادَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ سَبعَةٌ؛ ثَلاثَةُ ذُكُورٍ، وأَربَعَةُ إِناثٍ؛ فَأَوَّلُ مَن وُلِدَ لَهُ القاسِمُ، وبِهِ كانَ يُكنى، ثُمَّ زَينَبُ، ثُمَّ رُقَيَّةُ، ثُمَّ فاطِمَةُ، ثُمَّ أُمُّ كُلثُومٍ، واسمُها كُنيَتُها.

ثُمَّ عَبدُ اللَّهِ، وكانَ يُسَمَّى الطَّيِّبَ والطَّاهِرَ، وقِيلَ: الطَّيِّبُ والطَّاهِرُ غَيرُ

عَبْدِ اللَّهِ المَذكُورِ، ووُلِدا فِي بَطنٍ واحِدٍ قَبلَ البَعثَةِ، وقِيلَ غَيرُ ذلِكَ، وهؤُلاءِ كُلُّهُم وُلِدُوا بِمَكَّةَ مِن خَدِيجَةَ، ثُمَّ إبراهِيمُ بِالمَدِينَةِ مِن مارِيَةَ القِبطِيَّةِ.

فَأَمَّا القاسِمُ فَماتَ بِمَكَّةَ وقَد بَلَغَ سَنَتَينِ، وقِيلَ: أَكثَرَ، وقِيلَ: أَقَلَّ. وَهُو أَوَّلُ مَيِّتٍ مَاتَ مِنْ وَلَدِهِ. ثُمَّ ماتَ عَبْدُ اللَّهِ أيضًا بمكة صغيرًا، وَلَمَّا ماتَ قالَ العاصُ بنُ وائِلٍ: قَدِ انقطَعَ وَلَدُهُ فهُوَ أَبتَرُ؛ فَأَنزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وأَمَّا إِبراهِيمُ فَوُلِدَ فِي ذِي الحِجَّةِ سَنَةَ ثَمانٍ مِنَ الهِجرَةِ، وعَقَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَومِ سابِعِهِ بِكَبشَيْنِ، وسَمَّاهُ يومئذ، وحَلَقَ رَأسَهُ، وتَصَدَّقَ بِزِنَةِ شَعرِهِ فِضَّةً، ودَفَنَ شَعرَهُ فِي الأَرضِ. وماتَ سَنَةَ عَشرٍ، وقَد بَلَغَ سَنَةً وعَشَرَةَ أَشهُرٍ، وقِيلَ: سَنَةً وسِتَّةَ أَشهُرٍ، ودُفِنَ فِي البَقِيعِ.

وأَمَّا زَينَبُ فَتَزَوَّجَها ابْنُ خالَتِها أَبُو العاصِ بنُ الرَّبِيعِ بنِ عَبْدِ العُزَّى بنِ عَبْدِ شَمسٍ بن عبد مناف، وأمه هالة بنت خويلد، فَوَلَدَت لَهُ عَلِيًّا وَأُمامَةَ، فَأَمَّا عَلِيٌّ فأردفه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَراءَهُ يَومَ الفَتحِ فَماتَ مُراهِقًا. وأَمَّا أُمامَةُ فَتَزَوَّجَها عَلِيٌّ بن أبي طالب بَعدَ خالَتِها فاطِمَةَ بِوَصِيَّةٍ مِن فاطِمَةَ، فَتَزَوَّجَها بَعدَ موت علِيّ المُغِيرَةُ بنُ نوفَلِ بنِ الحارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِوَصِيَّةٍ مِن عَلِيٍّ، فَوَلَدَت لَهُ يَحيى بنَ المُغِيرَةِ، وماتَت عِندَهُ، وكانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّها كَثِيرًا حَتَّى حَمَلَها فِي الصَّلاةِ. وُلِدَت زَينَبُ سَنَةَ ثَلاثِينَ مِن مَولِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ. وماتَت سَنَةَ ثَمانٍ مِنَ الهِجرَةِ.

وأَمَّا رُقَيَّةُ فَتَزَوَّجَها عُثمانُ بنُ عَفَّانَ، قِيلَ: فِي الجاهِلِيَّةِ، وقِيلَ: بَعدَ إِسْلامِهِ، وهاجَرَ بِها هِجرَتَي الحَبَشَةِ، ووَلَدَت لَهُ عَبْدَ اللَّهِ، فَماتَ بعدها وقَد

بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ، نَقَرَهُ دِيكٌ فِي عَينِهِ، فَوَرِمَ وَجهُهُ فمات. وُلِدت سَنَةَ ثلاث وثلاثين مِن مَولِدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وماتت يوم قدوم زيد بن حارثة بالمدينة بَشِيرًا بِقَتلَى بَدْرٍ مِنَ المُشرِكِينَ، وَلَمَّا عُزِّيَ فِيهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، قالَ: «الحَمدُ لِلَّهِ دَفنُ البَناتِ مِنَ المَكْرُماتِ».

وأَمَّا أُمُّ كُلثُومٍ فَتَزَوَّجَها عُثمانُ بَعدَ مَوتِ رُقَيَّةَ؛ ولِهذا سُمِّيَ ذَا النُّورَينِ، رَوى ابْنُ ماجَه وابْنُ عَساكِرَ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ عُثمانَ عِندَ بابِ المَسجِدِ فَقالَ: «يا عُثمانُ هَذا جِبرِيلُ لَقَد أَمَرَنِي أَنْ أُزَوِّجَكَ أُمَّ كُلثُومٍ بِمِثلِ صَداقِ رُقَيَّةَ، وعَلى مِثلِ صُحبَتِها». ولَم تَلِد لَهُ، ماتَت سَنَةَ تِسعٍ مِنَ الهِجرَةِ، ولَمَّا ماتَت قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: «لَو كانَ لِي ثالِثَةٌ لَزَوَّجتهُ إياها، وما زَوَّجتُهُ إِلَّا بِوَحيٍ مِنَ اللَّهِ تَعالى».

واعْلَم أَنَّ رُقَيَّةَ وأُمَّ كُلثُومٍ تَزَوَّجَ إِحداهُما عُتبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ، والأُخرى عُتَيبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ الَّذِي أَكَلَهُ الأَسَدُ بِدَعوَتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وطَلَّقاهُما قَبلَ أَن يَدخُلا بِهِما بِأَمرِ أَبِي لَهَبٍ، قِيلَ: كانَ المُتَزَوِّجُ بِرُقَيَّةَ عُتبَةَ، والمُتَزَوِّجُ بِأُمِّ كُلثُومٍ عُتَيبَةَ.

وأَمَّا فاطِمَةُ فَتَزَوَّجَها عَلِيٌّ وهُوَ ابْنُ إِحدَى وعِشرِينَ سَنَةً وخَمسَةِ أَشهُرٍ، وهِيَ بِنتُ خَمسَ عَشرَةَ سَنَةً وخَمسَةِ أَشهُرٍ، عَقِبَ رُجُوعِهِم مِن بَدْرٍ، كَذا فِي "السِّيرَةِ الحَلَبِيَّةِ"، وعَلَيهِ تَكُونُ وِلادَتُها قَبلَ النُّبُوَّةِ بِنَحوِ خَمسِ سِنِينَ، وقِيلَ: غَيرُ ذلِكَ. وتُوُفِّيَت بَعدَ أَبِيها بِستَّةِ أَشهُرٍ عَلى الصَّحِيحِ، لَيلَةَ الثُّلاثاءِ لِثَلاثٍ خَلَونَ مِن رَمَضانَ سَنَةَ إِحدَى عَشرَةَ، ودُفِنَت لَيلًا. وفاطِمَةُ

كَما قالَ ابْنُ دُرَيدٍ مُشتَقَّةٌ مِنَ الفَطْمِ أَيْ المَنعُ، يُقالُ: فَطَمَتِ المَرأَةُ الصَّبِيَّ إِذا قَطَعَتْهُ عَنِ اللَّبَنِ؛ سُمِّيَت بِذلِكَ لأَنَّ اللَّهَ تَعالى فَطَمَها عَنِ النَّارِ كَما وَرَدَت بِهِ الأَخبارُ الآتِيَةُ فِي البابِ الثَّانِي. فهي فاطمة بمعنى مفطومة. وقَد كانَ خَطَبَها قَبلَهُ أَبُو بَكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، فَأَعرَضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ عَنْهُما، فَلَمَّا خَطَبَها عَلِيٌّ أَجابَهُ، وجَعَلَ صَداقَها دِرعَهُ، ولَم يَكُن لَهُ غَيرُها، وباعَها بِأَربَعِمِائَةِ دِرهَمٍ وثَمانِينَ دِرهَمًا، وجَهَّزَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وِسَادَةً مِن أَدَمٍ حَشوُها لِيفٌ، ومِلحَفَةٍ، وأَعطاها إِهابَ كَبشٍ تَفتَرِشُهُ، وخَمِيلَةً، وسقاءً وجرَّتينِ، كَما جاءَت بِذَلِكَ الرِّواياتُ.

وفِي حَدِيثِ مُسلِمٍ عَن جابِرٍ قالَ: حَضَرنا عُرسَ عَلِيٍّ بن أبي طالب بِفاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَما رَأَينا عُرسًا أَحسَنَ مِنهُ؛ هَيَّأَ لَنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ زَبِيبًا وتَمرًا. وروى الطَّبَرانِيُّ مِن حَدِيثِ أَسْماءَ قالَت: لَمَّا أُهْدِيَتْ فاطِمَةُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ لَم نَجِدْ فِي بَيتِهِ إِلَّا رَمْلًا مَبسُوطًا، ووِسادَةً حَشوُها لِيفٌ، وجَرَّةً، وكُوزًا، فَأَرسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إِلَى عَلِيٍّ يَقُولُ لَهُ: «لا تَقْرَبَنَّ أَهلَكَ حَتَّى آتِيَكما»، فَجاءَ فَدَعا بِإِناءٍ فَسَمَّى فِيهِ ما شاءَ اللَّهُ أَن يَقُولَ، ثُمَّ مَسَحَ صَدرَ عَلِيٍّ ووَجهَهُ، ثُمَّ دَعا بِفاطِمَةَ فَقامَت تَعثُرُ فِي مِرطِها مِنَ الحَياءِ، فَنَضَحَ عَلَيها مِن ذلِكَ.

وفي حديث بُريدة فدعا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه على عليّ، ثم قالَ: «اللَّهُمَّ بارِكْ فِيهِما، وبارِكْ لَهُما فِي نَسْلِهِما». وفِي رِوايَةٍ: فَنَضَحَ الماءَ عَلى رَأسِها وبَينَ ثَديَيها، وقالَ: «اللَّهُمَّ

إِنّي أُعِيذُها بِكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ». ولَم يَتَزَوَّجْ عَلِيٌّ عَلَيها حَتَّى ماتَتْ، وقَد كانَ خَطَبَ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ فَأَنكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ذلِكَ وقالَ: «واللَّهِ لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِندَ رَجُلٍ واحِدٍ أَبَدًا»، فتَرَكَ عَلِيٌّ الخِطبَةَ.

وقَد وَلَدَت فاطِمَةُ مِن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سِتَّةً؛ ثَلاثَةَ ذُكُورٍ، وثَلاثَةَ إِناثٍ؛ فَالذُّكُورُ: الحَسَنُ والحُسَينُ والمُحَسِّنُ -بِضَمِّ المِيمِ وفَتحِ الحاءِ وتَشدِيدِ السِّينِ مَكسُورَةً-، والإِناثُ: زَينَبُ، وأُمُّ كُلثُومٍ، ورُقَيَّةُ، كَذا زادَ الليث بن سعد: رقية. قال: وماتت ولم تبلغ. نقله ابْنُ الجوزِيّ.

فَأَمَّا الحَسَنُ والحُسَينُ فَأُعقِبا الكَثِيرَ الطيب، وسَيَأتِي الكَلامُ عَلَيهِما. وأَمَّا مُحَسِّنُ فَأُدرج سقطًا.

وأَمَّا زَينَبُ فَتَزَوَّجَها ابْنُ عَمِّها عَبْدُ اللَّهِ بنُ جعفَرِ بنِ أَبِي طالِبٍ، فَوَلَدَت لَهُ عَلِيًّا وعونًا الأَكبَرَ وعَبَّاسًا ومُحَمَّدًا وأُمَّ كُلثُومٍ، وذُرِّيَّتُها مَوجُودُونَ إِلَى الآنَ بِكَثرَةٍ، وسَيَأتِي الكَلامُ عَلَيها. وأَمَّا أُمُّ كُلثُومٍ فتَزَوَّجَها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعالَى عَنْهُ، فَوَلَدَت لَهُ زَيدًا ورُقَيَّةَ، ولَم يُعقِبا، فَتَزَوَّجَها بَعدَهُ ابْنُ عَمِّها عَونُ بْنُ جعفَرِ بْنِ أَبِي طالِبٍ، فَماتَ معها، ثُمَّ تَزَوَّجَها بَعدَهُ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ، فَماتَ معهَا، ثُمَّ تَزَوَّجَها بَعدَهُ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَماتَت عِندَهُ، ولَم تَلِدْ لأَحَدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ. ذكره السيوطي في "رسالته الزينبية". وفي "المواهب": أنها ولدت للثاني بنتًا ماتت صغيرة.

ذِكْرُ أَعْمَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَّاتِه:

أَمَّا أَعْمَامُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاثْنَا عَشَرَ: حَمْزَةُ وَالعَبَّاسُ وَهُمَا

المُسْلِمَانِ، وَأَبُو طَالِبٍ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَاتَ كَافِرًا، وَاسْمُهُ عَبْدُ مَنَافٍ، وَأَبُو لَهَبٍ وَاسْمُهُ عَبْدُ العُزَّى، وَالحَارِثُ وَالزُّبَيْرُ وَجَحْلُ -بِتَقْدِيمِ الجِيمِ المَفْتُوحَةِ عَلَى الحَاءِ المُهْمَلَةِ السَّاكِنَةِ، وَقِيلَ: بِتَقْدِيمِ الحَاءِ المُهْمَلَةِ المَفْتُوحَةِ عَلَى الجِيمِ السَّاكِنَةِ- وَيُسَمَّى المُغِيرَةَ، وَعَبْدُ الكَعْبَةِ، وَقُثَمُ -بِقَافٍ مَضْمُومَةٍ فَمُثَلَّثَةٍ مَفْتُوحَةٍ- وَضِرَارُ، وَالغَيْدَاقُ -بِفَتْحِ الغَيْنِ المُعْجَمَةِ- وَهُوَ لَقَبُهُ، وَاسْمُهُ مُصْعَبٌ، وَقِيلَ: نَوْفَلٌ، وَالمُقَوِّمُ -بِفَتْحِ الوَاوِ وَكَسْرِهَا-. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعُدُّهُمْ عَشَرَةً، وَيَجْعَلُ عَبْدَ الكَعْبَةِ وَالمُقَوِّمَ وَاحِدًا، وَجَحْلًا وَالغَيْدَاقَ وَاحِدًا.

فَأَمَّا حَمْزَةُ فَهُوَ عَمُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْهُما ثُوَيبةُ الأسلميَّة، وكَانَ أَسَنَّ مِنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيسيرٍ. وكان أسدَ اللَّه وأسد رسوله، كما جاءَ في الخبر، شَهِدَ بدرًا وأُحُدًا وبها استشهد على يد وحشي، ووَجَدُوا فيه يومئذ بضعًا وثمانين جرحًا، ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم. ولم يُعقِب أحد من أولاده.

وَوَرَدَ أَنَّهُ سَيِّدُ الشُّهداء. وفي رواية: «خيرُ الشُّهداء يوم القيامة حمزة» أي: الشهداء من هذه الأمة، فلا يُنافي ما جاءَ أَنَّ سيّد الشهداء يوم القيامة يحيى بن زكريا، وقائدهم إلى الجنَّةِ، وذابح الموت يومَ القيامةِ، يُضجِعُه ويَذْبَحُه بشفرة في يَدِه، والنَّاسُ ينظرون إليه، وإنَّما اختصَّ دون غيرِه مِنَ الأنبياء بذَبح الموت لاشتقاق اسمه من ضده. ولا ينافي قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم بدر: «مِهْجَعُ سَيِّدُ الشُّهداء» لإمكان إرادة الشهداء يوم بدر.

وَوَرَدَ أيضًا: «خير أعمامي حمزة». وعن سعيد بن المسيب أنَّه كان

يقول: كنتُ أَعْجَبُ لقاتل حمزة كيف ينجو حتَّى مات غريقًا في الخمر، رواه الدار قطني على شرط الشيخين. وقال ابن هشام: بلغني أنَّ وحشيًّا لم يَزَل يُحَدُّ في الخمرِ حَتَّى خُلِعَ من الديوان؛ فكانَ عُمَرُ يقولُ: لقد عَلِمتُ أنَّ اللَّهَ لم يكُن لِيَدَعَ قاتل حمزة.

وأما العباس فكان أصغر أعمامه، وأسنَّ مِنهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بسنتَينِ أو ثلاث، شَهِدَ بدرًا مع المشركين مُكرَهًا، وأُسِرَ مَعَ مَن أُسِرَ، وَفَدَى يومَئِذٍ نَفْسَهُ، وأَسْلَمَ قبل فتح خَيبَرَ، وكانَ يَكْتُمُ إسلامَهُ إلى يوم فتح مكَّةَ. وقيل: أَسلَمَ قبل يوم بدر، وكانَ يَكتُمُ ذلك. وشَهِدَ يومَ حُنَيْنٍ، وَثَبَتَ، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجِلُّهُ وَيَمْدَحُه. تُوُفِّي سنة اثنين وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنةً، وصلَّى عليه عثمان. ووُلِدَ لَهُ مِنَ الذُّكورِ عَشَرةٌ: الفضل وكان أكبرهم، وعبدُ اللهِ، وَعُبَيدُ اللهِ، ومعبد، وقُثَمُ، وعبد الرحمن، والحارث، وكثير، وعوف، وتمَّام وكان أصغرهم. ومن الإناث ثلاث: أم حبيب، وأم كلثوم، وأميمة.

روى ابن عساكر وغيره أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ انصُرِ العَبَّاسَ ووَلَدَ العباس -ثلاثًا- يا عمّ، أَمَا عَلِمتَ أَنَّ المَهدِيَّ مِن وَلَدِكَ مُوفَّقًا راضيًا مرضيًّا». لكن قال بعض الحفاظ: الأحاديث النَّاصَّةُ على أَنَّ المَهْدِيَّ مِن ولد فاطمة أصح إسنادًا. وسيأتي في الكلام على المهدي ما يُدفَعُ به التنافي.

ورَوَى ابن ماجه والحاكم وأبو نُعيم عنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذْنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خليلاً، ومَنزِلي ومَنزِلُ

إبراهيم في الجنَّةِ كَهَاتَينِ، والعَبَّاسُ بيننا؛ مؤمن بينَ خليلين».

وأما أبو طالب فوُلِدَ له: طالبٌ، وعَقِيلٌ، وجَعفر، وعلي، وكل منهم أكبر ممَّن يَلِيهِ بعَشرِ سِنينَ، وأمُّ هاني، واسمها فاختة على الأشهر، وجُمانة، وقد أَسلَمُوا جميعًا إلَّا طالبًا فإِنَّه اختطفته الجنُّ، فَذَهَبَ ولم يُعلم إسلامه.

وأما أبو لهب فوُلِدَ له: عُتبةُ، ومُعتِبٌ، ودُرَّة، وهؤلاء قد أَسلَمُوا، وعتيبة عقير الأسد.

وأما الحارث -وهو أكبر أولاد عبد المُطَّلِبِ، وبه كانَ يُكنَّى- فلم يُدرك الإسلام، وأَسلَمَ مِن أولاده أربعة: نوفل، وربيعة، وأبو سفيان -وكان أخاهُ مِن رَضاعِ حَليمة، وكانَ ممَّن ثَبتَ مَعَه يومَ حُنَيْنٍ- وعبدُ اللَّهِ. وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: خمسة، خامسهم المغيرة، وقيل غير ذلك. وكان نوفل أسن إخوته، وأسنَّ مَن أَسْلَمَ مِن بني هاشم.

وأَمَّا الزُّبَيْرُ فَوُلِدَ لَهُ: عبد اللَّه، وضُباعةُ، وصَفَيَّةٌ، وأمُّ الحَكَمِ، وأم الزُّبَيْرِ، أَسلَمُوا جميعًا. وأَمَّا جَحْلٌ فَوُلِدَ لَهُ وانقَطَعَ عَقِبُه، وكذلك المُقوّمُ. وأما عبد الكعبة فلم يُدرك الإسلام ولم يُعقب. وأَمَّا قُثَمُ فمات صغيرًا. وأمَّا ضِرار فإنَّه ماتَ أَيَّامَ أُوحِيَ إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يُسلم، وكانَ مِن فتيان قريش جمالاً وسخاءً. وأمَّا الغَيْداقُ فكان أجود قُرَيْشٍ وأَكثَرَهُم طعامًا ومالاً؛ ولهذا بالغيداق.

والأشقاء لعبدِ اللَّهِ وَالدِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن هؤلاء ثلاثة: أبو

طالب، والزبير، وعبد الكعبة.

وأما عمَّاته فسِتٌّ: صَفِيَّةٌ، وإسلامها معروف مُحقَّق؛ وهي أم الزبير بن العوام. وأروى، وعاتكة، وفي إسلامهما خلاف. وأم حكيم، وبَرَّةُ، وأُميمة، ولا خلاف في عدم إسلامهنَّ. وهذه الخمس شقيقات عبد اللَّه والدِ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكر أزواجه وسراريه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

رَوَى عبد المَلِكِ بن محمَّد النيسابوري بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تَزوَّجتُ شيئًا مِن نسائي ولا زَوَّجَتُ شَيئًا مِن بناتي إلا بوحي جاءني به جبريل عن ربي عزَّ وجلَّ».

فأَوَّلُ مَن تَزوَّجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة، وقد تقدَّمَ ذِكرُها. وقد جاءَ أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِرَ أَن يُبَشِّرَها ببيتٍ في الجنَّةِ مِن قَصَبٍ؛ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ. قال الحلبي: أَيْ: مِن دُرَّةٍ مُجوّفة، ليس فيه رفع صوت ولا تعب. وقالت عائشة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا -وقد مدح خديجة- : ما تَذكُرُ مِن عجوز حمراء الشَّدقين، قد بدَّلَكَ اللَّهُ خيرًا منها ؛ فغَضِبَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالَ: «ما أَبدَلَنِي اللَّهُ خيرًا منها؛ آمَنَت بي حِينَ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وواستني بمالها حينَ حَرَمِني النَّاسُ، ورُزِقْتُ منها الولد، وحُرِمته من غيرها».

ثمَّ سَودة بنت زمعة في السَّنة العاشرة مِنَ النُّبُوَّةِ، كانت تحتَ ابنِ عمها السكرانِ بنِ عَمْرٍو، وأَسْلَمَ معها قديمًا، وهاجَرَ إلى الحبشة الهجرة الثانية، فلما مات تَزوَّجها، ولمَّا كَبِرَت عنده أراد طلاقها؛ فسألته أَلَّا يَفْعَلَ،

وجَعلَت يَومَها لعائشةَ؛ فأَمْسَكَها. ماتت في آخر خلافة عُمَرَ على المشهور.

ثُمَّ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي شَوَّالٍ سنة اثنتي عشرة من النبوة على قولٍ، وكانت بِنْتُ سبع على قولٍ، وبنى بها في شوال على رأس ثمانية أشهرة من الهجرة على قولٍ، وهي بنت تسع، وقُبِض عنها وهي بنت ثماني عشرة، وَلَمْ يَتزَوَّجْ بِكْرًا غَيْرَهَا، وَكَانَتْ أَحَبَّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ، وَمَنَاقِبُهَا كَثِيرَةٌ، كَانَتْ تُكْنَى بِابْنِ أُخْتِهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، تُوُفِّيَتْ سَنَةَ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ أَوْ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ، وَصَلَّى عَلَيْهَا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ لَيْلًا، وَقَدْ قَارَبَتْ سَبْعًا وستين سَنَةً. ومن الناس من يقول: تزوَّج عائشة قبل سودة، وَحَمَلَهُ بعضهم عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الدخُول بِسَوْدَةَ فَلَا يُنَافِي مَا مَرَّ.

ثُمَّ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في شعبان عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِينَ شَهْرًا مِنَ الهِجْرَةِ على الأشهر، وَكَانَ مَوْلِدُهَا قَبْلَ النبوة بِخَمْسِ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَتْ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ، وَصَلَّى عَلَيْهَا مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ أَمِيرُ المَدِينَةِ يَوْمَئِذٍ، وَحَمَلَ سَرِيرَهَا بَعْضَ الطَّرِيقِ، ثُمَّ حَمَلَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ إِلَى قَبْرِهَا. وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَّقَهَا؛ لِأَنَّهَا أَفْشَتْ أمرًا أَسَرَّ إِلَيْهَا لِعَائِشَةَ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا مصادقة ومُصَافَاةٌ؛ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ له: رَاجِعْ حَفْصَةَ؛ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ، وَإِنَّهَا زَوْجَتُكَ فِي الجَنَّةِ. وَفِي رِوَايَةٍ: طَلَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفْصَةَ، فَبلغ ذلك عُمَرَ، فَحَثَى عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: مَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِعُمَرَ وَابْنَتِهِ بَعْدَهَا، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الغَدِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ

تُرَاجِعَ حَفْصَةَ رَحْمَةً لِعُمَرَ. وَقَالَ جَمَاعَةٌ: لَمْ يُطَلِّقْهَا، بَلْ هَمَّ بِتَطْلِيقِهَا فَقَطْ؛ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ الْمُرَادُ بِمُرَاجَعَتِهَا مُصَالَحَتها والرِّضا عَنْهَا.

ثُمَّ زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ سنة ثلاث، وَكَانَتْ تُدْعَى فِي الجَاهِلِيَّةِ أُمَّ المَسَاكِينِ لِإِطْعَامِهَا إِيَّاهُمْ، وَلَمْ تَلْبَثْ عِنْدَهُ إِلَّا شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً ثُمَّ مَاتَتْ، وَصَلَّى عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدفنها بِالْبَقِيعِ، وَقَدْ بَلَغَتْ نَحْوَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَلَمْ يَمُتْ مِنْ أزواجه فِي حَيَاتِهِ إِلَّا وَخَدِيجَةُ وَرَيْحَانَةُ عَلَى القَوْلِ، وسيأتي.

ثُمَّ أُمُّ سَلَمَةَ هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ المُغِيرَةِ، فِي آخِرِ شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ، وَلَمَّا أَرْسَلَ إِلَيْهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُهَا قَالَتْ: مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ فِيَّ خِلَالًا ثَلَاثًا: أَنَا امْرَأَةٌ شَدِيدَةُ الغَيْرَةِ، وَأَنَا امْرَأَةٌ مُصْبِيَةٌ، وَأَنَا امْرَأَةٌ لَيْسَ لِي هُنَا أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي، فأتاها رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهَا: «أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ غَيْرَتِك فَإِنِّي أَرْجُو اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهَا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ صِبْيَتِكِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيهِمْ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ أَوْلِيَائِي فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي يَكْرَهُنِي»، فَقَالَتْ لِابْنِهَا: زَوِّجْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزَوَّجَهُ بها. وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ الِابْنَ يَلِي عَقْدَ أُمِّهِ، وَهُوَ خلاف مَذْهَبنا مَعاشر الشَّافِعِيَّةَ. وَدُفِعَ بِأَنَّهُ زَوَّجَهَا بِالعُصُوبَةِ لِأَنَّهُ ابْنُ ابنِ عَمِّهَا كَمَا بُيِّن فِي السِّيَر. وَتُوُفِّيَتْ فِي خِلَافَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ سَنَةَ سِتِّينَ عَلَى الصَّحِيحِ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْبَعًا وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ وَصَلَّى عَلَيْهَا أَبُو هُرَيْرَةَ.

ثُمَّ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ بنت عمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميمة، وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَسَمَّاهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْنَبَ، خشية أن يقال: خرج من

عندة برَّة، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَلَمَّا طَلَّقَهَا زَوَّجَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا سَنَةَ أَرْبَعٍ عَلَى أَحَدِ الأَقْوَالِ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وَكَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى نِسَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ: إِنَّ آبَاءَكُنَّ أَنْكَحُوكُنَّ، وَإِنَّ اللَّهَ تعالى أَنْكَحَنِي مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَفِيهَا نَزَلَ الحِجَابُ، وَهِيَ أَوَّلُ نِسَائِهِ لُحُوقًا بِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الصادق المصدوق. ففي مسلم عن عائشة: أن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَ لَهُ: أَيُّنَا أَسْرَعُ بِكَ لُحُوقًا؟ قَالَ: «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»، فَكَان أسرعهن لحوقًا به زينب بنت جحش، فعلموا أَنَّ طُول يَدِهَا كَانَ بِسَبَبِ أَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَتَصَدَّقُ كَثِيرًا، وَتُوُفِّيَتْ سَنَةَ عِشْرِينَ أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَقَدْ بَلَغَتْ ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ، وَصَلَّى عَلَيْهَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَاوِينِي فِي المَنْزِلَةِ عِنْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا رَأَيْتُ امْرَأَةً قَطُّ خَيْرًا فِي الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ، وَأَتْقَى لِلَّهِ، وَأَصْدَقَ حَدِيثًا، وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ، وَأَعْظَمَ صَدَقَةً.

ثُمَّ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ، وَقَعَتْ يَوْمَ المُرَيْسِيعِ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، فَكَاتَبَهَا عَلَى تِسْعِ أَوَاقٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَأَدَّاهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها وَتَزَوَّجَهَا، وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَسَمَّاهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُوَيْرِيَةَ لِمَا تَقَدَّمَ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ، وَعِنْدَمَا تَزَوَّجَهَا قَالَ النَّاسُ في حق بَنِي المُصْطَلِقِ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ سَبَايَا بَنِي المُصْطَلِقِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلم نَعْلَم امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، وَتُوُفِّيَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ، وَقَدْ

بَلَغَتْ سَبْعِينَ سَنَةً، وَصَلَّى عَلَيْهَا مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ.

ثُمَّ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، لَكِنْ كَانَتْ تَحتَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَوَقَعتْ فِي سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَاصْطَفَاهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ، وَكَانَتْ جَمِيلَةً وَسِيمَةً، وَخَيَّرَهَا بَيْنَ الإِسْلَامِ وَدِينِهَا فَاخْتَارَتِ الإِسْلَامَ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا وَأَصْدَقَهَا وَأَعْرَسَ بِهَا فِي المُحَرَّمِ سَنَةَ سِتٍّ، وَطَلَّقَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِشِدَّةِ غَيْرَتِهَا فَأَكْثَرَتِ البُكَاءَ فَرَاجَعَهَا، وَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ حَتَّى مَاتَتْ مَرْجِعَهُ مِنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ، وَقِيلَ: كَانَتْ مَوْطُوءَةً لَهُ بِمِلْكِ اليَمِينِ.

ثُمَّ أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ، هَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ إِلَى الحَبَشَةِ الهِجْرَةَ الثَّانِيَةَ، فَوَلَدَتْ لَهُ حَبِيبَةَ وَتَنَصَّرَ هُوَ وَثَبَتَتْ هِيَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَزَوَّجَهُ إِيَّاهَا وَأَمْهَرَهَا عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَتَوَلَّى عَقْدَ نِكَاحِهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ العَاصِ لِكَوْنِهِ ابْنَ عَمِّ أَبِيهَا، وَأَرْسَلَهَا إِلَيْهِ النجاشي سَنَةَ سَبْعٍ عَلَى خِلَافٍ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ، مَاتَتْ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ.

ثُمَّ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ مِنْ بَنِي هَارُونَ بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ أَبُوهَا سَيِّدَ بَنِي النَّضِيرِ فَقُتِلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ، اصْطَفَاهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ مِنْ سَبْيِ خَيْبَرَ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا، وَكَانَتْ جَمِيلَةً لَمْ تَبْلُغْ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، مَاتَتْ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ خَمْسِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ.

ثُمَّ مَيْمُونَةُ بِنْتُ الحَارِثِ، فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعٍ، تَزَوَّجَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَهُوَ مُحرِمٌ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ كَمَا عَلَيْهِ الجُمْهُورُ، وَكَانَ اسْمُهَا بَرَّةَ فَسَمَّاهَا مَيْمُونَةَ لِمَا تَقَدَّمَ، مَاتَتْ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ، وَقَدْ بَلَغَتْ ثَمَانِينَ سَنَةً، وقيل: غير ذلك. وهي آخِرُ مَنْ تَزَوَّجَ بِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآخِرُ مَنْ تُوُفِّيَ مِنْ أَزْوَاجِهِ. وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ: هِيَ الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَهَؤُلَاءِ نِسَاؤُهُ اللَّاتِي دَخَلَ بِهِنَّ وَلَمْ يُطَلِّقْهُنَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ امْرَأَةً، تُوُفِّيَ عَنْ تِسْعٍ مِنْهُنَّ، وَأَمَّا غيرهن مِمَّنْ وَهَبَتْهُ نَفْسَهَا لَهُ أَوْ خَطَبَهَا ولم يعقد عَلَيْهَا أَوْ عقدَ وَلَمْ يَدْخُلْ بها لِمَوْتٍ أَوْ طَلَاقٍ أَوْ دخل وطلّقها فَنَحْوُ ثَلَاثِينَ امْرَأَةً، مبيّنة في السير.

وَأَمَّا سَرَارِيُّهُ فَأَرْبَعٌ: مَارِيَةُ القِبْطِيَّةُ، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعجبًا بها، لأنها كَانَتْ بَيْضَاءَ جَمِيلَةً، وَهِيَ أُمُّ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا تَقَدَّمَ، جَاءَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِصْرُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ رَحِمًا وَصِهْرًا»، فَالْمُرَادُ بِالرَّحِمِ أَمَّ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ جَدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنها كَانَتْ قِبْطِيَّةً، وَالْمُرَادُ بِالصِّهْرِ أُمَّ وَلَدِهِ إِبْرَاهِيمَ فإنها كَانَتْ قِبْطِيَّةً كَمَا عَلِمْتَ. وَرَيْحَانَةُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الخِلَافِ. وَجَارِيَةٌ وَهَبَتْهَا لَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ. وَأُخْرَى اسْمُهَا زَلِيخَةُ القُرَظِيَّةُ.

تَتِمَّةٌ: اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي أَفْضَلِ نِسَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ فِي أَفْضَلِ النِّسَاءِ مُطْلَقًا، وَالأَقْرَبُ عِنْدَ كَثِيرٍ أَنَّ أَفْضَلَ النِّسَاءِ مَرْيَمُ، ثُمَّ خَدِيجَةُ، ثُمَّ فَاطِمَةُ، ثُمَّ عَائِشَةُ، ثُمَّ آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ. وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ فِي "شَرْحِ البَهْجَةِ": الَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَّ الأَفْضَلِيَّةَ مَحْمُولَةٌ عَلَى أَحْوَالٍ، فَعَائِشَةُ أفضل من

حَيْثُ العِلْم، وخديجة مِنْ حَيْثُ تَقَدُّمُها وَإِعَانَتُها لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المهمات، وفاطمةُ من حيثُ البَضْعِيَّةُ وَالقَرَابَةُ، ومريم من حيث الاِخْتِلَافُ مِنْ حَيْثُ نبوتها وذكرها فِي القُرْآنِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، وآسية من حيث الاختلاف في نبوتها، وإن لم تذكر مع الأنبياء اه. ونُقِل عن الأَشْعَرِيّ وَغَيْرُهُ الوَقْف.

وَقَالَ صَاحِبُ "نُورِ النِّبْرَاسِ": الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الأَفْضَلَ مِنْ أَزْوَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد خَدِيجَةُ وَعَائِشَةُ: زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا المُفَاضَلَةُ بَيْنَ أَبْنَائِهِ فَلَمْ يَثْبُتْ فِيهَا شَيْءٌ، وَكَذَا بَيْنَ بَنَاتِه سوى فاطمة، كَمَا سَيَظْهَرُ. وَهَلْ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ أَبْنَائِهِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الذُّكُورَةِ وَالأُنُوثَةِ؟ لَمْ أَرَ مَنْ تَعَرَّضَ لِذَلِكَ. وَقَدْ يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثِ: «أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَةُ» أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذِكْرُ المَشَاهِيرِ مِنْ خَدَمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوَالِيهِ وَسِلَاحِهِ وَحَيْوَانَاتِهِ:

أَمَّا خَدَمُهُ: فَمِنْ رِجَالِهِمْ: أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الأَنْصَارِيُّ كَانَ مِنْ أَخَصِّهِمْ بِهِ، وَخَدَمَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حِينِ قَدِمَ المَدِينَةَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ كَانَ صَاحِبَ سِوَاكِهِ وَنَعْلَيْهِ، إِذَا قَامَ أَلْبَسَهُ إِيَّاهُمَا، وَإِذَا جَلَسَ جَعَلَهُمَا فِي ذِرَاعَيْهِ، وَكَانَ يَمْشِي أَمَامَهُ بِالعَصَا حَتَّى يَدْخُلَ الحُجْرَةَ. وَمُعَيْقِيبُ الدَّوْسِيُّ كَانَ صَاحِبَ خَاتَمِهِ. وَعُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الجُهَنِيُّ كَانَ صَاحِبَ بَغْلَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَسْفَارِ، يَقُودُهَا بِهِ. وَأَسْلَعُ بْنُ شَرِيكٍ كَانَ صَاحِبَ رَاحِلَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْحَلُهَا لَهُ. وبلال كان

على نفقاته.

ومِنَ النِّساءِ: أَمَةُ اللَّه، وخَولة، ومارية، أم الرَّبابِ، ومارية جَدَّةُ المُثَنَّى ابن صالح، وقيل: هي التي قبلها.

وأمَّا مَواليهِ الَّذينَ أَعْتَقَهم؛ فمن رِجالِهم: زيد بن حارثة، وَهَبته له خديجة قبل النُّبُوَّةِ، فَتَبَنَّاهُ، وَكَانَ حِبَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وابنه أسامة. وأخو أسامة لأمه أيمن بن أم أيمن بركة الحبشية. وأبو رافع وكان قبطيًّا، وأعتَقَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَشَّرَهُ بِإِسلام العبَّاسِ. وشُقران -بضمّ الشِّينِ- كَما في "المواهب" و"السيرة الحلبية" واسمه صالح، وكان حبشيًّا، وقيل: فارسيًّا. وثوبان، وأنجَشة، وكان أسود وكانَ يَحدُو بالنِّساءِ. ورباح، وكان أسود. ويَسارُ، وكانَ نُوبيًّا، وكان على لقاح رسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي قَتَلَهُ العُرَنيُّون. وسفينة، وكان أسود، وهو الذي لَقِيَهُ سَبْعٌ حين ضلَّ في بعض الأمكنة، فقال له: يا أبا الحارث أنا مولى رسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَشَى أَمامَهُ حتَّى أَقامَهُ على الطَّرِيقِ. وسلمان الفارسي؛ لأنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أدى عنه نجوم كتابته، لكنه حُر في الأصل، واسترُقَّ ظُلْمًا. وخَصِيٌّ أهداهُ لهُ المُقَوقِسُ يُقال له: مأبور، لم يُسلم، بل بَقِيَ نصرانيًّا. وآخرُ يُقَالُ لَهُ: سَنْدَرُ.

ومِنَ النِّساءِ: أم أيمن، وأميمة، وسيرين وقَيسَرُ اللَّتانِ أَهداهما له المُقَوقِسُ مع مارية، وهما أختاها. وذكر بعضهم أَنَّه وَهَبَ سِيرينَ لحسان بن ثابتٍ، وَوَهَبَ قَيْسَرَ لأبي جهم بن قيس العبدري. وتَقَدَّمَ أَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أَعْتَقَ في مرض موته أربعين رقبة].

وأما سِلاحه: فكان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السُّيوفِ تسعة؛ منها سيف يُقال له: مأثور -بهمزة فمثلَّثَةِ- وَرِثَهُ مِن أبيه، وقَدِمَ بِهِ المدينة، ويُقالُ: إِنَّهُ مِن عَمَلِ الجنِّ. وسيف يُقالُ لَهُ: ذُو الفَقارِ، كانَ في وَسَطِهِ مِثْلُ فَقَراتِ الظَّهْرِ، وكانت قائمته وقبيعتُه وحَلَقَتُه وعلاقته فضَّةً، وكانَ لا يُفارِقُه في حرب مِنَ الحروب، ويُقالُ: إِنَّ أَصْلَهُ مِن حديدةٍ وُجِدَت مدفونة عند الكعبة. وسيف يُقال له: الصمصامة -بفتحِ الصَّادِ المُهملة- كان مشهورًا عند العرب. وسيفٌ يُقالُ لَهُ: الرَّسُوبُ -بفتحِ الرَّاءِ وضم السِّينِ المُهْمَلَةِ- أَحدُ السُّيوفِ الَّتي أهدتها بلقيس لسليمانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكان له من الدروع سبعة؛ منها درع يُقال لها: ذاتُ الفَضول -بفتح الفاء وضمّ الضَّادِ المعجمة- وهي التي مات وهي مرهونة عند أبي الشَّحم اليهودي على ثلاثين صاعًا من شعير، وكانَ الدَّينُ إلى سنة. ودرع يُقال لها: السُّغْديَّةُ -بضم المُهملة وسكون الغين المعجمة- يُقالُ: إِنَّهَا مِن دُروعِ داودَ الَّتي لَبِسَها لقتال جالوت.

وكانَ لَهُ مِنَ القِسِيّ ستَّةٌ، وَمِنَ الأتراس ثلاثة، ومن الرماح خمسة، ومِنَ الحِراب خمسة؛ منها حربةٌ صغيرةٌ تُشبهُ العُكَّاز، يُقال لها: العَنَزَةُ -بفتح العين المهملة والنُّونِ والزَّاي- كانت تُحمَلُ بين يديه يوم العيد، وتُركَّز بين يديهِ، ويُصلِّي إليها في أسفاره. وكانَ لَهُ مِحجَنٌ قدر ذراع أو أكثر بيسير، ذُو رأس، يمشي به، ويُعلَّقُ بين يديه على بَعِيرِه. وكان له قضيب مِن شَوحَطٍ، قيل: هو الذي تَداوَلَهُ الخلفاء. وكانَ لَهُ مِخْصَرَةٌ -بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الصَّادِ المهملة- وهي ما يُمسكه بيده مِن

عَصا أو مِقرَعة. وكانَ لهُ خُودتان، والخُوذة ما يُجعَلُ على الرَّأْسِ مِنَ الزَّرْدِ مِثْلَ القلنسوة.

وأما حيواناته: فكَانَ لَهُ مِنَ الخَيلِ سبعة أفراس، وقيل: أكثر. منها فَرَسٌ يُقال لها: السَّكبُ؛ تشبيها لها بسكب الماء وانصبابه لشدَّة جريه، وهو أَوَّلُ فَرَسٍ مَلَكَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أغرَّ مُحجَّلًا طَلقَ اليمين كُمَيْتًا؛ أي: بينَ السَّوداء والحمرَةِ. وكَانَ سَرَّجَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفَّتَينِ مِن لِيفٍ.

وكَانَ لَهُ له من مِن البغال ست؛ منها بغلة شهباء يُقال لها دُلْدُلُ -بضم الدَّالَينِ المهملتين- أهداها له المُقَوقِسُ، وهي أَوَّلُ بَغْلَةٍ رُكِبَت في الإسلام، وكانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَركَبُها في المدينة، وفي الأسفار، وعاشت حتى ذهبت أسنانها، وكانَ يُدَقُّ لها الشَّعيرُ، وعَمِيَت، وقاتل عليها علي كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ الخوارج بعد أن رَكِبَها عُثمان، ورَكِبَها بعد علي ابنه الحَسَنُ، ثمَّ الحُسَينُ، ثم محمد ابن الحنفية. وسُئِلَ ابنُ الصَّلاحِ. أكانت أُنثى أم ذَكَرًا والتاء للوَحدَةِ؟ فأجابَ بالأَوَّلِ. قال بعضهم: وإجماع أهل الحديث على أنها كانت ذَكَرًا، وموتها بسهم رماها به رَجُلٌ.

وكان له حماران يُقال لأحدهما: يَعفُورُ، وللآخَرِ عُفَيْرٌ -بضم العين المهملة على الصواب-، وعد بعضُهم حُمُرَه أربعة.

وكان له من الإِبلِ المُعدَّةِ للركوب ثلاثة: ناقةٌ يُقال لها: القصواء. وناقةٌ يُقال لها: الجَدْعاء -بفتح الجيم وسكون الدَّالِ المُهملة-. وناقةٌ يُقالُ العضباء -بفتح العين المهملة وسكون الضَّادِ المعجمة-، وهي التي كانت

لا تُسبَقُ فَسُبِقَت؛ فشَقَّ ذلك على المسلمين، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّ حقًا على اللهِ أَلَّا يَرفَعَ شيئًا من الدُّنيا إِلَّا وَضَعَهُ. ويُقال: إنَّ العضباء هذه لم تأكل ولم تشرب بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ماتت. وقيل: التي كانت لا تُسبَقُ فَسُبِقَت هي القصواء. وقيل: الأسماء الثلاثة لواحدة. وقيل: القصواء واحدة، والجدعاء والعضباء واحدة.

وكان له من الغَنَمِ، قِيلَ: مِائَةٌ. وقيل: سبعة أعنز، كانت ترعاها أمُّ أَيْمَنَ. وكانَ لَهُ شَاةٌ يَخْتَصُّ بِشُرْبِ لَبَنِها. وأما البقر فلَم يُنقل أنَّه اقتنى شيئًا منها. واقتنى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الديك الأبيض، وكان يبيتُ معه في البيت، وتعالى أَعلَمُ.

الخلفاء الأربع: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

فقد تقدَّم الكلام عليهم مع الاختصار، ولنذكر بعض مزايا: فاعلم أنه قد جاء في فضلهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ آيات وأحاديث كثيرة عامة وخاصة؛ ولنذكر لك نبذة عامة فنقول فقد رُوِي عن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾. قال: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بسرير من ياقوتة حمراء طولها عشرون ميلاً في عشرين ميلاً، ليس فيه صدع ولا وصل، مُعلَّق بقدرة اللَّه تعالى فيجلس عليه أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم يؤتى بسرير من ياقوتة صفراء على صفة السرير الأول، فيجلس عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم يؤتى بسرير من ياقوتة خضراء على صفة الأول فيجلس عليه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم يؤتى بسرير من ياقوتة بيضاء على صفة الأول فيجلس عليه عليّ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ، ثم يأمر اللَّه الأسرَّة أن تطير بهم فتطير بهم الأسرَّة إلى تحت ظل العرش، ثم تسبل عليهم خيمة من الدرّ الرطب لو جمعت السماوات السبع والأرضون السبع وكل ما خلق اللَّه تعالى لكانت في زاوية من زوايا تلك الخيمة، ثم يرفع إليهم أربع كاسات: كأس لأبي بكر وكأس لعمر وكأس لعثمان وكأس لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين فيسقون، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾. ثم يأمر اللَّه تعالى جهنم أن تمخض بأمواجها وتقذف الرافض والكافر على وجهها فيكشف اللَّه عن أبصارهم فينظرون إلى منازل أمة مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة فيقولون: هؤلاء الذين سعد بهم الناس ونحن شقينا ثم يردون إلى جهنم» اه من "عمدة التحقيق".

وفيه أيضًا: ذكر الكسائي في كتابه "قصص الأنبياء" عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كان كلما صنع في السفينة شيئًا تأكله الأرضة ليلًا فشكا إلى اللَّه تعالى، فأوحى اللَّه تعالى إليه اكتب عليها عيوني من خلقي قال: يا رب وما عيونك من خلقك؟ قال: هم أصحاب نبيي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ. فكتبهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على جوانبها الأربعة فحفظت.

قال: وإذا تأمّلت ما ذكره الكسائي مع قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ تجد فيه السر الأعظم والفضل الذي تقصر دونه الغايات اه. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخبرني جبريل قال: يا محمد لما خلق اللَّه آدم

وأدخل الروح في صدره أمرني أن أخرج تفاحة من جنات عدن فأخرجتها وعصرتها في حلق آدم خمس نقط، فالنقطة الأولى خلقك منها، والثانية أبو بكر، والثالثة عمر، والرابعة عثمان، والخامسة عليّ وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾. فالبشر والنسب والصهر أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين».

وفي "تفسير الخطيب" يروى عن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «قرأتُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ثم قلتُ: ما تفسيرها يا رسول اللَّه؟، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قسم من الله أقسم ربكم بآخر النهار ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أبو جهل، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عمر، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ عثمان، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عليّ». وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفًا عليه اه.

أخرج ابن عساكر عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رحم اللَّه أبا بكر زوّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً، رحم اللَّه عمر يقول: الحق وإن كان مُرًّا، رحم اللَّه عثمان تستحي منه الملائكة، رحم اللَّه عليًا اللَّهُمَّ أَدِرْ الحق معه حيث دار».

وأخرج الطبراني عن سهل قال: «لما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حجة الوداع صعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إني راض عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأوّلين فاعرفوا لهم ذلك».

وروى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «دخلت الجنة فبينما أنا أطوف في رياضها وبين أنهارها وأشجارها، إذ ضربت بيدي إلى ثمرة فأخذتها فانفلقت في يدي على أربع قطع، فخرج من كل [قطعة حوراء لو أخرجت ظفرها لفتنت أهل السماوات والأرض، ولو أخرجت كفها لغلب ضوءها ضوء الشمس والقمر، ولو تبسمت لملأت ما بين السماء والأرض مسكًا من رائحتها فقلتُ للأولى: لمن أنت؟، قالت: لأبي بكر الصِّدِّيق، فقلتُ: امضِ إلى قصر بعلك فمضت، وقلتُ للثانية: لمن أنت؟، فقالت: لعمر بن الخطاب، فقلتُ: امضِ إلى قصر بعلك فمضت، وقلتُ للثالثة: لمن أنت؟، قالت: للمختضب بدمه المقتول ظلمًا عثمان بن عفان، فقلتُ لها: امضِ إلى قصر بعلك فمضت، وقلتُ للرابعة: لمن أنت؟، فسكتت، ثم قالت: واللَّه يا رسول اللَّه إن اللَّه تعالى خلقني على حسن فاطمة، ولقد سمَّاني على اسمها وإن اللَّه تعالى زوّجني من عليّ بن أبي طالب قبل أن يتزوج فاطمة بألف عام».

ورُوِي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا أبا بكر خلقني اللَّه عزّ وجلّ من جوهرة من نور فنظر إليها الرب جلّ جلاله وتقدست أسماؤه فأوقفني بين] يديه فاستحييت منه فعرقت فسقط مني أربع نقط، فخلقك يا أبا بكر من أول نقطة، وخلق عمر من الثانية وخلق عثمان من الثالثة وخلق عليًا من الرابعة فنورك يا أبا بكر ونور عمر وعثمان وعلي من نوري» اه من "الروض الفائق".

وفي "بحر العلوم" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْا: لما خلق الله آدم ظهر في ظهره نور محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت الملائكة تقف خلفه ينظرون إلى ذلك النور فقال آدم: يا رب ما لهؤلاء ينظرون من خلفي إلى ظهري؟ قال: ينظرون إلى نور محمد خاتم الأنبياء الذي أخرجهم من ظهرك، قال: يا رب اجعل نوره بحيث أراه فظهر في سبابته، فقال: يا رب هل بقي في ظهري من هذا النور شيء؟، قال: نعم نور أصحابه، قال: يا رب اجعله في بقية أصابعي فجعل نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور علي في الإبهام، وكان آدم ينظر تلك الأنوار تتلألأ في خلال أصابع يمينه، إلى أن أكل من الشجرة وعوتب بذلك، فنقل ذلك كله إلى ظهره اه.

وعن الزبير بن العوام قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك: «اللَّهم إنك باركت لأمتي في صحابتي، فلا تسلبهم البركة وأجمعهم عليه -يعني أبا بكر- ولا تشتت أمره، فإنه لم يزل يؤثر أمرك على أمره. اللَّهم وأعز عمر وصبر عثمان وقوِّ عليًّا وثبت الزبير بن العوام، واغفر لطلحة وسلِّمْ سعدًا ووفِّقْ عبد الرحمن، وألحق بي السابقين الأولين والأنصار والتابعين بإحسان».

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين فاختار من أصحابي أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا».

ورُوِي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ان الله عزّ وجلّ افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، كما افترض عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أبغض واحدًا منهم لم يقبل الله له صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًا ويحشره من قبره إلى النار». وفي هذا المعنى قيل:

من أحسن الظن في الله الكريم وفي　　رسوله كان مكتوبًا من الشرفا
ومن أحبّ صحاب المصطفى فله　　جنات عدن يرى في ظلها غرفا
ومن يكن باغضًا فيهم فإن له　　نار الجحيم ويضحى باكيًا أسفا
فهم نجوم الهدى في كل مظلمة　　والله حسبي فيما قلته وكفى

وروي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن لحوضي أربعة أركان: ركن منه في يد أبي بكر، والثاني في يد عمر، والثالث في يد عثمان، والرابع في يد علي، فمن أحبّ أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر، ومن أحبّ عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر، ومن أحبّ عثمان وأبغض عليّا لم يسقه عثمان، ومن أحبّ عليًّا وأبغض عثمان لم يسقه علي، ومن أحسن القول في أبي بكر فقد أقام الدين، ومن أحسن القول في عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحسن القول في عثمان فقد استنار بنور رب العالمين، ومن أحسن القول في عليّ فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن أحسن القول في أصحابي فهو مؤمن، ومن أساء القول في أصحابي فهو منافق». وفي هذا المعنى:

همو صحابة خير الخلق أيديهم　　رب السماء بتوفيق وإيثار
فحبهم واجب يشفى السقيم به　　فمن أحبهم ينجو من النار

وروى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من أدخل السرور على أصحابي فقد أدخل السرور عليَّ، ومن أدخل السرور عليَّ فقد سرَّه اللَّه، ومن سرَّه اللَّه كان حقًّا على اللَّه أن يسره ويدخله الجنة».

وقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يجتمع حبّ هؤلاء الأربعة إلا في قلب مؤمن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا جلوسًا عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مرحبًا بالمواسي بماله مرحبًا بالمؤثر على نفسه، ثم أقبل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبا بالمفرّق بين الحق والباطل مرحبًا بمن أكمل اللَّه به الدين وأعزّ به المسلمين، ثم أقبل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبًا بصهري وزوج ابنتي الذي جمع اللَّه به نوري السعيد في حياته الشهيد في مماته ويل لقاتله من النار، ثم أقبل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: مرحبًا بأخي وابن عمي والذي خلقت أنا وهو من نور واحد، معاشر المسلمين هؤلاء لا يتفق حبهم إلا في قلب مؤمن ولا يتفرّق إلا في قلب منافق فمن أحبهم أحبه اللَّه ومن أبغضهم أبغضه اللَّه».

لطيفتان: الأولى قيل: إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا في بعض أشغال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأدركتهما صلاة العصر، فقال عمر بن الخطاب لعثمان: تقدّم فصلّ بنا فقال عثمان: أنت أولى مني بالتقدم يا عمر، فإن رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدّمك وأثنى

عليك، فقال عمر: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «نعم الرجل عثمان صهري وزوج ابنتي ومن جمع اللَّه به نوري». فقال عثمان: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عمر أكمل اللَّه به الإسلام». فقال عمر: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عثمان تستحي منه الملائكة» فقال عثمان: أنا لا أتقدم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عمر أكمل اللَّه به الدين وأعزّ به المسلمين». فقال عمر: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «عثمان جمع القرآن وهو حبيب الرحمن». فقال عثمان: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «نعم الرجل عمر يتفقد الأرامل والأيتام ويحمل لهم الطعام وهم نيام». فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في حقك: «غفر اللَّه لعثمان مجهز جيش العسرة». فقال عثمان: أنا لا أتقدّم عليك فإني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في حقك: «اللَّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب». وسمَّاك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفاروق وفرَّق اللَّه تعالى بك بين الحق والباطل، فبلغ ذلك رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا لهما وشكرهما على حسن أدبهما بعضهما مع بعض.

اللطيفة الثانية: روى أبو هريرة أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدما يومًا إلى حجرة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فقال علي لأبي بكر: تقدّم فكن أول قارع يقرع الباب وألحّ عليه فقال أبو بكر: تقدّم أنت يا عليّ فقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كنت بالذي يتقدم على رجل سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في حقه: «ما طلعت الشمس ولا غربت من بعدي على رجل أفضل من أبي بكر الصديق».

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أنا بالذي يتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعطيت خير النساء لخير الرجال». فقال عليّ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أراد أن ينظر إلى صدر إبراهيم الخليل فلينظر إلى صدر أبي بكر الصديق». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أراد أن ينظر إلى آدم وإلى يوسف وحسنه وإلى موسى وصلاته وإلى عيسى وزهده وإلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلقه فلينظر إلى عليّ». فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا اجتمع العالم في عرصات القيامة يوم الحسرة والندامة ينادي مناد من قبل الحق عزّ وجلّ: يا أبا بكر ادخل أنت ومحبوبك الجنة». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين وخيبر وقد أهدي إليه تمر ولبن: «هذه هدية من الطالب الغالب إلى عليّ بن أبي طالب».

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت يا أبا بكر عيني». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يجيء علِيّ علَى مركبٍ من مراكب الجنة فينادي مناد: يا محمد كان لك في الدنيا والد حسن وأخ حسن أما الوالد الحسن فأبوك إبراهيم الخليل وأما الأخ فعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ». فقال عليّ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا كان يوم القيامة يجيء رضوان خازن الجنان بمفاتيح الجنة ومفاتيح النار ويقول: يا أبا بكر الرب جلّ جلاله يقرئك السلام، ويقول لك: هذه مفاتيح الجنة ومفاتيح النار ابعث من شئت إلى الجنة وابعث من شئت إلى النار». فقال أبو بكر: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أتاني فقال لي: يا محمد إن الله عزّ وجلّ يقرئك السلام ويقول: لك أنا أحبك وأحبّ عليًّا، فسجدت شكرًا وأحب فاطمة فسجدت شكرًا، وأحب حسنًا وحسيْنا فسجدت شكرًا». فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح عليهم». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عليًّا يجيء يوم القيامة ومعه أولاده وزوجته على مراكب من البدن فيقول أهل القيامة: أيّ نبي هذا فينادي مناد هذا حبيب الله هذا علي بن أبي طالب». فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غدًا يسمع أهل المحشر من ثمانية أبواب

الجنة ادخل من حيث شئت أيها الصديق الأكبر». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بين قصري وقصر إبراهيم الخليل قصر علي بن أبي طالب». فقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال في حقه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن أهل السماوات من الكروبيين الروحانيين والملأ الأعلى لينظرون في كل يوم إلى أبي بكر الصديق». فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال اللَّه في حقه وحق أهل بيته: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا لا أتقدّم على رجل قال الله في حقه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على الصادق الأمين من عند رب العالمين، وقال: يا محمد العلي الأعلى يقرئك السلام ويقول لك: إن ملائكة السبع سماوات لينظرون في هذه الساعة إلى أبي بكر الصديق وإلى علي بن أبي طالب ويسمعون ما جرى بينهما من حسن الأدب وحسن الجواب من بعضهما لبعض فقم إليهما وكن ثالثهما فإن اللَّه قد حفهما بالرحمة والرضوان وخصهما بحسن الأدب والإسلام والإيمان، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهما فوجدهما كما ذكر له جبريل فقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجه كل واحد منهما وقال: «وحق من نفس محمد بيده لو أن البحار أصبحت مدادًا والأشجار أقلامًا وأهل السماوات والأرض كتابًا لعجزوا عن فضلكما وعن وصف أجركما» أورده صاحب "الروض الفائق" وأنشد:

من ذا يطيق بأن يحصي الثناء على محمد وعلى الصدّيق صاحبه
وقد رقي عمر الفاروق منزلة وحاز عزًّا وفخرًا في مراتبه
وحاز عثمان فضلاً بالنبي وقد أثنت جميع البرايا عن مناقبه
وذو الفقار عليّ المرتضى فله بحر من العلم يبدو من عجائبه
فهم ملاذ لمن خاف الحساب إذا ضاقت عليه أمور في مذاهبه
عليهم صلوات الله ما لمعت في الليل أنوار برق في غياهبه

وفي "حياة الحيوان": سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه أن يريه أهل الكهف، فقال الله تعالى: إنك لن تراهم في دار الدنيا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: كيف أبعث إليهم؟، قال: ابسط كساءك وأجلس على كل طرف من أطرافه واحدًا، على الأوّل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى الثاني عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى الثالث عليًّا وعلى الرابع أبا ذر، ثم ادع الرخاء المسخرة لسليمان بن داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإن الله عزّ وجلّ أمرها أن تطيعك، ففعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أمر به، فحملتهم الريح وانطلقت إلى باب الكهف، فلما دنوا من الباب قلعوا منه حجرًا، فقام الكلب ينبح عليهم حين أبصر القوم، وحمل عليهم، فلما دنا منهم حرّك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه أن ادخلوا الكهف فدخلوا، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ الله عليهم أرواحهم فقاموا بأجمعهم فقالوا: وعليكم السلام وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض وعليكم بما بلغتم، ثم جلسوا

يتحدثون، فآمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبلوا دينه الإسلام، وقالوا: بلِّغوا محمدًا منا السلام، ثم أخذوا مضاجعهم وعادوا إلى رقدتهم اه.

ويُروى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوكئًا على أبي بكر وعمر وهو يقول: هكذا نحيا وهكذا نموت وهكذا ندخل الجنة».

عجيبة ذكرها غير واحد: روَى إمامنا محمد بن إدريس الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت بمكة أسقفًا يطوف بالكعبة فقلت له: ما الذي أخرجك عن دين آبائك؟، فقال: تبدلت خيرًا منه، فقلتُ: وكيف ذاك؟، قال: ركبت البحر فلما توسطناه انكسرت المركب فلم تزل الأمواج تدافعني حتى رمتني في جزيرة من جزائر البحر، فيها أشجار كثيرة ولها ثمر أحلى من الشهد وألين من الزبد وفيها نهر عذب، فحمدت اللَّه على ذلك وقلت: آكل من الشجر وأشرب من هذا النهر حتى يقضي اللَّه بأمره؛ فلما ذهب النهار خفت على نفسي من الوحوش فطلعت على شجرة ونمت على غصن من أغصانها، فلما كان في جوف الليل وإذا دابة على وجه الماء تسبح اللَّه تعالى وتقول: لا إله إلا اللَّه العزيز الجبَّار محمد رسول اللَّه النبي المختار، أبو بكر الصديق صاحبه في الغار، عمر الفاروق فاتح الأمصار، عثمان القتيل في الدار، عليّ سيف اللَّه على الكفار، فعلى مبغضهم لعنة العزيز الجبّار، ومأواه النار وبئس القرار، ولم تزل تكرر هذه الكلمات إلى الفجر، فلما طلع الفجر قالت: لا إله إلا اللَّه الصادق الوعد والوعيد، محمد رسول اللَّه الهادي الرشيد، أبو بكر الموفق للتسديد، عمر بن

الخطاب سور من حديد، عثمان القتيل الشهيد، علي بن أبي طالب ذو البأس الشديد، فعلى مبغضهم لعنة الملك المجيد، ثم أقبلت إلى البر فإذا رأسها رأس نعامة ووجهها وجه إنسان وقوائمها قوائم بعير وذنبها ذنب سمكة، فخشيت على نفسي الهلكة ثم هربت، فنطقت بلسان فصيح: يا هذا قف وإلا تهلك فوقفت، فقالت: ما دينك؟، فقلت: دين النصرانية. فقالت: ويلك ارجع إلى دين الحنيفية فقد حللت بفناء قوم من مسلمي الجن لا ينجو منهم إلا من كان مسلمًا، فقلت: و كيف الاسلام؟، فقالت: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقلتها فقالت: أتمم إسلامك بالترضي على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقلت: ومن أتاكم بذلك؟، قالت: قوم منا حضروا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعوه يقول: «إذا كان يوم القيامة تأتي الجنة فتنادي بلسان طلق فصيح: إلهي قد وعدتني أن تشيد أركاني، فيقول الجليل جلّ جلاله: قد شيدت أركانك بأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وزيّنتك بالحسن والحسين». ثم قالت الدابة: أتريد المقام هاهنا أم الرجوع إلى أهلك؟، فقلت: الرجوع إلى أهلي، فقالت: اصبر حتى تمر مركب، فبينما نحن كذلك وإذا بمركب أقبلت تجري فأومأت إليهم فدفعوا إليّ زورقًا فنزلت فيه ثم جئت إليهم، فوجدت المركب فيها اثنا عشر رجلًا كلهم نصارى فقالوا: ما الذي جاء بك إلى هاهنا؟، فقصصت عليهم قصتي فتعجبوا كلهم وأسلموا عن آخرهم ببركة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعليك يا أخي بمحبة رسول رب العالمين وأصحابه رضوان الله عليهم

أجمعين؛ ولتكن محبتك لأصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وجه صادق ولا يضر التفاوت إن كان سببه ما بلغك من تفاوت مراتبهم التي ظهرت من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشيخ الشعراني في "مِننه": سمعت سيدي عليًّا الخواص رحمه اللَّه تعالى يقول: لا يكفي في محبة أصحاب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نحبهم المحبة العادية، إنما الواجب علينا أنّا لو كنا نعذب من جهتهم بمحبتنا لهم لا نرجع عن محبتهم كما لا نرجع عن إيماننا بالتعذيب، كما وقع لبلال وصهيب وعمار، وكما وقع للإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، فمن لا يحتمل في حب الصحابة مثل ما حمل هؤلاء فمحبته مدخولة اه. ثم قال: فتأمَّل يا أخي في نفسك فربما تكون محبتك مجازية.

وهذه مناقبهم إجمالاً، وأما تفصيلاً فقد تقدَّمن مع الاختصار في كل حق كل واحدٍ منهم.

وأما السيدة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ابنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وأما السيدة فاطمة: فبالجر بالفتحة نيابة عن الكسرة لكونه منصرف أو مرفوع خبر مبتدأ أَيْ: ولا سيما التي هي فاطمة الزهراء البتول، من التبتل: وهو الانقطاع، وسميّت البتول لأنها تبتلت أَيْ: انقطعت للعبادة، كما تسمى الزهراء لأنها لم تخل ساعة من العبادة والطهر. وكان لا يطرؤها الحيض أصلاً فلذلك سميت الزهراء بنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولما كانت بضعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقطعة منه، قيل: بأنها أفضل النساء على الإطلاق حتى مريم. واعتمد هذا القول بعض أئمة الشافعية،

ولذلك كان الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام الأئمة يقول: أنا لا أقدم على بضعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا. والقول بتفضيل مريم مبني على القول بنبوتها، والصحيح خلافه.

وهي أصغر بناته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله أبو عمر. وقال الشيخ العزيزي "على الجامع الصغير": هي أفضل حتى من الخلفاء الأربع.

روي عن ابن مسعود رفعه: وإنما سميت فاطمة بإلهام من الله لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن كانت ولادتها قبل النبوة، وإن كانت بعدها فيحتمل بالوحي؛ لأن الله قد فطمها أَيْ: منعها وذريتها عن النار يوم القيامة، أَيْ: منعهم منها، فأما هي وأبناؤها، فالمنع مطلق، وأما من عداهم، فالممنوع عنهم نار الخلود، فلا يمتنع دخول بعضهم للتطهير، ففيه بشرى لآلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالموت على الإسلام، وإنه لا يختم لأحد منهم بالكفر نظيره ما قاله الشريف السمهودي في خبر الشفاعة لمن مات بالمدينة، مع أنه يشفع لكل من مات مسلمًا، أو إن الله يشاء المغفرة لمن واقع الذنوب منهم إكرامًا لفاطمة وأبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يوفّقهم للتوبة النصوح، ولو عند الموت ويقبلها منهم. وأما محبيها: ففيه بشرى عميمة لكل مسلم أحبها، وفيه التأويلات المذكورة.

وأمها خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبها حبًّا شديدًا. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَكَ إِذَا قَبَّلْتَ فَاطِمَةَ جَعَلت لِسَانَكَ فِي فِيهَا

كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَلْعَقَهَا عَسَلًا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّه لمَّا أُسرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ أَدْخَلَنِي جِبْرِيلُ الْجَنَّةَ فَنَاوَلَنِي تُفَّاحَةً فَأَكَلْتُهَا فَصَارَتْ نُطْفَةً فِي ظهري، فَلَمَّا نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ وَاقَعْتُ خَدِيجَةَ، فَفَاطِمَةُ مِنْ تِلْكَ النُّطْفَة، فكلما اشْتَقْتُ إِلَى الْجَنَّةِ قَبَّلْتُهَا. خرَّجه أبو سعد في "شرف النبوة".

وفي راويةٍ: قالت عائشة: إنك تكثر تقبيل فاطمة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ: إن جبريل ليلة أسرى بي أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها، فصار ماء في صلبي فحملت خديجة بفاطمة، فإذا اشتقت لتلك الثمار قبَّلت فاطمة، فأصبت من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها. خرَّجه الفضل بن خيرون كذا في "ذخائر العقبى".

قال بعضهم: هذه الروايات تقتضي كون ولادة فاطمة بعد البعثة، وصرَّح أبو عمرو بأنّ ولادة فاطمة كانت سنة إحدى وأربعين من مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ اهـ.

وفي "درر الأصداف" رد ذلك وعبارته: وأما خبر: «أَتَانِي جِبْرِيلُ بِسَفَرْجَلَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَكَلْتُهَا لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَعُلِّقَتْ خَدِيجَةُ بِفَاطِمَةَ فَكُنْتُ إِذَا اشْتَقْتُ إِلَى رَائِحَةِ الْجَنَّةِ شَمَمْتُ رَقَبَةَ فَاطِمَة». فقال الأئمة ردًّا على تصحيح الحاكم: أنه كذب موضوع جلي الوضع، لأن فاطمة ولدت قبل النبوة، فضلًا عن ليلة الإسراء. ذكر ذلك ابن حجر في "شرح الهمزية" اهـ.

روى البخاري ومسلم والترمذي، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ بنت مزاحم امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ

مُحَمَّدٍ)).

وفي كتاب "معالم العترة النبوية" مرفوعًا إلى قتادة عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خير نِسَائِهَا فَاطِمَةُ بنت مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت لفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ألا أبشرك، إني سمعت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: سيدات نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

وعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَمْعِ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ حَتَّى تَمُرَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَمُرَّ، وَعَلَيْهَا رِيطَتَانِ خَضْرَاوَانِ. وفي بعض الروايات: حمراوان.

وفي "المسند" للإمام أحمد بن حنبل: عَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان قَالَ: سَأَلَتْنِي أُمِّي مُنْذُ مَتَى عَهْدُكَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فَقُلْتُ لَهَا: مُنْذُ كَذَا وَكَذَا، وذكرت مدة طويلة، قَالَ: فَنَالَتْ مِنِّي وَسَبَّتْنِي، فَقُلْتُ لَهَا: دَعِينِي، فَإِنِّي آتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُصَلِّي مَعَهُ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ لَا أَدَعُهُ حَتَّى يَسْتَغْفِرَ لِي وَلَكِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاء، ثُمَّ انْفَتَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته فَتَبِعْتُهُ، فَعَرَضَ لَهُ عَارِضٌ فَنَاجَاهُ، فَاتَّبَعْتُهُ فَسَمِعَ صَوْتِي خلفه، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: حُذَيْفَةُ، قَالَ: مَا لَكَ؟، فَحَدَّثْتُهُ بِحديث أمي، فَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلِأُمِّكَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا رَأَيْتَ الْعَارِضَ الَّذِي عَرَضَ لِي؟، فَقُلْتُ: بَلَى يا رسول اللَّه. قَالَ: هُوَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ يَهْبِطِ الْأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ،

اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ، وَيُبَشِّرَنِي أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وفي "المسند" أيضًا: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَبَكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: اسْتَخَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَدِيثِهِ ثُمَّ تَبْكِينَ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ، فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حَتَّى إِذَا قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلْتُهَا، فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيَّ، فَقَالَ: إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لُحُوقًا بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ ". فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ -أَوْ: نِسَاءِ العالمين -؟، قَالَتْ: فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ.

وَأخرج تَمام وَالْبَزَّار وَالطَّبَرَانِيّ وَأَبُو نعيم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِن فَاطِمَة أحصنت فرجهَا فحرَّم اللَّه ذريتها على النَّار. وَفِي رِوَايَةٍ: فَحرمهَا اللَّه وذريتها على النَّار. وَأخرج الديلمي مَرْفُوعًا: إِنَّمَا سميت ابْنَتي فَاطِمَة لِأَن الله فطمها ومحبيها عن النار. وَأخرج الطَّبَرَانِيّ بِسَنَد رِجَاله ثِقَات أَنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: إِن الله غير معذبك وَلَا أحد من ولدك. ورُوِي عن مجاهد قال: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو آخذٌ بيد

فاطمة، فقال: من عرف هذه فقد عرفها، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد، وهي بضعة مني، وهي قلبي وهي روحي التي بين جنبي، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللَّه.

وروى الأصبغ بن نباتة عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا كان يوم القيامة جمع اللَّه الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ، ثم ينادي منادٍ من بطان العرش الجليل جل جلاله يقول: نكّسوا رؤوسكم وغضّوا أبصاركم، فإن هذه بنت محمد تريد أن تمر على الصراط.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ في السماء السابعة، قال: فرأيت فيها لمريم ولأم موسى ولآسية امرأة فرعون ولخديجة بنت خويلد، قصورًا من ياقوتة، ولفاطمة بنت محمد سبعين قصرًا من مرجان أحمر مكلّلًا باللؤلؤ، أبوابها وأسرتها من عود واحد.
وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أول شخص يدخل عليَّ الجنة فاطمة بنت محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تزوَّجها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وبنى بها في ذي الحجة من السنة المذكورة.

نقل الشيخ أبو الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن سنان مرفوعًا إلى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت عند رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغشيه الوحي، فلما أفاق قال: يا أنس أتدري ما جاءني به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من صاحب العرش عز وجل وعلا، قلتُ: بأبي أنت وأمي ما جاءك به

جبريل؟، قال: قال لي: إن اللَّه تبارك وتعالى يأمرك أن تزوج فاطمة من علي، فانطلق وادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحمد للَّه المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع بسلطانه المهروب إليه من عذابه النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلق بقدرته وميَّزهم بأحكامه، أعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد، إن اللَّه عزّ وجلّ جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا وحكمًا عادًلا، وخيرًا جامعًا، أوشج بها الأرحام، وألزمها الأنام. فقال اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾. فأمر اللَّه تعالى يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر ولكل قدر أجل ولكل أجل كتاب، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ثم إن اللَّه تعالى أمرني أن أزوّج فاطمة من علي، وأشهدكم أني زوّجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة، إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع اللَّه شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة. أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم. قال: وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غائبًا في حاجة لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثه فيها، ثم أمر لنا رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطبق فيه تمر، فوضع بين أيدينا فقال: انتهبوا، فبينما نحن كذلك إذ أقبل علِيّ، فتبسم إليه رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا علي إن اللَّه أمرني أن أزوّجك فاطمة، وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال

فضة. فقال علي: رضيت يا رسول اللَّه. ثم أن عليًا خرَّ ساجدًا شكرًا لله. فلما رفع رأسه قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب. قال أنس: واللَّه لقد أخرج منهما الكثير الطيب اه.

توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، وهي بنت ثمان وعشرين سنة. ودُفنت بالبقيع ليلاً، وصلَّى عليها علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقيل: صلَّى العبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونزل في قبرها هو وعلِيّ والفضل بن العبَّاس.

وفي كتاب "الذرية الطاهرة" للدولابي: قال: لبثت فاطمة بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أشهر. وقال عروة بن الزبير وعائشة: لبثت ستة أشهر. ومثله عن ابن شهاب الزهري وهو الصحيح.

رُوِي أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا ماتت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفرغ من جهازها ودفنها رجع إلى البيت، فاستوحش فيه وجزع عليها جزعًا شديدًا ثم أنشأ يقول:

أرى علل الدنيا علَيَّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي فاطمًا بعد أحمد ... دليل على ألا يدوم خليل

وروى جعفر بن محمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: كان علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزور قبرها في كل يوم، فأقبل ذات يوم فانكب على القبر وبكى وأنشأ يقول:

ما لي مررت على القبور مُسَلِّمًا   قبر الحبيب فلم يرد جوابي
يا قبر ما لك لا تجيب مناديًّا   أمللت بعدي خلة الأحباب

فأجابه هاتف يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول:

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم   وأنا رهين جنادل وتراب
أكل التراب محاسني فنسيتكم   وحجبت عن أهل وعن أترابي
فعليكم مني السلام تقطعت   مني ومنكم خلة الأحباب

الباب الثاني: في فضل آل البيت ومزاياهم على العموم والخصوص:

اثنين فأكثر:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. قال في "المواهب": المراد بالقُربى مَن يُنسَبُ إِلى جَدِّه الأقرب عبد المُطَّلِبِ. اه. وقال في "الصواعق": المراد بأهل البيت والآل وذوي القربى في كل ما جاء في فضلهم: مؤمنو بني هاشم والمطلب اه. وكالثلاثة العترة؛ فالألفاظ الأربعة بمعنى واحد كما في "المواهب". وقال ابن عطية: قريش كلها عندي قربى، وإن كانت تتفاضل». وخير الأقوال أوسطها.

ويُنافيها ما رَوَى الطَّبَراني وابن أبي حاتم وابنُ مَردويه؛ عن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّها لمَّا نَزَلَت قالوا: يا رسولَ اللهِ مَن قَرابَتُك الَّذِينَ نَزَلَت فيهم الآية؟، قال: علي وفاطمة وابناهما. إلَّا أن يُجعَلَ هذا الحديث ونحوه من باب الحج عرفة، والاستثناء في الآية مُنقطع، والمعنى: لا أسألكم عليه أجرًا أبدًا، ولكن أسألكم أن تَوَدُّوني في ذَوِي القُربى.

وفي الآية تفسير آخَرُ؛ وهو أنَّ المعنى: ولكن أسألكم أن تَوَدُّوني وتَكفُّوا عنِّي أَذاكُم بسبب ما بيني وبينكم من القرابة، ولا بَطْنَ مِن قُرَيشٍ إِلَّا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَرابَةٌ بهم؛ فالقُربى على كلِّ بمعنى القرابة مع تقدير مضاف على الأول.

وقالَ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، أراد بالرجس الذَّنب، وبالتطهير التطهير من المعاصي، كما في "البيضاوي".

رُوِيَ مِن طُرُق عديدةٍ صحيحة أَنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ ومعَهُ علِيّ وفاطمة وحَسَنٌ وحُسَينٌ، قد أخذَ كلُّ واحدٍ منهما بيده، حتَّى دَخَلَ، فأدنى عليًّا وفاطمة، وأَجلَسَهما بين يديهِ، وأَجْلَسَ حَسَنًا وَحُسَينًا كلَّ واحد منهما على فَخِذِه، ثمَّ لفَّ عليهم كساءً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقال: «اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهِّرهم تطهيرًا». وفي روايةٍ: «اللَّهُمَّ هؤلاء آل محمَّدٍ، فَاجعَل صَلَواتِكَ وَبَرَكاتِكَ على آلِ محمدٍ، كَما جَعَلتَها على إبراهيم، إنَّك حميدٌ مَجِيدٌ».

وفي روايةِ أمّ سَلَمَةَ قالت: فرَفَعتُ الكساءَ لِأَدْخُلَ معَهم، فَجَذَبَهُ مِن يَدِي، فقُلتُ: وأنا معكم يا رسولَ اللَّهِ، فقالَ: «إِنَّكِ مِن أزواجِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خيرٍ». وفي رواية لها: أَنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ في بيتها إذ جاءت فاطمة ببُرْمة -بضم فسكون- قِدرٍ مِن حَجَرٍ فيها خَزِيرةٌ -بخاءٍ مُعجَمةٍ مفتوحة فزاي مكسورة فتحتية ساكنةٍ فَراء: ما يُتَّخذُ مِنَ الدَّقيق على هيئة العصيدة لكن أَرَقُّ منها- فوَضَعَتها بين يديه، فقال: «أين ابنُ عمكِ وابناكِ؟» فقالت: في البيت، فقال: «ادعيهم»، فجاءت إلى عليّ وقالت: أجب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنت وابناك، فجاء عليَّ وحَسَنٌ وحُسَينٌ، فَدَخَلوا عليه، فجعلوا يأكلون من تلك الخزيرة تحت الكِساءِ، فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وفي روايةٍ: أَنه أَدْرَجَ معهم جبريل وميكائيل. وفي روايةٍ: أَنَّه أَدْرَجَ معهم بقية بناته وأقاربه وأزواجه. وفي روايةٍ: أَنَّ ذلك الفعل كان في بيت فاطمة. وفي حديثٍ حَسَنٍ: أَنَّهُ سَتَرَ العَبَّاسَ وَبَنِيهِ بملاءة، ودعا لهم بالسَّترِ مِنَ النَّارِ، وأَنَّه أَمَّنَ على دعائه أسكُفَّةُ الباب وحوائط البيت ثلاثًا. وقد أشار المحبُّ الطبري إلى أنَّ هذا الفعل تكَرَّرَ منهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبه جُمِعَ بينَ الاختلاف في هيئة اجتماعهم، وما سَتَرَهم به، وما دعا به لهم، وفي المَجْمُوعِينَ، ومَحَلَّ الجمع، وكونه قبل نزول الآية أو بعدها.

ورَوَى أحمد والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُنزِلَت هذه الآية في خمسٍ: فيَّ وفي عِليّ وحَسَنٍ وحُسَينٍ وفاطمة». ورَوَى ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسَّنهُ، وابن جرير وابنُ المُنذِرِ والطَّبَراني والحاكم وصحَّحَهُ، عن أنسٍ، أَنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يَمُرُّ ببيت فاطمة إذا خَرَجَ إلى صلاة الفجر، يقول: «الصَّلاة أهل البيتِ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وفي رواية ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري، أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء أربعين صباحًا إلى باب فاطمة يقول: «السَّلامُ عليكم أهل البيت ورحمة اللَّه وبركاته، الصَّلاةَ يَرحَمكُمُ اللَّهُ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وفي روايةٍ له عن ابن عباس: سبعة أشهر. وفي روايةٍ لابن جَرِيرٍ وابن المُنذِرِ والطَّبَرَاني: ثمانية أَشْهُرٍ.

وروى مسلم والنسائي عن زيد بن أَرقَمَ قالَ: قامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيبًا فقالَ: «أُذكِّرُكُمُ اللَّهَ في أهل بيتي» ثلاثًا، فقيل لزيد بن أَرقَمَ: مَن أهل البيت؟، قال: أهل البيتِ مَن حُرِمَ الصَّدقة بعده، قيل: ومَن هم؟، قال: آل عليّ وآلُ عَقيلٍ وآل جعفرٍ وآل عبَّاس.

وفي "الصَّواعق": أنَّ المراد بالبيتِ في الآية ما يَشْمَلُ بيت نسبِ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيت سكناه، فتَشْمَلُ الآيةُ أَزْوَاجَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وهو ما ذَكَرَهُ الزمخشري والبيضاوي، ويدل عليه ما قبل الآية وما بعدها، وما يُوهِمُ خلاف ذلك مِنَ الأحاديثِ المُتقدِّمةِ تَقدَّمَ الجواب عنه فافهم.

ونقَل القرطبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، أنَّه قال: رِضا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألَّا يَدْخُلَ أَحدٌ مِن أَهلِ بيته النَّارَ. وأخرج الحاكم وصحَّحَهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «وَعَدني ربي في أهل بيتي مَن أَقرَّ منهم بالتوحيد ولي بالبلاغ ألا يُعذِّبَهم».

وأَخرَجَ تمَّام والبَزَّارُ والطَّبراني وأبو نُعيمٍ، أَنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فاطمة أَحْصَنَت فرجَها؛ فَحرَّمَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَها على النَّارِ». وفي روايةٍ: «فَحرَّمَهَا اللَّهُ وَذُرِّيَّتَها على النَّارِ». وأخرج الديلمي مرفوعًا: «إِنَّما سُمِّيَت فاطمةُ فاطمةَ؛ لأَنَّ اللَّهَ فطَمَها ومُحِبِّيها عَنِ النَّارِ». وأخرج الطَّبَرانيُّ بسَنَدٍ رِجالُهُ ثِقاتٌ، أَنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ غيرُ مُعذِّبِكِ ولَا أحدٍ مِن وُلدِكِ».

وأخرج الثَّعلبيُّ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ عن جعفرٍ الصَّادِقِ، أنَّه قال: نَحنُ حَبلُ اللَّهِ. وأخرج بعضُهم عنِ الباقِرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أنَّه قال: أهلُ البَيتِ هُمُ النَّاسُ.

وأخرج السِّلَفِيُّ عن مُحمَّدِ بنِ الحنفيَّةِ في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، أنَّه قال: لا يَبقى مُؤمِنٌ إلَّا وفي قَلبِهِ وُدٌّ لِعَليٍّ وأهلِ بَيتِهِ. وذَكَرَ النَّقَّاشُ في "تفسيرِهِ" أنها نزلت في علِيٍّ.

وعن زَيدِ بنِ أَرقَمَ قال: قامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطيبًا، فَحمِدَ اللَّهَ وأَثنى عليه، ثمَّ قال: «أَيُّها النَّاسُ إنَّما أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أن يَأتِيَني رَسولُ رَبِّي -يَعْنِي المَوْتَ- فَأُجِيبَهُ، وإِنِّي تارِكٌ فيكُم ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُما كِتابُ اللَّهِ فيهِ الهُدى والنُّورُ، فَتَمَسَّكوا بِكِتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وخُذوا بِهِ، وأهلُ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ في أهلِ بَيتي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ في أهلِ بَيتي». رواه مُسلِمٌ.

وفي روايةٍ: «إِنِّي تارِكٌ فيكُمُ الثَّقَلَيْنِ؛ كِتابَ اللَّهِ، وعِترَتي». والثَّقَلُ - مُحرَّكٌ كما في "القامُوسِ"- وهو كلُّ شَيءٍ نَفيسٍ مَصُونٍ. ومعنى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ في أهلِ بيتي: أُحَذِّرُكُمُ اللَّهَ في شَأنِ أهلِ بَيتي.

ولَفظُ رِوايةِ الإمامِ أحمَدَ: «إِنِّي أُوشِكُ أن أُدعى فَأُجِيبَ، وإِنِّي تارِكٌ فيكُمُ الثَّقَلَينِ؛ كِتابَ اللَّهِ حَبلٌ مَمدودٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأرضِ، وعِترَتي أهلُ بَيتي، وإنَّ اللَّطيفَ الخَبيرَ أَخبَرَني أنَّهُما لَن يَفتَرِقا حتَّى يَرِدا عَلَيَّ الحَوضَ

يومَ القيامةِ، فانظُروا بِما تُخلِفُوني فيهِما». وفي روايةٍ: «حَوضي ما بَينَ بُصرى وصَنعاءَ، عددُ آنِيَتِه عَددُ النُّجومِ، إن اللَّه سائلكم: كيف خلفتموني في كتاب اللَّه وأهل بيتي؟».

وعَنِ أبي بَكْر الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أَنَّهُ قال: «أَيُّها النَّاسُ ارقُبوا مُحمَّدًا في أهلِ بَيتِهِ». رواه البُخاريُّ. أَيْ: احفَظُوهُ فيهِم فَلا تُؤذُوهُم. وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِما يَغذُوكُم به، وأَحِبُّوني بِحُبِّ اللَّهِ، وأَحِبُّوا أهلَ بَيتي لِحُبِّي». رواه التِّرمِذيُّ، والحاكِمُ وصَحَّحَهُ على شرط الشيخَيْن.

وأخرجَ الحاكِمُ عن أبي هُرَيرَةَ، أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَيرُكُم خَيرُكُم لِأَهلي مِن بَعدي». وأخرجَ ابنُ سَعدٍ والمُلَّا في "سِيرَتِهِ" أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «استَوصُوا بِأَهلِ بَيتي خَيرًا؛ فإِنّي أُخاصِمُكُم عَنهُم غدًا، ومَن أكُن خَصمَهُ خَصَمَهُ اللَّهُ، ومَن خَصَمَهُ اللَّهُ أدخَلَهُ النَّارَ».

ورَوَى جَماعَةٌ مِن أصحابِ السُّنَنِ عَن عِدَّةٍ مِنَ الصَّحابَةِ أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَثَلُ أهلِ بَيتي فيكُم كَسَفينَةِ نُوحٍ؛ مَن رَكِبَها نَجا، ومَن تَخَلَّفَ عَنها هَلَكَ». وفي روايةٍ: «غَرِقَ». وفي أُخرى: «زُجَّ في النَّارِ». وفي أُخرى عن أبي ذَرٍّ زِيادَةُ: «وسَمِعتُهُ يَقولُ: اجعَلوا أهلَ بَيتي مِنكُم مَكانَ الرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ، ومَكانَ العَينَينِ مِنَ الرَّأسِ، ولا تَهتَدي الرَّأسُ إلَّا بِالعَينَينِ».

وصَحَّ أَنَّ بِنتَ أبي لَهَبٍ لَمَّا هاجَرَت إلَى المَدينَةِ قيلَ لَها: لَن تُغنِيَ عَنكِ هِجرَتُكِ؛ أنتِ بِنتُ حَطَبِ النَّارِ. فَذَكَرَت ذلِكَ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ؛ فَاشتَدَّ غَضَبُهُ، ثمَّ قالَ عَلَى المِنبَرِ: «ما بالُ أقوامٍ يُؤذُونَني في نَسَبي وذَوِي رَحِمي، ألَا ومَن آذى نَسَبي وذَوِي رَحِمي فَقَد آذاني، ومَن آذاني فَقَد آذَى اللَّهَ». أخرَجَهُ ابنُ عاصِمٍ والطَّبَرانيُّ وابن مَندَه والبَيهَقِيُّ بِألفاظٍ مُتَقارِبَةٍ.

وأخرجَ الطَّبَرانيُّ والدَّارَقُطنِيُّ مَرفوعًا: «أوَّلُ مَن أشفَعُ لَهُ مِن أُمَّتي أهلُ بَيتي، ثمَّ الأَقرَبُ فَالأَقرَبُ مِن قُرَيشٍ، ثمَّ الأَنصارُ، ثمَّ مَن آمَنَ بي واتَّبَعَني مِنَ اليمن، ثم سائر العَرَبِ، ثمَّ الأَعاجِمُ، ومَن أشفَعُ لَهُ أوَّلًا أفضَلُ».

ولا تَنافِيَ بَينَ هذا وبَينَ ما رَواهُ البَزَّارُ والطَّبَرانيُّ وغَيرُهُما: «أوَّلُ مَن أشفَعُ لَهُ مِن أُمَّتي أهلُ المَدينَةِ، ثمَّ أهلُ مَكَّةَ، ثمَّ أهلُ الطَّائِفِ»؛ فإنَّ هذا ترتيب مِن حَيثُ البُلدانُ، وذاكَ مِن حَيثُ القَبائِلُ، فيحتمل أن المراد البداءة في قُرَيشٍ بِأَهلِ المَدينَةِ، ثمَّ مَكَّةَ، ثمَّ الطَّائِفِ، وكذا في الأَنصارِ، فَمَن بَعدَهُم.

ورَوَى الطَّبَرانيُّ وابنُ عَساكِرَ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنا وفاطِمَةُ والحَسَنُ والحُسَينُ نَجتَمِعُ ومَن أحَبَّنا يومَ القِيامَةِ؛ نَأكُلُ ونَشرَبُ حتَّى يُفَرِّقَ اللَّهُ بَينَ العِبادِ». ووَرَدَ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَرِدُ حَوضي أهلُ بَيتي ومَن أحَبَّهُم مِن أُمَّتي كَهاتَينِ السَّبَّابَتَينِ». ويَشهَدُ لَهُ خَبَرُ: «المَرءُ مَعَ مَن أحَبَّ».

ورُوِيَ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الزَمُوا مَوَدَّتَنا أهلَ البَيتِ؛ فإنَّهُ مَن لَقِيَ اللَّهَ عزّ وجلّ وهُوَ يَوَدُّنا دَخَلَ الجَنَّةَ بِشَفاعَتِنا، والَّذي نَفسي بِيَدِهِ لا يَنفَعُ عَبدًا عَمَلُهُ إلَّا بِمَعرِفَةِ حَقِّنا».

وصَحَّ أنَّ العَبَّاسَ شَكا إلَى رَسولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تَفعَلُهُ قُرَيشٌ مِن تَعبيسِهم وُجوهِهِم عِندَ لِقائِهِ وقَطعِهِم حَديثَهُم عند لقائهم؛ فَغَضِبَ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبًا شَديدًا حتَّى احمَرَّ وَجهُهُ ودَرَّ عِرقٌ بَينَ عَينَيهِ، وقال: «والَّذي نَفسي بِيَدِهِ ال يَدخُلُ قَلبَ رَجُلٍ الإيمانُ حتَّى يُحِبَّكُم لِلّهِ ولِرَسولِهِ». وفي روايةٍ صَحيحَةٍ أَيضًا: «ما بالُ أقوامٍ يَتَحَدَّثُونَ فَإِذا رَأَوا الرَّجُلَ مِن أهلِ بَيتي قَطَعُوا حَديثَهُم، واللّهِ لا يَدخُلُ قلبَ رَجُلٍ الإيمانُ حتَّى يُحِبَّهُم لِقَرابَتِهِم مِنّي». وفي أُخرى: «والَّذي نَفسي بِيَدِهِ لا يَدخُلُوا الجَنَّةَ حتَّى يُؤمِنُوا، ولا يُؤمِنُونَ حتَّى يُحِبُّوكُم لِلّهِ ولِرَسولِهِ، أيَرْجُونَ شَفاعَتِي وَلَا تَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!».

ورَوَى الدَّيلَميُّ والطَّبَرانيُّ وأبو الشَّيخِ والبيهقي مَرفوعًا: «لا يُؤمِنُ عَبدٌ حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيهِ مِن نَفسِهِ، وتَكُونَ عِترَتي أحَبَّ إلَيهِ مِن عِترَتِهِ، وأَهلي أحَبَّ إلَيهِ مِن أهلِهِ، وذاتي أحَبَّ إلَيهِ مِن ذاتِهِ».

ورَوَى أبو الشَّيخِ عن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللّهُ وَجهَهُ، قال: خَرَجَ رَسولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا حتَّى استَوَى عَلَى المِنبَرِ، فَحَمِدَ اللّهَ وأَثنى عَلَيهِ، ثُمَّ قال: «ما بالُ رِجالٍ يُؤذُونَني في أهلِ بَيتي، والَّذي نَفسي بِيَدِهِ لا يُؤمِنُ عَبدٌ حتَّى يُحِبَّني، ولا يُحِبَّني حتَّى يُحِبَّ ذُرِّيَّتي». ولِذلِكَ قالَ أبو بَكرٍ رَضِيَ اللّهُ تَعالَى عَنهُ: صِلَةُ قَرابَةِ رَسولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحَبُّ إلَيَّ مِن صِلَةِ قَرابَتي.

ورَوَى أحمَدُ مَرفوعًا: «مَن أبغَضَ أهلَ البَيتِ فَهُوَ مُنافِقٌ». وعن أبي سَعيدٍ أنَّهُ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يُبغِضُنا أهلَ البَيتِ أحَدٌ إلَّا أَدخَلَهُ

اللَّهُ النَّارَ»، رَواهُ الحاكِمُ وصَحَّحَهُ عَلَى شَرطِ الشَّيخَينِ.

وعن أبي سَعيدٍ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اشتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَن آذاني في عِترَتي»، رَواهُ الدَّيلَميُّ. وعن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تعالَى عَنهُ أنَّهُ قالَ لِمُعاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعالَى عَنهُ: إيَّاكَ وبُغضَنا؛ فإنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يُبغِضُنا ولا يَحسُدُنا أحَدٌ إلَّا ذِيدَ عَنِ الحَوضِ يَومَ القِيامَةِ بِسِياطٍ مِن نارٍ»، رَواهُ الطَّبَرانيُّ في "أَوسَطِه".

وعَن عَلِيٍّ قال: قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ ارزُق مَن أبغضَنِي وأهلَ بَيتي كَثرَةَ المالِ والعِيالِ»، رَواهُ الدَّيلَميُّ. قالَ ابنُ حَجَرٍ: كفاهم أَن يكثر مَالهم فَيطول حسابهم وَأَن تكْثر عِيَالهمْ فتكثر شياطينهم. ولا يُشكِل هذا بالدعاء لأنس بمثل ذلك، لأن ذلك نعمة في حقه يتوصَّل بها إلى كثير من الأمور المطلوبة بخلافه في حق مبغضهم.

وأَخرَجَ الدَّيلَميُّ وغَيرُهُ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نَحنُ بَنو عَبدِ المُطَّلِبِ ساداتُ أهلِ الجَنَّةِ؛ أنا وحَمزَةُ وعَلِيٌّ وجَعفَرٌ والحَسَنُ والحُسَينُ والمَهدِيُّ».

وأَخرَجَ مُسلِمٌ مِن حَديثِ أبي هُرَيرَةَ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ في حَسَنٍ وحُسَينٍ: «اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُما فَأَحِبَّ مَن يُحِبُّهُما». وأَخرَجَ التِّرمِذيُّ عَن أُسامَةَ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجلَسَ الحَسَنَ والحُسَينَ يَومًا عَلَى فَخِذَيهِ وقال: «هذانِ ابناي، وابنا ابنَتي، اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُما فَأَحِبَّهُما، وأَحِبَّ مَن يُحِبُّهُما».

وأَخرَجَ التِّرمِذيُّ عن أنسٍ، أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أيُّ أهلِ بَيتِكَ أحَبُّ إليكَ؟، فقالَ: «الحَسَنُ والحُسَينُ». وروَى الطَّبَرانيُّ في "الكبيرِ" وابنُ أبي شَيبَةَ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ فيهِما: «اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُما فَأَحِبَّهُما، وأَبغِض مَن أبغَضَهُما».

ورُوِيَ مِن طُرُقٍ عَدِيدَةٍ صَحيحَةٍ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الحَسَنُ والحُسَينُ سَيِّدا شَبابِ أهلِ الجَنَّةِ». وفي روايةٍ: «إلَّا ابنَي الخالَةِ عيسَى بنَ مَريَمَ ويَحيَى بنَ زَكَرِيَّا». وفي روايةٍ: «وإنَّ فاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِساءِ أهلِ الجَنَّةِ، إلَّا ما كانَ مِن مَريَمَ ابنَةِ عِمرانَ». وفي روايةٍ: «وأَبُوهُما خَيرٌ مِنهُما».

ورَوَى ابنُ عَساكِرَ وابنُ مَندَهْ عَن فاطِمَةَ أنَّها أتت بابنَيها فقالَت: يا رَسولَ اللَّهِ، هذانِ ابناكَ فَوَرِّثهُما شَيئًا، فقالَ: «أمَّا الحَسَنُ فَلَهُ هَيبَتي وسُؤدُدي، وأمَّا الحُسَينُ فَلَهُ جُودِي ورَأفَتي». وفي روايةٍ: «أمَّا الحَسَنُ فقَد نَحلتُهُ حِلمي وهَيبَتي، وأمَّا الحُسَينُ فقَد نَحلتُهُ نَجدَتي وجُودي».

وعَن أنَسٍ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «الحَسَنُ والحُسَينُ هُما رَيحانَتايَ مِنَ الدُّنيا»، رَواهُ النَّسائيُّ والتِّرمِذيُّ، وقالَ: صَحيحٌ. ورَوَى ابنُ أبي شَيبَةَ وأحمَدُ والأربعَةُ عَن بُرَيدَةَ رَضِيَ اللَّهُ تعالَى عَنهُ، قال: كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخطُبُ إذ جاءَ الحَسَنُ والحُسَينُ عَليهِما قَميصانِ أحمَرانِ يَمشِيانِ ويَعثُرانِ ويقومان، فَنَزَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمَلَهُما واحد من ذا الشق وواحد من ذا الشق، ثُمَّ صَعِدَ المِنبَرَ، فقالَ: «صَدَقَ اللَّهُ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، إنِّي نَظَرتُ إلَى هَذَينِ الغُلامَينِ يَمشِيانِ ويَعثُرانِ فَلَم أصْبِر، فَقَطَعتُ كَلامي، ونزلتُ إليهِما».

وروَى أحمَدُ والتِّرمِذيُّ عَن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن أَحَبَّني وأَحبَّ هَذَينِ وأَباهُما وأُمَّهُما كانَ مَعي في دَرَجَتي يَومَ القِيامَةِ». قالَ ابنُ حَجَرٍ: ومَعنَى المَعِيَّةِ هُنا القُربُ والشُّهُودُ، لا المَكانُ والمَنزِلَةُ اه. ولا يُنافي ذلِكَ قَولُهُ: «في دَرَجَتي»؛ لِإمكانِ حَملِهِ عَلَى أنَّ المَعنى كانَ قريبًا مِنِّي ومُشَاهِدًا إلَيَّ حالَ كَونِهِ في دَرَجَتي.

وذَكَرَ الفَخرُ الرَّازيُّ أنَّ أهلَ بيتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساوَوهُ في خَمسَةِ أشياءَ: في الصَّلاةِ عَلَيهِ وعَلَيهِم في التَّشَهُّدِ. وفِي السَّلامِ يُقالُ في التَّشَهُّدِ: السَّلامُ عَلَيكَ أَيُّها النَّبيُّ، وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾. وفي الطَّهارَةِ: قالَ تَعالى: ﴿طه﴾ أَيْ: يا طاهِرُ. وقالَ تَعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وفي تَحريمِ الصَّدَقَةِ. وفي المَحبَّةِ قالَ تَعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وقالَ تَعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

ومِمَّا نُسب إلَى الشَّيخِ الأكبَرِ مُحيي الدِّينِ بن عَرَبيٍّ:

رَأَيتُ وَلائِي آلَ طَهَ فَريضَةً ... على رَغمِ أَهْلِ البُعدِ يُورِثُنِي القُربَى
فَما طَلَبَ المَبعوثُ أَجرًا عَلَى الهُدَى ... بِتَبلِيغِهِ إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُربَى

ومِمَّا قالَهُ الإِمامُ اللُّغَوِيُّ أبو عَبدِ اللهِ مُحمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ يوسُفَ الأَنصاريُّ الشَّاطِبيُّ لِزبينا إسحاقَ النَّصرانِيِّ:

عَدِّي وَتَيمٌ لا أُحاوِلُ ذِكرَهُم ... بِسُوءٍ ولَكِنِّي مُحِبٌّ لِهاشِمِ
وَمَا يَعتَرِينِي فِي عَلِيٍّ وَرَهْطِهِ ... إذا ذُكِروا فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمِ
يقولُونَ مَا بالُ النَّصارى تُحِبُّهُمُ ... وَأَهْلُ النُّهَى مِنَ أعرُبٍ وأَعاجِمِ
فَقُلتُ لَهُم: إِنِّي لَأَحسَبُ حُبَّهُمُ ... سَرَى فِي قُلُوبِ الخَلقِ حَتَّى البَهائِمِ

وقالَ إِمامُنا الشَّافِعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَا راكِبًا قِفْ بِالمُحَصَّبِ مِنْ مِنَى وَاهْتِفْ بِسَاكِنِ خِيفِها والنَّاهِضِ
سَحرًا إِذَا فَاضَ الحَجِيجُ إِلَى مِنَى فَيضًا كَمُلْتَطِمِ الفُراتِ الفَائِضِ
إِنْ كانَ رَفضًا حُبُّ آلِ مُحمَّدٍ فَلْيَشهَدِ الثَّقَلانِ أَنِّي رَافِضِي

قال البَيهَقِيُّ: إنَّما قالَ الشَّافِعيُّ ذلِكَ من نِسبَةِ الخَوارِجِ لَهُ إِلَى الرَّافِضَةِ حَسَدًا وبَغيًا.

ولِبَعضِهِم:

هُمُ القَومُ مَنْ أَصفاهُمُ الوُدَّ مُخْلِصًا تَمَسَّكَ بِأَخْراهُ بِالسَّبَبِ الأَقوَى
هُمُ القَومُ فَاقُوا العَالَمِينَ مَنَاقِبًا مَحاسِنُهُمْ تُحكَى وَآياتُهُم تُروَى
مُوَالاتُهُمْ فَرْضٌ وَحُبُّهُمْ هُدًى وَطَاعَتُهُمْ وُدٌّ وَوُدُّهُمُ تُقْوَى

فَالزَمْ يَا أَخِي مَحَبَّتَهُم، واحذَرْ عَداوَتَهُم، أو أن تَقَعَ فيهِم بِشَيءٍ؛ مَخافَةَ أن تَقَعَ فيمَا تَقَدَّمَ مِنَ الوَعيدِ.

واعلَمْ أنَّ المَحَبَّةَ المُعتَبَرَةَ المَمدوحَةَ هِيَ ما كانَت مَعَ اتِّباعِ سُنَّةِ المَحْبُوبِ، إذ مجرد محبتهم من غير اتباع لسنتهم -كَما تَزعُمُهُ الشِّيعَةُ والرَّافِضَةُ من مُحَبَّتِهِم مَعَ مُجانَبَتِهِم لِلسُّنَّةِ- لَا تُفيدُ مُدَّعيهَ شيئًا من الخير، بَل تَكونُ وَبالًا وعذابًا عَلَيهِ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ، عَلَى أنَّ هَذِهِ لَيسَت مَحَبَّةً فِي الحَقيقَةِ؛ إذ حَقيقَةُ المَحَبَّةِ المَيلُ إِلَى المَحبوبِ، وإيثارُ مَحبوباتِهِ ومُرضِيَاتِهِ عَلَى مَحبوباتِ النَّفسِ ومُرضِياتِها، والتَّأَدُّبُ بِأَخلاقِهِ وَآدابِهِ، ومِن ثَمَّ قالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجهَهُ: لَا يَجْتَمِعُ حُبِّي وبُغضُ أبي بَكرٍ وعُمَرَ. أَيْ: لأَنَّهما ضِدَّانِ وهُما لا يَجتَمِعانِ.

وأَخرَجَ الدَّارَقُطنِيُّ مَرفوعًا: «يا أبَا الحَسَنِ أمَّا أَنتَ وشِيعَتُكَ فِي الجَنَّةِ، وإنَّ قومًا يَزعُمونَ أنَّهُم يُحِبُّونَكَ يُصَغِّرُونَ الإِسلامَ ثُمَّ يَلفِظُونَهُ، يَمرُقُونَ مِنهُ كَما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَهُم نَبزٌ يُقالُ لَهُم الرَّافِضَةُ، فَإِذا أدرَكتَهُم فَقَاتلهُم فَإِنَّهُم مُشرِكُونَ». قال الدَّارَقُطنِيُّ: ولِهذا الحَديثِ عِندَنا طُرُقاتٌ كَثيرَةٌ.

تَنبيهٌ: عُلِمَ مِنَ الأَحاديثِ السَّابِقَةِ وُجوبُ مَحبَّةِ أهلِ البيتِ، وتَحريمُ بُغضِهِم التَّحريمَ الغَليظَ، وَبلُزومِ مَحبَّتِهِم، صَرَّحَ البَيهَقِيُّ والبَغَوِيُّ، بل قَالَ الشَّافِعِيُّ فيما حُكِيَ عَنهُ مِن قَولِهِ:

يَا آلَ بَيتِ رَسولِ اللَّهِ حُبُّكُمُ فَرْضٌ مِنَ اللهِ فِي القُرآنِ أَنزَلَهُ
يَكفِيكُمُ مِنْ عَظِيمِ الفَخْرِ أَنَّكُمُ مَنْ لَم يُصَلِّ عَلَيكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

أَيْ: كامِلَةً، أو صَحيحَةً، عَلَى قَولٍ مَرجوحٍ لِلشَّافِعِيّ.

وقَد وَرَدَ في فَضلِ قُرَيشٍ مُطلَقًا أحاديثُ؛ مِنها ما أخرَجَهُ الإِمامُ أحمَدُ ومُسلِمٌ عَن جابِرٍ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيشٍ في الخَيرِ والشَّرِّ». ومِنها ما أخرَجَهُ الإِمامُ أحمَدُ والتِرمِذيُّ والحاكِمُ عَن سَعدٍ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن يُرِد هَوانَ قُرَيشٍ أهانَهُ اللَّهُ».

ومِنها ما أخرَجَهُ البُخاريُّ في "الأَدَبِ" والحاكِمُ والبَيهَقِيُّ عَن أُمِّ هانِئٍ، أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيشًا بِسَبعِ خِصالٍ لَم يُعطَها أحَدٌ قَبلَهُم، ولا يُعطَها أحَدٌ بَعدَهُم؛ فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِأَنِّي مِنهُم، وأَنَّ النُّبُوَّةَ فيهِم، وأَنَّ الحِجابَةَ فيهِم، والسِّقايَةَ فيهِم، ونَصَرَهُم اللَّهُ عَلَى الفيلِ، وعَبَدُوا اللَّهَ عَشَرَ سِنينَ لا يَعبُدُهُ غَيرُهُم، وأَنزَلَ فيهِم سُورَةً مِنَ القُرآنِ لَم يُذكَر فيها

أَحَدٌ غَيرُهُم: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾».

وفي روايةٍ لِلطَّبَرانيّ: أنهم موضع سره ومعدن معارفه، تشبيهًا بالعيبة، التي هي اسم مما يحوز نفيس الأمتعة، والكرش الذي هو اسم لمستقر الغذاء الذي به النمو وقيام البنية.

وأخرج الدارقطني: قَالَ: أنَّ الْحَسَنَ جَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: انْزِلْ عَنْ مَجْلِسِ أَبِي، فَقَالَ: صَدَقْتَ إِنَّهُ لَمَجْلِسُ أَبِيكَ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ عَلِيٌّ أَمَا وَاللَّهِ مَا كَانَ عَن رَأْيِي، فَقَالَ: صَدَقْتَ وَاللَّهِ مَا اتَّهَمْتُكَ». ووقع نحو ذلك للحسن مع عمر.

فانظر يا أخي عظم محبة الصِّدِّيق وكمال توقيره لآل البيت عدم تكدره مما قاله الحسن رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد صرَّح العلماء بأنه ينبغي إكرام سكان بلده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن تحقَّق منهم ابتداع أو نحوه، رعاية لحرمة جواره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما بالك بذريته الذين هم بضعة منه، ولو كان بينهم وبينه وسائط.

وقد رُوِيَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، أنَّ الأَبَ الذي حُفظَا من أجله كرامةً له كان سابعًا أو تاسعًا.

وعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أبي طالِبٍ قال: أَتَيتُ عُمَرَ بنَ عَبدِ العَزيزِ في حاجَةٍ لي، فَقالَ لي: إذا كانَت لَكَ حاجَةٌ فَأَرسِل أَوِ اكتُب بِها، فَإِنّي أَستَحيِي مِنَ اللَّهِ أن يَراكَ عَلَى بابي.

وحُكِيَ عَن بَعضِهم قال: كُنتُ أبغضُ أشراف المَدينَةِ بَني حُسينٍ، لتظاهرهم بالرفض، فَرَأَيتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنامِ تجاهَ القَبرِ الشَّريفِ فقال: يا فلان -باسمي- ما لي أراك تبغض أولادي، فَقُلتُ: حاشا لِلَّهِ ما أكرههم وإنما كرهته ما رأيت من تعصُّبهم على أهل السنة، فقال لي مسألة فقهيَّة: أليس الولد العاق يحلق بالنسب، فقلتُ: بلى يا رسول اللَّه، فقال: هذا ولدٌ عاقٌّ، فلما انتبهت صرت لا ألقى من بني حسين أحدًا إلا بالغتُ في إكرامه.

فيَنبَغي أنَّ الفاسِق مِن أهلِ البَيتِ -وإن كانَ يُبغَضُ مِن حَيثُ فِعلُهُ- يُحب ويُحترم مِن حَيثُ قَرابَتُهُ مِنهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وجاءَ في بَعضِ الطُّرُقِ: تَحريمُ النَّارِ عَلَيهِم.

واعلَم أنَّ مقتَضى الاحتِياطِ أن تُحِبَّ وتَحتَرِمَ المَنسوبَ إلَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن طُعِنَ في نَسَبِهِ، كَما قالَهُ الشَّعرانيُّ وغَيرُهُ؛ لِاحتِمالِ بُطلانِ الطَّعنِ وصِحَّةِ النَّسَبِ فِي الواقِعِ، بل محبته واحترامه من حيث قرابته أبلغ في رعاية جانبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من محبة واحترام من لا طعن في نسبه، فافهم.

وانتِفاعُ مَن صاهَرَهُم بِمُصاهَرَتِهِم يوم القيامة، إذ بمُصاهَرَتهم مصاهرة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. صَحَّ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ عَلَى المِنبَرِ: «ما بالُ أقوامٍ يَقولونَ: إنَّ رَحِمَ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَنفَعُ يَومَ القِيامَةِ، بَل إنَّ رَحِمي مَوصولَةٌ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، وإنّي أيها الناس فَرَطٌ لَكُم عَلَى الحَوضِ».

وصَحَّ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ خَطَبَ لِنَفسِهِ أُمَّ كُلثومٍ بِنتَ فاطمة من أبيها عَلِيّ بنِ أبي طالِبٍ، فَاعتَلَّ عَلَيهِ بِصِغَرِها، وبِأَنَّهُ حابِسُها لِوَلَدِ أخيهِ جعفرٍ، فَأَلَحَّ عُمَرُ عَلَيهِ، ثُمَّ صَعِدَ المِنبَرَ فَقالَ: أَيُّها النَّاسُ، واللَّهِ ما حَمَلَني عَلَى الإلحاحِ عَلَى عَلِيٍّ في ابنَتِهِ إلَّا أَنّي سَمِعتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: «كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ وصِهرٍ ينقطع يَومَ القِيامَةِ إلَّا سَبَبي ونَسَبي وصِهري»، فأمر بها علِيّ، فزيّنت وبعث بها إليه، فَلَمَّا رآها أخَذَ بِساقِها وقالَ لَها: قُولي لِأَبيكَ قد رَضِيت، فَلَمَّا جاءَت قال لها: وما قال لك؟، فذكرت جميع ما فله وما قاله، فأنكَحها إيَّاهُ. فَولَدَت لَهُ زَيدًا ماتَ رَجُلًا.

قالَ ابنُ حَجَرٍ: وتَقبيلُها وضَمُّها عَلَى وَجهِ الإِكرامِ، لأنها لِصغرها لم تبلغ حَدًّا يُشتَهَى حتى يحرم ذلك، ولولا صغرها ما بعث بها أبوها. وقالَ ابنُ الصَّبَّاغِ: وكانَ ذلِكَ في سَنَةِ سَبعَ عَشرَةَ مِنَ الهِجرَةِ، ودَخَلَ بِها في ذِي القِعدَةِ مِنَ السَّنَةِ المَذكورَةِ، وكانَ صَداقُها أربَعِينَ أَلفَ دِرهَمٍ.

تَنبيهٌ: لَا يُنافي ما في هَذِهِ الأَحاديثِ مِن نَفعِ الاِنتِسابِ إلَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما في الأَحاديثِ الأُخَرِ مِن حَثِّهِ أهلَ بَيتِهِ عَلَى خَشيَةِ اللَّهِ تَعالَى وطاعَتِهِ، وأَنَّ القرب إليه يوم القيامة إنما هو بالتقوى، وأنه لَا يغنِي عَنهُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا كالحديث الصحيح: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، دَعا قُرَيشًا فاجتَمَعوا، فَخَصَّ وعَمَّ، وطلب منهم أن ينقذوا أنفسهم من النار. إلَى أن قالَ: يا فاطِمَةُ بِنتَ مُحمَّدٍ، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لاَ أملِكُ لَكُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا غيرَ أَنَّ لَكُم رَحِمًا سَأَبُلُّها بِبِلالِها.

وكالحديث الذي رواه أبو الشيخ: يا بني هاشم لا يأتين الناس يوم القيامة بالآخرة، يحملونها على صدورهم، وتأتوني بالدنيا على ظهوركم، لا أغني عنكم من الله شيئًا.

وكَالحَديثِ الذي رواه البُخاريّ في "الأَدَبِ المُفرَدِ": «إنَّ أوليائِيَ يوم القيامة المُتَّقونَ، وإن كان نَسَبٌ أقَرب مِن نَسَبٍ، لَا يَأتي النَّاسُ بِالأَعمالِ وتَأتونَ بِالدُّنيا تَحمِلونَها عَلَى رِقابِكُم، فَتَقولونَ: يا مُحمَّدُ، فَأَقولُ هكَذا. وأَعرض في كِلَا عِطفَيهِ».

وكَالحَديث الذي أخرجه الطَّبَرانيّ: «إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِي، وليس كذلك، إِنَّ أوليائي منهم الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا وحيث كانوا». وكَالحَديث الذي أخرجه الشَّيخَان عَن عَمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ تَعالى عَنْهُ، قالَ: سَمِعتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِهارًا غيرَ سِرٍّ يَقولُ: «إنَّ آلَ بَني فُلانٍ لَيسُوا بِأَولِيائي، إنَّما وَلِيَّ اللَّهُ وصالِحُ المُؤمِنينَ». زادَ البُخاريُّ: «ولكِن لَهُم رَحِمٌ سَأَبُلُّها بِبِلالِها».

ووَجهُ عَدَمِ المُنافاةِ كَما قالَهُ المُحِبُّ الطَّبَرِيُّ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَملِكُ لأَحَدٍ شَيئًا نَفعًا ولَا ضَرًّا، لكِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُملّكهُ نفع أقارِبِهِ، بَل جَميع أُمَّتِهِ بِالشَّفاعَةِ العامَّةِ والخاصَّةِ. فهو لا يملك إلا ما يملِّكُه له مولاه، كما أشار إليه بقوله: «غير أن لَكُم رَحِمًا سَأَبُلُّها بِبِلالِها»، وكذا معنى قوله: «لَا أُغني عَنكُم مِنَ اللَّهِ شَيئًا»، أَيْ: بمجرد نفسي من غير ما يكرمني به اللَّهُ من نحو شفاعةٍ أو مغفرةٍ.

وخاطبهم بذلك رعايةً لمقام التخويف والحث على العمل، والحرص على أن يكونوا أولى الناس حظًّا في تقوى اللَّه وخشيته، ثم أومأ إلى حق رحمه لإدخال نوع طمأنينة عليهم. وقيل: هذا قبل علمه بنفع الانتساب إليه، وبأنه شفيع في إدخال قوم الجنة بغير حساب ورفع درجات آخرين، وإخراج آخرين من النار.

نعم يستفاد من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث السابق: أوليائي منكم المتقون. وقوله: إنما وليي اللَّه وصالحو المؤمنين. أن نفع رحمه وقرابته وإن لم ينتفِ، لكن ينتفي عنهم بسبب عصيانهم ولاية اللَّه ورسوله، لكفرانهم نعمة قرب النسب إليه، بارتكابهم ما يسوءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند عرض عملهم عليه، ومن ثَمَّ يعرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمن يقول له منهم يوم القيامة: يا محمد. كما في الحديث المتقدِّم.

وقَد قالَ الحَسَنُ بنُ الحَسَنِ السِّبطِ لِبَعضِ الغُلاةِ فيهِم: وَيحَكُم! أَحِبُّونا لِلَّهِ، فَإِن أطَعنا اللَّهَ فَأَحِبُّونا، وإن عَصَينا اللَّهَ فَأبغِضُونا، وَيحَكُم! لَو كانَ اللَّهُ نافعًا بِقَرابٍ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِغَيرِ عَمَلٍ بِطاعَتِه، لَنَفَعَ مَن هُوَ أَقرَبُ إلَيهِ مِنَّا، واللَّهِ إنِّي أَخافُ أن يُضاعَفَ لِلعاصي مِنَّا العَذابُ ضِعفَينِ، وأَرجُو أن يُؤتى المُحسِنُ مِنَّا أجرَهُ مَرَّتَينِ. وَكَأَنَّهُ أخَذَ ذلِكَ مِن قَولِهِ تَعالى: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، كَذا فِي "الصَّواعِقِ". وفي "طَبَقاتِ المناويِّ" حِكايَةُ هذا الكَلامِ عَنِ الحَسَنِ السِّبطِ نَفسِهِ. وزيادة: أباه وأمه، بعد قوله: من هو أقرب إليه منا. فلعل القول تعدَّد.

واعلم أنه لا ينبغي لمنسوب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتكلّ على ما ذُكِر، لأنه إنما ثبت لمن هو في الواقع متصل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن آل بيته، ومن أين تحقق ذلك، لقيام احتمال زلل بعض النساء وكذب بعض الأصول في الانتساب، وإن كانا خلاف الظاهر، على أن المأثور عن أكابر آل البيت شدة خشيتهم من الله تعالى وعِظم خوفهم من عذابه، وكثرة تأسفهم على أدنى تقصير وقع منهم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَنَفَعَنَا بِهِمْ.

ومِنها: أنَّ وُجودَهُم أمانٌ لِأَهلِ الأرضِ، أخرَجَ جَماعَةٌ كلهم بِسَنَدٍ ضَعيفٍ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «النُّجومُ أمانٌ لِأَهلِ السَّماءِ، وأهلُ بَيتي أمانٌ لِأُمَّتي». وفي روايةٍ ضَعيفَةٍ: «أهلُ بَيتي أمانٌ لِأَهلِ الأرضِ؛ فَإِذا هَلَكَ أهلُ بَيتي جاءَ أهلَ الأرضِ مِنَ الآياتِ ما كانُوا يُوعَدُونَ». وفي أُخرى لِأَحمَدَ: «إذا ذَهَبَتِ النُّجومُ ذَهَبَ أهلُ السَّماءِ، وإذا ذَهَبَ أهلُ بَيتي ذَهَبَ أهلُ الأرضِ».

وفي روايةٍ صَحَّحَها الحاكِمُ عَلَى شَرطِ الشَّيخَينِ: «النُّجومُ أمانٌ لِأَهلِ الأرضِ مِنَ الغرَقِ، وأهلُ بَيتي أمانٌ لِأُمَّتي مِنَ الاختِلافِ». وقَد يُشيرُ إلَى هذا المَعنَى قَولُهُ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾؛ أُقيم أهل بيته مقامه في الأمان لأنهم منه وهو منهم. كَما وَرَدَ في بَعضِ الطُّرُقِ.

ومِنها: أنَّهم أوَّلَ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ، رَوى الثَّعلَبِيُّ عَن عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجهَهُ، قال: شَكَوتُ إلَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسَدَ النَّاسِ، فَقالَ لي: «أَما تَرضَى أن تَكونَ رابِعَ أربَعَةٍ؛ أَوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ أنا وأنتَ والحَسَنُ والحُسَينُ، وأزواجُنا عَن أيمانِنا وشَمائِلِنا، وذُرِّيَّتُنا خَلفَنا».

وروَى الطَّبَرانيُّ عن أبي رافع أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لِعَلِيٍّ: «أَنَا أوَّلُ أربعَةٍ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ، أنا وأنتَ والحَسَنُ والحُسَينُ، وذَرارِينا خلفَ ظهرِنا، وأزواجُنا خَلفَ ذَرارِينا، وشِيعَتُنا عَن أيمانِنا وشَمائِلِنا». قال مُوسى بنُ عَلِيّ بنِ الحُسَينِ -وكانَ فاضِلًا- عن أبيه عن جدّه: «إنما شِيعتُنا مَن أطاعَ اللَّهَ وعَمِلَ أعمَالنا».

وما يَتراءَى مِنَ التَّنافي بَينَ هاتَينِ الرِّوايَتَينِ في مَرتَبَتي الأَزواجِ والذُّرِّيَّةِ يُمكِنُ دَفعُهُ بِحَملِ بَعض كُلٍّ مِنهُما عَلَى كذا، وبعضه الآخر على كذا، واللَّهُ أعلَمُ.

وأَخرَجَ أحمَدُ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا مَعشَرَ بَني هاشِمٍ والَّذي بَعَثَني بِالحَقِ نَبِيًّا، لَو أخَذتُ بِحَلقَةِ الجَنَّةِ ما بَدَأتُ إلَّا بِكُم». ورَوَى الطَّبَرانيُّ عَن عَلِيٍّ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَوَّلُ مَن يَرِدُ عَلَيَّ الحَوضَ أهلُ بَيتي، ومَن أحَبَّني مِن أُمَّتي»، لكِن هذا ضَعيفٌ، والَّذي صَحَّ: أنَّ أوَّلَ مَن يَرِدُ عَلَيَّ الحَوضَ فُقَراءُ المُهاجِرينَ. وبِفَرضِ صِحَّةِ الأَوَّلِ يُحمَلُ عَلَى أنَّ أُولئِكَ أوَّلُ مَن يَرِدُ بَعدَ هؤُلاءِ، كَما قالَ ابنُ حَجَرٍ.

وقَد وَرَدَ هذا في حَقِّ أبي بَكرٍ أنَّهُ أوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّةَ، وكَذا في حَقِّ عُمَرَ، وقَد يُدفَعُ التَّنافي بِأَنَّ الأَوَّلَ عَلَى الحَقيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَوَّلِيَّةُ مَا عَداهُ نِسبِيَّةٌ.

ومِنها: أنَّ محَبَّتهُم تطوِّلُ العُمُرَ، وتُبَيِّض الوَجهَ يَومَ القِيامَةِ، وبِضِدِّ ذلِكَ بُغضهُم، كَما في خَبَرٍ أورَدَهُ في "الصَّواعِقِ": أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مَنْ أحبَّ أن ينسأَ -أَيْ: يُؤخَّر- أجله، وَأن يُمتَّع بِمَا خوَّله اللَّه، فليخلفني

فِي أَهلِي خلَافَة حَسَنَة، فَمن لم يخلفني فيهم بتر عمره وَورد عَليَّ يَوْم الْقِيَامَة مُسْودًّا وَجههُ.

ومِنها: أنَّهُم أشرَفُ الخَلقِ نَسَبًا؛ أخرَجَ الإِمامُ أحمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ العَبَّاسِ، أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ المِنبَرَ فَقالَ: «مَن أنا؟» قالوا: أنتَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «أنا مُحمَّدُ بنُ عَبدِ اللَّهِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، إنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلقَ، فَجعَلَني في خَيرِ خلقِهِ، وخَلَقَ القَبائِلَ فَجعَلَني في خَيرِ قَبيلَةٍ، وجَعَلَهُم بُيوتًا فَجعَلَني في خَيرِهِم بيتًا، فَأنا خَيرُكُم بَيتًا».

وأَخرَجَ أحمَدُ والمَحامِليُّ وغَيرُهُما عَن عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعالى عَنها أنَّها قالَت: قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قالَ جِبريلُ: قَلَبتُ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها؛ فَلَم أجِد رَجُلًا أفضَلَ مِن مُحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَلَبتُ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها فلَم أجِد بني أبٍ أفضَلَ مِن بَني هاشِمٍ».

ومِنها: أنَّ مَن صَنَعَ مَعَ أحَدٍ مِنهُم مَعروفًا كافَأَهُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ القِيامَةِ؛ رَوى الدَّيلَميُّ مَرفوعًا: «مَن أرادَ التَّوَسُّلَ إلَيَّ وأَن يَكونَ لَهُ عِندي يَدٌ أشفَعُ لَهُ بِها يَومَ القِيامَةِ فَلْيَصِلْ أهلَ بَيتي، ويُدخِلِ السُّرورَ عَلَيهِم».

ومِنها: أنَّ أولَاد فاطِمَةَ وذُرِّيَّتَهُم ويُسَمَّونَ أبناءَهُ وَيُنسَبُونَ إلَيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبةً صحيحةً؛ أخرَجَ الطَّبَرانيُّ مَرفوعًا: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ في صُلبِهِ، وإنَّ اللَّهَ تَعالَى جَعَلَ ذُرِّيَّتي في صُلبِ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ». وأَخرَجَ الطَّبَرانيُّ وغَيرُهُ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُلِّ بَني أُمٍّ

يَنتَمـونَ عصبَةٌ، إلَّا وَلَـدَ فاطِمَـةَ؛ فَأَنـا وَلِـيُّهُم وأنـا عُصـبَتُهُم». وفـي روايةٍ صَحيحَةٍ: «كُلُّ بَني أُنثَى عُصبَتَهُم لِأَبيهِم ما خَلا وَلَدَ فاطِمَةَ؛ فَإِنِّي أنا أَبُوهُم وعُصبَتُهُم».

وهذِهِ الخُصوصِيَّةُ لِأَولادِ فاطِمَةَ فَقَط دونَ أولاد بَقِيَّةِ بَناتِهِ؛ فَلا يُطلَقُ عَلَيه أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبٌ لهـم وأنهـم بنوهُ، كَما يُطلَقُ ذلِكَ في أولاَدِ فاطِمَةَ. نَعَم يُطلَقُ عَلَيهِم أَنَّهُم مِن ذُرّيتِهِ وَنَسلِهِ وعقبِه، وسَيَأتي لِهذا المَقامِ زِيادَةُ كَلامٍ عِندَ ذِكرِ زَينَبَ بِنتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مطلب المهدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ومِنها: أنَّ منهم مَهدِيَّ آخر الزمانِ. أخرَجَ مُسلِمٌ وأبو داودَ والنَّسائِيُّ وابـنُ ماجَـهْ والبَيهَقِـيُّ وآخـرون: «المَهـدِيُّ مِـن عِترَتـي مِـن وَلَـدِ فاطِمَـةَ». وأخرَجَ أحمَدُ وأبو داودَ والتِّرمِذيُّ وابنُ ماجَهْ: «لَو لَم يَبقَ مِنَ الدَّهرِ إلَّا يَومٌ لَبَعَثَ اللَّهُ فيه رَجُلًا مِن عِترَتي- وفي روايةٍ: رجُلاً من أهلِ بيتي- يَملؤها عَدلًا كَما مُلِئَت جَورًا». وفي روايةٍ لمن عدا الأخير: لا تذهب الدنيا ولا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي.

وفي روايةٍ لِأَبي داودَ والترمذي: «لَو لَم يَبقَ مِنَ الدُّنيا إلَّا يَومٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليَومَ حتَّى يَبعَثَ اللَّه رَجُلًا مِن أهلِ بَيتي يُواطِئُ اسمُهُ اسمي، واسمُ أبيهِ اسمَ أبي، يَملأُ الأرضَ قِسطًا وعَدلًا كَما مُلِئَت ظُلمًا وجَورًا».

وأَخرَجَ الطَّبَرانِيُّ: «المَهدِيُّ مِنَّا يُختَمُ الدِّينُ بِهِ كَما فُتِحَ بِنا». وأَخرَجَ الحاكِمُ في "صَحيحِهِ": «يَحِلُّ بِأُمَّتي في آخِرِ الزَّمانِ بَلاءٌ شَديدٌ مِن سُلطانِهِم، لَم يُسمَع بَلاءٌ أَشَدُّ مِنهُ حتَّى لا يَجِدَ الرَّجُلُ مَلجَأً، فَيَبعَثُ اللَّهُ

رَجُلًا مِن عِترَتي أهلِ بَيتي يَملأُ الأرضَ قِسطًا وعَدلًا كَما مُلِئَت ظُلمًا وجَورًا، يُحِبُّهُ ساكِنُ الأرضِ وساكِنُ السَّماءِ، وتُرسِلُ السَّماءُ مَاءَها، وتُخرِجُ الأرضُ نَباتَها، لَا يُمسِكنَ شَيئًا، يَعيشُ فيهِم سَبعَ سِنينَ أو ثَمانِيًا أو تِسعًا، يَتمَنَّى الأَحياءُ الأمواتَ مِمَّا صَنعَ اللَّهُ بِأَهلِ الأرضِ مِن خَيرِهِ».

ورَوَى الطَّبَرانيُّ والبَزَّارُ نَحوَهُ، وفيهِ: «يَمكُثُ فيهِم سَبعًا أو ثَمانِيًا، فَإِن أكثَرَ فَتِسعًا». وفي روايةٍ لِأَبي داودَ والحاكِمِ: «يَملِكُ سَبعَ سِنينَ أو تِسعًا، فَيَجِيءُ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَيَقُولُ: يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي أَعْطِنِي، قَالَ: فَيَحْثِي لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُ».

وأَخرَجَ أحمَدُ ومُسلِمٌ: «يَكونُ في آخِرِ الزَّمانِ خَليفَةٌ يَحثِي المالَ حَثيًا، وَلا يَعُدُّهُ عَدًّا». وأَخرَجَ أبو نُعَيمٍ: «لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ رُجلاً مِنْ عِتْرَتِي أَفْرَقَ الثَّنَايَا أَجْلَى الْجَبْهَةِ -أَيْ: انحَسَرَ الشَّعرُ عَن جَبهَتِهِ- يَملأُ الأرضَ عَدلًا، يَفيضُ المالَ فَيضًا». وأَخرَجَ الرُّويانِيُّ والطَّبَرانيُّ وغَيرُهُما: «المَهدِيُّ مِن وَلَدِي، وَجهُهُ كَالكَوكَبِ الدُّرِّيِّ، اللَّونُ لونُ عَرَبِيٍّ، والجِسمُ جسمُ إسرائيلِيّ -أَيْ: طَويلٌ- يَملأُ الأرضَ عَدلًا كَما مُلِئَت جَورًا، يَرضَى لِخِلافَتِهِ أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ».

ووَرَدَ أَيضًا في حِليَتِهِ أَنَّهُ شابٌّ، أكحَلُ العَينَينِ، أَزَجُّ الحاجِبَينِ، أَقنَى الأَنفِ، كَثُّ اللِّحيَةِ، عَلَى خَدِّهِ الأَيمَنِ خالٌ، وعَلَى يَدِهِ اليُمنَى خالٌ. وتَقَدَّمَ تَفسيرُ غَريبِ ذلِكَ في الكَلامِ عَلَى حِليَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأخرَجَ الطَّبَرانيُّ مَرفوعًا: «يَلْتَفِتُ المهدي وَقَدْ نَزَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَأَنَّمَا يَقْطُرُ مِنْ شَعْرِهِ الْمَاءُ، فَيَقُولُ المهدي: تَقَدَّمْ صِلِّ بِالنَّاسِ،

فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّمَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ لَكَ، فَيُصَلِّي خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ وَلَدِي». وفي "صَحيحِ ابنِ حِبَّانَ" نَحوَهُ.

وصَحَّ مَرفوعًا: «يَنزِلُ عيسَى بنُ مَريَمَ فَيَقولُ أميرُهُمُ المَهدِيُّ: تَعالَ صَلِّ بِنا، فيقولُ: لاَ؛ إِنَّمَا بَعضُكم أئِمَّةٌ عَلَى بَعضٍ؛ تَكرِمَةَ اللهِ لهذِهِ الأُمَّة».

وصَحَّ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَكونُ اختِلافٌ عِندَ مَوتِ خَليفَةٍ، فَيَخرُجُ رَجُلٌ مِن أهلِ المَدينَةِ هارِبًا إِلَى مَكَّةَ، فَيأتيهِ ناسٌ مِن أهلِ مَكَّةَ فَيُخرِجونَهُ وهُوَ كارِهٌ، فَيُبايِعونَهُ بَينَ الرُّكنِ والمَقامِ، فَيُبعَثُ إلَيهِ بَعثٌ مِنَ الشَّامِ، فَيُخسَفُ بِهِم بِالبَيداءِ بَينَ مَكَّةَ والمَدينَةِ، فَإذا رَأى النَّاسُ ذلِكَ أتاهُ أبدالُ أهلِ الشَّامِ وعَصائِبُ أهلِ العِراقِ فَيُبايِعونَهُ» الحَديثَ.

فعُلِمَ مِنهُ -ومِن أحاديثَ أُخَرَ- أنَّهُ يَخرُجُ مِنَ المَشرِقِ مِن بِلادِ الحِجازِ، والقَولُ بِأَنَّهُ يَخرُجُ مِن المَغرِبِ ال أصلَ لَهُ، كَما نَبَّهَ عَلَيهِ العَلقَميُّ. وأخرَجَ ابنُ ماجَهْ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَو لَم يَبقَ مِنَ الدُّنيا إلَّا يَومٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليَومَ حتَّى يَملِكَ رَجُلٌ مِن أهلِ بَيتي يَملِكُ جَبَلَ الدَّيلَمِ والقُسطَنطِينِيَّةَ». زِيد في رِواياتٍ: «ورُومِيَّةَ».

وأَخرَجَ أبو نُعَيمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَن تَهلِكَ أُمَّةٌ أنا أَوَّلُها، وعيسَى بنُ مَريَمَ آخِرُها، والمَهدِيُّ وسَطُها»، والمُرادُ بِالوَسَطِ: ما قَبلَ الآخِرِ.

وأَخرَجَ أحمَدُ والبَاوَرديُّ أنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أبشِرُوا بِالمَهدِيِّ، رَجُلٌ مِن قُرَيشٍ مِن عِترَتي، يُخرَجُ في اختِلافٍ مِنَ النَّاسِ وزِلزالٍ، فَيَملأُ الأرضَ قِسطًا وعَدلًا كَما مُلِئَت ظُلمًا وجَورًا، ويَرضَى عَنهُ

ساكِنُ السَّماءِ وساكِنُ الأرضِ، ويَقسِمُ المالَ بِالسَّوِيَّةِ، ويَملأُ قُلوبَ أُمَّةِ مُحمَّدٍ غِنًى، ويَسَعُهُم عَدلُهُ، حتَّى يَأمُرَ مُنادِيًا فيُنادي: مَن لَهُ حاجَةٌ إلَيَّ؟، فَما يَأتيهِ أحَدٌ إلَّا رَجُلٌ واحِدٌ يَأتيهِ فَيَسألُهُ فَيَقولُ: ائتِ السَّادِنَ حتَّى يُعطِيَكَ، فَيَأتيهِ فَيَقولُ: أنا رَسولُ المَهدِيّ إلَيكَ إليكَ أرسلني إليك لِتُعطِيَني، فَيَقولُ: احثُ، فَيَحثِي لَا يَستَطيعُ أن يَحمِلَهُ، فَيُلقِي حتَّى يَكونَ قَدرَ ما يَستَطيعُ أن يَحمِلَ، فَيَخرُجُ بِهِ، فَيَندَمُ فيَقولُ: أنا كُنتُ أجشَعَ أُمَّةِ مُحمَّدٍ نَفسًا، كُلُّهُم دُعِيَ إلَى هذا المالِ فتَرَكَهُ غيري، فَيَرُدُّ عَلَيهِ فَيَقولُ: إنَّا لَا نَقبَلُ شَيئًا أعطَيناهُ، فَيَلبَثُ في ذلِكَ سِتًّا أو سَبعًا أو ثَمانِيًا أو تِسعَ سِنينَ، ولَا خَيرَ فِي الحَياةِ بَعدَهُ».

ورَوَى أبو داودَ في "سُنَنِهِ" أَنَّهُ مِن وَلَدِ الحَسَنِ. وكَأَنَّ سِرَّهُ ترك الخلافة لله عزَّ وجلَّ شفقةً على الأُمَّة، فجعل اللَّه القائم بالخلافة الحقّ عند شدة الحاجة إليه من ولده، ليملأ الأرض عدلاً. ورواية كونه من ولد الحسين واهية.

وجاءَ في رِواياتٍ: أنَّ عِندَ ظُهورِهِ يُنادي مُنادٍ فَوقَ رَأسِهِ مَلَكٌ: هذا المَهدِيُّ خَليفَةُ اللهِ فاتَّبِعوهُ، فَيُذعِنُ لَهُ النَّاسُ، ويُشرَبُونَ حُبَّهُ. وأَنَّهُ يَملِكُ الأرضَ شَرقَها وغَربَها.

وأَنَّ الَّذينَ يُبايِعونَهُ أوَّلًا بَينَ الرُّكنِ والمَقامِ بَعدَدِ أهلِ بدر، ثم يأتيه أبدالُ الشَّامِ ونجباء مصر، وعَصائِبُ أهلِ المَشرِقِ وأشباهُهُم، ويَبعَثُ اللَّهُ إلَيهِ جَيشًا مِن خُراسانَ بِراياتٍ سودٍ، ثم يتوجَّه إلى الشام. وفي روايةٍ: إلى الكوفة. والجمع ممكن. وأن أهل الكف من أعوانه.

قال السيوطي: وحينئذ فُسِّر تأخيرهم إلى هذه المدة، إكرامهم بشرف دخولهم في هذه الأمة اهـ. أَيْ: وإعانتهم للخليفة الحق. وأن على مقدمة جيشه رجلاً من تميم خفيف اللحية، يُقالُ لَهُ: شُعَيبُ بنُ صالِحٍ، وهُوَ رَجُلٌ صالِحٌ. وأن جبريل على مقدِّمة جيشه، وميكائيل على ساقته.

وأن السفياني يبعث إليه من الشام جيشًا، فيُخسف بهم بالبيداء، فلا ينجو منهم أحد إلا المُخبِر، فيسير إليه السفياني بمن معه، ويسير إلى السفياني بمن معه، فتكون النصرة للمهدي ويذبح السفياني. وهو كما في "المسائل الظريفة" للشيخ المجدولي: رجلٌ من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان، ضخم الهامة، بوجهه أثر الجدري، وبعينه نكتة بيضاء، يخرج من ناحية الشرق، وعامة من يتبعه من كلب، يفعل الأفاعيل، ويقتل قبيلة قيس.

وأَنَّ المَهدِيّ يستخرِج تابوتَ السَّكينَةِ مِن غار أنطاكِيَّة، وأسفارَ التَّوراةِ مِن جَبَلٍ بِالشَّامِ، يُحاجُّ بِها اليَهودَ فَيُسلِمُ كَثيرٌ مِنهُم.

وأنه يكون بعد موت المهدي القحطاني، رجلٌ من أهل اليمن، يعدل في الناس، ويسير فيهم بسير المهدي، يمكث مدة ثم يُقتل.

وجاء في روايةٍ تفضيل المهدي على أبي بكر وعمر، بل على بعض الأنبياء. قال في "العَرف الوردي في أخبار المهدي": وتأويله بمثل ما أُوِّلَ به حديث: إن من وارئكم زمان صبر، للتمسك به أجر خمسين شهيدًا منكم. وحاصله أن أفضيلته من جهة زيادة صبره في شدة الفتن وزيادة الكروب، لاتفاق الروم عليه، ومحاصرة الدجال له، لا من جهة الثواب والرفعة عند اللَّه تعالى اه.

وأما حديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا، ولا الناس إلا شحًّا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس،، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم. فمُتكلَّم فيه، وعلى تقدير صحته يحمل على أن المراد لا مهدي على الإطلاق سواه، لوضعه الجزية وإهلاكه الملل المخالفة لملتنا، كما صحَّت به الأحاديث، أو لا مهدي معصومًا إلا هو.

وخبر ابن عدي: المهدي من ولد العبَّاس عمي. في إسناده وضَّاع.

وما صحَّ عن الحاكم عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: منا أهل البيت أربعة: من السفَّاح ومنا المنذر، ومنا المنصور، ومنا المهدي. المراد بأهل البيت فيه: ما يشمل جميع بني هاشم، والأخير من نسل فاطمة، فلا إشكال.

وعلى تقدير أنَّ الأربعةَ مِن وَلَدِ العَبَّاسِ يُحمَلُ المَهْدِيُّ في كلامه على ثالث خلفاء بني العباس؛ لأنَّه فيهم كَعُمَرَ بنِ عبد العزيز في بني أُمية؛ لِما أُوتِيَهُ مِن العَدلِ التَّامّ والسيرة الحَسَنةِ؛ ولأنَّه صَحَّ أَنَّ اسم المهدي يُوافِقُ اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واسم أبيه اسم أبيه، والمهدي هذا كذلك.

قال في "الصَّواعق": «لأظهرُ أنَّ خروج المهدي قبل نزول عيسى، وقيل: : بَعدَهُ. وقد تَواتَرَتِ الأخبار عنِ النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخروجه، وأنَّه من أهل بيته، وأنَّهُ يملأُ الأرض عدلًا، وأنَّه يُساعد عيسى على قتل الدَّجَّالِ بباب لُدّ بأرض فلسطين، وأنَّه يَؤُمُّ هذه الأُمَّةَ، ويُصلِّي عيسى خَلفَهُ. وأكثر الرواياتِ مُتَّفِقةٌ على تحققِ مُلْكِهِ سبعَ سِنِينَ، وَالشَّكُ

فِي الزِّيادةِ إلى تمام تسع، وفي روايةٍ تَحقُّق ستٌّ؛ كَمَا تَقدَّمَ كلُّ ذلك.

وفي بعض الآثارِ: أَنَّه يَخْرُجُ في وترٍ مِنَ السِّنِينَ، سنة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع. وأنه بعد أن تُعقَدَ لَهُ البَيعةُ بمكَّةَ، يَسير منها إلى الكوفة، ثمَّ يُفرِّقُ الجنود إلى الأمصار. وأَنَّ السَّنَةَ مِن سِنِيهِ تَكُونُ مِقدارَ عَشْرِ سِنِينَ. وأنَّه يَبْلُغُ سُلطانُهُ المَشْرِقَ والمغرب، وتَظهَرُ لَهُ الكُنوز، ولا يبقى في الأرضِ خراب إلَّا يَعْمُرُهُ.

قال مقاتل بن سليمانَ ومَن تَبِعَهُ مِنَ المُفسِّرِينَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ إنَّها نَزَلَت في المهدي اه. وجاء في روايةٍ أُخرى زيادةُ مُدَّتِهِ على ما ذُكِرَ؛ ففي رواية : أَنَّها أربعونَ سنة، وفي رواية: أنها إحدى وعشرون سنةً، وفي رواية: أنَّها أربعَ عَشْرَةَ سنة، ورُوِيَ غير ذلك أيضًا.

قال ابنُ حَجَرٍ في رسالته "القول المختصر في علامات المهدي المُنتظر": روايات «سبع سنين» أكثر وأَشْهَرُ، ويُمكنُ الجمع على تقدير صحة جميع الروايات بأنَّ ملكه متفاوتُ الظُّهور والقوَّةِ؛ فالأربعون مَثَلًا باعتبار جملة مُلكِهِ، والسَّبْعُ ونَحوُها باعتبار غاية ظهور ملكه وقوَّتِهِ، والعشرون ونحوها باعتبار الأمر الوسط اه.

وفي "الكشف" للحافظ السيوطي عن جعفر وغيره: أنَّ المهدي يقوم سنةَ مِئَتَيْنِ. وعن أبي قبيل: أنَّ النَّاسَ يجتمعون عليه سنة أربع ومئتين اه. وفي كلام المجدولي: أن ظهوره يكون في يوم عاشوراء. وقال سيدي عبد الوهَّابِ الشَّعراني في كتابه "اليواقيت والجواهر": المهديُّ مِن وَلَدِ الإمامِ حَسَنٍ العسكري، ومولده ليلة النصف من شعبان سنة خمس وخمسين

ومائتين، وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريم، هكذا أخبرني الشيخ حسن العراقي المدفون فوق كوم الريش المطل على بركةِ الرَّطلي بمصر المحروسة، عن الإمام المهدي حين اجتمع به ووافقه على ذلك سيدي علي الخوَّاصِ رَحِمَهما الله تعالى.

وقال الشَّيخُ مُحيي الدِّينِ في "الفتوحات": اعلموا أنَّه لابد من خروج المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن لا يَخْرُجُ حَتَّى تُملَأُ الأَرضُ جَورًا وظُلمًا؛ فيملؤها قسطًا وعدلًا، وهو مِن عِترةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ولد فاطمة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، جَدُّهُ الحُسَينُ بن علي بن أبي طالب، ووالده الإمام حسن العسكري ابن الإمام علي النقي -بالنُّونِ- ابن الإمام محمد التقي -بالتَّاءِ- ابن الإمام علي الرّضا ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، يُواطِئُ اسمه اسم رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُبَايِعُه المسلمون بين الركن والمَقامِ، يُشبِهُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخَلقِ -بفتح الخاء- ويَنزِلُ عنه في الخُلُقِ -بضمها- إذ لا يكون أحدٌ مِثلَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَخلاقِهِ، أَسْعَدُ النَّاسِ به أهل الكوفة، يَقسِمُ المالَ بالسَّويَّةِ، ويَعدِلُ به في الرَّعيَّةِ، يمشي الخَضِرُ بين يديه، يعيش خَمْسًا أو سبعًا أو تسعًا، يَقفُو أَثَرَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يُخطِئُ لَهُ مُلكُ يُسدِّدُه مِن حيثُ لا يراهُ، يَفْتَحُ المدينة الرُّومِيَّةَ بالتكبير مع سبعين ألفًا مِنَ المسلمين، يَشْهَدُ المَلحَمةَ العُظمى مَأدُبَةَ اللهِ بِمَرجِ عَكَّا، يَعِزُّ اللَّه به الإسلام

بعدَ ذُلِّهِ، ويُحيِيهِ بعدَ مَوتِهِ، وَيَضَعُ الجزيةَ، وَيَدْعُو إلى اللهِ بالسَّيفِ، فَمَن أَبي قُتِلَ، ومَن نازَعَهُ خُذِلَ، يَحْكُمُ بِالدِّينِ الخالص عن الرأي، ويُخالِفُ في غالب أحكامِهِ مذاهب العلماء، فَيَنقَبِضُونَ منه لذلك؛ لِظَنّهم أنَّ اللَّهَ تعالى لا يُحدثُ بعد أئمتهم مجتهدًا.

وأطال في ذكرِ وقائعه معهم، ثم قال: واعلم أنَّ المَهدِيَّ إِذا خَرَجَ يفرح به جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم، وله رجال إلهيُّونَ، يُقيمون دَعوتَهُ، ويَنصُرُونه، هم الوزراء لهُ، يَتحَمَّلُونَ أثقال المملكة عنه، ويُعينونَهُ على ما قَلَّدَهُ اللَّهُ، يَنزِلُ عليه عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالمَنارةِ البيضاء شَرقِيّ دِمَشقَ مُتَّكِئًا على مَلَكَيْنِ -مَلَكَ عن يَمِينِهِ وَمَلَك عن يساره- والنَّاسُ في صلاة العصرِ، فَيَتنحى لهُ الإمامُ مِن مَقامِهِ؛ فَيَتَقَدَّمُ فيُصَلِّي بالنَّاسِ، يَؤُمُّ النَّاسُ بسُنَّةِ سَيِّدِنا محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَكْسِرُ الصَّليب، ويَقْتُلُ الخنزير، ويقبضُ اللَّهُ إليه المهدي طاهرًا مُطهَّرًا.

وفي زمانِهِ يُقتَلُ السُّفياني عند شجرة بغُوطَةِ دِمَشْقَ، وَيُخْسَفُ بِجَيشِه في البيداء؛ فمن كان مجبورًا من ذلك الجيش مُكرَهًا يُحْشَرُ على نيته.

وقال في مَحَلَّ آخَرَ مِن "فتوحاتِه": قدِ استَوزَرَ اللَّهُ للمهدي طائفة خبَّأَهُمُ اللَّهُ تعالى له في مكنونِ غَيْبِهِ، أَطْلَعَهُم كَشفًا وشهودًا على الحقائق، وما هو أمرُ اللَّه في عباده؛ فلا يَفْعَلُ المَهْدِيُّ شيئًا إِلَّا بِمُشاوَرَتِهِم، وهم على أقدام رِجالٍ مِنَ الصَّحابةِ الَّذينَ صَدَقُوا ما عاهدوا اللَّه عليه، وهم من الأعاجم؛ ليس فيهم عربي، لكن لا يتكلمون إلا بالعربية، لهم حافظ من غير جنسهم ما عَصَى اللَّهَ قطُّ، هو أخص الوزراء.

ثم قال: وهؤلاء الوزراء لا يزيدون عن تسعة، ولا يَنقُصُونَ عن خمسة؛ لأنَّ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شك في مُدَّةِ إقامته خليفة من خمس إلى تسع؛ للشَّكَ الَّذِي وَقَعَ في وزرائِهِ؛ فلِكُلِّ وزير معه إقامة سنة؛ فإن كانوا خمسة عاش خمسًا، وإن كانوا سبعة عاش سبعًا، وإن كانوا تسعًا عاش تسعًا، ولكل سنة أحوال مخصوصةٌ وعِلمٌ يَخْتَصُّ به وزيرها، ويُقتَلُون كلُّهم إلا واحدًا في مرج عكا في المأدبة الإلهيةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تعالى مائدة للسباع والطيور والهوام، وذلك الواحد الذي يبقى لا أدري هل هو ممن استثنى اللَّه في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، أو هو يموتُ في تلك النفخة؟.

وإِنَّما شَكَكتُ في مدَّةِ إقامة المهدي إمامًا في الدُّنيا؛ لأنِّي ما طلبت مِنَ اللَّهِ تحقيق ذلك؛ أَدَبًا معَهُ تعالى أن أسأَلَهُ في شيء من ذات نفسي، ولمَّا سَلَكتُ معه هذا الأدب قيَّضَ اللَّه تعالى واحدًا من أهلِ اللَّهِ، فدخل علَيَّ، وذَكَرَ لي عدد هؤلاء الوزراء ابتداءً، وقال لي: هم تسعة، فقلت له: إن كانوا تسعةً فإنَّ بقاء المهديّ لا بد أن يكونَ تِسْعَ سِنِينَ. وأطال في بيان ذلك.

وقال في مَحَلِّ آخَرَ مِن "فتوحاتِه": إِنَّهُ يَحْكُمُ بِما ألقى إليه مَلَكُ الإلهام مِنَ الشَّريعة؛ وذلك أنَّه يُلهِمُهُ الشَّرع المحمدي؛ فَيَحْكُمُ به؛ كَما أشار إليه حديث: «المهدي يَقفُو أَثري لا يُخْطِئُ» فَعرَّفَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ مُتَّبِعٌ لا مُبْتَدِعٌ، وأنَّه معصوم في حُكمِهِ، فَعُلِمَ إِنَّه يُحرِّمُ القياس مع وجودِ النصوص الَّتِي مَنَحَهُ اللَّهُ إِيَّاها على لسانِ مَلَكِ الإلهام، بل حَرَّمَ بعض

المحققين القياس على جميع أهل اللَّه؛ ليكون رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشهودًا لهم، فإذا شَكُوا في صحة حديث أو حُكمٍ رَجَعُوا إليه في ذلك، فأَخْبَرَهم بالأمر الحق يقظةً ومُشافَهةً، وصاحب هذا المشهد لا يحتاج إلى تقليد أحدٍ مِنَ الأئمة غير رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اه.

ولا يخفى أَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِن كَونِ جَدِّهِ الحُسَينَ -مُنافٍ لِما مَرَّ مِن ترجيح روايةِ كُونِ جَدِّهِ الحَسَنَ.

وأنَّ ما ذَكَرَهُ مِن كَونِ والدِهِ حسن العسكري -مُنافٍ لِما مر في بعض الرِّواياتِ مِن كَونِ اسمِ أَبِيهِ يُواطِئُ اسْمَ أَبِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِن كَونِ المحقَّقِ في مدَّةِ إقامته إمامًا خمسَ سِنِينَ -مُنافٍ لما مر عنِ "الصَّواعق" أخذًا مِنَ الأحاديث السابقة من كون المحقق ست سنين.

وأنَّ ما ذَكَرَهُ مِن كونِه يَضَعُ الجزيةَ ويَقْتُلُ مَن لم يُسلِم -مُنافٍ لِما مرَّ من كون ذلك لعيسى. وأنَّ ما ذَكَرَهُ مِن كون عيسى هو الَّذي يُصلِّي بِالنَّاسِ حِينَ يَنزِلُ -مُنافٍ لما مرَّ مِن كون الَّذي يُصلِّي بهم حينئذ هو المهدي. ثمَّ ما ذَكَرَهُ مِن أَنَّ عيسى يَنزِلُ والنَّاسُ في صلاة العصر -مُنافٍ لما في "السيرة الحلبية" مِن أَنَّهُ يَنزِلُ والنَّاسُ في صلاة الفجر. وفيها أنَّه يتزوج بامرأةٍ مِن جُذام، قبيلة باليمن، ويُولد له ولدان؛ يُسمى أحدهما محمدًا، والآخر موسى.

وأنَّ مدَّةَ مُكثِهِ سبع سنين على ما في "مسلم".

وبها يكونُ مدَّةُ حياته في الأرض أربعين؛ لتنبيئه وهو ابن ثلاثين سنةً، ورفعه وهو ابن ثلاث وثلاثين. وأنَّه يُدفَنُ عند نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأنَّ ظُهور المهدي بعد أن يُكسَفَ القمر في أوَّلِ ليلة من رمضان، وتُكسَفُ الشَّمسُ في النّصفِ منهُ، فَإِنَّ مِثلَ ذلك لم يُوجَد منذُ خَلَقَ اللَّهُ السماوات والأرض اه. وفي "الكَشفِ" للحافظ السيوطي مِن طُرُق عديدةٍ أَنَّ عيسى يَمْكُثُ بعد نُزولِهِ أربعينَ سَنَةً.

وفي "الإعلام" له: أنَّ عيسى إنَّما يَحْكُمُ بشرع نبينا محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَما نصَّ عليه العلماء ووَرَدَت به الأحاديثُ وانعقد عليه الإجماع، وأنَّه لا يَصِحُّ أن يكون مُقلّدًا في حكمه مذهبًا مِنَ المذاهب.

ثمَّ ذَكَرَ لمعرفته الشريعة المحمدية طُرُقًا؛ منها: أَنَّهُ يُمكِنُ أَن يَفْهَمَ جميع أحكام الشريعة مِنَ القرآن من غير احتياج إلى الحديثِ كَما فَهِمَها منه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لانطوائه على جميعها وإن قَصُرَت أفهام الأُمَّةِ عن فهم ما يَفهَمُهُ صاحب النُّبُوَّةِ، ويدلُّ على فهم نبينا جميعها منه قول الشافعي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: جميع ما حَكَمَ به النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو ممَّا فَهِمَهُ مِنَ القرآنِ، ومِن ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي لَا أُحِلُّ إِلَّا ما أَحَلَّ اللَّهُ في كتابه، ولا أُحَرِّمُ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ في كتابه».

ومنها: أنَّ عيسى إذا نَزَلَ يجتمع به، فلا مانع أن يأخُذَ عنه ما يَحتاجُ إليهِ مِنَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، وكَم مِن وَلِيٍّ ثَبَتَ أَنَّهُ اجتَمَعَ بهِ يَقَظَةً؛ فعيسى أَوْلَى. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ بَعْدَ نُزُولِهِ يُوحَى إِلَيْهِ بِجِبْرِيلَ -وَحْيًا حَقِيقِيًّا-، وأَطَالَ في الاحْتِجَاجِ لِذَلِكَ، والرَّدِّ عَلَى مُنْكِرِهِ.

ويَجُوزُ أَنْ تَكُونَ طَرِيقُ مَعْرِفَتِهِ للأَحكَامِ الإلهَامَ نَظِيرَ مَا مَرَّ عَنِ ابْنِ عَرَبِيٍّ في المَهْدِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، والهادي إلى الصواب.

ولنختم هذا الكتاب بما ختمنا به كتابنا الدر النفيس، بقول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ وَحَمَّدَ وَعَظَّمَ: اللَّهُمَّ عَافِنِي في قُدْرَتِكَ، وَأَدْخلني في رَحمَتِكَ، وَاقْضِ أجَلي في طاعتك، وَاخْتِمْ لي بِخَيرِ عَمَلي، وَاجْعَلْ ثَوابَهُ الجَنَّة. اه الحديث الشريف.

وأقولُ وأنا الفقير الضعيف: قد تَمَّ هذا الشرح المنيف، المُسمَّى بـ"الفتوحات الإلهية في حل ألفاظ الأسرار الربانيَّة في مولد من وُضِع وهو مصحوبٌ بالختان" للمسكين المذنب السيد الباجوري، ذي العصيان والخطيئة، تراب أقدام مصنف هذا المولد سيدي السيد محمد عثمان الميرغني الختم، ذو الفيوضات الإلهية، المكي غوث وقته والزمان، ونسأل اللَّه من فضله وبجاه نبيه صاحب الطلعة البهية أن يختم لنا بالإسلام والإيمان.

فدونك شرحًا حوى نفائس الدرر، وجمع بفضل اللَّه أشياءً من الآثار والأخبار الغرر، نفعني اللَّه به والمسلمين، وجعله عمدة وملجأ للأفاضل المعتبرين، وحماه من كل غبي حسود، ينظر إليه بعين الازدراء والاحتقار، وينكر فضله لما عنده من الحقد والإصرار، قائلاً: إنما هو مجموع من كلام من تقدَّم أو تأخَّر من الأخبار، ولم يدرِ من غباوته بأن هذا شأنهم قديمًا وحديثًا، ولكنه اتبع نفسه الأمَّارة بالهوى، فنعوذ باللَّه من قوم لا يكادون يفقهون حديثًا، ويغفل

عن كرم ربنا الرحمن، فإنه جواد كريم كثير الجود والإحسان.

والمطلوب من وقف على هذا الشرح من الإخوان، أن ينظر له بعين الرأفة رجاءَ الغفران، وبلوغ القصد والآمال، ويدع الحسد فإنه من أسوء الأحوال، ولا ينظر إلى ما قيل ولا إلى من قال، فإن وجد فيه ما يوافق الصواب فليدعُ لي ولأشياخي والمسلمين والأحباب، بغفران الذنوب وستر العيوب، ودخول الجنة مع النبي والأصحاب، من غير توبيخ ولا مناقشة حساب، وإن وجد فيه غير ذلك فليصلحه بعد التأمل الصحيح، داعيًا بالعفو عمَّا جنيته من كل فعل قبيح.

ومن اللَّه الكريم أسأل وبنبيه العظيم أتوسل، أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكون سببًا لنجاتي يوم الهول العظيم، والفوز بجنات النعيم، والانتساب لجناب سيد الأولين والآخرين، والانتظام في سلك أهل بيته الطاهرين، والاحتساب على صاحب المولد الشريف، والفيض الرباني المنيف، وأن يخلّصني مما أنا فيه من الأكدار، وأن يمنعني من حب هذه الدار الشاغلة عن اللَّه الملك الغفَّار، وأن يمنحني الوصول بما يوصلني للاشتغال بذكر الواحد القهَّار، وأن يبعدني عما يوجب غضب الجبَّار، وأن يقرّبني لحبه وحب نبيه المختار، ولرؤية وجهه في جنة النعيم دار الأبرار، وأصحابه وأهل بيته الأطهار، والتابعين وتابع التابعين، والأنصار، والأئمة المجتهدين ومقلّديهم الأحبار.

وقد وافق تأليفه على يد مؤلفه وتصنيفه في يوم الثلاثاء آخر

الربع الأول من الشهر العاشر في العام الثامن من العشر التاسع من القرن الثالث بعد القرن العاشر [٧ شوال ١٢٨٨هـ] من هجرة مَنْ عنصره أشرف العناصر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ الأفاخر وأصحابه الطاهرين الأكابر، أي يوم الثلاثاء لسبعة خلت من شوال، سنة ثمانية وثمانين بعد المائتين بعد الألف من هجرة مَنْ له العز والمجد والشرف، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وأصحابه الذي باعدوا أنفسهم عن السرف، والحمد لله رب العالمين حمدًا يوافق نعمه ويكافئ مزيده، آمين آمين. الحاج محمود محمد جلال اقرأ له الفاتحة وادعُ له بالمغفرة غفر له آمين.

فهرس "الفتوحات الإلهية في حل ألفاظ الأسرار الربانيَّة"

